

أَسْفَلُ الْعَرْشِ

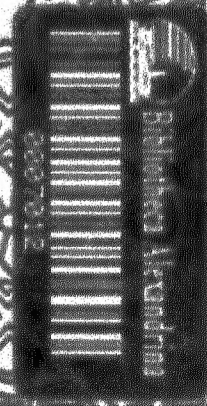
فِي الْإِسْلَامِ

تأليف

عَلِي مُحَمَّدُ الْيَاوِي

مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ الْبَرَاهِمِي

دار البحوث
بيروت



أَيْضًا الْعَرَبِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ

تَأْلِيفُ

عَلَى مُحَمَّدٍ الْجَاوِي

مُحَمَّدُ أَبُو الْفَضْلِ الْبَاهِي

دار الجيّد
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

قدّمنا إلى قراء العربية كتابنا « أيام العرب في الجاهلية » ، يلمّ أشتات تلك الأيام ، ويؤلفُ بينها ؛ فاستقبله الأدباء والمؤرخون استقبالا كريما ، وعدّوه مرجعهم الأول في تلك الأيام .

وكنا قد وعدنا في مقدمته بكتاب « أيام العرب في الإسلام » ؛ واستنجزنا بعضُ القراء وعدنا ، ورغبوا إلينا في إخراج هذا الكتاب ، حتى تم به تلك الحلقة التاريخية الأدبية التي بدأناها .

وها نحن أولاء نقدمه إليهم إنجازاً لوعدنا ، ووفاء لحقهم علينا ، وإتماماً لعملنا . وسيطعمون في هذا الكتاب أشهر أيام العرب في الإسلام ، وقد صيغت حواشيها صياغة قصصية أحكمت حلقاتها ، واتصلت أجزاءها ، ولمع أبطالها .

وفي ثناها نصوص أدبية في الذروة العليا من الأدب ، قد ضبطت كلماتها ، وشرحت ألفاظها ، وعرضت وسط حوادثها .

فهذا الكتاب تاريخ مجيد ، وقصص رائع ، وأدب رفيع .

وقد يكون من الخير للأمم العربية أن يظهر فيها هذا الكتاب في هذه الآونة التي توات فيها عليهم أحداث ، وتتابعت محن ، وخاضوا غمار حروب ، فلم يهينوا ولم يضعفوا .

وسيجدون في الأيام تاريخهم المشرق الوضاء ، وجنودهم الأجرأ الشجعان ،
وقوادهم الصناديد المحنكين .

وسيروا كيف تغلب هؤلاء على الصعاب ، وكيف فتحوا الممالك والأمصار ،
وكيف شاعت فيهم روح التضحية ، فرفعوا شأن أمتهم ، وثبتوا دعائم نهضتهم ،
وأقاموا صرح ملكهم .

لعل في هذا كله هداية ، ولعل فيه قدوة ، ولعل فيه درسا .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية من الكتاب ، نقدمها لقرائنا بعد أن هذبنا فيها ، وأصلحنا ما كان قد ندّ في الطبعة الأولى .

وقد زدنا فيها أياماً للعرب كانت غرّة في أيامهم ، ومثلاً بارزاً في جهادهم ، وعلماً على عروبتهم ونصرهم ، لنصل الماضي بالحاضر ، ونعرّف بمواقف العروبة في أيامها الخالية والحاضرة .

فنحن اليوم نعيش في ماضينا التليد ، وعلينا أن نحجي من أجدادنا ماخلده التاريخ من مآثر ، وما سجله من مفاخر ، ولهذا أضفنا إلى الكتاب فصولاً ، شملت أيام العرب مع الصليبيين وغيرهم ، مما تم به سلسلة الأيام الخالدة في تاريخ العرب والعروبة .

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه خير أمتنا العربية .

المؤلفان

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة من كتابنا « أيام العرب في الإسلام » ، نقدمها للقراء بعد أن أعدنا النظر فيه ، وزدنا في ضبطه ، وأكثرنا من شرح الألفاظ الغريبة .
ثم زدنا في فهرس الكتاب ليسهل الانتفاع به والرجوع إليه .
والكتاب - كما عرفه القراء - مرجع لأيام العرب ووقائعها وفتوحاتها في الإسلام ؛ وهو مكمل لصنوه « أيام العرب في الجاهلية » .
والله نسأل أن ينفع به الشادين في الأدب ، والمتطلعين إلى الوقوف على مجد العرب القديم وتراثهم المجيد .

المؤلفان

ربيع الأول ١٣٨٨ هـ (يونيو ١٩٦٨ م)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - يوم بدر *

قدم رسول الله من غَزْوَةِ الْمُشَيْرَةِ^(١) ، ولم يمكث بالمدينة إلا أياماً قلائل ، حتى أغار كُرُز بن جابر الفهري على سَرَحِ^(٢) المدينة ، فخرج رسول الله في طلبه ، حتى بلغ سَفْوَانَ^(٣) ، وفاته كُرُز فلم يُدْرِكْهُ^(٤) .

ثم بعث رسول الله عبد الله بن جَحْش^(٥) مع رَهْطٍ من المهاجرين ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا يفتحَه حتى يسيرَ يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ، ولا يَسْتَكْرِهَ أحداً من أصحابه .

فسار عبد الله يومين ، وفتح الكتاب ، فإذا فيه : « إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نَخْلَةَ - بين مكة والطائف - فترصد^(٦) بها قريشاً ، وتعلمَ لنا من أخبارهم » .

فلما نظر عبد الله بن جَحْش في الكتاب قال : سَمِعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله أن أمضيَ إلى نَخْلَةَ أُرصدُ بها قريشاً حتى آتِيَهُ منهم بحَبْرٍ ؛

* سيرة ابن هشام : ٢ - ٢٣٨ ، تاريخ الطبري : ٢/٢٦٧ . وكان ذلك اليوم في السنة الثانية من الهجرة ، وبدر : ماء مشهور ، بين مكة والمدينة بينه وبين البحر إيلة .

(١) قبل هذا اليوم غزوة ودان (قرية جامعة بين مكة والمدينة) ، وتسمى أيضاً غزوة الأبواء ، وقد خرج فيها النبي يريد قريشاً وبني ضمرة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، ثم رجع النبي إلى المدينة ولم يلق حرباً . ثم غزوة العشيرة (بطن ينبع) ، وقد خرج لغزو قريش ، ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً . (٢) السرح : المال السام .

(٣) سفوان : واد من ناحية الحجاز . (٤) هذه غزوة بدر الأولى . (٥) هذه سرية عبد الله بن جحش . (٦) رصده : ترقبه .

وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فليَنطَلِقْ ، ومن كره ذلك فليَرْجِعْ ، فأما أنا فاضِرٌ لأمرِ رسول الله .

فضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد ، وسَلَّكَ على طريق الحجاز ، حتى إذا كان بيمض الطريق أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوانَ بميراً لهما كانا يَعْتَقِبَانِهِ (١) ، فتخلفا في طلبه .

ومضى عبدُ الله بن جَحْش وبقيةُ أصحابه حتى نزل نخلة ، فرَّت عليه عيرُ (٢) لقريش فيها عمرو بن الحضرمي .

فلما رآهم القومُ قد نزلوا قريباً منهم هابوهم ؛ وتشاورَ أصحابُ النبي في الأمر ، وقالوا : لَئِنْ تَرَكَنَا القومَ هذه الليلةَ ليدخلنَّ الحَرَمَ ، ولِيَتَنَمَنَّأَ به منكم ؛ ولئن قتلناهم لنقتلنَّهم في الشهر الحرام . وتردّدوا وهابوا الإقدام عليهم ، ثم شَجَعُوا أنفسهم ، وأجمعوا على قتلٍ مِنْ قَدَرُوا على قَتْلِهِ منهم ، وأخذ ما معهم . وقتلوا عمرو بن الحضرمي ، وأسروا أسيرين (٣) .

وأقبل عبدُ الله بن جَحْش وأصحابه بالعبير وبالأسيرين حتى قَدِمُوا على رسولِ الله بالمدينة ؛ فلما رآهم النبي قال : ما أَمَرُكُمْ بقتالٍ في الشهر الحرام .

فلما سمعوا مقالةَ النبي سَقَطَ في أيديهم ، وظنُّوا أنهم قد هلكوا ، وعَنَّفَهم إخوانُهم من المسلمين فيما صنعوا ؛ وقالت قُرَيْش : قد استحلَّ محمدٌ وأصحابه الشهرَ الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا الرجال . وأكثرَ الناسُ في ذلك ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ على رسوله : ﴿ (٤) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .

(١) يعتقبانه : يتماقبانه في الزكوب واحداً فواحداً . (٢) العير : الإبل والدواب

التي كانوا يركبونها في التجارة . (٣) ما عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان .

(٤) سورة البقرة : ٢١٧ .

قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالسَّجْدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ^(١) وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا .

فلما أنزل الله فيهم هذا القرآن ، وفرَّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف قبض رسول الله العير والأسيرين .

وبعث إليه قريش في فداء أسيريهما ، فقال الرسول : لا نفديكموها حتى يقدم صاحبانا ^(٢) ، فإننا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم . وقدم صاحباً الرسول ، فقبل رسول الله الفداء .

ثم إن رسول الله سمع بأبي سفيان بن حرب مقيلاً من الشام في عيرٍ عظيمة لقريش ، فيها أموال وتجارة ؛ فندب ^(٣) المسلمين إليها ، وقال : هذه عير لقريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها . فانتدب الناس ^(٤) .

وكان أبو سفيان ، حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الرُّكبان ؛ تخوفاً على أموال قريش ، حتى أصاب خبراً من بعض الناس ؛ أن محمداً قد استنفر أصحابه له ولعيره ^(٥) ؛ فحذر عند ذلك ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري ؛ وبمته إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض له في أصحابه . فخرج ضمضم مسرعاً إلى مكة .

هذا ما كان من أبي سفيان ، أما في مكة فقد كان حديث الناس فيها يتصل

(١) أى إن قتلت في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام . وإخراجكم منه أكبر عند الله من قتل من قتلت . (٢) هما سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، وهما اللذان أضلعا بغيرهما . (٣) ندبه إلى الأمر : دعاه وحثه ووجهه . (٤) انتدب الناس : أجابوا وأسرعوا . (٥) الاستنفر : الاستنصار ، أى طلب منهم الخروج لأبي سفيان وعيره .

بالمير بسبب آخر ؛ فقد رأت عائكة بنت عبد المطلب - قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال - رؤيا أفزعتهما ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب ، فقالت له : يا أخي ؛ إنى رأيت الليلة رؤيا تخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومُصيبة ، فآتكم عنى ما أهدئكم به . قال لها : وما رأيت ؟ قالت : رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح^(١) ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا لمصارعكم في ثلاث ! فأرى الناس اجتمعوا له . ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل^(٢) به بعيره على رأس أبي قبيس^(٣) . فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت^(٤) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلققة^(٥) .

قال العباس : والله إن هذه لرؤيا ! وأنتِ فاكثميهما ، ولا تدكرها لأحد . ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة - وكان صديقاً له - فذكرها له ، واستكتمه إياها ، ولكن الوليد ذكرها لأبيه عتبة ، ففشا الحديث بمكة ؛ وتحدثت به قريش في أنديةها .

وعند العباس بن عبد المطلب يطوف بالبيت ؛ وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قموذ يتحدثون بروياً عائكة ، فلما رآه أبو جهل قال : يا أبا الفضل ؛ إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم ، فقال : يا بني عبد المطلب ، متى حدثت فيكم هذه النبئة ؟ قال العباس : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التي رأت عائكة . قال : وما رأيت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ؛ أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تنبأ نساؤكم ! لقد زعمت عائكة في رؤياها أن راكباً أقبل إلى مكة فقال : اندروا في

(١) الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، وأبطح مكة : مسيل واديها . (٢) مثل به : قام منتصباً . (٣) أبو قبيس : جبل بمكة . (٤) ارفضت : تفتت . (٥) فلققة : قطعة .

ثلاث ! فسنتربصُ بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض
الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت
في العرب .

فلم يكن من العباس إليه شيء ، إلا أنه جحد ذلك ، وأنكر أن تكون قد رأت
شيئاً . ثم تفرقوا . وفي المساء لم يبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس ،
فقلن : أقررتم لهذا الفاسق الخبيث^(١) أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء
وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ! فقال : قد فعلت ، وإيم الله
لأنترضنَّ له ، فإن عاد لأقتصنَّ .

وغدا العباس في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وهو مُنضب ، ودخل المسجد
فرأى أبا جهل ، ومشى نحوه يتعريضه ليمودَّ لبعض ما قال فيقع به ، فإذا به يخرج
نحو باب المسجد يشتد^(٢) ، فقال في نفسه : أكل هذا فرقاً^(٣) مني !

ولم يكن فرعا منه ، ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه ، ذلك صوت ضَمضم
الفقاري وهو يصرخ ببطن الوادي ، واقفاً على بيمره ، قد حول رَحله ، وشقَّ قِيَمه ،
وهو يقول : يا معشر قريش ؛ اللطيمة اللطيمة^(٤) ! أموالكم مع أبي سُفْيَان ، قد
عرَض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تُدرِكوها ! القوث القوث !

وشغل الناس بما جاء به ضَمضم الفقاري ، وتجهزوا سِرَاعاً ، وقالوا : أيلنُ محمد
وأصحابه أنها عيرُ ابن الحضرمي^(٥) كلا ! ليملنَّ غير ذلك .

وكانوا بين رجلين : إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلاً . وأوعبت^(٦) قريش ،
فلم يتخلف من أسرافها أحد ، إلا أن أبا هب تخلف وبعث مكانه العاص بن هشام

(١) يردن أبا جهل . (٢) يشتد : يمدو ويسرع . (٣) فرقاً : خوفاً .
(٤) اللطيمة : العير تحمل المسك . (٥) من التي خرج إليها عبد الله بن جحش في سريره كما تقدم
في هامش صفحة ٧ . (٦) أوعب القوم : خرجوا كلهم للقزو .

ابن المغيرة ، وكان قد لاط^(١) له أربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يكون عنه في هذا البعث .

ولما فرغت قريش من جهازهم ، وأجمعوا المسير ، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب^(٢) ، فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا ! وكاد ذلك يثنيهم ؛ فتبدى لهم سُرّاقة بن مالك — من أشراف كنانة — فقال لهم : أنا لكم جارٌّ من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ؛ فخرجوا سِرّاعاً .

وخرج رسولُ الله في أصحابه وأمامه رايتان : إحداهما مع عليّ في المهاجرين ، والأخرى مع سَمْد بن مُعَاذ في الأنصار .
وكانت الإبلُ سبعين ، فاعتقبوها^(٣) ؛ وسار النبيُّ في طريقه إلى مكة ، حتى إذا

(١) لاط ، أى ألصق به أربعة آلاف .

(٢) كان سبب الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر أن ابناً لحفص بن الأخيف القرشي خرج يبتغي ضالة له بضجتان ، وهو غلام حدث في رأسه ذؤابة ، وعليه حلة له ، وكان غلاماً وضيئاً نطيفاً ، ومر بعامر بن يزيد بن الملوح سيد بكر ، فراه فأعجبه ، فقال له : من أنت يا غلام ؟ قال : أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي . وولى الغلام . فقال عامر بن يزيد : يا بني بكر ، أما لكم في قريش دم ؟ قالوا : بلى ، والله إن أنا فيها لدمنا . قال : ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برجله إلا كان قد استوفى دمه . فنبهه رجل من بني بكر فقتله بدم كان له في قريش .

فتكلمت فيه قريش ، فقال عامر بن يزيد : يا معشر قريش ، قد كانت لنا فيكم دماء ، فإن شقتم فأدوا ما لنا قبلكم ونؤدى ما لكم قبانا . وإن شقتم فأئما هي الدماء رجل برجل ، فتجافوا عما لكم قبانا وتجانى عما لنا قبلكم . فهان ذلك الغلام على هذا الحى من قريش ، وقالوا : صدق ! رجل برجل . ولها عنه ولم يطلبوا به .

وبينما كان أخو هذا الغلام — وهو مكرز بن حفص — يسير يمر الظهران رأى عامر بن يزيد على جبل له ، فأقبل عليه حتى أنانح به ، وعامر متوشع بسيفه ، فعلاه مكرز بالسيف حتى قتله ، ثم خاض بطنه بسيفه ، وأتى بالسيف إلى مكة ، وعلقه في أستار الكعبة . فلما أصبحت قريش رأت سيف عامر . فعرفوه ، وقالوا : إن هذا سيف عامر عدا عليه مكرز بن حفص فقتله .

وبينما هم في حريهم حجاز الإسلام بين الناس فتشاغلوا به ، حتى إذا أجمعت قريش المسير إلى بدر ذكروا الذي بينهم وبين بني بكر . . .

(٣) اعتقبوها ، أى ركبوها واحداً بعد الآخر .

كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء الجهنين إلى بدرٍ يتحسّسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وغيره .

وسار حتى نزل وادي الذفران^(١) ، وهناك أتاه الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمدوا غيرهم ؛ فاستشار الناس وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر فقال وأحسن . ثم قام عمرُ بن الخطاب فقال وأحسن . ثم قام المقدادُ بن عمرو فقال : يا رسول الله ؛ امض لما أراك الله فنحنُ معك ، والله لا نقولُ لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ أَذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾^(٢) . ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إِنَّا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرتَ بنا إلى بركِ الغمادِ^(٣) لجالدنا^(٤) معك مِنْ دُونِهِ حتى تبلغه . فقال له رسولُ الله خيراً ، ودعا له . ثم قال رسول الله : أشيروا عليَّ أيها الناس - وإنما يريد الأنصار^(٥) .

فقال سعدُ بن مُعاذ : والله لكأنَّكَ تريدُنا يا رسول الله ! قال : أجل . قال : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئتَ به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أَرَدْتَ ، فنحنُ معك ؛ فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحرَ لخضناه معك ، ما تخلف منا رجلٌ واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إِنَّا لصُبرٌ في الحرب ، صدقٌ في اللقاء ، ولعلَّ الله يريك منا ما تقرُّ به عينك ؛ فسير بنا على بركة الله .

(١) الذفران : واد قرب وادي الصفراء . (٢) سورة المائدة : ٢٣ . (٣) برك الغماد : مثلة الفين : موضع ، أو هو أقصى معبر الأرض . (٤) جالدنا : جاهدنا . (٥) وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا ، فنعلمك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن دمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم .

فَسُرَّ رَسُولُ اللَّهِ بِقَوْلِ سَعْدٍ ، وَلَشَطَهُ ذَلِكَ ثُمَّ قَالَ : سِيرُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ، وَاللَّهُ لَسَكَّاتِي الْآنَ أَنْظِرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ .
ثُمَّ ارْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ ذِفْرَانِ حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنْ بَدْرٍ ، وَرَكِبَ هُوَ وَرَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَسَارَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى شَيْخٍ مِنَ الْعَرَبِ ، فَسَأَلَهُ عَنْ قُرَيْشٍ وَعَنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ ، وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُمْ ، فَقَالَ الشَّيْخُ : لَا أَخْبِرُكُمْ حَتَّى تُخْبِرَانِي مَنْ أَنْتُمَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : إِذَا أَخْبَرْتَنَا أَخْبَرْنَاكَ . قَالَ : أَوَذَلِكَ بِذَاكَ ! قَالَ : نَعَمْ . قَالَ الشَّيْخُ : فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنْ كَانَ صَدَقَ الَّذِي أَخْبَرَنِي فَهَمَ الْيَوْمَ بِمَكَانٍ كَذَا وَكَذَا — لِمَكَانٍ الَّذِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ — وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ قَرِيبَهُمَا خَرَجُوا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ؛ فَإِنْ كَانَ الَّذِي أَخْبَرَنِي صَدَقَنِي فَهَمَ الْيَوْمَ بِمَكَانٍ كَذَا — لِمَكَانٍ الَّذِي بِهِ قُرَيْشٌ . فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَبَرِهِ قَالَ : مِمَّنْ أَنْتُمَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : نَحْنُ مِنْ مَاءٍ . ثُمَّ انصَرَفَ عَنْهُ .

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَلَمَّا أَمْسَى بَعَثَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، وَالزُّبَيْرَ بْنَ الْعَوَّامِ ، وَسَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ ، فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ إِلَى مَاءِ بَدْرٍ يَلْتَمِسُونَ الْخَبَرَ عَلَيْهِ ، فَأَصَابُوا رَاوِيَةً^(١) لِقُرَيْشٍ ، فِيهَا أَسْلَمٌ — غُلَامٌ بَنَى الْحِجَّاجَ — وَعَرِيضٌ أَبُو يَسَارٍ — غُلَامٌ بَنَى الْعَاصِ بْنِ سَمِيدٍ — فَأَتَوْا بِهِمَا ، وَسَأَلُوهُمَا ، وَرَسُولُ اللَّهِ قَائِمٌ يَصْلِي ، فَقَالَا : نَحْنُ سُقَاةُ قُرَيْشٍ ، بَعَثُونَا نَسْقِيَهُمْ مِنَ الْمَاءِ . فَكَرِهَ الْقَوْمُ خَبَرَهُمَا ، وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَا لِأَبِي سَمِيَّانٍ ، فَضَرَبُوهُمَا ، فَلَمَّا أَذْلَقُوهُمَا^(٢) قَالَا : نَحْنُ لِأَبِي سَمِيَّانٍ ؛ فَتَرَكُوهُمَا . وَرَكِعَ رَسُولُ اللَّهِ وَسَجَّدَ سَجْدَتَيْنِ ، ثُمَّ سَلَّمَ وَقَالَ : إِذَا صَدَقَاكُمْ ضَرَبْتُمُوهُمَا ، وَإِذَا كَذَبَاكُمْ تَرَكْتُمُوهُمَا ! صَدَقَا وَاللَّهِ ، إِنَّهُمَا لِقُرَيْشٍ ؛ أَخْبَرَانِي عَنْ قُرَيْشٍ ؛ قَالَا : هُمُ وَاللَّهِ وَرَاءَ هَذَا الْكَثِيبِ الَّذِي تَرَى بِالْمُدَوَّةِ الْقُسْوَى^(٣) .

(١) الراوية : البعير أو البغل أو الحمار يستقى عليه . (٢) أذلقوهم : بالنفوي ضربهما واضمروهما . (٣) مدوة الوادي : شاطئه .

فقال لها رسول الله : كم القوم ؟ قالوا : كثير . قال : ما عدّتهم ؟ قالوا : لا ندرى . قال : كم يَنْحَرُونَ كلَّ يوم ؟ قالوا : يوماً تسعا ويوماً عشرة . فقال رسول الله : القومُ فيما بين التسمائة والألف . ثم قال لها : فَمَنْ فِيهِمْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ؟ قالوا : عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ بْنُ هِشَامٍ ، وَعَدَدًا كَثِيرًا مِنْ رَجَالِ قُرَيْشٍ .

فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : هَذِهِ مَكَّةُ قَدْ أَقَلَّتْ إِلَيْكُمْ أَفْلَاحُ^(١) كَيْدِهَا .

وَمَضَى بِسُبُسِ بْنِ عَمْرِو وَعَسْدِيِّ بْنِ أَبِي الزَّعْبَاءِ حَتَّى نَزَلَا بَدْرًا ، فَأَنَاخَا إِلَى تَلٍّ قَرِيبٍ مِنَ الْمَاءِ ، ثُمَّ أَخَذَا شَنًّا^(٢) لَهَا يَسْتَقِيَانِ فِيهِ ، فَسَمِعَا جَارَتَيْنِ مِنْ جَوَارِي الْحَاضِرِ^(٣) ، وَهِيَ تَتَلَاذَمَانِ^(٤) ، وَالْمُزَوِّمَةُ تَقُولُ لِمُصَاحِبَتِهَا : إِنَّمَا تَأْتِي الْعِيرُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ ، فَأَعْمَلْ لَهَا ، ثُمَّ أَقْضِيكِ الَّذِي لَكَ . فَرَكَبَا بِعِيرِهِمَا ، ثُمَّ انْطَلَقَا حَتَّى أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخْبَرَاهُ بِمَا سَمِعَا .

وَأَقْبَلَ أَبُو سَفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ يَتَقَدَّمُ الْعِيرَ حَذِرًا ، حَتَّى وَرَدَ الْمَاءَ ، فَرَأَى رَجُلًا ، فَقَالَ لَهُ : هَلْ أَحْسَسْتَ أَحَدًا ؟ فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَنْكِرُهُ ، إِلَّا أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَاكِبِينَ قَدْ أَنَاخَا إِلَى هَذَا التَّلِّ ، ثُمَّ اسْتَقِيَا فِي شَنْ لَهَا ، ثُمَّ انْطَلَقَا . فَأَتَى أَبُو سَفْيَانَ مُنَاخَهُمَا^(٥) فَأَخَذَ مِنْ أَعْيُنِ بَعِيرِهِمَا فَفَتَّهَ ، فَإِذَا فِيهِ النَّوَى ، فَقَالَ : هَذِهِ عَلَافِيَتُ^(٦) يَتْرَبُ^(٧) . وَرَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ سَرِيعًا فَضَرَبَ وَجْهَ عِيرِهِ عَنِ الطَّرِيقِ ،

(١) الأفلاخ : جمع فلذة : القطعة . (٢) الشن : القرية الخلق الصغيرة .

(٣) الحاضر : القوم النازلون على الماء . (٤) تتلازمان : تتماصكان .

(٥) مناخهما : المكان الذي أناخا فيه بعيرهما . (٦) يريد ما يعلفه أهل المدينة ولا يرسلونه للرعى ، فهو جم علوفة .

(٧) يترب : اسم من أسماء المدينة .

فَسَاحِلَ^(١) بِهَا ، وَتَرَكَ بَذْرًا يَسَارًا ، وَانْطَلَقَ مُسْرِعًا .

وَأَقْبَلَتْ قَرِيشٌ حَتَّى نَزَلُوا الْجَحْفَةَ^(٢) ؛ وَلَمَّا أَيْ أَبُو سَفِيَّانٍ أَنَّهُ قَدْ أَخْرَزَ عِيْرَهُ
أَرْسَلَ إِلَى قَرِيشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيْرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ،
وَقَدْ نَجَّوْنَا بِهَا ، فَارْجِعُوا .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ : وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَّ بَذْرًا^(٣) ، فَتَقِيمُ عَلَيْهِ
ثَلَاثًا ، فَتَنْخَرُ الْجُزُرُ ، وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَنَسْقِي الْخَمْرَ ، وَتَعْرِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانَ ، وَتَسْمَعُ بِنَا
الْعَرَبُ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بِمَدْعَاهَا ؛ فَامْضُوا .

فَقَالَ الْأَخْنَسُ بْنُ شَرِيقٍ^(٤) : يَا بَنِي زُهْرَةَ ، قَدْ نَجَّى اللَّهُ لَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ،
وَوَخَّلَصَ لَكُمْ صَاحِبَكُمْ - خَزْرَمَةَ بْنَ ثَوْقَلٍ - وَإِنَّمَا نَفَرْتُمْ لَتَمْنَعُوهُ وَمَالَهُ ، فَاجْعَلُوا بِي
جُبْنَهَا ، وَارْجِعُوا ، فَإِنَّهُ لَا حَاجَةَ لَكُمْ بِأَنْ تَخْرُجُوا فِي غَيْرِ ضَمِيمَةٍ^(٥) ، لَا مَا يَقُولُ
هَذَا - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ . فَارْجِعُوا ، وَلَمْ يَشْهَدْهَا زُهَيْرٌ وَاحِدٌ .

وَمَضَتْ قَرِيشٌ حَتَّى نَزَلُوا بِالْمُدَوَّةِ^(٦) الْقُصْوَى مِنَ الْوَادِي ، وَكَانَ الْوَادِي
دَهْسًا^(٧) ؛ وَبِمَثِ اللَّهِ السَّمَاءَ ، فَأَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ وَأَصْحَابَهُ مِنْهَا مَاءٌ لَبَدًا الْأَرْضِ ،
وَلَمْ يَنْمَعَهُمْ عَنِ السَّيْرِ ، وَأَصَابَ قَرِيشًا مِنْهَا مَاءٌ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَنْ يَرْتَحِلُوا مَعَهُ .

وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ يُبَادِرُهُمْ إِلَى الْمَاءِ ، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَذْنَى مَاءٍ مِنْ بَذْرِ نَزَلَ بِهِ ،
فَقَالَ الْحَبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَأَيْتَ هَذَا الْمَنْزِلَ ؟ أَمِنْ لَّا أَنْزَلَكَ اللَّهُ

(١) ساحل ؛ أى أتى بالعير ساحل البحر . (٢) الجحفة : موضع بين مكة والمدينة .
(٣) كان بدر موسماً من مواسم العرب يجتمع لهم به سوق كل عام . (٤) كان حليفاً لبني
زُهرة ، وكان فيهم مطاعاً . (٥) الضميمة : المعاش والتجارة . (٦) المدوة : الشاطئ .
(٧) الدهس : الأرض السهلة يشغل فيها المشى .

ليس لينا أن نتقدمه ولا نتأخر ، أم هو الرأى والحربُ والسكيدة ! قال : بل هو الرأى والحربُ والسكيدة . قال : يارسولَ الله ، فإنَّ هذا ليس بمنزل ، فانهضْ بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُعورَ ماوراءه من القلب^(١) ، ونَبْئى عليه حوضاً فذملوه ماء ، ثم نقابلُ القومَ فنشرب ولا يشربون .

فقال رسولُ الله : لقد أشرتَ بالرأى . وانهضْ مَنْ معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلبِ فعُورَتْ ، وبني حوضاً على القليب الذى نزل عليه فملى ماء .

ثم قال سعدُ بن معاذ : يا نبيَّ الله ؛ ألا تبئى لك عريشاً^(٢) تكونُ فيه ، ونمِدَّ عندك ركائبك ثم نأتى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا ؛ فقد تخلف عنك أقوام — يا نبيَّ الله — مانحن بأشدَّ لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلتقى حرباً ماتخلفوا عنك ؛ يمتنعك الله بهم ، يناصحونك ويجاهدون معك . فأئسنى عليه النبيُّ ودعا له بخير . ثم بُئى لرسول الله عريش فكان فيه .

ولما اطمانت قريش في مقامها بعثوا عُمَيْرَ بن وهب وقالوا له : اخزر^(٣) لنا أصحابَ محمد . فجال^(٤) بفرسه حولَ العسكر ، ثم رجع إليهم ، فقال : ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر : اللقومَ كمين أو مددٌ ؟ فضرب في الوادى حتى أبعد فلم ير شيئاً ، فرجع إليهم وقال : ما وجدت شيئاً ، ولكنى قد رأيتُ ، يامعشر قريش ، البلاء^(٥) تحمِلُ المنايا ، نواضح^(٦)

(١) نعورها ، أى ندفئها ونسد عيونها التى ينبع منها الماء ، والقلب : جمع قليب ؛ وهو البئر .

(٢) العريش : الحيمة ، أو البيت الذى يستظل به . (٣) الخزر : التقدير . (٤) جال : طاف .

(٥) البلاء : جمع بلية ، ومى النافقة التى أبلاها السفر . (٦) النواضح : الإبل التى يستقى

عليها ، واحدها ناضح .

يُثْرِبَ تَحْمِلُ الْمَوْتَ النَّاقِعَ^(١)، قَوْمٌ لَيْسَ مَعَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا مَلْجَأٌ إِلَّا سَيُوفُهُمْ، وَاللَّهُ مَا أَرَى أَنْ يُقْتَلَ رَجُلٌ مِنْهُمْ حَتَّى يَقْتُلَ رَجُلًا مِنْكُمْ؛ فَإِذَا أَصَابُوا مِنْكُمْ أَعْدَاءَهُمْ فَمَا خَيْرُ الْمَيْسِرِ بِمَدِّ ذَلِكَ! فَارَوَا رَأْيَكُمْ.

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ مَشَى فِي النَّاسِ حَتَّى أَتَى عُثْبَةَ بْنَ رَيْمَةَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْوَلِيدِ؛ إِنَّكَ كَبِيرٌ قَرِيشٍ وَسَيِّدُهَا وَالْمَطَاغُ فِيهَا، فَهَلْ لَكَ إِلَى خَيْرٍ تُدْكَرُ بِهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكَ يَا حَكِيمُ؟ قَالَ: تَرْجِعُ بِالنَّاسِ وَتَحْمِلُ أَمْرَ حَلِيفَتِكَ عَمْرُو بْنِ الْحَضْرَمِيِّ^(٢). قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ. أَنْتَ عَلَىٰ بِذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ حَالِيفِي فَمَعْلَىٰ عَقْلِهِ^(٣) وَمَا أُصِيبَ مِنْ مَالِهِ. فَأَتَى أَبَا جَهْلٍ، فَأَخْبَشَىٰ عَلَىٰ أَمْرِ النَّاسِ مِنْهُ. ثُمَّ قَامَ عُثْبَةُ بْنُ رَيْمَةَ خَطِيبًا، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشٍ؛ إِنَّكُمْ وَاللَّهِ مَا تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلْقَوْا مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ شَيْئًا، وَاللَّهِ لَئِنْ أَصْبَحْتُمُوهُ لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَنْظُرُ فِي وَجْهِهِ رَجُلٍ يَكْرَهُ النَّظَرَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَتَلَ ابْنَ عَمِّهِ أَوْ ابْنَ خَالِهِ، أَوْ رَجُلًا مِنْ عَشِيرَتِهِ، فَارْجِعُوا وَخَلَّوْا بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَسَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ أَصَابُوا فِذَاكَ الَّذِي أَرَدْتُمْ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ أَلْفَاكُمْ قَدْ سَأَلْتُمُوهُ.

وَانْطَلَقَ حَكِيمُ يَوْمَ^(٤) أَبَا جَهْلٍ، فَرَجَدَهُ قَدْ نَثَلَ^(٥) دِرْعَالَهُ مِنْ جِرَازِهَا فَهُوَ يَهَيْئُهَا، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَمِ؛ إِنَّ عُثْبَةَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِكَذَا وَكَذَا... فَقَالَ: انْتَفَعِ وَاللَّهِ سَخِرُهُ^(٦) حَسِينَ رَأَى مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ! كَلَّا وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، وَمَا بِعُثْبَةَ مَا قَالُ، وَلَسَكُنَّ قَدْ رَأَى أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ أَكَاةُ جَزُورٍ^(٧) وَفِيهِمْ ابْنُهُ، فَتَخَوَّفَكُمْ عَلَيْهِ.

(١) موت نايم : دائم . (٢) هو الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش .

(٣) العقل : الدبة . (٤) يوم : يقصد . (٥) نثل درعا : ألقاها عنه ، وأخرجها

(٦) السحر : الرنه وما حولها ، وهو كناية عن شدة الخوف وتمكن الفرع .

(٧) أي تددم مال .

ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت كئاراك بعينك ، فقم فانشد خفرتك^(١) ومقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي فصرخ : وأعمراه ! فحميت الحرب ، وحب^(٢) أمر الناس ، واستوسقوا^(٣) على مام عليه من الشر ، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .

فلما بلغ عتبة قول أبي جهل : انتفخ والله سحره - قال : سيملم من انتفخ سحره ، أنا أم هو !

ثم خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي - وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق - فقال : أعاهد الله لأمرين من حوضهم ، أو لأهدمته ، أو لأموتنّ دونه .

ولما رآه المسلمون خرج إليه حمزة بن عبد المطاب ، فلما التقيا ضربه حمزة فأتى^(٤) قدمه بنصف ساقه ، وهو دون الحوض ، فوقع على ظهره تشخب^(٥) رجله دماً ، ثم جأ إلى الحوض حتى اقتحم فيه ، يريد أن يُبهر^(٦) يمينه ، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة بن أخيه شيبه ، وابنه الوليد ، حتى إذا فصل^(٧) من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قال : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناد : يا محمد ، أخرج إلينا أكتفاءنا من قومنا . فقال رسول الله : قم يا عبدة بن الحارث ، قم يا علي .

(١) خفرتك ، أي عهدك . (٢) حب أمر الناس : اشتد . (٣) استوسقوا : اجتمعوا .

(٤) أطن قدمه : قطعها . (٥) تشخب : تسيل . (٦) أبر يمينه : أمضاها على الصدق .

(٧) فصل من الصف : خرج منه .

فلما قاموا وذنّبوا منهم قالوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قال عُبيدة : أنا عُبيدة . وقال حمزة : أنا حمزة . وقال عليّ : أنا عليّ . فقالوا : نعم ، أَكْفَأُ كِرَام .
وبارز عُبيدة — وكان أسنّ القوم — عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبه بن ربيعة ، وبارز عليّ الوليد بن عتبة .

فأما حمزة فلم يُمهّل شيبه أَنْ يقتله ، وأما عليّ فلم يمهل الوليد أَنْ يقتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت^(١) صاحبه . وكرّ حمزة وعليّ بأسيا فهما على عتبة ، فدوّعا^(٢) عايه ، واحتملا صاحبهما عُبيدة فجاء به إلى أصحابه ، وقد قُطعت رِجله ، فخيها يسيل ، فلما أنّوا به رسول الله قال : ألسْتُ شهيدا يا رسول الله ؟ قال : بلى .

ثم زاحف الناس ، وذا بمضهم من بعض ، وأمر رسول الله أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إِنْ اكْتَنَفَكُمُ^(٣) الْقَوْمُ فَأَنْضَحُوهُمْ^(٤) عَنْكُمْ بِالنَّبْلِ^(٥) .

وخرج رسول الله يُعدّل صفوف أصحابه ، وفي يده قِدْح^(٦) يُعدّل به القوم ، فرّ بسواد بن غزيرة ، وهو مستنزل^(٧) من الصفّ ، فطعن في بطنه بالقِدْح ، وقال : استور ياسود . فقال : يا رسول الله ، أَوْجَعْتَنِي ، وقد بعثك الله بالحقّ والعدل ، فأقْدَنِي^(٨) . فكشف رسول الله عن بطنه وقال : استقِدْ . فاعتنق سواد رسول الله وقبّل بطنه . فقال النبيّ : ما حملك على هذا ياسود ؟ قال : يا رسول الله ، خَصَر ما ترى ، فأردتُ أَنْ يكون آخر المهد بك أَنْ يَمْسَ جِلْدِي جِلْدَكَ . فدعا له الرسول بخير .

(١) أثبت صاحبه : أى عرفه . (٢) ذفف على الجريح : أجهز عليه .
(٣) اكتنفكم القوم : أحاطوا بكم . (٤) انضحوم : ادفنوم . (٥) النبل : السهام .
(٦) القدح : المود . (٧) مستنزل : متقدم . (٨) أقدنى : اقتبس لى من نفسك .

ثم عدل رسول الله الصفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ومعه أبو بكر ، وأخذ رسول الله يُناشد ربه ما وعده من النصر ، ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد . وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ؛ فإن الله منجز لك ما وعدك .

وخفق رسول الله خفقة^(١) ، وهو في العريش ، ثم انتبه فقال : أبشر يا أبا بكر ، أذاك نصر الله . هذا جبريل آخذُ بعنان^(٢) فرس يقوده على ثنایا النقع^(٣) . ثم خرج رسول الله إلى الناس فخرّضهم وقال : والذي نفسُ محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مُقبلاً غير مُدبرٍ إلا أَدْخَلَهُ الله الجنة .

فقال عُمير بن الحُمام — وفي يده تمراتٌ يأكلهنّ : بَخْ ، بَخْ^(٤) ! فإي يني وبين أن أَدْخَلَ الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قُتل .

ثم أخذ رسول الله خفقةً من الحصباء^(٥) فاستقبل بها قريشاً ، وقال : شَهِتِ^(٦) الوجوه ! ثم نفّحهم^(٧) بها ؛ وأمر أصحابه أن يشدوا عليهم ، فكانت الهزيمة ، وقُتل من قُتل من صناديد^(٨) قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم . ووضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله في العريش ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحاً بالسيف في نفر من الأنصار يحرسونه ، ويخافون عليه كركة العدو .

ورأى رسول الله الكراهة في وجه سعد بن معاذ لِمَا يَصْنَعُ الناس ، فقال له :

(١) خفق : حرك رأسه إذا لُعن . (٢) عنان : زمام . (٣) النقع : الفبار .
(٤) بَخْ : كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء ، أو الفخر والمدح . (٥) الحصباء : الحصى
(٦) شَهِت : قُبِحت . (٧) نفّحهم : رماهم . (٨) الصناديد : السيد الشجاع .

والله لكانك يا سعدُ تَكْرَهُ ما يَصْنَعُ القوم ! قال : أَجَلُ يا رسول الله ! كانت أولَ وقعةٍ أوقفها الله بأهل الشرك ، فكان الإِثْخَانُ^(١) في القتل أحبَّ إلى من استبقاء الرجال .

ثم قال النبي لأصحابه : إني قد عَرَفْتُ أن رجلا من بني هاشم وغيرهم قد أُخْرِجُوا كرها لا حاجة لهم بِقِتالِنا ، فن آتَى منكم أحدا من بني هاشم فلا يقتله ، ومن آتَى أبا البَخْتَرِيِّ^(٢) بن هشام فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما خرج مُسْتَكْرَها .

فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن آتيتني لأَحِمَّهُ^(٣) السَّيْفَ . فبانت رسول الله مقاتله ، فقال لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ؛ أَيُضْرَبُ وجهُ عمِّ رسول الله بالسيف ! فقال عمر : يا رسول الله ، دَعْنِي أُضْرِبُ عنق أبي حذيفة ، فوالله لقد نلت . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قُلْتُ يومئذ ، ولا أزالُ منها خائفا إلا أن تَكْفُرَها عني الشهادة^(٤) .

ورأى أميةُ بن خلفَ عبدَ الرحمن بن عوف ، ومعه أذراعُ له قد استلبها ، فقال له : هل لك في أنْ تُأَيِّرَني ؟ فأنا خيرُ لك من هذه الأذراع التي معك ! فطرح الأذراعَ من يده ، وأخذ بيده ويدَ ابنه ومشى بهما .

وسار عبدُ الرحمن بن عوف بين أمية وبين ابنه ، فقال له أمية : من منكم المُعْلَمُ

(١) أثخن في العدو : بالغ الجراحة فيهم ، وأثخن في الأرض قتلا : إذا كثره .

(٢) إنما نهى الرسول عن قتل أبي البختري لأنه كان أكف الناس عن رسول الله وهو بمنه ، وكان لا يؤذيه ، ولا ينافه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام بنقض الصحيفة التي كتبت على بني هاشم وبني المطلب . (٣) ألحمتك عرض فلان : إذا أمكنتك منه تشتمه . وألحمتك سبني : مكنته منه . (٤) قتل يوم البيمة شهيدا .

بريشة نعامية في صدره ؟ قال : ذلك حمزة بن عبد المطلب . قال : ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل !

ورآه بلال^(١) ، وهو يفودهما ، فقال : رأس الكفر أمية بن خلف ! لا نجوت إن نجى ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا بلال ؛ إنه أسيرى . قال بلال : لا نجوت إن نجى . قال عبد الرحمن : أسمع يا ابن السوداء ! قال : لا نجوت إن نجى . ثم صرخ بأعلى صوته : يا أنصار الله ؛ رأس الكفر أمية بن خلف ، لا نجوت إن نجى ! فأحاطوا بهم ، حتى جعلوهم في مثل المسكة^(٢) ، وعبد الرحمن يذب عنه .

فضرب رجل ابن أمية فخر صريما ، وصاح أمية صيحة شديدة ، فقال له عبد الرحمن : انج بنفسك ولا نجاء ! فوالله ما أغنى عنك شيئا ؛ فهربوها^(٣) بأسيا فهم حتى فرغوا منهما^(٤) .

ولما فرغ رسول الله من عدوه أمر أن يلتمس أبو جهل في القتل ، وقال : انظروا - إن خفي عليكم في القتل - إلى أثر جرح في ركبته ، فإن ازدحمت يوما أنا وهو على ماذبة لعبد الله بن جندعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف^(٥) منه بيسير فدفعته ، فوق على ركبتيه ، فججش^(٦) في إحداها جحشا لم يزل أثره به .

ومر عبد الله بن مسعود فوجده بأخر رمق فعرفه ، فوضع رجله على عنقه ، وقال له : هل أخزأك الله يا عدو الله ! قال : وبماذا أخزأني ؟ أعمد^(٧) من رجل قتلتموه ! أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟ قال : لله ولرسوله . ثم قال له : لقد اذقيت

(١) كان أمية يضرب بلالا بمكة لترك الإسلام .

(٢) المسكة : السوار والمخال . (٣) هربوها : قطعوا لحمها . (٤) كان عبد الرحمن

يقول : يرحم الله بلالا ، ذهبت أذراعى ، ولجنى بأسيرى .

(٥) أشف منه : أكبر منه . (٦) ججش : خدش . (٧) أعمد : أعجب .

مُرَّتَقَى صَعْبًا يَا رُوَيْمَى النِّعَم ! ثُمَّ احْتَزَّ رَأْسَهُ ، وَجَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَالَ : هَذَا رَأْسُ عَدُوِّ اللَّهِ أَبِي جَهْل .

وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْقَتْلِ أَنْ يُطْرَحُوا فِي الْقَلِيبِ ، فَأُلْقُوا فِيهِ ، وَلَمَّا سُحِبَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ إِلَى الْقَلِيبِ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ فِي وَجْهِ أَبِي حَذِيفَةَ بْنِ عُتْبَةَ فَإِذَا هُوَ كَثِيبٌ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا حَذِيفَةَ ؛ لِمَ لَكَ قَدْ دَخَلَكَ مِنْ شَأْنِ أَبِيكَ شَيْءٌ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا شَكَّكَتُ فِي أَبِي وَلَا فِي مَصْرَعِهِ ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَعْرِفُ مِنْ أَبِي رَأْيًا وَحِلْمًا وَفَضْلًا ، فَكُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَهْدِيَهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا أَصَابَهُ ، وَذَكَرْتُ مَا مَاتَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ، بَعْدَ الَّذِي كُنْتُ أَرْجُو لَهُ أَحْزَنَنِي ذَلِكَ . فَدَعَا لَهُ الرَّسُولُ بِخَيْرٍ .

وَلَمَّا صَارَ الْقَتْلَى فِي الْقَلِيبِ وَقَفَ عَلَيْهِمُ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا . فَقَالَ أَصْحَابُهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَتُكَلِّمُ قَوْمًا مَوْتَى ؟ قَالَ : مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْهُمْ لَا يَسْتَعْلِمُونَ أَنْ يُجِيبُونِي . ثُمَّ قَالَ : يَا أَهْلَ الْقَلِيبِ ؛ بِئْسَ عَشِيرَةُ النَّبِيِّ كُنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ! كَذَّبْتُمُونِي وَصَدَّقْتَنِي النَّاسَ ، وَأَخْرَجْتُمُونِي وَأَوَّانِي النَّاسَ ، وَقَاتَلْتُمُونِي وَنَصَرْتَنِي النَّاسَ .

* * *

ثُمَّ أَمَرَ الرَّسُولُ بِجَمْعِ مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْغَنَائِمِ ، وَاخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ ، فَقَالَ مَنْ جَمَعُوهُ : هُوَ لَنَا . وَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَ الْعَدُوَّ وَيَطْلُبُونَهُ : نَحْنُ شَمَلْنَا عَنْكُمْ الْعَدُوَّ حَتَّى أَصْبَغْتُمُوهُ . وَقَالَ الَّذِينَ كَانُوا يَحْرُسُونَ رَسُولَ اللَّهِ : وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقُّ بِهِ مِنَّا ، لَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نَقْتَلَ الْعَدُوَّ إِذْ مَنَحَنَا اللَّهُ أَكْتَاغَهُمْ ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ

المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكننا خِفْنَا على رسولِ الله كَرَّةَ العدوِّ فقمنا دونه ، فما أنتم بأحقَّ به منا ! .

ولكنَّ رسولَ الله أمرَ الناس أن يَرُدُّوا ما بأيديهم من النَّفْلِ ^(١) ؛ ثم بعث من يبشِّرُ أهلَ المدينة بما فتح الله عليه وعلى المسلمين .

وسارَ قَافِلًا إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، والنَّفْلُ الذي جمعه حتى إذا كان ببعض الطريق ^(٢) قَسَمَ النَّفْلَ على المسلمين على السواء .

ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء ^(٣) لَقِيَهِ المسلمون يَهْنِئُونَهُ بما فتح الله عليه وعلى مَنْ معه من المسلمين ، فقال لهم سامة بن سلامة : ما الذي تَهْنِئُونَا به ! فوالله إن لقينا إلا عجايزَ صُلَمًا كالبدن ^(٤) المقلَّة فنجرناها ، فتبسَّم رسول الله ، ثم قال : يا بَنَ أَخِي ، أولئك الملاء ^(٥) .

ثم مضى رسول الله حتى قدم المدينة قبل الأسرى بيوم .

ولما جِئَ بالأسرى فرَّقَهُم رسول الله بين أصحابه ، وقال : استَوْصُوا بالأسارى خيرا .

وجمع أصحابه ثم قال : ماتقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك ، استَبَقِيهِم واستَأْنِ بِهِمْ ^(٦) ، لعلَّ الله أن يتوبَ عليهم . وقال عمر : يا رسول الله ؛ كذبوك وأخرجوك ، قدَّمَهُم وأضربَ أعناقهم : وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله ؛ انظر وادِّياً كثيرَ الحطَبِ فأدْخِلْهُمْ فيه ، ثم أضرمه عليهم نارا . فقال له العباس : قَطَعْتَكَ رَحِمُكَ ! وسكت رسول الله فلم يُجِبه ، ثم دخل .

(١) النفل : الفتيمة . (٢) نزل النبي بمضيق الصفراء على كتيب قسم فيه النفل .

(٣) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة . (٤) البدن : جمع بدنة ، والبدنة من الإبل والبقر ، كالأنحية من الفم تهدي إلى مكة ، تطلق على الذكر والأنثى .

(٥) الملاء : الأشراف . (٦) استأني به : انتظر وترس ولم يسجل .

فقال ناس : يأخذُ بقولِ أبى بكر . وقال ناس : يأخذُ بقولِ عُمر . وقال ناس : يأخذُ بقول عبد الله بن رَوَاحَة . ثم خرج عليهم رسول الله فقال : إن الله عزَّ وجلَّ لِيُليِّنُ قلوبَ رجالٍ فيه ، حتى تكونَ ألينَ من اللبنِ ، وإن الله ليشدُّ قلوبَ رجالٍ فيه حتى تكونَ أشدَّ من الحجارة ؛ وإن مثلك يا أبا بكر مثلي إبراهيم قال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴾ . ومثلك مثلُ عيسى ، قال : ﴿ إِنْ تَمَدَّجْتُمْ بِهِمْ فَانْهَمُوا عَنْهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغَفَّرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . ومثلك يا عمر مثلُ نوح ، قال : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ ^(١) . ومثلك كمثلي موسى ، قال : ربنا اطمئنس ^(٢) على أموالهم ، واشدُّ على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . ثم قال : أنتم اليوم عائلة ^(٣) فلا يُفْلِتَنَّ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبِ عُقُقٍ . فلما كان الغدُ غدا عُمر على النبي وهو قاعد مع أبى بكر ، وإذا هما يكيان ، فقال : يا رسول الله ؛ أخبرني ماذا يكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد تباً كُتيت ^(٤) لبكائكما . فقال رسول الله : نبكي للذي عرض على أصحابك من الفداء ، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة ؛ وأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَبْخِشَ ^(٥) فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ ^(٦) .

وكان أول من قدم مكة بعد بذر الحليسمان الخزاعي ، فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : قُتِلَ فلان وفلان ؛ وجعل يُمدِّدُ أشرافَ قريش ، فقال صفوان بن أمية : والله ما يُنمَلُ هذا . قال : والله قد رأيتُ أباك وأخاك حين قُتِلَا .

(١) دياراً : أحدا . (٢) أهلكتها . (٣) عائلة : تنكفئ بكم . (٤) التباكى : تكلف البكاء . (٥) يبخش : حتى يبلغ في قتل أعدائه . (٦) سورة الأنفال ، آية ٦٧ .

ثم أقبل من بعده أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب : هلم إلي ، فمعدك - لعمري - الخبر . فجلس إليه . والناس قيامٌ عليه ، فقال له : يا ابن أخي ؛ أخبرني كيف كان أمرُ الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فنحنهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا . وإني والله ما أمتُ الناس ، لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ، والله ما تليقُ شيئاً^(١) ، ولا يقومُ لها شيء .

وناحت قريش على قتلاها ، ثم قالوا : لاتفعلوا ؛ فبلغ محمداً وأصحابه فيشمتموا بهم ، ولا تبعثوا في أسراكم حتى لا يشتدوا في الفداء .

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده^(٢) ، وكان يحب أن يبيك على يديه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر ، هل أحل النحيب ؟ هل بكث قريش على قتلاها ؟ لعلني أبكي ، فإن جوفى قد احترق ! فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته ، فقال :

أَتَبْكِي أَنْ يَضِلَّ لَهَا بِمِيرُ	وَيَمْنَعُهَا مِنَ النُّومِ السُّهْدُ !
فَلَا تَبْكِي عَلَى بَكْرِ وَلَكِنْ	عَلَى بَدْرِ تَقَاصَرَتِ الْجُدُودُ ^(٣)
عَلَى بَدْرِ سَرَاةِ بَنِي هُصَيْصِ	وَنَحْزُومِ وَرَهْطِ أَبِي الْوَلِيدِ
وَبَكِّي إِنْ بَكَيْتِ عَلَى عَقِيلِ	وَبَكِّي حَارِثًا أَسَدَ الْأُسُودِ
وَبَكْيِهِمْ وَلَا تَسْمِي جَمِيعًا	وَمَا لِأَبِي حَلِيمَةٍ مِنْ نَدِيدِ ^(٤)
أَلَا قَدْ سَادَ بِمَدْمُومٍ رِجَالُ	وَلَوْلَا يَوْمُ بَدْرِ لَمْ يَسُودُوا ^(٥)

(١) ما تليق شيئاً : ما تمسك أو ما تبقى شيئاً . (٢) زمعة ، وعقيل ، والحارث بن زمعة .

(٣) البكر : الفتى من الإبل . (٤) لا تسمى : لا تسمى . والنديد : الشبيه والمثل .

(٥) في البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروى .

ثم بعثت قريش في فداء الأسرى ، فقدم مكرز بن حفص في فداء سهيل بن عمرو ، وقاؤكهم فيه ، فلما انتهى إلى رضاهم قالوا : هات الذي لنا . قال : اجعلوا رجلى مكان رجله ، وخلوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه . فخلوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزاً مكانه عندهم ، فقال مكرز :

فَدَيْتُ بِأَذْوَادِ ثَمَانٍ سَبَاً فَتَى ينال الصميم غرماً لا الموالياً^(١)
رهقت يدي ، والمال أيسر من يدي على ، ولكنى خشيت الحازيا
وقلت : سهيل خيرنا فذهبوا به لأبنائنا حتى ندير الأمانيا

وبعثت زينب بنت رسول الله في فداء أبي العاص بن الربيع^(٢) بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين يئى عليها ، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها ، وتردوها عليها مالها فافعلوا ! فقالوا : نعم يا رسول الله ، فأطلقوه وردوها عليها الذي لها .

وكان أبو عزة الجمحي رجلاً محتاجاً ، فقال : يا رسول الله ؛ لقد عرفت ما لي من مال ، وإنى لآذو حاجة وعيال ، فامن علي ، فن عليه الرسول ، وأخذ عليه ألا يظهر^(٣) عليه أحدا .

وكان فداء المشركين يومئذ نحو أربعة آلاف درهم ، إلا من لا مال له ، فقد من عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وجلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية ، وتذكرا قتلى بدر ، فقال صفوان : والله ما في العيش بعدم خير . فقال له عمير : صدقت والله ! أما والله

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر . الصميم : الخالص النسب .

(٢) كان زوجها ، وكانت خديجة خالته . (٣) لا يظهر : لا يعين عليه أحداً .

لولا دَيْنٌ عَلَىَّ لَيْسَ عِنْدِي لَهُ قَضَاءٌ ، وَعِيَالٌ أَخْشَى عَلَيْهِمُ الضَّيْمَةَ بَعْدِي لَرَكِبْتُ إِلَى مُحَمَّدٍ حَتَّى أَقْتُلَهُ ؛ فَإِنَّ لِي قَبْلَهُمْ عِلَّةً : ابْنِي أُسِيرٌ فِي أَيْدِيهِمْ .

فَاغْتَنَمَهَا صَفْوَانٌ ، وَقَالَ لَهُ : عَلَىَّ دَيْنُكَ ، أَنَا أَقْضِيهِ عَنْكَ ، وَعِيَالُكَ مَعَ عِيَالِي أَوْاسِيهِمْ مَا بَقُوا . قَالَ عُمَيْرٌ : فَاسْكُتُمْ شَأْنِي وَشَأْنُكَ . قَالَ : أَفْعَلْ .
ثُمَّ أَمَرَ عُمَيْرُ بِسَيْفِهِ فَشَحِذَهُ لَهُ وَسَمَّهُ ، وَانْطَلَقَ حَتَّى قَدَّمَ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

فَبَيْنَا عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ يَوْمِ بَدْرٍ ، وَيَذْكُرُونَ مَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، إِذْ نَظَرَ عُمرُ فَرَأَى عُمَيْرَ بْنَ وَهَبٍ حِينَ أَنَاخَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مَتَوَشِّحًا السَّيْفَ ، فَقَالَ : هَذَا السَّكْبُ عَدُوُّ اللَّهِ ، مَا جَاءَ إِلَّا لَشَرٍّ .

ثُمَّ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؛ هَذَا عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ قَدْ جَاءَ مَتَوَشِّحًا سَيْفَهُ . قَالَ : فَأَدْخَلَهُ عَلَىَّ . فَأَقْبَلَ عُمرُ حَتَّى أَخَذَ بِحِمَالَةِ^(١) سَيْفِهِ فِي عُنُقِهِ ، فَلَبَّيْهِ^(٢) بِهَا ، وَقَالَ لِرَجَالٍ مِمَّنْ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ : ادْخُلُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَاجْلِسُوا عِنْدَهُ ، وَاحْذَرُوا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الْخَبِيثِ ؛ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ .

وَدَخَلَ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : أَرْسِلْنِي يَا عُمرُ ، اذْنُ يَا عُمَيْرُ ؛ فَدَنَا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : مَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ ؟ قَالَ : جِئْتُ لِهَذَا الْأَسِيرِ الَّذِي فِي أَيْدِيكُمْ فَاخْسِنُوا فِيهِ . قَالَ : فَمَا بَالُ السَّيْفِ فِي عُنُقِكَ ؟ قَالَ : قَبَّحَهَا اللَّهُ مِنْ سُيُوفٍ ، وَهَلْ أَغْنَتْ عَنَّا شَيْئًا ؟ قَالَ : اصْدُقْنِي مَا الَّذِي جِئْتَ بِهِ ؟ قَالَ : مَا جِئْتُ إِلَّا لِذَلِكَ . قَالَ : بَلْ قَعَدْتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الْحَجْرِ فذَكَرْتُمَا أَصْحَابَ الْقَلَيْبِ مِنْ قُرَيْشٍ ، ثُمَّ قُلْتَ : لَوْلَا دَيْنٌ عَلَىَّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَمَجَرْتُ حَتَّى أَقْتُلَ مُحَمَّدًا ، فَتَحْمَلُ لَكَ

(١) حمالة السيف : ما يعلق به .

(٢) لبيبه بها : جعلها في عنقه وجره بها .

صَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةٍ بِدِينِكَ وَعِيَالِكَ عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ ، وَاللَّهُ حَاضِرٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ .

قَالَ عُمَيْرٌ : أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ؛ قَدْ كُنَّا نَكْذِبُكَ بِمَا كُنْتَ تَأْتِينَا بِهِ مِنْ خَبَرِ السَّمَاءِ وَمَا يَنْزِلُ عَلَيْكَ مِنَ الْوَحْيِ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ يَخْضُرْهُ إِلَّا أَنَا وَصَفْوَانُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَا أَعْلَمُ مَا أَتَاكَ بِهِ إِلَّا اللَّهُ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ وَسَاقَنِي هَذَا الْمَسَاقَ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : فَتَّبِعُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ ، وَأَقْرَأُوا الْقُرْآنَ ، وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ . فَعَمِلُوا ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي كُنْتُ جَاهِدًا عَلَى إِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ ، شَدِيدَ الْأَذَى لِمَنْ كَانَ عَلَى دِينِ اللَّهِ ، وَالْآنَ أَحْبَبْتُ أَنْ تَأْذِنَ لِي فَأَقْدِمَ إِلَى مَكَّةَ فَأَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِلَى رَسُولِهِ ، وَإِلَى الْإِسْلَامِ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ ، وَإِلَّا آذَيْتُهُمْ فِي دِينِهِمْ كَمَا كُنْتُ أُؤْذِي أَصْحَابَكَ فِي دِينِهِمْ . فَأَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ فَلَحَقَ بِمَكَّةَ ، وَلَمَّا قَابَلَهُ صَفْوَانُ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَهُ أَبَدًا ، ثُمَّ أَقَامَ بِمَكَّةَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ وَيُؤْذِي مَنْ خَالَفَهُ أَذًى شَدِيدًا ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدِهِ نَاسٌ كَثِيرٌ^(١) .

(١) لما انقضى أمر بدر أنزل الله سورة الأنفال بأسرها . وارجع إلى ابن هشام : ٢٦٨-٢

٢ - يوم الأحد (*)

لما أُصِيبَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ بَدْرَ ^(١) ، وَرَجَعَ فَلَهُمْ ^(٢) إِلَى مَكَّةَ ، وَعَادَ أَبُو سَفِيَّانَ يَمِيرُهُ ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي رَجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَتُهُمْ يَوْمَ بَدْرَ ، فَكَلَّمُوا أَبَا سَفِيَّانَ وَمَنْ كَانَتْ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْمِيرَةِ تِجَارَةٌ ، فَقَالُوا : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ؛ إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكَكُمْ ^(٣) ، وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ ، فَأَعَيْنُونَا بِهَذَا السَّالِ عَلَى حَرْبِهِ ، فَلَمَلْنَا نَذْرَكَ مِنْهُ نَارًا بَيْنَ أَصَابِ مَنْ ، ففعلوا ، واجتمعت قُرَيْشٌ وَمَنْ أَطَاعَهَا مِنْ قِبَائِلِ كِفَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةَ لِحَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَبَعَثَتْ قُرَيْشُ الشُّعْرَاءَ لِيُثْبِتُوا قِبَائِلَ السَّرْبِ وَيَجْمَعُوهُمْ حَوْلَهُمْ ، وَأَغْرَوْهُمْ بِالسَّالِ مَرَّةً ، وَمَنَّوْهُمْ الْأَمَانَةَ مَرَّةً أُخْرَى ؛ فَهَذَا أَبُو عَزَّةَ الْجُمَحِيُّ قَدْ مَنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَ بَدْرَ ، إِذْ كَانَ فَقِيرًا ذَا عِيَالٍ وَحَاجَةً ، وَكَانَ فِي الْأَسَارَى ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنِّي فَقِيرٌ وَذُو عِيَالٍ وَحَاجَةٌ قَدْ عَرَفْتُهَا ، فَاْمُنْ عَلَيَّ . فَنَّ عَلَيْهِ الرُّسُولُ . هَذَا أَبُو عَزَّةَ يَقُولُ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : يَا أَبَا عَزَّةَ ، إِنَّكَ أَمْرٌ شَاعِرٌ فَأَعِنَّا بِلِسَانِكَ وَاخْرُجْ مَعَنَا ، فَقَالَ : إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَنَّ عَلَيَّ ، فَلَا أُرِيدُ أَنْ أَظَاهِرَ ^(٤)

* سيرة ابن هشام : ٣ - ٣ ، تاريخ الطبري : ٣ - ٩ ، وكان هذا اليوم في السنة الثالثة من الهجرة . وأحد : جبل تلقاء المدينة .

(١) بعد نزوة بدر لم يقم رسول الله بالمدينة إلا سبع ليالٍ ، ثم غزا بني سليم ، فبلغ ماء من مياههم يقال له « السكدر » فأقام عليه ثلاثاً ، ثم رجع إلى المدينة ولم يبق حرباً . ثم كانت غزوة السويق - وكان أبو سفيان قد نذر حين رجع من مكة أن لا يمس رأسه ماء من جنبه حتى يغزو محمداً - فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه ، ولكنه لم يلتق بالمسلمين في حرب ، إذ خرج النبي في طلبهم فقاتلوه . (٢) فلهم : المنهزمون منهم . (٣) وترك : جعل لكم عنده نأراً . (٤) أظاهي : أعين وأساعد .

عليه . قال : فَأَعِنَّا بِنَفْسِكَ ، فَلَكَ عَلَىَّ إِنْ رَجَعْتَ أَنْ أَعِيْنَكَ ، وَإِنْ أَصِبتَ أَنْ أَجْعَلَ
بِفَاتِكَ مَعَ بَنَاتِي ، يُصِيبُهُنَّ مَا أَصَابَهُنَّ مِنْ عُسْرٍ وَيُسْرٍ . فخرج أبو عَزَّةَ يَسِيرُ فِي
تِهَامَةٍ ، وَيَدْعُو بَنِي كِنَانَةَ وَيَقُولُ :

أَيَا بَنِي عَبْدِ مَنَآةَ ^(١) الرِّزَامُ ^(٢) أَنْتُمْ حُمَاةٌ وَأَبُوكُمْ حَامٍ
لَا تَعِدُونِي نَصْرَكُمْ بَعْدَ الْعَامِ لَا تُسَلِّمُونِي لَا يَحِلُّ إِسْلَامُ

وخرج مُسَافِعُ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ إِلَى بَنِي مَالِكِ بْنِ كِنَانَةَ يَحْرِضُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى حَرْبِ
رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ لِحُجْوَا مِمَّا قَالَهُ أَبُو عَزَّةَ ، وَدَعَا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ غُلَامًا لَهُ حَبَشِيًّا ، يَقَالُ لَهُ
وَحَشِيٍّ يَنْدَفُ بِحَرْبَةٍ لَهُ قَذْفَ الْحَبْشَةِ ، فَلَمَّا يُخْطِئُ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : اخْرُجْ مَعَ
النَّاسِ ، فَإِنْ أَنْتَ قَتَلْتَ حَمْرَةَ بَعْمَى ^(٣) فَأَنْتَ عَتِيقٌ .

وخرجت قُرَيْشٌ ، بِأَحَابِيشِهَا ^(٤) ، وَمَنْ تَبِعَهَا مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَأَهْلِ تِهَامَةٍ ،
وخرجُوا مَعَهُم بِالظُّنَنِ ^(٥) التَّمَّاسِ الْحَفِيطَةِ وَلَثَلَا يَفْرُؤُوا .

وخرج أبو سفيان بن حرب - وهو قائدُ الناس - بهند بنت عتبة ، وخرج
عكرمة بن أبي جهل بأُمِّ حَكِيمِ بنت الحارث ، وخرج الحارث بن هشام بفاطمة بنت
- الوليد ، وكذلك غيرهم .

وأقبلوا جميعاً حتى نزلوا بَعْمَيْنَيْنِ ^(٦) فِي جَبَلٍ يَبْطُنُ السَّبِيخَةَ عَلَى شَفِيرِ ^(٧) الْوَادِي
مِمَّا بَلَى الْمَدِينَةَ .

فلما سمع بهم رسولُ الله المسلمون ، وعرفوا أنهم نزلوا حيثُ نزلوا قال النبيُّ
للمسلمين : إِنْ رَأَيْتُمْ وَاللهَ خَيْرًا ، رَأَيْتُمْ بَقْرًا تُدْبِحُ ، وَرَأَيْتُمْ فِي ذُبَابٍ سِيفًا

(١) فِي اللِّسَانِ : بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ . (٢) الرِّزَامُ : جَمْعُ رَازِمٍ : مِنْ رَزَمَ الرَّجُلُ عَلَى قَرْنِهِ إِذَا
بَرَكَ عَلَيْهِ . (٣) كَانَ عَمُّ طَلِيْمَةَ قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ .
(٤) الْأَحَابِيشُ : هُمُ الْقَبَائِلُ الَّتِي خَالَفُوا قُرَيْشًا وَهُمْ تَحْتَ جَبَلٍ يُسَمَّى حَبَشِيًّا ، فَسَمَوْا بِذَلِكَ .
(٥) الظُّنَنُ : جَمْعُ ظُغْنَةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ مَا دَامَتْ فِي الْهُودُجِ . (٦) عَيْنَيْنِ - بِكَسْرِ الْعَيْنِ
وَفَتْحِهَا : جَبَلٌ بِأَحَدٍ . (٧) شَفِيرٌ : نَاحِيَةٌ .

ثَلَمَّا^(١) . وَرَأَيْتُ أَنِي أَدْخَلْتُ يَدِي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ ؛ فَأَوَّلَتْهُمَا الْمَدِينَةُ^(٢) ؛ فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا بِالْمَدِينَةِ وَتَدْعُوهُمْ حَيْثُ نَزَلُوا ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَقَامٍ ، وَإِنْ هُمْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاكُمْ فِيهَا .

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَخْرِجْ بَنِي إِسْرَافِيلَ إِلَى أَعْدَائِنَا لَا يَرَوْنَ أَنَّا جَبِينًا عَنْهُمْ وَضَعْفًا . فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَقِمُ بِالْمَدِينَةِ وَلَا تَخْرُجْ إِلَيْهِمْ ، فَوَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا مِنْهَا إِلَى عَدُوِّ لَنَا قَطُّ إِلَّا أَصَابَ مِنَّا ، وَلَا دَخَلَهَا عَلَيْنَا عَدُوٌّ إِلَّا أَصَبْنَا مِنْهُ . فَدَعَوْهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنْ أَقَامُوا أَقَامُوا بِشَرِّ مَقَامٍ ، وَإِنْ دَخَلُوا قَاتَلَهُمُ الرِّجَالُ فِي وَجُوهِهِمْ ، وَرَمَاهُمُ النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانُ بِالْحِجَارَةِ مِنْ فَوْقِهِمْ ؛ وَإِنْ رَجَعُوا رَجَعُوا خَائِبِينَ كَمَا جَاءُوا .

وَلَكِنْ بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ - بَمَنْ أَحْبَبُوا لِقَاءَ قُرَيْشٍ - مَا زَالُوا بِرَسُولِ اللَّهِ حَتَّى دَخَلَ بَيْتَهُ ، فَلَيْسَ لِأُمَّتِهِ^(٣) ، ثُمَّ خَرَجَ . فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ لَبَسَ السَّلَاحَ نَدَمُوا ، وَقَالُوا : يَبْنَؤُا مَصْنَعًا ! اسْتَكَرْهُنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِنَا ، أَنْشِيرْ عَلَى النَّبِيِّ وَالْوَحْيِ يَا بَنِي إِسْرَافِيلَ !

وَقَامُوا فَاعْتَدَرُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا : اصْنَعْ مَا رَأَيْتَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : مَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ إِذَا لَبِسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَضْمَعَ حَتَّى يُقَاتَلَ .

وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ ، يُصَلِّي بِالنَّاسِ ، وَخَرَجَ فِي أَلْفٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّوْطِ - بَيْنَ أَحُدٍ وَالْمَدِينَةِ - انْخَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَلْثُثٍ النَّاسِ وَقَالَ : أَطَاعَهُمْ نَفْرَجَ وَعَصَانِي ، وَاللَّهِ مَا نَدْرِي عَسَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ !

(١) ذِابَ السِّيفُ : حُدَّهُ أَوْ طَارَفَهُ . ثَلَمَ السِّيفُ : كَسَرَ حَرَفَهُ . (٢) حَدَّثَ بَعْضُهُمْ رَأْسَهُمْ رَأْسًا : قَاتَلُوا . (٣) الْأُمَّةُ : الدِّرْعُ .

وَاتَّبِعْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، وَهُوَ يَقُولُ لَهُ وَلَنْ مَعَهُ: يَا قَوْمُ! أَذْكَرُكُمْ اللَّهَ! لَا تَتَّخِذُوا قَوْمَكُمْ وَنَبِيِّكُمْ! قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنْكُمْ تُقَاتِلُونَ مَا أَسْلَمْنَاكُمْ، وَلَكِنَّا لَا نَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ، فَلَمَّا اسْتَمَعُوا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إِلَّا الْأَنْصِرَافَ قَالَ لَهُمْ: أُبَمَدَّكُمْ اللَّهُ يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ! فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ نَبِيَّهُ.

وَلَمْ يَنْزِلْ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَارُوا نَحْوَ هَدَفِهِمْ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ بَنِي عَلَى الْقَوْمِ مِنْ كَثَبٍ^(١)، مِنْ طَرِيقٍ لَا يَمُرُّ بِنَا عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. وَنَفَذَ بِهِمْ فِي حَرَّةِ بَنِي حَارِثَةَ^(٢) وَبَيْنَ أَمْوَالِهِمْ، حَتَّى سَلَكَ فِي مَالٍ لِمَرْبَعِ بْنِ قَيْطَى. وَكَانَ رَجُلًا مُنَافِقًا ضَرِيرًا. فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَامَ يَخْشَى^(٣) التُّرَابَ فِي وُجُوهِهِمْ، وَيَقُولُ: إِنْ كُنْتُ رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي لَا أَحِلُّ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ حَائِطِي^(٤)، ثُمَّ أَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ فِي يَدِهِ وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَا أُصِيبُ بِهَا أَحَدًا غَيْرَكَ يَا عَمْدَ لَضَرْبَتْ بِهَا وَجْهَكَ؛ فَابْتَدَرَهُ^(٥) الْقَوْمُ لِيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَفْعَلُوا! فَهَذَا الْأَعْمَى أَعْمَى الْقَلْبِ أَعْمَى الْبَصَرِ.

وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى نَزَلَ الشَّعْبُ^(٦) مِنْ أُحُدٍ، فِي عُدْوَةِ^(٧) الْوَادِي إِلَى الْجَبَلِ، فَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ، وَقَالَ: لَا يَقَاتِلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ حَتَّى تُأْمَرَ بِهِ بِقِتَالٍ. وَأَمَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ عَلَى الرُّمَّةِ، وَقَالَ لَهُ: انْضَحْ^(٨) الْخَيْلَ عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، وَإِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَابْتُبْ مَكَانَكَ، لَا نُؤْتِيَنَّ مِنْ

(١) كَثَبٌ: قَرْبٌ. (٢) الْحَرَّةُ: أَرْضُ ذَاتِ حِجَارَةٍ نَحْرَةٍ سَوْدٍ. (٣) حَشَا التُّرَابِ يَحْنُوهُ، وَيَحْثِيهِ: رَمَاهُ. (٤) الْحَائِطُ: الْبَسْتَانُ. (٥) ابْتَدَرَهُ الْقَوْمُ: مَجَلُّوا إِلَيْهِ وَأَسْرَعُوا. (٦) الشَّعْبُ: الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ. (٧) عُدْوَةُ الْوَادِي: شَاطِئُهُ، وَهِيَ مِثْلَةُ الْعَيْنِ. (٨) انْضَحَ الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ: رَمَاهَا لِيُدَامَهَا وَيَبْعِدَهَا.

قَبْلِكَ . وظاهر رسول الله بين درعين ، ودفع اللواء إلى مُصْعَب بن عمير .
أما قريش فقد عَبَّأت^(١) ثلاثة آلاف رجل ، معهم مائتا فارس قد جَنَّبُوها^(٢) ،
وجعلوا على مَيْمَنَةِ الخيل خالد بن الوليد ، وعلى مَيْسَرَتِهَا عِكْرِمَةُ بن أبي جهل .
وقال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عَبْدِ الدار ، يُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ :
يا بني عبد الدار ؛ إنكم قد وَلَّيْتُمْ لِيَوَاءَنَا يَوْمَ بَدْرٍ فَأَصَابَنَا مَا قَدْ رَأَيْتُمْ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى
النَّاسُ مِنْ قَبْلِ رَايَاتِهِمْ ، إِذَا زَالَتْ زَالُوا ، فَلَمَّا أَنْ تَكْفُونَا لِيَوَاءَنَا ، وَإِنَّمَا أَنْ تُخَلُّوا
بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ . فَهَمُّوا بِهِ وَتَوَاعَدُوهُ ، وَقَالُوا : نَحْنُ نُسَلِّمُ إِلَيْكَ لِيَوَاءَنَا ! سَتَعْلَمُ غَدًا إِذَا
التَقَيْنَا كَيْفَ نَصْنَعُ !

والتقى الناسُ ، وَدَنَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ؛ فَقَامَتِ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ فِي السُّوَّةِ
اللَّائِي مِمَّهَا ، وَأَخَذَتِ الدُّفُوفَ يَضْرِبُ بِهَا خَلْفَ الرِّجَالِ يَحَرِّضُهُمْ ، فَقَالَتْ هِنْدُ :
وَيْهَا^(٣) بَنِي عَبْدِ الدَّارِ وَيَهَا حُمَاةَ الْأَذْيَارِ !
* ضَرَبَا بِكُلِّ بَتَّارٍ^(٤) *

إِنْ تَقْبَلُوا نَعَانِقُ وَنَفَرِشَ النَّمَارِقِ^(٥)
أَوْ تَدْبُرُوا نَفَارِقُ فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ^(٦)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ يَأْخُذْ سِيفِي هَذَا بِحَقِّهِ ؟ فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ
فَأَمْسَكَ عَنْهُمْ ، حَتَّى قَامَ إِلَيْهِ أَبُو دُجَانَةَ^(٧) فَقَالَ : وَمَا حَقُّهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
قَالَ : أَنْ تَضْرِبَ بِهِ الْعَدُوَّ حَتَّى يَنْحَنِيَ . قَالَ : أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ . فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ . فَلَمَّا
أَخَذَهُ مِنْ يَدِ رَسُولِ اللَّهِ أَخْرَجَ عَصَا بَتِّهِ الْجِرَاءَ فَعَصَبَ بِهَا رَأْسَهُ ، وَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :

(١) عبأ الجيش : جهزه وهياه ورتبه للحرب . (٢) جنبوا الخيل : سيروها بجانبهم حتى
إذا فتر المركوب تحولوا إلى الجنوب . (٣) إغراء . (٤) البتار : السيف القاطع .
(٥) النمارق : جمع تمرقة ، والتمرقة : الوسادة الصغيرة ، أو الطنفسة فوق الرجل .
(٦) وامق : محب . (٧) هو سمالك بن خرشة .

إِنِّي أَمْرُو عَاهَدَنِي خَلِيلِي أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيْوَلِ^(١)
أَضْرِبُ^(٢) بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ ضَرْبَ غَلَامٍ مَاجِدٍ بِهَيْلُولِ^(٣)

ثم جعل يَتَّبِعَتَهُ بَيْنَ الصَّفَيْنِ ، فقال رسولُ الله حينَ رآه : إِنِّهَا لِمِشِيمَةٌ
يُبْفِضُهَا اللَّهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ . وجعل أبو دُجَانَةَ لَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ ،
حتى انتهى إلى نِسْوَةٍ فِي سَفْحِ جَبَلٍ ، مَعَهُنَّ دُفُوفٌ لَهُنَّ ، وفيهنَّ امرأةٌ تقول :
نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ إِنْ تَقْبَلُوا نَفَارِقُ

.....

فرفع السيفَ ليضربها ، ثم كفَّ عنها ؛ لأنه أكرم سيفَ رسولِ الله أن
يضربَ به امرأةً .

ونظر وَخْشِيَّ غلامَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ إِلَى حَمْزَةٍ يَهْدُ النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُبْقَى عَلَى
شَيْءٍ ، فمزَّ حَرْبَتَهُ ، ودفعها إليه فخرَّ صريماً .

وَقَاتَلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ حَتَّى قُتِلَ ، فَأَعْطَى النَّبِيُّ الْوَأَاءَ عَلَى بَنِي طَالِبٍ ،
فَقَاتَلَ بِهِ ، وَقَاتَلَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَصَدَقَهُمْ وَعْدُهُ ؛ فَهَزَمُوا
الْمُشْرِكِينَ ؛ وَحَسُّوهُمْ^(٤) بِالسِّيُوفِ حَتَّى كَشَفُوهُمْ عَنِ الْعَسْكَرِ ، وَأَصَابُوا أَصْحَابَ
الْوَأَاءِ^(٥) .

ولما هُزِمَ الْمُشْرِكُونَ ، وَرَأَى الَّذِينَ كَانُوا مِنْ وَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْجَبَلِ ، قَالَ
بِمَعْصِهِمْ لِبَعْضٍ : هَلُمُّوا فَأَدْرِكُوا الْغَنِيمَةَ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَنَا إِلَيْهَا أَحَدٌ ! وَتَرَكَوْا أَمَا كُنْهُمْ ،
فَخَلَوْا ظُهُورَ الْمُسْلِمِينَ لِلْخَيْلِ ،

(١) الكيول : مؤخر الصفوف . (٢) قال في اللسان : « سكنت الباء في أضرب لكثرة
الحركات » ، وارجع إلى الفائق ٢-٤٣٩ . (٣) الهلول : السيد الجامع لكل خير .
(٤) حسوهم : قتلوهم قتلاً ذريعاً مستأصلاً . (٥) لم يزل لواء المشركين صريماً حتى أخذته
عمرة بنت علقمة الحارثية ، فرفعته لقريش فاجتمعوا حوله ، وفي ذلك قال حسان :
فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بين الجلائب

وَأَتَى الْمُسْلِمُونَ مِنْ خَلْفِهِمْ ، فَانْكَشَفُوا وَأَصَابَ مِنْهُمْ الْمُشْرِكُونَ . وَصَرَخَ صَارِخٌ يَقُولُ : إِنْ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ ؛ فَانْكَفَأَ الْمُسْلِمُونَ ، وَانْكَفَأَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارُ ^(١) ، وَخَلَصَ الْعَدُوُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَدُثَّ ^(٢) بِالْحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ لِسْقَهُ ؛ فَأُصِيبَتْ رِجْلَايَتُهُ ^(٣) ، وَشُجَّ فِي وَجْهِهِ ، وَكُلِمَتْ شَفَتُهُ ^(٤) ، وَجُمِلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَصَارَ يَمَسُخُ الدَّمُ وَهُوَ يَقُولُ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَصَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ^(٥) !

وَدَخَلَتْ حَلَقَتَانِ مِنَ حَلَقِ الْمَغْفَرِ ^(٦) فِي وَجْهَتَيْهِ ، وَوَقَعَ فِي حُفْرَةٍ ، وَغَشِيَهُ الْقَوْمُ ، فَقَالَ : مَنْ رَجُلٌ يَشْرِي ^(٧) لِنَفْسِهِ ؟ فَقَامَ زِيَادُ بْنُ السَّكَنِ فِي نَفَرٍ خَمْسَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَقَاتَلُوا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ رَجُلًا رَجُلًا ، يُمَتِّلُونَ دُونَهُ ، حَتَّى كَانَ آخِرُهُمْ زِيَادٌ ؛ فَقَاتَلَ دُونَهُ حَتَّى أُثْبِتَتْهُ الْجِرَاحَةُ ^(٨) ؛ ثُمَّ فَاءَتْ فِئَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَأَجْهَضُوهُمْ عَنْهُ ^(٩) ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَذْنُوهُ مِنِّي . فَأَذْنُوهُ مِنْهُ ، فَوَسَدَ قَدَمُهُ ، وَمَاتَ وَخَذَهُ عَلَى قَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَقَاتَلَتْ أُمُّ عِمْرَةَ نُسَيْبَةَ بِنْتَ كَعْبٍ ، وَقَدْ وَصَفَتْ مَا كَانَ مِنْهَا إِذْ ذَاكَ فَقَالَتْ : خَرَجْتُ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَأَنَا أَنْظَرُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ ، وَمَعِيَ سِقَالٌ لِي فِيهِ مَاءٌ ، فَانْتَهَيْتُ

(١) انْكَفَأَ الْقَوْمُ : انْهَزَمُوا ، وَانْكَفَأَ عَلَيْهِ : مَالَ . (٢) دُثَّ بِالْحِجَارَةِ : رُمِيَ بِهَا .

(٣) الرَّبَاعِيَّةُ كَثْمَانِيَّةٌ : لِاحْدَى الْأَسْنَانِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي تَتْلَى الثَّنَايَا بَيْنَ الثَّنِيَّةِ وَالنَّابِ .

(٤) الْكَلِمُ : الْجَرْحُ ، وَالشُّجُّ : الشَّقُّ .

(٥) كَانَ الَّذِي أَصَابَهُ عَثْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَّاسٍ ، وَقَالَ حَسَنٌ فِي ذَلِكَ :

فَأَخْرَاكَ رَبِّي يَا عَتِيبَ بْنَ مَالِكٍ وَلَقَاكَ قَبْلَ الْمَوْتِ لِاحْدَى الصَّوَاغِقِ

بَسَطْتَ يَمِينًا لِلنَّبِيِّ تَعْمِدًا فَأَدْمَيْتَ فَاةً قَطَعْتَ بِالْبَوَارِقِ

فَهَلَا ذَكَرْتَ اللَّهَ وَالْمَنْزِلَ الَّذِي تَصِيرُ إِلَيْهِ عِنْدَ لِاحْدَى الْبَوَائِقِ !

الْبَوَائِقُ : جَمْعُ بَائِقَةٍ ، وَهِيَ الدَّاهِيَةُ لِأَنَّهَا تَهْلِكُ مَنْ تَنْزِلُ بِهِ .

(٦) الْمَغْفَرُ : شَبِيهِ بِالْدَرَعِ ، ذُو حَلْقٍ ، يَجْعَلُ عَلَى الرَّأْسِ فِي الْحَرْبِ .

(٧) يَشْرِي : يَبِيعُ . (٨) أُثْبِتَتْهُ : جَعَلَتْهُ ثَابِتًا فِي مَكَانِهِ لَا يَفَارِقُهُ ، مِنْ شِدَّتِهَا .

(٩) فَاءَتْ : رَجَعَتْ ، وَأَجْهَضُوهُمْ : أَزَالُوهُمْ .

إلى رسول الله ونسبوا في أصحابه ، والدولة والريخ^(١) للمسلمين ؛ فلما انهزم المسلمون انخرزت إلى رسول الله ، فقامت أبشیر القتال ، وأذبت عنه بالسيف ، وأرجمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلى .

وترس^(٣) دون رسول الله أبو دجانة بنفسه ، يقع النبل في ظهره وهو مُنَحْنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل . وكذلك فعل سعد بن أبي وقاص وغيره .

وساد الناس هرج ومرج^(٤) بَمَد الهزيمة وقول الناس : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ! إلى أن عرفه كعب بن مالك ؛ إذ رأى عينيه تزهزان^(٥) من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ أبشروا ، هذا رسول الله ! فأشار إليه الرسول : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله نهضوا به ، فأخذ علي بن أبي طالب بيده ، ورفع طليحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً ؛ ومص مالك بن سنان الدّم عن وجهه ، ونزع أبو عبيدة إحدى الخلقتين ، فسقطت ثنيته وهو يمالج إخراجها ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، ونهض معهم نحو الشعب ، يصاحبه أبو بكر وعمر ورهط من المسلمين .

ولما أسند^(٦) رسول الله في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت إن نجوت ! فقال القوم : يا رسول الله ؛ أيعطف عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله : دعوه . فلما دنا منه تناول الحربة ، ثم استقبله فطمعته في عنقه طمعة تدأ^(٧) منها عن فرسه مراراً ، ورجع إلى قریش وقد خدش في عنقه خدشاً غير كبير ، فقال : قتلني والله محمد ! قالوا : ذهب والله فؤادك ، والله ما بك من بأس ؟

(١) الغلبة والنصر . (٢) أذبت : أذاف . (٣) الترس النسر بالترس ، والمراد : وقف دونه بقيه بنرسه . (٤) هرج ومرج : اختلاط واضطراب . (٥) تزهزان : تضيقان وتلتمان . (٦) أسند في الجبل : صعد فيه . (٧) تدأ : مال .

قال : إنه كان قال لي بمكة : أنا أَقْتُلُكَ ! ثم مات بِسَرَف^(١) ، وهم قَافِلُونَ به إلى مكة^(٢) .

وانتهى رسولُ الله إلى فَمِ الشَّعْب ، وبينما هو هناك ومعه نَفَرٌ من أصحابه إِذْ عَلَتْ عَالِيَةً من قُرَيْشِ الجبل ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يَمَلُونَا . فقاتل عمر ورَهْط من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل .

وقُتِلَ من المسلمين عددٌ كبير^(٣) ، ووقفت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يُمَثِّلْنَ بالقتلى من أصحاب رسول الله : يَجِدْنَ الآذان والأنوف ، حتى أخذت هند من آذان الرجال وأنفهم خَدَمًا^(٤) وقلائد ، وأعطت هند خَدَمَهَا وقلائدها وقرطها وَخَشِيًّا غلام جُبَيْر بن مُطْعِم ، وَبَقَرَت^(٥) عن كَبِدِ حِمْرَةٍ فلاكتها^(٦) ؛ فلم تستطع أن تُسَيِّمَهَا فَلَقَطَتْهَا ، ثم علَّت على صَخْرَةٍ مُشْرِفَةٍ فصرخت بأعلى صوتها قائلة :

نَحْنُ جَزَيْنَاكُمْ	بِیَوْمِ بَدْرٍ	والحربُ بعد الحربِ ذاتُ سُمْرٍ ^(٧)
ما كان عَنْ عُتْبَةَ لى من صَبْرٍ	ولا أخى وعمّه وبِكْرِي ^(٨)	
شَفِيتُ نَفْسِي وَقَضِيتُ نَذْرِي	شَفِيتَ وَخَشِيٌّ غَلِيلَ صَدْرِي	
فَشُكْرُ وَخَشِيٍّ عَلَى عَمْرِي	حتى تَرِمَّ أَعْظَمِي فِي قَبْرِی ^(٩)	

(١) سرف : موضع على ثلاثة أميال من مكة . (٢) قال حسان في ذلك :

لقد ورث الضلالة عن أبيه أُنِيَّ يوم بارزه الرسول

(٣) قال أبو سفيان بن حرب يذكر صبره في ذلك اليوم ومعاونة ابن شعوب شداد :

ولو شئت نجتى كبت طمرة ولم أحمل النعماء لابن شعوب

فأزال مهرى مزجرا لكب منهم لدى غدوة حتى دنت لغروب

فأجابه حسان :

ذكرت القروم الصيد من آل هاشم ولست لزور قلته بمصيب

أنجب أن أقصدت حمزة منهم نجيباً وقد سميته بنجيب !

(٤) خدماً : جمع خدمة وهي الخلخال . (٥) بقرت : شقت . (٦) لاكتها : مضغتها .

(٧) السمر : العذاب . (٨) أبوها عتبة ، وأخوها الوليد ، وعمها : شيبه ، وبكرها :

ابنها حنظلة ، وأرابتهم قتلوا يوم بدر . (٩) ترم : تبلى .

فأجابتها هند بنت أمية بن عباد فقالت :

خزيت في بدرٍ وبعس بدرٍ يا بنت وقاعٍ عظيم الكفر^(١)
صبحك الله غداة الفجر ملهاشمين الطوال الزهر^(٢)
بكل قطاع حسام يفرى^(٣) حمزة ليثي وعلي صقري
إذ رام شيب^(٤) وأبوك غدري فخصبها منه ضواحي النحر^(٥)
* ونذر لك السوء فشر نذر *

ثم إن أبو سفيان بن حرب أشرف على الجبل ، وصرخ بأعلى صوته فقال :
أفي القوم محمد ؟ ثلاثا . ففهام رسول الله أن يجيبوه . ثم قال : أفي القوم ابن
أبي قحافة ؟ ثلاثا . ففهام رسول الله أن يجيبوه . ثم قال : أفي القوم ابن الخطاب ؟
ثلاثا . ففهام رسول الله أن يجيبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء
فقد قتلوا ؛ لو كانوا في الأحياء لأجابوا ! فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه
أن قال : كذبت يا عدو الله ! قد أبقي الله لك ما يخزيك . فقال : اعل هبل ،
اعل هبل^(٦) . فقال رسول الله : أجيئوه . قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله
أعلى وأجل . قال أبو سفيان : ألا إن لنا العزى ولا عزى لكم ! فقال رسول الله
قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم . قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب
سجال^(٧) ! إن موعدكم بدر للعام القابل ! فقال رسول الله لرجل من أصحابه :
قل : نعم ؛ هو بيننا وبينك موعد^(٨) .

(١) وقاع : كثير الوقوع في الدنيا . (٢) ملهاشمين : من الهاشمين . الزهر : الكرام .

(٣) يفرى : يقطع . (٤) شيب : شبيبة . (٥) ضواحي النحر : ما ظهر من الصدر .

(٦) هبل : صنم . (٧) الحرب سجال : أي لجماعة مرة ، ولجماعة مرة أخرى .

(٨) خرج رسول الله في شعبان سنة أربع لبعاد أبي سفيان حتى نزل بدرأ ، وأقام عليه ثمانى
ليال ينتظر أبا سفيان ، وخرج أبو سفيان في أهل مكة ، ثم بدا له الرجوع ، فأنصرف رسول الله
إلى المدينة ولم يلق حرباً ، وهذه هي غزوة بدر الآخرة .

ثم بعث رسول الله على بن أبي طالب فقال : اخرج في آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون ، وماذا يريدون ! فإن كانوا قد جنبوا^(١) الخيل ، وامتنطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ، ثم لأناجزنهم . فخرج على في آثارهم ليري ما يصنعون ، فإذا هم قد جنبوا الخيل ، وامتنطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة .

وفرغ الناس لقتالهم ، فقال رسول الله : من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد . فنظر فوجده جريحاً في القتلى ، به رمق^(٢) . فقال له : إن رسول الله قد أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ قال : أنا في الأموات . فأبلغ رسول الله عني السلام ، وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عفاً خيراً ما جرى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عيب تطرف . ثم لم يبرح حتى مات ؛ فجاء رسول الله فأخبره خبره^(٣) .

وخرج رسول الله يلتمس حمزة بن عبد المطلب ، فوجده يبطن الوادي قد بقر بطنه ، ومثل به ، فجذع أنفه وأذناه ، فقال حين رأى مارأى : لولا أن تحزن صفة وتكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير . ولئن أظهرني^(٤) الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم .

(١) جنبوا الخيل : جعلوها بجانبهم لم يركبوها ، حتى إذا فتر المركوب تحولوا إلى المحبوب .

(٢) الرمح : بقية الحياة . (٣) دخل رجل على أبي بكر ، وبنت لسعد بن الربيع جارية

صغيرة يقبلها ، فقال له الرجل : من هذه ؟ قال : هذه بنت رجل خير مني ؟ هو سعد بن الربيع .

(٤) أظهرني : نصرني .

ولما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله وغيظه مما فعل بعمته قالوا : والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثّلنّ بهم مُثْلَةً لم يُمثّلها أحدٌ من العرب^(١).

ووقف رسول الله على حمزة ، وقال : لَنْ أَصَابَ بِمِثْلِكَ أبداً ، ما وقفتُ موقفاً قطُّ أغيظُ إلىّ من هذا ! ثم أمر به فُسَجِّي^(٢) بِرُذَّةٍ ، ثم صلى عليه ، ثم أتى بالقتلى يُوضَعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم ..

وأقبلت أخته صفية بنت عبد المطلب لتنظرَ إليه ، فقال رسول الله لابنها الزبير بن العوام : ألقها فأرجعها حتى لا ترى ما بأخيها . فقال لها : يأمّ ! إن رسول الله يأمرُك أن ترجعى . قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّلَ بأخى ؛ وذلك في الله قليل ! فما أَرْضَانَا بما كان ! لأَحْتَسِبَنَّ ولأَصْبِرَنَّ إن شاء الله !

فلما جاء الزبير إلى رسول الله وأخبره بذلك قال : خَلِّ سَبِيلَهَا . فأتته فنظرت إليه وصَلَّتْ عليه واسترَجَعَتْ^(٣) واستغفرت له ، ثم أمر به رسول الله فدُفِنَ !

وأشرف رسول الله على القَتْلِ ، وقال : أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنه ما من جريحٍ يُجْرَحُ في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدعى جُرْحَهُ ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمِهِ ، والريح ريح مِسْكِ . انظروا أكثرَ هؤلاء جَمْعاً للقرآن فاجعلوه أمامَ أُنْحَابِهِ في القبر . ثم قال : انظروا إلى عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو ، فإنهما كانا متصافيين في الدنيا ، فاجعلوهما في قبرٍ واحد .

ثم انصرف راجعاً إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فدعى لها أخاها عبد الله ابن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثم كفى لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم كفى لها مُصَنَّبُ بن عُمَيْرٍ - زوجها - فصاحت

(١) عن ابن عباس أن الله أنزل في ذلك : « وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لهو خير للصائرين » فعفا رسول الله وصبر ، ونهى عن المثلثة . (٢) سجي : غطى .
(٣) قالت : إنما لله وإنا إليه راجعون .

وَوَلَّوْتُ . فقال رسول الله : إِنَّ زَوْجَ الْمَرْأَةِ مِنْهَا بِمَكَانٍ .

ومرَّ رسولُ الله بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ ، فَسَمِعَ مِنْهُمْ الْبُكَاءَ وَالتَّوْاحِ عَلَى قَتْلِهِمْ ، فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ وَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ : لَكِنَّ حِزَّةَ لَا بَوَارِكِي لَهُ ! فَذَهَبَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ إِلَى دُورِ الْأَنْصَارِ فَأَمَرَ نِسَاءَهُمْ أَنْ يَذْهَبْنَ فَيُكَبِّينَ عَلَى عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ . وَسَمِعَ النَّبِيُّ بُكَاءَهُنَّ عَلَى حِزَّةٍ نَخَرَجَ إِلَيْهِنَّ ، وَهُنَّ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ وَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ الْأَنْصَارَ ! فَإِنَّ الْمَوَاسَاةَ مِنْهُمْ مَا عَلِمْتُ لَقَدِيمَةً ، مُرُّهُنَّ قَلِيلٌ يَنْصُرُنِي .

ومرَّ فِي طَرِيقِهِ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ قَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا بِأُحُدٍ ، فَلَمَّا نَعَمُوا إِلَيْهَا قَالَتْ : فَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ قَالُوا : خَيْرًا ، هُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا تُحِبِّينَ . قَالَتْ : أَرُونِيهِ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَأَشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ : كُلُّ مَصِيبَةٍ بِمَعْدَكَ جَلَلٌ (١) !

وَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ إِلَى أَهْلِهِ نَاولَ سَيْفَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ وَقَالَ : اغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بَنِيَّةَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ . وَنَاولَهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ فَقَالَ : وَهَذَا أَيْضًا فَاغْسِلِي عَنْ دَمِهِ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ .

وَلَمَّا كَانَ الْغَدُ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ مُرْهَبًا لِلْعَدُوِّ ، وَلَيَّيْلَانَهُمْ أَنَّهُ خَرَجَ فِي طَلَبِهِمْ فَيُظْلَمُونَ بِهِ قُوَّةً ، وَأَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ لَمْ يُؤْهِنَهُمْ عَنْ عَدُوِّهِمْ . وَأَذَّنَ مُؤَذِّنُهُ أَلَّا يُخْرَجَنَّ مَعَنَا أَحَدٌ إِلَّا مَنْ حَضَرَ يَوْمَنَا بِالْأَمْسِ ، فَكَلَّمَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنْ أَبِي كَانَ خَلْفَنِي لَأَخَوَاتِي لِي سَبْعٌ وَقَالَ : يَا بَنِيَّ ؛ إِنَّهُ لَا يَبْنِي لِي وَلَا لَكَ

(١) جلال : يسيرة .

أَنْ تَتْرَكَ هَؤُلَاءِ النِّسْوَةَ لَا رَجُلَ فِيهِنَّ ، وَلَسْتُ أُورِثُكَ بِالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى نَفْسِي ، فَتَخَلَّفَ عَلَى أَخْوَانِكَ ، فَتَخَلَّفَتْ عَلَيْهِنَّ . فَأَذِنَ لَهُ بِالْخُرُوجِ .

وخرج رسولُ الله حتى انتهى إلى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ - وهي من المدينة على ثمانية أميال - فَرَّبَ بِهِ مَعْبِدَ الْخَزَاعِي (١) ، فقال : يَا مُحَمَّدُ ؛ وَاللَّهِ لَقَدْ عَزَّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَكَ فِي أَصْحَابِكَ ، وَلَوْ دِدْنَا أَنَّ اللَّهَ عَافَاكَ مِنْهُمْ . ثُمَّ سَارَ مَعْبِدَ الْخَزَاعِي ، حَتَّى لَقِيَ أَبَا سَفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ وَمَنْ مَعَهُ بِالرَّوْحَاءِ (٢) ، وَقَدْ أَجْمَعُوا الرِّجْعَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَقَالُوا : أَصَبْنَا حَدَّ (٣) أَصْحَابِهِ وَأَشْرَافِهِمْ وَقَادَتَهُمْ ، ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ نَسْتَأْصِلَهُمْ ! لِنَسْكُرَنَّ عَلَى بَقِيَّتِهِمْ فَلَنَفْرُغَنَّ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو سَفْيَانَ مَعْبِدَ الْخَزَاعِي قَالَ : مَا وَرَاءَكَ يَا مَعْبِدُ ؟ قَالَ : قَدْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرْ مِثْلَهُ قَطُّ ؛ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ تَحَرُّقًا ، وَقَدْ اجْتَمَعَ مَعَهُ مَنْ كَانَ تَخَلَّفَ عَنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَاضِيَتِهِمْ وَفِيهِمْ مَنْ أَخْلَقَ عَلَيْكُمْ شَيْءًا لَمْ أَرْ مِثْلَهُ قَطُّ ! قَالَ : وَيَحَاكَ مَا تَقُولُ ! قَالَ : وَاللَّهِ أَرَى أَنَّكَ لَا تَرْتَحِلُ حَتَّى تَرَى نَوَاصِيَ الْخَيْلِ . قَالَ : فَوَاللَّهِ لَقَدْ جَمَعْنَا الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتَهُمْ . قَالَ : فَإِنِ أَنْهَاكَ عَنْ ذَلِكَ ، وَوَاللَّهِ لَقَدْ حَمَلَنِي مَا رَأَيْتُ عَلَى أَنْ قُلْتُ أَيْبَاتًا مِنَ الشَّعْرِ . قَالَ : وَمَا قُلْتَ ؟ قَالَ : قُلْتُ :

كَادَتْ تُهَيِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضُ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ (٤)
تَرْدِي بِأَسَدٍ كِرَامٍ لَا تَنَابِلُهُ (٥) عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٍ مَعَاذِيلِ (٦)

(١) كانت خِزَاعَةُ ، مسلمهم ومشرِكهم موضع سر رسول الله بتهامة ، لا يخفون عنه شيئاً كان بها . (٢) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين ميلاً من المدينة . (٣) حد أصحابه : بأسمهم . (٤) تهيد : تسقط من الإعياء لهول ما ترى . والجرد : الخيل الكريهة . والأبَابِيل : الجماعات . (٥) ردى الفرس : رجعت الأرض بمخوافها ، أو هو بين العدو والمشي . التنايلة : القصار . (٦) الميل : الذين لا يثبتون على السرج . والمعاذيل : الغزل من السلاح .

فَطَّاتُ عَدَوًا أَظُنُّ الْأَرْضَ مَائِلَةً لَمَّا سَمَوْا بِرَيْسٍ غَيْرِ مَخْذُولٍ
فَقَاتُ : وَيْلُ ابْنِ حَرْبٍ مِنْ لِقَائِكُمْ إِذَا تَنَطَّطَتِ الْبَطْحَاءُ بِالْجَلِيلِ (١)
إِنِّي نَذِيرٌ لِأَهْلِ الْبُسْلِ ضَاحِيَةٍ اسْكُلْ ذِي إِرْبَةِ مِنْهُمْ وَمَعْقُولِ (٢)
مِنْ جَيْشٍ أَحْمَدُ لَا وَخْشَ (٣) قَنَابِلُهُ وَلَيْسَ يَوْفُ مَا أُنْذِرْتُ بِالْقَيْلِ

وَمَرَّ بِأَبِي سَفْيَانَ رَكْبٌ مِنْ غُبْدِ الْقَيْسِ فَقَالَ : أَيْنَ تَرِيدُونَ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ
الْمَدِينَةَ ، قَالَ : لِمَ ؟ قَالُوا : نُرِيدُ الْمِيرَةَ (٤) . قَالَ : فَهَلْ أَنْتُمْ مَبْلَغُونَ عَنِّي مُحَمَّدًا رَسُولًا
أُرْسِلَكُمْ بِهَا إِلَيْهِ ، وَأَحْمِلْ لَكُمْ إِبَالَكُمْ هَذِهِ غَدًا زَيْبًا بُعْكَازَ إِذَا وَافَيْتُمُوهَا ؟
قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : فَإِذَا وَافَيْتُمُوهُ فَأَخْبِرُوهُ أَنَّا قَدْ أَجْمَعْنَا السَّيْرَ إِلَيْهِ وَإِلَى أَصْحَابِهِ
لِنَسْتَأْصِلَ بَقِيَّتِهِمْ .

فَرَرِ الرُّكْبُ بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَهُوَ بِحِمَّرَاءِ الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرُوهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو سَفْيَانَ ،
فَقَالَ : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

وَأَرَادَ أَبُو سَفْيَانَ السَّيْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَأْصِلَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ
أُمِيَّةَ بْنِ خَافٍ : يَا قَوْمَ ، لَا تَفْعَلُوا ، فَإِنَّ الْقَوْمَ قَدْ حَرَبُوا (٥) ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَكُونَ
لَهُمْ قِتَالٌ غَيْرَ الَّذِي كَانَ ، فَارْجِعُوا . فَارْجِعُوا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ
بِحِمَّرَاءِ الْأَسَدِ حِينَ بَلَغَهُ أَنَّهُمْ هَمُّوا بِالرَّجْعَةِ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ؛ لَقَدْ سُومِتَ (٦) لَهُمْ
حِجَارَةٌ لَوْ صُبَّحُوا بِهَا لَكَانُوا كَأَمْسِ الدَّاهِبِ .

(١) تَنَطَّطَت : اضطربت ، والجَلِيل : الصنف من الناس . (٢) الْبُسْل : الحرام ، ويريد
بأهل البسل مكة ، والإِرْبَةُ : العقول . (٣) الْوَخْش : صفار الناس ورذالهم . الْقَنَابِل : طوائف
الناس والجَلِيل . (٤) الْمِيرَةُ : جلب الطعام . (٥) حَرَبُوا : غضبوا وتغلبوا .
(٦) سُومِت : أرسلت .

وقدم رسول الله المدينة ، وكان عبد الله بن أبيّ بن سؤل له مقام يقومه كل جمعة لا يُنكرُ ، شرفاً له في نفسه وفي قومه ، وكان إذا جلس رسول الله يوم الجمعة ، وهو يخطب الناس قام فقال : آتيا الناس ؛ هذا رسول الله بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزروه^(١) واسمعو له وأطيعوا ، ثم يجلس ؛ حتى إذا صنع يوم أحد^(٢) ما صنع ، ورَجَعَ بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعل ، فأخذ المسلمون بنبأه من نواحيه ، وقالوا : اجلس أى عدو الله ! لست لذلِكَ بأهل ، وقد صنعت ما صنعت .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لسكأتما قلتُ بُجراً^(٣) أن قتُ أشدُّ أمره . فلقية رجل من الأنصار بباب المسجد . وقال له : مالكَ ويَلَك ! قال : قتُ أشدُّ أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجيذوني^(٤) ويمنفوني لسكأتما قلتُ بُجراً . أن قتُ أشدُّ أمره ! قال : ويَلَك ! ارجع يستغفر لك رسول الله . قال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

وكان يوم أحد يومَ بلاءٍ وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومَحَقَ المنافقين ، ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه ، وكان يوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

وبما قيل من الشعر في هذا اليوم قول حسان بن ثابت يحيب هيرة بن أبي وهب^(٥) :

(١) عزروه : عظموه . (٢) أى رجوعه بثلت الناس . (٣) البجر : الشر والأمر العظيم .

(٤) يجيذونى : يجذبونى . (٥) ديوانه : ٤٢٤ .

سُفْتُمْ كِنَانَةً جَهْلًا مِنْ سَفَاهَتِكُمْ^(١) إِلَى الرَّسُولِ فَجُنِدُ اللَّهِ يُخْزِيهَا
 أَوْرَدْتُمُوهَا حِيَاضَ الْمَوْتِ ضَاحِيَةً^(٢) فَالنَّارُ مَوْعِدُهَا وَالْقَتْلُ لَا قِيَهَا
 جَمَعْتُمُوهُمْ أَحَابِيشًا بِلَا حَسَبٍ^(٣) أُمَّةَ الْكُفْرِ غَرَرْتُمْ طَوَاعِيَهَا
 أَلَا اعْتَبَرْتُمْ بِخَيْلِ اللَّهِ إِذْ قَتَلَتْ^(٤) أَهْلَ الْقَلِيبِ وَمَنْ أَلْقَيْنَهُ فِيهَا^(٥)
 كَمْ مِنْ أَسِيرٍ فَكَكْنَاهُ بِلَا تَمَنٍّ وَجَزَّ نَاصِيَةً كُنَّا مَوَالِيَهَا^(٦)

(١) في الديوان: «من عداوتكم» . . (٢) الضاحية: البارزة . (٣) في الديوان: «أنتم
 أحابيش جمع بلا نسب» . (٤) في الديوان: «هلا . . . إذ لقيت» .
 (٥) في الديوان: «ومن أردبته فيها» . القليب: البئر، ويريد بأهل القليب: من قتل في
 بدر من المشركين فطرح في القليب . (٦) مواليا: أهل النعمة والفضل عليها . يريد أنهم فكوا
 كثيراً من أسرى قريش يوم بدر بغير فداء فكانوا لذلك أصحاب النعمة .

٣ - يوم الرجيع (*)

قدم على رسول الله بعد أخذ رهط من عضل والقارة^(١) ، فقالوا : يا رسول الله ، إن فينا إسلاما وخيرا ، فابعث معنا نفرا من أصحابك يفتقوننا في الدين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله معهم ستة من أصحابه ، وأمر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، فخرج مرثد مع القوم ، حتى إذا كانوا على الرجيع غدرُوا^(٢) بهم ، واستصرخوا عليهم هذيلًا .

ولم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رأوا الرجال في أيديهم السيوف ، فأخذوا أسياقهم ليقاتلهم ، فقالوا لهم : إنا لا نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نُصيبَ بكم شيئا من أهل مكة ، ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم . فقال مرثد ابن أبي مرثد ورجلان معه^(٣) : لا نقبل من مُشركٍ عهدًا ولا ميثاقًا ، وقاتلوا حتى قتلوا جميعًا .

وأما الثلاثة الآخرون^(٤) فرغبوا في الحياة ، وأعطوا بأيديهم ، فأسروهم ، وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعهم هناك .

* سيرة ابن هشام : ٣ - ١٦٠ ، تاريخ الطبري : ٣ - ٢٩ ، معجم البلدان ٤ - ٢٢٨ ، وكان هذا اليوم في السنة الرابعة من الهجرة . والرجيع : ماء لهذيل .

(١) عضل والقارة : قبيلتان من كنانة . (٢) قال حسان يهجو هذيلًا :

هم غدروا يوم الرجيع وأسلمت أماتهم ذا عفة ومكارم

رسول رسول الله غدروا ولم تكن هذيل توفى منكراة المحارم

(٣) ما خالد بن البكير ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأفلح . (٤) هم زيد بن الدثنة ،

وعبد الله بن طارق ، وخبيب بن عدي .

أما أحدهم ، وهو عبدُ اللهِ بنُ طارق فقد انتزع يده من القرآن^(١) حينما وصل إلى الظهران وأراد الفرار ، فقتلوه .

وأما ثانيهم ، وهو حُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ ، فقد ابتاعه بعضُ أهلِ مَكَّةَ لِيَقْتُلَهُ بِأُيُوبِ ، وخرجوا به من الحرم لِيَقْتُلُوهُ ، فقال : « ذَرُونِي أَصِلَّ رَكْمَتَيْنِ ؛ فَصَلَّيْ سَجْدَتَيْنِ ، ثُمَّ قَالَ : لَوْلَا أَنْ يَقُولُوا : جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ لَزِدْتُ ، وَمَا أَبَالِي عَلَى أَيْ شَيْءٍ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي ! »

ثم رفعوه على خَشْبَةٍ ، فَلَمَّا أَوْثَقُوهُ ؛ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ بَلَّغْنَا رِسَالَةَ رَسُولِكَ ، فَلَنَّا الْغَدَاةَ مَا يُصْنَعُ بِنَا . اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا ، وَلَا تُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ثم قتلوه .

وأما الثالث ، وهو زَيْدُ بْنُ الدَّثَنَةِ ، فقد ابتاعه بِمَكَّةَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ لِيَقْتُلَهُ بِأُيُوبِ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ .

وبعث به صَفْوَانُ مَعَ مَوْلى لَهُ إِلَى التَّنْعِيمِ^(٢) لِيَقْتُلَهُ ، واجتمع إليه رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فِيهِمْ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ حِينَ قُدِّمَ لِيُقْتَلَ : أُنْشِدْكَ اللَّهُ يَا زَيْدُ ، أَتَحِبُّ أَنْ مُحَمَّدًا عِنْدَنَا الْآنَ مَكَانَكَ نَضْرِبُ عُنُقَهُ ، وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ ! قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا تُصِيبَهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَأَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي ! قَالَ أَبُو سَفْيَانَ : مَا رَأَيْتُ فِي النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّهُ أَصْحَابُهُ كَمَا يُحِبُّ هَؤُلَاءِ مُحَمَّدًا .

ولما قُتِلَ الَّذِينَ وَجَّهَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى عَصَلٍ وَالْقَارَةِ ، وَبَلَّغَهُ خَبَرُهُمْ بَعَثَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الصَّمْرِيُّ إِلَى مَكَّةَ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَأَمَرَهَا بِقَتْلِ ابْنِ سَفْيَانَ ابْنَ حَرْبٍ - قَالَ عَمْرُو :

(١) القرآن : الحبل . (٢) التنعيم : موضع على ثلاثة أميال من مكة .

(٤) - أيام العرب في الإسلام -

بمثنى رسول الله بعد قتل أصحابه الذين معهم إلى عَصَل والقارة ، وبمثنى معى رجلا ، وقال : اثْنِيَا أبا سفيان بن حَرْبٍ فاقْتَلَاهُ . نَحَرَجْتُ أَنَا وصاحبي ، ومضى بعيرٌ لى ، وليس مع صاحبي بعير ، ورجله عِائَةٌ ، فكنت أحمله على بعيرى ، حتى جئنا بَطْنَ يَأْجُجَ^(١) ؛ فَمَقَلْنَا بَعِيرَنَا فِي فِنَاءِ شَعْبٍ بِالْجَبَلِ ، وَأَسْنَدْنَا^(٢) فِيهِ ، فقات لصاحبي : انطاق بنا إلى دارِ أبي سفيان ، فإني محاولٌ قتله ، فانظر فإن كانت مُجَاوِلَةٌ ، أو خَشِيتَ شَيْئًا فَالْحَقْ بِبَعِيرِكَ فَارْكَبْهُ ، وَاثْبُرْ رَسُولَ اللَّهِ بِالْمَدِينَةِ فَأُخْبِرْهُ الْخَبْرَ ، وَخَلَّ عَنِّي فَإِنِّي رَجُلٌ عَالِمٌ بِالْبَلَدِ ، جَرَى عَلَيْهِ .

ودخلنا مكة ، ومضى مثلُ خَافِيَةِ النَّسْرِ^(٣) ، قد أعددتُه إن عاقبني إنسانٌ قتلته به .

فقال لى صاحبي : هل لك أن نبدأ فنطوفَ بالبيت ونصلِّي ركعتين ! فقلتُ له : أنا أعلمُ بأهل مكة منك ، إذا أَظْلَمُوا رَشُّوا أَفْزَيْتَهُمْ ثم جلسوا فيها ، وأنا أعزفُ بها من الفَرْسِ الْأَبْلَقِ .

فلم يزلْ بى حتى أَتَيْنَا الْبَيْتَ فَطَفُّنَا بِهِ ، وَصَلَّيْنَا رَكْعَتَيْنِ ، ثم خرجنا فمررنا بمجلس من مجالسهم ، فعرَفْنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَصَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : هَذَا عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ ! فَنَبَّادَرَ أَهْلُ مَكَّةَ ، وَقَالُوا : مَا جَاءَ عَمْرُو بِخَيْرٍ ! وَقَامُوا فِي طَلْبِي وَطَابِ صَاحِبِي ، فَقُلْتُ لَهُ : النِّجَاءُ ! هَذَا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَخْذَرُ ، فَأَنْجُ بِنَفْسِكَ !

وخرجنا نَشْتَدُ^(٤) حتى أَصْعَدْنَا فِي الْجَبَلِ ، فَدَخَلْنَا غَارًا فَبِتْنَا فِيهِ لِيَلْتَنَا ، وَأَعْجَزْنَا فَرَجَعُوا ، وَقَدْ اسْتَتَرْتُ دُونَهُمْ بِأَحْجَارٍ حِينَ دَخَلْتُ النَّارَ ، وَقُلْتُ لَصَاحِبِي : أَمْهَانِي حَتَّى يَسْكُنَ الطَّلَبُ عَنَا ، فَإِنَّهُمْ وَاللَّهِ سَيَطْلُبُونَنَا لِيَلْتَهُمْ هَذِهِ ، أَوْ يَوْمَهُمْ هَذَا حَتَّى يُمْسُوا .

(١) يَأْجُج : موضع بمكة . (٢) يقال أسندنا في الجبل : إذا صعد فيه . (٣) يريد خنجره .

(٤) نشتد : نعدو .

وإني لفي هذا الغار إذ أقبل عثمان بن مالك يَخْتَلِ (١) بفرسٍ له ، فلم يزل يدنو حتى قام علينا بباب الغار ، فقلت لصاحبي : هذا والله ابنُ مالك ، لئن رآنا كيُمَلِمَنَّ بنا أهل مكة .

فخرجتُ إليه فَوَجَّأته (٢) بالخنجر تحت الثدي ، فصاح صيحةً أسمع أهل مكة ، فأقبلوا إليه ورجعتُ إلى مكاني فدخلتُ فيه ، وقلتُ لصاحبي : مكانك ! واتبع أهل مكة الصوت يشتدون ، فوجدوه وبه رمق ، فقالوا : ويلك ! مَنْ ضربك ؟ قال : عمرو بن أمية ؛ ثم مات ، ولم يخبرهم بمكاننا .

فقالوا : والله لقد علمنا أنه لم يأت بخير ، وشغلهم صاحبهم عن طلبنا ، فاحتملوه ؛ ومكثنا في الغار يومين حتى سكن عنا الطلب .

ثم خرجنا إلى التَّعْميم ، فإذا خشبة خبيث بن عدى ، فقال لي صاحبي : هل لك في خبيث تُنْزِلُه عن خشبته ؟ فقلت : أين هو ؟ قال : هو ذاك حيث ترى . فقلت : نعم ، فأْمِهْلني وتنح عني . قال : ولكنَّ حوله حرَّاساً يحرسونه ! قلت : إن خشيتُ بأساً نخذ الطريقَ إلى جَمَلِك فاركبه ، وألحق برسول الله فأخبره الخبر .

فاشددتُ إلى خشبته فاحتللتُهُ ، واحتملته على ظهري ، فوالله ما مشيتُ إلا نحو أربعين ذراعاً حتى نذروا (٣) بي ، فطرحته ، فأنسى وَجْبَتَهُ (٤) حين سقط ، واشتدوا في أثرِي ، فأخذتُ طريقَ إلى أن أعيوا ورجعوا .

وانطلق صاحبي إلى بعيره فركبه ، ثم أتى الرسولَ فأخبره أمرنا ، وأقبلتُ أمشي حتى إذا أشرفتُ على غارِ بضَجْنَان (٥) دخلتُ فيه ، ومعى قوسي وأسهمي . فبينما أنا فيه إذ دخلَ عليَّ رجلٌ من بني الدَّيْل بن بكر ، أعورٌ طويلٌ ،

(١) يختل به، أي يداوره ويطلبه من حيث لا يشعر. (٢) وجَّأته : ضربته . (٣) نذر بالأمر : علمه لخبره . (٤) الوجبة : السقطة مع الهدية . (٥) ضجنان : جبل قرب مكة .

يسوقُ غنما له ، فقال : مَنْ الرجل ؟ فقلت : رجل من بنى بكر ! قال : وأنا من بنى بكر ، ثم اضطلع معي فيه ، وَرَفَعَ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى ، ويقول :
ولستُ بِمُسْلِمٍ ما دمتُ حيًّا ولستُ أُدِينُ دِينَ الْمَسْلَمِينَ

فقات : سوف تَعَمُّ . ولم يابث الأعرابيُّ أن نام وغطَّ فقامتُ إليه ، فقتلته أسوأ قِتْلَةٍ ، ثم ماتُ إليه فجاءتُ سَيِّةً ^(١) قوسى فى عينه الصحيحة ، وتحملتُ عليها حتى أخرجتها من قَفَاهُ .

وأخذتُ المحجَّةَ ^(٢) كَأَنِّي نَسْرٌ ، وكان النَجَاءُ ؛ حتى إذا كنتُ بِالْبَقِيعِ ^(٣) ، رأيتُ رجلين قد بَعَثْتَهُمَا قَرِيشٌ يَتَحَسَّسَانِ مِنْ أَمْرِ الرَّسُولِ ، فمَرَقْتُهُمَا ، وقلتُ لهما : اسْتَأْسِرَا ^(٤) . فقال : أَنَحْنُ نَسْتَأْسِرُكَ ! فزمتُ أَحَدَهُمَا بِسَهْمٍ فقتلته ، ثم قلتُ للآخر : اسْتَأْسِرْ ؛ وأوثقتُهُ ، وقَدِمْتُ بِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ .

ولما قَدِمْتُ الْمَدِينَةَ مَرَرْتُ بِجَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، فقالوا : هَذَا وَاللَّهِ عَمْرُؤُ بْنُ أُمَيَّةَ ؛ وَسَمِعَ الصَّبِيَّانُ قَوْلَهُمْ ، فَاسْتَدُّوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ يُخْبِرُونَهُ .

وذهبتُ إِلَى النَّبِيِّ ، وَقَدْ شَدَدْتُ إِبْهَامَ أُسَيْرِي بِوَتَرِ قَوْسِي ، فَنَظَرَ إِلَيَّ وَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، ثُمَّ سَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ الْخَبْرَ ، فَدَعَا لِي بِخَيْرٍ .

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها . (٢) المحجَّة : المقصد والعريق . (٣) البقيع :

مقبرة بالمدينة . (٤) استأسرا كونا أسيرين .

٤ — يوم بئر معونة*

قدم أبو براء عامر بن مالك مُلَاعِبُ الْأُسْنَةِ^(١) على رسول الله في المدينة ، وأهدى إليه هَدِيَّةً ، فأبى رسول الله أن يقبلها ، وقال : يا أبا براء ؛ لا أقبل هذه الهدية ، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك . ثم عرض عليه الإسلام ، وأخبره بما وعد الله المؤمنين من الثواب ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام . وقال : يا محمد ؛ إن أمرَك هذا الذي تدعو إليه حسنٌ جميل ؛ فلو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرِك رجوت أن يستجيبوا لك !

فقال رسول الله : إني أخشى عليهم أهل نجد ؛ فقال أبو براء : أنا لهم جار ؛ فابعثهم فليدعُوا النَّاسَ إلى أمرِك .

بعث رسول الله المنذر بن عمرو^(٢) في أربعين رجلاً من أصحابه ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، فقال بعضهم لبعض : أيُّكم يُبلِّغُ رسالةَ رسولِ الله أهلَ هذا الماء ؟ فقال حَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ : أنا أبلغُ رسالةَ رسولِ الله . وخرج حتى أتى حِوَاءَ^(٣) منهم ، فاحتسبى أَمَامَ الْبَيْوتِ ؛ ثم قال : يا أهل بئر معونة ! إني رسولُ محمد إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله ؛ وأنَّ محمداً عبْدُ ورسولُه ، فأَمِنُوا بالله ورسولَه . فخرج إليه عامر بن الظَّفَّيل من كِسْرِ الْبَيْتِ^(٤) برُمُحٍ ؛ فضرب به في جَنْبِهِ حتى خرج من الشَّقِّ الْآخِرِ ؛ فقال : اللهُ أَكْبَرُ ! فُزْتُ وربُّ الكعبة^(٥) !

* سيرة ابن هشام : ٣-١٨٤ ، تاريخ الطبري : ٣-٣٣ . كان في السنة الرابعة من الهجرة . وبئر معونة بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم . (١) سيد بن عامر بن صعصعة . (٢) قيل : سبعين رجلاً . (٣) العرب تقول تجتمع بيوت الحى : محتوى ومعوى وحواء . (٤) كسر البيت : جانبه . (٥) يريد أنه فاز بالشهادة ، فله الجنة .

وَاتَّبَعُوا أَثَرَهُ حَتَّى اتَّوَا أَصْحَابَهُ ، وَاسْتَمَانُوا عَلَيْهِمْ بِقَبَائِلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، وَخَرَجُوا جَمِيعًا حَتَّى غَشَوْا ^(١) الْقَوْمَ ، فَأَحَاطُوا بِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ .

وَلَمَّا رَأَاهُمُ الْمُسْلِمُونَ أَخَذُوا السِّيُوفَ ، ثُمَّ قَاتَلُوهُمْ حَتَّى قُتِلُوا عَنْ آخِرِهِمْ ؛ إِلَّا كَعَبُ بْنُ زَيْدٍ ، فَإِنَّهُمْ تَرَكُوهُ وَبِهِ رَمَقٌ ، فَارْتَثَ ^(٢) مِنْ بَيْنِ الْقَتْلِ ، وَعَاشَ حَتَّى قُتِلَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ .

وَكَانَ فِي سَرَحٍ ^(٣) الْقَوْمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ^(٤) ، فَلَمْ يُنَبِّهْهُمَا بِمُصَابٍ أَصْحَابَهُمَا إِلَّا الطَّيْرُ تَحَوُّمٌ عَلَى الْمَسْكَرِ ؛ فَقَالَا : وَاللَّهِ إِنْ لِهَذِهِ الطَّيْرِ شَأْنًا . فَأَقْبَلَا لِيَنْظُرَا ، فَإِذَا الْقَوْمُ فِي دِمَائِهِمْ ، وَإِذَا الْخَيْلُ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ وَاقِعَةٌ ؛ فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ لِعَمْرُو بْنِ أُمَيَّةَ : مَا تَرَى ؟ قَالَ : أَرَى أَنْ نَلْحُقَ بِرَسُولِ اللَّهِ فَنُخْبِرَهُ الْخَبَرَ . فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : لَكِنِّي لَا أُرْغَبُ بِنَفْسِي عَنْ مَوْطِنٍ قُتِلَ فِيهِ الْمُنْذَرُ بْنُ عَمْرٍو ! ثُمَّ قَاتَلَ الْقَوْمَ حَتَّى قُتِلَ ، وَأُخِذَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ أُسِيرًا .

فَلَمَّا أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مِنْ مُضَرَ أَطْلَقَهُ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ ، وَجَزَّ نَاصِيَّتَهُ وَأَعْتَقَهُ ؛ فَخَرَجَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَ الْمَدِينَةِ أَقْبَلَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ ؛ حَتَّى نَزَلَا مَعَهُ فِي ظِلِّهِ هُوَ فِيهِ — وَكَانَ مَعَ الْعَامِرِيِّينَ عَقْدٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ وَجَوَارٌ لَمْ يَعْلَمَ بِهِ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ — فَسَأَلَهُمَا حِينَ نَزَلَا بِهِ : مِمَّنْ أَنْتَا ؟ قَالَا : مِنْ بَنِي عَامِرٍ . فَأَمْهَلَهُمَا حَتَّى إِذَا نَامَا عَدَا عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا ، وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ أَصَابَ بِهِمَا ثَأْرَهُ مِنْ بَنِي عَامِرٍ بِمَا أَصَابُوا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ .

وَقَدَّمَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ قَتَلْتَ

(١) غَشِيَهُ : جَاءَهُ (٢) يُقَالُ لِلرَّجُلِ إِذَا ضَرَبَ فِي الْحَرْبِ فَأُتِخِنَ وَحُلَّ وَبِهِ رَمَقٌ : ارْتَثَ .

(٣) السَّرَحُ : شَجَرٌ كَبِيرٌ عِظَامٌ يَسْتَظِلُّ فِيهِ . (٤) أَحَدُ بَنِي عَمْرٍو بْنِ عَوْفٍ

قتيلين لَأَدِينَهُمَا^(١) . ثم قل رسول الله : هذا عملُ أبي براء ! قد كنتُ لهذا كارهاً متخوفاً .

وشقَّ على أبي براء ما أصاب أصحابَ الرسول بسببه وجواره ، وقال حسان يحرِّضه على عامر بن الطفيل^(٢) :

يُيْ أُمَّ الْبَنِينَ أَلَمْ يَرْعُكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ^(٣)
تَهْكُمُ عَامِرٌ بِأَبِي بَرَاءِ^(٤) لِيُخْفِرَهُ ، وَمَا خَطَا كَعَمْدِ^(٥)
أَلَا أَبْيَغُ رِيْمَةَ ذَا الْمَسَارِي^(٦) فَا أَحْدَثَتْ فِي الْحَدَثَانِ بَعْدِي !
أَبُوكَ أَبُو الْحُرُوبِ أَبُو بَرَاءِ^(٧) وَخَالِكَ مَا جَدَّ حَكَمُ بْنُ سَعْدِ

فَمَا بَلَغَ أَبَا بَرَاءٍ قَوْلُ حَسَّانِ حَمْلَ عَلَى عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ ، فَطَمَنَهُ ، فَأَخْطَا مَقْتَلَهُ وَوَقَعَ عَنْ فَرَسِهِ ، فَقَالَ : هَذَا عَمَلُ أَبِي بَرَاءِ ؛ إِنْ أُمْتُ فِدَى لَعْمَى فَلَا يُتَبَعَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَعِشْ فُسَارَى رَأَيْ فِيهَا أَتَى إِلَيَّ .

(١) أَدِينَهُمَا : أَدْفَعُ دَيْتَهُمَا . (٢) ديوانه : ١٠٧ . (٣) هم أبو براء وإخوته ، ويريد بالذوائب رؤساءهم . (٤) « تهكم » فاعل « يرعكم » في البيت قبله . (٥) ليخفره : لينقمص عهده . (٦) المساعي : المكرمات . وفي الديوان : أَلَا مِنْ مَبْلَغٍ عَنِّي رَسَا . (٧) في الديوان : أَبُو الْفَعَالِ .

٥ — يوم بنى النضير*

لَمَّا قَتَلَ عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةِ الضَّمْرِيُّ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي عَامِرٍ^(١) - وَقَدْ كَانَ لَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ جَوَارٌ وَعَهْدٌ - كَتَبَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْعَامِرِيُّ يَقُولُ : إِنَّكَ قَتَلْتَ رَجُلَيْنِ لَهَا مِنْكَ جَوَارٌ وَعَهْدٌ ، فَأَبْعَثْ بِدَيَّتَيْهِمَا .

فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى بَنِي النَّضِيرِ يَسْتَعِينُهُمْ فِي دِيَةِ ذَيْنِكَ الْقَتِيلَيْنِ ، فَلَمَّا أَتَاهُمْ ، وَسَأَلَهُمُ الْمَعُونَةَ قَالُوا : نَعَمْ ، يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، نُعِينُكَ عَلَى مَا أَحْبَبْتَ . ثُمَّ خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالُوا : إِنَّكُمْ لَنْ تَجِدُوا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ هَذِهِ - وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ جَلَسَ إِلَى جَنْبِ جِدَارٍ مِنْ بَيْوتِهِمْ - فَأَيَّسَكُمْ يَمْلُؤُ هَذَا الْبَيْتَ فَيُلْقِي عَلَيْهِ صَخْرَةً فَيَقْتُلُهُ بِهَا فَيُرِيحُنَا مِنْهُ !

فَقَالَ عَمْرُو بْنُ جَحَّاشٍ : أَنَا لِذَلِكَ ! فَصَعِدَ لِيُلْقِيَ عَلَيْهِ الصَّخْرَةَ . فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ، فَقَامَ وَخَرَجَ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَتَرَكَ أَصْحَابَهُ فِي مَجْلِسِهِمْ .

وَلَمَّا اسْتَبْطَأَ رَسُولَ اللَّهِ أَصْحَابُهُ قَامُوا فِي طَلَبِهِ ، فَلَقُوا رَجُلًا مُقْبِلًا مِنَ الْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُ عَنْهُ فَقَالَ : رَأَيْتُهُ دَاخِلًا الْمَدِينَةَ .

فَأَقْبَلُوا حَتَّى انْتَهَوْا إِلَيْهِ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا كَانَتِ الْيَهُودُ تَرِيدُ بِهِ مِنَ الْقَدَرِ ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُوا إِلَيَّ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ . فَأَتَى ، فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى يَهُودَ ،

* سيرة ابن هشام : ٣-١٩١ ، الطبري : ٣-٣٦ . وقد كان في السنة الرابعة من الهجرة وبنى النضير حتى من اليهود سكن المدينة .

(١) انظر يوم « بئر معونة » صفحة ٥٢ من هذا الكتاب .

فقل لهم : اخرجوا من بلادى فلا تساكُنُونى ، وقد هممتُ بما هممتُ به من الغدر .

فجاءهم محمد بن مسلمة فقال لهم : إن رسول الله يأمركم أن تطعمنوا^(١) . فقالوا : يا محمد ؛ ما كنا نظن أن يبيئنا بهذا رجل من الأوس ! فقال : تغيرت القلوب وعا الإسلام اليهود ! فقالوا : نتحمل^(٢) !

ولكن عبد الله بن أبي أرسل إليهم يقول : لا تخرجوا فإن معى من العرب ومن انضوى إلى من قوى ألفين ؛ فأقيموا فهم يدخلون معكم ، وقرينة كذلك تدخل معكم .

فبلغ كعب بن أسيد القرظى ذلك ، فقال : لا ينقض العهد رجل من قرينة وأنا حى .

فقال رجل منهم لكبيرهم ابن أخطب : يا حىي ؛ أقبل هذا الذى قاله محمد قبل أن تقبل ما هو شر منه . قال حىي : وما هو شر منه ؟ قال : أخذ الأموال وسبى الذرية ، وقتل المقاتلة ؛ فأبى حىي ، وأرسل جدى بن أخطب^(٣) إلى رسول الله يقول : إنا لا نريم^(٤) دارنا ، فاصنع ما بدا لك .

فكبر رسول الله وكبر المسلمون معه ، وقال : حاربت يهود ! وانطلق جدى بن أخطب إلى عبد الله بن أبي يستمدّه فلم يستجب له ، فرجع وأخبر حىيًّا بذلك ؛ فقال : هذه مكيدة !

وزحف إليهم رسول الله ، وحاصرهم ست ليال فتحصنوا منه فى الحصون ،

(١) أن تطعمنوا : أن ترحلوا . (٢) تتحمل : نرتحل . (٣) أخوه .

(٤) لا نريم : لا نبرح .

فَأَمَرَ بِقَطْعِ النَّخِيلِ وَالتَّحْرِيقِ فِيهَا ، فَنَادَوْهُ : يَا مُحَمَّدُ ؛ قَدْ كُنْتَ تَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ ،
وَتُعَيِّمُهُ عَلَى مَنْ صَنَعَهُ ، فَا بِالْ قَطْعِ النَّخِيلِ وَتَحْرِيقِهَا !

وَلَمَّا يَتَسَوَّاهُ مِنَ الْأَمُونَةِ ، وَطَالَ بِهِمُ الْحَصَارُ ، وَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يُجِيلَهُمْ وَيَكْفِ عَنْ دِمَائِهِمْ ، عَلَى أَنْ لَهُمْ مَا سَحَلَّتِ الْإِبِلُ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِلَى الْحَلَقَةِ^(١) ، فَفَعَلَ .

فَاحْتَمَلُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ مَا اسْتَقَلَّتِ الْإِبِلُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَهْدُمُ بَيْتَهُ ،
فِيضِمُّهُ عَلَى ظَهْرِ كَمِيرِهِ . فَيَنْطَلِقُ بِهِ ، نَافِرًا بَعْضُهُمْ إِلَى خَيْرٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَارَ
إِلَى الشَّامِ^(٢) .

(١) الحلقة : اسم لجملة السلاح والدروع وما أشبهها . (٣) نزل في بني النضير سورة
الحشر بأسرها .

٦ - يوم الخندق*

خرج نفرٌ من اليهود^(١) حتى قدموا على قريش في مكة ، فدعَوْهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا لهم : إنا سنكونُ معكم حتى نستأصله ؛ فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهلُ الكتاب الأول ، وأهل العلم بما أصبحنا نختلفُ فيه نحن ومحمد ، فديننا خيرٌ أم دينه ؟ قالوا : بل دينُكم خيرٌ من دينه ! وأنتم أولى بالحقِّ منه ! فسَرَّ قريشاً ما قالوا ، ونَشِطُوا ما دَعَوْهم إليه من حرب رسول الله ، واجتمعوا لذلك واتَّعدوا له . ثم خرج أولئك النفرُ من اليهود حتى جاءوا غطفان ، فدعَوْهم إلى حرب المسلمين ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليهم ، وأن قريشاً قد تابَعُوهم على ذلك ؛ فأجابوهم .

وخرجت قريشٌ ، وقائدها أبو سفيان ، وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف في بنى مُرَّة ، ومِسْعَر بن رُحَيْلَة فيمن تابَعه من أشجع .

ولما سمع رسولُ الله بما أَجمَعُوا له من الأمرِ ضرب الخندق على المدينة ، وعمل فيه بنفسه ، وعمل معه المسلمون حتى أحكموه .

ولما فرغوا منه خرج رسولُ الله في ثلاثة آلاف من المسلمين جعلوا ظهورهم إلى سَلَم^(٢) ، وضربوا عسكرهم هناك . وأمر بالذَّرَارِيَّ والنساء فجُعِلُوا في الآطام^(٣) .

* سِوَة ابن هشام : ٣-٢٢٩ ، تاريخ الطبري : ٣-٤٣ . كان في السنة الخامسة من الهجرة

(١) منهم سلام بن أبي الحقيق ، وحبي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع ، وهوذة بن قيس ، وأبو عمار الوائل في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل ، وهم الذين حاربوا الأحزاب على رسول الله . (٢) سلم موضع بقرب المدينة . (٣) الآطام : جم أطم ، وهو حصن مبني بالحجارة .

وأقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال في عشرة آلاف من أحابشهم ومن تبعهم من بني ركنانة وتهمامة . وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بدئب نقمى ، إلى جانب أحد .

وخرج حُيَيِّ بن أخطب^(١) حتى أتى كعب بن أسد^(٢) ، فلما سمع كعب به أغلق دونه باب حصنه ، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له ، فناده حُيَيٌّ : يا كعب ؛ افتح لي ، قال : ويحك يا حُيَيٌّ ! إنك رجل مشئوم ، وإنى قد عاهدتُ محمداً ، فلستُ بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءً وصديقاً . قال : افتح لي أ كلمك . قال : ما أنا بفاعل ، قال : ما أغلقت الحصن دوني إلا لتخوفك على جشيشتك^(٣) أن آكل منها منك ! فأحفظ^(٤) الرجل . ففتح ، فقال له : ويحك يا كعب ! جئتُك بيزر الدهر ، ويبحر طأم^(٥) . جئتُك بقريش : قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال ، وجئتُك بغطفان : قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بدئب نقمى ، قد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه .

قال كعب : جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق^(٦) ماءه ، فهو يزعد ويبرق ليس فيه شيء ، ويحك يا حُيَيٌّ ! دعني وما أنا عليه ، فإنى لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاءً . ولكن حُيَيٌّ لم يزل بكعب يفتل منه في الذروة والغارب^(٧) ، حتى أعطاه عهداً وميثاقاً : لن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً دخلت

(١) كبير بني النضر كما تقدم . (٢) صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، وكان وادع النبي على قومه وعاهده على ذلك وعاقده . (٣) الجشيشة : واحدة الجشيش ، وهو أن تطحن الحنطة طحناً جليلاً ثم تصب بها القدر ، ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ . (٤) أحفظ الرجل : أغضبه . (٥) أراد تشبيه القوم في كثرتهم بالبحر الزاخر . (٦) الجهام : السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه ، وهراق : صب . (٧) أصل الغارب مقدم السنام ، والذروة أعلاه ؛ أراد أنه ما زال يتغادعه ويتلفه حتى أجابه ، وأصله أن الرجل إذا أراد أن يؤلف البعير الصعب لينقاد له جعل يمر يده عليه ويمسح غاربه ويقتل وبره حتى يستأنس ، ويضم فيه الزمام .

مملك في حصنك حتى يُصِيبَنِي مَا أَصَابَكَ . وَتَقْضُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ عَهْدَهُ ، وَبَرَى
مِمَّا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ .

فلما انتهى إلى الرسولِ الخبرُ بعثَ سعدَ بنَ مُعَاذٍ^(١) وسعدَ بنَ عُبَادَةَ^(٢) ،
وعبدَ اللهَ بنَ رَوَاحَةَ^(٣) ، وخَوَاتِ بنَ جُبَيْرٍ^(٤) ، وقالَ لهم : انطلقوا حتى تنظروا :
أَحَقُّ مَا بَلَّغْنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا ! فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا لِي لَحْنًا^(٥) أَعْرِفُهُ ،
وَلَا تَفْتُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ بَيْنُنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ .
فخرجوا حتى أتَوْهم ، فوجدوهم على أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُمْ ، نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ،
وقالوا : مَنْ رَسُولُ اللَّهِ ! لَا عَهْدَ بَيْنُنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ وَلَا عَهْدَ ! فَشَاتَمَهُمْ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ
وشاتموه ، وكان رجلاً فِيهِ حِدَّةٌ . فقالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : دَعْ عَنْكَ مُشَاتَمَتَهُمْ ،
فَمَا بَيْنُنَا وَبَيْنَهُمْ أَرْبَى^(٦) مِنَ الْمَشَاتَمَةِ .

ثم أَقْبَلَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ وَسَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَنْ مَعَهُمَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَسَلَّمُوا عَلَيْهِ ،
وقالوا : عَضَلُ وَالْقَارَةُ^(٧) ! فقالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ !

وَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْبَلَاءُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَاشْتَدَّ الْخَوْفُ ، وَأَتَاهُمْ عَدُوُّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ ، حَتَّى ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ظَنٍّ ، وَنَجَمَ^(٨) تَفَاقُ الْمُنَافِقِينَ ، حَتَّى قَالَ
قَائِلُهُمْ^(٩) : كَانَ مُحَمَّدٌ يَمِيدُنَا أَنْ نَأْكُلَ كَنْوَزَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ، وَأَحْدُنَا الْيَوْمَ
لَا يَأْمَنُ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْفَاطِطِ !

(١) سِيدُ الْأَوْسِ . (٢) سِيدُ الْخَزَرَجِ . (٣) أَخُو بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزَرَجِ .

(٤) أَخُو بَنِي عَمْرِو بْنِ عُوفٍ . (٥) أَشِيرُوا إِلَى وَلَا تَفْصَحُوا ، وَعَرَضُوا بِمَا رَأَيْتُمْ .

(٦) أَرَبَى : أَعْظَمَ وَأَكْثَرَ . (٧) أَيْ كَفَدَ عَضَلُ وَالْقَارَةُ ؛ حِينَئِذٍ اعْتَدُوا عَلَى خَيْبٍ وَأَصْحَابِهِ

يَوْمَ الرَّجِيعِ . (٨) نَجَمَ ظَهَرَ . (٩) هُوَ مَعْتَبُ بْنُ قَشِيرٍ .

وأقام الرسول على الخندق ، وأقام عايه المشركون بضعا وعشرين ليلة ، لم يكن بينهم حرب ، إلا الرمي بالنبل والحصار . فلما اشتدَّ البلاء على الناس بعث رسول الله إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف - وهما قائدَا غطفان - فمرض عليهما أن يُعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمنّ معهما ، وجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولكن لم تقع الشهادة ، ولا عزيمة الصلح إلا المروضة^(١) في ذلك .

ثم استشار رسول الله في ذلك سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فقالا له : يا رسول الله ؛ أمر تجبسه فنصنعه ، أم شيء أمرك الله به لا بدّ لنا من العمل به ، أم شيء تصنعه لنا ! قال : بل شيء أصنعه لكم ؛ والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيتُ العرب قد رمّتكم عن قوسٍ واحدةٍ كالْبُوكُم^(٢) من كلّ جانب ، فأردتُ أن أكسرَ عنكم من شوكتهم . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله ؛ قد كُنّا نحن وهؤلاء القوم على شركٍ بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبدُ الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى^(٣) أو بيعة ، فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له وأعزّنا بك وبه نُعطيهما أموالنا ! والله ما لنا بهذا حاجة ، والله لا نُعطيهما إلا السيفَ حتى يحكّم الله بيننا وبينهم . قال رسول الله : فأنت وذاك ! وتناول سعد بن معاذ الصحيفةَ فحما ما فيها من الكتاب^(٤) ، ثم قال : ليُجهدوا^(٥) علينا .

وأقام رسول الله والسلمون ، والعدو يحاصرونهم ، ولم يكن بينهم قتال ، إلا أن فوارس^(٦) من قريش قد تهيّئوا للقتال ، ثم خرجوا على خيلهم حتى مرّوا بمنازل بني كنانة ، فقالوا : تهيّئوا يا بني كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم !

(١) المروضة : المجاذبة والمناوضة . (٢) كالْبُوكُم : اشتدوا عليكم ، وكثر شرهم . (٣) القرى : ما يقدم للضيف . (٤) الكتاب : الكتابة . (٥) أجهدوا علينا المداوة : جدوا فيها . (٦) منهم عمرو بن عبد ود وعكرمة بن أبي جهل ، وهيرة بن أبي وهب ، وضرار بن الخطاب .

وأقبلوا نحو الخندق حتى وقفوا عليه ، فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العربُ تكيدُها ^(١) ! ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق ، فضربوا خيولهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبخة - بين الخندق وسلع - وخرج علي بن أبي طالب في نفرٍ من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفرسان تُعنيق ^(٢) نحوهم ؛ فوقف عمرو بن عبدود ^(٣) ، وقال من يُبارزُ ؟ فبرز له علي بن أبي طالب ، وقال له : يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجلٌ من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه . قال له : أجل ! قال علي : فإني أدعوك إلى النزال . قال : ولم يابن أخى ؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك ! قال له علي : ولكني والله أحبُّ أن أقتلك ! فحمي ^(٤) عمرو عند ذلك وزلَّ عن فرسه ، وعقره وضرب وجهه ، ثم أقبل على علي فتنازلاً وتجاولاً ، فقتله علي ، وخرجت خيلهم منهزمة حتى اقتحمت من الخندق هاربة . ومرَّ يومئذ سعد بن معاذ بحصن بني حارثة - وهو من أحرز حصون المدينة - وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وفي يده حربته يرقدُ بها ^(٥) ويقول :

لَبَّثَ قَلِيلًا يَشْهَدُ الْهِجَا حَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ ^(٦)

فقال له أمه - وكانت في الحصن هي وعائشة : الحق يا بني ، فقد والله أخرجت ، ففالت لها عائشة : يا أم سعد ؛ والله لو دِدْتُ أَنَّ دِرْعَ سَعْدٍ كَانَتْ أُسْبَغَ مِمَّا هِيَ ^(٧) ! ثم رُمِيَ سعد بن معاذ بسهم ، فقطعَ منه الأَكْحَلُ ^(٨) .

(١) يقال : إن سلمان الفارسي أشار به على رسول الله . (٢) العنق : ضرب من السير السريع . (٣) من الفرسان الذين اقتحموا الخندق . (٤) حمى : غضب .

(٥) يرقد : يسرع بها . (٦) لبث : انتظر ، والهجاء : الحرب ، وحمل : اسم رجل ، وحان : قرب . (٧) كان ذلك قبل أن يضرب الجباب . (٨) الأَكْحَل : عرق في الدراع .

وكانت صفيّة بنت عبد المطلب في فَارِع - حِصْنِ حَسَّانِ بْنِ ثَابِت - وكان حَسَّانَ فيه مع النساء والصبيان ، فرّ رجلٌ من يَهُودَ ، فجعل يُطَيِّفُ بِالْحِصْنِ ، ولمّا رآته صَفِيّةُ قَالَتْ : إن بنى قُرَيْظَةَ قد قَطَعَتْ ما بينها وبين رسول الله من عهد ؛ وليس بيننا أحدٌ يدفعُ عَنَّا ، ورسولُ الله والمسلمون في نُحُورِ^(١) عدوهم ، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ . ثم قالت لحَسَّانَ : إن هذا اليهودي - كما ترى - يُطَيِّفُ بِالْحِصْنِ ، وإني والله ما آمَنُهُ أن يدُلَّ على عَوْرَتنا مِن وِراءِهِ من يَهُودَ ، وقد شُخِّلَ عَنَّا رسولُ الله وأصحابُهُ ، فأنزلُ إليه فاقْتُلْهُ . فقال حَسَّانُ : يغفرُ الله لك يا بنةَ عبد المطلب ! والله لقد عرفتِ ما أنا بصاحبِ هذا . فلما قال لها ذلك ولم تَرَ عند شَيْئاً احتَجَزَتْ^(٢) ، ثم أخذت عموداً ، ونزلت من الحصن ، وضربت به بالعمود حتى قتلتَهُ .

ولما فرغت منه رجعت إلى الحِصْنِ فقالت : يا حسان ؛ أنزل إليهِ فاسْلُبْهُ فَإِنَّهُ لم يَنْمَنِ من سَلَبِهِ إلا أَنَّهُ رجلٌ ، قال حسان : مَالِي بِسَلَبِهِ مِنْ حَاجَةِ يَابنةَ عبد المطلب ! وأقام رسولُ الله وأصحابُهُ في خَوْفٍ وَشِدَّةٍ ، لِيَتَظَاهَرُ عَدُوُّهُمْ عَلَيْهِمْ ، وإِتْيَانَهُمْ إِيَّاهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْهُمْ .

ثم إن نُعَيْمَ بْنَ مَسْعُودٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إني قد أَسْلَمْتُ ، وَإِنْ قَوْمِي لم يَملِكُوا بِإِسْلَامِي فَمُرَّنِي بِمَا شِئْتَ ، فقال رسولُ الله : إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، فَخَذَلْ^(٣) عَنَّا إِنْ اسْتَطَعْتَ ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُدْعَةٌ .

فخرج نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ حَتَّى أَتَى بَنِي قُرَيْظَةَ - وكان لهم نَدِيمًا في الجاهلية - فقال : يا بني قُرَيْظَةَ ؛ قد عرفتم وُدِّي إِيَّاكُمْ ، وَخَاصَّةً مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ . قالوا : صدقت ،

(١) أصل النحر الصدور ، وهو يريد أنهم مشتبهون به عدوهم . (٢) أى شدت وسطها بما يقويه . (٣) أى ادخل بينهم حتى يخذل بعضهم بعضاً .

لست عندنا بمُتَّهَمِينَ . فقال لهم : إن قريشاً و غطفان ليسوا مثلكم . البلدُ بلدُكم ، فيه أموالُكم وأبناءُكم ونساءُكم ، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً و غطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروا مُتَّهَمِينَ^(١) عليه ، وبلدُهم وأموالُهم ونساءُهم وبغيره ، فایسوا مثلكم ، فإن رأوا نُهْزَةً^(٢) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخالوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقةَ لكم به إن خَلَا بكم ؛ فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهْناً من أشرافهم ، يكونون بأيديكم ثِقَةً لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تُنْجِزُوهُ . فقالوا له : لقد أشرت بالرائى .

ثم خرج حتى أتى قريشاً ؛ فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش : قد عرفتم وُدِّي لكم ، وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغنى أمرٌ قد رأيتُ علىَّ حقاً أن أبلغكموه نُصْحاً لكم ، فاكتموا عَنِّي . قالوا : نفعل . قال : تعلموا^(٣) أن مَـشَرَ يَهُود قد ندِموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمننا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش و غطفان رجلاً من أشرافهم ، فنمطيهم فتضرب أعضائهم ، ثم نكون معك على مَنْ بَقِيَ منهم حتى نَسْتَأْصِلَهُمْ ؟ فأرسل إليهم : أن نعم ؛ فإن بُعِثَ إليكم يَهُودٌ تَلْتَمِسُ مِنْكُمْ رُهْناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان ، فقال : يا معشر غطفان ؛ إنكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناسِ إليّ ، ولأراكم تتهموني . قالوا : صدقت ، ما أنت عندنا بمُتَّهَمٍ ! قال : فاكتموا عَنِّي ، قالوا : نفعل ، فما وراءك ؟ فقال لهم مثل ما قال لقريش ، وحدثهم كما حدثهم .

(١) ظاهرتهم : عاونتهم . (٢) نهضة : فرصة . (٣) تعلموا : اعلوا .
(• — أيام العرب في الإسلام)

فلما كانت ليلة السبت من شوال أرسل أبو سفيان بن حرب وروس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان ، فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، وقد هلك الخلف والحافر^(١) . فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بمضنا حدثاً فأصابه مالم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ؛ فإننا نخشى إن ضرستكم^(٢) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنسروا^(٣) إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان : إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود كلق . وأرسلوا إلى بني قريظة : إنا والله لاندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا : إن الذي ذكر نعيم بن مسعود كلق . ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا ، فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشعروا إلى بلادهم ، واخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم .

فأرسلوا إلى قريش وغطفان : إنا والله لانقاتل معكم محمداً حتى تعطوا رهناً . فأبوا عليهم ، وخذل الله بينهم ، وبعث عليهم الريح في ليل شاتية باردة ، فجعلت تكفأ^(٤) قدورهم ، وتطرح أفيقتهم .

فلما انتهى إلى رسول الله ما اختلف من أمرهم ، وما فرق من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلاً .

(١) يريد الإبل والحيل . (٢) ضرستكم : نالت منكم . (٣) تنسروا : تسرعوا إلى الرجوع . (٤) تكفأ قدورهم : تقلبها .

قال حذيفة : لقد رأيتنا مع رسول الله بالهندق ، وقد صلى هويًا ^(١) من الليل ، ثم التفت إلينا فقال : مَنْ رجلٌ يقومُ فينظرُ لنا ما فعل القومُ ثم يرجع ؟ فقام رجلٌ من القومِ مِنْ شدةِ الخوفِ ، وشدةِ الجوعِ ، وشدةِ البردِ . فلما لم يقم أحدٌ دعاني رسولُ الله ، فلم يكن بُدٌّ من القيام حين دعاني ، فقال : يا حذيفة ! اذهب فادخلُ في القومِ فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدثْ شيئاً حتى تأتينا .

فذهبتُ فدخلتُ في القومِ ، والريحُ وجنودُ الله يفعلُ بهم ما تفعلُ ، لا تُقرُّ لهم قِدرًا ولا نارًا ولا بناءً . فقام أبو سفيان فقال : يا معشرَ قريش ! لينظر امرؤُ من جلسائه !

فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشرَ قريش ! إنكم والله ما أصبحتم بدارٍ مقام ، لقد هلك الكراع ^(٢) والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدةِ الريحِ ما ترون ، لا تطعمنَّ لنا قِدرًا ، ولا تقومُ لنا نار ، ولا يستمسكُ لنا بناءً ، فارتحلوا فإني مُرتحل . ثم قام إلى جَمَلِهِ وهو معقول ، فجلس عليه ، ثم ضربه ، فوثب به على ثلاث ، فو الله ما أطلقَ عِقَالَهُ إِلَّا وهو قائم ، ولولا عهدُ رسولِ الله إليّ ، إذ قال لي : « لا تحدثْ شيئاً حتى تأتيني » لقتلتهُ بسهم .

فرجعتُ إلى رسولِ الله ، وهو قائمٌ يُصَلِّي ، فلما سَلَّمَ أخبرتهُ الخبر . وسَمِعَتُ غَطَفَانٍ بما فعلت قريش ، فانشمروا راجعين إلى المدينة .

(١) هويًا من الليل : جزءا منه . (٢) الكراع . الخيل .

٧ - يوم بنى قرِيظة*

أصبح النبيُّ منصرفاً عن الخندق ، راجعاً إلى المدينة ، ووضع المسلمون السِّلَاح ،
ولما كان الظُّهْرُ أمر رسولُ الله مؤذناً فأذّن في الناس : مَنْ كان سَمِيعاً مُطِيعاً ، فلا
يُصَلِّينَ العصرَ إلّا في بنى قُرَيْظَةَ .

وقدّم رسول الله على بن أبي طالب برايته إلى بنى قُرَيْظَةَ ، وابتدروا الناس^(١) ،
وسار علىّ حتى إذا دنا من حصون بنى قُرَيْظَةَ سمع منها مقالةً قبيحة عن رسول الله ،
فرجع حتى لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطريق ، فقال : يا رسول الله ؛
لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث^(٢) . قال : وَلِمَ ؟ أظنّك سمعت لي منهم أذى !
قال : نعم ، قال : لو رأيوني لم يقولوا من ذلك شيئاً .

ولما أتى رسول الله بنى قُرَيْظَةَ نزل على يثّر من آبارها يقال لها : بئر أنى ،
وتلاحق به الناس ، وحاصروا رسول الله خمساً وعشرين ليلة حتى جهّدهم الحصار ،
وقدّف الله في قلوبهم الرُّعب .

فلما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم ، قال كعب بن أسيدٍ
لهم : يا معشر يهود ؛ قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلاّلاً
ثلاثاً ، فخذوا أيها شئتم ، قالوا : وما هي ؟ قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ،
فو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم ، فتؤمنون على

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٢٥٢ ، تاريخ الطبري : ٣ : ٥٢ . وكان هذا اليوم في ذى القعدة
وصدر ذى الحجة من السنة الخامسة .

(١) ابتدر القوم أمراً : بادر بعضهم بعناً لايه ، أيهم بسين إليه فيجاب عليه .

(٢) الأخابث : جمع الأخبث ، وهو ضد الأطيب من الولد والناس .

دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم . قالوا : لا نفارق حُكْمَ التَّوْرَةِ أَبَدًا ، ولا نستبدلُ به غيره . قال : فإذا أبيتُم على هذه ، فهكُمُوا فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه مُصْلِتِينَ^(١) سيموفنا ، ونحن لم نترك وراءنا نَقْلًا^(٢) ، حتى يحكمَ الله بيننا وبينَ محمد ؛ فإن تهلكَ نهلك ولم نترك وراءنا نَسْلًا نخشى عليه ، وإن نَظْهَر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؛ فما خيرُ العيشِ بدمهم ! قال : فإن أبيتُم على هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكونَ محمد وأصحابه قد آمنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيبُ من محمد وأصحابه غِرَّةً . قالوا : نفْسِدُ علينا سَبْتَنَا ، ونُحْدِثُ فيه مالم يُحْدِثْهُ مَنْ كان قبلنا إلا أصابه المَسْخُ . قال : ما بات رجلٌ منكم منذ ولدته أمه ليلةً من الدهر حَازِمًا !

ثم إنهم أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أن ابْعَثْ إلينا أبا لُبَابَةَ^(٣) بن عبد المنذر لِنَسْتَشِيرَهُ ، فأرسله إليهم . فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبَهَشَ^(٤) إليه النساء والصبيان يَبْكُونَ في وجهه ، وقالوا له : يا أبا لُبَابَةَ ، أترى أن نزلَ على حُكْمِ محمد؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حَلْقِهِ^(٥) .

ثم نزلت بنو قُرَيْظَةَ على حُكْمِ رسول الله ؛ فتواثبت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؛ إنهم كانوا مواليَنا دون الخُزَرَجِ ، وقد فعلتَ في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت^(٦) .

(١) أصلت سيفه : جرده من عمده . (٢) كل شيء يحرص عليه ، فهو ثقل . (٣) أخو بني عمرو بن عوف ، وكانوا خلفاء الأوس . (٤) بهش إليه : ارتاح وخف إليه . (٥) قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدماي حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ، ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده . وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت ، وبقي كذلك حتى تاب الله عليه ، وأطاعه رسول الله . (٦) قد كان رسول الله حاصر بني قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فنزلوا على حكمه ، فسأله دايم عبد الله بن أبي ساهل فوهبهم له .

فلما سمع رسول الله مقالة الأوس قال : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكمهم
فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى : قال : فذالك إلى سعد بن معاذ .
وقد كان سعد في خيمة امرأة من المسالين كانت تداوى الجرحى ؛ فلما حكمه
رسول الله في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وحنوا له بوسادة من آدم ؛
وأقبلوا به على رسول الله وهم يقولون : يا أبا عمرو ؛ أحسن في مواليك ؛ فإن محمدا
إنما ولاءك لتحسين فيهم . فلما أكثروا عليه قال : لقد أنى لسعد ألا تأخذ في الله
لومة لائم .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله قال لهم : قوموا إلى سيديكم . فقاموا إليه ،
ثم قالوا : يا أبا عمرو ؛ إن رسول الله قد ولاءك أمر مواليك لتحكم فيهم . فقال :
عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمتم ؟ قالوا : نعم . وقال
رسول الله : نعم ، قال سعد : فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال وتقسم الأموال
وتنسب الذراري والنساء . فقال رسول الله لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله .
فصاح على : يا كتيبة الإيمان ! وتقدم هو والزبير بن العوام ، وقال : والله
لأذوقن ماذق حمزة ، ولأفتحن حصنهم . فقالوا : يا محمد ، نزل على حكم
سعد بن معاذ .

ثم استنزلوا . وحبسهم رسول الله بالمدينة ، وخرج إلى سوق المدينة فخذق
بها خنادق ، ثم بث إليهم فضربت أعناقهم^(١) في الخنادق .
وكانوا يساقون أرسالا^(٢) ، وفيهم حسي بن أخطب^(٣) ، وكعب بن أسد ؛

(١) كانوا نحو سبعمائة . (٢) أفواجا : فرقا متقطعة ، بعضهم يتلو بعضا . (٣) قد كان
حبي بن أخطب دخل بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغلطان وفاء الكعب بن أسد
بما كان عاهده عليه .

فقالوا السكيب ، وهم يسرون إلى رسول الله : يا كعبُ ؛ ما تراه يصنعُ بنا ؟ قال :
أفي كل موطنٍ لا تعقلون ! ألا ترون الداعي لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم
لا يرجع ! هو والله القتل .

وأتى بحبي بن أخطب مجموعةً يدها إلى عنقه بحبل ، وعليه حُلَّةٌ فقاحية^(١)
قد شققها عليه من كل ناحية قدرَ أنملة لثلاث يسكنها . فلما نظر إلى رسول الله قال :
أما والله ما لمتُ نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يُخذل . ثم أقبل
على الناس فقال : أيها الناس ؛ إنه لا بأس بأمر الله ، كتابٌ وقدر ، وملحمةٌ
كتبها الله على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه^(٢) .

ثم إن رسول الله قسم أموال بني قريظة ونساءهم وأبناءهم على المسلمين ؛
ولما انقضى شأنُ بني قريظة انفجر جرحُ سعد بن معاذ فأت منه^(٣) .

(١) تشبه لون الورد حين ابتداء تفتحه . (٢) قال جبل بن جوال التلمبي :

أمرك ما لام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخذل الله يُخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها وقلقل يبنى العز كل مقلقل

(٣) قال رجل من الأنصار يرثيه :

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو
وقالت أم سعد حين احتمل نعشه وهي تبكيه :

ويل أم سعد سعدا صرامة وحدا
وسوددا ومجدا وفارساً معدا

* سدّ به مسدا *

٨ — يَوْمُ ذِي قَرْذ*

قال سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ : أَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ عَائِداً إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَبَعَثَ بِظَهْرِهِ^(١) مَعَ رَبَّاحٍ غَلَامَهُ ؛ وَخَرَجْتُ مَعَهُ بِفَرَسٍ لَطْلَحَةٍ بِنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُيَيْنَةَ قَدْ أَغَارَ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ فَاسْتَاقَهُ أَجْمَعُ ، وَكَتَلَ رَاعِيَهُ .

قُلْتُ لِرَبَّاحٍ : خُذْ هَذَا الْفَرَسَ وَأَبْلِغْهُ طَلْحَةَ ، وَأَخْبِرْ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّ الْمَشْرُوكِينَ قَدْ أَغَارُوا عَلَى سَرَّحِهِ^(٢) .

ثُمَّ قَتُّوا عَلَى الْأَكْمَةِ^(٣) ، فَاسْتَقْبَلَتْ الْمَدِينَةَ ، فَنادَتْ ثَلَاثَةَ أَصْوَاتٍ : وَاصْبَاحَاهُ^(٤) ! ثُمَّ خَرَجْتُ فِي آثَارِ الْقَوْمِ أُرْمِيهِمْ بِالنَّبْلِ .

وَمَا زِلْتُ أُرْمِيهِمْ وَأَعْقُرُ بِهِمْ^(٥) ، فَإِذَا رَجَعُ إِلَى فَارَسٍ مِنْهُمْ أَنْتَيْتُ شَجَرَةً وَقَعَدْتُ فِي أَصْلِهَا ، فَرَمَيْتُهُ فَمَقَرَّتْ بِهِ ؛ وَإِذَا تَضَاقَى الْجَبَلُ وَدَخَلُوا فِي مُتَضَاقٍ عَمَلَوْتُ الْجَبَلَ ، ثُمَّ رَدَيْتُهُمْ^(٦) بِالْحِجَارَةِ ؛ وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ حَتَّى مَا تَرَكْتُ بَعِيراً مِنْ ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا جَعَلْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي ، وَحَتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ رُمْحاً وَثَلَاثِينَ بُرْدَةً يَسْتَخَفُّونَ بِهَا ، لَا يُلْقُونَ شَيْئاً إِلَّا جَعَلْتُ عَلَيْهِ آرَاماً^(٧) حَتَّى يَعْرِفَهُ رَسُولُ اللَّهِ وَأَصْحَابُهُ .

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٢٣ ، الطبري : ٣ : ٦٠ . كان في ذي الحجة من السنة السادسة وذو قرد : موضع قرب المدينة . (١) الظهر : الإبل التي يحمل عليها ويركب . (٢) السرح : المشاة تسرح في الرعي . (٣) الأكمة : التل أو الموضع يكون أشد ارتفاعاً مما حوله . (٤) العرب تقول عند الغارة عليهم في الصباح : يا صباحاه ! ينذرون الحى أجمع بالنداء العالي . (٥) أى أقتل مكرهم . (٦) رديتهم : رميتهم . (٧) الآرام : الأعلام .

ثم انهموا إلى متضايق من ثنية^(١) ، وإذا هم قد أتاهم عيينة بن حصن ممدًا ،
فعمدوا ينضحون^(٢) ، وقعدت على قرن^(٣) فوقهم ؛ فنظر عيينة فقال : ما الذى أرى ؟
قالوا : لقينا من هذا البرح^(٤) . والله ما فارقنا هذا منذ غلس يرمينا حتى استنفد
كل شيء فى أيدينا . قال : فليقم إليهم أربعة .

فعمد إلى أربعة منهم ؛ فلما أمكنوني من الكلام قلت : أتعرفونى ؟ قالوا :
من أنت ؟ قلت : سامة بن الأكوع ؛ والذى كرم وجه محمد ، لا أطلب أحدا
منكم إلا أدرسته ، ولا يطالبني أحد فيدركنى . قال أحدهم : إني أظن . ورجعوا ،
فما برحت مكاني ذاك حتى رأيت فوارس رسول الله يتخللون الشجر ؛ أولهم الأخرم
الأسدي ، وعلى أثره أبو قتادة الأنصاري ، يتبعه المقداد بن الأسود الكندي .

فأخذت بمنان فرس الأخرم ، فقات : يا أخرم ؛ إن القوم غير قليل فاحذرهم
حتى يلحق بنا رسول الله وأصحابه . فقال : يا سلمة ؛ إن كنت تؤمن بالله
واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق ، والنار حق ، فلا تحل بيني وبين الشهادة .
فليته .

فالتقى هو وعبد الرحمن بن عيينة ، فعقر الأخرم بعبد الرحمن فرسه ، وطعنه
عبد الرحمن فقتله ؛ ولكن أبا قتادة لحق عبد الرحمن ، فطعنه طعنة قاتلة .

وتبعهم أعدو على رجلى حتى ما أرى ورأى من أصحاب محمد ولا غبارهم شيئا ،
وعدلوا^(٥) قبل غروب الشمس إلى شعب^(٦) فيه ماء يقال له ذو قرد ، يشربون منه
وهم عطاش ، فنظروا إلى أعدو فى آثارهم ، فخلأهم^(٧) عن الماء ، فما ذاقوا منه
قطرة .

(١) الثنية : الطريق فى الجبل . (٢) ينضحون : يرمون بالنبل . (٣) القرن : أعلى الجبل

(٤) البرح : الشر والعذاب . (٥) عدلوا : مالوا . (٦) الشعب : ما انفرج بين الجبلين

(٧) خلأهم : طرده ومنعه .

وعطف عليّ واحد منهم ، فرميته بسهم فأصابه في كتفه . ثم جئتُ إلى رسول الله وهو على الماء الذي خلّاهم عنه ، فإذا هو قد أخذَ يَلْكَ الإِبِلَ التي استنقذت من المدوّ ، وكلّ رُمح وكلّ بُرْدَةٍ ، وإذا بلالٌ قد نحر ناقةً من تلك الإِبِلَ ، وهو يَشْوِي لرسول الله من كَيْدِهَا وَسَنَامِهَا . فقلتُ : يا رسول الله ؛ خَلِّني أُنْتَخِبَ من القوم مائة رجل ، فأَتبع بهم هؤلاء المارين ، حتى لا يبقَى منهم أحد !

فضحك رسول الله وقال : أكنتَ فاعلا ! فقلت : نعم ، والذي أكرمك . ولما أصبحنا أردفني رسول الله على المَضْبَاءِ^(١) . ورجعنا قافلين إلى المدينة .

(١) أصل المضباء : الناقة المشقوقة الأذن ، وهي هنا لقب لنانة رسول الله ، ولم تكن عضباء .

٩ - يوم بنى المصطلق*

بلغ رسول الله أن بنى المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، فخرج إليهم حتى لقيهم على ماء يقال له الرئيس^(١) ، وتراخف الناس واقتتلوا ، فهزم المسلمون بنى المصطلق ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا .

ورجع الناس إلى الماء ، وأقبل عمر بن الخطاب على فرس يقوده جهجاه بن مسمود ، وازدحم هذا مع سنان بن وبرة الجهني - حليف بنى عوف بن الخزرج - على الماء ، واقتتلا ، فصرخ الجهني : يا معشر الأنصار ! وصرخ جهجاه : يا معشر المهاجرين ! ولما سمع عبد الله بن أبي غضب وقال : أوقد فعلوها ! قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا . أما والله لئن رجئنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضر من قومه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم ! أحلتكموهم بلادكم ، وقاسمتكموهم أموالكم . أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وسمع ذلك زيد بن أرقم ، فمشى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر . وكان عمر بن الخطاب عند رسول الله حينذاك وسمع الحديث ، فقال : مر بقتله يا رسول الله ؛ فقال : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل .

* سيرة ابن هشام : ٣ : ٣٣٣ ، الطبري ٣ : ٦٣ . كان في السنة السادسة من الهجرة .
وبنو المصطلق : جماعة من خزاعة .

(١) الرئيس : بئر لخزاعة ، وقد تضاف إليه غزوة بنى المصطلق ، فيقال : غزوة الرئيس .

فارتحل الناس وعلم عبد الله بن أبيّ بما بلغ رسول الله ، فمشى إليه وحلف أنه ما تسكّم بذلك الكلام ، فقال بعض من حضر من الأنصار : يا رسول الله ؛ عسى أن يكون الغلام قد أوهّم^(١) في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل !

وسار رسول الله ؛ فلقية أسيد بن حضير ، فحيّاه بتحية النبوة ، وسلم عليه ، ثم قال : يا نبي الله ؛ لقد رُخت^(٢) في ساعة منكّرة ما كنت تروخ في مثلها . فقال رسول الله : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ! قال : وأى صاحب يا رسول الله ! قال : عبد الله بن أبيّ . قال : وماذا قال ؟ قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرس منها الأذل . قال : يا رسول الله ؛ فانت الذي تخرجه منها إن شئت ، هو والله الدليل وأنت العزيز ! يا رسول الله ، ارفق به ، فقد جاءنا الله بك ، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتمّوجوه ، وإنه ليرى أنك قد استلبته الملك .

ثم مشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس . ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً . وإنما فعل ذلك رسول الله ليشغل الناس عن الحديث الذي كان من عبد الله بن أبيّ .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ما كان من أمر أبيه ، فقال يا رسول الله ؛ إني قد سمعت أنك تريد قتل أبي لي بلغك عنه ، فإن كنت لا بدّ فاعلاً فمَرِنِي أَحْمِلْ إِلَيْكَ رَأْسَهُ ، والله ما علِمَ الناس رجلاً أبرّ بوالده مني ، ولكنني أخشى أن تأمرَ غيري بقتله ثم لا تستريح نفسي حتى أقتل ذلك الذي أمرته بقتله ، فأكون قد قتلت رجلاً مؤمناً بكافراً فأدخل النار . فقال رسول الله : بل ترفق به ونحسّن صُحْبَتَهُ مَا بَقِيَ معنا .

(١) أوهّم : غلط ولم يتحقق . (٢) رخت : رجعت .

وقسم رسول الله سبأيا بنى المصطلق ، فوقعت جويرية بنت الحارث لثابت ابن قيس فكاتبت^(١) على نفسها ، فأتت رسول الله تستعينه في أمرها ، وقالت : يا رسول الله ؛ وقعت في نصيب ثابت بن قيس فكاتبت^(٢) على نفسي ، وجئتك أستمينك على ذلك . فقال : وهل لك في خير من ذلك ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : أقضى عنك كتابتك وأتزوجك . قالت : نعم ، يا رسول الله ، قال : قد فعلت .

وذاع الخبر بين الناس ، فأرسلوا ما بأيديهم ، وأعتقوا نحو مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، وقالوا : أصهار رسول الله .

ودفع رسول الله جويرية إلى رجل من الأنصار وديمة حتى قدم المدينة ، وهناك أقبل أبوها - الحارث بن أبي ضرار - بفداء ابنته ، وقال : يا محمد ؛ أسرتم ابنتي ، وهذا فداؤها .

ودفع الفداء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ ابنته ، وأسلم الحارث وابنته ، فخطبها رسول الله إلى أبيها ، ثم تزوجها^(٣) .

(١) المكاتبه : أن يتفق السيد مع مولاه على مبلغ من المال ، فإذا أداه عتق .
(٢) في هذه الفزوة كان حديث الإفك ، وهو مبسوط في كتابنا : « قصص القرآن » .

١٠ - يوم الحديبية*

خرج رسول الله قاصدا مكة لزيارة البيت ، لا يبغي حرباً ولا قتالاً ، ولكنه استنفر^(١) المسلمين ومن حوله من الأعراب أن يخرجوا معه ، خشية أن تعرض له قريش بحرب ، أو يصدّوه عن البيت ، فتشاكل الأعراب ، وقالوا : أنذهب إلى قوم قد غزوا محمداً في عقر داره بالمدينة ، وقتلوا أصحابه ، فنقاتلهم معه ! واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهلهم^(٢) .

وخرج رسول الله بمن معه من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق به من العرب ليس معهم من السلاح إلا السيوف في القرب^(٣) ، وساق معه الهدى^(٤) ، وأحرم بالعمرة^(٥) ليأمن الناس حربته ، وليعلموا أنه جاء زائراً للبيت ، معظماً له .

ولما كان بمسفان^(٦) لقيه بشر بن سفيان فقال : يا رسول الله ؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك ، فخرجوا معهم العوذ المطافيل^(٧) ، وقد لبسوا جلود الثور ، وزلوا بذى طوى^(٨) ، وعاهدوا أنفسهم ألا تدخلها عليهم أبداً ؛ وهذا خالد بن الوليد في خيلهم بكرع الغميم^(٩) .

* الطبرى : ٣ - ٧١ ، سيرة ابنى هشام : ٣ - ٣٥٥ ، السيرة الحلبية : ٣ - ١٠ ، سيرة دحلان : ٢ - ١٩٢ ، كان في السنة السادسة من الهجرة . والحديبية : موضع بين مكة ومرحلة واحدة ، وفي يائها الثانية التشديد والتخفيف . (١) استنفر المساهين : استنجدهم واستنصرهم . (٢) وذلك قوله تعالى : (سيقول لك المخلفون من الأعراب شفائنا أموالنا وأهلونا) . (٣) القرب : جمع قراب ، وهو غمد السيف . (٤) الهدى : ما أهدى إلى مكة من النعم . (٥) العمرة : الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة فقط ، والفرق بين الحج والعمرة أن العمرة تجوز للإنسان في السنة كلها ، والحج في وقت معروف من السنة ، مع زيادة بعض الأعمال . (٦) مسفان : موضع بين مكة والمدينة . (٧) العوذ : جمع عائد ، وهي الناقة الحديبية التناج . والمطافيل : التي لها أطفال . (٨) ذو طوى : واد بمكة (٩) كراع الغميم : موضع بين مكة والمدينة .

فقال رسول الله : يا وَيْحَ قريش ! قد أَكَلْتَهُمُ الحرب ، ماذا عليهم لو خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سائر العرب ؛ فإن أصابوني كان ذلك الذي أَرَادُوا ، وإن أَظْهَرَنِي الله عليهم دَخَلُوا في الإسلام وَأَفْرَيْن ، وإن لم يفعلوا قَاتَلُوا وبهم قوّة ، فأتظنُّ قريش ! فو الله لا أزالُ أَجَاهِدُهُمْ على الذي بعثنى الله به حتى يُظْهَرَهُ الله أو تنفردَ هذه السالفة (١) ! ثم قال : مَنْ رجلٌ يُخْرِجُ بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله . ثم سلك بهم طريقاً وَغَرَا ، وخرجوا منه بعد أن شقَّ عليهم ذلك ، فأمرهم الرسول : أن اسلكوا ذات اليمين . ولما سار الجيش رأَتْ خَيْلُ قريش قَتَرَةَ (٢) الجيش ، وأن رسول الله قد خالفهم عن طريقهم ، فركضوا راجعين إلى مكة .

وسار رسول الله حتى إذا سلك في ثَنِيَّةِ الرُّارِ (٣) بَرَكْتَ نَاقَتُهُ ، فقال الناس : خَلَّاتِ النَاقَةُ (٤) ! فقال : ما خَلَّاتْ وما هو لها بِخُلُقٍ ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عن مكة ، لا تَدْعُونِي قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يسألونني فيها صِلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أَطَعْتَهُمْ بِإِهَا .

ونزل رسول الله بأَفْصَى الحديبية . ولما اطمانَ به المقام جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخَزَّاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ (٥) — وَكَانُوا عَمِيَّةَ (٦) نُضَحِرِ رسول الله من أهل تهامة . فقال : إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ قَدْ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحَدِيبَةِ (٧) ، مَعَهُمْ أَسَاحِيتُهُمْ ، وَهُمْ مَقَاتِلَاؤُكَ وَصَادُوكُ عَنِ الْبَيْتِ . فقال رسول الله : إِنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالٍ أَحَدٍ ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُتَمَتِّعِينَ ، وَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ نَهَكَتَهُمُ الْحَرْبُ ، وَأَضْرَبَتْ بِهِمْ ،

(١) السالفة : سفحة العنق ، وكبي بانفرادها عن الموت . (٢) فترة الجيش : الغبار الذي يثور عند سيره . (٣) عند الحديبية . (٤) خلَّات : حُرنت ولم تسر . (٥) قومه : خزاعة . (٦) عتبة الرجل : موضع سره . (٧) العبد — بالكسر — : الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء المن وماء النهر ، وجمعه أَعْدَادُ .

فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْنَاهُمْ مِدَّةً ، وَيَخْلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَإِنْ أَظْهَرَ فَإِنْ شَاءُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيهَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَمَأْوَاهُمْ ، وَإِلَّا فَقَدْ جَمَعُوا^(١) ، وَإِنْ أَبَوْا ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَقَاتِلَهُمْ عَلَى أَمْرِي حَتَّى تَنْفِرَ سَالِفَتِي ، أَوْ لِيَنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ . فَقَالَ بُدَيْلٌ : سَلْبَلُفَهُمْ مَا تَقُولُ .

وَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَرِيشًا ، فَقَالَ : إِنْ أَقْدَجْتُنَاكُمْ مِنْ عِنْدِ هَذَا الرَّجُلِ ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلًا ؛ فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا . فَقَالَ سِفْهًاؤُهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا أَنْ تَتَحَدَّثُوا عَنْهُ بِشَيْءٍ . وَقَالَ ذَوُو الرَأْيِ مِنْهُمْ : هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ . فَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا سَمِعَ مِنَ الرَّسُولِ ، فَقَالُوا : وَإِنْ كَانَ لَا يَرِيدُ قِتَالًا فَلَنْ يَدْخُلَهَا عَلَيْنَا عَنُوءَةً أَبَدًا ، وَلَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ عَمَّا بِذَلِكَ .

ثُمَّ بَعَثَتْ قَرِيشٌ إِلَى الرَّسُولِ مِكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ ، فَلَمَّا رَأَاهُ مُقْبِلًا قَالَ : هَذَا رَجُلٌ غَادِرٌ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ كَلَّمَهُ نَحْوًا مِمَّا قَالَ لِبُدَيْلٍ وَأَصْحَابِهِ ، فَرَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ ، فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قَالَ الرَّسُولُ .

ثُمَّ بَعَثُوا إِلَيْهِ الْحُلَيْسَ بْنَ عَلْقَمَةَ — وَكَانَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ^(٢) — فَلَمَّا رَأَاهُ الرَّسُولُ قَالَ : إِنَّ هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ^(٣) ، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ حَتَّى يَرَاهُ . فَلَمَّا رَأَى الْهَدْيَ يَسِيرُ عَلَيْهِ مِنْ عُرْضٍ^(٤) أَنْوَادِي فِي قَلَائِدِهِ^(٥) — وَقَدْ أَكَلَ أَوْبَارَهُ مِنْ طَوْلِ الْجُبْسِ — عَنْ مَحَلَّةٍ^(٦) رَجَعَ إِلَى قَرِيشٍ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِعْظَامًا لِمَا رَأَى ، وَأَخْبَرَ قَرِيشًا بِمَا رَأَى ، فَقَالُوا لَهُ : اجْلِسْ ؛ فَإِنَّمَا أَنْتَ أَعْرَابِي لَا عِلْمَ لَكَ ، فَقَالَ :

(١) جِوَا اسْتَرَاوُوا وَكَثُرُوا . (٢) الْأَحَابِيشُ : أَحْيَاءُ مِنَ الْقَارَةِ انْضَمُوا إِلَى بَنِي لَيْثَ فِي الْحَرْبِ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَرِيشٍ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ، سَمَوْا بِذَلِكَ لِأَسْوَدَادِهِمْ . (٣) التَّأَلُّهُ : التَّعَبُّدُ . (٤) الْعُرْضُ : الْجَانِبُ وَالنَّاحِيَةُ . (٥) الْقَلَائِدُ : مَا يَلْقَى فِي أَعْنَاقِ الْهَدْيِ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ هَدْيٌ . (٦) مَحَلَّةٌ : مَوْضِعُهُ الَّذِي يَنْحَرُ فِيهِ مِنَ الْحَرَمِ .

يامعشر قريش؛ والله ماعلى هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاهدناكم ، اُيصدُّ عن
بَيْتِ اللَّهِ مَنْ جَاءَ مُعْظِماً لَهُ ! والذى نفسُ الحُليْس بيده لَتُخْلَنَ بَيْنَ مُحَمَّدٍ وَبَيْنَ
مَا جَاءَ لَهُ ، أَوْ لَا نَفِرَنَّ بِالْأَحَابِيشِ نَفْرَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ . قالوا : مه ! كف عنا يا حُليْس
حتى نأخذَ لأنفسنا ما نَرْضَى بِهِ .

ثم بعثوا إلى رسول الله عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيَّ ، فقال لهم : يامعشر قريش ؛
إني قد رأيتُ ما يَلْقَى مِنْكُمْ مَنْ بَعَثْتُمُوهُ إِلَى مُحَمَّدٍ - إِذَا جَاءَكُمْ - مِنَ التَّعْنِيفِ وَسُوءِ
اللِّفْظِ ، وَقَدْ عَرَفْتُمْ أَنِّي وَالِدُ وَأُنْتَى وَلَدٌ^(١) ، وَقَدْ سَمِعْتُ بِالَّذِي نَابَكُمْ ، فَجَمَعْتُ مَنْ
أَطَاعَنِي مِنْ قَوْمِي ، ثُمَّ جِئْتُكُمْ حَتَّى آسَيْتُكُمْ بِنَفْسِي^(٢) . قالوا : صدقتَ ، مَا أَنْتَ
عِنْدَنَا بِمُعْتَمَرٍ .

فخرج حتى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ؛ أَجَمَعْتَ
أَوْشَابَ^(٣) النَّاسِ ، ثُمَّ جِئْتَ بِهِمْ إِلَى بَيْضَتِكَ تَقْضُهَا^(٤) ! إِنَّمَا قَرِيشٌ قَدْ خَرَجَتْ
مَعَهَا الْعَوْذُ الْمَطَافِيلُ^(٥) قَدْ لَبَسُوا جُلُودَ الثَّمَرِ ، يَمَاهِدُونَ أَنْفُسَهُمْ أَلَّا تَدْخُلَهَا عَلَيْهِمْ
عَنْوَةٌ أَبَدًا ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَكَأْنِي بِهِؤَلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا^(٦) عَنْكَ غَدًا . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ :
أَنْحَنُ نَنْكَشِفُ عَنْهُ ! قَالَ : مَنْ هَذَا يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ، قَالَ : أَمَا
وَاللَّهِ لَوْلَا بَدَنُكَ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَكَافَأْتُكَ بِهَا ، وَلَكِنْ هَذِهِ بَتْلُكَ . ثُمَّ جَمَلَ بِتَنَاوُلِ
لَحْيَةِ الرَّسُولِ وَهُوَ يَكَلِّمُهُ ، فَجَعَلَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ يَقْرَعُ يَدَهُ إِذَا تَنَاوَلَ لَحْيَةَ الرَّسُولِ
وَيَقُولُ : اكْفُفْ يَدَكَ . فَقَالَ عُرْوَةُ : وَيَحَاكَ ! مَا أَفْظَاكَ وَأَغْلَظَكَ ! فَبَتَّسَمَ رَسُولُ اللَّهِ

(١) أى كالولائد لهم فى حب الخير لهم ، وأنه كالولد لهم ، لأن أمه سبيعة بنت عبد شمس .

(٢) آسيتكم : جمع تسم فى مالى أسوة بنفسى . (٣) أوشاب : أخلاط . (٤) يبيضتك :

أصلك وعشيرتك . وتقضها : تكسرها . (٥) العوذ : النياق الحديثات التاج . والطفل : الذى
لها طفل ، وجمعها مطافيل . (٦) انكشفوا عنك : انهزموا وتركوك وحدك أمام عدوك .

(٦ - أيام العرب فى الإسلام)

فقال عروة : مَنْ هَذَا يا محمد ؟ قال هذا : ابنُ أخيك المفيرة بن شعبة . قال :
أى غُدر ! وهل غسَلْتُ سوءَ تلك إلا بالأمس ^(١) ! ثم إن عروة جعل يَرْمُقُ أصحابَ
النَّبِيِّ بعينه ، فرآهم إذا أمرهم ابتدروا أمره ^(٢) ، وإذا تَوْضَّأ كادوا يقتتلون على
وَضُوئِهِ ^(٣) ، وإذا تَسَكَّمُوا عنده خَفَضُوا أصواتهم ، وما يُحَدِّثُونَ النظر إليه
تَعْظِيماً لَهُ .

ثم رَجَعَ إلى قريش فقال : يا معشر قُريش ، إني قد جِئْتُ كِسْرَى في ماسِكِهِ ،
وَقَيْصَرَ في مَلِكِهِ ، والنَجَاشِيَّ في مَلِكِهِ ، وإني مارَأَيْتُ في قومٍ قطَّ مثلُ محمدٍ في
أَصْحَابِهِ ، ولقد رأيتُ قوماً لا يُسَلِّمُونَهُ لشيءٍ أبداً ، فَرَوْا رأيكم !
ثم دعا رسولُ الله عمرَ بنَ الخطَّابِ لِيُعِثَّهُ إلى مكة ، فيبَلِّغَ عنه أَشْرَافَ قريش
مَاجِئاً لَهُ . فقال : يا رسولَ الله ، إني أخافُ قريشاً على نفسي ، وليس بِمَكَّةَ من بني
عَدِيٍّ ^(٤) أَحَدٌ يَنْعَمُ ، وقد عَرَفْتُ قريشَ عَدَاوَتِي إِيَّاهَا ، وَغِيَاظَتِي عَلَيْهَا ، وَلَكِنِّي
أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ هُوَ أَعَزُّ بِهَا مِنِّي ، هُوَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ .

فدعا رسولُ عَثْمَانَ ، وَبَعَثَهُ إِلَى أَشْرَافِ قريش ، يخبرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ ،
وَإِنَّمَا جَاءَ زَائِراً لِهَذَا الْبَيْتِ مَعْظِماً لِحَرَمَتِهِ . فخرَجَ عَثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَقِيَهُ أَبَانُ بْنُ سَمِيدٍ ،
فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ ، وَأَجَارَهُ ، حَتَّى بَلَغَ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ .

وانطلق عَثْمَانُ حَتَّى أَتَى أَبَا سَفْيَانَ وَعِظَاءَ قريش ، فبَلَّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ مَا رَسَلَهُ
بِهِ . فقالوا لعَثْمَانَ ، حِينَ فَرَغَ مِنْ رِسَالَتِهِ : إِنْ شِئْتَ أَنْ تَطُوفَ بِالْبَيْتِ فَطُفْ بِهِ .
قال : مَا كُنْتُ لَأَفْعَلَ حَتَّى يَطُوفَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ . فَاحْتَبَسَتْهُ قريشُ عِنْدَهَا .

(١) كان المفيرة قد قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك ، فودى عروة المقتولين ، وأصلح
الأمر بذلك . (٢) ابتدروا أمره : بادر بعضهم بعضاً إليه ، أيهم يسبق إليه فيغلب .
(٣) الوضوء — يفتح الواو : الماء الذي يتوضأ به . (٤) قوم عمر .

فبلغ رسول الله والمسلمين أن عثمان قد قُتل . فقال الرسول : لا نبرحُ حتى نناجزَ^(١) القوم ، ودعا الناسَ إلى البَيْعَةِ ، ونادى المنادى : أيها الناس ، البَيْعَةُ البَيْعَةُ ! فثاروا إلى رسول الله ، وهو تحت شجرةٍ فبايعوه . ثم أتى رسول الله أن الذي وصل من أمر عثمان باطل .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله ، وقالوا له : إيت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا تحدثُ العربُ أنه دخلها علينا عَنَوةً أبداً .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه الرسولُ قال : قد أراد القومُ الصلح حين بعثوا هذا الرجل . فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله تكلم فأطال الكلام ، وتراجما ، ثم جرى بينهما الصلحُ .

فلما التأم الأمر ، ولم يبقَ إلا الكتاب^(٢) وثبَّ عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر ؛ أليس برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنّا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشرِكين ، قال : بلى ، قال : فعلام نُعطى الدِّيَّةُ^(٣) في ديننا ! قال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزَه^(٤) ؛ فإني أشهدُ أنه رسول الله . قال عمر : وأنا أشهدُ أنه رسول الله .

ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ؛ ألسنت برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنّا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشرِكين ؟

(١) نناجز : نقاتل . (٢) الكتاب : الكتابة والتدوين . (٣) الدية : الدل والصغار والمهوان . (٤) الغرز : بمنزلة الركاب للسرّج في الأصل ، أى لاتحد عن طريقه ، ولا تختار لنفسك إلا ما يختاره .

قال : بلى . قال : فَمَلَّامَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا ؟ قال : أنا عبدُ الله ورسوله ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُعْصِيَنِي ^(١) .

ثم دعا رسولُ الله عليَّ بنَ أبي طالب ، فقال : اكتبْ : « بسم الله الرحمن الرحيم » . فقال سُهَيْل : لا أعرف هذا ، ولكن اكتبْ : باسمك اللهم . فقال رسولُ الله : اكتبْ باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتبْ : « هذا ما صالح به محمد رسول الله سُهَيْل ابن عمر ... » قال سُهَيْل : لو شهدتُ أنك رسولُ الله لم أقاتلك ، ولكن اكتبْ اسمك واسمَ أبيك . فقال رسولُ الله : اكتبْ : « هذا ما صالحَ عليه محمد ابن عبد الله سُهَيْل بن عمرو ، واصطاحا على وَضْعِ الحرب عن الناس عَشْرَ سنين ، يَأْمَنُ فِيهِنَّ النَّاسُ ، وَيَكْفُ بِمَضْمَنِهِمْ عَنْ بَعْضِي ، عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَنِي مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيِّهِ رَدَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَمَنْ جَاءَ قُرَيْشًا مَعِي مُحَمَّدٌ لَمْ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يَبْنِئَا عَمِيَّةً ^(٢) مَكْفُوفَةً ، وَأَنْهُ لَا إِسْلَاحَ وَلَا إِغْلَالَ ^(٣) ، وَأَنْهُ مِنْ أَحَبِّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخَلَ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ » .

فَتَوَاتَبَتْ خُرَاعَةٌ فَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ ، وَتَوَاتَبَتْ بَنُو بَكْرٍ وَقَالُوا : نَحْنُ فِي عَقْدِ قُرَيْشٍ وَعَهْدِهِمْ .

ثم اتفقوا أن يعودَ المسلمون هذا العامَ فلا يدخلوا مكةَ ، وأنه إذا كان عامٌ قابلٌ يدخلها الرسولُ بأصحابه ؛ ومعهم سِلَاحُ الرَّاكِبِ ، السُّيُوفُ فِي الْقُرْبِ ، وَيَقِيمُونَ بِهَا ثَلَاثًا ^(٤) .

(١) كان عمر يقول : ما زلت أصدق وأصوم وأصلى وأعتق من هذا الذي صنعتَه يومئذٍ مخافة كلامي الذي تسكمت به . (٢) العمية : ما يعمل فيه الثياب ، والمسكوفة : المرسجة ، ومعناه : لأن يبنوا وبينهم في هذا الصلح صدراً معقوداً على الوفاء بما في الكتاب . (٣) الإغلال : السرقة الخفية والإغلال : الخيانة . (٤) قد كان أصحاب رسول الله خرجوا وهم لا يشكون في الفتح لرؤيا رآها الرسول . فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع دخل عليهم من ذلك أمر عظيم .

وبينما رسول الله يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو ؛ إذ جاءه أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد ، قد انقلت إلى رسول الله .

فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلميذه^(١) ، ثم قال : يا محمد ، قد لجت^(٢) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت . فجعل يثتره^(٣) بتلميذه ، ويجرّه ليردّه إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين ؛ أأردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ! أفراد ذلك الناس إلى ما بهم .

فقال الرسول : يا أبا جندل ؛ اصبرْ واحتسبْ ؛ فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنّا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهد الله . وإنا لا نغدر بهم .

فلما فرغ من الكتاب شهد على الصنح رجال من المسلمين ورجال من المشركين ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا ، فلم يقم منهم أحد . فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت له : اخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر وتدعو حائكك ! فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم كلمة حتى نحر بدنته ، وحلق رأسه . فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وحلقوا .

وقفل الرسول إلى المدينة ، لم يدخل مكة ، ولم يلق حرباً .
ولما قدم المدينة أناه أبو بصير - عتبة بن أسيد - لاجئاً ، فكتب في رده أزهراً

(١) أخذ فلان بتلييب فلان ؛ إذ سمع عليه ثوبه الذي هو لابس عند صدره وقبض عليه يجره .

(٢) لجت القضية : انعقدت ، وانتهى أمرها . (٣) التز : الجذب .

ابن عبد عوف ، والأخنس بن شريق كتابا ، وبعثا به رجلا من بني عامر ، ومعه مولى يَهْدِيهِ الطريق ؛ فَقَدِمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ بِالْكِتَابِ ، فَقَرَأَهُ أَبُو بَنِي كَعْبٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَإِذَا فِيهِ : قَدْ عَرَفْتَ مَا شَارَظْنَاكَ عَلَيْهِ مِنْ رَدِّ مَنْ قَدِمَ عَلَيْكَ مِنْ أَصْحَابِنَا ، فَاثْبُتْ إِلَيْنَا بِصَاحِبِنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : يَا أَبَا بَصِيرَ ؟ إِنَا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا عَلِمْتَ مِنْ عَهْدٍ ، وَلَا يَصْلَحُ فِي دِينِنَا الْغَدْرُ ، وَإِنْ اللَّهُ جَاعِلٌ لَكَ وَلِنَ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، فَاذْهَبْ إِلَى قَوْمِكَ . فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَرَدْتُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ يَفْتَنُونَنِي فِي دِينِي ! قَالَ : يَا أَبَا بَصِيرَ ؛ انْطَلِقْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سَيَجْعَلُ لَكَ وَلِمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا .

فَانْطَلَقَ أَبُو بَصِيرٍ مَعَهُمَا حَتَّى إِذَا كَانَ بَنَى الْحَلِيقَةَ^(١) جَلَسَ إِلَى جِدَارٍ وَمَعَهُ صَاحِبَاهُ ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ صَاحِبَيْهِ - وَمَعَهُ سَيْفُهُ : أَصَارُ سَيْفِكَ هَذَا يَا أَخَا بَنِي عَامِرَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ؛ انْظُرْ إِلَيْهِ إِنْ شِئْتَ ، فَاسْتَلَّهُ أَبُو بَصِيرٍ ثُمَّ عَلَّاهُ بِهِ حَتَّى قَتَلَهُ . وَخَرَجَ الْمَوْتَى سَرِيعًا حَتَّى أَتَى الرَّسُولَ ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَالَ لَهُ : قَتَلَ صَاحِبُكُمْ صَاحِبِي .

وَمَا بَرِحَ حَتَّى طَلَعَ أَبُو بَصِيرٍ مَتَوَشِّعًا بِالسَّيْفِ ، وَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ وَفَتْ ذِمَّتُكَ ، وَآدَى اللَّهُ عَنْكَ ، أَسَلَّمْتَنِي بِيَدِ الْقَوْمِ ، وَقَدْ امْتَنَعْتُ بِدِينِي أَنْ أَفْتَنَ فِيهِ أَوْ يُمَبِّتَ بِي . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَبِلى أُمَّهُ مِحْشٌ^(٢) حَرْبٌ لَوْ كَانَ مَعَهُ رِجَالٌ !

وَقَالَ لِأَبِي بَصِيرٍ : اذْهَبْ حَيْثُ شِئْتَ ، نَفَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ حَتَّى نَزَلَ عَلَى

(١) موضع في تهامة .

(٢) فلان محش حرب : موقد نارها .

ساحل البحر بطريق قريش إلى الشام بالتجارة ، واجتمع إليه كثير من المسلمين^(١)
كانوا احتسبوا بمكة ، ورصدوا لكل قرشي يذهب ، لا يظفرون بأحد منهم
إلا قتلوه ، ولا تمر بهم غير إلا أخذوها ، حتى ضجعت قريش وكتبت إلى
رسول الله تسأله بأرحامها إلا آوى هؤلاء ، فلا حاجة لهم بهم . فأوام رسول الله
ثم استقدمهم إلى المدينة .

(١) كان منهم أبو جندل بن سهيل .

١١- يوم مُؤتة*

أرسل النبي ﷺ وسلم الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بُصْرَى^(١) من قِبَل الحارث بن أبي شمر الغساني ، فلما نزل مُؤتة عرض له شُرَحْبِيل ابن عمرو الغساني ، فقال له : إلى أين تريد ؟ فقال : الشام . فقال : لعلك من رُسُل محمد ! قال : نعم . فأمر به فأوثق ، ثم قَدَّمَهُ فَضَرَبَ عَنْقَهُ .

ولما علم رسول الله بذلك بمث بَعَثَهُ إلى مُؤتة ، واستعمل عليه زيد بن حارثة ، وَنَدَبَ^(٢) القوم . وقال : إن أُصِيبَ زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أُصِيبَ جعفر فعبد الله بن رَوَاحَةَ على الناس . وأمرهم أَنْ يَأْتُوا مَقْتَلَ الحارث ابن عمير ، وَأَنْ يَدْعُوا مَنْ هُنَاكَ إِلَى الْإِسْلَام ، فإن أجابوا إِلَّا فَيَسْتَعِينُوا عَلَيْهِمْ بِاللَّهِ وَيُقَاتِلُوهُمْ .

فتجهز الناسُ وَتَهَيَّؤُوا للخروج ، وكانوا ثلاثة آلاف ، ولما حان موعدُ خروجهم ودَّعَ الناسُ أمراءَ النبي ﷺ وسلموا عليهم ، فلما ودَّعَ عبد الله بن رَوَاحَةَ مع مَنْ وَدَّعَ بكَ . فقالوا : ما ييكيك يا بنَ رَوَاحَةَ ؟ فقال : أما والله ما بي حُبُّ الدنيا وَلَا صَبَابَةٌ^(٣) بكم ، ولكني سمعتُ رسولَ الله يقرأ آيةً من كتاب الله يذكر فيها النار : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾^(٤) . فاستُ أَذْرِي كيف لي

* سيرة ابن هشام : ٤٣٧-٣ ، الطبري : ٣-١٠٧ ، السيرة الحلبية : ٣-٧٦ ، سيرة دحلان : ٢-٢٣٩ . وكان هذا اليوم في السنة الثامنة من الهجرة . ومؤتة : موضع بالشام على مرحلتين من بيت المقدس .

(١) بصري : بلد بالشام . (٢) ندب القوم : دعاهم إلى الخروج . (٣) الصبابة : الشوق ، أو رفته وحرارته . (٤) سورة مريم ٧١ .

بِالصَّنَدِ^(١) بعد الورود ! فقال المسلمون : صَحِّبَكُمُ اللَّهُ ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين . ثم قال عبد الله بن رَوَاحَةَ :

لَكُنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْدِفُ الرَّبْدَ^(٢)
أَوْ طَمَعَةً يَبِيدِي حَرَآنَ مُجْهَرَةٍ^(٣) بِحَرْبَةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَيْدَا
حَتَّى يُقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي^(٤) أُرْشَدُهُ اللَّهُ مِنْ غَاظٍ وَقَدْ رَشَدَا

ثم خرج القومُ وخرج الرسولُ يشيئُهم ، وَلَمَّا وَدَّعَهُمْ قَالَ : أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَبِمَنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ، اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ، لَا تَفْسِدُوا^(٥) ، وَلَا تَقْتُلُوا^(٦) ، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا وَلَا امْرَأَةً ، وَلَا كَبِيرًا فَانِيًا ، وَلَا مَنَازِلًا بِصَوْمَعَةٍ ، وَلَا تَقْرَبُوا نَخْلًا ، وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرًا ، وَلَا تَهْدِمُوا بَيْتًا .

ثم مَضَوْا حَتَّى زَلُّوا مَعَانَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَبَلَغَ النَّاسُ أَنَّ هِرَقْلَ قَدْ نَزَلَ مَكَّابَ - مِنْ أَرْضِ الْبَلْقَاءِ - فِي مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الرُّومِ ، وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ لَحْمٌ وَجُدَامٌ وَبَهْرَاءٌ وَبِلَى . فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ أَقَامُوا عَلَى مَعَانَ لَيْلَتَيْنِ يَفْكُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ وَقَالُوا : نَكْتُبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ فَنُخْبِرُهُ بِمَدَدِ عَدُوِّنَا ، فَإِذَا أَنْ يَدْعَنَا بِالرَّجَالِ ، وَإِذَا أَنْ يَأْمُرَنَا بِأَمْرِهِ فَنَمْضِي لَهُ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ : يَا قَوْمَ ، إِنْ التَّي تَنْكُرُهُمْ لَلَّتِي خَرَجْتُمْ تَطْلُبُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ . وَمَا نَقَاتِلُ النَّاسَ بِمَدَدٍ وَلَا قُوَّةٍ وَلَا كَثَرَةٍ ، وَلَا نَقَاتِلُهُمْ إِلَّا بِهَذَا الدِّينِ الَّذِي أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِهِ ، فَانْطَلِقُوا فَإِنَّمَا هِيَ إِحْدَى الْحَسَنَتَيْنِ : إِمَّا ظُهُورٌ وَإِمَّا شَهَادَةٌ .

(١) المصدر : الرجوع . (٢) ذات فرغ : واسعة يسيل دماها . (٣) مجهرة : سريرة . القتلى : (٤) الجذث : القبر . (٥) النمر : تقضى العهد . (٦) غل وأغل : خان .

فقال الناس : قد صدق والله ابنُ رَوَاحَة .

ثم مضى الناسُ حتى إذا كانوا بِتُخُوم^(١) الْبَلَقَاءِ لَقِيَتْهُمْ جُوعٌ هِرَقْلٌ مِنَ الرُّومِ
وَالْفَرَسِ عِنْدَ مَشَارِفِ مِنْ قَرَى الشَّامِ . وَلَمَّا دَنَا الْعَدُوُّ أَنْحَازَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى مُوَاتَّةَ ، ثُمَّ
تَمَقَّهُوا لَهُمْ ، وَجَعَلُوا عَلَى مِيمَتِهِمْ قُطْبَةً بَنَ قَتَادَةُ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ، وَعَلَى مِيسِرَتِهِمْ عَبَايَةَ
ابْنِ مَالِكٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَحَمَلَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ .

ثُمَّ اتَّقَى الْجَمْعَانِ ، وَقَاتَلَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ حَتَّى شَاطَ^(٢) فِي رِمَاحِ الْقَوْمِ . فَأَخَذَ الرَّايَةَ
جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَارْتَجَزَ :

يَا حَبِذَا الْجَنَّةُ وَاقْتَرَابَهَا طَيِّبَةً وَبَارِدًا شَرَابَهَا
وَالرُّومُ قَدْ دَنَا عَذَابَهَا كَافِرَةً بَعِيدَةً أَنْسَابَهَا
* عَلَى إِذْ لَا قِيَّتَهَا ضِرَابَهَا *

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قُتِلَ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الرَّايَةَ وَتَقَدَّمَ بِهَا عَلَى فَرَسِهِ ، وَارْتَجَزَ :

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّ لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّ
إِنْ أَجْلَبَ^(٤) النَّاسُ وَشَدَّوْا الرِّتَّةَ^(٥) مَالِي أَرَاكِ تَكْرَهِنَّ الْجَنَّةَ !
قَدْ طَالَمَا كَفَتِ مُطْمَئِنَّةٌ هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَتَّةٍ^(٦)

يَا نَفْسِ إِلَّا تُقْتَلِي تَمُوتِي هَذَا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلَّيْتُ

(١) التُّخُومُ : مَا يَفْصِلُ بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ مِنَ الْعَالَمِ وَالْحُدُودِ . (٢) شَاطَ : إِذَا سَالَ دَمُهُ وَهَلَكَ .

(٣) الضَّرَابُ : الْمَجَالِدَةُ وَالْقِتَالُ . (٤) أَجْلَبَ النَّاسُ : صَاحُوا وَاجْتَمَعُوا . (٥) الرِّتَّةُ :

الصَّبِيحَةُ الْمَزِينَةُ . (٦) النُّطْفَةُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ ، وَالشَّتَّةُ : الْقُرْبَةُ الْخُلُقُ .

وما تَعَذَّبْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ إِنْ تَفْعَلِي فَعَلَمَهَا هُدَيْتِ^(١)
وأخذ سيفه وقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ .

وحينئذ اختلط المسلمون والمشركون ، وأراد بعضُ المسلمين الانهزامَ فجعل
عُقْبَةُ بن عامر يقول : يا قوم ، يُقَتَّلُ الْإِنْسَانُ مُقْبِلًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُقَتَلَ مُدْبِرًا .
ثم أخذ الراية ثابتُ بن أرقم ، وقال : يا معشر المسلمين ، اصطَلِحُوا عَلَى رَجُلٍ
مِنْكُمْ . قالوا : أنت ، قال : ما أنا بفاعل . فاصطَلَحَ النَّاسُ عَلَى خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ،
فلما أخذ الراية دافعَ الْقَوْمَ وَخَاشَى^(٢) بِهِمْ ، ثم انْحَازَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنِ الْآخَرِ
مِنْ غَيْرِ هَزِيمَةٍ عَلَى أَحَدِهِمَا ، وَانصَرَفَ النَّاسُ ، فَقَفَلَ^(٣) بِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ .
وَتَلَقَّاهُمُ الرَّسُولُ ، وَلَقِيَهُمُ الصَّبِيَّانِ يَشْتَدُونَ ، وَرَسُولُ اللَّهِ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى دَابَّتِهِ ،
فَقَالَ : خَذُوا الصَّبِيَّانِ فَاحْمِلُوهُمَا وَأَعْطُونِي ابْنَ جَعْفَرٍ ، فَأَتَى بِعَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَهُ
وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ النَّاسُ يَمْحُثُونَ عَلَى الْجَيْشِ التَّرَابَ ، وَيَقُولُونَ : يَا فُرَّارُ ،
فَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ! فَيَقُولُ الرَّسُولُ : لَيْسُوا فُرَّارًا ، وَلَكِنْهُمْ الْكُرَّارُ .

(١) يريد صاحبيه : زيدا وجعفرًا .

(٢) خاشى بهم : أبقى عليهم وحذر فأنحاز (اللسان - خفى) . (٣) قفل : رجع .

١٢ — يوم الفتح*

خرج مالك بن عباد^(١) — حليف بني بكر — تاجراً ، وكان ذلك قبل الإسلام . فلما توسَّطَ أرضَ خُزَاعَةَ عَدَّوْا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعَدَّتْ بنو بكر على رجلٍ من خُزَاعَةَ فقتلوه ، ثم عَدَّتْ خُزَاعَةُ على بني الأسود بن رَزَقٍ — وهم أشرافُ بني بكر — فقتلوا منهم بِعَرَفَةَ عند أنصاب^(٢) الحَرَمِ .

وبَيْنَا بنو بكر وخُزَاعَةَ على ذلك حَجَزَ بينهم الإسلام ، وتشاغل الناسُ به . ولما كان صلحُ الحُدَيْبِيَّةِ بين رسول الله وبين قريش كان فيما شَرَطُوا على رسول الله ، وشَرَطَ لهم أَنَّهُ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ مُحَمَّدٍ وَعَقْدِهِ دَخَلَ فِيهِ ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَهْدِ قَرِيشٍ وَعَقْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ ؛ فدخلتْ بنو بكر في عَقْدِ قريش ، ودخلتْ خُزَاعَةُ في عَقْدِ رسول الله .

فلما كانت تلك الهُدْنَةُ اغتنمتهما بنو بكر ، وأرادوا أَنْ يُصَيِّبُوا مِنْ خُزَاعَةَ بِأُولَئِكَ النَّفَرِ الَّذِي أَصَابُوا مِنْهُمْ ، فخرج نَوْفَلُ بْنُ مَعَاوِيَةَ — مِنْ بَنِي بَكْرٍ — حَتَّى بَيْتَ^(٣) خُزَاعَةَ ، وَهُمْ عَلَى مَاءٍ لَهُمْ يَقَالُ لَهُ الْوَتِيرُ^(٤) ، فَأَصَابُوا مِنْهُمْ رَجُلًا ، وَتَحَاوَزُوا^(٥) وَاقْتَتَلُوا ، وَرَفَدَتْ^(٦) قَرِيشُ بَنِي بَكْرٍ بِالسَّلَاحِ ، وَقَاتَلَ مَعَهُمْ مِنْ قَرِيشٍ مَنْ قَاتَلَ مُسْتَخْفِيًا ، حَتَّى حَازُوا خُزَاعَةَ إِلَى الْحَرَمِ .

* سيرة ابن هشام : ٤ — ٣ ، الطبري : ٣ — ١١٠ ، وكان هذا اليوم في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة .

(١) من بني الحَضْرَمِيِّ ، وكان حليف بني الحَضْرَمِيِّ إِلَى الْأَسْوَدِ بْنِ رَزَقِ الدَّبَلِيِّ ، وَهُمْ أَشْرَافُ بَنِي بَكْرٍ . (٢) أَرَادَ بِالْأَنْصَابِ الْمَجَارَةَ الَّتِي وَضَعَتْ لِتَكُونَ عَلَامَاتٍ وَحُدُودًا بَيْنَ الْحِلِّ وَالْحَرَمِ . (٣) بَيْتَهُمْ : أَوْقَعَ بِهِمْ لَيْلًا . (٤) الْوَتِيرُ : مَاءٌ بَيْنَ عَرَفَةَ إِلَى أَدَامَ . (٥) تَحَاوَزَ الْفَرِيقَانِ : انْحَاكَرَ كُلُّ وَاحِدٍ عَنِ الْآخَرِ . (٦) رَفَدَتْ : أَعَاتَهُمْ .

فلما تظاهرت قريش على خُزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونَقَضُوا ما كان بينهم وبين رسول الله من العهد والميثاق بما استَحِلُّوا من خُزاعة ، خرج عمرو بن سالم الخُزاعي ، حتى قَدِمَ على رسول الله بالمدينة ، فوقف عايه وهو في المسجد جالس بين ظَهْرَانِي الناس فقال :

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدٌ خَمْدًا	حَافَ أَيْبُنَا وَأَيْبِهِ الْآتِنْدَا ^(١)
فَوَالِدَا كُنَّا وَكَتَ وَلَدَا	ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانْصُرْ هَذَا اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا ^(٢)	وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا	أَبْيَضَ مِثْلَ الْبَدْرِ يَنْمَى صُعْدَا
إِنْ سِيمَ خَسَفًا وَجْهَهُ رَبَّادَا ^(٣)	فِي فَيْلَقٍ ^(٤) كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا
إِنْ قَرِيشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا	وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوَكَّدَا
وَجْعَلُوا لِي فِي كَدَاءٍ ^(٥) رُصَّدَا	وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا
وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عَدَدَا	هُمْ يَبْتَئُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا ^(٦)

* فَقَتَلُونَا رُكَّعًا وَسُجَّدَا *

فقال رسول الله - حين سمع ذلك : قد نُصِرْتَ يَا عَمْرُو ! وجاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ في نفرٍ من خُزاعة ، حتى قدموا على رسول الله فأخبروه بِمَنْ أُصِيبَ مِنْهُمْ ، وبمظاهرة^(٧) قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة .
وقال رسول الله للناس : كَأَنِّي بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَ لِيَشُدَّ الْعَقْدَ ، وَيَزِيدَ فِي الْمُدَّةِ .

(١) ناشد . طالب . الأتلد : القديم . (٢) أعتدا : حاضراً .

(٣) الخسف : الذل ، وسيم الخاسف : كلفه ، وتريد : تغير .

(٤) الفيلق : العسكر الكثير . (٥) كداء : موضع بمكة . (٦) الوتير : اسم ماء .

(٧) المظاهرة : المعاونة .

ومضى بُدَيْل وأصحابه ، فلقوا أباسفيان بُسْفَانَ^(١) قد بعثته قريش إلى النبيّ
ليشدّ العقد ، ويزيد في المدة ، وقد رهبوا الذي صنعوا .
فقال أبو سفيان : من أين أقبلت يا بُدَيْل ؟ قال : سیرتُ في خِزاعة في هذا
الساحل ، وفي بطن هذا الوادي . قال : أَجِيتَ محمداً ؟ قال : لا .
فلما راح بُدَيْل إلى مكة قال أبو سفيان : إن كان بُدَيْل قد ذهب إلى المدينة فقد
أكلت راحلته النوى ، ثم حمّد إلى مَبْرَكٍ ناقته فأخذ من بَعْرِها ففَتَّهَ ، فرأى فيه
النوى ، فقال : أَحْلِفْ لقد جاء بُدَيْل محمداً !

ثم خرج أبو سفيان حتى قدِم المدينة فدخل على ابنته أم حَبِيبَةَ - زوج رسول
الله - فلما ذهب ليجلسَ على فراش رسول الله طَوَّنَتْهُ عنه ، فقال : يا بُنَيَّةُ ؛
والله ما أدري ، أَرُغِبْتِ بِي عن هذا الفراش ، أم رَغِبْتِ به عني ؟ قالت : بل هو
فراش رسول الله ، وأنتَ رجلٌ مُشْرِكٌ ، فلم أحب أن تجلسَ على فراش رسول الله !
قال : لقد أصابك يا بُنَيَّةُ بعدى شَرٌّ !

ثم خرج حتى أتى رسول الله ، فسلّمه فلم يَرُدَّ عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبي بكر
فكلّمه أن يكلّم رسول الله . فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلّمه ،
فقال : أنا أشفّعُ إلى رسول الله ، فوالله لو لم أجد إلا الذرَّ^(٢) لجاهدتكم به .
ثم خرج فدخل على عليّ بن أبي طالب ، وعنده فاطمةُ ومعهما الحسن بين يديها ،
فقال : يا عليّ ؛ إنك أَمْسُ القوم بِي رَحِمًا ، وأقربهم مني قَرابةً ، وقد جئتُ في حاجةٍ
فلا أرجمن - كما جئتُ - خائباً . اشفّعْ لنا إلى محمد ، قال : وَيَحْذِكُ يا أباسفيان ا

(١) عسفان : موضع على مرحلتين من مكة . (٢) الذر : صفار النمل .

والله لقد عزم رسول الله على أمرٍ ما نستطيع أن نكلّمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال :
يا بنتَ محمد ؛ هل لك أن تأمرى بُنيّك هذا فيجبر^(١) بين الناس ، فيكون سيّد^١ ،
العرب إلى آخر الدهر ! قالت : والله ما بلغ بُنيّ ذاك أن يُجبر بين الناس ، وما يُجبر
على رسول الله أحد ، قال : يا أبا الحسن ؛ إني أرى الأمور قد اشتدّت علىّ فاعصّني .
فقال : والله ما أعلم شيئاً يُعنى عنك شيئاً . ولكنك سيّدُ بنى كِنانة ، فقم فأجبر^٢
بين الناس ، فالحق بأرضيك . قال : أو ترى ذلك مُعنيّاً عنى شيئاً ! قال : لا ، والله
ما أظنّ ، ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ، إني قد أجزتُ بين الناس . ثم
ركب بميره فانطلق .

فلما قديم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتُ محمداً فكلّمته ، فوالله ما ردّ
علىّ شيئاً . ثم جئتُ ابنَ أبي قُحافة فلم أجد عنده خيراً ، ثم جئتُ ابنَ الخطاب
فوجدته أعدى القوم ، ثم جئتُ علىّ بنَ أبي طالب فوجدته ألين القوم ، وقد أشار
علىّ بشي، صنمته ، فوالله ما أدرى هل يُعنيّني شيئاً أم لا ؟ قالوا : وبماذا أمرك ؟
قال : أمرني أن أجبر بين الناس ففعلت . قالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ؛
قالوا : ويؤلّك ! والله إن زاد على أن لعب بك ، فما يُعنى عنا ما قلت ، قال : الله
ما وجدتُ غير ذلك .

وأمر رسول الله بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهّزوه ، ودخل أبو بكر على ابنته عائشة
وهي تحرك جهازَ النبيّ ، فقال : أي بليّة ، أمركم رسولُ الله أن تجهّزوه ؟ قالت :

(١) يجبر بين الناس : أى يفضل بينهم ويعنهم من البنى والمدوان .

نعم فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : والله ما أدري ! ثم إن رسول الله أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيب ، وقال : اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبهتها^(١) في بلادها . فتجهز الناس .

ولما أجمع رسول الله السير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله من السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جملا^(٢) على أن تبلغه قريشا ، فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ، وخرجت به .

وأتى رسول الله الخبر من الوحي ، فبعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وقال لهما : أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له في أمرهم .

فخرجا حتى أدركاها بالخلية^(٣) ، فاستنزلاها ، والتمسّا الكتاب في رَحْلِها فلم يجدا شيئا . فقال لها على : إني أخلف ما كذب رسول الله ، ولا كذبتنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أولنكشفنك ! فلما رأيت الجد منه قالت : أعرضا عني ، فأعرضا عنها ، فلفت قرون رأسها واستخرجت الكتاب منه ، فدفعته إليهما فجاءا به إلى النبي .

ودعا رسول الله حاطبا ، فقال : يا حاطب ؟ ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ؛ أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ؛ ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت امرأة ليس لي في القوم أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد ، فصا نعمتهم عليهم . فقال : عمر ؛ يا رسول الله ، دغني أضرب عنقه ؛ فإن الرجل قد نافق .

(١) نبهتها : فاجبها . (٢) جملا : ما يجعل مقابل عمل . (٣) الخلية : ماء بين مكة واليمامة .

فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم^(١) .

ثم يرح رسول الله المدينة ، واستخلف عليها أبا رهم كاثوم بن حُصَيْن .

ومضى النبي لسفّره ، حتى نزل مرّ الظهران^(٢) في عشرة آلاف من المسلمين ، وكانت قد عُصِيَت الأخبارُ عن قريش فلم يأتهم خبرٌ عن رسول الله ، ولم يدّروا ما هو فاعل . وخرج في بعض تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسّسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به !

قال العباس بن عبد المطلب : ولما نزل رسول الله مرّ الظهران قلت : يا صباح قريش ! والله لئن بقتها^(٣) رسول الله في بلادها فدخل مكة عنوة ، إنه لهلاك قريش آخر الدهر . وجلس على بغلة رسول الله البيضاء ، وقال : أخرجُ إلى الأراك لعلّي أرى خطّاباً^(٤) ، أو صاحب لبٍ ، أو داخلا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه فيستأمنونه .

فخرجتُ ؛ فوالله إنّي لأطوفُ في الأراك ألتبسُ ما خرجتُ له ، إذ سمعتُ صوتَ أبي سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، وقد خرجوا يتحسّسون الخبر عن رسول الله ، فسمعتُ أبا سفيان يقول : والله ما رأيتُ كالليوم قطّ نيراناً . فقال بديل : هذه والله خُزاعة قد حمّستهم^(٥) الحرب . فقال أبو سفيان : خُزاعةٌ أذلُّ وأقلُّ من أن تكونَ هذه نيرانها ! فعرفتُ صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ،

(١) أنزل الله تعالى في حاطب : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة . . . » سورة المتحنة . (٢) مر الظهران : واد قرب مكة . (٣) بقتها : فاجأها . (٤) الخطب : ما أعد من الشجر وقوداً ، وخطبه : جمعه . (٥) حمّستها الحرب : أغضبتها .

فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل! قلت: نعم، فقال: لبيك فِدَاكَ أبي وأُمِّي! قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله قد دَلَفَ^(١) إليكم بما لا قِبَلَ لكم به، قال: فما الحيلة فِدَاكَ أبي وأُمِّي! قلت: تَرَكْبُ عَجَزُ هذه البغلة فَأَسْتَأْمِنُ لك رسول الله؛ فوالله لئن ظَفِرَ بك ليضربنَّ عُنُقَكَ. فردَفَنِي^(٢)، فخرجتُ به أركضُ بغلةَ النبيِّ نحوَ المسلمين، فكلَّمَا مَرَرْتُ بِنَارٍ من نيران المسلمين ونظروا إليَّ قالوا: عمُّ رسول الله على بغلة رسول الله؛ حتى مَرَرْتُ بِنَارٍ عمر بن الخطاب فقال: أبو سفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عَقْدٍ ولا عهد! ثم اشتدَّ^(٣) نحو النبيِّ، وركضتُ البغلةُ وقد أُرِدْتُ أبا سفيان حتى اقتحمت على باب القبة، وسبقتُ عمر بما تسبقُ به الدابةُ البطيئةُ الرجل البطيء، فدخل عمر على رسول الله فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدوُّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عَقْدٍ، فدَعَنِي أضرب عنقه.

فقلت: يا رسول الله، إني قد أجزتُه، ثم جلستُ إلى النبيِّ فأخذتُ برأسه فقلت: والله لا يناجيه اليوم أحدٌ دوني، فلما أكثر عُمَرُ في شأنه قلتُ: مهلاً يا عمر؛ فوالله لو كان من رجال بني عَدِيٍّ^(٤) بن كعب ما قلتُ هذا، ولكنك عرفتُ أنه من رجال بني عبد مناف. فقال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمتُ كان أحبَّ إلي رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله: اذهب به يا عباس إلى رَحْلِكَ، فإذا أصبحتَ فأتني به.

فذهبتُ به إلى رَحْلِي، فباتَ عندي. فلما أصبح غَدَوْتُ به إلى رسول الله، فلما رآه قال: وَيْحَكَ يا أبا سفيان! أَلَمْ يَأْنِ^(٥) لك أن تعلم أنه لا إلهَ إلا الله! قال: بَأْيِ أَنْتَ وأُمِّي! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننتُ أن لو

(١) دلف: تقدم. (٢) تبعني. (٣) اشتد: عدا وأسرع. (٤) قوم عمر.

(٥) لم يَأْنِ لك: ألم يحن لك الوقت الذي تعلم فيه...

كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً ، قال : وَيَحْك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ! فقال : : بأبي أنت وأمي ! ما أوصلك وأحلمك وأكرمك ! أمّا هذه في النفس منها شيء . فقال العباس : وَيَلِك ! أَسْلِم ، واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك ، فشهد شهادة الحق . فقال رسول الله للعباس حين تشهد أبو سفيان : انصرف يا عباس فاحسبه عند خطم^(١) الجبل بمضيقي الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله ، فقلت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً يكون له في قومه . فقال : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

فخرجت فحسبته عند خطم الجبل بمضيقي الوادي ، فررت القبائل على راياتها ، وكلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس ؛ من هذه ؟ فأقول : سليم ، فيقول : مالي ولِسليم ! ثم تمرّ القبيلة فيقول : يا عباس ؛ من هؤلاء ؟ فأقول : مزيّنة ، فيقول : مالي ولِمزيّنة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمرّ قبيلة إلا يسألني عنها ، حتى مرّ رسول الله في كتيبته الخضراء^(٢) ، فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق^(٣) من كثرة الحديد ، فقال : سبحان الله يا عباس ! من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال : مالأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك عظيماً ، قلت : يا أبا سفيان ؛ إنها النبوة ، قال : فعم إذن ، قلت : الحقّ بقومك الآن فحذّروهم .

(١) خطم الجبل : مقدمه . (٢) إنما قيل لها خضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .

(٣) جمع حدقة ، وهي سواد العين .

فخرج أبو سفيان سريعا حتى أتى مكة ، فصرخ في المسجد : يامعشر فريش ؛ هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت إليه هند بنت عتبة فقالت : اقتلوا هذا الحميت الدسيم الأحمش^(١) . فبيح من طليمة قوم ! قال : ويلكم ! لا تفرتكم هذه من أنفسكم ؛ فإن محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قلوا : قاتلك الله ! وما تمنى عنا دارك ! قال : ومن أعتق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فنفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

ولما انتهى رسول الله إلى ذي طوى^(٢) وقف على راحلته مُعْتَجِرًا بِشَقَّةٍ بُرْدَ حَبْرَةٍ حَمْرَاءَ^(٣) ، وإنه ليضع رأسه تواضعا لله حين رأى ما أكرمه الله به من المفتاح ، حتى إن عثنونه^(٤) ليكاد يمس واسطة الرُّحْل .

وَبَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ يَذِي طَوًى ، وَقَفَ أَبُو قُحَافَةَ وَقَالَ لَابْنَةِ لَهُ : أَيُّ بُنْيَةٍ ، أَظْهَرِي بِي عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ^(٥) . فَأُثِرَفَتْ بِهِ عَلَيْهِ - وَقَدْ كُفَّ بَصْرَهُ - فَقَالَ : أَيُّ بُنْيَةٍ ؛ مَاذَا تَرَيْنِ ؟ قالت : أرى سوادا مجتمعا ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلا يسمى بين يدي ذلك السواد مقبلا ومُدْبِرًا . قال : أَيُّ بَنِيَّةٍ ؟ ذلك الوازع^(٦) . ثم قالت : قد والله انتشر السواد ، فقال : إِذْنُ دَفَعَتِ الْخَيْلُ ، فَأَسْرَعَى بِي إِلَى بَيْتِي ، فَاِنْحَطَّتْ بِهِ ، وَتَلَقَّاهُ الْخَيْلُ قَبْلَ أَنْ يَصَلَ إِلَى بَيْتِهِ ، وَكَانَ فِي عُنُقِ الْجَارِيَةِ طَوْقٌ

(١) أصل الحميت : زق الدهن ، وهي تعني أبا سفيان استعظاما لقوله . الدسيم : الدني من الرجال ، ورجل حش الخلق : دقيق الخلقة ، قالته في معرض الذم . (٢) ذو طوى : مثاث الطاء : موضع قرب مكة . (٣) معتجرا : متما ، والشقة : النصف ، والحبرة : ضرب من ثياب اليمن . (٤) عثنون : لحية . (٥) أبوقبیس : جبل بمكة . (٦) الوازع في الحرب : الموكل بالصوف يتقدم الصف فيصلحه ، ويتقدم ويؤخر .

من وَرَقٍ^(١) ، فتلقاها رجل فقطعه من عنقها^(٢) .

وكان رسول الله قد فرق جيشه من ذى طُوًى ، فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدَى^(٣) ، وأمر سعد بن عبادة^(٤) أن يدخل في بعض الناس من كدء^(٥) ، وأمر خالد بن الوليد فدخل من اللَّيْطِ^(٦) أسفل مكة في بعض الناس ، وأبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين يتصبّب^(٧) لمكة بين يدي رسول الله . ودخل النبي من أذاخر^(٨) حتى نزل بمكة ، وضربت له هناك قُبَّةٌ .

وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناسا بالحنْدَمَةِ^(٩) ليقاتلوا ، وكان حمّاس بن قيس يُعدُّ سلاحاً قبل دخول رسول الله ويُصلحُ منه ، فقالت له امرأته : لماذا تُعدُّ ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أرى أنه يقوم لحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بمفضهم .

ثم شهد الحَنْدَمَةَ مع صفوان وسهيل وعكرمة . فلما لقيهم المسلمون من أصحاب خالد فاؤشوم شيئاً من قتال فانهزموا . وخرج حمّاس منهمزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى على بابي ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

(١) ورق : فضة . (٢) ولا وصل رسول الله لمكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه بقوده فبدا رآه رسول الله قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يعشى إليك من أن تمشى إليه أنت ، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره وقال : أسلم ، فأسلم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ، فلم يجبه أحد فقال : أى أختية ، احتسى طوقك ، فوالله إن الأمانة في الناس اليوم لقليل .

(٣) كدى : جبل أسفل مكة على طريق اليمن . (٤) زعم بعض أهل العلم أن سعداً — حين وجه داخلا — قال : اليوم يوم للمحمة ، اليوم تستحل الحريمة . فسمعها رجل من المهاجرين فقال : يا رسول الله ، اسمع ما قال سعد بن عبادة ، ما نأمن أن تكون له في قریش صولة ، فقال : رسول الله لعلى بن أبى طالب ؛ أدركه بغد الراية منه ، فكانت أنت الذى يدخل بها . (٥) كدء : جبل بأعلى مكة . (٦) الليط : موضع أسفل مكة . (٧) يتصبّب : ينحدر . (٨) أذاخر : موضع قرب مكة . (٩) الحندمة : جبل .

إِنَّكَ لَوْ شِئْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكرِمَةُ
وَأَبُو يَزِيدٌ قَائِمٌ كَالْمَوْثِمَةِ وَاسْتَقْبَلْتَهُمْ بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ (١)
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُجُمَةٍ ضَرْبًا فَلَا يُسْمَعُ إِلَّا غَمَمَةٌ
لَهُمْ نَهْيٌ (٢) خَلَقْنَا وَهَمَمَةٌ لَمْ تَنْطَقِ فِي اللُّومِ أَذَى كَلِمَةٍ

وكان رسول الله قد عهد إلى أمرائه من المسلمين - حين أمرهم أن يدخلوا مكة -
ألا يقتلوا أحداً غير من قاتلهم إلا نفرأ سبأهم ، أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت
تحت أستار الكعبة (٣) .

ولما نزل رسول الله مكة ، واطمأن الناسُ خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعا
على راحلته يستلم الركنَ بمِخْجَنٍ فِي يَدِهِ (٤) . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ،
فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها : ثم وقف على باب الكعبة ، وقد
استكف (٥) له الناسُ في المسجد ، فقام رسول الله على باب الكعبة فقال :

« لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، صَدَقَ وَعْدُهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ
وَخَذَهُ ، أَلَا كُلٌّ مَأْثُورَةٌ أَوْ دَمٍ أَوْ مَالٍ يُدْعَى فَهُوَ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ إِلَّا سِدَانَةَ
الْبَيْتِ وَسِقَايَةَ الْحَاجِّ . أَلَا وَقَتِيلُ الْخَطِئِ شَبِيهُهُ لِلْعَمْدِ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا فِيهِ الدِّيَةُ مَذْلُومَةٌ
مَائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَرْبَعُونَ مِنْهَا فِي بَطُونِهَا أَوْلَادُهَا . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَمَظُّمَهَا بِالْآبَاءِ ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تَرَابٍ .
ثُمَّ تَلَا : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ
لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم قال : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، مَا تَرَوْنَ أَنِي فَاعِلٌ بِكُمْ ؟ قَالُوا : خَيْرًا ، أَخْ كَرِيمٍ
وَابْنِ أَخِي كَرِيمٍ ، قَالَ : أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ .

(١) المؤتمه : التي قتل زوجها . السلعة : المسلمون . (٢) التهميت : الزفير . (٣) منهم
عبد الله بن سعد أخو عامر بن لؤي ، وعبد الله بن خطل ، والحويث بن نقيذه . (٤) الحجج :
عود موج الطرف يسكنه الراكب للبعير في يده . (٥) استكف له : اجتمعوا له .

ثم جلس رسولُ الله في المسجد ، فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاحُ الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ؛ اجمع لنا الحِجَابَةَ مع السقاية ، فقال النبي : أين عثمانُ ابن طلحة ؟ فدُعِيَ له فقال : هالكُ مفتاحك يا عثمان ، اليومُ يومُ برٍّ ووفاء . ثم قال لعليّ : إنما أعطيتكم ما تُرزءون لا ما تُرزءون^(١) .

ثم اجتمع الناسُ بمكةَ لبِيعَةِ رسول الله على الإسلام ، فجلس لهم على العَفَا ، ولما فرغ النبيّ من بَيْعَةِ الرجال بايَعَ النساء ، واجتمع إليه نساءُ من قريش ، فبينَ هند بنت عتبةَ متَنَقِّبَةً متَنَكِّرَةً لحدّثها وما كان من صميمها بِحَمَزَةٍ ، فلما دَنَوْنَ منه ليُبايَعَنَّهُ ، قال رسولُ الله : تبايَعننِي على أَلَّا تُشركنَ بالله شيئاً ؟ فقالت هند : والله إنك لتأخذُ علينا أمراً ما تأخذُه على الرجال ، وسنؤتيك ، قال : ولا تسرقن ، قالت : والله إن كنتُ لأُصيبُ مِنْ مالِ أبي سفيانِ الهَنَّةَ والهَنَّةَ^(٢) ، وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؛ فقال أبو سفيان — وكان شاهداً لما تقول : أمّا ما أُصَبْتُ فيما مضى فأنتِ منه في حِلٍّ ، فقال رسولُ الله : وإنك لهند بنتُ عتبة ؟ قالت : أنا هند بنت عتبة ، فافقُ عما سلف ، عفا الله عنك . قال : ولا تزْنين ، قالت : وهل تزْنِي الحرة ! قال : ولا تقتلنِ أولادَكُنَّ ، قالت : قد ربّيتنَّاهم صغاراً وقتلتهم يومَ بدرٍ كباراً ، فأنتِ وهم أعلم ، فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب^(٣) . قال : ولا تأتينِ بُهتانَ^(٤) تَفْتَرينه بين أيديكُنَّ وأرجلكُنَّ ، قالت : إنَّ إتيانَ البهتانِ لقبيحٌ ، ولَبَعَضُ التجاوزِ أمثل . قال : ولا تعصينني في معروف ، قالت : ما جَلَسْنَا هذا المجلسَ ونحن نريدُ أن نَعْصِيكَ في معروف . فقال رسولُ الله لعمر : بايَعُنَّ ، واستغفِرُ لهنَّ ، فبايَعهنَّ عُمَرُ .

(١) رزأه : أصاب منه خيراً . (٢) الهنة : الشيء القليل .

(٣) استغرب في ضحكه : بالغ فيه . (٤) أي لا يأتيهن بولد من غير أزواجهن فينسبهن إلى

الزوج فإن ذلك بهتان وبُرية . ويقال : كانت المرأة تلتقطه فكُتِبَناه .

١٣ - يوم حنين*

سمعت هوازينُ بخروج^(١) رسولِ الله من المدينة ، وظنُّوا أنه يريدُهم ، فاجتمعوا له ، فلما أتاهم أنه قد اتَّجَهَ إلى مكة ، وأنه قد فتح الله عليه بها ، خافوا أن يسيرَ إليهم ويُعزِّزوهم ، ومشت أشرافُ هوازين وثَقِيف بمضها إلى بمض ، وقالوا : إن محمداً قد فرغ لنا ، ولا مانعَ له دوننا ؛ فالرأى أن ننزوه قبل أن ينزونا ، وأَجْمَعُوا أمرهم على ذلك^(٢) .

وكان جماعُ الناس حينئذٍ إلى مالك بن عوف النَّصْرِي ، فلما أجمع مالكُ المسيرَ لقتال المسلمين حَطَّ مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

ونزل بأوطاس^(٣) فاجتمع إليه الناس ، وفيهم دُرَيْد بن الصَّمَّة^(٤) - وكان شيخاً كبيراً ليس فيه شيء إلا التَّيَمُّنُ برأيه ومعرفة الحرب - في شِجَارٍ^(٥) له يُقَادُ به بِمِيرُهُ ، فقال دُرَيْد : بأيِّ وادٍ أنتم ؟ قالوا : بأوطاس ، قال : نعم مجالُ الحيل ! لا حَزَنُ خَرَسٍ ، ولا لَيْنُ دَهْسٍ^(٦) . مالى أسمعُ رُغَاءَ البعير ونهاقَ الحَيرِ وبُعْمَارٍ^(٧) الشَّاءِ ، وبسكاء الصَّعِير ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم وأبناءهم

* سيرة ابن هشام : ٤ - ٦٥ ، السيرة الحلبية : ٣-١٢١ ، سيرة دحلان : ٢ - ٣١٣ ، الطبري ٣-١٢٥ . وكان هذا اليوم في اليوم في السنة الثامنة من الهجرة . وحنين : واد إلى جنب ذى الحجاز ، ويسمى غزوة أوطاس ، وهوازن .

(١) كان قد خرج لفتح مكة . (٢) لم يتخلف من هوازن إلا كعب وكلاب . (٣) أوطاس : واد في ديار هوازن ، وفيه عسكرواهم وثَقِيف . (٤) كان رئيس بني جشم وسيدهم وأوسطهم ، ولكن السن أدركته حتى ضعف ضعفاً شديداً . (٥) الشجار : الهودج الصغير الذي يكنى واحداً غُسَب . (٦) الخرس : ما خشن من الآكام ، والدهس : السهل اللين لا يبلغ أن يكون رملاً وليس هو بتراب ولا طين . (٧) يمار : صوت .

ونساءهم . فقال : وأين مالك ؟ فدُعِيَ له ، فقال : يا مالك ، إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك ، وإن هذا يومٌ له ما بعده من الأيام ؛ مَالِي أَسْمَعُ رُغَاءَ البعيرِ ونُهَاقَ الحَيرِ ويُعَارَ الشاءِ وبُكَاءِ الصغِيرِ ! قال : سَقَتُ مع الناسِ أبناءَهم ونساءَهم وأموالَهم ، قال : ولم ؟ قال : أردتُ أن أجملَ خَلْفَ كلِّ رجلٍ أهلهَ ومالهَ ليقارنلَ عنهم . فَأَنقَضَ به ^(١) ، ثم قال : راعى ضأنٌ والله ! هل يردُّ المَهْزَمُ شَيْءٌ ! إنها إن كانت لك لم ينفَعُكَ إلا رجُلٌ بسيفِهِ ورمحه ، وإن كانت عليك فَضِحتُ في أهلكَ ومالك . ما فعلتَ كعبٌ وِكْلاب ^(٢) ؟ قال : لم يشهد منهم أحدٌ ، قال : غابَ الحدُّ والجُدُّ ^(٣) ، ولو كان يومَ علاءٍ ورَفعة لم تَغِبْ كعبٌ ولا كِلاب ، ولوددتُ أنكم فعلتم ما فعلوا ، فمن شهدَها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر وعوف بن عامر ، قال : ذاك الجُدَّعَان ^(٤) من بني عامر لا ينفَعان ولا يضرَّان . يا مالك ، إنك لم تصنع بتقديمِ البَيْضَةِ ^(٥) — بَيْضَةُ هوازن — إلى نُجُورِ الخَيْلِ شيئاً ؛ أرفقهم إلى مُتَمَنِّعِ بلادهم وعُلياً قومهم ، ثم القِ اليُسْبَاءَ ^(٦) على مُتَوْنِ الخيل ، فإن كانت لك لِحَقَّ بك مَنْ وراءك ، وإن كانت عليك أَلْفَاكُ ذلك وقد أحرزْتَ أهلكَ ومالكَ ، قال : والله لا أفعل ؛ إنك قد كَبَرْتَ وكَبِرَ علمُك لتطعمَ مِنِّي يامعشرَ هوازن أو لا تَكِينَنَّ على هذا السيفِ حتى يخرجَ من ظَهري . قال دُرَيْدٌ : هذا يومٌ لم أَشْهده ، ولم يَفْتَنِي :

يَالْيَتَنِي فِيهَا جَدَّعٌ ^(٧) أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعٌ ^(٨)
أَقُودُ وَطَفَاءَ الزَّمْعِ ^(٩) كَأَنهَا شَاةٌ ^(١٠) صَدَعٌ ^(١١)

-
- (١) أنقض به : نقر بالسانه في فيه كما يزجر الخمار ؛ فعل ذلك استجهاً لا له . (٢) كعب وِكْلاب : قبيلتان في هوازن . (٣) أخذ : البأس ، والجُد : الحف .
(٤) الجُدَّعان : منى جدع ، بالفتح وهو صغير السن . (٥) البَيْضَةُ : أصل القوم ومجتمعهم .
(٦) جمع صائٍ ، وكانوا يسمون المسلمين صباء ، لأنهم خرجوا من دين قريش إلى الإسلام .
(٧) الجُدَّع يريد : شاباً . (٨) الحُبب والإيضاع : ضربان من السير . (٩) الزمعه : هنة زائدة وراء الظلف ، وجمعه زمع . — والوصف : أصله كثرة شعر الحاجبين والعينين ، يريد فرساً هذه صفتها . (١٠) الشاة : يريد الوعل . (١١) الصدع : الفج الثابت القوي .

وبعث مالك بن عوف عُيُونًا من رجاله لينظروا له ، ويأتوه بخبر الناس .
فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم ، فقال : وَيْلَكُمْ ! ماشاً نكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً
يبيضاً على خيلٍ بُلِقَ ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ماترى ، فلم ينهه ذلك عن
وجهه ، ومضى على ما يريد !

ولما سمع بهم رسول الله بعث إليهم عبد الله بن أبي حذرد ، وأمره أن يدخل
في الناس ، فيقيم فيهم حتى يأتيه بخبر منهم ، ويعلم علمهم ؛ فانطلق فدخل فيهم ،
فأقام معهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب الرسول ، وعلم أمر مالك وهوازن
وما هم عليه .

ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبرهم ، فقال : انتهيت إلى خباء
مالك بن عوف ، وعنده رؤساء هوازن ، فسمعتهم يقول : إن محمداً لم يُقاتل قوماً
قط قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقي قوماً أغماراً^(١) لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ،
فإذا كان السحر فصموا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم ، ثم تكون الحملة
منكم ، واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف ، واحلوا حملة
رجل واحد ، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً .

فدعا رسول الله عمر بن الخطاب ، فأخبره خبر ابن أبي حذرد ، فقال عمر :
كذب ، فقال ابن أبي حذرد : إن تكذبني فطالما كذبت بالحق يا عمر ، فقال عمر :
ألا تسمع يا رسول الله إلى ما يقول ! فقال : قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر .

ولما أجمع النبي السير إلى هوازن ليلاً هم ذو كبر له أن عند صفوان بن أمية
أدراعاً وسلاحاً - وهو يومئذ مشرك - فأرسل إليه ، فقال : يا أبا أمية ، أعرنا سلاحك

(١) الأغمار : جمع غمر ، بضم أوله ، وهو الجاهل الفر الذي لم يعرب الأمور ، ويطلق على
كل من لا غناء عنده ولا رأى .

هذا نَلَقَى فيه عدوَّنَا غدًا . فقال صفوان : أَغْصَبَا يَا مُحَمَّد ! قال : بل عاريةٌ مضمونةٌ حتى نؤدِّيَها إليك . قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

ثم خرج النبيُّ ومعه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله بهم مكة ، فكانوا اثني عشر ألفاً ، واستعمل رسولُ الله عتَاب بنَ أُسَيْد^(١) على مكة أميراً على الناس ، ثم مضى على وجهه يريد لقاء هوازٍ .

ولما استقبل المسلمون واديَّ حُثَيْنِ انحَدروا في وادٍ من أودية تِهَامَةٍ ، وكان القومُ قد سبقوهم إلى هذا الوادي ، فكَمَنُوا لهم في شِعَابِهِ وَأَحْثَانِهِ ومضايقه^(٢) ، وقد أجمَعوا وتَهَيَّئُوا وأعدُّوا ، فإِراَعَهُمْ إِلَّا الْكَتَائِبُ^(٣) قد شَدَّتْ عليهم شدة رجل واحدٍ ، واستقبلوهم بالتَّبَل كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ .

وانهزمَ الناسُ أجمعون ، فَأَنْشَمَرُوا^(٤) لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وانحاز^(٥) الرسولُ ذات اليمين ، ثم قال : أين أيُّهَا النَّاسُ ؟ هَلُمُّوا إِلَيَّ ، أنا رسولُ اللَّهِ ، أنا محمد ابنُ عبدِ اللَّهِ ! وانطلقَ النَّاسُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ مع رسولِ اللَّهِ نفرٌ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

ولما انهزمَ النَّاسُ ، ورأى مَنْ كَانَ مع رسولِ اللَّهِ من جُفَاءِ مَكَّةَ الهزيمة تكَلَّمَ رجالٌ بما في أنفسهم ، فقال أبو سفيان : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ، وقال كَلْدَةُ ابن الحنبل : أَلَا بَطَلُ السَّحَرِ اليوم ! وقال شيبة بن عثمان^(٦) : اليوم أدركُ ثأري .

(١) عتاب بن أُسَيْد : استعمله النبي على مكة عام الفتح ، ثم أقره أبو بكر فاستمر فيها إلى أن مات يوم مات أبو بكر . (٢) الشعاب : جمع شعب ، وهو الطريق في الجبل . (٣) الكتيبة : جماعة الحيل إذا أغارت ، من المائة إلى الألف . (٤) انشمر الرجل ، إذا مرجدا ومضى . (٥) انحاز : عدل . (٦) كان أبوه قتل يوم أحد .

سأقتل محمداً . ورأى رسول الله الناس لا يَلَوْن على شيء ؛ فقال : يا عباس ؛
اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا أصحاب السَّمرَةِ (١) ! فنادى العباسُ : يا معشر الأنصار !
يا معشر أصحاب السَّمرَةِ ! فأجابوا : لَبَّيْكَ ! لَبَّيْكَ !

وكان الرجلُ منهم يذهب لِيَتَنَبَّأَ بِمِيرِهِ فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ دِرْعَهُ فيقذفها
في عنقه ، ويأخذ سيفه وتُرْسَهُ ، ثم يترك بميره ويخْلِ سبيله في الناس ، ثم يَوْمُ
الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه مائة رجل منهم استقبلوا
الناس فافتتلوا ، وأشرف رسول الله فنظر إلى مُجْتَلِدِ القوم (٢) ، فقال : الآن سَمِيَ
الوطيس (٣) .

ورأى الناس رجلاً من هوازن على جَمَلٍ أحمر ، بيده راية سوداء ، في رأس
رُمَحٍ طويل يتقدم هوازن ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس رفع رُمَحَهُ لَمَنْ
وراءه فاتبموه ، فهو (٤) له عليُّ بن أبي طالب ورجلٌ من الأنصار يُرِيدَانِهِ ، فأتاه
عليٌّ من خَلْفِهِ ، فضرب عُرْقُوبِي الجمل فوقه على عَجْزِهِ ، ووثب الأنصاري عليه فضربه
ضربةً أظنَّ (٥) قدمه يَنْصِفُ ساقه ، فأنجمف (٦) عن رَحْلِهِ .
واجتلد الناس ، فما رجعت راجعةُ الناس مِنْ هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى
عند رسول الله .

والتفت رسول الله إلى جانبه فرأى أبا سفيان بن الحارث ، وهو آخذٌ بِثَفَرِ (٧)
بَقْلَتِهِ ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : أنا ابنُ أُمِّكَ يا رسول الله !

(١) السمره : الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان عام الحديبية .

(٢) مجتلد القوم : موضع الجلاد ، وهو الضرب بالسيف في القتال . (٣) الوطيس : شيء
يتخذ مثل التنور يختبئ فيه ، وهذا كناية عن اشتباك الحرب وقيامها على ساق . وقيل الوطيس :
حجارة مدورة فإذا حبت لم يمكن أحداً الوطء عليها ، وهذا يضرب مثلاً للأمر إذا اشتد .

(٤) هوئله : أسرع . (٥) الإطنان : سرعة القطع . (٦) أنجمف : انقلب .

(٧) الثفر : السير الذي في مؤخر السرج .

والثفت فرأى أمّ سليم مع زوجها ، وهى حازمةٌ وسطها برُديّ لها ، ومعها جملُ زوجها ، وقد خشيت أن يَمُرَّها ^(١) الجمل ، فأذنت رأسه منها ، وأدخلت يدها في خِزَامَتِهِ ^(٢) مع الحِطَام ، فقال لها الرسول : أم سليم ، قالت : نعم ! بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك ؟ كما تقتل الذين يقاتلونك ؟ فإنهم لذلك أهل ، فقال رسول الله : أو يسكني الله يا أمّ سليم ! وقال لها أبو طلحة زوجها : ما هذا الحِنْجَر الذى معك يا أمّ سليم ؟ قالت : خِنْجَر أخذته ، إن دنا مني أحدٌ من المشركين بَمَجَّتْهُ به ^(٣) ، قال : ألا تسمعُ يا رسول الله ما تقول أمّ سليم الرُّمَيْصَاءُ ^(٤) !

وانهزمت هوازِنُ ، فاستحَرَّ ^(٥) القتلُ من ثَقِيف في بنى مالك ، فقتلَ منهم كثير ، وكانت رايتهُم مع ذى الحِمَار ^(٦) ، فلما قُتِل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ؛ ولما بلغ رسول الله قتله قال : أبعدَه الله فإنه كان يُبَغِض قريشاً . وكانت رايةُ الأحلافِ ^(٧) مع قارِب بن الأسود ^(٨) ، فلما هُزِم الناس أسندَ رايته إلى شَجَرَةٍ ، وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يُقتل منهم إلا رَجُلَان .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهما مالك بن عوف ، وعسكرَ بعضهم

(١) يمزها : يغلبها . (٢) الحِزَامَةُ : حلقة من شعر تجعل في ورة أنف البعير يشد فيها الزمام . (٣) بَمَجَّتْ به : شققت به بطنه . (٤) الرُمَيْصَاءُ ، من الرمس ، وهو قذى تتلفظه العين . (٥) استحَرَّ : اشتد . (٦) قال عباس بن مرداس فيه :

ولم يك ذو الحِمَارِ رئيسَ قَوْمٍ لَهُمْ عَقْلٌ يُعَاتِبُ أو نَكِيرُ

(٧) الأحلاف : قوم من ثقيف ، وكانت ثقيف فرقتين : بنو مالك والأحلاف .

(٨) يقول فيه عباس بن مرداس :

أطاعوا قارباً ولهم جدودٌ وأحلامٌ إلى عِزِّ تَصِيرُ

بأوطاس ، وتوجه بمضهم نحو نخلة ، وتبعته خيلُ رسولِ الله من سلك في نخلة ، فأدرك ربيعة بن رُفيع دُرَيْدَ بن الصَّمَّة فأخذ جملة ، وهو يظن أنه امرأة ، وذلك أنه في شجارك له فإذا برجل ؛ فأناخ به ، فإذا شيخٌ كبير ، وإذا هو دُرَيْدُ بن الصَّمَّة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريدُ بي ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفيع ، ثم ضربه بسيفه فلم يُغن فيه شيئاً ، فقال : بئس ما سلحتك أمك ! خذ سيفي هذا من مؤخر الرّجل - وكان في الشّجار - ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ ؛ فإنني كذلك كنتُ أضربُ الرجال ، ثم إذا أتيتَ أمك فأخبرها أنك قتلتَ دُرَيْدَ بن الصَّمَّة ؛ فربّ يوم قد منمتُ فيه نساءك ، فضربه فوق ، فتكشّف^(١) ؛ فإذا عجّانه^(٢) وبطون فتحذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل أعراء^(٣) . ثم مات .

وبعث رسولُ الله في آثار من توجه قبيل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بمض من أنهمز ، فتناوش^(٤) القوم في القتال ، فرى سلمة بن دُرَيْدُ أبا عامر الأشعري بسهم فأصاب ركبته فقتله ، فقال :

إِنْ تَسْأَلُوا عَنِّي فَإِنِّي سَلَمَةٌ ابْنُ سَمَادِيرَ لِمَنْ تَوَسَّعَ^(٥)
* أَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُءُوسَ الْمُسْلِمَةِ *

وولى الناس أبا موسى الأشعري ، فقاتلهم حتى فتح الله على يديه وهزمهم .
وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة ، فوقف في فوارس من قومه على ثنية^(٦)
من الطريق ، وقال لأصحابه : قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم ويلحق أخراكم ، فوقف

(١) تكشف ، الكشف : رفعك الشيء عما يواريه وينطيه .

(٢) العجان : الاست . (٣) أي من غير سروج ، ويقال إن ربيعة لما رجع إلى أمه أخبرها

بقتله دريداً . فقالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

(٤) تناوش القوم في القتال ، إذا تناول بعضهم بعضاً بالرماح ولم يتدنوا كل التناهي .

(٥) سمادير : أمه . (٦) الثنية : الطريقة في الجبل كالنقب .

هناك حتى مضى مَنْ كان لحق بهم من مُنْهَزِمَةِ الناس . فقال لأصحابه : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا : نَرَى قَوْمًا وَاضِعِي رِمَاحَهُمْ بَيْنَ آذُنِ خَيْلِهِمْ ، طَوِيلَةً بَوَادِئِهِمْ ^(١) ، فقال : هَؤُلَاءِ بَنُو سُلَيْمٍ ؛ وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ . فَلَمَّا أَقْبَلُوا سَلَكُوا بَطْنَ الْوَادِي . ثُمَّ طَلَعَتْ خَيْلُ أُخْرَى تَتَّبِعُهَا ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا نرى قوماً عَارِضِي رِمَاحِهِمْ أَغْفَالًا ^(٢) عَلَى خَيْلِهِمْ ، فقال : هَؤُلَاءِ الْأَوْسُ وَالْخَزَرَجُ ، وَلَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُمْ . فَلَمَّا انْتَهَوْا إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ سَلَكُوا طَرِيقَ بَنِي سُلَيْمٍ . ثُمَّ طَلَعَ فَارِسٌ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : ماذا تَرَوْنَ ؟ قالوا : نرى فارساً طَوِيلَ الْبَاءِ ، وَاضِعاً رُمْحَهُ عَلَى عَاتِقِهِ ، عَاصِباً رَأْسَهُ بِمِلَاءَةِ سَحَرَاءَ . فقال : هَذَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ ، وَأَحْلَفَ بِاللَّاتِ لِيَخَالَطَنَّكُمْ ^(٣) ! فَانْتَبَهُوا لَهُ . فَلَمَّا انْتَهَى الزُّبَيْرُ إِلَى أَصْلِ الثَّنِيَّةِ أَبْصَرَ الْقَوْمَ فَصَمَدَ لَهُمْ ، فَلَمْ يَزَلْ يُطَاكِعُهُمْ حَتَّى أَزَاحَهُمْ عَنْهَا .

ثُمَّ مُجِئَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ سَبَايَا حُنَيْنٍ وَأَمْوَالُهَا ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ بِالسَّبَايَا وَالْأَمْوَالِ إِلَى الْجِعْرَانَةِ ^(٤) ، فَخُيِّسَتْ بِهَا ^(٥) .

وَقَدِمَ قُلٌّ ثَقِيفٍ الطَّائِفَ ، وَأَغْلَقُوا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ مَدِينَتِهَا ، وَصَنَعُوا الصَّنَائِعَ لِلْقِتَالِ ؛ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ حَتَّى نَزَلَ قَرِيبًا مِنَ الطَّائِفِ ، فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ ، وَقُتِلَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ بِالنَّبْلِ ، وَلَمْ يَقْدِرِ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَدْخُلُوا حَائِطَهُمُ الَّذِي أَغْلَقُوهُ دُونَهُمْ . فَلَمَّا أُصِيبَ أَوَّلُكَ النَّفَرُ بِالنَّبْلِ ، وَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَسْكَرَهُ عِنْدَ مَسْجِدِهِ الَّذِي بِالطَّائِفِ ، وَحَاصَرَهُمْ بِضْعًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً . ثُمَّ رَمَاهُمُ بِالْمَنْجَنِيقِ ^(٦) ،

(١) بَوَادِئُ جَمْعُ بَادٍ ، وَهُوَ أَصْلُ الْفَخْدِ . (٢) أَغْفَالٌ : جَمْعُ غَفْلٍ ، وَهُوَ مَا لَا عِلَامَةَ لَهُ . (٣) يَخَالَطُكُمْ ، خَالَطَهُ : مَازَجَهُ . (٤) الْجِعْرَانَةُ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ يَكْسِرُونَ عَيْنَهُ ، وَيَشْدُدُونَ رَأْسَهُ . (٥) مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ بِامْرَأَةٍ وَقَدْ قَتَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، وَالنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهَا فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : امْرَأَةٌ قَتَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ . فَقَالَ لِبَعْضٍ مِنْ مَعِهِ : أَدْرَكَ خَالِدًا ، فَقُلْ لَهُ : إِنْ مَحْدَأَ يَنْهَاكَ أَنْ تَقْتُلَ وَلِيدًا أَوْ امْرَأَةً أَوْ عَسِيفًا . (٦) الْمَنْجَنِيقُ : آلَةٌ تَرَى بِهَا الْحِجَارَةُ فِي الْحَرْبِ .

ودخل نفرٌ من أصحاب رسول الله تحت دَبَابَةٍ^(١) ، ثم زَحَفُوا بِهَا إلى جدار الطائف ليخْرِقُوهُ ؛ فأرسلت عليهم ثقيف سِكَك الحديد مَحْمَاةً بالنار فخرَجُوا مِنْ تَحْتِهَا ، فَرَمَتْهُمْ ثَقِيفُ بالنبل ، فقتلوا رجالا منهم ؛ فأمر النبيّ بِقَطْعِ أَعْنَابِ ثَقِيفٍ ، فوقع الناس فيها يَقطَعُونَ .

وتقدّم أبو سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة إلى الطائف ؛ فناديا ثَقِيفًا :
 أَنْ أَمْنُونَا حَتَّى نَسْأَلَكُم ، فَأَمْنُوهُمَا . فدَعَا نِسَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ وَبَنِي كِنَانَةَ لِيُخْرِجُنَّ إِلَيْهِمَا ، وهما يخافان عليهنّ السَّيِّئَ^(٢) فَأَيَّيْنِ ، فقال لهما ابْنُ الْأَسْوَدِ بن مسعود :
 يَا أَبَا سُفْيَانَ ، يَا مَغِيرَةَ ؛ أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا جِئْتُمَا لَهُ ؛ إِنْ مَالَ بَنِي الْأَسْوَدِ بن مسعود حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمَا ؛ إِنَّهُ لَيْسَ بِالطَّائِفِ مَالٌ أَبَدُ رِشَاءٍ^(٣) وَلَا أَشَدُّ مَوْثِقَةً ، وَلَا أَبْعَدُ عِمَارَةً مِنْ مَالِ بَنِي الْأَسْوَدِ ، وَإِنْ مُحَمَّدًا إِنْ قَطَعَهُ لَمْ يَعْمُرْ أَبَدًا . فكلَّمَاهُ فليأْخُذْهُ أَوْ لِيَدَعِهِ لِلَّهِ وَالرَّحِمِ ؛ فَإِنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْقَرَابَةِ مَا لَا يَجْهَلُ . فكلَّمَا الرَّسُولَ فِيهِ ، فَتَرَكَهُم .
 ثُمَّ إِنْ خُوِيلَةَ^(٤) ابنة حَكِيمٍ قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أُعْطِنِي - إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الطَّائِفَ - حُلِيًّا بِأَدِيَةِ ابْنَةِ غَيْلَانَ ، أَوْ حُلِيًّا الْفَارِعَةَ بَتَّ عَقِيلٍ - وَكَانَتْ مِنْ أَحْلَى^(٥) نِسَاءِ ثَقِيفٍ - فقال لها الرسول : وَإِنْ كَانَ لَمْ يُؤْذَنْ لِي فِي ثَقِيفٍ يَا خُوَيْلَةَ ، فخرَجْتَ خُوَيْلَةَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِمُرَرِّ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ : مَا حَدِيثُ حَدَّثْتَنِيهِ خُوَيْلَةَ زَعَمَتْ أَنَّكَ قُلْتَهُ ؟ قَالَ : قَدْ قُلْتُهُ ، قَالَ : أَوْ مَا أَذِنَ لَكَ فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : لَا ، قَالَ : أَفَلَا أُؤْذَنُ بِالرَّحِيلِ ؟ قَالَ : بَلَى . فَأَذِنَ عُمَرُ بِالرَّحِيلِ .

(١) الدبابة : آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها .
 (٢) السيئ : الأسر . (٣) الرشاء : الحبل . (٤) خويلة : امرأة عثمان بن مظعون .
 (٥) أحلى أى أكثرهن حلياً .

وانصرف الناس عن الطائف بعد القتال والحصار ، وسار الرسولُ بمن معه من المسلمين حتى نزل الجعرانة ، وكان سبيُّ هوازن قد قدم إليها .

وأتى رسولَ الله وفدُ هوازن وقد أسلموا ، فقالوا : يا رسولَ الله ؛ إنا أصلُ عشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك ؛ فامتنُ علينا منَّ الله عليك . وقام رجلٌ من هوازن - أحد بني سعد^(١) ؛ فقال : يا رسولَ الله ؛ إنا في الخطائر عماتُك وخالاتُك وحواضنُك^(٢) اللاتي كنَّ يكفلنك ، ولو أننا ملحننا^(٣) لايجارث ابن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل مقاً بمثل ما نزلت به رجونا عطفه وعائده^(٤) ، وأنت خيرُ المكفولين ، ثم قال :

امتنُ علينا رسولَ الله في كَرَمِ فَإِنَّكَ المرءَ نَزْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ
امتنُ على بَيْضَةِ^(٥) قَدْ عَاقَهَا قَدَرٌ مُمَزَّقٍ شَمْلُهَا ، فِي دَهْرِهَا غَيْرُ^(٦)

فقال رسولُ الله : أبنائكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسولَ الله ، خيرُتنا بين أحسابنا وأموالنا ؛ بل تردُّ علينا نساءنا وأبنائنا ؛ فهم أحبُّ إلينا ، فقال : أمّا ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ؛ فإذا أنا صليتُ الظهر بالناس فتولوا : إنا نستشفعُ برسولِ الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسولِ الله ، في أبنائنا ونسائنا ؛ فسأعطيك عند ذلك وأسألُ لكم .

فلما صلى رسولُ الله بالناس الظهر قَامُوا فَتَكَلَّمُوا بِالَّذِي أَمَرَهُمْ بِهِ ، فقال رسولُ الله : أمّا ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسولِ الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسولِ الله ، وقال الأقرع بن

(١) كان النبي صلى الله عليه وسلم مسترضعاً في بني سعد . (٢) حواضن : جمع حاضنة ، وهي المربية . (٣) ملحننا ، أي أرضعناها . (٤) عائده ، أي فضله . (٥) البيضة هنا : الأصل والعشيرة . (٦) غير الدهر : أحداثه .

حابس : أمّا أنا وبنو تميم فلا ، وقال عُيَيْنَةُ بن حِصْن : أمّا أنا وبنو فزّارة فلا ، وقال عباس بن مرّداس : أمّا أنا وبنو سُليمان فلا ؛ فقالت بنو سُليمان : ما كان لنا فهو رسول الله ، فقال العباسُ لقومه : وهتّتموني^(١) ! فقال الرسول : أمّا مَنْ تَمَسَّك منهم بحمّقه من هذا السّبي فلَهُ بكلِّ إنسان ستُّ فرائض^(٢) من أول شيء نُصيّبه ؛ فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

ثم قال الرسول لو قد هوازن : ما فعل مالك بن عوف ؟ قالوا : هو بالطائف مع ثقيف ، فقال : أخبروا مالكا أنه إن أتى مسالما ردّدتُ عليه أهله وماله ، وأعطيتُه مائةً من الإبل .

ولما عرف مالك ذلك خرج من الطائف مستخفياً ، فأمر براحلته فهَيَّئَتْ له ؛ وأمر بفرس فأعدَّ له ، وخرج ليلاً على فرسه يركضه حتى أتى راحلته . حيث أمر بها أن تُحبَس له . فركبها ، ولحق برسول الله ، فأدركه بالجعرانة ؛ فردّ عليه أهله وماله ، وأعطاه مائة من الإبل ؛ وأسلم فحسُن إسلامه ، واشتعمله رسولُ الله على قومه ومن أسلم من تلك القبائل حول الطائف .

ولما فرغ رسولُ الله من ردِّ سبايا حُنَيْن إلى أهلها ركب وأتبعه الناسُ يقولون : يا رسول الله ؛ أقسم علينا فينّا^(٣) من الإبل والغنم ، حتى ألجئوه إلى شجرة ، فاخطلت الشجرة عنه رداءه ، فقال : ردّوا على ردائي أيّها الناس ؛ فوالله لو كان لكم بعدد شجرتها مائة نعماً^(٤) لقسمتُ عليكم ، ثم ما ألفتُموني بخيلاً ولا جباناً ولا كدوباً . ثم قام إلى جنب بَير ، فأخذ وبرّةً من سنّامه فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها وقال : أيّها الناس ؛ إنه والله ليس لي من فيثكم ولا هذه البرّة إلا الخمس^(٥) ، والخمس مردود إليكم ؛

(١) وهتتموني : أضغتموني بخالفكم رأيي . (٢) جمع فريضة ، وهي البعير المؤخوذ في الزكاة .

(٣) النّي : الفريضة . (٤) النعم : الإبل والشاة ، أو خاص بالإبل . (٥) كان الأمير في

الجاهلية يأخذ الربع من الفريضة ، وجاء الإسلام فجعله الخمس ، وجعل له مصارف .

فَأَذُوا الْخِيَاطَ وَالْمِخِيطَ^(١) ، فَإِنَّ الْفُلُولَ^(٢) يَكُونُ عَلَى أَهْلِهِ عَارًا وَنَارًا وَشَنَارًا^(٣) يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِكُبَّةٍ^(٤) مِنْ خِيوطِ شَعْرٍ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخَذْتُ هَذِهِ الْكُبَّةَ أَعْمَلُ بِهَا بَرْدَةً بَعِيرٍ^(٥) لِي دَبِيرٍ^(٦) ، قَالَ : أَمَّا نَصِيبِي مِنْهَا فَلَكَ ، فَقَالَ : إِنَّهُ إِذَا بَلَغَتْ هَذِهِ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهَا . ثُمَّ طَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ .

وَوَزَعَ الرَّسُولُ الْغَنَائِمَ ، وَأَعْطَى مَا أَعْطَى فِي قَرِيشٍ وَقِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ؛ فَوَجَدَ^(٧) هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَكَثُرَتْ مِنْهُمْ الْقَالَةُ ؛ حَتَّى قَائِلِهِمْ : لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ قَوْمَهُ ! فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا النَّيِّءِ الَّذِي أَصَبْتَ ؛ فَقَدْ قَسَمْتَهُ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ، قَالَ : فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ ؟ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ مَا أَنَا إِلَّا مِنْ قَوْمِي . قَالَ : فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ . فَخَرَجَ سَعْدُ ، فَجَمَعَ الْأَنْصَارَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ ؛ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدُ فَقَالَ : قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ .

فَأَتَاهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغْتَنِي عَنْكُمْ ، وَمَوْجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ! أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَذَا كَمِ اللَّهِ ، وَعَالَةً^(٨) فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ ، وَأَعْدَاءُ فَأَلَقَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ! بَلَى ، وَاللَّهِ وَرَسُولُهُ أَمْنٌ وَأَفْضَلُ . ثُمَّ قَالَ : أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ! قَالُوا : بِمَاذَا نَجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْمُنُّ وَالْفَضْلُ ! قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَصَدَقْتُمْ

(١) الخياط والمخيط : الخيط والإبرة . (٢) الفلول : الخيانة . (٣) الشنار : أقبح العيب والعار . (٤) الكبة من كل شيء : ما اجتمع منه . (٥) البرذعة : المجلس يلقى تحت الرجل . والدبرة : قرحة الدابة ، والبعر دبر . (٦) وجد : غضب . (٧) العالة : الفقراء .

وَلَصَدَّقْتُمْ : أَمِيتَنَّا مَكْذِبًا فَصَدَّقْنَاكَ ، وَخَذُولًا فَنَصَرْنَاكَ ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ ،
وعائلاً فَاسْتَيْنَّاكَ^(١) ، أَوْجَدْتُمْ يَامَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِكُمْ فِي لُغَاةٍ^(٢) مِنَ الدُّنْيَا ،
تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا يُسْلِمُوا ، وَوَكَّلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ ! أَلَا تَرْضَوْنَ يَامَعْشَرَ الْأَنْصَارِ
أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِإِذْنِ اللَّهِ بِالْشَّاةِ وَالْبَعِيرِ ، وَتَرْجِعُوا أَنْتُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ! فَوَالَّذِي
نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَسَكَنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا^(٣)
وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكَتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ
وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ !

فَبَكَى الْقَوْمَ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَافَهُمْ^(٤) ، وَقَالُوا : رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا^(٥) وَحَفَظًا ،
ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَتَفَرَّقُوا^(٦) .

وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ مُنْصَرَفِهِ عَنِ الطَّائِفِ كَتَبَ بُجَيْرُ بْنُ زُهَيْرٍ إِلَى أَخِيهِ
كَعْبٍ^(٧) يَخْبِرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَتَلَ رَجُلًا بِمَكَّةَ مِنْ كَانَ يَهْجُوهُ وَيُؤْذِيهِ ، وَأَنَّ مِنْ بَقِيَّةِ
مِنْ شَعْرَاءِ قُرَيْشٍ قَدِ هَرَبُوا فِي كُلِّ وَجْهٍ ؛ فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ فِطْرًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
فَإِنَّهُ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا جَاءَهُ تَائِبًا ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَأَنْجِ إِلَى نَجَاتِكَ^(٨) مِنَ الْأَرْضِ .
فَلَمَّا بَلَغَ كَعْبُ الْكِتَابِ ضَاغَتْ بِهِ الْأَرْضُ ، وَأَشْفَقَ عَلَى نَفْسِهِ ، وَأَرْجَفَ بِهِ^(٩)

(١) آسَيْنَاكَ : جَعَلْنَاكَ كَأَحَدِنَا . (٢) لُغَاةٌ بَقِيَّةُ يَسِيرَةٍ . (٣) الشَّعْبُ : الطَّرِيقُ بَيْنَ
الْجَبَلَيْنِ ، (٤) أَخْضَلُوا لِحَافَهُمْ : بَلَوْهَا بِالْدمِوعِ . (٥) الْقِسْمُ : النِّصْبُ . (٦) قَالَ حَسَّانُ
ابْنُ ثَابِتٍ بِعَيْنِ النَّبِيِّ فِي حِرْمَانِهِ الْأَنْصَارِ :

وَأَتَى الرَّسُولَ فَقِيلَ يَا خَيْرَ مُؤْتَمِنٍ
عَلَامٌ تُدْعَى سُلَيْمٌ وَهِيَ نَارِخَةٌ
سَمَاءُهُمُ اللَّهُ أَنْصَارًا بَنَصْرَهُمْ
لِلْمُؤْمِنِينَ إِذَا مَا عُدَّدَ الْبَشَرُ
قَدَامَ قَوْمِهِ هُمُ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
دِينَ الْهُدَى وَعَوَانَ الْحَرْبِ تَسْتَمِرُّ
الْمَوَانُ : الَّتِي قُوتِلَ فِيهَا الْمَرَّةُ بَعْدَ الْمَرَّةِ .

(٧) كَانَ كَعْبٌ قَدْ قَالَ شَعْرًا لَمْ يَرْضَهُ النَّبِيُّ . وَانْظُرْ سِيرَةَ ابْنِ هِشَامٍ ٣- ١٥٠ .

(٨) النِّجَاءُ : الْخُلَاسُ وَالنِّجَاةُ . (٩) أَرْجَفَ بِهِ : خَاسَ فِيهِ .

مَنْ كَانَ فِي حَاضِرِهِ مِنْ عَدُوِّهِ ، فَقَالُوا : هُوَ مَقْتُولٌ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ بُدًّا قَالَ قَصِيدَتَهُ
الَّتِي يَمْدَحُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَذَكَرَ فِيهَا خَوْفَهُ وَإِرْجَافَ الْوُشَاةِ بِهِ مِنْ عَدُوِّهِ ، ثُمَّ خَرَجَ
حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَنَزَلَ عَلَى رَجُلٍ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ مِنْ جُھَيْنَةَ ؛ فَقَدَا بِهِ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ ، وَأَشَارَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَالَ لَهُ : هَذَا هُوَ ، فَقُمَ إِلَيْهِ
فَاسْتَأْمَنَهُ (١) .

فَقَامَ إِلَيْهِ ، وَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ - وَكَانَ النَّبِيُّ لَا يَعْرِفُهُ - فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ
كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ قَدْ جَاءَ لِيَسْتَأْمِنَ مِنْكَ تَائِبًا مُسْلِمًا ، فَهَلْ أَنْتَ قَابِلٌ مِنْهُ إِنْ أَنَا جِئْتُكَ
بِهِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَعْبُ بْنُ زَهِيرٍ !
فَوُثِبَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ دَعْنِي وَعَدُوَّ اللَّهِ أَضْرِبَ
عُنُقَهُ ؛ فَقَالَ : دَعْنِي عَنْكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ تَائِبًا نَازِعًا عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .

فَقَالَ قَصِيدَتَهُ :

بَانتُ سَمَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَّيِّمٌ إِثْرَهَا ، لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ (٢)
وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ (٣)
هَيْفَاءُ مَقْبَلَةً ، عَجْزَاهُ مُدِيرَةٌ (٤) ، لَا يَشْتَكِي قَصْرَ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ
تَجَلُّو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ كَأَنَّهُ مَنَهْلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولُ (٥)
شَجَّتْ بِذِي شَبَمٍ مِنْ مَاءٍ مَحْنِيَّةٍ صَافٍ أَبْطَحَ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولُ (٦)

- (١) استأمنه : اطلب منه أن يؤمنك . (٢) بانت : فارقت . متبول : متبول : مصاب ، بالثبل ، وهو الدحل والعداوة ، ويقال : قلبه متبول ؛ إذا غلبه الحب وهيمه . مكبول : مقيد .
(٣) الأغن من الغزلان وغيرها : الذي في صوته غنة . غضيض الطرف : مسترخي الأجفان .
(٤) هيفاء : ضامرة البطن والخصر . عجزاه : عظيمة العجيزة .
(٥) تجلّو : تكشف . عوارض : ثنايا . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب بعد الشرب تباعاً .
(٦) شجت : مزجت . الشيم : يروى بكسر الباء وتفتحها على الاسم والمصدر : البارد .
الحنية من الوادي : منرجه حيث ينطفئ . الأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . مشمول : هبت عليه ريح الشمال ، وهي باردة .

تَنْسِفِ الرِّيحُ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرِطَهُ^(١) مِنْ صَوْبِ غَادِيَةٍ يَمَالِيلُ^(٢)
 فِيهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ^(٣) بَوَعْدِهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ^(٤)
 لَكُنْهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيِّطَ مِنْ دَمِهَا فَجَعُ وَوَلَعَ وَإِخْلَافُ وَتَبْدِيلُ^(٥)
 فَاتَذَوُّمْ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثَوَابِهَا الْفُؤْلُ
 وَمَا تُمَسِّكُ بِالْمَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْغَرَايِلُ^(٦)
 فَلَا يَفْرَنْكَ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتَ إِنْ الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ تَضْلِيلُ^(٧)
 كَانَتْ مَوَاعِيدُ عَرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ^(٨)

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَذَنُ مَوَدَّتِهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ^(٩)
 أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ^(١٠)
 وَلَنْ يُبْلَغُهَا إِلَّا عُذَّافِرَةٌ لَهَا عَلَى الْأَيْنِ إِرْقَالُ وَتَبْغِيلُ^(١١)
 مِنْ كُلِّ نَضَاجَةٍ الذِّفْرَى إِذَا عَرِقَتْ عُرِضَتْهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولُ^(١٢)
 تَرَى الْغُيُوبَ بِعَيْنِي مُفْرَدٍ لَهَقٍ إِذَا تَوَقَّدَتِ الْحِزَانُ وَالْمَيْلُ^(١٣)

-
- (١) القذى : ما في الماء من أجسام غريبة . وأفراطه : مجل إليه وملاؤه . غادية : سحابة
 تمطر بالنداء . يماليل : حباب الماء ، وهو رغو الماء .
 (٢) الخلّة : الصداقة .
 (٣) سيط : خلط . فجع : خجعة . الولع : الكذب .
 (٤) عرقوب : اسم رجل يضرب به المثل في خلف الوعد .
 (٥) إخال : أظن . تنويل : نوال .
 (٦) المراسيل : جمع مرسال ، وهي السريعة السير .
 (٧) العذافرة : الناقة الشديدة . الأين : الإعياء . الإرقال : ضرب من العدو فوق الخبز .
 التبغيل : مشى فيه سعة ، كأنه شبه سيرها بسير البغل لشدته .
 (٨) الذفرى : الموضع الذى يعرق من البعر خلف الأذن . عرضتها : هتمها .
 (٩) المفرد : الثور الوحشى ، شبهها به . واللهق : الأيىض ، والحزان : جمع حزين ، وهو
 المكان الغليظ الصلب .

ضَخَّمْهُ مُقَلِّدُهَا ، فَمَنْهُ مُقَيِّدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنْ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْصِيلُ^(١)
غَلْبَاهُ وَجَنَاهُ عُلُكُومٌ مُذَكَّرَةٌ فِي دَفِّهَا سَعَةٌ ، قُدَامَهَا مِيلُ^(٢)
وَجِلْدُهَا مِنْ أَطُومٍ لَا يُؤَيِّسُهُ طَلَحٌ بِضَاحِيَةِ الْمُتَنَيْنِ مَهْرُؤُلُ^(٣)
حَرْفٌ ، أَخُوها أَبُوها مِنْ مُهَجَّنَةٍ وَعَمَّهَا خَالُهَا ، قَوْدَاهُ شَمْلِيلُ^(٤)
يَمْشِي الْقُرَادُ عَلَيْهَا ثُمَّ يُزَلِّقُهُ مِنْهَا لَبَانٌ وَأَقْرَابُ زَهَالِيلُ^(٥)
عَيْرَانَةٌ قَذِفَتْ بِالنَّجْصِ عَنْ عُرْضٍ مِرْفَقُهَا عَنْ بَنَاتِ الزَّوْرِ مَفْتُولُ^(٦)
كَانَ مَا فَاتَ عَيْنِهَا وَمَذْجُهَا مِنْ خَطْمِهَا وَمِنْ اللَّحْيَيْنِ بِرْطِيلُ^(٧)
تَمَرٌ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصَلٍ فِي غَارِزٍ لَمْ تُخَوِّنْهُ الْأَحَالِيلُ^(٨)
قَنَوَاهُ فِي حُرَّتَيْهَا لِلْبَصِيرِ بِهَا عَتَقْتُ مُبِينٌ وَفِي الْخَدَيْنِ تَسْمِيلُ^(٩)

- (١) المقلد: العنق . مقيد : موضع القيد في رجلها . والفعم : المثل .
(٢) غلباء : غليظة الرقبة . وجناه : تامة الخلق ، عظيمة لحم الوجنة ، صلبة شديدة .
العلكوم : القوية الصلبة . ناقة مذكرة : متشبهة بالجل في الخلق . الدف : الجنب . قدامها ميل :
طويلة العنق . والميل مد البصر .
(٣) الأطوم : السلخانة البرية أو الزرافة ، يصف جلدها بالقوة والملاسة . لا يؤيسه :
لا يؤثر فيه . الطلح : القراد . الضاحي : البارز . المتنان . الجانبان .
(٤) تشبه الناقة بالحرف من حروف المعجم إذا كانت ضامرة ، وبحرف الجبل إذا كانت غليظة
مهجنة : كريمة . قوداء : طويلة العنق والظهر . شمليل : خفيفة سريعة . وأبوها أخوها ، وعمها
خالها يريد أنها مداخلة النسب في الكرم ، فلم يدخل في نسبها أجنبي .
(٥) اللبان : الصدر . الأقرباب : الخواصر . زهاليل : ملساء ناعمة ، جمع زهلول .
(٦) عيرانة : صلبة ، تشبهاً لها بغير الوحش ، والألف والنون زائدتان . النجص : اللحم .
وقذفت باللحم ، يريد أنها ممتلئة الجسم . عن عرض : تعترض في صرعتها . الزور : الصدر ، وبناته :
ما حواليه من الأضلاع وغيرها .
(٧) فات : تقدم . مذبح : مكان الذبح . الضطم : الأنف . اللحى : الخنك . البرطيل : حجر
مستطيل عظيم ، شبه به رأس الناقة ، كأن الذي تقدم عينيها ومذبحها من الضطم والخنك حجر
عظيم . (٨) العسيب : جريد النخل . خصل : جمع خصلة ، وهو اللفافة من الشعر . غارز :
ضرع . تغونه : تنقصه . الأحاليل جمع إحليل ، وهو يخرج اللبن من الضرع . يعني أنه قد نشف
لبنها ، فهي سميئة لم تضعف بخروج اللبن منها .
(٩) القنواء : الحدوبة الأنثى . حريتها : أذنيها . سهل الخدين : غير مرتفع الوجنتين .

تَخْدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهِيَ لَاحِقَةٌ (١)
 سَمَرُ الْمُجَايَاتِ يَتَرَكْنَ الْحَصَى زَيْمًا
 كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعَيْهَا إِذَا عَرِقَتْ
 يَوْمًا يَظَلُّ بِهِ الْحِرَاءُ مُصْطَلِحًا
 وَقَالَ لِلْقَوْمِ حَادِيَهُمْ وَقَدْ جَمَلَتْ
 شَدَّ النَّهَارِ ذِرَاعًا عَمِيطًا نَصَفَ
 نَوَاحِي رِخْوَةِ الضَّبَمَيْنِ لَيْسَ لَهَا
 تَفْرِى الْأَبَانُ بِكَفَيْهَا، وَمِدْرَعُهَا
 ذَوَابِلُ مَسْمُونِ الْأَرْضِ تَحْلِيلُ (١)
 لَمْ يَقْمِنْ رُءُوسَ الْأَكْمَرِ تَنْمِيلُ (٢)
 وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ (٣)
 كَأَنَّ ضَاحِيَهُ بِالشَّمْسِ تَمْلُولُ (٤)
 وَرُقُ الْجَنَادِبِ رُكْبُنَ الْحَصَى قِيلُوا (٥)
 قَامَتْ لِحَاوِيَهَا نَكْدٌ مَثَاكِيلُ (٦)
 لَمَّا نَعَى بِكُرْهَا النَّاعُونَ مَعْقُولُ (٧)
 مَشَقَّقٌ عَنْ تَرَاقِيهَا رَعَائِيلُ (٨)

يَسْمَى النُّوَاةُ جَنَابَيْهَا، وَقَوْلُهُمْ : إِنَّكَ يَا بَنَى أَبِي سُلَمَى لَمَقْتُولُ

(١) تَخْدِي: تسرع . يسرات البعير : قوائمه . اللاحقة الضامرة . ذوابل : يابسة . مسمون الأرض تحليل ، أى تمس الأرض مساً خفيفاً سريماً كمن يخاف على شيء أن يفعله فيفعل منه اليسير يحال به يمينه . (٢) سمر : ليست برخوة . المجايات : أعصاب قوائم الإبل والحيل ، واحده تنجاة زيمًا : متفرقاً . الأكمة : ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد . التنميل : أن يوضع للحافر طبق من حديد يقيه الحجارة .

(٣) أوب : رجوع . القور : جمع قارة ، وهى الأصابع من الجبال . العساquil : جمع عسقول . السراب . قال ابن سيده : أراد : وقد تلفع القور بالعساquil ، فقلب .

(٤) الحرياء : حيوان يرى له سنام كسنام الجمل ، يستقبل الشمس ويدور معها حيث دارت ، ويتلون ألواناً . مصطليداً : منتصباً مصطلياً بحر الشمس . ضاحيه : ما برز منه للشمس وظهر . مملول : محروق ، أى كأن ما ظهر منه للشمس مشوى بالملحة من شدة حره .

(٥) الحادى : الذى يسوق الإبل . ورق : جمع أورق ، وهو الأخضر يضرب إلى السواد .

الجنادب : جمع جند ، وهو صفار الجراد . قيلوا : فعل أمر من « قال » ، إذا استراح وقت القيلولة .

(٦) شد النهار : وقت ارتفاعه وعلوه . العيطل : الناقة الطويلة . النصف : بين الشابة والكهله . النكد : جمع ناكد ، وهى التى لا يعيش لها ولد . مثاكيل : جمع مثكال ، وهى التى فقدت ولدها .

(٧) النواحة : النائحة التى تبكى ولدها . الضبعين ، مثنى الضبع وسط العضد . المعقول : العقل .

(٨) تفرى : تقطع . الابان : الصدر . المدرع : القميص . التراقى : جمع ترقة ، وهى أعلى الصدر . رعائيل : قطع .

وقال كلُّ صديق كنتُ آملُهُ
فقلتُ : خلّوا سبيلي لا أيا لكمُ
كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامته
نُبئتُ أن رسولَ الله أوعدني
مَهْلًا هَدَاكَ الذي أعطاك نافلةً (٤) إل
لا تأخذني بأقوال الوُشاةِ ولم
لقد أقومُ مقامًا لو يقومُ به
لظلَّ يُرعدُ إلا أن يكونَ له
ما زلتُ أقتطعُ البَيداءَ مُدْرِعًا
حتى وضعتُ يميني ما أنازعها
فلهُوَ أخوفُ عندي إذ أكلُمهُ
من ضيفمٍ بضراءِ الأرضِ مخدرةً (٧)
يغدو فيلجهمُ ضِرغامين ، عيشهُما (٩)
إذا يُساورُ قرناً لا يحِلُّ له
منه تظلُّ سباعُ الجوّ نافرةً
ولا يزال بواديه أخو ثقةٍ

لا ألهمينك إني عنك مشغول (١)
فكلُّ ما قدّر الرحمنُ مفعولُ
يومًا على آلةٍ حَدباءَ محمول (٢)
والعفو عند رسول الله مأمول (٣)
قرآنٍ فيها مواعِظٌ وتفصيلُ
أذنبٌ ولو كثرت في الأفاويل
يرى ويسمعُ ما قد أسمع الفيلُ
من الرسول بإذنِ الله تنويل (٥)
جُنحَ الظلامِ وثوبُ الليلِ مُسدول (٦)
في كفٍّ ذى تَقَمَّاتٍ قيلهُ القيلُ
وقيل إنك منسوبٌ ومُسئولُ
في بطنٍ عثرَ غيلٌ دونه غيل (٨)
لحُمٌ من الناسِ مغفورٌ خَرَادِيلُ (١٠)
أن يتركَ القرنُ إلا وهو مغلول (١١)
ولا تمشَى بواديه الأراجيل (١٢)
مضرَّجَ البرِّ والدَّرسانِ مأكول (١٣)

(١) لا ألهمينك : لأشغلنك عما أنت مهتم به . (٢) الآلة الحدباء : النش الذي يحمل عليه الموتى . (٣) أوعدني : تهددني . (٤) النافلة : العطية .
(٥) التنويل : العشاء ، وهو يقصد العفو . (٦) البیداء : الصحراء (٧) الضيفم : الأسد ، ضراء الأرض : ماوارك من الشجر . مخدرة : غابته وأجنته . (٨) عثر : موضع تنسب إليه الأسود الغيل : الأجمة . (٩) يلحم : يطعم اللحم . (١٠) مغفور : مغفر ، والمراديل : القطع .
(١١) يساور : يواكب . (١٢) الأراجيل : الجماعات من الرجال . (١٣) البرّ : السلاح .
الدرسان : جمع درس ، وهو الثوب الخلق البالي .

إِنَّ الرِّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سِيوفِ اللَّهِ مَسْلُورٌ
 فِي عُصْبَةٍ مِنْ قَرِيشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ يَبْطِنُ مَكَّةَ لِمَا أَسْلَمُوا : زُورُوا
 زَالُوا فَا زَالَ أَنْكَاسُهُ وَلَا كُشْفُهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَارِيلُ^(١)
 شُمُّ الْمَرَانِينِ أَبْطَالُهُ لَبُوسُهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيلُ^(٢)
 يَبِضُّ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقُ كَانَهَا حَلَقُ الْقَفَمَاءِ مَجْدُولُ^(٣)
 لَيْسُوا مَفَارِيخَ إِنْ نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا ، وَلَيْسُوا مَجَازِيِمًا إِذَا نِيلُوا^(٤)
 يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ^(٥)
 لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نَحْوِيهِمْ وَمَا لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ^(٦)

(١) أنكاس : جمع نكس - بالكسر : الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهو الذي
 لا ترس معه في الحرب . الميل : جمع أميل وهو الذي لا سيف معه . والمعازيل : جمع معزال ، وهو
 من لا سلاح معه . (٢) السرابيل : الدروع . (٣) شكت : نسجت . القفماء : شجر ينسبط
 على وجه الأرض ، يشبه حلق الدروع . مجدول : محكم الصنعة . (٤) مفاريخ : جمع مفراج .
 ومجازيع : جمع مجزاع . (٥) عرد : هرب ، والتنايل ، جمع تنبال ، وهو القصير .
 (٦) تهليل : فرار .

١٤ - يوم تبوك*

علم النبي صلى الله عليه وسلم أن نصارى العرب قد اجتمعوا مع جُند الروم لمحاربتهم، ووصلت مقدمتهم إلى البلقاء^(١)؛ فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزوهم، وذلك في زمن عُسرة من الناس، وبسدة من الحر، وجذب من البلاد، وحين طابت الثمار، فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص عنها.

وكان رسول الله قَلَمًا يخرج في غزوة إلا كَتَبَ^(٢) عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يقصد إليه، إلا غزوة تبوك فإنه بيّنها للناس؛ لُبْعِد الشُّقَّة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد^(٣) له، ليتأهبَّ الناس لذلك أهبتَه.

أمر الرسول الناس بالجهاز^(٤)، وأخبرهم أنه يريدُ غزو الروم؛ فتجهَّز الناس، على ما في أنفسهم من الكره لذلك الوجه، لما عرفوا من كثرة الروم وقوتهم، وثاقَلَ بعضُ المنافقين، وعرف الرسول أمرهم بفراسته حيناً، وبوحي الله أحياناً.

وفي ذات يوم - وهو في جهازه ذلك - قال للجد بن قيس^(٥): يا جد، هل لك العام في جلد بني الأصفر^(٦)؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذن ولا تفتني!

* الطبري: ٣ - ١٤٢، ابن هشام: ٤ - ١٦٩، السيرة الحلبية ٣ - ١٤٧، سيرة هيجلان ٢ - ٣٦٧. كان في رجب سنة تسع من الهجرة. وتبوك: موضع من أدنى أرض الشام، وسميت أيضاً غزوة العسرة لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُسْرَةِ﴾، وتعرف بالفاضحة لانفضاح المنافقين فيها.

(١) البلقاء: أرض بالشام. (٢) كنى: تكلم بكلام وأراد غيره. (٣) صمده وصمد إليه: قصده. (٤) جهاز المسافر (بالفتح والكسر): ما يحتاج إليه. (٥) فيه نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمْ لَمْ حِيطَ بِهَا﴾. (٦) بنو الأصفر هم الروم.

فوالله لقد عَرَفَ قَوْمِي أَنَّهُ مَا مِنْ رَجُلٍ بِأَشَدَّ عُجْبًا بِالنِّسَاءِ مِنِّي ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ إِلَّا أَصْبِرُوا ! فَأَعْرَضَ عَنْهُ الرَّسُولُ ، وَقَالَ : قَدْ أُذِنْتُ لَكَ .

وقال قومٌ من المنافقين بعضهم لبعض : لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ؛ زَهَادَةٌ فِي الْجِهَادِ ، وَشُكَّاٌ فِي الْحَقِّ ، وَإِرْجَافًا بِالرَّسُولِ ، فَفَضَحَ اللَّهُ مَا بَيَّنُّوا ، وَأَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ فِيهِمْ : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُجَهَنَّمْ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وبلغ رسول الله أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيْلَمَ الْيَهُودِيِّ ، يُتَبَطِّطُونَ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ لِلْغَزْوِ ؛ فَأَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى الْفِتْنَةِ فِي مَهْدِهَا ، وَيُطْفِئَ جَذْوَةَ الشَّرِّ قَبْلَ أَنْ تَسْتَفْجِلَ نَارُهَا ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ طَاحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْرِقَ عَلَيْهِمُ الْبَيْتَ ، فَخَرَّبَ طَاحَةُ عُشَّ النِّفَاقِ ، وَحَرَّقَ وَكَّرَ الْمُنَافِقِينَ .

وجدد رسول الله في التَّهَيُّؤِ لِلسَّفَرِ ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجَهَازِ وَالْإِنْكَشَافِ (٢) ، وَحَضَّ أَهْلَ النِّسَى عَلَى النِّفَقَةِ وَالْحُمْلَانِ (٣) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَرَغَّبَهُمْ فِي ذَلِكَ ، لِحُمْلِ رِجَالٍ مِنْ أَهْلِ النِّسَى وَاحْتِسَبُوا (٤) ، وَأَنْفَقَ عُثْمَانُ فِي ذَلِكَ نَفَقَةً عَظِيمَةً لَمْ يُنْفِقْ أَحَدٌ مِثْلَهَا .

وتسابق المسلمون إلى إعداد العُدَّةِ لِلْغَزْوِ وَالْجِهَادِ ، وَعَجَزَ الْبُكَاءُونَ — وَهُمْ سَبْعَةٌ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ (٥) — فَاسْتَحْمَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ ، فَقَالَ : لَا أَجِدُ

(١) سورة التوبة ٨٢ . (٢) الانكماش : الإسراع . (٣) الحملان ، مصدر كالجل ، والحملان : ما يحمل عليه من الدواب في الهبة خاصة . (٤) احتسب بكذا أجرا عند الله : اعتده ، ينوي به وجه الله . (٥) هم : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد ، وعبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن حاتم بن الجوح ، وعبد الله بن المغفل المزني ، وهرمي بن عبد الله ، وعرباض بن سارية القرظي .

ما أحلكم عليه ، فتولّوا ، وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .
ورأى واحداً من المؤمنين اثنين منهم ، وهما يسكيان ، فقال : ما يسكيكما ؟ قال :
جئنا رسول الله ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على
الخروج معه ؛ فأعطاها ناضحاً له ^(١) ، وزودها شيئاً من تمر ، فخرجا مع الرسول .
وأجمع الرسول السير ، وضرب عسكره على ثنية الدواع ، وتحلف عنه نفر من
المسلمين من غير شكٍّ وارتباب ؛ فقد كانوا رجالاً صدقي لا يُتهمون في إسلامهم ^(٢) .
وسار معه عبد الله بن أبي ، وضرب عسكره قريباً منه ، ولكنه لم يلبث أن
تحلف فيمن تحلف من المنافقين وأهل الرّيب .

واستعمل رسول الله على المدينة - حين خرج إلى تبوك - سباع بن عُرْفُطَة ،
وخلف على بن أبي طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف ^(٣) بذلك المنافقون
وقالوا : ما خلفه إلا استثقالا له وتحققاً منه ، وسمع ذلك على ، فأخذ سلاحه وخرج
حتى أتى رسول الله ، وهو نازل بالجرف ^(٤) ، فقال : يا نبي الله ؛ زعم المنافقون أنك
استثقلتني وتحققت مني ! فقال : كذبوا ؛ ولكني خلفتُك لِمَا تركتُ ورأى ، فارجع
فأخلفني في أهلي وأهلك ؛ أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا
أنه لا نبي بعدي ! فرجع على إلى المدينة ، ومضى الرسول على سفره .

ومر النبي في طريقه بالحِجْر ^(٥) ، فسجى ثوبه على وجهه ، واستحث الناس ،
ثم قال : لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون ؛ خوفاً أن يصيبكم مثل
ما أصابهم .

ثم نزل بالحِجْر ، واستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال لهم رسول الله :

(١) الناضح : الجبل الذي يستقى عليه الماء . (٢) منهم كعب بن مالك ، ومرة بن
الربيع ، وهلال بن أمية . (٣) أرجف في الشيء وبه : خاض فيه . (٤) الجرف : موضع
قرب المدينة . (٥) الحِجْر : بلاد حمود .

لا تشربوا من ماءها شيئاً ، ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجتموه فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجن أحدٌ منكم الليلة إلا ومعه صاحبٌ له .

وأصبحَ النَّاسُ ولا ماءَ معهم ، فشكَّوْا ذلك إلى الرسول ، فدعا الله فأرسل سحابةً أمطرت حتى ارتوى النَّاسُ : واحتملوا حاجتهم من الماء . وتابع المسلمون السَّيْرَ ، حتى إذا كانوا ببعضِ الطريق ضلَّتْ ناقَةُ الرسولِ ، ففرج أصحابه في طلبها ، فقال أحدُ المنافقين^(١) : أليس محمدٌ يزعم أنه نبيٌّ ، ويخبركم خبرَ السماء ! فكيف لا يدري أينَ ناقته !

فقال رسولُ الله لأصحابه : إن رجلاً قال : هذا محمدٌ يخبركم أنه نبيٌّ ، وزعمُ أنه يخبركم بأمرِ السماء ، وهو لا يدري أينَ ناقته ! وإني والله ما أعلمُ إلا ما علمني الله ، وقد دلَّني الله عليها ، وهي في الوادي في شِعْبٍ^(٢) كذا ، قد حبَّستُها شجرةٌ بزمامها ، فانطلقوا حتى تأتوني بها . فذهبوا فجاءوا بها .

ثم مضى رسولُ الله سائراً ، فجعل يتخلفُ عنه الرجل ، فيقول : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : دَعُوهُ فَإِنَّ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فسيُليحِثَهُ الله بكم ، وإن يكُ غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه ، حتى قيل : يا رسول الله ؛ قد تخلف أبو ذرٍّ وأبطأ به بغيره ، فقال : دَعُوهُ فَإِنَّ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فسيُليحِثَهُ الله بكم ، وإن يكُ غيرَ ذلك فقد أراحكم الله منه .

وتلوَّمَ^(٣) أبو ذرٍّ على بغيره ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم

(١) هوزيد بن اللصيت . (٢) الشعب : ما انفرج بين جبلين . (٣) التلوم : التلبث والانتظار .

خرج يتبع أثر الرسول ماشيا ، ونزل الرسول في بعض منازلهم ، فنظر ناظر من المسلمين . فقال : يا رسول الله ؛ إن هذا رجلٌ يمشى على الطريق وحده ، قال الرسول : كن أبا ذر ! فلما تأمله القوم قالوا : هو والله أبو ذر ! فقال الرسول : رحم الله أبا ذر ! يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويُبْعَث وحده .

ولما انتهى رسول الله إلى تبوك لم يلق حرباً ، وصالح أهلها وقفل راجعاً .

وفي عودته أتاه يُحَنِّه بن ربيعة ، صاحب أيلة ، فصالحه وأعطاه الجزية ، وأتاه أهل جرباء وأذرح^(١) فأعطوه الجزية ، فكتب رسول الله لهم كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليُحَنِّه بن ربيعة وأهل أيلة ، سُفُنُهُمْ وَسَيَّارَتُهُمْ في البر والبحر ، لهم ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ محمد النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمتنعوا ماء يردونه ، ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر .

ودعا رسول الله بخالد بن الوليد ، فبعثه إلى أكيذر دومة . وكان رجلاً من كندة ، قد ملَّك عليها ، وهو نصراني ، وقال له : إنك ستجده يصيد البقر ؛ فائتمر خالد بأمر النبي ، وسار إليه في جُندٍ من المسلمين .

وفي ليلة مقمرة صائفة ، كان أكيذر دومة على سطح له ، ومعه امرأته ، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر ، فقالت امرأته : أرايت مثل هذا قط ؟ قال : لا والله ، قالت : فمن يترك هذه ؟ قال : لا أحد ، ونزل فأمر بفرسه فأسرج له ، وركب معه نفر من أهل بيته ، فيهم أخ له يقال له حسان ، فركب وخرجوا معه

(١) جرباء وأذرح : بالشام .

بِطَّارِدِهِمْ^(١) ، فلما خرجوا تلقفتهم خيلُ رسول الله فأخذتهم ، وقتلوا أخاه ، وقد كان عليه قبَاء من ديباج مُخَوَّص بالذهب ، فاستلبه خالد ، وبعث به إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل قدومه عليه . ولما رآه المسلمون جملوا يلمسونه بأيديهم ويتمجّبون منه ، فقال رسول الله : أتمجّبون من هذا ! فوالذي نفس محمد بيده ، لَمَنَادِيل سَعْد بن مُعَاذ في الجنة أحسنُ من هذا !

ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله ، فحقن له دمه ، وصالحه على الجزية ، ثم خلى سبيله ؛ فرجع إلى قريته ، وأقام رسول الله بتبوك بضعة عشرة ليلة لم يجاوزها ، ثم انصرف قافلًا إلى المدينة .

وأقبل حتى نزل بذي أوان^(٢) ، وكان أصحاب مسجد الضّرار قد أوتوه ، وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله ؛ إنا قد بنينا مسجدًا لذي العِلّة والحاجة ، والليلة المطيرة ، والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصليَ لنا فيه ، فقال : إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه .

ولما عاد أتاه خبر المسجد وما يُراد به من الكَيْد والأذى ؛ فدعا مالك بن الدُخْشُم وممن بن عديّ ، وقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدِماه وحرّقاه .

فخرجا حتى أتيا رَهْط مالك بن الدُخْشُم ، فقال مالك لمن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلك . ودخل إلى أهله ، فأخذ سمًّا من النخل ، فأشعل فيه نارا ، ثم خرجا يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله ، فحرّقاه وهدماه وتفرّقا عنه^(٣) .

(١) المطرد : رمح قصير تلعن به الوحش . (٢) ذو أوان : موضع بينه وبين المدينة ساعة

من نهار .

(٣) نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

وقدم رسول الله المدينة ، وكان قد تخاف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف كذلك من المسلمين - من غير شك ولا نفاق - كعب بن مالك ومُرارَة بن الربيع وهلال بن أمية ؛ فقال رسول الله لأصحابه : لا تسكمن أحدًا من هؤلاء الثلاثة . فاعتزل المسلمون كلام أولئك النفر .

قال كعب بن مالك : ما تخلفت عن رسول الله غزوة عزاها قط ، غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر ، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدًا تخلف عنها ، وذلك أن رسول الله إنما خرج يريد غير قريش حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله العقبه^(١) حتى تواتقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ؛ وإن كانت غزوة بدر أذكرك في الناس منها .

وتخلفت عن رسول الله في غزوة تبوك ، وقد كنت قويًا ميسورًا^(٢) ، وكان النبي قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بنيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وقصد غزو عدي كبير ، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبتهم ، وأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون حينئذ كثير ، لا يجتمعهم ديوان مكتوب .

وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار ، وأحب الظلال ، وتجهز ، وتجهز المسلمون معه ، وجعلت أغدو لأتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض حاجة ، فأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى شمر بالناس الجسد ،

(١) العقبه : مكان بين مكة ومي ، وفيه بايع الرسول الأنصار قبل الهجرة .

(٢) قال كعب : ما اجتمعت لي راحتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة .

وأصبح رسول الله غزياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً . فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم ، فندوت بعد أن فصلوا^(١) لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ؛ فلم يزل ذلك يتبادى بى حتى أسرعوا وتفرط^(٢) الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ؛ وليتني فعلت ! ولكنى لم أفعل ؛ وجعلت إذا خرجت فى الناس بعد خروج النبي يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً^(٣) عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله من الضمءاء ، ولم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس مع القوم هناك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ؛ حبسه برداه والنظر فى عطفيه . فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيراً . فسكت رسول الله .

فلما بلغنى أن النبي توجه قافلاً من تبوك حضرنى بئى ، فجعلت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سيخطة رسول الله غدا ! وأستمعن على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ؛ فلما قيل : إن رسول الله قد أظلم قادماً ، عرفت أنى لا أنجومنه إلا بالصدق ، فأجمعت أن أصدقته ، وصبح الرسول المدينة ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاء الخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضمة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم الرسول علازيتهم وأيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكيل سرائرهم إلى الله ؛ حتى جئت فسلمت عليه ، فتبسم تبسم المنضب ، ثم قال لى : تعاله ! فجعلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ! ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ قلت : إني يا رسول الله لو جلست عند

(١) فصل من البلد : خرج . (٢) نفرط الغزو وتفارط : فات وقته . (٣) هو مغموس

عليه : مطعون فى دينه .

غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أني سأخرجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلًا ، ولكن والله لقد علمتُ لأنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثًا كَذِبًا لِتَرْضِيَّ عَنِّي ، وليوشكنَّ - الله أنْ يَسْخَطَ عَلَيَّ . ولئن حَدَّثْتُكَ حديثًا صدقًا تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ ، وإنِّي لأرجو عُقْبَايَ مِنْ اللَّهِ فِيهِ . ولا والله ما كان لي عذرٌ ، والله ما كنتُ قطَّ أقوى ولا أيسرَ مِنِّي حينَ تَخَلَّفْتَ عنكَ ! فقال رسولُ الله : أَمَا هَذَا فَقَدْ صَدَقْتَ فِيهِ ، فمَنْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ .

فَقَمْتُ وَثَارَ مَعِيَ رَجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمْةَ فَاتَّبَعُونِي ، فَقَالُوا لِي : وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا ، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَلَّا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ إِلَيْهِ الْمُخَلَّفُونَ ؛ قَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبُكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ لَكَ . فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا بِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى النَّبِيِّ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيتُ هَذَا أَحَدًا غَيْرِي ؟ قَالُوا : نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَقَالَتِكَ ، وَقِيلَ لَهَا مِثْلَ مَا قِيلَ لَكَ . قُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَادَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهَلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ . فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ فِيهِمَا أُسُوءَةٌ ، فَصَمْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي .

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ عَنْ كَلَامِنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، فَاجْتَنَبْنَا النَّاسَ وَتَغَيَّرُوا لَنَا ، حَتَّى تَفْسَكَّرْتُ لِي نَفْسِي وَالْأَرْضُ فَمَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أُعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَسْكَنَا وَقَعَدَا فِي بَيْتِهِمَا ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرَجُ وَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتَى رَسُولَ اللَّهِ فَاسْتَلَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفْتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أَصَلَّى قَرِيبًا مِنْهُ ، فَاسَارِقَهُ النَّظَرُ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ ، وَإِذَا التَّمْتُ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ ذَلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّي ، وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَوَاللَّهِ

ما ردَّ عليَّ السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ؛ أنشدك الله هل تعلمُ أني أحبُّ الله ورسوله ! فسكت ، فعدتُ فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته فسكت عني ، فعدت فناشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى ووثبت ، فتسورت الحائط .

ثم غدوت إلى السوق ، فبينما أنا أمشي إذا نبطي يسأل عني من نبط الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ فجعل الناس يُشيرون له إلىَّ حتى جاءني فدفع إلىَّ كتاباً من ملك غسان ، في سرقة^(١) من حرير فإذا فيه : أما بعد فإنه قد باعنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ؛ ولا مضيمه ، فالحق بنا نواسيك . قلت - حين قرأته : وهذا من البلاء أيضاً ، قد بلغ بي ما وقعت فيه أن طمع في رجل من أهل الشرك ! ثم عمدت به إلى تنور فسجرتُه^(٢) به .

فأقمنا على ذلك ، حتى إذا مضت أربعون ليلة إذا رسول الله يأتيني فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعزّل امرأتك ! قلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، بل اعزلها ولا تقرّ بها ، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . فقلت لامرأتي : ألحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا ما هو قاضٍ .

وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ، فقالت له : يا رسول الله ؛ إن هلال ابن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له ، أفتركه أن أخدّمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقرّبنك ، قالت : والله يا رسول الله ؛ ما به حركة إلىّ ؛ والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، ولقد تخوّفت على بصره .

فقال بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله لامرأتك ، فقد أذن لامرأة

(١) السرقة ، محرّكة : شقق الحرير الأبيض أو الحرير عامة ، والواحدة بهاذ .

(٢) سجرتّه : أو قدته .

هلال بن أمية أن تحمده ! قلت : والله لا أستأذنه فيها ، فما أدري ما يقول لي في ذلك إذا استأذنته فيها ، وأنا رجل شاب !

فلبثنا على ذلك عشر ليالٍ ، فأكمل لنا خمسون ليلة ، ثم صليتُ الصبح : صبح خمسين ليلة ؛ على ظهر بيت من بيوتنا على الحال التي ذكر اللهُ منا ، قد ضاقت علينا الأرضُ بما رحبتُ وضاقت على نفسي ، وقد كنتُ ابتنيتُ خيمةً في ظهر سَلْع (١) ، فذهبتُ إليها . وبينما أنا فيها سمعتُ صوتَ صارخٍ أَوْقَى على ظهر سَلْع ، يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ؛ أُبَشِّرُ ! فخررتُ ساجداً ، وعرفتُ أن قد جاء الفرج .

وآذن رسولُ الله للناسِ بِتَوْبَةِ الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناسُ يبشروننا ، وذهب نَحْوُ صاحبي مُبَشِّرُونَ ، وركض رجلٌ إلى فرساً ، وسمى ساعٍ من أسلم ، حتى أَوْقَى على الجبل ، فكان الصوتُ أسرعَ من الفرس .

فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني نزعْتُ ثوبي فكسوتهما إياه بِشارة ، والله ما أملكُ يومئذٍ غيرها ! واستعرتُ ثوبين فلبستهما ، ثم انطلقتُ أتِيعم الرسولَ . وتلقاني الناسُ يبشرونني بالتوبة ، ويقولون : بَتَهْنِئَتِكَ توبَةُ الله عليك ! حتى دخلتُ المسجدَ ورسولُ الله جالسٌ وحوله الناسُ ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله ، خفياني وهنأني ، والله ما قام إلى رجلٍ من المهاجرين غيره .

فلما سلّمتُ على رسول الله قال لي - ووجهه يبرق من السرور : أُبَشِّرُ بخير يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أُمّك ! قلت : أَمِنْ عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : بل من عند الله !

فلما جلستُ بين يديه قلت : يا رسول الله ، إنَّ من توبتي إلى الله عزّ وجلّ أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله . فقال : أمسك عليك بعضَ مالك ،

(١) سلع : جبل بالمدينة .

فهو خيرٌ لك . قلتُ : إني ممسكٌ سهمي الذي بخير . ثم قلت : يا رسول الله إن الله قد نجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما حبيت . والله ما أعلم أحداً من الناس أبلاءُ الله في صدق الحديث منذ ذكرتُ لرسول الله أفضل مما أبلاني ، والله ما تعمدت من كذبةٍ منذ ذكرت ذلك للنبي إلى يوم هذا ، وإنني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

وأُزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَهِيفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

فوالله ما أنعم الله على نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، كانت أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ، ومجافاتي الكذب عليه ، فنجاني الله من الهلاك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال في الذين كذبوه حين أُنزل الوحي شرٌّ ما قال لأحد : ﴿ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢) .

١٥ — يوم السقيفة*

لما سَمِعَ عمرُ بن الخطَّابُ بموتِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : إنَّ رجلاً من المنافقين يزعمون أنَّ رسولَ الله مات ، وإنه خارج إلى مَنْ أَرْجَفَ بذلك^(١) . ثم جاء أبو بكرٍ فصعد المنبر ، وقال لعمر : أُنْصِتْ . ثم تسكَّم فقال : مَنْ كان يعبدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، وَمَنْ كان يعبدُ محمداً فإنَّ محمداً قد مات . ثم قرأ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً ﴾^(٢) .

فكأنَّ الناسَ ما عرفوا أنَّ هذه الآية نزلت على رسول الله ، حتى تلاها أبو بكر . قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ يتلوها ، فمُتِّرتُ^(٣) حتى وقعتُ على الأرض ما تحمِلُنِي رجلاي ، وعرفت أنَّ رسولَ الله قد مات .

واجتمع الأنصارُ في سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ ، فقالوا : نُوَلِّي هذا الأمرَ بعدَ محمدٍ سعداً ابنَ عُبَادَةَ ، وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض ، فلما اجتمعوا قال لابنه : إِنِّي لَا أَقْدِرُ لَشُكْوَايَ أَنْ أُسَمِّعَ الْقَوْمَ كُلَّهُمْ كَلَامِي ، وَلَكِنْ تَأَنَّى قَوْلِي فَأَسْمِعْهُمْهُ ، فَكَانَ يَتَسَكَّمُ وَيَحْفَظُ قَوْلَهُ فَيَرْفَعُ صَوْتَهُ وَيُسْمِعُ أَصْحَابَهُ . قال — بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يامعشرَ الأنصار ، لكم سابقةٌ في الدين ، وفضيلةٌ في الإسلام ليست

* الطبري : ٣ — ١٩٩ ، سيرة ابن هشام : ٤ — ٣٣٥ . والسقيفة : شبه البهو الواسع له سقف ، فميلة بمعنى مفعولة .

(١) أُرْجِفَ بالشيء : خاض فيه . (٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٣) عقرت : دهشت ، من العقر ، وهو أن تسلم الرجل قوائمهُ إلى الخوف فلا يقدر أن يمشي من الفرق والدهش .

لقبيلة من العرب . إن محمداً عليه السلام لبث بضعة عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخاتم الأنداد والأوثان ، فما آمنَ به من قومه إلا رجالٌ قليل ؛ وما كانوا يقدرّون على أن ينعّموا رسولَ الله ، ولا أن يُعزُّوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً^(١) عُمُّوا به ، حتى إذا أراد بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة ، فرزقكم الله الإيمانَ به وبرسوله ، والمنعَ له ولأصحابه ، والإعزازَ لدينه ، والجهادَ لأعدائه ؛ فكفتم أشدَّ الناس على عدوّه من غيركم ، حتى استقامت العربُ لأمرِ الله طوعاً أو كرهاً ، وأعطى البعيدُ المقادة صاغراً^(٢) داخراً^(٣) ، حتى أثخن^(٤) الله عزّ وجلّ لرسوله بكم الأرض ، ودانت بأسيافكم له العربُ ، وتوفاه الله وهو عنكم راضٍ ، وبكم قريُّ عَيْن . استبَدُّوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم دون الناس .

فأجابوه بأجمعهم : أب قد وُقِّت في الرأي ، وأصبت في القول ، ولن نَعُدَّو مارأيت ، نوليّك هذا الأمر فإنك فينا مُقْنِع ، ولصالح المؤمنين رَضِي .

ثم تراؤوا^(٥) في الكلام بينهم فقالوا : فإن أبتْ مُهاجرةً قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه ، فَمَلَّامٌ تَنَازَعُونَنَا هذا الأمرَ بعده ! فقالت طائفةٌ منهم : فإنّا نقول : إذنْ منا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، ولن نَرْضَى بدون هذا الأمر أبداً .

فقال سعد بن عبادة ، حين سمعها : هذا أَوَّلُ الوَهْنِ !

وأتى عمرَ الخبِرُ فأقبل إلى منزل النبيّ ، وأرسل إلى أبي بكر وهو في الدار ، وعلى بن أبي طالب دائبٌ في جهاز رسول الله ؛ أن اخرج إليّ ، فأرسل إليه :

(١) الضيم . الظلم . (٢) داخراً : ذليلاً . (٣) أثخن فلان : أوهن ، والمراد أخضع

(٤) راده الشيء : رده عليه .

إني مشتغل، فقال : إنه قد حدث أمرٌ لا بدّ لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال له : أما علمت أنّ الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يريدون أن يولّوا هذا الأمر سعد بن عبادة ، وأحسنهم مقالةً من يقول : منّا أميرٌ ومن قريش أمير .

ومضياً مسرعين نحوهم ، فلقياً أبا عبيدة بن الجراح فشقوا إليهم ثلاثهم ، فجاءوا وهم مجتمعون في السقيفة ، وإذا بين الأنصار رجلٌ مرّمل فقالوا : من هذا ؟ قيل : سعد بن عبادة ، قالوا : ما شأنه ؟ قيل : ورجع^(١) . وقام رجلٌ من الأنصار فحمد الله وأثنى عليه وقال : أمّا بعد ، فنحن الأنصار ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهطٌ نبينا ، وقد دفت إلينا من قومكم دافة^(٢) . . .

قال عمر : فلما رأيتمهم يريدون أن يختزلونا^(٣) من أصلنا ويصّبون الأمر — وقد كنت زويت^(٤) كلاماً أردت أن أقوم به فيهم ، فلما ذهبت لأبتدئ المنطق قال لي أبو بكر : رؤيداً حتى أتكلم ، ثم انطق بما أحببت . فنطق فاشيء كنت أريد أن أقوله إلا وقد أتى به أو بأحسن منه .

فبدأ ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ، وشهيداً على أمته ، ليمبدوا الله ويوحّدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وإنما هي من حَجَرٍ منحوت وخشبٍ منجور^(٥) ، ثم قرأ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، ﴿ مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا

(١) وجع : مريض . (٢) يقال : دفت دافة ، إذا أتى قوم من أهل البادية وأقبحوا .

(٣) أن يختزلونا : يريدون أن يقتطعونا ويذهبوا بنا منفردين . (٤) زويت : جمعت ،

والمراد أعددت . (٥) الحجر : النحت .

ليقرَّبونا إلى الله زُلْفَى ، فَعَظُمَ على العرب أَنَّ يَدْرُكُوا دِينَ آبَائِهِمْ ، فَخَصَّ اللهُ الْمُهَاجِرِينَ
الْأَوَّلِينَ مِنْ قَوْمِهِ بِتَصَدِيقِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَالْمَوَاسَاةِ لَهُ ، وَالصَّبْرِ مَعَهُ عَلَى شِدَّةِ أَذَى قَوْمِهِمْ
لَهُمْ ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُمْ ، وَكُلُّ النَّاسِ مَخَالِفٌ لَهُمْ زَارٍ^(١) عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَسْتَوْحِشُوا^(٢)
لِقَلَّةِ عِدَدِهِمْ ، وَشَنَفِ^(٣) النَّاسَ لَهُمْ ، وَإِجْمَاعِ قَوْمِهِمْ عَلَيْهَا ، فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ عِبَدَ اللهُ
فِي الْأَرْضِ ، وَآمَنَ بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ، وَهُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَعَشِيرَتُهُ ، وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا
الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَا يَنَازِعُهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا ظَالِمٌ . وَأَنْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَنْ لَا يُنْكِرُ
فَضْلَهُمْ فِي الدِّينِ وَلَا سَابِقَتَهُمُ الْعَظِيمَةَ فِي الْإِسْلَامِ ، رَضِيَكَمُ اللهُ أَنْصَاراً لِدِينِهِ
وَرَسُولِهِ ، وَجَمَلَ إِلَيْكُمْ هِجْرَتَهُ ، وَفِيكُمْ جِلَّةُ أَزْوَاجِهِ وَأَحْبَابِهِ ؛ فَلَيْسَ بَعْدَ الْمُهَاجِرِينَ
الْأَوَّلِينَ عِنْدَنَا بِمَنْزِلَتِكُمْ ، فَنَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمْ الْوُزَرَاءُ ، لَا تُفْتَأَنُونَ^(٤) بِمَشُورَةٍ ،
وَلَا تُقْضَى دُونَكُمْ الْأُمُورُ .

ثم قام الحُجَبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ ، فَقَالَ :

يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ؛ أَمَلِكُوا عَلَيْكُمْ أَمْرَكُمْ ؛ فَإِنَّ النَّاسَ فِي فَيْئِكُمْ وَفِي ظِلِّكُمْ ،
وَلَنْ يَجْتَرِئَ مُجْتَرِئٌ عَلَى خِلَافِكُمْ ، وَلَنْ يَصْدُرَ النَّاسُ إِلَّا عَنْ رَأْيِكُمْ ، أَنْتُمْ أَهْلُ
الْعَزِّ وَالْقُرَّةِ ، وَأَوْلُو الْعَدَدِ وَالْمَنْعَةِ وَالتَّجَرِبَةِ ، وَذَوُو الْبَأْسِ وَالتَّجْدَةِ ، وَإِنَّمَا يَنْظُرُ
النَّاسُ إِلَى مَا تَصْنَعُونَ ، وَلَا تَخْتَلَفُوا فَيَفْسُدَ عَلَيْكُمْ رَأْيُكُمْ ، وَيَنْتَقِصَ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ ؛
فَإِنْ أَبَى هَؤُلَاءِ إِلَّا مَا سَمِعْتُمْ فَتَنَا أَمِيرًا وَمَنْكُمْ أَمِيرًا .

فَقَالَ عُمَرُ : هِيَاتِ ! لَا يَجْتَمِعُ اثْنَانِ فِي قَرْنٍ^(٥) ، وَاللَّهِ لَا تَرْضَى لَكُمْ الْعَرَبُ
أَنْ يُؤْمَرُوا ، وَنَبِيَّهَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، وَلَكِنَّ الْعَرَبَ لَا تَتَمَنَّعُ أَنْ تُؤَلَّى أَمْرَهَا مَنْ كَانَتْ
النَّبُوَّةُ فِيهِمْ ، وَوَلَّى أُمُورَهُمْ مِنْهُمْ ، وَلَنَا بِذَلِكَ عَلَى مَنْ أَبَى الْحِجَّةُ الْوَاضِحَةُ الظَّاهِرَةُ

(١) زار : عائب . (٢) استوحش : وجد الوحشة . (٣) شنف : كره وبغض .

(٤) هذا الأمر لا يفتات : لا يفرط . وكل من أحدث دونك شيئاً فقد فأنك به وافات عليك

فيه . (٥) قرن : حبل .

والسلطان البين ، مَنْ ذَا يُنَازِعُنَا سلطانَ محمدٍ وإمارته ، ونحن أولياؤه وعشيرته إلا مُدْلٍ بباطل ، أو مُتَجَانِفٌ ^(١) لِإِثْمٍ ، أو متورط في هلكة !
فقام الحُباب بن المنذر ، فقال :

يامعشر الأنصار ؛ أملكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه ، فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر ، فإن أبوا ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا عليهم هذه الأمور ؛ فأنتم والله أحقُّ بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيا فكم دَانَ لهذا الدين مَنْ دَانَ ، ممن لم يكن يدين . أَنَا جُدَيْلُهَا المحْكَكُ ^(٢) ، وَعُدَيْقُهَا المَرَجَّبُ ^(٣) ! أما والله لئن شِئْتُمْ لَنُيِّدَنَّهَا جَدَعَةً ^(٤) .

فقال عمر : إِذَنْ يَقْتُلَكَ اللهُ ، قال : بل إِيَّاكَ يَقْتُل ! فقال أبو عبيدة : يامعشر الأنصار ؛ إنكم أولُ مَنْ نصر وأزَرَ ، فلا تكونوا أول من بدَّلَ وغيرَ .

ثم قام بشير بن سعد فقال : يامعشر الأنصار ؛ إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين ، وسابقةٍ في هذا الدين ما أردنا إلا رِضًا رَبَّنَا ، وطاعةَ نَبِينَا ، والكَدْحَ لأنفسنا ؛ فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ، ولا نبتغي به من الدنيا عَرَضًا ، فإن الله وليُّ المِنَّةِ ^(٥) علينا بذلك . أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا - صلى الله عليه وسلم - من قريش ، وقومُه أحقُّ به وأولى ، وإيْمُ اللهِ لا يراني اللهُ أَنَا زِعْمُهُم هذا الأمرَ أبداً ، فاتَّقُوا اللهَ ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم .

فقال أبو بكر : هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأَيُّهُمَا شِئْتُمْ فبَايَعُوا ، فقالا : لا ، والله لا نتولَّى هذا الأمرَ عليك ، فإنك أفضَلُ المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الفار ،

(١) متجانف : مائل . (٢) الجُدَيْل : تصغير الجذل ، وهو أصل الشجرة ، وهو عود ينصب للابل الجربى لتحتك به . والمحْكَك : الذي تتحكك به . (٣) العُدَيْق : تصغير العذق ، وهو النخلة . والمرجَب : الذي جعل له رجة ، وهي دعامة تبني حولها من الحجارة ، والمراد أنه رجل يستشفي برأيه وعقله : (٤) الجدعة : الشابة الفتية ؛ يريد الحروب والغارات . (٥) المنة : النعمة .

وَخَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَالصَّلَاةُ أَفْضَلُ دِينِ الْمُسْلِمِينَ ، فَمَنْ ذَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَكَ أَوْ يَتَوَلَّى هَذَا الْأَمْرَ عَلَيْكَ ! ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعَكَ .

فَلَمَّا ذَهَبَا لِنَبَايَعَاهُ سَبَقَهُمَا إِلَيْهِ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ فَبَايَعَهُ ، فَنَادَاهُ الْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ :
بَابَشِيرِ ؛ عَقَّقْتَ^(١) عَمَّاقٍ ! مَا أَحْوجُكَ إِلَى مَا صَنَعْتَ ؟ أَنْفِستَ^(٢) عَلَى ابْنِ عَمِّكَ
الْإِمَارَةَ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَاللَّهِ ، وَلَكِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أَنْزِعَ قَوْمًا حَقًّا جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُمْ .
وَلَمَّا رَأَتْ الْأَوْسُ مَا صَنَعَ بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ ، وَمَا تَدَعَوْا إِلَيْهِ قَرِيشٌ ، وَمَا تَطَلَّبَ
الْخَزْرَجُ مِنْ تَأْمِيرِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ — قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ — وَفِيهِمْ أُسَيْدُ بْنُ حُصَيْرٍ ، وَكَانَ
أَحَدَ النَّقَبَاءِ : وَاللَّهِ لَأَنْ وَلِيَّتْهَا الْخَزْرَجُ عَلَيْكُمْ مَرَّةً لَا زَالَتْ لَهُمْ عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ الْفَضِيلَةِ ،
وَلَا جَعَلُوا لَكُمْ مَعَهُمْ نَصِيبًا أَبَدًا . فَقَوْمُوا فَبَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ ، فَقَامُوا إِلَيْهِ فَبَايَعُوهُ .
فَانْكَسَرَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ وَعَلَى الْخَزْرَجِ مَا كَانُوا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ ،
وَأَقْبَلَتْ أَسْلَمُ بِجَمَاعَتِهَا حَتَّى ضَاقَتْ بِهِمُ السَّكَّكَ^(٣) : وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِأَبِي بَكْرٍ ،
وَأُخْمِدَتْ تِلْكَ الْفِتْنَةُ .

(١) عَقَّقْتَ : مِنَ الْعَقَوقِ ، وَهُوَ ضِدُّ الْبَرِّ . وَعَمَّاقٍ : اسْمُ الْعَقَوقِ .

(٢) أَنْفَسْتَ عَلَيْهِ الشَّيْءَ : حَسَدَهُ ، وَلَمْ يَرَهُ أَهْلًا لَهُ . (٣) كَانَ عَمْرٌ يَقُولُ : مَا هُوَ إِلَّا أَنْ
رَأَيْتَ أَسْلَمَ فَأَيَقَنْتَ بِالنَّصْرِ .

١٦ - يوم ذى القصة *

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعت أسد وغطفان وطبي على طليحة ابن خويلد الأسدي^(١) ، إلا ما كان من بعض خواصهم ، واجتمعت أسد بسميراء^(٢) وغطفان بجنوب طيبة^(٣) ، وطبي على حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن سعد ومن يليهم من مرة وعبس بالأبرق من الربدة ، وتأشب^(٤) إليهم ناس من كفانة ، فلم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت فرقة منهم بأبرق الربدة^(٥) ، وسارت الأخرى إلى ذى القصة ، وأمدتهم طليحة بحيال بن سلمة بن خويلد^(٦) وجمله أميراً عليهم .

وهناك أرسلوا وفدًا منهم إلى المدينة ، ونزلوا على وجوه الناس ، ثم تحمّلوا^(٧) بهم على أبي بكر ، على أن يُقيموا الصلاة ، وعلى ألا يؤثّروا الزكاة . فقال أبو بكر : والله لو منعوني عقلاً^(٨) لجاهدتهم عليه .

* لأبي بكر على عبس وذيان . كان في سنة ١١ . وذو القصة : موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق نجد ، وبهذا اليوم عز الإسلام وذل للمشركون ؛ وكان نصر المسلمين يشبه نصرهم يوم بدر . الطبرى ٣-٢٢٢ ، ابن خلدون ٢-٦٥ .

(١) طليحة بن خويلد الأسدي : كان واحداً من وفد بني تميم الذين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أسلم هو وأخوه سلمة ، ثم ادعى النبوة ، حتى كانت هجرته على يد خالد بن الوليد ، فهرب إلى الشام ، ثم أحرّم بالحج بعد أن عاد للإسلام ، وشهد القادسية ونهاوند مع المسلمين ، ثم استشهد فيها سنة ٤١ هـ . (٢) سميراء : موضع في طريق مكة . (٣) من أسماء المدينة . (٤) التأشب : التجمع من هنا وهنا . (٥) أبرق الربدة : موضع من منازل ذيان ، قرب المدينة . (٦) هو ابن أخي طليحة بن خويلد . (٧) تحمّلوا بهم : ذهبوا بهم . (٨) العقال : صدقة عام يقال : أخذ منهم عقال هذا العام ، إذا أخذت منهم صدقته . وقال بعضهم : أراد أبو بكر : بالعقال لحبل الذى كان يعقل به الفريضة التى كانت تؤخذ في الصدقة .

فرجع الوفدُ إلى أقوامهم بذي القَصَّة ، وأخبروهم برأى أبي بكرٍ وقالته فيمن ينفعُ الزكاة ، وحدّثوهم عن قلة المسلمين بالمدينة ، وأطعموهم فيهم .

أما أبو بكرٍ فإنه توجَّسَ شراً منهم فأعدَّ العُدَّةَ لِفَدْرِهِمْ ، وجعل على أُنْقَابِ^(١) المدينة نفرًا ، منهم عليّ بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن مسعود . وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد . وقال لهم : إن القوم قد رأوا منكم قلةً ، وإنكم لا تدرّون : أليلاً تُوتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد^(٢) ، وقد كانوا يأملون أن نقبلَ منهم ونوادعهم ، وقد آيئنا عليهم ، ونبتذنا إليهم عهدهم ، فاستعدُّوا وأعدُّوا .

ولم يكن إلا ثلاث ليالٍ من عودِ الوفدِ حتى طرقت القومُ المدينةَ مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حُسا^(٣) ليكونوا لهم رِداءً^(٤) ، وكان الذين على الأُنقاب قد بثُّوا عيوتهم حتى لا يؤخذوا على غيرةً ، فلما عرف هؤلاء خبر القوم نبهوا مَنْ على الأُنقاب ، فأرسلوا إلى أبي بكرٍ بالخبر . فأرسل إليهم أبو بكرٍ : أن الزموا أما كنسكم . ففعلوا .

وخرج في أهل المسجد على النَّوَاصِحِ^(٥) ، فتقهقر المدو ، فاتبعهم المسلمون على إبلهم ، حتى بلغوا ذا حُسا فخرج عليهم الرِّداءُ بأنحاء^(٦) قد نفَّخوها ، وجعلوا فيها الحبال ، ثم دَهْدَهُوها^(٧) بأرجلهم في وجوه الإبل ، فنفرت إبلُ المسلمين وهُم عليها ولا تنفِرُ الإبل من شيءٍ نَفَارَها من الأنحاء ، فعاجت^(٨) بهم ، ما يملكونها .

(١) الأُنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق . (٢) البريد : فرسخان ، أو اثنا عشر ميلا ، أو باين المنزلين . القاموس . (٣) ذو حُسا : موضع بنجد ، من ديار عيس وغلغان . (٤) الرِّداء : العون والمدد . (٥) النواصح من الإبل : ما يستقى عليها ، واحدها ناضح . (٦) الأنحاء : جمع نحى (بكسر النون وسكون الحاء) وهو الرق . (٧) دَهْدَهُوها : دحرجوها . (٨) عاجت : رجعت .

حتى دخلت بهم المدينة ؛ من غير أن يُصابَ أحدٌ من المسلمين أو يُضرَع ، ولكن هؤلاء المرتدَّة ظنوا الوهن بالمسلمين ؛ حتى قال شاعرهم :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا فَيَا لَعِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ !
أَيُورِثُنَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ ! وتلك لعمري الله قاصمةُ الظَّهِرِ !
فَهَلَّا رَدَدْتُمْ وَفَدْنَا بِزَمَانِهِ وهلا خَشِيتُمْ حِسَّ رَاغِيَةِ الْبَكْرِ !
وإنَّ النَّبِيَّ سَأَلُوكُمْ فَنَمْتُمْ لكالتمر أو أخلَى إِلَى من التَّمْرِ
ثم أرسلوا لأقوامهم بالقصة بالخبر ، فقدموا عليهم .

أما أبو بكر ، فإنه بات ليلته يهَيِّئاً ، فعسَى الناس ، ثم خرج وعلى ميمنته النعمان ابن مُقَرَّن ، وعلى ميسرته عبد الله بن مَقَرَّن ، وعلى السَّاقَةِ (١) سُؤيد بن مُقَرَّن ، فما طلع الفجرُ إلّا وهم والمدو في صعيد واحد ، فاقتتلوا ، وما ذَرَّ (٢) قَرْنُ الشمس حتى وَلَّى المدوُّ الأدبار ، وقُتِلَ جِبَال بن سلمة . وتبمهم أبو بكر حتى نزل بذي القصة ، فتركوها وَوَلَّوْا منهزمين ، ورجع أبو بكر إلى المدينة ، فكان أوَّلَ الفتح وفاتحةَ الجِهَاد مع المرتدِّين .

ولم يكد أبو بكر يذهب إلى المدينة حتى وثب المرتدُّون من عَبَس وذُبْيَان على مَنْ فيهم من المسلمين ، فقتلوه . ولَمَّا علم أبو بكر بِفَعْلَتِهِمْ حلف لِيَقْتُلَنَّ في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة .

وكان لوقعة ذى القصة أثرها ، إذ هرع بعدها فريقٌ من المسلمين يُوءِدُونَ الزكاة وطرقوا المدينة بالنصداقات ، وكان فيمن قدم صفوان — وهو ابن أمية — والزُّبَيْرَان من رؤساء بني تميم ، وعدى بن حاتم عن طي .

(١) ساقطة الجيش : مؤخره . (٢) ذر . ظهر وبرز .

١٧ - يوم بُزَاخَة*

لما قدم أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ^(١) من غزوته استخلفه أَبُو بَكْرٍ عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَقَالَ لَهُ
وَلِجُنْدِهِ : أَرِيحُوا^(٢) ، وَأَرِيحُوا ظَهْرَكُمْ^(٣) . ثُمَّ خَرَجَ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ ؛ فَقَالَ لَهُ
الْمُسْلِمُونَ : نَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ أَنْ تُعَرِّضَ نَفْسَكَ ، فَإِنَّكَ إِنْ تُصَبِّ
لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ نِظَامٌ ، وَمُسْتَأْمَكُ أَشَدُّ عَلَى الْعَدُوِّ ، فابْعَثْ رَجُلًا ، فَإِنْ أَصِيبَ
أَمَرْتُ آخِرَ . فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ، وَلَا أُاسِيئُكُمْ بِنَفْسِي . وَمَضَى حَتَّى انْتَهَى
إِلَى الرَّبَذَةِ^(٤) ، فَاتَى بَنِي عَبْسٍ وَذُبْيَانَ وَجَمَاعَةً مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ ، فَقَاتَلَهُمْ
وَهَزَمَهُمْ ، وَأَجْلَاهُمْ عَنْ مَوَاقِعِهِمْ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ .

وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ الْمُهْزَمِينَ لَمْ يَتُوبُوا إِلَى رُشْدِهِمْ ، وَلَمْ يَرْجِعُوا لِإِيمَانِهِمْ ؛ بَلْ انْحَاذُوا
إِلَى طُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ الْمُتَنَبِّئِ فِي بَنِي أَسَدَ ، وَقَدْ اعْتَصَمَ بِبُزَاخَةِ يَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهِ .
وَلَمَّا اطْمَأَنَّ أَبُو بَكْرٍ إِلَى أَنَّ أُسَامَةَ وَجُنْدَهُ اسْتَرَاخُوا وَأَرَاخُوا ظَهْرَهُمْ خَرَجَ بِهِمْ
إِلَى ذِي الْقَصَّةِ ، وَوَزَعَ الْجُنْدَ ، وَجَعَلَ عَلَى كُلِّ لُؤَاءٍ أَمِيرًا .

فَمَقَدَّ لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ اللَّوَاءَ الْأَوَّلَ ، وَأَمَرَهُ بِطُلَيْحَةَ بْنِ خُوَيْلِدٍ ، فَإِذَا قَرَعَ سَارَ
إِلَى مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ بِالْبُطَاحِ^(٥) إِنْ أَقَامَ لَهُ . وَعَقَدَ لِمَكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ ، وَأَمَرَهُ

* لِحَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ عَلَى أَسَدَ وَغُلْفَانَ . كَانَ فِي سَنَةِ ١١ وَبُزَاخَةُ : مَاءٌ ابْنَى أَسَدَ .

الطُّبْرَى : ٢٣٥/٣ . ابْنُ الْأَثِيرِ ١٦٦/٣ . ابْنُ خَلْدُونَ ٧٠/٢ . مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ١٦١/٢ .

(١) كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنْ خُرُوجِهِ لِفَتْوَى الرُّومِ ؛ حَيْثُ بَلَغَ الْبُلْقَاءُ ، وَبَثَّ خَيْوَلَهُ فِي قِبَاثِلِ

قَضَاعَةَ ، وَعَادَ ظَافِرًا . (٢) يُقَالُ : أَرَاخَ الرَّجُلُ : إِذَا اسْتَرَاخَ وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ .

(٣) الظُّهْرُ : الدَّابَّةُ . (٤) الرَّبَذَةُ : مَوْضِعٌ قَرِبَ الْمَدِينَةِ .

(٥) الْبُطَاحُ ، بِالضَّمِّ : مَاءٌ فِي دِيَارِ بَنِي أَسَدَ .

بِئْسَ لِمَ . بِالْيَمَامَةِ . وللمهاجر بن أبي أمية ، وأمره بقتال العنسي بصنعاء اليمن ، وأن يعضى إلى كندة بحضرموت ، ولخالد بن سعيد وجهه إلى مشارف الشام ، ولعمرو ابن العاص وجهه إلى قضاة ؛ ولخديفة بن محسن الفلاني ؛ وأمره بالتوجه إلى أهل دبابممان . ولعمرفجة بن هرثمة وجهه إلى أهل مهرة . ولسويد بن مقرن وأمره بتهمامة اليمن ، وللعلاء بن الحضرمي وأمره بالبحرين . وبعث شرجيل بن حسنة في أثر عكرمة بن أبي جهل ، وقال له : إذا فرغ من اليمامة فالحق بقضاة وأنت على خيالك . وعقد لطرفة بن حاجر وجهه إلى بني سليم ومن معهم من هوازن .

ثم كتب لكل منهم عهداً ؛ هذا نصه : هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعت فيمن بعت ، لقتال من رجع عن الإسلام ؛ وعهد إليه أن يتقى الله ما استطاع في أمره كله ، سريه وعلايته . وأمره بالجد في أمر الله ، وبمجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان بعد أن يُنذَر إليهم فيدعواهم بداعية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن^(١) غارته عليهم حتى يُقرؤا له ، ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم ، لا ينظروهم^(٢) ، ولا يرذ المسلمين عن قتال عدوهم ؛ فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل ، وأقر له قبل ذلك منه ، وأعان عليه بالمعروف ؛ وإنسا يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر^(٣) به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان ، وحيث بلغ مراغمه^(٤) ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه ، وأقر قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله ، فإن أظهره الله قتل

(١) شن الفارة : صباها من كل وجه . (٢) لا ينظروهم : لا يؤخرهم .

(٤) استسر : استتر . (٤) المراغم : المهاجر (اسم مكان) .

منهم كل قِتلة بالسلاح والذِّيران ، ثم قَسَمَ ما أفاء الله عليه . إلا الخِمس فإنه يُبَلِّغُنَاهُ ؛
وَأَنْ يَمْنَعَ أَصْحَابَهُ الْعَجَلَةَ وَالْفَسَادَ ، وَأَلَّا يُدْخَلَ فِيهِمْ حَشَوًا حَتَّى يَعْرِفَهُمْ وَيَعْلَمَ مَا هُمْ ،
لَثَلَا يَكُونُوا عُيُونًا ، وَلَثَلَا يُؤْتَى الْمَسْلُومُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَأَنْ يَقْتَصِدَ بِالْمَسَاهِينِ وَيَرْفُقَ
بِهِمْ فِي السَّيْرِ وَالْمَنْزِلِ ، وَيَتَفَقَّهَ وَلَا يَعْجَلَ بِمَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَيَسْتَوْصِيَ بِالْمَسَاهِينِ
فِي حَسَنِ الصُّحَّةِ وَلِيْنِ الْقَوْلِ .

ثم كتب للمرتدين كتاباً عاماً جاء فيه :
بسم الله الرحمن الرحيم .

من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مَنْ بَلَغَهُ كِتَابِي هَذَا مِنْ
عَامَّةٍ وَخَاصَّةٍ ، أَقَامَ عَلَى إِسْلَامِهِ أَوْ رَجَعَ عَنْهُ .

سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، وَلَمْ يَرْجِعْ بَعْدَ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالَةِ وَالْعَمَى ، فَإِنِّي
أَحْمَدُ إِلَيْكُمْ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ ،
وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، نُقِرُّ بِمَا جَاءَ بِهِ ، وَنُكْفَرُ مِنْ أَبِي ، وَنُجَاهِدُهُ .

أما بعد ، فإن الله تعالى أَرْسَلَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى خَلْقِهِ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ،
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُقِيرًا ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيُحِقَّ الْحَقَّ عَلَى الْكَافِرِينَ ،
فَهَدَى اللَّهُ بِالْحَقِّ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ ، وَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِذْنِهِ مَنْ
أَذْبَرَ عَنْهُ ، حَتَّى صَارَ إِلَى الْإِسْلَامِ طَوْعًا وَكَرْهًا .

وقد تَوَقَّى اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ نَفَّذَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَنَصَحَ لِأَمْتِهِ ،
وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ ، وَكَانَ اللَّهُ قَدْ بَيَّنَّ لَهُ ذَلِكَ ، وَلِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي الْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ
فَقَالَ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ

الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿١﴾ . وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

فمن كان يعبدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان إنما يعبد الله وحده لا شريك له ، فإن الله له بالمرصاد ، حتى قيوم^(١) لا يموت ، لا تأخذه سنة^(٢) ولا نوم ، حافظ لأمره ، مُنتَقِم من عدوه يجزيه . وإني أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصيبيكم من الله ، وما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وأن تهتدوا بهتداه ، وأن تمتصموا بدين الله ، فإن كل من لم يهتد به الله ضال ، وكل من لم يعافه مبتلي ، وكل من لم يعنه مخدول ، فمن هداه الله كان مهتدياً ، ومن أضله كان ضالاً ، قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ ، ولم يقبل منه في الدنيا عمل ، حتى يُقرَّ به ، ولم يقبل منه في الآخرة صرف ولا عدل^(٣) .

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه ، بعد أن أقرّ بالإسلام وعمل به ، اغتراراً بالله ، وجهالة بأمريه ، وإجابة للشيطان ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّمِيرِ ﴾ ؛ وإني بعث إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار ، والتابعين بإحسان ، وأمرته ألا يقاتل أحداً ولا يقتله ، حتى يدعوهُ إلى دَاعِيَةِ الله ؛ فمن استجاب له وأقرّ ، وكفّ وعمل صالحاً قبل منه ، وأعانهُ عليه ، ومن أبى أمرتُ

(١) قيوم : الدائم القيام بتدبير خلقه وحفظه . (٢) السنة : فتور يتقدم النوم .

(٣) الصرف : التوبة . والعدل : الفدية .

أَنْ يِقَاتِلَهُ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ لَا يُبْقَى عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ قَدَرٌ عَلَيْهِ ، وَأَنْ يُحَرِّقَهُم بِالنَّارِ ، وَيَقْتُلَهُمْ كُلَّ قِتْلَةٍ ، وَأَنْ يَسْبِيَ النِّسَاءَ وَالذَّرَارِيَ ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا الْإِسْلَامَ ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَمَنْ تَرَكَهُ فَلَنْ يُعْزِزَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَمَرْتُ رَسُولِي أَنْ يَقْرَأَ كِتَابِي فِي كُلِّ مَجْمَعٍ لَكُمْ ، وَالِدَاعِيَةُ الْأَذَانِ ، فَإِنْ أَذَّنَ الْمُسْلِمُونَ فَأَذَّنُوا كَقَوْلِهِمْ ، وَإِنْ لَمْ يُؤْذِّنُوا عَاجِلُوهُمْ ، وَإِنْ أَذَّنُوا سَأَلُوهُمْ مَا عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ أَبَوْا عَاجِلُوهُمْ ، وَإِنْ أَقْرَبُوا قَبِلَ مِنْهُمْ وَحَمَلَهُمْ عَلَى مَا يَنْبَغِي لَهُمْ » .

ثم تقدمت الرسل بالكتب أمام الجفود ، وخرجت الأمراء ومعهم اليهود .

وكان طليحة الأسدي هذا قد ارتدَّ في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وادَّعى النبوة ، فوجه النبي صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور^(١) إلى عمِّه عليه على بن أسد يأمرهم بالقيام على كل مُرتدٍّ ، نفرج هؤلاء المسلمون مع ضرار ، ونزلوا بواردات^(٢) ، ونزل طليحة ومن معه بسميراء^(٣) ، فما زال المسلمون في نعاء ، والمشركون في نقصان ، وضعف أمر طليحة ، حتى لم يبق إلا أخذه ، فضر به ضرار بالسيف فلم يصنع فيه شيئاً ، فظهر بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه ، وكثر جمعه .

ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فكان طليحة يقول . إنَّ جبريل يأتيني ، وأخذ يسجعُ بالأكاذيب ، وكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول : إنَّ الله لا يصنع بتغيير وجوهكم وتقبيح أذباركم شيئاً ، اذكروا الله واعبدوه قياماً . فتبعه من العرب كثير ، بعضهم عن غفلة ، وبعضهم عن عصبية ،

(١) كانت له محبة ، واستشهد فيما بعد بالبيعة .

(٢) واردات : موضع قرب مكة . (٣) سميراء : موضع بطريق مكة .

ولذلك كثُرُ أتباعه من أسد، وأحلافهم من طيء وغطفان، وقام عيينة بن حصن الفزاري يقول: لَأَن تَتَّبِعَ نَبِيًّا من الحليفتين: أسد وطيء، أَحَبُّ إِلَيْنَا من أَن تَتَّبِعَ نَبِيًّا من قريش^(١)؛

فلما كان يوم القصة، وهُزِمَت غطفان، وكانوا قَتَلُوا المسلمين غَدْرًا، خافوا على أنفسهم، فذهبوا إلى البزاةة، حيث انضموا مع إخوانهم إلى طليحة. فلما أحسن طليحة بمقدم خالد أرسل إلى جديلة والنوثة من طيء يأمرهم باللاحاق به، فتمجبل إليه بعضهم، وأمروا قومهم باللاحاق بهم.

وكان أبو بكر قد بعث عدى بن حاتم الطائي قبل مسير خالد إلى قومه، وقال له: أذركهم وخذّ لهم عن طليحة. فذهب إلى النوثة وأخذ يفتلهم في الذروة والغارب^(٢)، ويدعوهم إلى الجماعة، فقالوا: لا نبايع أبا الفصيل^(٣) أبدًا، فقال: لقد أناكم قومٌ ليبيحن حريكم، ولتكنننه بالفحل الأكبر، فشأنكم به. فقالوا له: فاستقبل الجيش فنهنه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاةة منا، فإنّا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارتبهم.

فاستقبل عدى خالدًا وهو بالسُّنح^(٤)، فقال: يا خالد؛ أمسك عني ثلاثًا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك؛ وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار، وتتشاغل بهم. ففعل.

(١) روى الطبري أنه كان بين أسد وغطفان وطيء حلف في الجاهلية، فلما كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم اجتمعت غطفان وأسد على طيء فأزاحوها عن دارها في الجاهلية: غوثها بوجديلتها، ثم عادوا بعد ذلك إلى حلفهم.

(٢) يقتلهم في الذروة والغارب: أي يخذلهم. (٣) يريدون أبا بكر.

(٤) السُّنح: موضع قرب المدينة، كان به منزل أبي بكر.

فعاد عديّ إليهم ، وقد أرسلوا إخوانهم إليهم ، فاتوهم من بُزَاخَة كالدّد لهم ،
وعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد .

وأعدّ خالد نفسه ليرتحلّ إلى جَدِيَّة بِالْأَنْسَر^(١) . فقال له عديّ : إن طيِّثاً
كالطائر ، وإن جَدِيَّة أحَدُ جَنَاحِي طَيِّيء ؛ فَأَجْلِنِي أَيَّاماً ، لعلّ الله أن ينتقذَ
جَدِيَّة كما انتقذ الغوث ، ففعل . فاتاهم عديّ ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، ودَعَوْا قَوْمَهُمْ
من البُزَاخَة ، وجاء عديّ إلى خالد بإسلامهم ، ولحق بالمسلمين ألفُ رَاكِب . فكان
عديّ خيرَ مولود وُلِدَ في أرض طَيِّيء ، وأعظمه عليهم بركة .

وسار خالد بالناس ، حتى إذا دنا من القوم بعث عُكَّاشَة بن مِحْصَن ، وثابت بن
أَقْرَم طليعة ، فلقياً جبالاً أخا طُلَيْحَة ، فقتلاه . فلما بلغ مَقْتَلَهُ طُلَيْحَة خرج مع أخيه
الآخر يَنْظُرُ أن ويسألان ، فأما سلمة فلم يمهل ثابتاً حين رآه أن قتله ، وثبت عُكَّاشَة
لَطُلَيْحَة . فلما رأى طليحة أن أخاه فرغ من ثابت ، استعان به على عُكَّاشَة
فقتلاه ثم رجعا .

وأقبل خالد بالناس حتى مرّوا بثابت بن أقرم قتيلاً ، فلم يفطنوا له حتى وطئته
المطىّ بأخفافها ، فكبر ذلك على المسلمين ، ثم نظروا فإذا هم بِعُكَّاشَة بن مِحْصَن
صريعاً ، فجزع لذلك المسلمون وقالوا : سيّدان من سادات المسلمين ، وفارسان من
فُرْسَانِهِمْ .

ورأى خالد ما بأصحابه من الجَزَع ، فآثر ألا يواجهَ بهم عدوّهم حتى تطمئنّ
نفوسهم ، فسأل عديّ : ما الرأي ؟ فقال : الرأي أن تسير إلى فتقيم عندى أياماً في
طَيِّيء ، حتى أبعث إلى كلّ قبائلها ، فأجمع لك منهم أكثر مما معك ، ثم أحضرك إلى

(١) الأنسر : ماء اعطي قرب الجبلين .

عدوك . ففعل وانصرف معه حتى أقام بطيئاً أياماً ، ثم خرج إلى قتال طليحة وقومه من بني أسد وأحلافه من غطفان .

قال له رجال من طيئ : ' نحن نكفيناك غطفان ، فإن أسداً من أحلافنا ، فقال خالد : والله ما غطفان بأوهرن الشوكتين ، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتن ، فقال عدى : لو ترك هذا الدين أسرني ، الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه ، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد ليحلفهم ! لا ، لعمرك الله ، لا أفعل . فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد ، لا تحالف رأي أصحابك ، امض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط .

واقترل الناس ، وكان عيينة بن حصن هو الذي يقود المعركة في جيش طليحة ، في سبعمائة من بني فزارة ، على حين أن طليحة يقيم متلفاً في كساء له بفناء بيت من شمر ، يتنبأ لهم والناس يقتتلون ، فلما هزّت عيينة الحرب ، وضرّسه القتال كرّر على طليحة فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا ، فرجع فقاتل حتى ضرّسه القتال ، وهزّته الحرب ، ثم كرّر عليه فقال : لا أبالك ، أما جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا والله ، قال عيينة : حتى متى قد والله يبلغ منا ! ثم رجع إلى وطيس الحرب فرأى خيل خالد تسكاد تحيط به وبأصحابه ، فرجع إلى طليحة فرعاً يكرر عليه : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فإذا قال لك ؟ قال : إن لك رحي كرحاه ، وحديثاً لا تنساه . فقال عيينة : أظن أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه ! انصرفوا يا بني فزارة ، فهذا والله كذاب ! فانصرفوا وانهمزم الناس وغشوا طليحة يقولون : ماذا تأمرنا ؟ فوثب على فرسه ، وحمل امرأته القوار ، وقال : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت ، وينجو بأهله فليفعل :

ثم لحق بالشام^(١) بعد أن ارفضّ جمعته ؛ وأقام في بني كلب هناك ، ثم عاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التي بايعته قد عادت إلى الدين القيم ، وخرج بعد ذلك مُعْتَمِراً في خلافة أبي بكر ، فرّ بجَنَبَاتِ المدينة ، فذكر بعض المسلمين لأبي بكر مكانه ، فقال : ما أَسْنَعُ به ! خَلُّوا عنه ، فقد هداه الله للإسلام .

(١) روى ياقوت : أن عيينة بن حصن أسر وقدم به على المدينة ، لحق أبو بكر دمه ، وخلي سيّله . وقال بعضهم : إنه دخل جباً فاغتسل ، وخرج فركب فرسه وأهل بعمرة ، ومضى إلى مكة ، وأتى مسلماً .

٨١ - يوم البطح *

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون تميم أمراء ، فرّقهم فيهم ؛ فكان الزُّبَيْرُ بن بدر على الرِّبَابِ وَعَوْفُ والأبناء ، وقيس بن عاصم على مُقَاعَسِ والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ، على بن عمرو ، ووكيع بن مالك ومالك بن النُّويرة ، على بن حَنْظَلَةَ^(١) .

فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم ووُلِّيَ أبو بكر اختلف هؤلاء : أيُّوْدُونَ الزَّكَاةَ لأبي بكر أم يُقَسِّمُونَهَا في الناس ؟ وكان فيمن أدى الزَّكَاةَ صَفْوَانُ بن صفوان ، وفيمن منعها مالكُ بن نُويرة^(٢) في قومه بنو يَرْبُوع ؛ وهم بطن في بني حنظلة من تميم .

وبينما القومُ في اختلافهم فَجَأَتْهُمْ سَجَّاحُ بنت الحارث ؛ قد أقبلت من الجزيرة ، وكانت سَجَّاحُ تميميةً من بني يَرْبُوع ، وأخوالها من تَغْلِبَ بالعراق ، وقد تزوّجت فيهم ، وأقامت بينهم ، ثم تَنَصَّرَتْ فيمن تنصّر منهم ؛ وكانت تدعى الكهانة ، وتعرف كيف تقود الرجال ؛ فلما تراعى إليها وفاةُ محمد عليه السلام ادّعت النبوة ، وقدمت إلى قومها من تميم ، تريد أن تغزو المدينة ، وأن تقاتل أبا بكر .

* لخالد بن الوليد على بني تميم . كان سنة ١١ . والبطح : ماء في ديار بني أسد .
الطبري ٢٤١/٣ . ابن الأثير ١٧٣/٣ . ابن خلدون ٧٣/٢ . معجم البلدان ٢١٥/٢ :
تاريخ ابن كثير ٣٢٢/٦ . الأغاني ٦٣/٤ . الإصابة ٤٠/٦ .

(١) الرباب وعوف والأبناء ومقاعس والبطون وبنو عمرو وحنظلة : بطون في تميم .
(٢) مالك بن نويرة : كان رجلاً سورياً نبيلاً يردف الملوك ، وكان فارساً شجاعاً شريفاً مطاعاً في قومه من بني يربوع ، وكان فيه خيلاء وتقدم ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم ، ثم ولاه الصدقات على بني يربوع ، ثم كان ما كان من رده ومنعه الزكاة حتى قتله ضرار بن الأزور ، وقال فيه أخوه متمم المرائي المشهورة .

فلما رأى بنو تميم - وهم على اختلافهم - عزمها على قتال أبي بكر ، ازدادوا بين الردة والإسلام اضطراباً؛ ووقفت سجاج في جندها على حدود بني يربوع ، وأرسلت إلى زعيمهم مالك بن نورة تطلب الموادة ، وأنبأته بعزمها على غزو المدينة ؛ فأجابها مالك إلى الموادة . ولكنه صرّفها عن غزوة المدينة ، وحرّضها على قتال من اختلف معه من أحياء بني تميم ؛ واقتنعت سجاج برأيه وقالت : نعم ؛ فشأنك بمن رأيت ؛ فأتى إنما امرأة من بني يربوع ، وإن كان مُلك فالمُلك مُلككم . ثم أرسلت إلى بني مالك بن حنظلة تدعوهم إلى الموادة ، فأبوا ، ثم أرسلت إلى وكيع بن مالك ، فأجاب إلى ما أجاب به مالك بن نورة .

واجتمع مالك ووكيع وسجاج ، فسيّجت لهم سجاج وقالت : أعدوا الركاب ، واستمدوا للنّهاب ، ثم أغيروا على الرّباب ، فليس دونهم حجاب . فاستعرت نار الحرب بين بني تميم ، واقتتل القوم ، ومات من الجانبين خلق كثير . ثم إنهم تصالحوا وعاد السلام إلى بني تميم . ولما رأت أن أمرها لم يتم في بني تميم ، قالت لجندها من ربيعة وإياد وسواهم : عليكم باليامة ودُّقوا دَيف^(١) الحماة ، فإنها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيها ملامة . ثم هددت^(٢) بمن معها إلى بني حنيفة ؛ حيث لقيت مسيلة وتزوجته .

ولما رأى مالك بن نورة ما صنعت سجاج ندم وتخيّر في أمره ، وعرف وكيع وغيره من رؤساء بني تميم قُبْح ما صنعوا ، فرجعوا رجوعاً حسناً ، وأخرجوا الصدقات ، واستقبلوا بها خالداً ، ولم يبق في بني تميم إلا مالك بن نورة ؛ فقد اعتصم بالبُطاح .

وعلم خالداً مره ، فزَم على السير إليه فتردّت الأنصار ، وتخلّفت عنه وقالوا : ما هذا بمهد الخليفة إلينا ، إنّ الخليفة عهد إلينا : إن نحن فرغنا من البرأخه واستبّر أنا بلاد

(١) الديف من الطائر : أن يحرك جناحيه ورجليه في الأرض .

(٢) تهد الرجل لعدوه : نهش .

القوم ، أن نقيم حتى يكتبَ إلينا . فأجابهم خالد : إن يكن عهد إليكم هذا ؛ فقد عهدَ إلى أن أمضى وأنا الأمير ، وإلى تنهى الأخبار ، ولو أنه لم يأتني له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً فكنتُ إن أعلمته فأتيتُ لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك لو أتينا بأمر لم يمهّد لنا فيه لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنّا ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بجيّا لنا ، وأنا أقصد إليه ، ومن ممي من المهاجرين والتابعين بإحسان ، ولست أكرهكم .

ومضى خالد ، وندمت الأنصار ، وقالوا : إن أصاب القوم خيرٌ إنه ليخيرٌ حُرْمَتُموه ، وإن أصابتهم مصيبة ليحْتَبِئَنَّكُمْ الناس ، فأجمعوا اللحاق بخالد ، وجردوا إليه رسولاً ، فأقام ، حتى لحقوا به .

ثم سار مع جيشه حتى قدم البطاح ، فلم يجدوا بها أحداً ، ووجدوا مالكا قد فرّقه في أموالهم ، ونهاهم عن الاجتماع حين اضطرب عليه أمره ، وقال : يا بني يربوع ؛ إنّا قد كنّا عصينا أمراءنا إذ دعونا إلى هذا الدين ، وبطّنا الناس عنه فلم نفلح ولم ننجح ؛ وإني قد نظرتُ في هذا الأمر ، فوجدت الأمر يتأتى للقوم بغير سياسة . وإذا الأمر لا يسوسه الناس ، فأياكم ومناواة قوم قد صنع لهم ، ففرّقوا في دياركم ، وادخلوا في هذا الأمر . ونصح لهم بالرجوع إلى الإسلام ، والتفرق في الديار . ورجع هو إلى منزله . وبث خالد السرايا بالبطاح ، وأمرهم بداعية الإسلام ، وأن يأتوه بكل من لم يجِب ، وأن يقتلوه إن امتنع . وكان مما أوصى به أبو بكر : إذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ؛ فإن أذن القوم وأقاموا فكفّوا عنهم ؛ وإن لم يفعلوا فلا شيء إلا النار ؛ وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسايلوهم ، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ؛ وإن أبوها فلا شيء إلا النار ولا كلمة !

ولم يلبث أن جاءت الخيل بمالك بن نويرة في نفرٍ من قومه بني يربوع .

واختلف رؤساء الجند الذين جاءوا بمالك ومن معه فيما بينهم . أقرّ مالك ومن معه بالإسلام وأجابوا داعية الأذان ، أم أنكروا وتنكروا ؟ وكان من رؤساء الجند أبو قتادة^(١) ؛ ولما سُئِلَ قال : إنهم لما غَشُوا القوم راعوهم تَحْتَ اللَّيْلِ ، فأخذ القوم السلاح . فقلنا : إنا المسلمون ؛ فقالوا : ونحن المسلمون . قلنا : فما بال السلاح معكم ؟ قالوا لنا : فما بال السلاح معكم ؟ قلنا : فإن كنتم كما تقولون فضعوا السلاح . فوضعه ، ثم صلينا وصَلَّوا . وقال غيره : إنهم مازالوا على رِدَّتِهِمْ .

ولما رأى خالدُ اختلافَ القوم في شأن مالك وأصحابه أمرَ بِجَبْسِهِمْ ، حتى ينظر في أمرهم ، وكان ذلك في ليلة باردة . ثم أمر خالدٌ منادياً فنادى : دافئوا^(٢) أسراكم . — وهي في لغة كِنَانَةَ — معناها القتل ، وكان الحرَّاسُ من بني كِنَانَةَ ، فوقعوا فيهم قتلا ، وقتل ضرار بن الأزور مالكا .

وسمع خالد الواعية^(٣) ، فخرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه . ولما عَلِمَ أبو قتادة بمقتل مالك قال لخالد : هذا عمَلُكَ ! فزَجَرَهُ خالدٌ ، فغضب وعاهد الله ألا يشهد حرباً بعدها مع خالد ، ومضى حتى أتى أبا بكر ، فقصَّ عليه أمر خالد وقتله مالكا ، وأقسم ألا يكون أبداً في لواء عليه خالد ، فغضب منه أبو بكر ، لأنه كان معجباً بخالد وانتصاراته ؛ وكله فيه عمر فلم يَرْضَ إلا أن يرجع إلى خالد ، فرجع إليه وبقي معه حتى قَدِمَ معه المدينة .

ثم تزوّج خالد أمّ تميم ، ابنة العنْهال زوج مالك ، وكانت العرب تكره النساء في الحروب .

(١) هو أبو قتادة الأنصاري ، واسمه الحارث بن ربي .

(٢) أراد الإدفاء ، من الدفء .

(٣) الواعية : الصراخ .

ولما علم عمرُ بِمَقْتَلِ مالك ؛ وما حام حوله من الرّيب ، وبخاصّة حينما سمع بزواج خالد من أمّ تميم عميد إلى أبي بكر وقال : إن في سيفِ خالدٍ رَهَقاً^(١) ، فإن لم يكن هذا حقّاً حقّ عليك أن تُقيده ، ثم عاد إليه فأكثر وقال : عدوّ الله عدوّاً على امرئ مسلم فقتله ، ثم نزا على امرأته - وكان أبو بكر لا يُقيد^(٢) من عمّاله ولا وُزَعته - فقال : هيه يا عمر ؛ تأوّل فأخطأ ، فارتفع لسانك عن خالد ، فلم أكن لأشيم^(٣) سيفاً سلّاهُ الله على الكافرين . وودى^(٤) مالكا ، وكتب إلى خالد أن يقدم عليه .

وأقبل خالدُ بن الوليد قافلاً حتى دخل المسجد ، وعليه قبّاء عليه صدأ الحديد ، مُمْتَجِراً^(٥) بهامةٍ ، قد غرّزَ فيهما أسهماً . فلما أن دخل المسجد قام إليه عمر فانزع الأسهمَ من رأسه فخطمها ، ثم قال : أرياء ! قتلتَ امرأ مسلماً ، ثم تزوتَ على امرأته ؛ والله لأرجنّك بأخجارك ! فلم يردّ خالدٌ بكلمة ، وظنّ أن رأى أبي بكر على مثل رأى عمر فيه ، ثم دخل على أبي بكر ، وأخبره الخبر ، فمذّره أبو بكر وتجاوز سمّاً كان في حرّ به تلك .

ولم تمضِ إلا أيام حتى قدم مُتَمِّمُ بن نُورَة^(٦) ، أخو مالك إلى المدينة ، وشهد مع أبي بكر صلاة الصبح ثم أنشد :

(١) الرهق السفة والحفة وركوب الشر والظلم وغشيان الحرام .

(٢) يقال : أفاد الأمير القاتل ، قتله به قوداً . (٣) أشيم : أغمد .

(٤) وداه : أعطاه دينه ، والدية : حق القتل . (٥) الاعتجار : لف العمامة .

(٦) متمم بن نورية : أخو مالك ، وله أبلغ المرائي فيه . روى الأصمعي : قدم متمم بن نورية العراق ، فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى عليه ؛ فقبل له : يموت أخوك بالملا ، وتبكي أنت على قبر بالعراق ! فقال :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ
فَقَالَ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ
فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا
أَلَمْ تَرَهُ فِينَا يُقَسِّمُ مَالَهُ
رَفِيقِي لَتَذَرَانِي الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ
لِقَبْرِ تَوَى بَيْنَ اللّوَى وَالْكَادِكِ
فَدَعَانِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ !
وَتَأْوِي إِلَيْهِ مَرُمَلَاتُ الضَّرَائِكِ !
الضرائك : الفقراء السيئ الحال .

نعم القتلُ إذا الرياحَ تَنَاقَحتْ تحت الإزار قَتَلْتَ يابْنَ الأَزُورِ
أَدْعُوتهُ باللهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ لو هُوَ دعاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدُرِ

فقال أبو بكر : والله ما دعوته ولا قتلته . ثم قال :

لا يَضْمُرُ الفَحْشاءُ تَحْتَ رِدَائِهِ حُلُوْهُ شِمَالُهُ عَمِيقُ المِزَرِ
ولنم حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ وحَسْرًا ولنم مأوى الطَّارِقِ المُنَوَّرِ
ثم بكى حتى سالت عَيْنُهُ ، ثم وقع مغشيًّا عليه ؛ وطلب دِيَةَ أَخِيهِ فَوَدَّاهُ ،
وتحدَّثَ إِلَيْهِ فِي رَدِّ سَبِي قَوْمِهِ ، فكتبَ بِرَدِّ سَبِيهِمْ ، وأقامَ بالمدينة ؛ لا تَرَ قَالَهُ
دَمْعَةً عَلَى أَخِيهِ مَالِك .

* * *

وكان عُمرُ بن الخطاب يَصَلِّي الصُّبْحَ يوما ؛ فلما انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذْ هُوَ بِرَجُلٍ
قَصِيرٍ أعور ، يَتَسَكَّبُ قوسًا ، ويبيده هِرَاوَةً ، فقال : مَنْ هَذَا ؟ فقال : مُتَمِّمُ بْنُ نُويرةٍ
فاستنشدته قوله في أخيه ، فأنشده :

لَعَمْرِي وَمَا دَهْرِي بَيْنَ مَالِكٍ وَلَا جَزَعٌ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعًا^(١)
لَقَدْ كَفَنَ المِنهالُ تَحْتَ ثِيَابِهِ فَتَى غَيْرِ مَبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(٢)

ومضى في إنشاده حتى بلغ إلى قوله :

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ حِقْبَةٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٣)
فلما تفرَّقَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا

فقال عمر : هذا والله التَّأْيِينُ ! ولوددت أَنِّي أَحْسَنَ الشَّعْرَ فَأَرَى أَخِي زَيْدًا^(٤)
بِمَثَلِ مَارِثَةٍ بِهِ أَخَاكَ ، فقال مُتَمِّمٌ : لو أَنَّ أَخِي مَاتَ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَخُوكَ مَارِثَتُهُ .
فقال عمر : ما عَزَّأَنِي أَحَدٌ عَنْ أَخِي بِمَثَلِ مَا عَزَّأَنِي بِهِ مُتَمِّمٌ !

(١) مادهرى : ماعادى ، والتأيين : مدح الميت يعلل موته .

(٢) المنهال : هو ابن عصمة الرياحى ؛ كفن مالكا في ثوبيه . غير مبطان العشيات : لا يسجل بالامضاء انتظاراً للصفان . والأروع : الذى إذا رأته راعك بحسنه .

(٣) التدمان : التديم ، وقد كان مالك وعقيل بن فارج نديمين للجذيمة الأبرش دهرًا طويلا ، ثم قتلتهما في حديث مشهور .
(٤) مات زيد بن الخطاب في غزوة اليمامة .

١٩ - يوم اليمامة*

في سنة عشر قدم وفد بني حنيفة^(١) من أهل اليمامة على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلمين، وتركوا مسيلمة بن حبيب في رحابهم، فلما أسلموا ذكروا مكانه، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا قد خلفنا صاحباً لنا في رحالنا وفي ركابنا، يحفظها لنا. فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به للقوم، وقال: أما إنه ليس بشرٌ كم مكاناً. ثم انصرفوا. وجاءوا مسيلمة بما أعطاه رسول الله، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدّ وتلبّأ لهم، وقال: إني قد أشركتُ في الأمر معه، وقال لمن كان معه في وفد بني حنيفة: ألم يقل لكم حين ذكركموني له! أما إنه ليس بشرٌ كم مكاناً! وما ذاك إلا لأنه كان يعلم أني قد أشركتُ في الأمر معه. ثم جعل يسجّع لهم الأسا جميع.

وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلامٌ عليك؛ أما بعدُ فإنني قد أشركتُ في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقرّيش نصف الأرض، ولكن قرّيشاً قومٌ يعتدون.

وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم رسولان بهذا الكتاب، فقال لهما النبي حين قرأ كتاب مسيلمة: فأتقولان أنما؟ قالا: نقول مثل ما قال، فقال: أما والله لولا أن الرُّسُل لا تُقتل لضربت أعناقكما.

* لخالد بن الوليد على بني حنيفة، كان سنة ١١. واليامة معدودة في نجد، بينها وبين البحرين عشرة أيام، وتعد هذه الموقعة من المواقع الفاصلة في حروب الردة. الطبري ١٦٢/٣، ابن الأثير ١٧٤/٢، ابن خلدون ٧٥/٢، ابن كثير ٣٢٣/٦، ابن هشام ٢٤٤/٤، ٢٧٢.

(١) حنيفة: بطن في ربيعة.

ثم كتب إلى مُسَيْلِمَةَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . من محمد رسول الله إلى
مسَيْلِمَةَ الكَذَّاب : سلامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى ، أما بعد ، فإنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِئُهَا
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

فلما مات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث أبو بكر السَّرايا^(١) إلى المرتدِّين
أرسل عِكْرِمَةَ بْنَ أَبِي جَهْلٍ في عسكرٍ إلى مُسَيْلِمَةَ ، وأتبعه شُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ ،
وكان مُسَيْلِمَةُ قد اشتدَّ أمره ، والتفت حوله أربعون ألف مقاتل من بني حَنْظَلَةَ
باليَمَامة .

فسار عِكْرِمَةُ إلى اليَمَامة ، ولم يرَ أَنَّ يَنْتَظِرَ شُرَحْبِيلُ ، ليكونَ له نِخَارُ
النَّصْرِ . وكان عِكْرِمَةُ بطلاً مجرَّباً ، وفارساً مغواراً ، وقد اجتمع في لوائه أبطالٌ لهم
في الحروب بلاءٌ ، ولكنَّهُ لم يَثْبُتْ لقوتهم ، ونكبه بنو حَنْظَلَةَ ، وعلم شُرَحْبِيلُ
بهيبتهم فأقام بالطريق .

وكتب عِكْرِمَةُ لأبي بكر بالَّذِي أَصَابَهُ وَأَصَابَ جُنْدَهُ ، فغضبَ أبو بكر ، وكتب
إليه : يَا بَنِي أُمِّ عِكْرِمَةَ : لَا تَرَجِعَنَّ قُتُوهِنَّ النَّاسَ ؛ امضِ إلى حُذَيْفَةَ وَعَرَفَجَةَ ،
فقاتِلْ أَهْلَ عُمَانَ وَمَهْرَةَ ، ثم تسير أنتَ وجندك حتى تَلْقَى الْمُهَاجِرَ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ
بِالْمِمْنِ وَحَضَرَ مَوْتَ .

وكتب إلى شُرَحْبِيلِ بْنِ حَسَنَةَ يَأْمُرُهُ بِالْمَقَامِ حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ .
ولما قدم خالدهُ على أبي بكرٍ مِنَ الْبُطْحِ ، ورضى عنه وقبل عُذْرَهُ وَصَدَّقَهُ ،
أرسله إلى مُسَيْلِمَةَ ، وَأَوْعَبَ^(٢) معه النَّاسَ ، وجعل على الْأَنْصَارِ ثَابِتَ بْنِ قَيْسٍ
وَالْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ ؛ وَعَلَى الْمُهَاجِرِينَ أَبَا حُذَيْفَةَ ، وَزَيْدَ بْنَ الْخَطَّابِ ، وَعَلَى كُلِّ
قَبِيلَةٍ رَجُلًا

(١) جمع سرية : وهي جماعة من الجنود من خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو أربعمائة .

(٢) أوعب الناس : خرجوا سلكهم للغزو .

وقبل أن يقوم خالد بجيشه كتب أبو بكر إلى سُرحَيْيل بن حَسَنَة كتاباً آخر جاء فيه : إذا قدم عليك خالد ، ثم فرغتم إن شاء الله ؛ فالحق بقصاعة ، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أبي منهم وخالف .

وخرج خالد في جُنْدِه حتى أتى اليمامة ؛ حيث كان بنو حَنِيفَة مستعدين هناك في جَمْعِهِم الكَثِيف .

وكان مُسَيْلَمَة يُصَانِعُ كُلَّ أَحَدٍ وَيَتَأَلَّفُهُ ، ولا يبالي أن يطلع الناس منه على قبيح ، وكان معه نَهَارُ الرَّجَال ، وكان نَهَارُ هَذَا قد هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن ، وفقه في الدين ، وعرف أصول الإسلام ؛ فبعثه الرسول معلماً لأهل اليمامة يفقههم في الدين ، ويشد من عزائم المسلمين ، ويشغب معهم على مُسَيْلَمَة المتنبي الكاذب ؛ فكان أعظم فتنة على بني حنيفة من مُسَيْلَمَة نفسه ؛ شهد له أنه سمع محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : إنه قد أشرك معه ، فصدقه القوم واستجابوا له .

وجاء طليحة النمرى اليمامة ، فقال : أين مُسَيْلَمَة ؟ قالوا : مه ! رسول الله ! قال : لا حتى أراه ؛ فلما جاء قال له : من يأتيك ؟ قال : رحمان . قال : أفي نور أم في ظلمة ؟ قال مُسَيْلَمَة : في ظلمة . فقال طليحة : أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر . واتبع مسيلمة ، وانخرط في جيشه .

ولما بلغ مُسَيْلَمَة دُنُو خالد ضرب عسكره بعقرباء^(١) ، واستنفر الناس ،

(١) عقرباء : منزل من منازل اليمامة .

فجعلوا يخرجون إليه .

وبينا كانت جيوشُ خالد تتلاحقُ إلى أرض اليمن ، وتبلغُ أبنائها مُسَيِّلةً خرج مُجَاعَةُ بْنُ مَرَارَةَ وِجَاعَةٌ مِنْ بَنِي حَنْيَفَةَ ؛ يَطْلُبُونَ ثَارًا لَهُ فِي بَنِي عَامِرٍ وَبَنِي تَمِيمٍ (١) وَقَدْ خَافَ أَنْ يَفُوتَهُ إِذَا شُغِلَ بِلِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَرَقَّتْ لَهُمْ ، وَأَدْرَكَ مُجَاعَةُ ثَارَهُ وَعَادَ فِي أَصْحَابِهِ . وَلَمَّا بَلَغُوا ثَلَاثَةَ الْيَمَامَةِ كَانَ التَّعَبُ قَدْ أَخَذَ مِنْهُمْ ، فَنَامُوا .

وَأَدْرَكَهُمْ جُنُودُ خَالِدٍ ، فَوَجَدُوهُمْ نِيَامًا ، وَأَرْسَأْنُ (٢) خِيُولَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ تَحْتَ خُدُودِهِمْ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِقُرْبِ الْجَيْشِ مِنْهُمْ ، فَأَنْبَهُوهُمْ وَقَالُوا : مَنْ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : هَذَا مُجَاعَةُ ، وَهَذِهِ حَنْيَفَةُ ، قَالُوا : وَأَنْتُمْ ! فَلَا حَيَاةَ لَكُمْ اللَّهُ ! فَأَوْتَقَوْهُمْ وَأَقَامُوا إِلَى أَنْ جَاءَهُمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فَأَتَوْهُ بِهِمْ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَتَى سَمِعْتُمْ بِنَا ؟ قَالُوا : مَا شَعَرْنَا بِكَ ؛ إِنَّمَا خَرَجْنَا لِثَارٍ لَنَا فَيَمْنُ حَوْلَنَا مِنْ بَنِي عَامِرٍ وَتَمِيمٍ . فَأَمَرَ بِهِمْ (٣) أَنْ يُقْتَلُوا ، فَجَادُوا كُلُّهُمْ بِأَنفُسِهِمْ دُونَ مُجَاعَةَ بْنِ مَرَارَةَ ؛ وَقَالُوا : إِنْ كُنْتَ تَرِيدُ بِأَهْلِ الْيَمَامَةِ غَدَاً خَيْرًا أَوْشَرًا فَاسْتَبِقْ هَذَا وَلَا تَقْتُلْهُ . فَقَتَلَهُمْ خَالِدٌ ، وَحَبَسَ مُجَاعَةَ عِنْدَهُ كَالرَّهْنَةِ ، وَأَوْثَقَهُ فِي الْحَدِيدِ ، ثُمَّ دَفَعَهُ إِلَى أُمِّ تَمِيمٍ امْرَأَتِهِ ، وَقَالَ : اسْتَوْصِي بِهِ خَيْرًا ، ثُمَّ مَضَى حَتَّى نَزَلَ الْيَمَامَةَ .

وَتَقَدَّمَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ خَالِدٌ عَلَى كَثِيبٍ يُشْرِفُ عَلَى الْيَمَامَةِ ، فَضَرَبَ بِهِ عَسْكَرَهُ ، وَرَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ سَالِمٍ مَوْلَى أَبِي خُذَيْفَةَ ، وَرَايَةُ الْأَنْصَارِ مَعَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ ، وَالْعَرَبُ عَلَى رَايَاتِهَا ؛ وَمُجَاعَةُ بْنُ مَرَارَةَ مُقَيَّدٌ فِي الْخِيَمَةِ مَعَ أُمِّ تَمِيمٍ .

(١) كَانَ ثَارُهُمْ لِي فِي عَامِرٍ ، أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي حَنْيَفَةَ اسْمُهَا خَوْلَةُ بَلَّتْ جَعْفَرَ ، مَنَعَهُ قَوْمُهَا مِنْهَا ، وَأَمَّا ثَارُهُمْ فِي بَنِي تَمِيمٍ فَنَعِمَ أَخَذُوهَا مِنْهُمْ .

(٢) أَرْسَأْنُ : جَمَعَ رَسَنَ : الْحَبْلَ وَمَا كَانَ مِنْ زِمَامٍ عَلَى أَنْفٍ .

(٣) وَلِي بَعْضُ الرِّوَايَاتِ أَنَّ خَالِدًا سَأَلَهُمْ فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ ؟ قَالُوا : نَقُولُ مَنَا نَبِيٍّ وَمِنْكُمْ نَبِيٌّ ! فَمَرَضَهُمْ عَلَى السَّيْفِ .

والتقى الناس واقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزم المسلمون ، وخَلَصَ بنو حنيفة إلى مُجَاعَةَ وإلى خالد ؛ فزال خالد عن فُسْطَاطِهِ ، ودخل أناس الفُسْطَاط ، وفيه مُجَاعَةُ ، تحرَّسُهُ أمّ تميم زوج خالد ، فحمل عليها رجلٌ بالسيف ، فقال مُجَاعَةُ : مَهْ ، أنا لها جَاراً فَنِعِمَّتِ الْحُرَّةُ ! عليكم بالرجال ؛ فرَعَبُوا^(١) الفُسْطَاط بالسيف .

ولما حَلَّتِ المَرْيَمَةُ بالمسلمين عادوا فَتَدَامَرُوا^(٢) ، فقال ثابت بن قيس : بئسما عوداً دُئِمَ أنفُسُكم بامعشرِ المسلمين ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا يَمْبَدُ هَؤُلَاءِ - يعني أهل اليمامة - وأَرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ - يعني المسلمين - ثم أخذ يجالِدُ بسيفه . ويجعل الصحابةُ يتواصونَ بينهم ، ويقولون : يا أصحابَ سورة البقرة ، بَطَلَ السَّحَرُ اليوم ! وحفرَ ثابت بن قيس لِقَدَمَيْهِ في الأرض ؛ وهو حامل اللواء ، بعدما تحنط وتكفن ؛ ولم يزل ثابتاً حتى قُتِل . وقال أبو حذيفة : يا أهل القرآن ؛ زِينُوا القرآنَ بِالْفِعَالِ ؛ وحمل فيهم حتى أبعدهم .

وقال زيد بن الخطاب : آتَيْهَا الناس ؛ عَضُّوا على أضراسكم ؛ واضربوا عدوكم ، وامضوا قُدُمًا . والله لا أُنْكَلُمُ حتى يَهْزِمَهُمُ الله ؛ أو أُلْقَى اللهُ فَأَكَلَهُ بِحِجَّتِي . ثم خرج للقتال ، فَلَقَى أَوَّلَ مَالَتِي الرَّجَالِ ؛ فَاجْتَلَدَا مَعًا ؛ ولم يلبث الرجالُ إِلَّا قَلِيلًا حتى قَتَلَهُ^(٣) زيد ؛ ثم قَاتَلَ زَيْدٌ حتى اسْتَشْهَدَ^(٤) .

(١) رَعَبُوا الفُسْطَاط : مزقوه .

(٢) تَدَامَرُوا : بض بعضهم بعضاً على الجِدِّ في القتال .

(٣) عن أبي هريرة قال : كنت يومئذ عند النبي صلى الله عليه وسلم في رهط ، ومعنا الرجال بن عنفوة ، فقال : إن فيكم رجلاً ضرره في النار أعظم من أحد ، فهلك القوم وبقيت أنا والرجال ، وكنت متخوفاً ، حتى خرج الرجال مع مسيلة وشهد له بالنبوة ، فسكان فتنة الرجال أعظم من فتنة مسيلة . ابن كثير ٣٢٣/٦ .

(٤) في بعض الروايات : قال عمر لعبد الله بن عمر حين رجم من غزو اليمامة : ألا هلكك قبل زيد أهلك زيد وأنت حي ! فقال : قد حرصت على ذلك أن يكون ، ولكن نفسي تأخرت ، فأكرمه الله بالشهادة . الطبري ٢٤٩/٣ .

ثم نَسِبَ شَيْءٌ مِنَ الْخِلَافِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ جَبَنُوا أَهْلَ الْبُؤَادَى ؛ وَأَهْلُ الْبُؤَادَى جَبَنُوا الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ . وَقَالَ أَهْلُ الْقُرَى : نَحْنُ أَعْلَمُ بِقِتَالِ أَهْلِ الْقُرَى ؛ يَامَعِشَرَ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنْكُمْ . وَقَالَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ : إِنْ أَهْلُ الْقُرَى لَا يُحْسِنُونَ الْقِتَالَ ؛ وَلَا يَدْرُونَ مَا الْحَرْبُ ؛ فَسَتَرَوْنَ إِذَا امْتَرَنَا^(١) مِنْ أَيْنَ يَجِيءُ الْخِلَالُ !

فَارْتَى يَوْمَ كَانَ أَحَدٌ وَلَا أَعْظَمَ نِكَايَةٍ مِمَّا رَأَى يَوْمَئِذٍ ؛ وَلَمْ يَدْرَ أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ أَشَدَّ فِيهِمْ نِكَايَةً ؛ إِلَّا أَنَّ الْمَصِيبَةَ كَانَتْ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي أَهْلِ الْبَادِيَةِ .

وظَلَّتْ الْحَرْبُ سِجَالًا ؛ مَرَّةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَمَرَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ ؛ فَقَالَ خَالِدٌ : امْتَاذُوا لِلْعِلْمِ بِلَاءَ كُلِّ حَيٍّ ؛ وَلْنَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ نُوْتِي ! فَاِمْتَاذْ أَهْلُ الْقُرَى وَالْبُؤَادَى ، وَامْتَاذْ الْقِبَائِلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَأَهْلِ الْحَاضِرَةِ ؛ وَوَقِفْ بَنُو كُلِّ أَبِي عَلَى رَأْسِهِمْ ؛ فَقَاتَلُوا جَمِيعًا ، وَقَالَ أَهْلُ الْبُؤَادَى يَوْمَئِذٍ : الْآنَ يَسْتَحِرُّ^(٢) الْقَتْلُ فِي الْأَجْدَعِ^(٣) .

فَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي أَهْلِ الْقُرَى ؛ وَثَبَتَ مُسَيْلِمَةُ ؛ فَعَرَفَ خَالِدٌ أَنَّهَا لَا تَرُكْدُ إِلَّا بِقَتْلِ مُسَيْلِمَةَ ؛ فَبَرَزَ حَتَّى إِذَا كَانَ أَمَامَ الصَّفِّ دَعَا إِلَى الْبِرَازِ وَانْتَمَى ؛ وَقَالَ : أَنَا ابْنُ الْوَلِيدِ ؛ وَنَادَى بِشَعَارِهِمْ يَوْمَئِذٍ : يَا مُحَمَّدَاهُ ! فَجَعَلَ لَا يَبْرُزُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا قَتَلَهُ ، وَدَارَتْ رَحَى الْمُسْلِمِينَ وَطَحَنَتْ .

وَأَقْبَلَ الْحَمِيطُونَ بِمُسَيْلِمَةَ يُخْرِجُونَ إِلَى لِقَاءِ خَالِدٍ ، فِيلْقَاهُمُ الْمَوْتَ مِنْ سَيْفِهِ قَبْلَ أَنْ يَلْفُوهُ ؛ وَكَثُرُ فِيهِمُ الْقَتْلُ ، وَشَعَرَ مُسَيْلِمَةُ بِالْخِزْيِ يَرْكَبُهُ ؛ فَسَاوَرَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يُخْرِجَ

(١) امتاذا القوم : تميز بعضهم من بعض .

(٢) استحضر القتل ، إذا اشتد . (٣) الأجْدَعُ : الضعيف أيضا .

كما خرجوا ؛ لكنه أُتيقن أنه مقتول إن خرج ، فتردد واضطرب ؛ وإنه لَفِي اضطرابه وتردده إذ شدَّ خالدٌ برجاله عليه وعلى مَنْ حوله ، يُعْمَلُونَ فيهم السلاح .

ورأى محمَّد بن الطُّغَيْلِ فرارَ القوم ، ورأى المسلمون يتعقبونهم فصاح بهم : يا بني حنيفة ! الحديقة ! وكانت على مقرَّبةٍ منهم ، وكانت لسيلمة ، وتدعى حديقة الرحمن ، وكانت فسيحة الأرجاء ، منيعة الجدران ، كأنها الحصن ، وقد فرت وإليها وتحصَّنوا بها من هزيمتهم ، بعد أن خرَّ الألوفُ منهم صرَّعى ، ووقف المحكم برجاله يَحْمِي ظهورهم أثناء فرارهم ، وإنه لكذلك يحاول صدَّ المسلمين ، ويَحْرِضُ رجاله على دَفْنِهِمْ ، ويقاتلُ وإياهم أشدَّ قتالٍ ؛ إذ رماه عبدُ الرحمن بن أبي بكر بسهم وقع في نَحْرِهِ فقتله .

وأحاط المسلمون بالحديقة ، ليجدوا فيها ثغرة ، فصرخ البراء بن مالك ، وقال : يا معشرَ المسلمين ؛ احمِلُونِي على الجدار حتى تطرحوني عليه ، فعملوا ، حتى إذا وضعوه على الجدار نظر وأرعد ، فنادى : أنزِلُونِي ؛ ثم قال : احمِلُونِي ؛ ففعل ذلك مراراً ؛ ثم قال : احمِلُونِي ؛ فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم ؛ فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فدخلوا منه زُمَرًا تَلَمَّعُ في أيديهم السيوف ، وَيُطِلُّ الموتُ من حَدَقِ عيونهم ، وأغلق البابَ عليهم ، ثم رمى بالفتاح من وراء الجدار ؛ فأقتلوا قتلاً شديداً ، وأبيدَ مَنْ في الحديقة منهم .

وذهب فريقٌ إلى مسيلمة يقولون : أين ما كُفِتَ تَعَدِّنا ؟ قال : قاتِلُوا عن أحسابكم ، ولم يلبث الصارخ أن صرخ : إنَّ مسيلمة قد قُتِلَ ؛ إنَّ العبد الأسود قتلَ مُسَيْلِمَةَ^(١) !

(١) جاء في ابن كثير أن المسلمين حين دخلوا الحديقة من حيطانها خلصوا إلى مسيلمة ، وإذا هو واقف في ثلثة جدار ، كأنه جلُّ أورك ، وهو لا يعقل من التبط ، فتقدم إليه وحشي بن حرب ، مولى جبير بن مطعم فأصابه ، وسارع أبو دجانة ، فضربه بالسيف فسقط ، فنادت امرأة من القصر وأُمير الوضاعة ، قتله العبد الأسود !

وبموتِ مُسَيْلَمَةَ انتهتِ المعركة ؛ وخرج خالد بِمُجَاعَةَ يَرْسُفُ في الحديد ، لِيُرِيَهُ
مُسَيْلَمَةَ وَأَعْلَامَ جَنْدِهِ . فَأَتَى عَلَى الرَّجَالِ فَقَالَ : هَذَا الرَّجَالُ ! وَجَمْعُ يَكْشِفُ لَهُ
الْقَتْلَى حَتَّى مَرَّ بِمُحَكِّمِ بْنِ الطَّفِيلِ - وَكَانَ رَجُلًا جَسِيًّا وَسِيًّا - فَلَمَّا رَأَاهُ خَالِدُ ، قَالَ :
هَذَا صَاحِبُكُمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَكْرَمُ ، هَذَا مُحَكِّمُ الْيَمَامَةِ . ثُمَّ مَضَى
خَالِدُ يَكْشِفُ لَهُ الْقَتْلَى حَتَّى دَخَلَ الْحَدِيقَةَ ، فَقَلَبَ لَهُ الْقَتْلَى ؛ فَإِذَا رُوَيْجِيلُ أَصِيفِرُ
أُخَيْنَسِ (١) ، فَقَالَ مُجَاعَةُ : هَذَا صَاحِبُكُمْ قَدْ فَرَّغْتُمْ مِنْهُ : فَقَالَ خَالِدُ لِمُجَاعَةَ :
هَذَا صَاحِبُكُمْ الَّذِي فَعَلَ بِكُمْ مَا فَعَلَ ! قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا خَالِدُ .

وَلَمَّا فَرَغَ خَالِدُ مِنْ مُسَيْلَمَةَ وَالْجَنْدِ ، قَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي
بَكْرٍ : ارْتَحِلْ بِنَا وَبِالنَّاسِ ، فَأَنْزَلَ عَلَى الْحَصُونِ ، فَقَالَ : دَعَانِي أَبْتُ الْخِيُولَ فَأَلْقُطْ
مَنْ لَيْسَ فِي الْحَصُونِ ، ثُمَّ أَرَى رَأْيِي . فَبُتَّ الْخِيُولَ ، فَخَوَّاهُ مَا وَجَدُوا مِنْ مَالٍ
وَنِسَاءٍ وَصَبِيَّانِ ، فَضَمُّوهُمَا هُنَا كُلَّهُ إِلَى الْمَعْسَكِ ، وَنَادَى بِالرَّحِيلِ لِيَنْزَلَ عَلَى
الْحَصُونِ .

فَقَالَ لَهُ مُجَاعَةُ : إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا جَاءَكَ إِلَّا سَرْعَانُ (٢) النَّاسِ ، وَإِنَّ الْحَصُونِ
لَمَلُوءَةٌ رِجَالًا ، فَهَلُمَّ إِلَى الصَّلْحِ عَلَى مَا وَرَأَى . فَصَالَحَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ دُونَ النَّفْسِ ،
ثُمَّ قَالَ : أَنْطَلِقْ إِلَيْهِمْ فَأُشَاوِرْهُمْ ، وَنَنْظُرْ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، ثُمَّ أَرْجِعْ إِلَيْكَ .

فَدَخَلَ مُجَاعَةُ الْحَصُونِ ، وَلَيْسَ فِيهَا إِلَّا النِّسَاءُ وَالصَّبِيَّانِ ، وَمَشِيخَةٌ فَانِيَةٌ ، وَرِجَالٌ
ضَعْفَى . فَظَاهَرَ الْحَدِيدَ عَلَى النِّسَاءِ ، وَأَمْرَهُنَّ أَنْ يَنْشُرْنَ شَعُورَهُنَّ ، وَأَنْ يُشْرِفْنَ
عَلَى رِءُوسِ الْحَصُونِ .

(١) الْخُنْسُ تَأْخُرُ الْأَنْفُ عَنِ الْوَجْهِ مَعَ ارْتِفَاعِ قَلِيلٍ فِي الْأَرَبَةِ ، وَهُوَ أَخْنَسُ ، وَمَصْنَعُهُ أُخَيْنَسُ .

(٢) سَرْعَانُ النَّاسِ ، بِسُكُونِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا : أَوَائِلُهُمْ .

ثم رجع فأتى خالدًا ؛ فقال : قد أبوا أن يُجيزُوا ما صنعت ، وقد أشرف لك بمضهم نقضاً علىّ ، وهم مِنِّي بَرَاء .

فنظر خالدٌ إلى رءوس الحصون وقد اسودّت ، وقد تهكت المسلمين الحربُ ، وأحبّوا أن يَرَجِعُوا بالظفر والنصر ، وراؤا أنه قد قُتِل من المهاجرين والأنصار خلقٌ كثير .

فراى خالدٌ من الخير أن يصالحَ مُجَاعَةَ ، فقال له : هلم لأصالحك على الصّفراء والبَيْضَاء والحلقة ونصف السّبي . فقال مُجَاعَةُ : الآن آتِ قومي فأعرض عليهم ما قد صنعت . قال خالد : فانطلق إليهم ، فذهب وعاد فقال : أبوا ما صالحتُك ، ولكن إن شئتَ صَنَعْتُ شيئاً . قال : ما هو ؟ قال : تأخذُ مِنِّي ربع السّبي وتدع رُبْعاً ، قال خالد : قد فعلتُ ؛ قال مُجَاعَةُ : قد صالحتُك .

فلما فرغا فُتِحَت الحصون ؛ فإذا فيها النّساء والصبيان ومشيخةٌ فانيةٌ ، ورجال ضِعَافٌ ، فقال خالد لمُجَاعَةَ : وَيَحْك ! حَدِّثْنِي ، قال : قومي ؛ ولم أَسْتَطِعْ إلّا ما صَنَعْتُ . فأجاز خالد الصّالح .

وحشِرَ بنو حنيفة للبيّنة والبراءة مما كانوا عليه ، ورجى بهم إلى خالد ، فبايعُوا وأعلنوا رجوعهم إلى الإسلام ، وبراءتهم من الرّدة .

ثم بعث خالد وفداً من بني حنيفة إلى أبي بكر ، فقدموا عليه ، فقال لهم أبو بكر : وَيَحْكُكُمْ ! ما هذا الذي كان منكم ؟ قالوا : يا خليفة رسول الله ، قد كان الذي بلغك مما أصابنا ، وقد كان امراً لم يبارك الله له ولا لعشيرته فيه .

٢٠ - يوم جُؤَانِي *

كان يقيم في البَحْرَيْنِ (١) قبائلُ مِنْ رَبِيعَةٍ مِنْ بَكْرٍ وَتَغِيبَ ، وكانوا قد وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْمُنْذِرُ بْنُ سَاوَى (٢) .

ثم حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم والمنذر بن ساوى اشتكيا في شهر واحد ، ومات الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ثم مات المنذر بعده بقليل ؛ فارتد أهل البحرين جميعاً عن الإسلام كما ارتدَّ قَيرُهُمْ مِنْ سَائِرِ أُنْحَاءِ شِبْهِ الْجَزِيرَةِ ، فأما بكر فإنها ثَبَتَتْ على رِدَّتِهَا ، وأما عبدُ قيس فإنهم رَزِقُوا الجارود بن المَعْلَى ، فثَنَاهُمْ عَنْ رِدَّتِهِمْ .

وكان الجارود قَدِيمٌ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُرْتَاداً ، فقال له : أَسْبِغْ يَاجَارُودُ ؛ فقال : إِنَّ لِي دِيناً ، فقال له الرسول : إِنْ دِينُكَ يَا جَارُودُ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَلَيْسَ بِدِينٍ . فقال له الجارودُ : فَإِنْ أَنَا أَسْلَمْتُ ، فَمَا كَانَ مِنْ تَبِعَةِ الْإِسْلَامِ فَعَالِيكَ ؟ قال : نَعَمْ ، فَأَسْلَمْ ، ومَكَثَ بِالْمَدِينَةِ حَتَّى فُقِّعَ ، ثم عاد إلى قومه من عَبْدِ قَيْسَ ، فدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا كُلَّهُمْ ، ثم لم يلبثْ أَنْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَالَتْ عَبْدُ قَيْسَ : لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمَا مَاتَ ؛ وَارْتَدَّ .

* للعلاء بن الحضرمي على ربيعة ، سنة ١١ . وجؤاتي : حصن عبد القيس .

الطبري ٣/ ٣٥٤ . ابن الأثير ٢/ ١٧٨ . فتوح البلدان ٨٩ .

(١) بلاد البحرين : شقة ضيقة من الأرض على خليج فارس ، وتصل باليمامة في جزئها الأعلى .

(٢) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجه العلاء الحضرمي إلى البحرين ليدعو أهلها إلى

الإسلام أو الجزية ، وكتب معه إلى المنذر بن ساوى وإلى سيبخت ، مرزبان هجر ، يدعوها إلى

الإسلام أو الجزية ، فأسلما وأسلم معهما جميع العرب هناك وبعض العجم ، وأما أهل الأرض من المجوس

واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء ، وكتبوا بینه وبينهم كتابا .

فبعث إليهم الجارود، ثم قام فخطبهم ؟ فقال: يا معشر عبد القيس، إني سائلكم عن أمر، فأخبروني به إن علمتموه ولا تحجبوني إن لم تعلموا. قالوا: سل عما بدالك. قال: تعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى؟ قالوا: نعم، قال: تعلمونه أو ترونه؟ قالوا: لا، بل نعلمه، قال: فما فعلوا؟ قالوا: ماتوا، قال: فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. قالوا: ونحن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنت سيدنا وأفضلنا. وثبتوا على إسلامهم.

وأما بقية قبائل ربيعة فإنهم ثبتوا على ردتهم، واجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك إلى المنذر بن الثمان بن المنذر، الملقب بالغرور. عند ذلك خرج الحطم^(١) بن ضبيعة، فيمن أتبعه من بكر بن وائل على الردة، ومن تأشب^(٢) إليه من غير المرتدين؛ فمن لم يزل كافراً حتى نزل القطيف وهجر، ثم حاصروا معه من المسلمين في جوائى، واشتد عليهم الحصار، حتى كاد يهلكهم الجوع، وفي ذلك قول شاعرهم:

ألا أبلغ أبا بكرٍ رسولاً وفتيان المدينة أجمعينا
فهل لكم إلى قومٍ كرامٍ قعود في جوائى محصرينا
كان دماءهم في كل فجٍ شعاع الشمس ينشئ الناظرينا
توكلنا على الرحمن إننا وجدنا الصبر للمتوكلينا

(١) قال البلاذري: إنما سمي الحطم لقوله:

* قَدْ كَفَى اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمٍ *

(٢) تأشب: اجتمع.

وكان خالد بن الوليد قد قَضَى على مُسِيمة باليامة وأتباعه حين عقد أبو بكر للعلاء ابن الحضرمي اللواء ، وأرسله لمحاربة المرتدين من أهل البَحْرَيْن . فلَمَّا كان بِحِيَالِ اليامة أسرع مَنْ عاد إلى الإسلام من بني حَنِيفَةَ يَنْضَمُّونَ إلى العلاء حين مرَّ باليامة ، فلحق به ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالِ الحَنْفِيّ في المسلمين من بني حَنِيفَةَ ، ثم قيس بن عاصم المِنْقَرِيّ ثم انضمَّ إليه عَمْرُو بْنُ حَنْظَلَةَ وسعد بن تميم والرباب وغيرهم .

قال منجباب بن راشد : فسلكَ بنا السلاء الدَّهْنَاءُ ، حتى إذا كُنَّا في بُحْبُوحَتِهَا ، وأراد الله عزَّ وجلَّ أَنْ يُرِيَنَا آيَاتِهِ نَزَلَ ، وأمرَ الناسَ بالثُّرُولَ ، فنَفَرَتِ الإِبِلُ في جَوْفِ اللَّيْلِ ، فابقى عندنا بَعِيرٌ وَلَا زَادَ ، فاعلمتُ جَمْعًا هَجَمَ عليهم من الغنمِ مِثْلَ ما هَجَمَ علينا ، وَأَوْصَى بِمَعْضَا إِلَى بَعْضٍ ، ونادى منادى العلاء : اجتمعوا ، فاجتمعنا ؛ فقال : ما هذا الذي ظَهَرَ فيكم وغَلَبَ عليكم ؟ فقال الناس : وكيف نُنَامُ ونحن إنْ بُلَغْنَا غَدًا لم تَحْمِ شَمْسُهُ حتى نَصِيرَ حَدِيثًا ! فقال : أيها الناس ، لا تُرَاعُوا ! أَلَسْتُمْ مسلمين ! أَلَسْتُمْ مجاهدين في سبيلِ الله ! أَلَسْتُمْ أنصارَ الله ! قالوا : بلى ! قال : فَأَبْشِرُوا ، فوالله لا يَخْذُلُ اللهُ مَنْ كَانَ في مِثْلِ حَالِكُمْ .

ونادى المنادى بصلاة الصبح حين طلع الفجر ، فصَلَّى بنا ، ومنا التيمم ، ومنا من لم يَزَلْ على طُهُورِهِ . فلما قَضَى صَلَاتَهُ جَثَا لِرُكْبَتَيْهِ ، وجثا الناسُ . فنَصَبَ (١) في الدُّعَاءَ ؛ وَنَصَبُوا مَعَهُ ، فلمعَ لهم سَرَابُ الشَّمْسِ ، فالتفت إلى الصَّفِّ فقال : رائدُ ينظر ؛ ما هذا ، فَعَمِلَ ثم رجع ، فقال : سَرَابٌ ، فأقبل على الدُّعَاءِ ، ثم لمعَ لهم آخر وأخر إلى أن وَجَدُوا الماءَ ، فقام الناس .

قال منجباب : فَشَيْئًا إِلَيْهِ حتى نزلنا عليه ، فشرِبْنَا واغتسلنا ، وما تَمَّالَى النهارُ

(١) نصب : جدد .

حتى أقبلت الإبل تَكَرُّدُ^(١) من كل وجه ، فأناخت إلينا ، فقام كل رجل إلى ظهره فأخذه ، ثم أرويناها وأسقينها العَلَل بعد النَهْل^(٢) ، وتروينا ثم تروخنا .

وسار العلاء بقومه حتى نزلوا بهجر ، وأرسل إلى الجارود يأمره أن ينزل بعبد قيس على الحُطَم مما يليه ، وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر . واجتمع المشركون كلهم إلى الحُطَم ، وخندق المسلمون على أنفسهم وكذلك المشركون ؛ فكانوا يترآخون القتال ، ويرجعون إلى خندقهم ، وظلوا كذلك شهرا .

وبينا الناس ليلة إذ سمع المسلمون في عسكر المشركين ضوضاء شديدة ، كأنها هزيمة أو قتال ، فقال العلاء : مَنْ يأتينا بخبر القوم ؟ فقال عبد الله بن حذاف : أنا آتيكم بخبر القوم ، ثم ذهب وعاد ، فأخبرهم أَنَّ القوم سُكاري ، لا يملك أحدٌهم دفعا عن نفسه ، فخرج المسلمون مِنْ خنادقهم حتى افتتحوا عليهم عسكرهم ، ووضعوا السيوف فيهم حيث شاءوا ، وفر المرتدون هربا ، فإذا هم بين متردٍ في الخندق ودَهِشٍ مقتول أو مأسور ، أو ناجٍ لا يعرف لنفسه مستقرا ؛ واستولى المسلمون على ما في العسكر ، لم يفلت رجلٌ إلا بما عليه .

وأما الحُطَم فإنه قد طار فؤاده ، وقام إلى قريسه - والمسلمون خلاهم - ليركبه ، فلما وضع رجله في الركاب انقطع به ، فرب به عفيف بن المنذر فسممه يستغيث ويقول : ألا رجلٌ من بني قيس بن ثعلبة يَمْلِكُنِي ! فمرف صوته ، فقال له : نعم ، أعطني رجلك أعفك ، فأعطاه رجله فأطنها^(٣) من الفخذ وتركه . فقال : أجهز على . فقال : إني أحب ألا تموت حتى أَمِصَّكَ^(٤) . وكان مع عفيف عدة من ولد أبيه

(١) الكرد : الدفع والطرده .

(٢) النهل : أول الشرب ، والعلل : الشرب بعد الشرب .

(٣) أطنها : قطعها . (٤) أَمِصَّكَ : أؤمك .

قُتِلُوا لِيَلْتَمِذَ - وجعل الحُطَمُ لا يَمُرُّ به في الليل أحدٌ من المسلمين إِلَّا قَالَ : هل لك في الحُطَمِ أَنْ تَقْتُلَهُ ! حتى مرَّ به قَيْسُ بن عاصم المِنْقَرِيُّ ، فقال له ذلك ، فمال عليه فقتله ، فلما رأى فُخِذَهُ نَادَرَهُ (١) قَالَ : وَاسَوْءَ تَأَهُ ! لو علمت الذي به لم أحرَّكه .

وأصبح العلاء فقسَّم الأَنْفَالَ ؛ ونفَّل رجالا من أهل البلادِ ثياباً ، وأعطى ثُمَامَةَ بن أَثَالِ الحَنْفِيَّ خَمِيصَةً (٢) ذات أعلام كانت للحُطَمِ يُبَاهِي بها .

وفرَّ الذين نَجَوْا من الموتِ أو الأسْرِ ، وركبوا الشَّرَاعَ إلى دَارَيْنِ ، وهى جزيرةٌ من جُزُرِ الخَلِيجِ الفَارِسِيِّ تَوَاجِهَ البحرَيْنِ ، كان بها أديارٌ خمسةٌ لخمسِ سَعَبٍ من النصارى ، فتركهم العلاء بها حتى أَيقَنَ أَنَّ من بَقِيَ بالبَحْرَيْنِ من القبائل قد رجعوا إلى دين الله ، وكان جيشه قد زاد عَدَدُهُ بمن انضمَّ إليه من أهل البلاد ؛ عند ذلك أمر النَّاسَ بالذهاب إليها حتى لا يبقَ لمرْتَدِّ في الأرض مَلْجَأٌ .

فركبوا السُّفُنَ ، والتَّقَوْا بأعدائهم فقتلواهم ، وضرب الإسلام رِوَاقَهُ في تلك الأنحاء .

وكتب العلاء إلى أَبِي بَكْرٍ رسالةً بهزيمة القوم ، وَقَتَلَ الحُطَمِ يقول فيها :
أما بعد ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ سَكَبَ عَدُوَّنَا عَقُولَهُمْ ، وَأَذْهَبَ رِيحَهُمْ ؛ بِشَرَابٍ أَصَابَ مِنْ النَّهَارِ ، فَاقْتَحَمْنَا عَلَيْهِمْ خَنْدَقَهُمْ فوجدناهم سُكَارَى ، فقتلناهم إِلَّا الشَّرِيدَ ،
وقد قتل الله الحُطَمِ .

فكتب إليه أَبُو بَكْرٍ : أما بعد ، فَإِنَّ بِلْعَانَكَ عَنْ بَنِي شَيْبَانَ شَيْءٌ ، فَأَبْعَثْ إِلَيْهِمْ جُنْدًا ، فَأَوْطِئْهُمْ وَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ .

فلم يجتمعوا بعد .

(١) نادرة : مقطوعة . (٢) الخيصة : كساء أسود مربع له علان .

٢١ — يوم صنعاء *

كان بَازَانُ عاملاً للفرسِ على اليمن ، فلما أسلم وأسلمت اليمنُ أقرَّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على ما كان في يده حتى مات ؛ وبعد وفاته جعل رسولُ الله ابنه شَهْرًا والياً على صنعاء ، وولّى على بَقِيَّةِ اليمنِ عُمَلاً آخرين ؛ جعل مُمَازِ بنَ جَبَلٍ مُعَلِّماً ينتقلُ في كلِّ ولايةٍ من هذه الولاياتِ .

وحدث قبل وفاة رسول الله أن قام رجل من عَنَسٍ ^(١) ، اسمه الأسود العنسي ، وكان كاهناً ، فتنبأ ، وتابعه قومٌ من أعراب اليمن ؛ فاشتدَّ بهم ساعده ، واقتحم بهم بلادَ نَجْرَانٍ ، فلم تلبث أن دانت له ، ودخل في أمره عَوَامٌ مذحج ^(٢) ، وكثُر سَوَادُهُ ، وأمر أمره ^(٣) .

ثم قصد صنعاء ، فنازل عاملها شهراً وقتله ، وهزم الأبناء ^(٤) خمس وعشرين ليلة من مَخْرَجِهِ ، ثم تزوج بامرأة شهز بن بَازَانٍ ، وجعل أمره يستطير استطارة الحريق ، وصار لا يميلُ إلى قوم إلا دخلوا في أمره ، أو صانعوه ، تَقِيَّةً ^(٥) أو بقاءً على أنفسهم .

فكتب عُمَالُ رسولِ الله إليه بشأن الأسود وما يصنع ، فأرسل عليه السلام كتاباً إلى مَنْ يصنع من الأبناء ، يأمرهم فيه بالقيام على دينهم ، والنهوض إلى

* للمهاجر ابن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل ، على قيس بن عبد يغوث ، سنة ١١ . وصنعاء : حاصنة اليمن . الطبري ٢٦٢/٣ ، ابن الأثير ١٨٣٣ .

(١) عنس : قبيلة في قحطان . (٢) مذحج : قبيلة في كهلان . (٣) أمر أمره : اشتد .

(٤) الأبناء : قوم من العجم سكنوا اليمن . (٥) تقيّة : خوفاً .

الحرب ، والعمل في أمرِ الأسود ، إمَّا غيلةً وإمَّا مُصادمةً ، وأن يستمينُوا بكلِّ مَنْ رَأَوْا عنده نَجْدَةٌ وديناً .

عمل القومُ بأمرِ الرسولِ ، ولكنهم رأوا الأمرَ مُستصحباً عليهم ؛ لأنَّ الرجلَ قوى المِرَاسِ .

وبينما هم على هذه الحال إذ عَلِمُوا بتغيُّرِ الأسودِ على قَيْسِ بنِ عبدِ يغوثِ المرَاديِّ رئيسِ جنده ، وعرفوا أنه قد خَبِثَتْ نِيَّتُهُ فيه ، وأُضْمِرَ له الشرُّ ، وأعلمه أن الوَحْيَ أَنامَ وقال له : إنَّ المَلِكَ يقول : عَمَدَتْ إلى قَيْسٍ فَأَكْرَمْتَهُ ، حتَّى إذا دخل منك كلٌّ مَدْخُلٍ ، وصار في العزِّ مِثْلَكَ ، مالَ مَيْلَ عِدْوِكَ ، وحَاوَلَ مُسَلِّكَ ، وأُضْمِرَ الغَدْرَ لك ؛ إنه يقول : ياأسود ، ياأسود ، ياسوأة ! ياسوأة ! اقْطُفْ قُنَّتَهُ ، وَخُذْ من قَيْسٍ أَعْلَاهُ ، وإِلَّا سَلَبِكَ أَوْ قَطَفَ قُنَّتِكَ .

فقال قيس - وأقسم به : كذب ، لَأَنْتَ أَعْظَمُ في نَفْسِي ، وأَجَلُّ عِنْدِي من أَنْ أُحَدِّثَ بِكَ نَفْسِي ، فقال الأسود : أَتَكْذِبُ المَلِكُ ! قد صدق المَلِكُ ، وعرفتُ الآنَ أَنَّكَ تَائِبٌ .

انتهز الأبناء هذه الفرصة ، ودَعَوْا قَيْساً إلى مايرُونَ من الفَتْكِ به ، فَلَبَّى ، ثم أَفْضَوْا إلى آزادِ امرأةِ الأسود - وقد كان تزوّجها بعد شهرٍ بنِ باذان - بأمرهم ، وقال : من لَقِيَهَا منهم : يابِئَةَ العَمِّ ؛ قد عرفتِ بلاءَ قومكِ عند قَتْلِ زوجكِ ، فهل عندكِ من مُمَالاةٍ على الأسود ، وإِخْرَاجِهِ أو قَتْلِهِ ؟ قالت : نعم ، والله ماخلق اللهُ شخصاً أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْهُ ، مايقومُ اللهُ على حقِّ ، ولا ينتهي عن حُرْمَةٍ . فإذا عزمتم فَادْنُونِي ^(١) .

(١) آذَنُونِي : أَعْلَمُونِي .

ثم جاء كتابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأبناء ، ووصل كتابه إلى أهل نَجْران ، فأنحازوا إلى ناحية ، يريدون قتالَ الأسود ، وكاتبوا مَنْ بِصَنْعَاءَ من الأبناء ليعينوا عليه .

غير أن المؤتمرين بقتله من الأبناء عاجلوه فقتلوه في قصره ومالأتهم زوجته ، وما طلع الفجرُ حتى أعلنوا أمرهم ، وفرَّ أصحابه ، وجملوا يترددون بين صنعاء ونَجْران ، وذهب الخبرُ إلى المدينة وقد توفَّى رسولُ الله .

وبعث الأسود ظنَّ المسلمون في صنعاء وما وليها أن جَوَّ البلاد قد ضفا ، ولكن حين جاءهم خبرُ وفاة الرسول عادوا إلى أشدِّ مما كانوا عليه من الردة ، فبعث أبو بكر إلى مَنْ بَقِيَ على إسلامه منهم يأمرهم بالثبات على أمرهم حتى توافيهم النجَدَات .

ثم حدث أن قيسَ بن عبيد يغوث رئيسَ جُنْدِ الأسود والعامل على قتله ، بادر إلى الردة . وكتب إلى المهزمين من جُنْدِ الأسود ، فاجتمعوا إليه ، وأراد أن يقتل رؤساء الأبناء ، فصنع وليمة دعاهم إليها ، فلم يظفرُ بأحدٍ منهم سوى دَاذَوَيْه ، وامتنع فيروز بقبيلة خولان .

ثم استتبَّ الأمر لقيسِ بصَنْعَاءَ ، وغرَّب عِيالات الأبناء ، وانضمَّ إليه عوامُ القبائل من حمير ، ودان له الأمر ، واطمأنَّ بصَنْعَاءَ ؛ كما اطمأنَّ الأسود من قبل

وعرف فيروز ما أصاب بني وطنه ؛ فاستنهض القبائل التي بقيت على إسلامها لينصروه ، فأجابه بنو عُقيل بن ربيعة ، كما أجابته عكَّ ؛ وساروا يستنقِدُون عِيال الأبناء ، وخرج فيروز على رأسهم ، فنازل قيسًا دُونَ صنعاء ، وأجلاه عنها ،

وخرج هارباً في جُنْدِهِ إلى حيثُ انتهوا إلى المكان الذي كانوا فيه قبل مَقْتَلِ
الأسود .

وفي أثناء هذا القتال وافتى جيشُ المسلمين يقوده المهاجرُ بنُ أبي أمية ، وجاء
على أثرِهِ عِكْرَمَةُ بنُ أبي جهل بجنوده ، بعد أن انتهى من عُمان ومَهْرَةَ ، وبتعاونِ
هذه الجيوش هزم الله المرتدَّين ، ومنح المسلمين أَفْصِيَّتَهُمْ ، وأَسِرَ قَيْسُ بنُ
عبدِ يَغُوث وعَمْرُو بنُ معدٍ كَرَب ، وكان قد ارتدَّ وانضمَّ إلى قيس .

ولما جاء عمرو وقيسُ أسيرين إلى أبي بكر ، أنَّبَ قَيْسًا على عمله وحقن دمه ؛
ووبَّخَ عَمْرًا على ما كان منه ، وقال له : أَمَا تَسْتَحْيِ أَنَّكَ كل يوم مهزوم أو مأسور ؟
لو نصرتَ هذا الذينَ لَرَفَعَكَ اللهُ ! فقال : لا جَرَمَ ! لَأَقْبِلَنَّ ، ولا أعودُ .
فأُطْلَقَهُمَا ؛ وَرَجَعَا إلى قومهما مؤمنين .

٢٢ - يوم ذات السلاسل*

لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة كتب إليه أبو بكر يأمره أن يتوجه إلى العراق بعد الفتح ، حتى يلقى عياضاً . وكتب إلى عياض^(١) بن غنم - وهو بين الفُجاء^(٢) والحجاز : أن يسره حتى المصيخ^(٣) ، فابداً بهما ، ثم ادخل العراق من أعلاها حتى تلقى خالدًا ، وأذنا لمن شاء بالرجوع ، ولا تستفتحاً بمسكاريه .

ولما قدم الكتاب على خالد وعياض استمداً أبا بكر ؛ فامد خالدًا بالقمقاع بن عمرو التميمي^(٤) ؛ ف قيل له : أتمد رجلاً قد انقض عنه جنوده برجل ! فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وآمد عياضاً بعبد بن عوف الحنظيري . وكتب إليهما : أن استنفرنا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يفرزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي ، واستنصرًا بالمشقي بن حارثة ؛ فلم يشهد الأيَّام بالعراق مرَّةً .

* لخالد بن الوليد على هرمز . المحرم سنة ١٢ . وسميت ذات السلاسل ، لأن الفرس اقترنوا في السلاسل حتى لا يفرروا . أو لأن ما جمعه خالد من غنائمهم من السلاسل كان وقر بغير . وبعض المؤرخين يسميه يوم كاطمة ؛ نسبة إلى أقرب قرية من المسكان الذي وقع فيه .

الطبري ٢/٤ ، ابن الأثير ٣/١٨٧ ، فتوح البلدان : ٢٤٢ ، ابن خلدون ٣/٧٨ .

(١) عياض بن غنم : قرشي فهرى ؛ هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة ، وشهد بدرًا وأحداً والمخندق وكثيراً من المشاهد . مات بالمدينة سنة ٢٠ .

(٢) النباغ : موضع ، على بعد عشر مراحل من البصرة .

(٣) المصيخ : موضع ، على آخر حدود الشام ؛ مما يلي العراق .

(٤) القمقاع بن عمرو من تميم ، كان أحد فرسان العرب وشعرائهم ، وكانت له محبة ، شهد فتوح الشام وأكثر فتوح العراق . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : ما أعددت للجهاد ؟ قال : طاعة الله ورسوله والجيل .

وكان المثنى^(١) قدم على أبي بكر ؛ فقال : أمرتني على من قبلي من قومي ، أقاتل من يليني من أهل فارس ، وأكفيك ناحيتي ففعل ذلك ، فجمع قومه ، وأخذ يُغير بناحية كسسكر^(٢) مرة ، وفي أسفل الفرات مرة ، إلى أن نزل خالد الفجاج في طريقه إلى حرب الفرس ، فكتب إليه يستقذمه ، وبعث إليه بكتاب أبي بكر ، يأمره فيه بطاعته ، فانقضّ إليه جوادًا حتى لحق به .

ثم قصد - كما أمر أبو بكر - الأبلّة ، وقد جمع ثمانية آلاف من ربيعة ومضر مع ألفين ممن كان معه ، وكانت الأبلّة الثغر الذي تسير التجارة منه إلى الهند والسند ، وهي أعظم ثغور فارس شأنًا ، وأشدّها شوكة ، وكان هُرْمُز أمير هذه المنطقة كلها من قبل فارس ، وهو من أسوأ أمراء الفرس معاملة للعرب ، فكلّ العرب عليه مغيظ مُحَنَق ، حتى ضربوا به المثل في الخبث والكفر ، فكانوا يقولون : أُخِبْتُ من هُرْمُز .

ولما شارف خالد الأبلّة كتب إلى هُرْمُز : أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذلّة ، وأقرّر بالجزية ؛ وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ، فقد جئتكم بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة .

ثم فرّق جنده ثلاث فرق ، ولم يحملهم على طريق واحدة ، فسرّح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر ، وسرّح عدى بن حاتم وعاصم بن عمرو ، ودليلاهما مالك

(١) المثنى بن حارثة : ينتهي نسبه إلى شيبان ، كان إسلامه وقدمه على الرسول سنة تسع وكان شهيدًا شجاعًا ميمون النقيبة حسن الرأي ، أبلى في حروب العراق بلاء لم ينله أحد . مات سنة ١٤ قبل الفادسية .

(٢) كسسكر : كورة واسعة بين الكوفة والبصرة .

ابن عبّاد وسالم بن نصر ؛ أحدهما قبل صاحبه بيوم ، ثم خرج خالد ودليله رافع ؛ وواعدهم جميعاً الحفير^(١) ، ليجتمعوا به ، وليُصادمُوا به عدوهم .

ولما قدم كتابُ خالد إلى هُرْمُزْ كتب بالخبر إلى شيرى بن كسرى ، وإلى أَرْدَشِير بن شيرى ، وجمع جموعه ، ثم تعجّل إلى كاظمة^(٢) في سرعان^(٣) أصحابه ليتلقّى خالدًا . ولَمَّا بَلَغَهُ أَنَّهُمْ تَوَاعَدُوا الحفير ، نزل وتعبّى به ، وجعل على مُجَدَّبَتَيْهِ^(٤) أخويهِ قُبَاذَ وَأَنُوشَجَانَ .

فلما أتى الخبر خالدًا بأن هُرْمُزْ في الحفير ، أمال الناس إلى كاظمة ، وبلغ هُرْمُزْ ذلك فبادره إلى كاظمة ، وتعبّى مع أصحابه ، واقترنوا في السّلاسل والماء في أيديهم ، وقَدِمَ خالدٌ عليهم ، فنزل على غير ماء ؛ فقالوا له في ذلك ؛ فأمر مناديه فنادى : ألا انزلوا وخطّوا أثقالكم ؛ ثم جالِدوهم على الماء ، فلمعزى ليصيرن الماء لِأَصْبَرِ الفريقين ، وأكرم الجندين . فَحُطَّتْ الأثقالُ والخيلُ وقوفٌ ؛ ثم زحف إليهم حتى لاقاهم ؛ فاقتتلوا ؛ وأرسل الله سبحانه فأغدرت ما وراء صفّ المسلمين .

ثم خرج هُرْمُزْ فنادى إلى النّزال ، فشى خالدٌ إليه ، فالتقيا واختلعا ضربتَيْنِ ، واحتضنه خالد ؛ فشدّ أهلُ فارس يريدون قتلَ خالد واستخلاصَ هُرْمُزْ مِنْ يَدِهِ ، ولكنّ القمّاع بن عمرو لم يُعْمِلْهُمْ وحمل عليهم ، وشدّ المسلمون ، فانهزم أهلُ فارس أمامهم ، فطاردهم وركبوا أكتافهم إلى الليل .

وجمع خالد الرّثاثة^(٥) وفيها السّلاسل ، فكانت وِقْر^(٦) إمير ، ألف رطل ، وأُفْلَتَ قُبَاذَ وَأَنُوشَجَانَ .

(١) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

(٢) كاظمة : على سيف البحرين من البصرة ؛ بينها وبين البصرة مرحلتان .

(٣) سرعان أصحابه : مقدمهم .

(٤) المجنبة : مقدمة الجيش .

(٥) الرثاثة : جمع رثة ؛ وهى المتاع . (٦) الوقر ، بالكسر : الحمل الثقيل .

ولما تراجعَ الطلبُ نادى منادى خالد بالرحيل ، وسار بالناس ، واتبعته الأتقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من الفرات - حيث تقع البصرة اليوم - وسبى أولاد المقاتلة ، وأقرّ مَنْ لم ينهض من الفلاحين ، وجعل لهم الذمّة ، وبلغ سَهْمُ الفارس في يوم ذات السلاسل ألف درهم خلا السلاح .

وما بقيَ من الغنائم أرسله خالد إلى أبي بكر . وكان أهلُ فارس يجمعون قَلَانِسَهُمْ على قدر أحسابهم في المشائر ، فَمَنْ تَمَّ شَرَفُهُ فقيمة قلنسوته مائة ألف ؛ وكان هرمز أميرَ الأُبُلَّةِ ممن تَمَّ شَرَفُهُ ، فكانت قيمة قلنسوته مائة ألف ، ولَمَّا أُرْسِلَتْ إلى أبي بكر - نَفَّلَهَا خالداً ، وكانت مُفَصَّصَةً بالجواهر^(١) .

(١) كان مما بعته خالد إلى أبي بكر في المدينة فيل أخذه المسلمون في الواقعة ، ولم يكن أهل المدينة رأوا فيلًا في حياتهم ؛ بل لم تر بلاد العرب كلها فيلًا قبل ذلك ؛ إلا فيل أبرهة حين حاول فتح السكبة ، فلما طاف قائد الفيل به في المدينة عجب أهلها لمنظر الحيوان الضخم ، وتولى بعضهم الريب في أمره . بل لقد جعلت ضحيفات النساء يقلن : أمن خلق الله هذا ! . وخيل إلى بعضهم أنه من صناعة الفرس ، ورأى أبو بكر أنه لا نفع فيه ، فردّه إلى المراق مع قائده .

٢٣ - يوم الدُّنْيَا *

كان هُرْمُزُ كَتَبَ إِلَى أَرْدَشِيرَ بِأَمْرِ خَالِدٍ وَكِتَابَهُ ، وَمَسِيرِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْيَمَامَةِ ،
فَدَعَا إِلَيْهِ قَارِنَ بْنِ قَرِيَّانَسَ ، أَحَدَ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ تَمَّ شَرَفُهُمْ ، وَجَعَلَهُ عَلَى رَأْسِ قُوَّةٍ
سَارَتْ مَدَدًا لِهُرْمُزَ .

فَخَرَجَ قَارِنُ مِنَ الدَّائِنِ ؛ حَتَّى إِذَا انْتَهَى إِلَى الْمَذَارِ بَلَغَتْهُ الْهَزِيمَةُ ، وَقَابَلَهُ
الْمُهْزَمُونَ ؛ فَاسْتَوْقَفَهُمْ ، وَتَحَدَّثَ إِلَيْهِمْ ، وَبَعَثَ السَّكِينَةَ إِلَى نَفْسِهِمْ ، وَضَمَّهُمْ إِلَى
جَيْشِهِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ افْتَرَقْتُمُ الْيَوْمَ لَمْ تَجْتَمِعُوا بَعْدَهَا أَبَدًا ؛ فَاجْتَمَعُوا
عَلَى الْعَوْدِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَهَذَا مَدَدُ الْمَلِكِ ، وَهَذَا قَارِنُ ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يُدِيلُنَا^(١)
وَيُشَفِّفُنَا مِنْ عَدُوِّنَا ؛ وَنُذَرِّكَ بَعْضَ مَا أَصَابُوا مِنَّا . فَفَعَلُوا ، وَاسْتَعْمَلَ قَارِنُ
عَلَى مُجَنَّبَتَيْنِهِ قُبَادَ وَأَنُوشِرَوَانَ .

وَأَرَزَ^(٢) الثَّنْيَى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ وَأَخُوهُ الْمُعَنَّى إِلَى خَالِدٍ بِالْخَبَرِ ، بَعْدَ أَنْ انْتَهَى
مِنْ يَوْمِ السَّلَاسِلِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ الْقَوْمَ قَدْ اجْتَمَعُوا بِالْثَّنْيَى : الْمُغِيثَ وَالْمُفَاتَ .

فَخَرَجَ خَالِدٌ سَائِرًا حَتَّى نَزَلَ الْمَذَارَ عَلَى قَارِنَ فِي جَمْعِهِ ؛ وَاقْتَتَلُوا عَلَى حَنْقٍ
وَحَفِيفَةٍ ، وَخَرَجَ قَارِنُ يُدْعَوُ إِلَى الْبَرَّازِ ؛ فَبَرَزَ لَهُ خَالِدٌ وَقَتْلَهُ ، ثُمَّ قَتَلَ الْأَنُوشَجَانَ
وَقُبَادَ ؛ وَهَزِمَتْ فَارِسُ هَزِيمَةً عَظِيمَةً .

* لخالد بن الوليد على قارن بن قريانس (من الفرس) ، صفر سنة ١٢ ، والثني : نهر في
المدار . والمدار : بلد بينها وبين البصرة أربعة أيام إلى الشمال بالقرب من واسط ، وتسمى أيضا
وقعة المدار .

الطبري ٧/٤ . ابن الأثير ١٨٨/٢ . معجم البلدان ٢٥/٣ ابن خلدون ٧٩/٢ .

(١) يدِيلُنَا : يَنْصُرُنَا . (٢) أَرَزَ : رَجَعَ .

وبعد انتهاء الواقعة ، سلم خالد الأسلاب لمن سلبها ، بالغة ما بلغت ، وقسم
الغنيء ، ونقل من الأخماس أهل البلاء ، وزاد سهم الفارس في يوم الثنى على سهمه
في يوم ذات السلاسل .

وبعث ببعثة الأخماس ، وقد وفد مع سعيد بن النعمان إلى أبي بكر .
ثم أقام خالد بالمدار يسبي عيالات المقاتلة^(١) ومن أعانهم ، وأقر الفلاحين
ومن أجاب إلى الخراج .
وولى العمال على الجباية ، وأقام مكانه يتجسس الأخبار .

(١) كان ممن سبى في هذه الواقعة حبيب أبو الحسن البصرى ، وأبو زياد مولى الخيرة بن شعبة .

٢٤ - يوم الولاية*

لسافرغ خالدٌ من الثُّنَى ، وأتى الخبرُ أُرْدشِيرَ أتجه تفكيرُهُ إلى الاستماعة على العرب بالعرب ، وكان يطمئنُ إلى ولاء قبائل عربية كثيرة ؛ منها جماعات من بكر بن وائل ؛ فدعاهم وجعل عليهم قائداً منهم ووجههم إلى الولاية وبعث الأندرزغر - وكان فارسياً من مولدَى السَّوَاد - وأرسل بهم من جاذوَيْهِ في أثره في جيش عظيم ، وأمره أنْ يَمْبُرَ طريق الأندرزغر ، فالتقت جنودُهما بالولاية ، وعسكروا فيها .

ولما بلغ خالدٌ خبرَ الأندرزغر ونزوله الولاية نادى بالرجيل ، وتقدم إلى من خَلَف من قواده وجنوده ، وأمرهم بالحذر وقلة الفلّة وتركِ الاغترار ، وخرج سائراً في جيشه حتى بلغ الولاية ، والتقت جنودُ المسلمين بجنود الأعاجم وجهاً لوجه . وكان خالد قد أمرَ اثْنَيْنِ من أمراء جنده أنْ ينفصلوا أثناء السير عنه ، وأن يكمنوا وراء العدو ؛ فيأخذوه أثناء القتال على غرة ، لكن هذا الكمين تأخر فلم يظهر حين كانت صفوفُ المقاتلين تترجّح ؛ متقدمة طوراً ومتراجعة طوراً . واشتدّ القتالُ ، وظنَّ الفريقان أنَّ الصبرَ قد نفذ ، وأنَّ المعركة لن تنتهي إلى غاية .

وبينما هم كذلك خرج الكمينُ في وجهين ، فانهمزمت صفوفُ الأعاجم وولّوا

* لخالد بن الوليد على الأندرزغر (الفرس) . صفر سنة ١٢ ، والوجهة : من أرض كسكر في الشمال من المذار .

الطبرى ٨/٤ ، ابن الأثير ١٨٨/٢ ، ابن خلدون ٧٩/٢ ، معجم البلدان ٤٣٣/٨ .

وأخذهم خالد من بين أيديهم ، والكَمِينُ من خلفهم ، فلم يَر رجلٌ منهم مقتلَ صاحبه ؛ ومَضَى الأندرزغر في هزيمته ، فمات عطشاً .

وقام خالد في الناس خطيباً ، يرغبهم في بلادِ المعجم ، ويُرهِدُهم في بلادِ العرب ، وقال : ألا ترون إلى الطعام كرفنخ^(١) التراب ! وبالله لو لم يلزمنا الجهادُ في الله ، والدُّعاء إلى الله عز وجلّ ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأى أن نُقَارِعَ على هذا الرِّيف ، حتى نكونَ أولى به ، ونُوَلِّيَ الجوعَ والإفلالَ مَنْ تولاه ، مِمَّنْ اثَّاقَلَ عَمَّا أُنِّمَ عليه .

ثم سار في الفلاحين بسيرته فلم يقتلهم ، وسبى ذراريَ المقاتلةِ ومنَ أعانهم ، ودعا أهل الأرض إلى الجزاء^(٢) والذمّة ، فتراجعوا .

(١) الرفنخ هنا : الأرض الكثيرة التراب ، يقال : جاء فلان بمال كرفنخ التراب ، أى في كثيره

(٢) الجزاء : جمع جزية ، وهى خراج الأرض مما يؤخذ من الذمى .

٢٥ - يوم الأئس*

كان خالد بن الوليد قد أصاب يوم الولجة من نصارى بكر بن وائل ؛ الذين أعانوا أهل فارس . فغضب لهم نصارى قوميهم ، وكاتبوا الأعاجم ، وكاتبتهم الأعاجم ، فاجتمعوا إلى الأئس ، وعليهم عبد الأسود العجلي ، وسائده جابر بن بجير ، ومالك بن قيس .

وبلغ ذلك أردشير ، فكتب إلى بهمن جاذويه : أن يرسل حتى تقدم الأئس بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب .

فانطلق بهمن إلى أردشير ليستأمره فيما يريد أن يشير به ، وقدم جابان ، وأمره أن يحث السير إلى الأئس ، وقال له : كف فكيف تمسك وجندك من قتال القوم حتى ألحق بك ، إلا أن يُعجلوك .

نزل جابان الأئس ، واجتمعت إليه المسالحي^(١) التي كانت بإزاء العرب ، وانضم إليه النصارى الذين كاتبوا الأعاجم من بكر ، وجعل يدبر أمور القتال .

ولم يكن خالد قد وقف على نباء جابان وجنود فارس ، وإنما بلغه ما كان من تجمع العرب النصارى بالأئس ؛ فنهدهم^(٢) لهم .

* لخالد بن الوليد على بهمن جازويه (الفرس) . صفر ١٢ . وأئس : قرية من قرى الأنبار في منتصف الطريق بين الحرة والأبلة .

الطبرى ٩/٤ ، ابن الأثير ١٨٩/٢ ، ابن خلدون ٧٩/٢ ، معجم البلدان ٣٢٨/١ .

(١) المسالحي : جمع مسلحة ، والمسلحة : القوم ذوو سلاح . وقد تطلق على الثغر .

(٢) نهدهم : نهض .

فلما طلع جَابَانُ بِأَيِّسٍ قَالَتْ الْأَعَاجِمُ لَجَابَانٍ : أُنْعِمَا جِلْهُمُ أَمْ نُغَدِّي الْقَوْمَ ، وَلَا نُزِيهِمُ أَنَا نَحْفِلُ بِهِمْ ، ثُمَّ نَقَاتْلُهُمْ بَعْدَ الْقَرَاخِ ؟ فَقَالَ جَابَانُ : إِنْ تَرَكُوكُمْ فَتَهَاوَنُوا ؛ وَلَكِنْ ظَنَّنِي بِهِمْ أَنَّهُمْ سَيَمْجِلُونَكُمْ وَيُمَاجِلُونَكُمْ عَنِ الطَّعَامِ ؛ فَمَصُوهٌ وَبَسَطُوا الْبُسْطَ ، وَوَضَعُوا الْأَطْعِمَةَ ؛ وَتَوَافَوْا إِلَيْهَا .

فلما انتهى خَالِدٌ إِلَيْهِمْ ، وَقَفَ وَأَمَرَ بِحِطِّ الْأَثْقَالِ ؛ فَلَمَّا وُضِعَتْ تَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ ، وَوَكَّلَ حَوَائِيَّ يَحْمُونَ ظَهْرَهُ ؛ ثُمَّ نَدَرَ ^(١) أَمَامَ الصَّفِّ ، فَنَادَى : أَيْنَ أَبْجَرُ ؟ أَيْنَ عَبْدُ الْأَسْوَدِ ؟ أَيْنَ مَالِكُ بْنُ قَيْسٍ ؟ فَتَكَكَّلُوا ^(٢) عَنْهُ جَمِيعًا إِلَّا مَالِكًا ، فَبَرَزَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : يَا بَنَ الْخَبِيثَةِ ! مَا جَرَّكَ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِهِمْ ، وَلَيْسَ فَيْكَ وَفَاءُ ! ثُمَّ ضَرَبَهُ فَقَتَلَهُ ، وَأَجْهَضَ ^(٣) الْأَعَاجِمَ عَنْ طَعَامِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَأْكُلُوا . فَقَالَ جَابَانُ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ يَا قَوْمُ ! أَمَا وَاللَّهِ مَا دَخَلْتَنِي مِنْ رَيْسٍ وَخَشَّةٍ قَطَّ حَتَّى كَانَ الْيَوْمَ ، فَقَالُوا - حَيْثُ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْأَكْلِ - تَجَلَّدًا : نَدَّعُهُ حَتَّى نَفْرَغَ مِنْهُمْ ؛ ثُمَّ نَعُودُ إِلَيْهِ .

وَجَمَلَ جَابَانُ عَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ عَبْدِ الْأَسْوَدِ وَأَبْجَرَ ، وَخَالِدٌ عَلَى تَعَبِثَتَيْهِ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي قَبْلَهَا ؛ فَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا ، وَالْمُشْرِكُونَ يَزِيدُهُمْ كَذِبًا ^(٤) وَشِدَّةً مَا يَتَوَقَّعُونَ مِنْ قُدُومِ بَهْمَنْ جَاذَوِيَّةٍ ، وَصَبَرُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَصَابَرُوا حَتَّى يَجِيئَهُمُ الْمَدَدُ ؛ وَرَأَى خَالِدٌ صَبْرَهُمْ وَقُوَّةَ تَجَلُّدِهِمْ لِبَاسِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْ بِاعْتِهِمْ عَلَى هَذَا وَذَلِكَ ، وَتَرَجَّحَتْ الْمَوْقِعَةُ حِينًا ؛ فِتَوَجَّهَ خَالِدٌ إِلَى رَبِّهِ يَسْتَنْصِرُهُ وَيَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنْ لَكَ عَلَيَّ إِنْ مَنَحْتَنَا أَكْتَانَهُمْ إِلَّا أَسْتَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدًا قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، حَتَّى أَجْرِيَ نَهْرَهُمْ بِدِمَائِهِمْ !

وَلَمْ يَذَرْ خَالِدٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ لَوْ نَأَمَنَ أَلْوَانُ الْمُدَاوَرَةِ إِلَّا ضَيِّقَ بِهِ الْخِنَاقَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ فَلَمَّا عِيلَ صَبْرُهُمْ وَتَدَاعَتْ قُوَّتُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنَ الْهَزِيمَةِ مَفْرٌ تَحْطَمَتْ صَفُوفُهُمْ ،

(١) ندر من بين القوم : ظهر . (٢) تكل : نكس وجبن .

(٣) أجهضهم عن طعامهم : أعجزهم . (٤) الكاب : الحرس والشدة .

وانقلبوا على أعقابهم ، يسارعون إلى الحرب ، ولا مَأْرَبَ لَهُمْ إِلَّا النَّجَاةُ .
ثمَّ أمر خالدٌ مناديه فنادى في الناس : الأسر ، الأسر ! لا تقتلوا إلا من امتنع .
فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مُسْتَأْسِرِينَ^(١) ، يساقون سوق النعم ، وقد وكل بهم
رجالاً يضربون أعناقهم في النهر ، ففعل بهم ذلك يوماً وليلة ؛ والنهر لا يجري دماً ؛
فقال له بعضُ أصحابه : لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماً وُهم ؛ إن الدماء لا تزيد على
أَنْ تَتَرَقَّرَقَ مِنْذُ نُهِيتَ عَنِ السَّيْلَانِ ، وَنُهِيتِ الْأَرْضَ عَنْ نَشْفِ الدَّمَاءِ ، فَأَرْسِلْ
عليها الماءَ تَبَرَّ يَمِينُكَ - وقد كان صدءُ الماءِ عن النهر فأعاده - فجرى دماً عبيطاً^(٢) ،
فسمي نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم^(٣) .

ولما هُزِمَ القوم وأجُلُوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من طلبهم ، وقف خالد على
الطعام فقال : قد نَفَلْتُكُمْوه فهو لكم ، ففَعَدَّ عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل
من لم يعرف الرقاق يقول : ما هذه الرقاق البيض ؟ وجعل مَنْ عرفها
يُجِيبُهُمْ ويقول لهم مازحا : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم ؛ فيقول :
هُوَ هَذَا !

وبعث خالد بالخبر إلى أبي بكر مع جندل العجلي ، فقدم على أبي بكر بالخبر ،
وبفتح أليس ، وبقدر الفء ، وبعدة السبي ، وبما حصل من الأخماس ، وبأهل البلاء
من الناس ؛ فلما قدم على أبي بكر ورأى صرامته ، وقال له : ما اسمك ؟ قال : جندل ،
قال : وَيَهَا يَا جندل :

نفسُ عَصَائِمٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَوْدَتُهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا^(٤)
وأمر له بجارية من ذلك السبي .

(١) أى يمرضون أنفسهم للأسر . (٢) عبيطاً : طرياً .
(٣) روى الطبري أنه كانت على النهر أرحاء ، طعنت في ثلاثة أيام قوت ثمانية عشر ألفاً من الجند
والماء من تحتها يتدفق أحمر فانيا . (٤) البيت للنايفة الذياني ، ديوانه ١٠٦ .

٢٦ - يوم الحيرة*

لما فرغ خالد من يوم النيس أنى أمغيشيا^(١) ، فوجد أن أهلها قد جَلَوْا عنها ،
وتفرَّقوا في السَّوَادِ^(٢) ، فأمر يَهْدِمُها ، وإزالة كلِّ شيء كان في حِيزِها ، فأصابَ
منها ما لم يُصَبِّ مِنْ غيرِها ، حتى بلغ سَهْمُ الفارس ألفاً وخمسمائة ، سوى النَّفْلِ^(٣)
الذى نُفِّلَهُ أَهْلُ الْبَلَاءِ .

وكان الآزاذبه مَرْزُبَانَ^(٤) الحيرة في ذلك الحين ، فلما علم بأخبار النيس وخراب
أمغيشيا وانتصار خالد بِنْدِها ، وفعلًا لِهَ فِيهِمَا ، أيقن أنه غيرُ متروك ، وقدَّرَ أَنَّ خالداً
سيركبُ إليه النَّهْرَ ، فتهيَّأَ لِحَرْبِهِ ، وقَدَّمَ ابْنَهُ ، وأمره أن يَسُدَّ قناطرَ القُرَّاتِ ليعوقَ
بذلك سَيْرَ السَّفَنِ إليه ؛ ثم خرج في إثرِهِ حتى عسكرَ خارجاً من الحيرة .

ولما اسْتَقْلَ^(٥) خالد مِنْ أمغيشيا ، وَحَمَلَ الرَّجُلُ^(٦) فِي السَّفَنِ ، وسارَ شَمَالاً إلى
ناحيةِ الحيرة جَنَحَتْ^(٧) السَّفَنُ ، وارتطمتْ بِقَاعِ النَّهْرِ ؛ فارتاع المسلمونُ لْجُنُوحِهَا ،
وأخذَ الغَضَبُ مِنْ خالِدٍ مَأْخَذَهُ ، ثم سألَ عنِ عِلَّةِ ذلك ، فقال المَلَّاحُونَ : إنَّ أَهْلَ
فارس فَجَرُّوا الْأَنْهَارَ ، فسلكَ الماءَ غيرَ طَرِيقِهِ ؛ فلن يَأْتِينَا الماءُ إِلَّا بِسَدِّ الْأَنْهَارِ .

* لخالد بن الوليد على أهل الحيرة ، ربيع الأول سنة ١٢ ، والحيرة : موضوع على ثلاثة أميال
من الكوفة ، على موضع يقال له النجف .

الطبرى : ٤ - ١١ ، ابن الأثير : ٢ - ١٨٩ ، ابن خلدون : ٢ - ٨٠ ، فتوح البلدان : ٢٤٥ .

(١) أمغيشيا ، كانت مصرّاً كالحيرة ، وكانت أليس من ثغورها .

(٢) السواد : قرى العراق . (٣) النفل : الغنيمة والهبة . ونفله : أعطاه النفل .

(٤) المَرْزُوبَةُ كمرحلة : رئاسة الفرس ، وهو مرزبانهم . (٥) استقل : رحل .

(٦) الراجل : ضد الفارس ، جمعه الرجل ، كصاحب وصحب .

(٧) جنحت السفينة : انتهت إلى الماء القليل فلزقت بالأرض فلم تمض .

فتمجّل خالد فلقى ابن الأزاذه على قم المتيق ، وفجّاه وجنده وهم آمنون في تلك الساعة ، فاقتتلوا حتى هزمهم ، وقتل ابن الأزاذه ؛ وأعاد الماء يجري في النهر ، فعادت السفن إلى المسير ، وحملت إليه جيشه ، فسار به إلى الخوزنق والنّجف .
وكان الأزاذه يُقيم بمسكره بين الفريين^(١) والقصر الأبيض ، فبلسه موت أردشير ، ثم علم بموت ابنه ، وزحف خالد نحو الخوزنق ؛ فولى هارباً من غير قتال .

ووصل خالد وأصحابه فلم يلقوا عسكرياً ؛ فأقاموا بين الفريين والقصر الأبيض ، وأهل الحيرة مُتَحَصِّنُونَ .

فأدخل الخليل من عسكريه ، وأمر بكل قصر رجلاً من قواده يحاصر أهله ويقايتهم ؛ فكان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض ، وفيه إياس بن قبيصة الطائي ، وكان ضرار بن الخطاب محاصراً قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى ، وكان ضرار بن مقرر محاصراً قصر بني مازن ، وفيه ابن أكال ، وكان المثنى محاصراً قصر ابن بقليلة ، وفيه عمرو بن عبد المسيح ، وعهد إليهم جميعاً أن يبدؤوا بالدّعاء ، فإن أجابوا قبلوا منهم ، وإن أبوا أجّلهم يوماً ، ثم قاتلهم وقتلهم .

فكان أول القواد الذين أنشبوا القتال بعد تأجيلهم يوماً هو ضرار بن الأزور ، وكان على قتال أهل القصر الأبيض ؛ فأصبحوا وهم مشرفون ؛ فدعاهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزاء^(٢) ، أو المنابذة^(٣) . فاخساروا المنابذة ، وتنادوا : عليكم بالحصا ، فقال ضرار : تنحّوا ؛ لا ينالكم الرمي ، حتى ننظر في الذي هتفوا به . فلم يلبث أن امتلأ رأس القصر من رجال معلقى الخالي^(٤) ؛ يرمون المسلمين بالحصا ،

(١) الفريان : بناء ان كانا معروفين بالكوفة .

(٢) الجزاء : جمع جزية . (٣) المنابذة : تحيز كل من الفريقين للحرب .

(٤) الخالي : جمع غلاة .

فقال ضرار : ارشقوهم ؛ فدنوا منهم فرشقوهم بالنبل ، وصبح كل أمير أصحابه بمثل ذلك .

فافتحوا الدُور والدِّيَّرات وأكثروا القتل ، فنادى القسيِّسون والرُّهبان : يا أهل القصور ؛ ما يقتلنا غيركم ! فنادى أهل القصور : يا ممشر العرب ؛ قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفوا عنا حتى تبكفونا خالدا ، فكفوا عنهم وأرسلوهم إلى خالد .

فخلا خالدُ بأهل كل قصرٍ منهم دون الآخرين ، وبدأ بأصحاب عديّ وقال : ويحكُم ! ما أنتم ! أعرب ؟ فما تنفمُون من العرب ! أم عجم ! فما تنفمُون من المدلِّ والإنصاف ! فقال له عديّ : بل عرَبٌ عاربة ؛ وأخرى مُتعرِّبة ، فقال : لو كنتم كما تقولون لم تحادونا^(١) وتكرهوا أمرنا .

فقال له عديّ : يدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسانٌ إلا العربية ، فقال خالد : اختاروا واحدة من ثلاث : أن تدخلوا في ديننا ؛ فلكنم ما لنا وعليكم ما علينا ؛ أو الجزية ، أو المنابذة والمناجزة^(٢) ، فقد أتيتكم بقوم هم على الموت أحرصُ منكم على الحياة . فقال : بل نُعطيك الجزية ، فقال خالد : تبا لكم ! ويحكُم ! إن الكفرَ فلاةٌ مضلَّة^(٣) ، فأحقَّ العرب من سلكها ، فلقيهُ دليان ؛ أحدهما عربيٌّ فتركه واستدلَّ^(٤) الأعجميَّ .

ولم يُغيِّر هذا الكلامُ من إصرارِ القومِ على دينهم ، فصالحوه على مائة ألف درهم وتسمين ألفا ، وتتابع أهل القصور على ذلك ، وأهدوا له الهدايا ، وبعث

(١) حاد : غاضبه وعاداه وخالفه .

(٢) المناجزة : المباراة . (٣) صحراء فلاة : وأرض مضلة — بفتح الصاد وكسرها : يضل

فيها الماشي . (٤) استدل الأعجمي : طلب منه أن يده .

بافتح والهدايا إلى أبي بكر ، فأجاز أبو بكر المعاهدة ، وقبل الهدايا واحتسبها من الجزاء .

وكتب إلى خالد : أن احسب لهم هديّتهم من الجزاء ، إلا أن تكون من الجزاء ، وخذ بقيّة ما عليهم ، فقوّر بها أصحابك .

ثم كتب خالد لأهل الحيرة هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال ، وهم نقباء^(١) أهل الحيرة . ورضى بذلك أهل الحيرة ، وأمروهم به . عاهدتم على مائة ألف وتسعين ألف درهم ، تُقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسيسهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيساً عن الدنيا ، تاركاً لها ؛ وعلى المنّة ، فإن لم يمنهم فلا شيء عليهم حتى يمنهم ، وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة .

وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ائنتى عشرة .

ولما استقر خالد في الحيرة خرج إليه صلّوباً بن نسطونا صاحب قس الناطف^(٢) ، فصالحه على بأنقياً^(٣) وباروسماً^(٤) وضمن له ما عليهما وعلى أرضيهما من شاطئ الفرات على عشرة آلاف ؛ فكتب لهم خالد كتاباً هذا نصّه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلّوباً بن نسطونا وقومه . إني عاهدتكم على الجزية والمنّة ، على عشرة آلاف دينار ، القوي على

(١) نقب القوم : ضمّهم ورئيسهم .

(٢) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة . (٣) باقيا : ناحية من نواحي الكوفة .

(٤) باروسما : من ناحية بغداد .

قدر قُوته ، والمُعَلِّ على قَدَرٍ إِقْلَالِهِ في كُلِّ سَنَةٍ ، وإنَّكَ قد نُبِّتَ^(١) على قَوْمِكَ ، وإنَّ قَوْمَكَ قد رَضُوا بِكَ ، وقد قَبِلْتُ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَرَضِيَتْ وَرَضِيَ قَوْمُكَ ، فَلَكَ الذِّمَّةُ وَالْمَنْعَةُ ؛ فَإِنْ مَنَعْنَا كَمْ فَلَنَا الْجِزْيَةُ ، وَإِلَّا فَلَا حَتَّى نَمْنَعَكُمْ .

ولما رأى دَهَاقِينُ^(٢) البلاد ما تمَّ لخالد من الظَّفَرِ أَتَوْهُ فصالحوه على ما بين الفَلَاحِيحِ^(٣) إلى هَرْمُزِ جَرْدِ^(٤) ، على أَلْفِي أَلْفِي درهم ، وكتب لهم بذلك كتاباً .
ولما تمَّ لخالد فتحُ الحيرةِ صَلَّى صَلَاةَ الْفَتْحِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ، لَا يُسَلِّمُ فِيهَا ، فَلَمَّا أَتَمَّهُنَّ انْفَتَلَ^(٥) إلى أَصْحَابِهِ يَقُولُ : لَقَدْ قَاتَلْتُ يَوْمَ مَوْثَةَ ، فَانْقَطَعَ فِي يَدَيَّ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، وَمَا لَقِيتُ قَوْمًا كُنْ لَقِيتُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارَسٍ .
ثم أَقَامَ بِالْحِيرَةِ وجعلها مَرْكَزَ قِيَادَتِهِ^(٦) .

(١) نُبِّتَ : صرَّتْ نَقِيْبًا وَضَمِينًا . (٢) الدَهَقَانُ - بكسر الدال وضمة : زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم . (٣) فَلَاحِيحِ السَّوَادِ : قَرَاهَا . (٤) هَرْمُزِ جَرْدِ : نَاحِيَةٍ مِنْ أَطْرَافِ الْعِرَاقِ (٥) انْفَتَلَ : انْصَرَفَ .

(٦) مِنْ طَرَائِفِ مَا يَرْوِيهِ الْمُؤَرِّخُونَ إِبَانِ فَتْحِ الْحِيرَةِ أَنَّ خَالِدًا أَبَى أَنْ يَكْتُبَ مَعَ الْقَوْمِ عَهْدًا إِلَّا أَنْ تَسْلَمَ كِرَامَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَسِيحِ أُخْتُ عَمْرٍو إِلَى شُوَيْلٍ ؛ وَلَمَّا أَصْرَعَ عَلَى ذَلِكَ لَمَّا قَبِلَ مِنْ أَنْ شُوَيْلَ هَذَا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْكُرُ فَتْحَ الْحِيرَةِ فَسَأَلَهُ كِرَامَةُ . فَقَالَ لَهُ : هِيَ لَكَ ، إِذَا فَتَحْتَ عَنُودَ ، وَكَانَتْ كِرَامَةُ بَارِعَةَ الْجَمَالِ فِي صَبَاحِهَا ، وَكَانَ شُوَيْلٌ قَدْ رَأَاهَا فِي شَبَابِهَا ، غَنًى بِهَا دِهْرًا . وَشَقَّ هَذَا عَلَى أَهْلِهَا ، فَقَالَتْ لَهُمْ : هَوَّنُوا عَلَيْكُمْ وَأَسْلَمُونِي ، فَإِنِّي سَأُفْتَدِي ، وَمَا تَخَافُونَ عَلَى امْرَأَةٍ بَلَفَتْ ثَمَانِينَ سَنَةً ! لَمَّا هَذَا رَجُلٌ أَحَقَّ رَأْيِي فِي شَبِيبَتِي فَظَنُّ أَنَّ الشَّبَابَ يَدُومُ ، وَرَفَعَتْ إِلَى شُوَيْلَ فَقَالَتْ لَهُ : مَا أُرَبِّكَ إِلَى عَجُوزٍ كَمَا تَرَى ؟ فَادْنِ . قَالَ : لَا ، إِلَّا عَلَى حَكْمِي ، قَالَتْ : فَلَكَ حَكْمُكَ مَرْسَلًا . قَالَ : لَسْتُ لِأُمِّ شُوَيْلَ ، إِنْ تَقَصَّصْتَكَ عَنْ أَلْفِ دَرَاهِمٍ .
وتظاهرت كِرَامَةُ بِاسْتِكْثَارِ الْمُبْلَغِ اتَّخَذَهُ ، ثُمَّ أَتَتْهُ وَرَجَعَتْ بِهِ إِلَى أَهْلِهَا . وَسَمِعَ أَصْحَابُ شُوَيْلَ بِمَا صَنَعَ فَسَخَرُوا مِنْهُ لِقُلَّةِ الْفِدَاءِ ، وَعَنْقَهُ بَعْضُهُمْ . فَكَانَ اعْتِزَارُهُ : مَا كُنْتُ أَرَى عِدْدًا يَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ . وَشَكَا أَمْرَهُ إِلَى خَالِدٍ ، وَقَالَ : كَانَتْ نِيَّتِي غَايَةَ الْعُدَدِ . فَقَالَ خَالِدٌ : أُرِدْتُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ غَيْرَهُ ، نَأْخُذُ بِمَا يَظْهَرُ وَنَدَعُكَ وَنِيَّتَكَ ، كَاذِبًا كُنْتُ أَوْ صَادِقًا .

٢٧ - يوم ذات العيون*

خَلَفَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى الْحَيْرَةِ الْقَمْعَاءِ بْنِ عَمْرٍو ، وَخَرَجَ فِي تَعْيِيَّتِهِ ، وَجَمَعَ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْأَقْرَعَ^(١) بْنَ حَابِسٍ ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى انْتَهَوْا رُكْبَانًا إِلَى الْأَنْبَارِ^(٢) ، فَرَأَوْا أَنَّ أَهْلَهَا قَدْ تَحَصَّنُوا بِهَا ، وَخَنَدَقُوا عَلَيْهَا ، وَأَشْرَفُوا مِنْ حِصْنِهِمْ . وَكَانَ يَقُودُ الْجُنُودَ فِيهَا شِيرَزَادُ صَاحِبُ سَابَاطٍ ، وَكَانَ أَقْلَ عَجْمِيٍّ يَوْمَئِذٍ .

وَلَمَّا قَدَّمَ خَالِدٌ أَطَافَ بِالْخَنْدَقِ ، وَأَنْشَبَ الْقِتَالَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى رُمَاتِهِ ، فَأَوْصَاهُمْ وَقَالَ : إِنِّي أَرَى أَقْوَامًا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالْحَرْبِ ، فَارْمُوا عِيُونَهُمْ وَلَا تَوَخَّوْا غَيْرَهَا . فَرَمَوْهُمْ فَفَقَتْهُوا أَلْفَ عَيْنٍ يَوْمَئِذٍ ، وَتَصَابَحَ الْقَوْمُ إِذْ ذَهَبَتْ عِيُونُهُمْ .

وَلَمَّا رَأَى شِيرَزَادُ ذَلِكَ رَاسَلَ خَالِدًا فِي الصَّلَاحِ عَلَى أَمْرِ لَمْ يَرْضَهُ خَالِدٌ ، فَرَدَّ رُسُلَهُ .

وَأَتَى خَالِدُ أَصْبِيقَ مَكَانَ فِي الْخَنْدَقِ بِرَذَايَا^(٣) الْجَيْشِ فَنَحَرَهَا ، ثُمَّ رَمَى بِهَا فِيهِ فَأَفْعَمَهُ^(٤) ، ثُمَّ اقْتَحَمَ الْخَنْدَقَ ، وَالرَذَايَا جُيُوشَهُمْ .

* لخالد بن الوليد على شيرازاذ (الفرس) . سنة ١١٢ هـ . وسميت ذات العيون لما وقع فيها من فقه عيون الأعداء .

الطبري : ٤ - ٢٠ . ابن الأثير : ٧ - ١٩٢ . ابن خلدون : ٢ - ٨١ .

(١) الأقرع بن حابس ، ينتهي نسبه إلى تميم ، كان حكيماً في الجاهلية ، ثم وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً ، وشهد فتح مكة وحنيناً والطائف ، وهو من المؤلفة قلوبهم ، وشهد كثيراً من أيام الفتح ، وقتل باليرموك في عصرة من بيته .

(٢) الأنبار : مدينة على الفرات غربي بغداد .

(٣) الرذايا : جمع رذى ، والرذى : المهزول من الإبل ، الهالك .

(٤) أفعمه : ملأه ..

(١٣ - أيام العرب في الإسلام)

واجتمع المسلمون والمشركون في الخندق ، وأرَزَ القوم^(١) إلى حِصْنِهِمْ ، ورَاسَلَ
شِيرَزَادُ خَالِدًا فِي الصَّلَاحِ عَلَى مَا أَرَادَ ؛ فَقَبِلَ مِنْهُ عَلَى أَنْ يُخَلِّيَهُ وَيُلْحِقَهُ بِأَمْنِهِ
فِي جَرِيدَةٍ^(٢) خَيْلٍ ، لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْأَمْوَالِ شَيْءٌ .

وخرج شيرزاد حتى قدم على بهمن جاذويه ، فأخبره الخبر ، وقال له : إني كنتُ
في قوم ليست لهم عقول ، وأصلهم من العرب ، فسمعتُهم - حين قدم العدو علينا -
يَقْضُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَقَلَّمَا قَضَى قَوْمٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَضَاءً إِلَّا وَجِبَ عَلَيْهِمْ .
ثم قاتلهم الجند ، ففَقَتُوا مِنْهُمْ أَلْفَ عَيْنٍ ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَسَالَةَ أَسْلَمَ .

(١) أرز القوم : رجعوا .

(٢) الجريدة : خيل لا رجلة فيها .

٢٨ - يوم عَيْن التمر*

لما فرغ خالدٌ مِنَ الْأَنْبَارِ واستَحْكَمَتْ لَهُ، استخلفَ عليها الزُّبَيْرُ بْنُ بَدْرٍ وقَصَدَ أَمِينَ التمر، وفيها مهران بن بهرام في جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعَجَمِ، وَعَقَّةُ بْنُ أَبِي عَقَّةٍ في جَمْعٍ عَظِيمٍ مِنَ الْعَرَبِ؛ فَلَمَّا سَمِعُوا بِخَالِدٍ، قَالَ عَقَّةُ لِمِهْرَانَ: إِنَّ الْعَرَبَ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ، فَدَعْنَا وَخَالِدًا.

قَالَ: صَدَقْتَ؛ لَعَمْرِي لَا أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِقِتَالِ الْعَرَبِ، وَإِنْكُمْ لَمِثْلُنَا فِي قِتَالِ الْعَجَمِ؛ وَخَدَعَهُ وَأَتَمَّى بِهِ، وَقَالَ: دُونَكُمْوهُمْ، وَإِنْ احْتَجَجْتُمْ إِلَيْنَا أَعْنَاكُمْ. فَلَمَّا مَضَى عَقَّةُ نَحْوَ خَالِدٍ قَالَتِ الْأَعْجَمُ لِمِهْرَانَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَقَالَ: دَعُونِي، فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ إِلَّا مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَشَرٌّ لَهُمْ؛ إِنَّهُ قَدْ جَاءَكُمْ مَنْ قَتَلَ مَلُوكَكُمْ وَقَلَّ حَدَّكُمْ، فَانْقَبَيْتُهُ بِهِمْ؛ فَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ عَلَى خَالِدٍ فَعَى لَكُمْ، وَإِنْ كَانَتْ الْأُخْرَى فَلَنْ يَبْلَغُوا مِنْهُمْ حَتَّى يَهْزُبُوا، فَنَقَاتْلَهُمْ وَنَحْنُ أَقْوَاءُ، وَهُمْ مُضْمَعُونَ. فَاعْتَرَفُوا لَهُ بِنُضْلِ الرَّأْيِ.

فَلَزِمَ مِهْرَانَ الْعَيْنُ، وَنَزَلَ عَقَّةُ لَخَالِدٍ عَلَى الطَّرِيقِ، وَجَعَلَ عَلَى مِيمَنَتِهِ بُجَيْرًا، أَحَدُ بَنِي عُبَيْدٍ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْهَذِيلُ بْنُ عِمْرَانَ. وَجَاءَ خَالِدٌ فِي تَعْبِيَةِ جُنْدِهِ، وَقَالَ لِحَبِيبَتَيْهِ: اكْفُونَا مَا عِنْدَهُ؛ فَإِنِّي حَامِلٌ عَلَيْهِ. وَبَيْنَا عَقَّةُ يَقِيمُ صَفُوفَهُ احْتَضَنَهُ خَالِدٌ، وَأَخَذَهُ أُسِيرًا، وَانْهَزَمَ صَفُّهُ مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ، فَأَكْثَرَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمُ الْأَسْرَ.

* لخالد بن الوليد على مهران بن بهرام وعقة بن أبي عقة. كان ذلك اليوم سنة ١٢ هـ. وعين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة.

الطبري: ٤ - ٢١. ابن الأثير: ٢ - ١٩٣، ابن خلدون: ٢ - ٨١، معجم البلدان:

ولما جاء الخبر إلى مهران هرب في جُنْدِهِ ، وتركوا الحصن . وانتهت فُلَّال عَقَّة من العرب والمعجم إلى الحصن ، واقتحموه واعتصموا به . وأقبل خالد في الناس حتى نزل الحصن ومعه عَقَّة أسيراً ، وكان هؤلاء المنهزمون يرجون أن يكون خالد كمن كان يُغِير من العرب ، فلما رأوه يُحَاوِلُ القضاء عليهم سألوه الأمانَ ، فأبى إلا أن ينزلوا على حُكْمِهِ ، فأجابوه إلى ما طلب ، وفتحوا له باب الحصن فاعتقلهم . وأمر بِعَقَّة فَضْرِبَتْ عُنُقَهُ ، ولما رآه الأشرى مطروحاً على الجسر يتسوا من الحياة .

ثم ضَرَبَ خالدُ أعناقَ أَهْلِ الحصنِ أَجْمَعِينَ ، وسَبَى كُلَّ مَا حَوَى حِصْنُهُمْ ، وَغَنِمَ مَا فِيهِ ، ووجد في بَيْتِهِمْ^(١) أربعين غُلاماً يتلمَّون الإنجيل ، عليهم باب مُنْطَلَق ، فكسره وقال لهم : ما أنتم ؟ قالوا : رُهْن . فقسَّمَهُمْ فِيمَنْ أَحْسَنُوا البلاءَ ، فكان منهم أبو زياد مَوْلَى ثَقِيف ، ونُصَيْرُ أبو البطل الفاتح موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد بن سيرين ، فقيه البصرة .

ثم أرسل إلى أبي بكر بالأخماس مع الوليد بن عُقْبَةَ ، وأخبره بالفتح .

(١) البيعة : متعبد النصارى .

٢٩ — يوم دُومة الجندل *

لَمَّا قَدِمَ الْوَلِيدُ بْنُ عُقْبَةَ مِنْ عِنْدِ خَالِدٍ عَلَى أَبِي بَكْرٍ بِمَا بَعَثَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَخْمَاسِ وَجَّهَهُ إِلَى عِيَاضِ بْنِ غَنْمٍ ، وَأَمَدَّهُ بِهِ ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بِدُومَةِ الْجَنْدَلِ ، وَعِيَاضُ يُحَاصِرُ الْقَوْمَ ، وَهُمْ يَحَاصِرُونَهُ ، وَقَدْ أَخَذُوا عَلَيْهِ الطَّرِيقَ ، وَلَمْ يَجِدْ بَعْدَ مُدَاوَلَةٍ الرَّأْيَ مَعَهُ وَسِيلَةً تُنْقِذُهُ مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ : الرَّأْيُ فِي بَعْضِ الْحَالَاتِ خَيْرٌ مِنْ جُنْدٍ كَثِيفٍ ؛ ابْعَثْ إِلَى خَالِدٍ فَاسْتَمْدِهِ .

فَفَعَلَ . وَقَدِمَ رَسُولُهُ عَلَى خَالِدٍ ، غَيْبٌ^(١) وَقَعَمَةٌ عَيْنِ التَّمْرِ ، فَمَجَّلَ إِلَى عِيَاضَ بِكِتَابِهِ :

مِنْ خَالِدٍ إِلَى عِيَاضَ ، إِنِّيَاكَ أُرِيدُ .

لَبِثْتُ قَلِيلًا نَأْتِيكَ الْخِلَائِبُ يَحْمِلُنَ آسَادًا عَلَيْهَا الْقَاشِبُ^(٢)

* كِتَابٌ تَتَبُعُهَا كِتَابٌ *

ثُمَّ خَلَّفَ خَالِدٌ عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ عُوَيْمَ بْنَ السَّكَاهِلِ الْأَسَدِيَّ ، وَخَرَجَ فِي تَعْيِينَتِهِ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا الْعَيْنُ يَسْرِعُ السَّيْرَ جُهْدَهُ .

وَلَمَّا بَلَغَ أَهْلَ دُومَةِ مَسِيرُ خَالِدٍ إِلَيْهِمْ بُهِتُوا ، ثُمَّ اخْتَلَفَ زَعَمَاؤُهُمْ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَصْنَعُونَ .

وَكَانَ عَلَيْهِمْ رَيْسَانُ : أَكِيدَرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَالْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَقَالَ أَكِيدَرُ : أَنَا أَعْلَمُ النَّاسِ بِخَالِدٍ ، لَا أَحَدٌ أَيْمَنُ طَائِرًا مِنْهُ ، وَلَا يَرَى قَوْمٌ وَجْهَهُ

* لَخَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَلَى أَكِيدَرِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَالْجُودِيُّ بْنُ رَبِيعَةَ ، كَانَ سَنَةُ ١٢ هـ . وَدُومَةُ الْجَنْدَلُ : عَلَى سَبْعِ مَرَاكِلَ مِنْ دِمَشْقَ .

(١) غَيْبٌ : بَعْدُ . (٢) الْقَاشِبُ : السِّيفُ الصَّقِيلُ الْمَجْلُو .

خالد قتلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيموني وصالحوا القوم ، فأبوا عليه ، فقال :
لن أمارئكم على حرب خالد^(١) ، فشأنكم . وخرج إطيته .
وبلغ ذلك خالداً ، فبعث عاصم بن عمرو معارضاً له ، فأخذه وجاء به إلى خالد ،
فضرب عنقه^(٢) .

ولما نزل خالد على دومة جعلها بينه وبين عسكر عياض ، واطمان هناك ،
نفرج إليه الجودي بن ربيعة وديعة الكلبى ؛ فهزمهما الله على يدى خالد
وأخذها أخذاً .

وأررز^(٣) بقيّة الناس إلى الحصن ، فلما امتلأ أغلق من فيه أبوابه دون أصحابهم ،
وتركهم عرضةً للمسلمين ، يقتلونهم ويأسرون منهم من يشاءون .
وأقبل خالد على الذين أرزوا إلى الحصن فقتلهم ، حتى سدّ بهم باب الحصن ،
ودعا بالجودي فضرب عنقه ، ودعا بالأسارى فضرب أعناقهم أيضاً ، إلا أسارى
كذب فإن غاصا قال : قد أمّناهم ؛ فأطلقهم له خالد ، وقال : مالى ولكم ! اتحفظون
أمر الجاهلية ، وتضيعون أمر الإسلام !

ثم طوّف خالد بالحصن حتى إذا كان بالباب ، أمر به فاقتلّع ، واقتحم المسلمون
على من فيه ، فقتلوا مقاتلة ، وسبوا النساء .
وأقام خالد بدومة الجندل ، وردّ الأقرع إلى الأنبار .

(١) قال ذلك أكيدر لأنه لم ينس عام تبوك .

(٢) وهناك رواية أخرى بأنه أسر وأرسل إلى المدينة . (٣) أررز : رجم .

٣٠ — يوم اليرموك*

بعد أن عاد أبو بكر إلى المدينة ، مُنْصَرَفَهُ مِنَ الْحَجِّ ، أَرَادَ أَنْ يَعْقِدَ لَوَاءَ خَالِدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ الْمَاصِي^(١) ، وَيُوجِّهَهُ إِلَى الشَّامِ ؛ فَنَهَاهُ عَمْرُ بْنُ لُحَيْدٍ ، وَإِنَّهُ لَمُخْذُولٌ ، وَإِنَّهُ لَضَعِيفُ التَّرْوِثَةِ^(٢) ، فَلَا تَسْتَنْصِرُ بِهِ ، فَلَمْ يَحْتَمِلْ أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهِ ، وَأَطَاعَ عَمْرٌ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ ، وَعَصَاهُ فِي بَعْضِ^(٣) .

ثم أمر خالداً أَنْ يَنْزِلَ تَيْمَاءَ^(٤) ، وَأَلَّا يَبْرَحَهَا ، وَأَنْ يَدْعُوَ مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْعَرَبِ بِالْانْضِمَامِ إِلَيْهِ ، وَأَلَّا يَقْبَلَ إِلَّا مَنْ لَمْ يَرْتَدَّ ، وَلَا يَقَاتِلَ إِلَّا مَنْ قَاتَلَهُ ، حَتَّى يَأْتِيَهُ أَمْرُهُ .

* للعرب على الروم ، كان سنة ١٣ هـ . واليرموك : واد بناحية الشام ينتهي إلى نهر الأردن .
الطبري ٤ : ٢٨ . ابن الأثير ٢ : ٢٠٠ . ابن خلدون ٢ : ٨٣ . فتوح البلدان ١٤٠ : معجم البلدان ٨ : ٥٠٤ .

(١) خالد بن سعيد : من السابقين الأولين من المهاجرين ، وقيل : كان خامس المسلمين ؛ سبقه أبو بكر وعلى وزيد بن حارثة وسعد بن أبي وقاص . واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات مذجج ، واستشهد يوم مرج الصفر سنة ١٤ هـ .

(٢) التروثة : النظر في العواقب .

(٣) قيل : كان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد أن خالداً كان عاملاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن ، فقدم بعد وفاة الرسول بشهر ، والقوم في مصابرة أهل الردة ، وكان لابساً جبة دباج ؛ فقال عمر لمن يليه : مرقوا عليه جبته ، أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور ! فوجدها خالد في نفسه ، ولقى على بن أبي طالب وعثمان بن عفان ، فقال : يا بني عبد مناف ، لقد طبت نفساً عن أمر يليه غيركم . وتربص ببيعة أبي بكر مدة ، يقول : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعزاني ، حتى قبضه الله ، فكان عمر يضطفن ذلك عليه ، ولكن أبا بكر لم يحفلها ، ولم يضطفن عليه .

(٤) تيماء : بلد في أطراف الشام ووادي القرى ، على طريق الحاج من دمشق .

فَفَصَلَ عَنِ الْمَدِينَةِ حَتَّى نَزَلَ بِتَيْمَاءَ ، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ جُوعٌ كَثِيرَةٌ ، وَبَلَغَ الرُّومُ عِظَمُ ذَلِكَ الْعُسْكَرَ ، فَأَخَذُوا يُعِدُّونَ عُدَّتَهُمْ ، وَيُجْمِعُونَ رَأْيَهُمْ .
فَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ ، وَبَنَزَلَ مِنْ اسْتَنْفَرَتِ الرُّومُ وَنَفَرَ إِلَيْهِمْ مِنْ بَهْرَاءَ وَكَلْبَ وَسُلَيْجَ وَتَنُوحَ وَلَخْمَ وَجُدَامَ وَغَسَّانَ .
فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ : أَنْ أَقْدِمَ وَلَا تُخْجِمَ ، وَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ .
فَسَارَ إِلَيْهِمْ خَالِدٌ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ تَفَرَّقُوا وَأَغْرَوْا مَنَزِلَهُمْ ، فَزَلَهُ ، وَدَخَلَ عَامَةً مَنْ كَانَ قَدْ تَجَمَّعَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ ، وَكَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ :
أَقْدِمَ ، وَلَا تَقْتَحِمَنَّ حَتَّى لَا تُؤْتَى مِنْ خَلْفِكَ ؛ فَسَارَ فِيمَنْ كَانَ خَرَجَ مَعَهُ مِنْ تَيْمَاءَ ، وَفِيمَنْ لَحِقَ بِهِ حَتَّى نَزَلُوا الْقَسْطَلَ ^(١) .
فَسِيرَتِ الرُّومُ إِلَيْهِ عَسْكَرًا يَقُودُهُ بَاهَانُ الْبَطْرِيقِ ^(٢) ؛ فَكَتَبَ خَالِدٌ بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَاسْتَمَدَّهُ .
وَوَافَقَ ذَلِكَ قُدُومَ عِكْرِمَةَ فِيمَنْ كَانَ مَعَهُ مِنْ تَيْهَامَةَ وَعُمَانَ وَالْبَحْرَيْنِ ، فَأَمَرَهُمْ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَسِيرُوا إِلَى خَالِدِ بْنِ سَعِيدٍ .
وَسَارَ مَعَ عِكْرِمَةَ ذُو الْكَلَّاعِ عَلَى رَأْسِ الْجُنْدِ الَّذِينَ صَحِبُوهُ مِنَ الْيَمَنِ حَتَّى يَطْمَأَنَّ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ ، وَيَتَأَيَّعَ مَسِيرَتَهُ .
ثُمَّ تَرَاخَى إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنَّ الرُّومَ اجْتَمَعَتْ بِالْيَرْمُوكَ وَنَزَلُوا بِهِ ، وَقَالُوا : وَاللَّهِ لَنَشْنَنَنَّ أَبَا بَكْرٍ فِي نَفْسِهِ عَنْ تَوَرُّدِ بِلَادِنَا بِحُيُولِهِ ، فَكَتَبَ إِلَى عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ - وَكَانَ عَلَى صَدَقَاتِ سَعْدٍ وَعُذْرَةَ وَجُدَامَ : إِنْ كُنْتُ قَدْ رَدَدْتُكَ عَلَى الْعَمَلِ الَّذِي

(١) القسطل : بلد في طريق البحر الميت .

(٢) البطريق : القائد من قواد الروم ، تحت يده عشرة آلاف رجل .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلَا كَهْ ؛ إنجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وُلِّيَتْهُ ثُمَّ وُلِّيَتْهُ ، وقد أُحْبِبْتُ - أبا عبد الله - أن أفرِّغَكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ فِي حَيَاتِكَ وَمَعَادِكَ مِنْهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ أَحَبُّ إِلَيْكَ .

فكتب إليه عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ : إِنِّي سَهَمْتُ مِنْ سِهَامِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ الرَّأْيِي بِهَا ، وَالْجُمُعُ لَهَا ؛ فَانْظُرْ أَشَدَّهَا وَأَخْشَاهَا وَأَفْضَلَهَا ، فَأَرْمِ بِهِ شَيْئًا إِنْ جَاءَكَ مِنْ نَاحِيَةٍ مِنَ النَّوَاحِي .

ثم كتب أبو بكر إلى الوليد بن عُقْبَةَ ، وكان على صدقاتِ قُضَاعَةَ بنحو ذلك ، فأجابه بإيثارِ الْجِهَادِ ، فكتب إليهما : استخلفا على أعمالكما ، واندبَا مَنْ يَلِيكما .

فاستخلف كلٌّ منهما ، وندبَا النَّاسَ ، فتنامَّ إليهما بشرٌ كثيرٌ ، وانتظرا أَمْرَ أَبِي بَكْرٍ .

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رَسُولِهِ وقال :
أَلَا إِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ جَوَامِعَ ، فَمَنْ بَلَغَهَا فَهِيَ حَسْبُهُ ، وَمَنْ عَمِلَ اللَّهُ كِفَاهُ اللَّهِ ،
عَلَيْكُمْ بِالْجِدِّ وَالْقَصْدِ ؛ فَإِنَّ الْقَصْدَ أَبْلَغُ ، أَلَا إِنَّهُ لَا دِينَ لِأَحَدٍ لَا إِيمَانَ لَهُ ، وَلَا
أَجْرَ لِمَنْ لَا حِسْبَةَ لَهُ ، وَلَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ . أَلَا وَإِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الثَّوَابِ
عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يُخَصَّ بِهِ ؛ هِيَ التَّجَارَةُ الَّتِي دَلَّ
اللَّهُ عَلَيْهَا وَنَجَّى بِهَا مِنَ الْخِزْيِ ، وَأَلْحَقَ بِهَا الْكِرَامَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ثم أمدَّ عَمْرًا يَبْعُضَ مَنْ انْتَدَبَ^(١) لِلغَزْوِ إِلَى مَنْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ . وَأَمْرَهُ عَلَى
فلسطين ، وَأَمْرَهُ بِطَرِيقِ سَمَاهَا لَهُ . وَكَتَبَ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَأَمْرَهُ بِالْأُرْدُنِّ ،

(١) يقال : انتدب القوم من ذوات أنفسهم دون أن يندبوا .

وأمدّه ببعضهم . ودعا يزيد بن سفيان ، فأمره على جُنْدٍ عظيم ، هم جمهورٌ من انتدب له ، وجعل في جنده سُهَيْل بن عمرو وأشباهه من أهل مكة ، وشيعة ماشياً ، وكان مما قاله له : إذا قدمت على جُنْدِكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمْ ، وابدأهم بالخير ، وعندهم إِيَّاه ، وإذا وعظتهم فَأَوْجِزْ ، فإن كثيرَ الكلام يُنْسِي بَعْضُهُ لِبَعْضٍ . . . وإذا قَدِمَ عَلَيْكَ رُسُلُ عَدُوِّكَ فَآكِرْهُمْ ، وأقللْ لُبَنَّهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْ عَسْكَرِكَ وَهُمْ جَاهِلُونَ به ؛ وامنعْ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ مُحَادَثَتِهِمْ ، وَكُنْ أُنْتِ الْمُتَوَلَّى لِكَلَامِهِمْ ؛ واسمُرْ بالليل في أصْحَابِكَ تَأْتِكَ الْأَخْبَارُ ، وَتَنَكْشِفُ عَنْكَ الْأَسْتَارُ ، واصدُقِ اللِّقَاءَ ، وَلَا تَجُنْ فَيَجُنَّ النَّاسُ .

واستعمل أبا عُبَيْدَةَ بنَ الْجَرَّاحِ على مَنْ اجتمع له ، وأمره على حِمِصَ ، وخرج معه ماشياً ، والناسُ معهما وخلفهما .

وسبق الوليدُ بن عُقْبَةَ هُؤَلَاءَ ، واتَّصَلَ بِمُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ فَسَانَدَهُ^(١) . وبلغ خالدًا تَرْجُهُ الْأُمَرَاءُ إِلَيْهِ ، فطلبَ الْخَطْوَةَ لِنَفْسِهِ ، واقتحم على الرُّومِ ، وأَعْرَى ظَهْرَهُ ؛ فَاسْتَطَرَدَ^(٢) لَهُ بِأَهَانَ ، وقصد هو وَمَنْ مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ ، فاقتحم خالدٌ في الجيشِ ، ومعه ذُو الْكَلَّاعِ وَعِكْرِمَةُ وَالْوَلِيدُ ، حتى إِذَا نَزَلَ مَرَجُ الصُّفْرِ^(٣) ، بين الرَّاغُوصَةِ^(٤) وَدِمَشْقَ ، أحاط به بِأَهَانَ وَجُنُودُهُ ، وأخذوا عليه الطَّرْقَ ، ووجدوا سَعِيدَ بْنَ خَالِدٍ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْجُنْدِ ، فقتلوه وقتلوا مَنْ مَعَهُ .

وَأَتَى الْخَبِيرُ خَالِدَ بْنَ سَعْدٍ فَخَرَجَ هَارِبًا فِي جَرِيدَةٍ^(٥) ، وَأَفْلَتْ مَنْ أَفْلَتْ مِنْ

(١) ساندَه : عاضده ، كاتفه وساعده .

(٢) استطرد : تراجع خديعة ومكرا .

(٣) مرج الصفر : موضع قرب دمشق .

(٤) الرَّاغُوصَةُ : واد في أرض حوران .

(٥) الجريدة : الجماعة من الخيل .

أصحابه على ظهور الخيل والإبل ، وقد أجهضوا^(١) عن عسكرهم . وانتهت هزيمة خالد إلى ذى الروة^(٢) وأقام عكرمة في الناس رذءاً لهم ، وردّ باهان وجنوده ، وأقام من الشام على قريب .

ولما علم أبو بكر بما نكب به خالد بن سعيد قال : كان عمرُ وعلى أعلم بخالد مني ، ولو أطعتهما فيه اتقيته ، ثم كتب إليه : أرقم مكانك ، فلمعمرى إنك مقدم محجام نجاء من الغمرات ، لا تخوضها إلى حق ، ولا تصبرُ عليه . ثم أذن له في دخول المدينة ، فعاد ومعه الوليدُ بن عقبة ، وندب الناس مع شرحبيل بن حسنة^(٣) ، بعد أن عهد إليه بعمل الوليد .

وأوعب^(٤) القواد بالناس نحو الشام ، وظلَّ عكرمة رذءاً للناس ، وبلغ الروم ذلك ، فكتبوا إلى هرقل ، فخرج هرقل حتى جاء حمص ؛ فأعدَّ لهم الجنود ، وعيَّ لهم المساكر ، وأراد اشتغال بعضهم عن بعض لكثرة جنده ورجاله . فأرسل إلى عمرو بن العاص أخاه تذارق (تيودوريك) في تسعين ألفاً ، وبعث جرّاجة نحو يزيد بن أبي سفيان ، فمسكر بإزائه ، وبعث الدراقص ، فاستقبل شرحبيل ابن حسنة ، وبعث الفيقار بن نسطوس في ستين ألفاً نحو أبي عبيدة . فها بهم المسلمون ، ولم يكن جمعهم يزيدُ على واحدٍ وعشرين ألفاً ؛ سوى ستة

(١) يقال : أجهضه عن المكان ، إذا أزاله عنه .

(٢) ذى الروة : موضع قريب من المدينة .

(٣) كان شرحبيل مع خالد بن الوليد في العراق ، وقد جاء في هذه الآونة إلى المدينة بأبناء النصر وبالسبي والأخماس ، فأمره أبو بكر أن يذهب إلى الشام مكان الوليد بن عقبة الذي رجع مع خالد بالهزيمة .

(٤) أوعب القوم : خرجوا للغزو .

آلاف مع عكرمة ، ففزعوا جميعاً بالكُتُبِ والرسل إلى عمرو بن العاص ، واستشاروه ، فقال لهم : الرَّأْيُ الاجْتِمَاعُ ، وذلك أَنَّ مِثْلَنَا إِذَا اجْتَمَعَ لَمْ يُفْلَبْ مِنْ قِلَّةٍ ، وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ تَقُمْ كُلُّ فِرْقَةٍ لِنِ اسْتَفْبَاحِهَا ، لَكثْرَةِ عَدُوِّنَا وَمَا أَعَدَّ لَنَا .

فَاتَّعَدُوا الْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ ، وَكَتَبُوا لِأَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا كَاتَبُوا بِهِ عُمَرَا ؛ فَطُلِعَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ بِمِثْلِ رَأْيِ عَمْرٍو ، وَفِيهِ : اجْتَمِعُوا فَتَكُونُوا عَسْكَرًا وَاحِدًا ، وَالْقَوَا زَحَفَ الْمُشْرِكِينَ بِزَحْفِكُمْ ، فَإِنَّكُمْ أَعْوَانُ اللَّهِ ، وَاللَّهُ نَاصِرٌ مَنْ نَصَرَهُ ، وَخَاذِلٌ مَنْ كَفَرَهُ ، وَلَنْ يُؤْتِيَ مِثْلَكُمْ مِنْ قِلَّةٍ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتِي الْعَشْرَةَ الْآلَافَ وَالزِّيَادَةَ عَلَيْهَا بِذُنُوبِهِمْ ، فَاحْتَرِسُوا مِنَ الذَّنُوبِ ، وَاجْتَمِعُوا بِالْيَرْمُوكِ مُتَسَارِدِينَ ، وَلِيَصِلَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَصْحَابِهِ .

وَبَلَغَ ذَلِكَ هِرَقْلَ ، فَكَتَبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ : أَنْ اجْتَمِعُوا لَهُمْ ، وَانْزِلُوا مِنْزِلًا وَاسِعَ الْعَطَنِ ، وَاسِيعَ الْمَطَرِ ، ضَيِّقَ الْمَهْرَبِ ؛ وَعَلَى النَّاسِ التَّنْدِاقَ ، وَعَلَى الْمَقْدِمَةِ جَرَجَةَ ، وَعَلَى مُجَنَّبَتَيْهِ بَاهَانَ وَالدَّرَاقِصَ ، وَعَلَى الْحَرْبِ الْفَيْقَارَ ؛ وَأَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي الْأَثَرِ مَدَدٌ لَكُمْ .

فَعَمِلُوا ، وَنَزَلُوا الْوَأْقُوصَةَ ، عَلَى ضَفَّةِ الْيَرْمُوكِ ، وَصَارَ الْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ ؛ وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانَ وَأَصْحَابُهُ أَنْ تَسْتَفِيقَ الرُّومَ ، وَيَأْتَسُوا بِالْمُسْلِمِينَ ، وَتَرْجِعَ إِلَيْهِمْ أَفْئِدَتُهُمْ عَنْ طَيْرِيَّهَا .

وَانْتَقَلَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمُ الَّذِي اجْتَمَعُوا بِهِ ، فَنَزَلُوا بِحَذَاءِ الرُّومِ ؛ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ ، فَقَالَ عَمْرٍو : أَيُّهَا النَّاسُ أَبْشِرُوا ، حُصِرَتْ وَاللَّهِ الرُّومُ ! وَقَلَمَّا جَاءَ مُحْصَرُونَ بِخَيْرٍ .

فَأَقَامُوا بِإِذَائِهِمْ شَهْرَيْنِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَلَا يَقْدِرُ الرُّومُ مِنْهُمْ عَلَى شَيْءٍ .

فاستمدوا أبا بكر حتى لا يظكوا الشهور ؛ فيسأم الجند ، ويضعف إيمانهم بالنصر ، وتذهب ريحهم .

فقال أبو بكر : والله لأنسينَّ الرومَ وسأوسَّ الشيطان بخالد بن الوليد ؛ وكتب إليه بالحيرة كتابا ؛ وافاه مُنصرَفه من الحجّ - وكان خالد قد ذهب إلى مكة حاجًا ، من غير أن يعلمَ الناسَ أمرَ حجّه - جاء فيه : أن سِرُّ حتى تأتيَ جموعُ المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شَجُّوا وأشجَّوا^(١) ، وإياك أن تعودَ لثُلِّ مافعلتَ^(٢) ، فإنه لم يُشجِرِ الجُموعَ من الناسِ^(٣) بعمون الله شجَّاك ، ولم يَنزِعِ الشجَّاء من الناسِ^(٣) نزعَكَ ، فليهنئك - أبا سليمان - النية والخطوة ، فأنعم يُتعمَّ الله لك ، ولا يدخلنك عُجبٌ فتخسر وتخذل ، وإياك أن تُدِلَّ بعمَل ، فإن الله عز وجل له المَنُّ ؛ وهو وليُّ الجزاء .

ثم أمره أن يخرج في شطْرِهِ من الناس ، وأن يخلف على الشطر الباقي المُثَنَّى بن حارثة ، وقال له في ختام كتابه : فإذا فتح الله عليكم فاردُّهم إلى العراق وأنت معهم ؛ ثم أنت على عمَلِكَ .

فأحضر خالدُ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأثر بهم على المُثَنَّى ، وترك المُثَنَّى مثلَ عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صُحبة . ثم نظر فيمن بقى ؛ فاختار مَنْ كان قدِمَ على النبي صلى الله عليه وسلم وافداً أو غيرَ وافِد ، وترك المُثَنَّى

(١) الشجاء : النعس . يريد أن المسلمين ضاقوا بعدوهم ، وضيقوا عليه ، حتى كان بعضهم لبعض كالشجاء في الخلق .

(٢) يشير إلى حجه بغير استئذان .

(٣) من الناس : صفة لخدوف ، هو فاعل لم يشج ، ولم ينزع . أي لم يشج أعداءه أحد من الناس ؛ كما تشجيم أنت . ولم ينزع الشجاء من أواليائه أحد من الناس نزعَكَ .

مثلَ عدَدِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقَنَاعَةِ . ثُمَّ قَسَمَ الْجَنْدَ نِصْفَيْنِ ، فَغَضِبَ الْمُثَنَّى وَقَالَ : وَاللَّهِ لَا أَقِيمُ إِلَّا عَلَى إِنْتَازِ أَمْرِ أَبِي بَكْرٍ كُلِّهِ ؛ فِي اسْتِصْحَابِ نِصْفِ الصَّحَابَةِ ، أَوْ بَعْضِ النِّصْفِ ؛ وَبِاللَّهِ مَا أَرْجُو مِنَ النَّصْرِ إِلَّا بِهِمْ ، فَكَيْفَ تُعَرِّبُنِي مِنْهُمْ .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ خَالِدٌ تَلَكَّأَ عَلَيْهِ قَلِيلًا ، ثُمَّ عَذَرَهُ وَأَرْضَاهُ ، وَأَخَذَ حَاجَتَهُ ، وَانْجَذَبَ مَاضِيًا لَوَجْهِهِ ، بَعْدَ أَنْ شِيعَهُ الْمُثَنَّى إِلَى حَيْثُ يَرِيدُ .

أَخَذَ خَالِدٌ يَطْعُنُ بِجَيْشِهِ فِي الْبَرِّ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قُرَاقِر^(١) ؛ وَأَرَادَ السَّيْرَ مِنْهَا مُغَوِّزًا^(٢) إِلَى سُورَى^(٣) . ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ لِي بِطَرِيقٍ أَخْرُجَ فِيهِ مِنْ وِرَاءِ جُوعِ الرُّومِ ! فَإِنِّي إِنِ اسْتَقْبَلْتُهَا حَبَسْتَنِي عَنْ غِيَاثِ الْمُسْلِمِينَ . فَكَلَّمَهُمْ قَالَ : لَا نَعْرِفُ إِلَّا طَرِيقًا لَا يَحْمِلُ الْجِيُوشَ ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهُ الرَّاكِبُ الْفَدَى ؛ فَيَاكَ أَنْ تَقَرَّرَ بِالْمُسْلِمِينَ .

فَالْتَمَسَ خَالِدٌ دَلِيلًا ؛ فَذَلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ الطَّائِي ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : انْطَلِقْ بِالنَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ : إِنَّكَ لَنْ تَطِيقَ ذَلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ ، وَاللَّهِ إِنْ الرَّاكِبَ الْفَرَدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُقَرَّرًا ؛ إِنَّهَا لَخَمْسُ لَيَالٍ ، لَا يَصَابُ فِيهَا مَاءٌ ؛ مَعَ مَضَلَّتِهَا . فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ : وَيَحَدِّثُكَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ لَا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ . ثُمَّ وَقَفَ فِي الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ : لَا يَخْتَلِفَنَّ هَدْيُكُمْ ، وَلَا يَصْنَعَنَّ بِقِيَمِكُمْ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي عَلَى قَدَرِ النِّيَّةِ ، وَالْأَجْرُ عَلَى قَدَرِ الْحُسْبَةِ ، وَإِنْ السَّلْمُ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكْتَرِثَ بِشَيْءٍ يَقَعُ فِيهِ مَعَ مَعُونَةِ اللَّهِ لَهُ . فَتَحَمَّسَ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا : أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ الْخَيْرَ ، فَشَأْنُكَ .

(١) قَرَاقر : مَاءٌ لِكَلْبٍ .

(٢) الْمَغَوِّزُ : مَنْ يَسْلُكُ الْمَفَازَةَ ، وَهِيَ الْفَلَاةُ لَا مَاءَ بِهَا .

(٣) سُورَى : مَاءٌ لِبَهْرَاءٍ عَلَى بَعْدِ خَمْسِ لَيَالٍ مِنْ قَرَاقر .

ثم قال لرافع بن عُميرة : إنه قد أتتني من الأمير عَزَمَة بذلك ؛ فَمَرُّ بأمرِك .
قال : استكثروا من الماء ؛ مَنْ استطاع منكم أن يَصُرَّ أُذُنَ ناقته على ماء فليَفْعَلْ ،
فإنها المَسْهَالِكُ إِلَّا ما دفع الله . ابغني^(١) عشرين جزُورا عِظَامًا سَمَانًا . فأتاه بهنَّ خالد
فَعَمِدَ إليها فظَمَّأها ، حتى إذا أَجْهَدَها عَطَشًا أوردَها الماء عِلَلًا بعد نَهْلٍ^(٢) ،
فشربتْ حتى إذا تَمَلَّأت عَمِدَ إليها ؛ ففقطع مَشَا فَرَّها لثلاث تجرَّ ، وقال
لخالد : يسر .

فسار خالد مُغِدًّا بالخيول والأثقال ، فسكاما نزل منزلا شقَّ بَطْنٌ عَدَدٍ من الإبل ،
فأخذ ما في أكراشها ، فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء ،
ففعلوا ذلك أربعة أيام .

ولما خشيَ خالدٌ على أصحابه في آخر يوم من المفازة ، قال لرافع بن عُميرة : وينحك
يا رافع ! ما عندك ؟ قال : أدركت الرُّمى إن شاء الله - وشجَّعهم ، ثم قال : أتيها
الناس ، انظروا عَلمين كَأَتهما تَدَيان ، فلما أَتَوْهُمَا وقف عليهما وقال : اضربوا
يَمْنَةً وَيَسْرَةً لِمَوْسِجَةٍ^(٣) كقعدة الرجل ، قالوا : ما نَرَاهَا ، قال : إنا لله وإنا إليه
راجعون ! ؛ هل كنتم والله إذاً وهل كنتم ، لا أَبالَكم ! انظروا ، فطلبوا فوجدوا
جِذْمَهَا^(٤) ؛ فقالوا : جذمٌ ولا نَرَى شجرة . فقال : احترقوا حيث شئتم . فحفروا
فنبع الماء .

فلما رأى ذلك المسلمون كَبَرُوا ، فقال رافع : أيها الأمير ؛ والله ما وردت هذا

(١) ابغني : التمس لي .

(٢) العِلل : الشربة الثانية ، والنهل : الشربة الأولى .

(٣) المَوْسِجَةُ : شجرة كثيرة الشوك .

(٤) الجِذْمُ : الأصل .

الماء منذ ثلاثين سنة ، وما وردتْه إلا مرّة واحدة وأنا غلام مع أبي . فقال شاعر من المسلمين :

لله عينا رافع أُنّي اهتدَى فوزَ من قراقِرِ إلى سُوى
خمسًا إذا ماسارها الجيشُ بكى ماسارها قبلك إنسى يُرى
وسار خالد حتى انتهى إلى سُوى ، فأغارَ على أهله - وهم بهراء - قبيل الصُّبح
وناسٌ منهم يشربون خمرًا ، وساقبهم يغنى ويقول :

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر لعلّ منا يانا قريبٌ وما ندرى !
ألا عللاني بالزُّجاج وكرّرا على كُمتِ اللونِ صافيةً تجري
ألا عللاني من سُلّاقِ قهوةٍ نُسلي مُهومَ النَّفسِ من جَيدِ الخمرِ
أظنُّ خيولَ المسلمين وخالدا ستطرُقكم قبلَ الصُّباحِ من البشرِ^(١)
فهل لكم في السَّيرِ قبلَ قتالهم وقبل خروجِ الحصّاتِ من الخدِرِ

فدّهمهم وسبّهم ، ثم سار على وجهه حتى أغار على غَسَّانِ بِمَرْجِ^(٢) راهط ؛
فصبّحهم وقتل وسبّهم ، وسار حتى أتى على بُصْرَى^(٣) ، فقاتل من بها ،
وظفر بهم ، وصالحهم ، وبعث بأُتْلُسَ إلى أبي بكر ؛ ثم سار في طريقه إلى المسلمين ،
ليواجه الروم .

وبينا هو في طريقه إلى اليَرْمُوكِ ، لقيه رجل من رُومِ العرب فقال : يا خالِدُ ؛
إنَّ الرومَ في جَمْعٍ كثير ، مائتي ألف أو يزيدون ، فإن رأيت أن ترجع على حاميتك

(١) البشر : من منازل تغلب بن وائل .

(٢) مرج راهط : موضع من نواحي دمشق دمشق .

(٣) بصرى : موضع بالشام .

فافعل . فقال خالد : أبا الرُّومِ تُخَوِّفُنِي ! والله لوددت أَنَّ الْأَشْقَرَ^(١) بَرَاءً مِنْ تَوَجِّيهِ^(٢) ، وَأَنَّهُمْ أَضْعَفُوا ضَعْفَهُمْ .

وقدم خالد إلى اليرموك ، وَعَسَّكَرَ أَبِي عُبَيْدَةَ بِجَاوِرٍ لِعَسْكَرِ عُمَرُو بْنِ الْعَاصِ ، وَشَرَحَبِيلَ مَعَ يَزِيدَ ، فَعَسَّكَرَ عَلَى حِدَّةٍ .

وقد وافق مجيئه حنة المسلمين ، حين كانوا في شدة ؛ إذ جاء بأهان لحربهم بحد كثير ، فالتقى المسلمون بهم وهزموهم ، حتى أُلْجِئُوا إِلَى الْخَنْدَقِ ، فَلَزِمُوهُ شَهْرًا ، يُحَصِّضُهُمُ الْقِسْيَسُونَ وَالشَّامِسَةُ وَالرُّهْبَانُ ، وَيَنْمُونُ لَهُمُ النَّصْرَانِيَّةُ ؛ حَتَّى حَسُّوهُمْ ، وَخَرَجُوا لِلْقِتَالِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ بِمَدَّةٍ قِتَالِ مِثْلِهِ .

فلما أَحَسَّ الْمُسْلِمُونَ خُرُوجَهُمْ ، وَأَرَادُوا الْخُرُوجَ مُتَسَانِدِينَ ؛ سَارَ فِيهِمْ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ؛ وَقَالَ : إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ اللَّهِ ، لَا يَنْبَغِي فِيهِ الْفَخْرُ وَلَا الْبَغْيُ ؛ أَخْلِصُوا جِهَادَكُمْ ، وَأَرِيدُوا اللَّهَ بِعَمَلِكُمْ ؛ فَإِنْ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ ، وَلَا تَقَاتِلُوا قَوْمًا عَلَى نِظَامٍ وَتَعِيشَةٍ وَأَنْتُمْ عَلَى تَسَانُدٍ وَانْتِشَارٍ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَحِلُّ وَلَا يَنْبَغِي ؛ وَإِنْ مَنْ وَرَاءَكُمْ لَوْ يَعْلَمُ عَمَلَكُمْ ، حَالِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ هَذَا ؛ فَاعْمَلُوا فِيهَا لَمْ تُؤْمَرُوا بِهِ ؛ بِالَّذِي تَرَوْنَ أَنَّهُ الرَّأْيُ مِنْ دَالِيكُمْ وَمَحَبَّتِهِ .

قالوا : فها تِ ، فما الرَّأْيُ ؟ قَالَ : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَبْعَثْنَا إِلَّا وَهُوَ يَرَى أَنَّا سَنَنْتَكَسِرُ ، وَلَوْ عَلِمَ بِالَّذِي كَانَ وَيَكُونُ لَكَانَ قَدْ جَمَعَكُمْ ؛ إِنَّ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ أَشَدُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِمَّا قَدْ غَشِيَهُمْ ، وَأَنْفَعُ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ أُمْدَادِهِمْ ، وَلَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدُّنْيَا فَرَّقَتْ بَيْنَكُمْ ، فَاللَّهُ اللَّهُ ! فَقَدْ أَفْرَدَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِلَدٍّ مِنَ الْبُلْدَانِ ، لَا يَنْتَقِصُهُ

(١) الْأَشْقَرُ : اسم الفرس خالد .

(٢) الْوَجَى : أَنْ يَشْتَكِيَ الْفَرَسُ بَاطِنَ حَافِرِهِ .

منه إن دان لغيره من أمراء الجنود ، ولا يزيد عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا ؛ فإن هؤلاء قد تهيئوا ، وهذا يوم له مآبعدة ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نرُدُّهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلننتماور الإمارة ، فليكن عليهم بمضنا اليوم ، والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلُّكم ، ودعوني أليكم اليوم .

فأمروه ، وأصبح خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم . وخرجت الروم في تعبئة لم ير الرايون مثله قط ، وخرج خالد في تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك .

فخرج في ستة وثلاثين كردوساً^(١) إلى الأربعين ، وقال : إن عدوكم قد كثُر وطغى ، وليس من التعبئة تعبئة أكثر في رأى العين من الكراديس ، فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة ، وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص ؛ وفيها شُرَحْبِيل بن حسنة ، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان . وجعل لكل كردوس يزيد قليلا على الألف ، وجعل للجيش قاصداً يذكركم ، وكان كل أبا سفيان بن حرب ، يسير فيقف على الكراديس فيقول : الله الله ! إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنها ذادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرتك على عبادك !

ثم أمر خالد مجنَّبَتِي القلب أن ينشبا القتال ، وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقمقاع بن عمرو ، ففعلا .

(١) الكردوس : الفرقة من الخيل .

والتحم القتال ، وتطارد الفرسان .

وإنهم على ذلك إذ قدم البريد من المدينة وفيه حمية بن زئيم ، فأخذته الخيول ، وسألوه الخبر ، فلم يخبرهم إلا بسلامة ، وأخبرهم عن أمداد - وكان قد جاء بموت أبي بكر رحمه الله ، وتأمر أبي عبيدة - فأبلغوه خالدا ، فأخبره خبر أبي بكر ، وأسرته إليه ، وأخبره بالذي أخبر به الجند ، فقال له : أحسنت فقف . وأخذ الكتاب وجعله في كفائه ، وخاف إن هو أظهر ذلك أن ينتشر له أمر الجند ، ووقف حمية مع خالده .

ثم خرج جرجة^(١) ونادى : ليخرج إلى خالد فخرج له خالد ، وأقام أبا عبيدة مكانه ، فواقفه بين الصّفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد آمن أحدهما صاحبه . فقال جرجة : يا خالد ؛ أصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ؛ ولا تخادعني ، فإن الكريم لا يخادع . . . بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكمه فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا . قال : فيم سميت سيف الله ؟ قال : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا ، ونأيناً عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعدّه وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعدّه وقاتله ؛ ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله ، سلمه الله على المشركين ، ودعاني بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك . فأنا من أشدّ المسلمين على المشركين . قال : صدقتني .

ثم قال جرجة : يا خالد ؛ أخبرني إلام تدعوني ؟ قال : إلى شهادة أن لا إله إلا الله

(١) اسم مقدم عسكر الروم يوم اليرموك ، والضبط من القاموس .

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَالْإِقْرَارِ بِمَا جَاءَهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . قَالَ : فَمَنْ لَمْ يُجِيبْكُمْ ؟
قَالَ : فَالْجَزِيَّةُ وَنَمَتُهُمْ ؛ قَالَ : فَإِنْ لَمْ يُعْطَهَا ؟ قَالَ : نُؤْذِنُهُ بِحَرْبٍ ثُمَّ نَقَاتِلُهُ ، قَالَ :
فَمَا مَنْزِلَةُ الَّذِي يَدْخُلُ فِيكُمْ وَيُجِيبُكُمْ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : مَنْزِلَتُنَا وَاحِدَةٌ فِيمَا
افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْنَا ، شَرِيفُنَا وَوَضِيعُنَا ، وَأَوَّلُنَا وَآخِرُنَا .

ثُمَّ قَالَ جَرَجَةَ : هَلْ لِمَنْ دَخَلَ فِيكُمْ الْيَوْمَ يَا خَالِدُ مِثْلُ مَا لَكُمْ مِنَ الْأَجْرِ
وَالذَّخْرِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَفْضَلُ .

قَالَ : وَكَيْفَ يُسَاوِيكُمْ وَقَدْ سَبَقْتُمُوهُ ؟ قَالَ : إِنَّا دَخَلْنَا فِي هَذَا الْأَمْرِ ، وَبَايَعْنَا
نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ حَيٌّ بَيْنَ أَظْهُرٍ نَأْتِيهِ أَخْبَارُ السَّمَاءِ ، وَيُخْبِرُنَا بِالْكَتَبِ
وَيُزِيلُنَا الْآيَاتِ ، وَحَقٌّ لِمَنْ يَرَى مَا رَأَيْنَا ، وَيَسْمَعُ مَا سَمِعْنَا أَنْ يُسَلِّمَ وَيَبَايِعَ ؛ وَإِنَّكُمْ
أَنْتُمْ لَمْ تَرَوْا مَا رَأَيْنَا ، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا سَمِعْنَا مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْحُجَجِ ، فَمَنْ دَخَلَ فِي هَذَا
الْأَمْرِ بِحَقِيقَةٍ وَنَبِيَّةٍ كَانَ أَفْضَلَ مِنَّا .

قَالَ جَرَجَةُ : بِاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتَنِي ، وَلَمْ تَخَادِعْنِي وَلَمْ تَأْلَفْنِي ؟ قَالَ : بِاللَّهِ لَقَدْ صَدَقْتُكَ
وَمَا بِي إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ وَخَشَةَ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَوَلَّى مَا سَأَلْتَ عَنْهُ .

فَقَالَ : صَدَقْتَنِي ؛ وَقَلَبَ الثَّرْسَ وَمَالَ مَعَ خَالِدٍ ، وَقَالَ : عَلَّمَنِي الْإِسْلَامَ ، فَال
بِهِ خَالِدٌ إِلَى فُسْطَاطِهِ ؛ فَشَنَ^(١) عَلَيْهِ قَرْبَةً مِنْ مَاءٍ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ .

وَحَمَلَتِ الرُّومُ مَعَ انْقِلَابِهِ إِلَى خَالِدٍ ، وَهُمْ يَرَوْنَ أَنَّهَا مِنْهُ حَمَلَةٌ . فَازَالُوا الْمُسْلِمِينَ
عَنْ مَوَاقِفِهِمْ ؛ وَرَكِبَ خَالِدٌ وَمَعَهُ جَرَجَةُ وَالرُّومُ خِلَالَ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَنَادَى النَّاسُ
فَثَابُوا ، وَتَرَاجَعَتِ الرُّومُ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ .

فَزَحَفَ خَالِدٌ بِهِمْ حَتَّى تَصَافَحُوا بِالسِّيُوفِ ، فَضَرَبَ فِيهِمْ خَالِدٌ وَجَرَجَةُ مِنْ
لَدُنِ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ إِلَى جُنُوحِ الشَّمْسِ لِلْفُزُوبِ ، ثُمَّ أُصِيبَ جَرَجَةُ ، وَلَمْ يَصِلْ صَلَاةَ

(١) شَنَ : صَبَ .

سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الأولى والعصر إيماء .
وتهدّ خالد للروم ، ووقف عكرمة - وكان على الحامية - ونادى في الناس :
من يبائع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور ، في أربعمائة
من وجوه المسلمين وفرسانهم ، ونشب القتال .

وكان السكان واسع المطرد ، ضيق المهرب ، وتضايقت خيل الروم ،
فلما وجدت مذهباً ذهبت تشتدّ في الصحراء ، وأفرج لها المسلمون ، وترك فرسانهم
الرجال في مصافهم ، وتفرّقوا في كل مذهب لا يلوون على شيء .

وأقبل خالد والمسلمون على الرجل^(١) فضؤم ، فكأنما هُدم بهم حائط ،
فاقتحموا في خندقهم ، فاقتحمه عليهم ، فعمدوا إلى الواقوسة فهووا فيها ، فكان
عدد من نهقت فيها يزيد على مائة وعشرين ألفاً ، سوى من قتل في المعركة من الخيل
والرجل ؛ وقاتلوا حتى الليل ، حيث وقعت الهزيمة على الروم ، وقتل الله صناديدهم
وفرسانهم وقتل أخوه رقل ! وانتهت الهزيمة إلى هرقل وهو دون حصن فجعلها
بينه وبينهم ، وأمر عليها .

وفي ذلك اليوم أبلى المسلمون وقاتلوا ، حتى النساء كان لهنّ نصيب ، يقمن
بِسَقَى الجند ، ومداواة الجرحى ؛ وأصيب من وجوه المسلمين أكثر من
ثلاثة آلاف قتلوا جميعاً إلا من برأ منهم .

وأتى خالد بعد المعركة بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على نغذه ، وبعمرو بن عكرمة
فوضع رأسه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجوههما ، ويقطر في حلقهما الماء ؛
ويقول : كلا ! زعم ابن الحنظلة^(٢) أنا لا نستشهد !

(١) الرجل : الراجلون ، غير الركبين .

(٢) يريد عمر بن الخطاب .

ولما انتهت الموقعة سلّم خالد الكتاب إلى أبي عُبيدة بالإمارة ، ثم قال : الحمد لله
الذى قضى على أبي بكر بالموت ، وكان أحبَّ إلىَّ من عُمر ، والحمد لله الذى ولّى عُمر ،
وكان أبغض إلىَّ من أبي بكر ثم ألزمنى حبّه .

وقسّمت الغنائم ، فكان سهمُ الفارسِ ألفاً وخمسمائة . ثم نادى أبو عُبيدة
بالرحيل ، فارتحل المسلمون بزخفهم حتى وضعوا عساكرهم بمرج الصُّفَر ،
وأقام فيها أبو عُبيدة وقال : لا أبرح حتى يأتى أمر عمر ...

٣١ — يوم النمارق*

بعد أن ودّع المثنى بن حارثة الشيباني خالد بن الوليد في مسيره إلى الشام أقام بالحيرة، ووضع المسلحة^(١) وأذكى الميؤن.

وأما الفرس فإنهم قد استقاموا على شهريران بن أردشير، فوجه إلى المثنى جنداً عظيماً عليهم هرمز جاذويه في عشرة آلاف، نخرج المثنى نخوه، وجعل على مجنبتيه الممسنى ومسعودا أخويه، وأقام ببابل، وفيها جاءه من كسرى شهريران كتاب جاء فيه: إني قد بعثت إليكم جنداً من أهل فارس وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير، ولست أقاتلك إلا بهم.

فأجابه المثنى: من المثنى إلى شهريران؛ إنما أنت أحد رجلين: إما باغٍ فذلك شرٌّ لك وخيرٌ لنا، وإما كاذبٌ فأعظم الكذب بين عقوبةً وفضيحةً عند الله وفي الناس - الملوك. وأمّا الذي يدّئنا عليه الرأى فإنكم إنما اضطررتم إليهم؛ فالحمد لله الذي ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير.

فجزع الفرس من كتابه، ثم التفت جيوش هرمز وجيوش المثنى ببابل، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان فيلهم يفرق^(٢) منه المسلمون؛ فانتدب^(٣) له المثنى في جمع

* لأبي عبيدة على هرمز (الفرس) سنة ١٣. والنمارق: موضع قرب الكوفة من أرض العراق.

الطبري ٦٢/٤. ابن الأثير ٢١٢/٢. ابن خلدون ٨٧/٢.

(١) للسلحة: القوم ذوو سلاح.

(٢) يفرق: يخاف ويفزع.

(٣) قال الجوهري: يقال: ندبه الأمر فانتدب له، أي دعاه له فأجاب.

مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلُوهُ ، وَانْهَزَمَ الْفُرْسُ وَتَبِعَهُمُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْمَدَائِنِ يَقْتُلُونَهُمْ .
وَنَزَلَتْ أَنْبَاءُ الْهَزِيمَةِ بِشَهْرِيرَانَ نَزُولِ الصَّاعِقَةِ ؛ فَحُتِّمَتْ وَمَاتَ .

وَأَرَادَ الْفُرسُ أَنْ يُمْلِكُوا عَلَيْهِمْ ابْنَةَ كَسْرَى لِيَفْرُغُوا إِلَى تَنْظِيمِ شُؤْنِهِمْ ، فَلَمْ يُنْفِذْ لَهَا أَمْرًا فَخُلِعَتْ . وَخَلَفَهَا عَلَى الْعَرْشِ سَابُورُ بْنُ شَهْرِيرَانَ . وَاسْتَوَزَرَ سَابُورُ الْفَرُّخْزَادَ ، وَأَرَادَ أَنْ يَزَوِّجَهُ آزَرْمِيدُخْتَ ابْنَةَ كَسْرَى ، فَغَضِبَتْ إِلَّا يَكُونَ زَوْجُهَا مِنْ بَيْتِ الْمَلِكِ ، وَقَالَتْ لِسَابُورَ : يَا بْنَ عَمِّ ؛ أَتَزَوِّجُنِي عَبْدِي ! لَكِنَّ سَابُورَ لَمْ يَسْمَعْ لِقَوْلِهَا وَأَغْلَظَ لَهَا فِي الْخُطَابِ ، فَاسْتَعَانَتْ بِأَحَدِ قُتَاتِكِ الْأَعْجَمِ . فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةَ الْعُرْسِ ، وَدَخَلَ الْفَرُّخْزَادُ مَخْدَعَ آزَرْمِيدُخْتَ ثَارَ بِهِ الْفَاتِكُ فَقَتَلَهُ وَمَنْ مَعَهُ ، ثُمَّ سَارَ بِابْنَةِ كَسْرَى وَأَعْوَانِهَا إِلَى سَابُورَ فْخَاصَرُوهُ وَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ ، وَجَلَسَتْ آزَرْمِيدُخْتَ عَلَى الْعَرْشِ مَكَانَهُ .

وَتَرَامَتْ هَذِهِ الْأَنْبَاءُ إِلَى الْمُثَنَّى ، فَسَارَ بِجَيْشِهِ يَطَارِدُ الْفُرسَ حَتَّى بَلَغَ أَبْوَابَ الْمَدَائِنِ ، ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِانْتِصَارِهِ عَلَى الْفُرسِ ، وَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْإِسْتِمَانَةِ بِمَنْ ظَهَرَتْ تَوْبَتُهُمْ مِنْ أَهْلِ الرَّدَّةِ ، لَكِنَّ انْتِظَارَهُ طَالَ ، وَأَبْطَأَ عَلَيْهِ رَدُّ الْخَلِيفَةِ ، فَانْسَحَبَ فِي الْجَيْشِ إِلَى أَذْنَى الْعِرَاقِ مِنْ حُدُودِ الْبَادِيَةِ ، وَاسْتَخْلَفَ بِشِيرَ بْنَ الْخِصَاصِيَّةِ عَلَى مَنْ بِالْعِرَاقِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَهَبَ بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُقْنِعَ أَبَا بَكْرٍ بِرَأْيِهِ .

فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ وَأَبُو بَكْرٍ مَرِيضٌ قَدْ أَشْفَى عَلَى الْمَوْتِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتَقْبَلَهُ ، وَسَمِعَ إِلَيْهِ ، وَاقْتَنَعَ بِرَأْيِهِ ، وَقَالَ : عَلَيَّ بِمُعَرٍّ - وَكَانَ قَدْ اسْتَخْلَفَهُ - فَلَمَّا جَاءَ قَالَ لَهُ : اسْمَعْ يَا مُعَرُّ مَا أَقُولُ لَكَ ، ثُمَّ اْعْمَلْ بِهِ ، إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ أَمُوتَ مِنْ يَوْمِي هَذَا ، فَإِنْ أَنَا مِتُّ فَلَا تُمَسِّينَ حَتَّى تَنْدُبَ النَّاسَ مَعِ الثَّنِي . وَإِنْ تَأَخَّرْتُ إِلَى اللَّيْلِ فَلَا

تُصَيِّحُنَ حَتَّى تَنْدُبَ النَّاسَ مَعَ الْمُثَنَّى . وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ مَصِيبَةُ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ وَوَصِيَّةِ رَبِّكُمْ . وَقَدْ رَأَيْتَنِي مُتَوَقِّفًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا صَنَعْتُ وَلَمْ يُعْصَبِ الْخَلْقُ بِمِثْلِهِ ، وَبِاللَّهِ لَوْ أَنَّي عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ لَخَذَلْنَا وَلَعَاقَبْنَا ، فَاضْطَرَمَّتِ الْمَدِينَةُ نَارًا ، وَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى أُمَرَاءِ الشَّامِ فَارِدُ أَصْحَابِ خَالِدٍ إِلَى الْعِرَاقِ ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَاةُ أَمْرِهِ ؛ وَهُمْ أَهْلُ الصَّرَاوَةِ بِهِمْ ، وَالْجُرَاءُ عَلَيْهِمْ .

فَلَمَّا فَرَغَ عُمرُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ نَدَبَ النَّاسَ مَعَ الْمُثَنَّى قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ ، مِنْ اللَّيْلَةِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ أَصْبَحَ فَبَايَعَهُ النَّاسَ ، وَنَدَبَهُمْ إِلَى فَارَسَ ، وَتَتَابَعَ النَّاسُ عَلَى الْبَيْعَةِ ، فَفَرَّغُوا فِي ثَلَاثَ كُلِّ يَوْمٍ يَنْدُبُهُمْ فَلَا يَنْتَدِبُ أَحَدٌ إِلَى فَارَسَ ؛ وَكَانَ وَجْهُ فَارَسَ مِنْ أَكْرِهِ الْوَجُوهَ إِلَيْهِمْ ، وَأَثْقَلَهَا عَلَيْهِمْ ، لِشِدَّةِ سُلْطَانِهِمْ وَشَوْكَتِهِمْ وَعِزِّهِمْ وَقَهْرِهِمُ الْأَمَمَ ؛ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعَ عَادَ فَنَدَبَ النَّاسَ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَتَكَلَّمَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ ؛ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسَ ، لَا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهُ ؛ فَإِنَا قَدْ تَبَجَّجَبَحْنَا^(١) رَيْفَ فَارَسَ ، وَغَلَبْنَاهُمْ عَلَى خَيْرِ شَيْءٍ السَّوَادِ^(٢) ، وَشَاطَرْنَاكُمْ وَنَلَفْنَا مِنْهُمْ ، وَاجْتَرَأْنَا مِنْ قِبَلِنَا عَلَيْهِمْ ، وَلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا .

وَقَامَ عُمرُ فِي النَّاسِ فَقَالَ : إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بَدَارٍ إِلَّا عَلَى النَّجْمَةِ^(٣) ، وَلَا

(١) التَّبَجَّجَحَ : التَّمَكَّنَ فِي الْحُلُولِ وَالْمَقَامِ .

(٢) السَّوَادُ : قَرْيَةُ الْعِرَاقِ وَضِيَاعُهَا الَّتِي فَتَحَهَا الْمَدُونُ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، سَمِيَ بِذَلِكَ

أَسْوَادُهُ بِالزَّرْوَعِ وَالنَّخِيلِ وَالْأَشْجَارِ .

(٣) النَّجْمَةُ : طَلَبُ الْكَلْبِ فِي مَوْضِعِهِ .

يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلَّا بِذَلِكَ . أَيْنَ الطَّرَاءُ ^(١) الْمَاهِجُونَ عَنْ مَوْعِدِ اللَّهِ ؟ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمْوَهَا ؟ فَإِنَّهُ قَالَ : « لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ » ، وَاللَّهُ مُظْهِرُ دِينِهِ ، وَمُيَزِّنُ نَاصِرَهُ ، وَمَوْلَى أَهْلِهِ مَوَارِيثَ الْأَرْضِ . أَيْنَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ !

فَكَانَ أَوَّلَ مُنْتَدِبٍ أَبُو عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ ^(٢) ، ثُمَّ ثَقِيفِي سَعْدُ بْنُ عُبَيْدٍ وَسَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ . فَلَمَّا اجْتَمَعَ ذَلِكَ الْبَعْثُ ، قِيلَ لِعَمْرِ : أَمْرٌ عَلَيْهِمْ رَجُلَانِ مِنَ السَّابِقِينَ مِنَ الْمَاهِجِينَ وَالْأَنْصَارِ .

قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَقْدِرُ ، إِنْ اللَّهُ رَفَعَكُمْ بِسَبْقِكُمْ وَسُرْعَتِكُمْ إِلَى الْعَدُوِّ ، فَإِذَا جَبَنْتُمْ وَكَرِهْتُمُ الْإِقَاءَ ، فَأَوَّلِي بِالرِّيَاسَةِ مِنْكُمْ مَنْ سَبَقَ إِلَى الدَّفْعِ ، وَأَجَابَ إِلَى اللَّهِ ؛ وَاللَّهُ لَا أَوْمَرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا أَوَّلَهُمْ انْتِدَابًا .
ثُمَّ دَعَا أَبَا عُبَيْدٍ فَأَمَرَهُ ، وَدَعَا سَلِيطًا وَسَعْدًا ، فَقَالَ لَهُمَا : أَمَا إِنِّ كِلَا لَوْ سَبَقْتُمَا لَوَلَّيْتُكُمَا .

ثُمَّ قَالَ لِأَبِي عُبَيْدٍ : اسْمَعْ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَشْرِكْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَا تَجْعَلْهُ مُسْرِعًا حَتَّى تَقْبِلَ ؛ فَإِنَّهَا الْحَرْبُ ، وَالْحَرْبُ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الرَّجُلُ الْمَكِيثُ ^(٣) الَّذِي يَعْرِفُ الْفُرْصَةَ وَالْكَفَّ .

وَعَجَّلَ الثَّنَى إِلَى عَسْكَرِهِ ، وَأَبُو عُبَيْدٍ بِمَنْ مَعَهُ ، وَكَانُوا خَمْسَةَ آلَافٍ فِي أَثَرِهِ ،

(١) الطَّرَاءُ : الْفَرَاءُ ، وَهِيَ الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

(٢) أَبُو عُبَيْدِ بْنِ مَسْعُودٍ : يَنْتَهِي نَسَبُهُ إِلَى ثَقِيفٍ ، وَهُوَ وَالِدُ الْمُخْتَارِ بْنِ أَبِي عُبَيْدٍ الْمَشْهُورِ فِي

خِلَافَتِهِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ .

(٣) الْمَكِيثُ : الرَّزِينُ .

وصار أبو عبيد يستغفر من يمر بهم من العرب ؛ فأجابه بشر كثير . ووصل المثنى إلى الحيرة ؛ وجاء بعده أبو عبيد بقليل .

وكان الفرس في ذلك العهد قد ولّوا عليهم آزر مبدخت ملكة ، واختارت هي رستم أحد عظماء الفرس ، قائداً عاماً للجنود الفارسية ؛ ودانت له الفرس حينما ورد أبو عبيد . وكان أول ماصنع رستم أن كتب إلى دهاقين^(١) السواد أن يثوروا بالمسلمين ، ودس في كل رستاق^(٢) رجلاً ليثور بأهله ؛ وكان ممن أرسله جابان ونزرى من القواد ، فأثاروا الناس من أعلى الفرات إلى أسفله ؛ واجتمع جند عظيم قام في النمارق^(٣) ، ونزل المثنى يخفان^(٤) ، ثم تلاحم الجيشان ، واقتتلوا اقتتالا شديداً ، ثم انهزمت الفرس وأسر جابان ، كما أسير قائد تحت إمرته يدعى مردان شاه ؛ فأما أسير مردان شاه فقتله ، وأما أسير جابان فقد خدعه جابان ؛ فقال له : إنكم معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا وكذا ؟ قال : نعم . قال : فأدخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه . ففعل وأجاز أبو عبيد أمانه . ولما علم بنو تميم أنه الرئيس قالوا لأبي عبيد : أقتله فإنه الأمير . قال : وإن كان الأمير ؛ أيؤمته صاحبكم وأقتله أنا ! معاذ الله ؛ مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم !

وقسم أبو عبيد الغنائم ، وكان فيها عطر كثير ونفل ، وبعث بالأخماس إلى عمر .

(١) الدهقان : رئيس الإقليم ، ويطلق على زعيم فلاحى المعجم .

(٢) الرستاق : مجموعة القرى . (٣) موضع كما تقدم .

(٤) خفان : مأسدة قرب الكوفة (الفاموس) .

٣٢ — يوم السَّاقَطِيَّة*

كانت كَسْكَر^(١) قَطِيْمَةً لِنَرْسِي ابنِ خَالَةِ كَسْرِي ؛ وكان التَّرْسِيَان^(٢) له يَحْمِيهِ ؛ لا يَأْكُلُهُ سِوَاهُ وَلَا يَغْرِسُهُ غَيْرُ أَهْلِ كَسْكَر .

فلما انهزم الفرسُ يوم النَّمَارِق قال رستم القائد لِنَرْسِي : اشْخَصْ إِلَى قَطِيْمَتِكَ فَاخْمِهَا مِنْ عَدُوِّكَ وَعَدُوَّنَا ، وَكُنْ رَجُلًا .

فلما رأى أَبُو عُبَيْدِ الْغَالَةِ^(٣) مُتَوَجِّهِينَ نَحْوَ نَرْسِي نَادَى بِالرَّحِيلِ ، وَقَالَ لَجُنْدِهِ : انْتَبِعُونِي .

فلما رأى الفرسُ سَهْمِيَّ أَبِي عُبَيْدٍ وَرِجَالَهُ وَجَّهُوا جَيْشًا لِيُعِينَ نَرْسِي ، عَلَى رَأْسِهِ الْجَالَنُوسُ ؛ وَلَكِنْ أَبَا عُبَيْدٍ عَاجِلُ الْقَوْمِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُمْ الْمَدَدُ ؛ وَكَانَ الْمُتَنَنِّي عَلَى تَمَبُّثِهِ الْمَاضِيَةِ ، وَالتَّقْوَا بِالسَّاقَطِيَّةِ ، وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا . ثُمَّ انْهَزَمَتْ فَارِسُ ، وَهَرَبَ نَرْسِي ، وَغَلَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَرْضِهِ وَتَمَرَّهْ وَعَسْكَرِهِ ، وَأَخْرَبَ^(٤) أَبُو عُبَيْدٍ مَا كَانَ حَوْلَ مُعْسَكِرِهِمْ ، وَجَمَعَ الْفَنَائِمَ ، فَرَأَى مِنْ الْأَطْعَمَةِ شَيْئًا عَظِيمًا ، فَبَعَثَ فَيَمَنْ يَلِيهِ مِنْ

* لأبي عبيد على نرسي والجالنوس (الفرس) . سنة ١٣ . والسقاطية : ناحية بأرض كسكر قريبة من واسط .

تاريخ الطبري ٦٤/٤ ، معجم البلدان ٩١/٥ ، ابن الأثير ٢١٣/٢ ، ابن خلدون ٨٨/٢

(١) كسكر : كورة واسعة ، كانت قصبتها خسرو سابور ، ثم سارت واسط قصبتها .

(٢) الترسيان ضرب من التمر يكون أجوده ، واحده ترسيانة وأهل العراق يضربون الزبد

بالترسيا مثلاً لا يستطاب . (٣) الغالة : المهزمون . (٤) أخرب : مثل خرب بتشديد الراء .

العرب ، فانتقموا ماشاءوا ، وأخذت خزائن نرسي ، فلم يكونوا بشيء مما خُزِفَ
أفرَحَ منهم بالترسيان .

فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين ، وبعثوا بخمسه إلى عمر ، وكتبوا إليه :
إنَّ الله أطعمنا مطاعم كانت للأكسرة يحمونها ، وأحببنا أن تروها ، لتذكروا
إنعام الله وإفضاله .

وأقام أبو عبيد بكسكر ، وسرح الثني وغيره من القواد ، يُغيرون على
النواحي ، ويفلّون^(١) عصائب الجنود المتفرقة هناك ، ثم صالحه من خاف من بقي .
وجاء الدهاقين^(٢) إلى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة فارس وقالوا : هذه كرامة
أكرمناك بها قرى لك . قال : أأكرمتم الجند وقرىتموهم مثله ؟ قالوا :
لم يتيسر ، ونحن فاعلون . قال : لا حاجة لنا فيه ؛ بس المرء أبو عبيد إن صحب
قوماً من بلادهم أهرأقوا دماءهم دونه أو لم يُهريقوا ، فاستأثر عليهم شيء يُصيبه !
لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم . ولم يأكل من
طعامٍ أتى به الدهاقين غداة ذلك اليوم حتى عليم أنهم قرّبوا مثله لأصحابه .
ثم ارتحل أبو عبيد ، وقدم الثني في تعبثته حتى قدم الحيرة واستقر بها .

(١) فل القوم : هزمهم .

(٢) الدهقان : زعيم فلاحى المعجم ورئيس الإقليم .

٣٣ — يوم قس الناطف*

رجع الجالانوس منهزماً ، ومعه جنوده في يوم السَّقَاطِيَّة ، فقال رُسْتَم : أَيُّ
الْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تَرَوْنَ ؟ قَالُوا : بَهْمَن جَاذَوِيه^(١) . فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ الْفِيلَةُ ،
وَرَدَّ الْجَالَنُوسَ مَعَهُ ، وَقَالَ لَهُ : قَدَّمَ الْجَالَنُوسُ ، فَإِنْ عَادَ لَمَلَّهَا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ .
وَسَارَ بَهْمَنُ مِنَ الْمَدَائِنِ يَقْصِدُ مُوَاجَهَةَ عَدُوِّهِ وَالْقَضَاءَ عَلَيْهِ ، وَمَعَهُ رَايَةٌ
كِسْرَى ، وَكَانَتْ مِنْ جُلُودِ النَّمْرِ ، عَرْضُ ثَمَانِيَةِ أَذْرَعٍ ، فِي طُولِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ
ذِرَاعاً ، وَنَزَلَ بِقُسِّ النَّاطِفِ .

وَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ ، فَزَلَ الْمَرْوَحَةَ ، وَعَسَّكَرَ بِهَا ، وَجَعَلَ الْفُرَاتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْعَدُوِّ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَهْمَنُ جَاذَوِيه : إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَنَدْعَاكُمْ وَالْعُبُورَ ، وَإِمَّا أَنْ
تَدْعُونَا نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ .

فَقَالَ النَّاسُ : لَا تَعْبُرُوا يَا أَبَا عُبَيْدٍ ، نَنْهَاكَ عَنِ الْعُبُورِ ، فَخَفَ لِيَقْطَعَ الْفُرَاتَ
إِلَيْهِمْ .

فَنَاشَدَهُ سُكَيْطُ بْنُ قَيْسٍ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، وَقَالُوا : إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَلَقَ مِثْلَ جُنُودِ
فَارِسَ مَذْكَاتُوا ، وَإِنَّهُمْ قَدْ حَفَلُوا^(٢) لَنَا وَاسْتَقْبَلُونَا مِنَ الزُّهَاءِ^(٣) وَالْمُدَّةِ بِمَا لَمْ يَكُنَّا

* لِلْفَرَسِ (بَهْمَن) عَلَى الْعَرَبِ (أَبِي عُبَيْدٍ) سَنَةُ ١٣ . وَقَسِ النَّاطِفُ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ
الْكُوفَةِ عَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ الشَّرْقِيِّ . وَيُسَمَّى أَيْضاً يَوْمَ الْمَرْوَحَةِ ، وَهُوَ مَوْضِعٌ بِشَاطِئِ الْفُرَاتِ
الْغَرْبِيِّ . وَقَدْ يُسَمَّى يَوْمَ الْجَسْرِ لِأَنَّ مِنْ قِطْعِهِ وَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ .

الطَّبْرِي ٦٧/٤ . ابْنُ الْأَثِيرِ ٢/٢١٤ . ابْنُ خَلْدُونِ ٢/٩٠ . مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ ٧/٨٨ . فَتَوْحُ
الْبُلْدَانِ ٢٥٢ .

(١) كَانَ بَهْمَنُ يُقَلَّبُ بِذِي الْحَاجِبِ ، لِأَنَّهُ كَانَ يَعْصِبُ حَاجِبِيهِ لِيَرْفَعَهُمَا عَنْ عَيْنَيْهِ كَبَرًا .

(٢) حَفَلُوا ، أَيُّ اجْتَمَعُوا وَاحْتَشَدُوا .

(٣) يُقَالُ : قَوْمٌ ذُو زُمَاءٍ ، أَيُّ عِدَدٌ كَثِيرٌ .

به أخذ منهم ، وقد نزلت منزلاً لنافيه مجالاً وملجأً ومرجعاً ، من فرقة إلى كَرَّةٍ .

فقال : لا أفعلُ ، جَبَنْتَ واللهِ يا سُلَيْطُ ! فقال سُلَيْطُ : أنا واللهِ أجزأُ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالراى فستعلم ! فلجَّ أبو عبيد ، وترك الراى ، وقال : لا يكونون أجزأً على الموت منا ؛ بل نعبُرُ إليهم .

وكانت زوج أبي عُبيد رأت رؤياً : أن رجلاً نزل من السماء بإناء فيه شراب ، فشرب منه أبو عُبيد في أناس من أهله ، وأخبرت بذلك أبا عبيد ، فقال : هذه هى الشهادة ، وأوصى بمن يخلقه في الجيش إذا مات .

وأمر جنوده بالعبور ؛ فعبروا من المروحة - حيث تحصنوا - إلى قسّ الناطف - حيث أقام الفرس - وعبر سُلَيْطُ بن قَيْسٍ في مقدمة العابرين .

وكان جندُ المسلمين دونَ عشرة آلاف ، ومع ذلك ضاق بهم المكان الذى تركه لهم الفرس وراء الجسر ، فلم يكن لهم فيه مرجع من فرقة إلى كَرَّةٍ ، ولم يُعْمِلْهُمْ بِهِمْ حِينَ تَمَّ عُبُورُهُمْ أَنْ أَمَرَ جُنُودَهُ فحملوا عليهم ، وفي مقدمتهم الفيلةُ عليها الجلاجل ، ونظرت خيولُ المسلمين إلى هذه الفيلة ، وسمعت رنينَ جلاجلها فأنكرت ما رأت وما سمعت ، وفرت ، فلم يثبت منها إلا القليل على كُرَّةٍ . ورشق الفرسُ المسلمين بالنبل فقتلوا منهم خلقاً كثيراً^(١) .

واشتدَّ الأمرُ بالمسلمين ، فترجل أبو عُبيد والناس ، ومشوا إلى الفرس وصاغحوم بالسيوف ؛ فحملت الفيلةُ لا تحيلُ على جماعةٍ إلا دفعتهم . فنادى

(١) الفاروق عمر ، للدكتور هيكل .

أبو عبيد : اَحْتَوَسُوا^(١) الْفَيْلَةَ ، واقطعوا بُطْنَهَا^(٢) ، واقلبوها عنها أهلها .
وفعل القوم ذلك ، فما تركوا فيلاً إلا حَطَّوْا رَحْلَهُ ، وقتلوا أحبابه .

ووثب هو على الفيل الأبيض ، فقطع بِطَانَهُ ، فوقع الذين عليه ، وضرب خرطومَه
بالسيف ، ولكنَّ الفيل تقدَّم لأبي عبيد وضربه برجله ، فألقاه على الأرض ، ثم
وقف فوقه فأزهقَ رُوحه .

فلَمَّا بَصُرَ به الناسُ تحتَ الفيل خشعتْ أنفُسُ بعضهم ، ثم أخذ اللواء الذى
أمره بعده ، فقاتل الفيلَ حتى تنحى عن أبي عبيد ، فأخذه المسلمون فَأَحْرَزُوهُ ، ثم
قتل الفيلَ ، وتتابع سبعةٌ من ثقيف ، كلُّهم يأخذُ اللواء ، ويقاتل حتى يموت ، ثم
أخذ اللواء الثَّانِي فمرب عنه الناس .

فلَمَّا رأى عبدُ الله بن مرثد الثقفى مالتى أبو عبيد وخلفاؤه ؛ وما يصنع الناس ،
بادرهم إلى الجِسرِ فقطعه ، وقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ؛ مَرْتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أَسْرَاؤُكُمْ
أَوْ تَظْفَرُوا ، وحاز المشركون المسلمين إلى الجِسر ، فتوالت بعضهم إلى الفرات ، ففرق
من لم يَصْبِرْ .

وَحَشَى الثَّانِي أَنْ تَمَّ الْفَوْضَى ، فوقف اللواء بيده يُنَادِي : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّا
دُونَكُمْ فَأَعْبَرُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ^(٣) ، وَلَا تَذْهَبُوا ؛ فَإِنَّا لَنُزَايِلُ حَتَّى نَرَاكُمْ مِنْ
ذَلِكَ الْجَانِبِ ، وَلَا تُفَرِّقُوا أَنْفُسَكُمْ .

فَعَبَرُوا الْجِسرَ ، وعبدُ الله بنُ مرثد قائمٌ عليه يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْمُبُورِ ،
فأخذه وأتوا به الثَّانِي فضرَبه ، وقال : مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ ؟ قَالَ :
لِيُقَاتِلُوا .

(١) قال في اللسان : احتوش القوم الصيد ، إذا نفره بعضهم على بعض .

(٢) البطن : جمع بطن : الحزام . (٣) على هَيْئَتِكُمْ : أى متمهلين .

وقاتل عُرْوَةُ بْنُ زَيْدٍ الْخَلِيلَ قِتَالًا شَدِيدًا ، وَأَبُو مُحَمَّدٍ الْمُثَنَّى ، وَقَاتَلَ أَبُو زَيْدٍ
الطَّائِيَّ ؛ حَمِيَّةً لِلْعَرَبِيَّةِ — وَكَانَ نَصْرَانِيًّا قَدِمَ الْحِيرَةَ لِبَعْضِ أَمْرِهِ .

وَنَادَى الْمُثَنَّى : مَنْ عَبَّرَ نَجَا . ثُمَّ أَصْلَحَ الْجِسْرَ ، فَعَبَّرَ النَّاسَ ، ثُمَّ عَبَّرَ بِمَنْ مَعَهُ
إِلَى الْمَرْوَحَةِ وَهُوَ جَرِيحٌ ، ثُمَّ أَرَفَضَ عَنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ حَتَّى لَحَقُوا بِالْمَدِينَةِ ، وَسَارَ بَعْضُهُمْ
فِي الْبَوَادِي اسْتَحْيَاءً مِنَ الْهَزِيمَةِ .

وَبَعَثَ الْمُثَنَّى بِخَبَرِ الْهَزِيمَةِ إِلَى عُمَرَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدٍ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ :
مَا عِنْدَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ فَأَخْبَرَهُ خَبَرَ النَّاسِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ — وَقَدْ سَمِعَتْهُ يَحْدُثُ عَمْرٌ :
مَا سَمِعْتُ بِرَجُلٍ حَضَرَ أَمْرًا لِحَدَّثَ عَنْهُ كَانَ أَثْبَتَ خَبْرًا مِنْهُ .

فَلَمَّا قَدِمَ فَلَّ النَّاسِ^(١) وَرَأَى عُمَرُ جَزَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ
الْفِرَارِ قَالَ : لَا تَجْزَعُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أَنَا فَتَيْتُكُمْ ؛ إِنَّمَا انْحَزْتُكُمْ إِلَى .
ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ كُلَّ مُسْلِمٍ فِي حُلٍّ مِنِّي ، أَنَا فِئَةٌ كُلُّ مُسْلِمٍ ، مَنْ لَقِيَ الْعَدُوَّ
فَقَطَعَ بَشِيءًا مِنْ أَمْرِهِ فَأَنَّا لَهُ فِئَةٌ ، يَرْحِمُ اللَّهُ أَبَا عُبَيْدٍ ! لَوْ كَانَ انْحَازَ إِلَى لَكُنْتُ
لَهُ فِئَةٌ .

وَسَمِعَ مُعَاذَ الْقَارِيَّ — وَكَانَ مِنْ شُهَدَاءِ وَفَرٍّ — مِنْ يَقْرَأُ^(٢) : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ
يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّجًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ ، فَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : لَا تَبْكُ يَا مُعَاذُ ، أَنَا فَتَيْتُكَ ،
وَإِنَّمَا انْحَزْتُ إِلَى .

(١) الفل من الناس : المهزومون منهم .

(٢) سورة الأنفال ، آية ١٦ .

٣٤ — يوم البُوَيْب *

بعد أن بلغت الهزيمةُ بالمسلمين مبلغها يوم قُسَّ النَّاطِفِ نَدَبُ^(١) عُمَرَ النَّاسِ
إِلَى الْمُثَنَّى بْنِ حَارِثَةَ ؛ وَكَانَ فِيهِمْ نَدَبُ^(٢) جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي قَوْمِهِ مِنْ بَحِيلَةٍ ،
وَعِصْمَةُ بْنُ الْحَارِثِ فِيهِمْ تَبِعَهُ مِنْ ضَبَّةَ ، وَكَتَبَ إِلَى أَهْلِ الرَّدَّةِ يَسْتَنْفِرُهُمْ ، وَلَمْ
يُؤَافِهِ أَحَدٌ إِلَّا رَمَى بِهِ الْمُثَنَّى ؛ فَتَوَافَى إِلَيْهِ جَمْعٌ عَظِيمٌ .

وَبَلَغَ رَسْتَهُمُ وَالْفَيْرُزَانَ مَا عَلَيْهِ الْمُثَنَّى ، وَمَا يَنْتَظِرُ مِنَ الْمَدَدِ ، فَجَمَعَا جُنْدًا عَظِيمًا
جَمَلًا عَلَيْهِ الْقَائِدَ مَهْرَانَ الْهَمْدَانِيَّ وَأَمْرَاهُ أَنْ يُسْرِعَ السَّيْرَ لِلِقَاءِ هَؤُلَاءِ
الْفَرَاقَةِ الْمُسْلِمِينَ .

وَعَرَفَ الْمُثَنَّى مَسِيرَةَ هَذَا الْجَيْشِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى جَرِيرٍ وَعِصْمَةَ وَكُلَّ مَنْ أَنَاهُ مُبَدِّئًا
لَهُ يُعَلِّمُهُمُ بِالْخَبَرِ ، وَيُؤَاعِدُهُمُ الْبُوَيْبَ .

فَانْتَهَوْا إِلَى الْمُثَنَّى وَهُوَ بِالْبُوَيْبِ ، وَمَهْرَانُ بِإِزَائِهِ مِنْ وَرَاءِ الْفَرَاتِ ، وَقَدْ أَرْسَلَ

* للعرب (المثنى بن حارثة) على الفرس (مهران الهمداني) . سنة ١٣٣ . والبويب : نهر
بالعراق يأخذ من الفرات . وقد يسمى يوم مهران ، ويسمى يوم الأعشار ، لأن مائة رجل من
العرب قتل كل واحد منهم عشرة من الفرس .

الطبري ٧١/٤ ، ابن الأثير ٢١٥/٢ ، ابن خلدون ٩٠/٢ ، معجم البلدان ٣١٠/٢ ، فتوح
البلدان ٢٥٣ .

(١) هذه رواية ابن الأثير وقال البلاذري : مكث عمر بن الخطاب سنة لا يذكر العراق لمصاب
أبي عبيد وسليط ، وكان المثنى مقبلاً باليس يدعو العرب للجهاد . ثم إن عمر ندب الناس إلى العراق
فجهلوا يتحامونه ويتناقضون عنه ، حتى هم أن يغزو بنفسه ، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو
الشام فدعاهم إلى العراق ، ورغبهم في غنائم آل كسرى ، فردوا الاختيار إليه ، فأمرهم بالشخوس .
(٢) قال البلاذري : وقدم جرير بن عبد الله في بحيلة ، فسأل أن يأتي العراق على أن يعطى
وقومه ربع ما غلبوا عليه ، فأجابته عمر إلى ذلك .

إلى المثنى : إما أن تعبّرَ إلينا، وإما أن نعبّرَ إليك ؛ فقال المثنى : اعبروا ؛ فعبّرَ مهزّان، ونزل مع جُنْدِهِ على شاطئ الفُرات .

وعبّى المثنى أصحابه ، وكان في رمضان ، فقام خطيباً وقال : إنكم صوّام ؛ والصّومُ مرَقَّةٌ ومضمَمَةٌ ، وإنى أرى من رأى أن تُفطِروا ، فتَقَوُوا بالطعام على عدوّكم . قالوا : نعم ، وأفطروا .

وأَبَصَرَ المثنى رجلاً يَسْتَوْفِرُ وَيَسْتَنْتِلُ^(١) من الصّف ، فقال : مابالُ هذا ؟ قالوا : هو رَمَنٌ فرّ يوم الزّحف يوم الجِسر^(٢) ، وهو يريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال : لا أَبالك ! الزّم موقفك ؛ فإذا أتاك قرنك فأغنيه عن صاحبك ، ولا تستقتل ، فقال : إني بذلك لجدير ، واستقرّ ولزِم الصّف .

وأقبل الفرسُ في ثلاثة صفوف ، مع كل صفٍ فيل ، ورجلهم أمام فيلتهم . وأخذ المثنى يطوفُ في صفوفه ، وَيَعْمِدُ إليهم بَعْدَهُ ، وهو على فرسه الشّمس ، ووقف على الرّاياتِ رايةً رايةً ؛ يُحَضِّضُهُمْ ويأمرهم بأمره ، وَيَهْزُهُمْ بأحسن ما فيهم ، تحضيضاً لهم ، ولكلٍّ منهم يقول : إني لأرجو ألا تُوتى العربُ اليوم من قبلكم ، والله ما يسرّني اليوم لنفسى شيء إلا وهو يسرّ لِعَامَّتِكُمْ . فيجيبونه بمثل ذلك .

وأنصفهم المثنى في القول والفعل ، وخلط الناس في المكروه والمحبوب ، فلم يَسْتَطِعْ أحد منهم أن يعيبَ له قولاً ولا عملاً .

ثم قال : إني مكبّرٌ ثلاثاً ، فتهيّئوا ، ثم احمِلوا مع الرابعة .

فلما كَبَّرَ أوّلَ تكبيرةٍ أَعْجَلَهُمْ أَهْلُ فارس وعاجلهم ، فغالطهم مع أوّل

(١) استوفز . تهيأ للوثوب . استقتل : تقدم .

(٢) انظر يوم قس الناطف : ص ٢٣٠ .

تكبيرة ، واختلَّت لِشِدَّةِ الفُرْسِ بَعْضُ صُفُوفِ المسلمين ؛ فأرسل إليهم المثنى مَنْ يقول لهم : إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول : لا تَفْضَحُوا المسلمين اليوم ، فقالوا : نعم ، واعتدَلوا .

ولما طال القتالُ واشتدَّ عَمِدُ المثنى إلى أنس بن هلال النَمَرِيّ ؛ فقال : يا أنس ، إنك امرؤ عَرَبِيٌّ^(١) ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتني حملتُ على مِهْرَانٍ فاحمل معي . وحمل المثنى على مِهْرَانٍ ، فأزاله حتى دخل في مَيْمَنَتِهِ ؛ ثم خالطوهم ، واجتمع القلبان ، وارتفع الغبار ، والمجنَّباتُ تَقْتَتِلُ ، لا يستطيعون أن يَفْرُغُوا لِنَصْرِ أميرهم لا المشركون ولا المسلمون ، وارتث^(٢) مسعود أخو المثنى يومئذ ، وجماعة من أعيان المسلمين .

ولما أُصِيبَ مسعودُ بن حارثة تَضَمَّضَ مِنْ مَعِهِ ، فقال : يا معاشر بكر ؛ ارفعوا رَايَتَكُمْ رَفَعَكُمْ اللهُ ؛ ولا يَهُوُلَنَّكُمْ مَضَرَعِي . وكان المثنى قال لهم : إذا رأيْتُمونا أُصِيبْنَا فلا تَدْعُوا ما أنتم فيه ؛ الزمُوا مصافِّكم ، وأغنوا عمن يَليكم . وأوجع قلبُ المسلمين في قلبِ المشركين ، وقتلَ غلامٌ نصرانيٌّ مِنْ تَغْلِبِ مِهْرَانٍ ، واستوى على فرسه ؛ وأخذت المجنَّباتُ يَقْتُلُ بعضُها بعضاً ؛ والمسلمون في القلبِ يَدْعُونَ لهم بالنصر ، والمثنى يقول : انصُرُوا اللهُ يَنْصُرْكُمْ ، حتى انهزم الفُرسُ وفرُّوا .

فساَبَقَهُمُ المثنى إلى الجِسْرِ فسبقهم ، وأخذ طريقهم ، فاقترقوا بشاطئِ الفُراتِ مصعدين ومصويين ، واعتَوَرَتَهُمْ خيولُ المسلمين حتى قتلوهم وجعلوهم جُثًّا ، فسا كانت بين المسلمين والفرس وقعة أبْقَى رِمَّةً منها .

(١) كان أنس بن هلال من نصارى النمر ، قدم في جمع عظيم من قومه وهم على النصرانية وقالوا تقابل مع قومنا .
(٢) ارتث : أصبح جريحاً مشارفاً للهلاك .

ولما فرغوا جلس المثنى للناس من بعد الفراغ ، يحدّثهم ويحدثونه ، وكلما جاء رجل فتحدّث قال له : أخبرني عنك . فقال له قُرط بن جحّاح : قتلْتُ رجلاً فوجدتُ منه رائحةَ المسك ، فقلت : « مَهْرَان » ، ورجوتُ أن يكون إِيَّاه ، فإذا هو صاحبُ الخيل « شهر بزار » ، فوالله ما رأيته - إذ لم يكن مَهْرَان - شيئاً .

فقال المثنى : قد قاتلتُ العربَ والعجمَ في الجاهلية والإسلام ، والله لِمائةٍ من العجمَ في الجاهلية كانوا أشدَّ علىَّ من ألفٍ من العرب ، ولِمائةٍ اليوم من العرب أشدُّ علىَّ من ألفٍ من العجم ؛ إن الله أذهب قوّتهم وأوّهن كيدهم ؛ فلا يروعنكم زُهَاءُ^(١) تروّنه ، ولا سَوَادٌ ، ولا قِيسٍ^(٢) فُجّ^(٣) ، ولا نِبَالٍ طوال ؛ فإنهم إذا أُعْجِلُوا عنها ، أو فقدوها كانوا كالبهائم ، أينما وجهتموها اتّجهت .

وقال ربعي^(٤) : لَمَّا رَأَيْتُ رُكُودَ الْحَرْبِ واحتدامها قلت : تترسّوا بالمجان^(٥) فإنهم شاذّون عليكم ؛ فاصبروا لشدّتين ، وأنا زعيمٌ لكم بالظفر في الثالثة ؛ فأجابني والله ، فوقَّ الله كفّالتي .

وقال عَرْفَجَة : حُزْنَا كَتِيبَةً منهم إلى الفُرَات ، ورجوتُ أن يكون الله تعالى قد أذن في غرقهم ، وسلّى عنا بها مُصِيبَةَ الْجَسَرِ ؛ فلما دخلوا في حدّ الإحراج نكروا علينا ، فقاتلناهم قتالاً شديداً ، حتى قال بعضُ قَوْمِي : لو أَخَّرْتَ رَأَيْتَكَ ا فقلت : على إقدامها ، وحملتُ بها على حاميّتهم فقتلتُهُ ، فوَلَّوْا نحو الفُرَات ، فما بلغه أحدٌ منهم فيه الرُّوح .

(١) عدد كثير . (٢) قوس نجاء : بان وترها عن كبدها .

(٣) هو ربعي بن عامر بن خالد التميمي . (٤) تترس . تستر بالترس . والمجن : الترس ،

وجمه مجان .

ثم عاد الثنّى فقال - وقد ندم - على أخذه بالجسر : لقد عجزت عجزاً وفقى الله شرّها بمسابقتي إليهم إلى الجسر ، وقطعه حتى أخرجتهم ، فإني غير عائد ؛ فلا تعودوا ولا تقتدوا بآيها الناس ؛ فإنّها كانت منى زلّة ؛ لا ينبغي إخراج أحدٍ إلا من لا يقوى على امتناع .

ومات أناسٌ من أخرجى من أعلام المسلمين ؛ منهم خالد بن هلال ومسعود ابن حارثة ، فصلّى عليهم الثنّى وقال : والله كيّهونٌ علىّ وجدى أن شهدوا البؤبؤ ؛ أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكسوا .

وأصاب المسلمون غماً ودقيقاً وبقراً ؛ فبعثوا به إلى عيال من قدم من المدينة ؛ وفي هذه الواقعة يقول الأعور الثنّى :^(١)

هاجت لأعور دار الحى أخزاناً	واستبدلت بعد عبد القيس همداًنا ^(٢)
وقد أراناً بها والشمل مجتمع	إذ بالثخيلة قتلى جند مهرانا ^(٣)
أزمان سار الثنّى بالخيول لهم	فقتل القوم من فرس وجيلاناً
سمّاً لأجناد مهران وشيعته	حتى أبادهم مثنى ووخذاناً
ما إن رأينا أميراً بالعراق مضى	مثل المثنى الذى من آل شياناً
إن الثنّى الأمير القرم لا كذب	في الحرب أشجع من ليث بخفاناً ^(٤)

(١) الطبرى : ٣ - ٤٧١ . (٢) فى الطبرى : « خفانا » .

(٣) الثخيلة : موضع على سمت الشام فى العراق .

(٤) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

٣٥ — القادسية *

قال أهل فارس لرُسْتَمَ والفيرزان ؛ وهما على أهل فارس : أَيْنَ يُذْهَبُ بِكُمَا ! لم يَبْرَحْ بِكُمَا الاختلافُ حتى أَوْهَنْتُمَا أَهْلَ فَارِسُ وَأَطَعْتُمَا فِيهِمْ عَدُوَّهُمْ ، وإنه لم يبلغ من خطركما أن تَقَرَّكما فارس على هذا الرَّأْيِ ، وأن تُمرَّضاها لِلْهَلَكَةِ^(١) ؛ والله لَتَجْتَمِعَانِ أَوْ لَتَبْدَأَنَّ بِكُمَا قَبْلَ أَنْ يَشْمَتَ بِنَا شَامِتٌ .

فقال الفَيْرُزَانُ ورستم لبُورَابِ ابنة كسرى : اكتبى لنا نساء كِسْرَى وَسَرَارِيَهُ^(٢) ونساء آل كسرى وسَرَارِيَهُمْ ؛ ففعلت ، ثم أخرجت ذلك إليهما .
فأرسلَا في طَلَبِيهِنَّ ، فلم يبقَ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا أَتَوْا بِهَا ، فأخذوهن بالرجال ، ووضعوا عليهن العَذَابَ ؛ يستدلّونهنَّ على ذَكْرِ مَنْ أَبْنَاءُ كسرى ، فلم يوجدْ عندهنَّ مِنْهُنَّ أَحَدٌ ؛ إِلَّا غُلَامٌ يُدْعَى يَزْدَجَرْدُ من ولد شهریار بن كسرى ؛ وأمه من أهل بادُورِيَا^(٣) ؛ فأرسلوا إليها ودلّتهم عليه ؛ فجاءوا به فُلِّكُوهُ ؛ وهو ابنُ إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه ، واطمأنَّتْ فارس ؛ وتبارى الرؤساء في طاعته ومَعُونَتِهِ .

بلغ المُثَنَّى بن حارثة ذلك ؛ فكتب به إلى مُعَمَّر ، ولم يصل الكتابُ إلى عمر حتى كَفَرَ أَهْلُ السَّوَادِ^(٤) ؛ مَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ ، وخرج المُثَنَّى على حَامِيَتِهِ حتى نَزَلَ بِزِي قَارِ^(٥) .

* الطبرى ٨١/٤ ، ومعجم البلدان ٦/٧ . كان سنة ١٤ . والقادسية : موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا .

(١) الهلكة : الهلاك . (٢) سرارى : جمع سرية : الأمة التى بوأتها بيتا . (٣) بادوريا : بلد قريب من بغداد . (٤) السواد : البلاد التى انتسبها المسلمون من العراق ، سميت بذلك لسوادها بالزروع والتخيل والأشجار . (٥) ذوفار : ماء لبكر بن وائل ، قريب من الكوفة .

ثم جاءهم كتابُ عُمرَ ، وفيه : أما بعد ؛ فأخرجوا من بين ظَهْرِي ^(١) الأعاجم ، وتفرّقوا في المياه التي تلي الأعاجم على حُدُودِ أرضِكُم وأرضهم ؛ ولا تدعُوا في رِيْمةٍ أحداً ولا مُضَر ، ولا حلفائهم من أهلِ النَّجْدَات ولا فارساً إلا اجتلبتموه ؛ فإن جاء طائماً وإلا حشرتُموه ، احمِلُوا العربَ على الجِدِّ إذا جدَّ المعجم ، فلتلقُوا جدَّهم بجِدِّكم .

فكان القومُ في أمّوَاهِ ^(٢) العراق ؛ من أولها إلى آخرها مَسَالِح ^(٣) ؛ بعضهم ينظر إلى بعض ، ويُعيثُ بعضهم بعضاً إن كَانَ كَوْنٌ ، وذلك في ذى القعدة من السنة الثالثة عشرة من الهجرة .

وفي ذى الحجة من السنة نفسها كتب عُمرُ إلى عمّالِ العرب على الكُور ^(٤) والقبائل : لا تدعُوا أحداً له سِلَاحٌ أو فَرَسٌ أو نَجْدَةٌ أو رَأْيٌ إلا انتخبتموه ، ثم وجهتموه إلى ، والمَعَجَلِ العَجَلِ !

ففضتِ الرُّسُلُ إلى مَنْ أرسلهم إليه ، مُخَرَّجَةً إلى الحجِّ ؛ ووافاه من القبائل مَنْ كانت طرقها على مَكَّةَ والمدينة في مكة ، فأما مَنْ كان من أهل المدينة على النِّصْفِ ما بينه وبين العراق فوافاه بالمدينة مرَّجَعَهُ من الحجِّ ؛ وأما من كانوا أَسْفَلَ من ذلك فانضمُّوا إلى المُتَنَّى . وَمَنْ وَاقُوا عُمرَ أَخْبَرُوهُ عَمَّن وراءهم بِالْحَثِّ .

وفي أوَّلِ يومٍ من المحرم من السنة الرابعة عشرة خرج عُمرَ حتى نزل على ماء يُدعى صِرَاراً ^(٥) ، فَمَسَّكَرَ به ولا يَدْرِي الناسُ ما يُريدُ : أَيَسِيرُ أَمْ يَقِيمُ ؟ وكانوا إذا أرادوا أَنْ يَسْأَلُوهُ عن شيء رَمَوْهُ بِعُثْمَانَ بنِ عَفَّان ، أو بعبد الرحمن بن عَوْف ،

(١) ظهري الأعاجم : وسطهم . (٢) أمواه : جمع ماء .

(٣) المسالِح : جمع مسلحة ، وهي القوم ذوو سلاح . (٤) الكور : جمع كورة ، وهي

الصقم . (٥) صرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة ، على طريق العراق .

وكانوا إذا لم يقدرْ هذان على علمِ شيءٍ مما يُريدون ثلثوا بالعبّاس ، فقال عثمان
لعمر : ما الذى تريد ؟ فنادى : الصَّلَاةُ جامعة .

فلما اجتمع الناسُ سألهم رأيهم فيمن يسيرُ على رأس الجيش إلى العراق ، فقال
العامّة : سِرٌّ وسِرٌّ بنا مَعَكَ . فدخل معهم في رأيهم ، وكَرِهَ أن يدعَهم إلّا أن
يَخْرُجُوا من هذا الرأى في رِفْقٍ ؛ فقال : استعدّوا وأعدّوا ؛ فإنى سائرُ إلّا أن يحىءَ
رأى هو أمثلُ^(١) من ذلك .

ثم جمع أهلَ الرأى ، فاجتمع إليه وجوهُ أصحابِ النّبى صلى الله عليه وسلم
وأعلامُ العرب ، فقال أخضرُونى الرأى ؛ فإنى حائرٌ ، فأجمعَ مَلَكُهم^(٢) على أن
يَبْعَثَ عُمَرُ رجلاً من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُقيمَ هو بالمدينة ،
ويَرْمِيهِ بالجنود ، فإن كان الذى يَشْتَهِي من الفَتْحِ ، فهو الذى يُريدُ ويريدون ،
وإلّا أعاد رجلاً وندبَ جُنُداً آخر ، وفى ذلك ما يَنِيظُ العدوَّ ويشدُّ أزرَ المسلمين ،
حتّى يحىءَ نَصْرُ الله .

فنادى عُمَرُ مرّةً ثانيةً : الصَّلَاةُ جامعةٌ ! فاجتمع الناسُ إليه ، وأرسل إلى علىّ
كَرَّمَ الله وَجْهَهُ - وكان قد استخلفه على المدينة - فأُتاه ، وإلى طَلْحَةَ - وقد بعثه علىّ
المقدّمة - فرجع إليه .

وقام فى الناس فقال : إنّ الله عزّ وجلّ قد جمع على الإسلام أهله ، فألّف بين
القلوب ، وجعلهم فيه إخواناً ؛ وكذلك يحقُّ على المسلمين أن يَكُونُوا
وامرُهم شُورَى بينهم وبين ذوى الرأى منهم ، فالناسُ تَبَعٌ لِمَن قام بهذا
الأمر ؛ ما اجتمعوا عليه ورَضُوا به لَزِمَ الناسَ وكانوا فيه تَبَعاً لهم ،

(١) أمثل : أفضل . (٢) الملا : الأشراف .

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَكُنْتُ كَرَجُلٍ مِنْكُمْ ، حَتَّى صَرَفَنِي ذَوُو الرَّأْيِ مِنْكُمْ عَنِ
الْخُرُوجِ ؛ فَقَدْ رَأَيْتُ أَنَّ أُقِيمَ وَأُبْعَثَ رَجُلًا ، وَقَدْ أَحْضَرْتَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ قَدَمْتِ
وَمِنْ خَلَلْتِ (١) .

فَكَانَ طُلُوحَةُ مِمَّنْ تَابَعَ النَّاسَ ، وَكَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ مِمَّنْ نَهَاهُ . قَالَ
عَبْدُ الرَّحْمَنِ : مَا فِدَيْتُ أَحَدًا بِأَبِي وَأُمِّي بِعَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ يَوْمِئِذٍ
وَلَا بَعْدَهُ ؛ فَقُلْتُ : بِأَبِي وَأُمِّي ! أَلَيْسَ وَابِعُثْ جَنْدًا ؛ فَقَدْ رَأَيْتَ قَضَاءَ اللَّهِ لَكَ فِي
جُنُودِكَ قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ إِنْ يُهْزَمَ جَيْشُكَ لَيْسَ كَهَزِيمَتِكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ تُقْتَلَ أَوْ
تُهْزَمَ فِي أَنْفِ (٢) الْأَمْرِ خَشِيتُ أَلَّا يُكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَلَّا يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ أَبَدًا .

فَقَالَ عُمَرُ : فَأَشِيرُوا عَلَيَّ بِرَجُلٍ .

وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ عَامِلًا لِعُمَرَ عَلَى صَدَقَاتِ هَوَازِنَ ، وَكَانَ فِيمَنْ كَتَبَ
إِلَيْهِ عُمَرُ بِانْتِخَابِ ذَوِي الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ ؛ مِمَّنْ كَانَ لَهُ سِلَاحٌ أَوْ فَرَسٌ ؛ فَجَاءَ كِتَابُهُ :
إِنِّي قَدْ انْتَخَبْتُ لَكَ أَلْفَ فَارِسٍ ، كُلُّهُمْ لَهُ نَجْدَةٌ وَرَأْيٌ ، وَمُصَاحِبٌ
حَيَاطَةٌ ؛ يَحْوَطُ حَرِيمَ قَوْمِهِ ، وَيَنْعِي ذِمَّارَهُمْ (٣) ؛ إِلَيْهِمْ انْتَهَتْ أَحْسَابُهُمْ ،
فَشَأْنُكَ بِهِمْ .

وَوَافَقَ كِتَابُهُ مَشُورَتَهُمْ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : وَجَدْتُهُ ؛ قَالَ : مَنْ هُوَ ؟ قَالَ :
الْأَسَدُ فِي بَرَائِنِهِ ؛ سَعْدُ (٤) . وَمَالَأَهُ أُولُو الرَّأْيِ .

فَاتَّهَى عُمَرُ إِلَى رَأْيِهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ ؛ فَقَدِمَ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَهُ عَلَى حَرْبِ

(١) يريد عليا وطلحة .. (٢) أنف الأمر : أول الأمر .

(٣) الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته . (٤) هو سعد بن أبي وقاص مالاك بن وهب وهو

الذي ذكره بعد باسم سعد بن وهيب .

العراق ، وأوصاه فقال : يأسعد ، سعد بن وهيب ، لا يعرفك من الله أن قيل :
خال^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ؛ فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ^٢
بالسيئ^٢ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن ؛ فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا
طاعته ؛ شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون
بالعاقبة ؛ ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت النبي صلى الله
عليه وسلم عليه منذ بُعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر ؛ هذه عظمتي إليك ، إن
تركها ورغبت عنها حبط عملك^(٢) وكنت من الخاسرين .

ولما أراد أن يسرّحه دعاه فقال : إني وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتي ،
فإنك تقدم على أمر كرهه شديد ، لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن
مك الخير ، واستفتح به . واعلم أن لكل عادة عتادا ، فتأد الخير الصبر ، فالصبر
الصبر على ما أصابك أو نأباك ، يجمع لك خشية الله . واعلم أن خشية الله تجتمع
في أمرين : في طاعته وفي اجتناب معصيته ، وإنما أطاعه من أطاعه يبعث الدنيا
وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبعث الآخرة ، وللقلوب حقائق
ينشئها الله إنشاء ، منها السر ومنها العلانية ، فأما العلانية فإن يكون حامده وذامه
في الحق سواء ، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبحبة
الناس ، فلا تزهّد في التجبّب ، فإن النبيّين قد سألوا محبّتهم ، وإن الله إذا أحب عبدا
حبّه ، وإذا أبغض عبدا أبغضه ، فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس
ممن يشرع معك في أمرك .

ثم قال عمر : والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ، فلم يدع رئيساً

(١) كان سعد من بني زهرة أخوال النبي ، وكان من أسبق قريش إلى الإسلام .

(٢) حبط عمله : بطل ثوابه .

وَلَا ذَا رَأْيٍ وَلَا ذَا شَرَفٍ وَلَا ذَا سُلْطَةِ وَلَا خَطِيئًا وَلَا شَاعِرًا إِلَّا رَمَاهُمْ بِهِ ، فَرَمَاهُمْ
بُوجُوهَ النَّاسِ وَغُرَرِهِمْ .

وَفَصَّلَ سَعْدُ عَنْ الْمَدِينَةِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، ثَلَاثَةٌ يَمِّنُ قَدَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْيَمَنِ وَالسَّرَاةِ
وَأَلْفٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ . وَشَيَّعَهُمْ عُمَرُ مِنْ صِرَّارٍ إِلَى الْأَعْوَصِ ^(١) ، ثُمَّ قَامَ فِي
النَّاسِ خَطِيئًا ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا ضَرَبَ لَكُمْ الْأَمْثَالَ ، وَصَرَّفَ لَكُمْ الْقَوْلَ
لِيُخَيِّبَ بِهَا الْقُلُوبَ ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَيِّتَةٌ فِي صُدُورِهَا حَتَّى يُحْيِيَهَا اللَّهُ ، مَنْ عَلِمَ شَيْئًا
فَلْيَنْتَفِعْ بِهِ . وَإِنْ لِلْمَدَلِّ أَمَارَاتٍ وَتَبَاشِيرَ ؛ فَأَمَّا الْأَمَارَاتُ فَالْحَيَاءُ وَالسَّخَاءُ
وَالْهَيْبَةُ وَاللَّيْنُ ، وَأَمَّا التَّبَاشِيرُ فَالزُّهْمَةُ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ بَابًا ، وَيَسَّرَ
لِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحًا ، فَبَابُ الْمَدَلِّ الْإِعْتِبَارُ ، وَمِفْتَاحُهُ الزُّهْدُ . وَالْإِعْتِبَارُ ذِكْرُ الْمَوْتِ
بِتَذَكُّرِ الْأَمْوَاتِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لَهُ بِتَقْدِيمِ الْأَعْمَالِ ؛ وَالزُّهْدُ اخْتِزَاجُ الْحَقِّ مِنْ كُلِّ
أَحَدٍ قَبْلَهُ حَقٌّ ، وَتَأْدِيَةُ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ لَهُ حَقٌّ ؛ وَلَا تُصَانِعْ فِي ذَلِكَ أَحَدًا ،
وَإِذَا كَتَفَ بِمَا يَكْفِي مِنَ الْكَفَافِ ؛ فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَكْفِهِ الْكَفَافُ لَمْ يُغْنِهِ شَيْءٌ ؛
إِنِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ ، وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَحَدٌ ؛ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَلَزَمَنِي دَفْعَ الدَّمَاءِ عَنْهُ ،
فَأَنْهَوْا شَكَاتَكُمْ إِلَيْنَا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيُؤْمَرْ مِنْ يَبَلِّغُنَا ، نَأْخُذْ لَهُ الْحَقَّ غَيْرَ
مُنْقُوصٍ ..

وَأَمْرَ سَعْدًا بِالسَّيْرِ ، وَقَالَ : إِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى زَرْوُدٍ ^(٢) فَانْزِلْ بِهَا ؛ وَتَفَرَّقُوا
فِيمَا حَوْلَكُمْ مِنْهُمْ ، وَانْتَخِبْ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ وَالْمَدَّةِ .
ثُمَّ أَمَدَّ عُمَرُ سَعْدًا بَعْدَ خُرُوجِهِ بِالْفَيْيَ يَمَانِيٍّ وَالنَّبِيِّ نَجْدِيٍّ مِنْ غَطَفَانَ
وَسَائِرِ قَيْسٍ .

(١) الأعوص : موضع قرب المدينة .

(٢) زرود : ماء على طريق الحاج إلى الكوفة .

وقدم سعد زرود في أول الشتاء فنزلها؛ وتفرقت الجنود فيها حولها من أمواه^(١) بنى تميم وأسد، وانتظر اجتماع الناس وأمر عمر، وانتخب من بنى تميم والرباب أربعة آلاف، وانتخب من بنى أسد ثلاثة آلاف، وأمرهم أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة^(٢)؛ فأقاموا هناك بين سعد بن أبي وقاص وبين المثنى بن حارثة؛ وكان مع المثنى ثمانية آلاف من ربيعة؛ ممن بقى بعد فصول^(٣) خالد وممن بقى يوم الجسر، وكان مع المثنى ألفان من اليمن...

وبينا الناس كذلك: سعد يرجو أن يقدم المثنى؛ والمثنى يرجو أن يقدم عليه سعد مات المثنى من جرأته يوم الجسر.

ثم نزل سعد بشراف^(٤)، ركت إلى عمر بمنزله وبمنزل الناس، فكتب إليه عمر: إذا جاءك كتابي هذا فعهش^(٥) الناس وعرف عليهم، وأمر على أجنادهم، وعيبتهم، وأمر رؤساء المسلمين فليشهدوا، وقدرهم وهم شهود، ثم وجههم إلى أصحابهم، وواعدهم القادسية، واضمهم إليك المغيرة بن شعبة في خيله، واكتب إلى بالذي يستقر عليه أمرهم.

فبعث سعد إلى المغيرة فانضم إليه؛ وإلى رؤساء القبائل فأتوه، وقدر الناس وعيبتهم، وأمر أمراء الأجناد، وعرف العرفاء^(٦)؛ ففرق على كل عشرة رجلاً ممن له وسائل في الإسلام، وأمر على الرايات رجالاً من أهل السابقة؛ وولى الحروب رجالاً؛ فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقيتها^(٧) وطلانها ورجلها

(١) أمواه: جمع ماء.

(٢) يطلق الحزن على مواضع كثيرة، أشهرها حزن بنى يربوع. والبسيطة: موضع بين الكوفة وحزن بنى يربوع.

(٣) فصول: خروج.

(٤) شراف: ماء بنجد. (٥) عشرت الشيء: عشرين. كان تسعة فزدت واحداً حتى تم عشرة.

(٦) العريف: رئيس القوم، وجمعه عرفاء. (٧) بساقة الجيش: مؤخره.

ورُكبانها ؛ ولم يَفْصِلْ إلا على تَعْيِيَةِ ؛ ولم يخرج من شَرَّاف إلا بكتاب عمر وإذنه .

فأما أمراء التَّعْيِيَةِ فاستعمل زُهْرَةَ بن عبد الله على المقدمات ، وزهرة كان مَلِكَ هَجَرَ في الجاهلية ، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وقدمه . واستعمل على اليمين عبد الله بن المَعْتَم ، وكان من أصحاب رسول الله . واستعمل على الميسرة شُرَحْبِيل ابن السَّمْط السِّكِنْدِي ، وكان غلاماً شاباً ؛ أَهْلَى في حَرْبِ الرَّدَّة ، وجعل عاصم بن عمرو على السَّاقَةِ ، وسواد بن مالك على الطلائع ، وعلى الرَّجُل حَمَّال بن مالك الأَسَدِي ، وعلى الرُّكْبَان عبد الله بن ذِي السَّهْمَيْنِ الْخُثَمِيُّ ؛ فكان أمراء التَّعْيِيَةِ يُلَوْنَ الأمير ، وأمراء الأعشار يُلَوْنَ أمراء التَّعْيِيَةِ ، وأصحابُ الرِّايَاتِ يُلَوْنَ أمراء الأعشار ، والقُوَّادُ رؤسُ القبائل يُلَوْنَ أصحابَ الرِّايَاتِ . وكان على القضاء عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي ، وجُعِلَ إليه قِسْمَةُ الْقَتْلِ ، وجعل داعيتهم ورائدُهم سلمان الفارسي ؛ والترجمان هلال الهَجَرِي ؛ والكتاب زياد بن أبي سفيان .

فلما فرغ سعدٌ من تَعْيِيَتِهِ ، وأَعَدَّ لكل شَيْءٍ عُدَّتَهُ كتب بذلك إلى عمر ؛ وقبل رُجُوع الكتابِ مِنْ عمر قدم المَعْتَمُ بن حارثة وسَلِمَى بنت خَصْفَةَ التَّيْمِيَّةَ إلى سَعْدٍ بوصِيَّةِ المَعْتَمِ بن حارثة ورَأْيِهِ ؛ فذكر رأْيَهُ لسعد ؛ ألا يقاتل عَدُوَّهُ من أَهْلِ فَارِسِ إذا اسْتَجْمَعَ أمرُهم في عُمْرٍ دَارِهم ، وأنْ يُقَاتِلَهُمْ على حدود أرضهم ، على أدنى حَجَرٍ من أرض العرب ، وأَذْنَى مَدَرَةٍ ^(١) في أرض العَجَم ، فإنْ يُظْهِرِ اللهُ المسلمين عليهم فَلَهُمْ ما وراءهم ؛ وإن يكن الأخرى فَأَهْوُوا إلى فِتْنَةٍ ^(٢) ، ثم يكونون أَعْلَمَ بسبيلهم وأَجْرًا على أرضهم إلى أن يردَّ اللهُ الكَرَّةَ عليهم .

(١) المدر : قطع الطين اليابس ، واحدته مدرة . والعرب تسمى القرية مدرة .

(٢) الفتنه : الطائفة من الناس .

فلما انتهى إلى سعدٍ رأى المُشَنَّى ووصيتهُ ترحم عليه كثيراً ، وأمر المعنى على عمله ، وأوصى بأهل بيته خيراً ، وخطب سلمى فزوجها وبني بها .
ثم قدم على سعد وهو بشراف كتابٍ عمر بمثل رأى المُشَنَّى ، إذ قال : أما بعد ، فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على أمرك كله ؛ واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمةٍ عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة^(١) وبأسهم شديد ؛ وعلى بلدٍ مَنيع وإن كان سهلاً ، كثود^(٢) لبخوره وفيوضه ودأبه^(٣) ، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض^(٤) ؛ وإذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابذوهم الشدة والضرب ، وإياكم والمناظرة لجموعهم ، ولا يخذعنكم ، فإنهم خدعة مكررة ، أمرهم غير أمركم ، إلا أن تجادوهم ؛ وإذا انتهيت إلى القادسية . والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي أجمع تلك الأبواب لمدتهم ، ولما يريدونه من تلك الأصل^(٥) ؛ وهو منزل رغب^(٦) خصيب ، دونه قناطر وأنهار ممتعة ، فتكون مسالكك على أنقابها^(٧) ، ويكون الناس بين الحجر والمدّر على حافات الحجر وحافات المدّر ؛ ثم الزم مكانك ، فلا تبرحه ؛ فإذا أحسوك أنفضتهم^(٨) رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدّهم ، فإن أنتم صبرتم لعدوّكم ، واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ، ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً ؛ إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وإن تكن الأخرى كان الحجر في أذرباركم ، فانصرفتم من أدنى مدرة

(١) فاضلة : زائدة . (٢) عقبة كشود وكأداء : صعبة .

(٣) الدأدى : جمع دأداء ؛ وهو الفضاء وما اتسع من القلاع والأودية .

(٤) غاض الماء غيضاً : قل ، وفاض فيضاً : كثر ، والمعنى : قليلاً من كثير .

(٥) الأصل والأصول : جمع أصل . (٦) رغب : يرغب فيه ، أو واسع .

(٧) أنقاب : جمع نقب : الطريق بين الجبلين ، يريد طرقها .

(٨) أنفضتهم : حركتهم وأثارتهم .

من أرضهم إلى أَدْنَى حَجَرٍ من أرضكم ؛ ثم كنتم عليها أجراً ، وبها أعلم ؛ وكانوا عنها أجبن ، وبها أجهل ، حتى يأتي الله بالفتح عليهم ، ويردّ لكم الكرامة .

وكتب إليه باليوم الذى يرتحل فيه من شراف . فسار سعد على تميميته ، والكتب بينه وبين عمر متواصلة .

ثم جاءه من عمر كتاب آخر قال فيه : أما بعد فتعاهد قلبك ، وحادث جندك بالموعظة والنية الحسنة . والصبر العبر ؛ فإن المعونة تأتي من الله على قدر النية ، والأجر على قدر الحسنة ، والحذر الحذر على من أنت عليه ، وما أنت بسبيله ، واسألوا الله العافية ، وأكثرُوا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ؛ واكتب إلى : أين بلغك جمعهم ، ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم ؛ فإنه منمنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه ، والذى استقر عليه أمر عدوكم ، فصيف لنا منازل المسلمين ، والبلد الذى بينكم وبين المدائن - صفة كأنى أنظر إليها ؛ واجعلنى من أمركم على الجلية^(١) ، وخف الله وارجه ؛ ولا تدل بشيء . واعلم أن الله قد وعدكم ، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له ، فاحذر أن تصرفه عنك ، ويستبدل بكم غيركم .

فكتب إليه سعد بصفة البلدان : القادسية بين الخندق والعتيق ، وأن ما عن يسار القادسية بحر أخضر فى جوف لاح^(٢) إلى الحيرة بين طريقين ؛ فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطئ نهر يدعى الحوض^(٣) ، يطلح بمن سلكه على ما بين الخورنق والحيرة ، وأن ما عن يمين القادسية إلى الوجة فيض من

(١) الجلية : الخبر اليقين .

(٢) الجوف : المطن من الأرض ، ومكان لاح : ضيق .

(٣) الحوض : نهر كان بين القادسية والحيرة .

فِيُؤْضِي مِيَاهِهِمْ ، وَأَنْ جَمِيعَ مَنْ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ قَبْلِي إِنْ ب^(١) .
لَأَهْلَ فَارِسَ ، قَدْ خَفُّوا لَهُمْ وَاسْتَعْدُّوا لَنَا ، فَمَنْ يَحَاوِلُونَ إِنْغَاضَنَا^(٢) ، وَإِفْحَامَنَا ،
وَنَحْنُ نَحَاوِلُ إِنْغَاضَهُمْ وَإِبْرَازَهُمْ ، وَأَمْرُ اللَّهِ بَعْدُ مَاضٍ ، وَقَضَاؤُهُ مُسْلِمٌ إِلَى مَا قَدَّرَ
لَنَا وَعَاقِبَتَا ، فَسَأَلَ اللَّهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ وَخَيْرَ الْقَدَرِ فِي عَاقِبَةٍ .

فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : « قَدْ جَاءَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتُهُ ، فَأَقِمْ بِمَكَانِكَ حَتَّى يُنْفِضَ
اللَّهُ لَكَ عَدُوَّكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا مَا بَعْدَهَا ، فَإِنْ مَنَحَكَ اللَّهُ أَدْبَارَهُمْ فَلَا تَنْزِعْ^(٣) .
عَنْهُمْ حَتَّى تَقْتَحِمَ عَلَيْهِمُ الْمَدَائِنَ ، فَإِنَّهُ خَرَابُهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

وَجَعَلَ عُمَرُ يَدْعُو لِسَعْدِ خَاصَّةً ، وَيَدْعُو مَعَهُ لِلْمُسْلِمِينَ عَامَةً .

ثُمَّ عَادَ عُمَرُ فَكُتِبَ إِلَيْهِ : « إِنِّي قَدْ أَتَيْتُ فِي رُؤْيَى^(٤) أَنْتُمْ إِذَا لَقِيتُمُ الْعَدُوَّ
وَهَزَمْتُمُوهُمْ فَاطْرَحُوا الشَّكَّ ، وَآثَرُوا التَّقِيَّةَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ لَاعَبَ أَحَدٌ مِنْكُمْ أَحَدًا
مِنَ الْعَجَمِ بِأَمَانٍ ، أَوْ قَرَفَهُ^(٥) بِإِشَارَةٍ أَوْ بِلِسَانٍ ، فَكَانَ لَا يَدْرِي الْأَعْجَمِيُّ مَا كُلُّهُ بِهِ ،
وَكَانَ عِنْدَهُمْ أَمَانًا ، فَأَجْرُوا ذَلِكَ لَهُ مَجْرَى الْأَمَانِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالضَّحِيكَ . وَالْوَفَاءُ
الْوَفَاءُ ! فَإِنْ أَلْخَطَأَ بِالْقَدْرِ الْهَلَكَةَ ، وَفِيهَا وَهْنُكُمْ ، وَقُوَّةُ عَدُوِّكُمْ ، وَذَهَابُ
رِيحِكُمْ^(٦) ، وَإِقْبَالُ رِيحِهِمْ . وَاعْلَمُوا أَنَّي أُحَذِّرُكُمْ أَنْ تَكُونُوا شِدْنًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ،
وَسَبِيًّا لِلتَّوْهِيبِ مِنْهُمْ .

وَأَقَامَ سَمْعَدُ بِالْقَادِسِيَّةِ شَهْرًا ، ثُمَّ كُتِبَ إِلَى عُمَرَ : كَمْ يُوجِبُهُ الْقَوْمُ إِلَيْنَا أَحَدًا ،
وَلَمْ يُسَيِّدُوا إِلَى أَحَدٍ قِيَادَةَ جَيْشٍ لِحَارِبَتِنَا ، وَمَتَى يَبْلُغُنَا ذَلِكَ نَكْتُبُ بِهِ ، وَاسْتَنْصَرَ
اللَّهُ ، فَإِنَّا بِمَنْجَاةٍ^(٧) دُنْيَا عَرِيضَةٍ ، دُونَهَا بَأْسٌ شَدِيدٌ ، قَدْ تَقَدَّمَ إِلَيْنَا فِي الدَّعَاءِ إِلَيْهِمْ
فَقَالَ : ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾^(٨) .

(١) هم ألب عليه بفتح الهزرة وكسرهما : مجتمعون عليه بالظلم والعداوة

(٢) إِنْغَاضَنَا : إِمَّا جِئْنَا . (٣) تَنْزِعُ : تَكْفُ . (٤) الرُّوْعُ : الْقَلْبُ . (٥) قَرَفَهُ : دَانَاهُ

(٦) رِيحِكُمْ : قُوَّتُكُمْ . (٧) بِمَنْجَاةٍ : بِنَاحِيَةٍ . (٨) سُورَةُ الْفَتْحِ ١٦ .

(١٦ - أَيَّامُ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ)

وَبَعَثَ سَعْدٌ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى أَسْفَلِ الْفَرَاتِ عَاصِمَ بْنِ عَمْرٍو ، فَسَارَ حَتَّى أَتَى مَيْسَانَ^(١) ، فَطَلَبَ غَنَمًا أَوْ بَقْرًا ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وَأَوْغَلَتْ فِي الْأَجَامِ ، وَأَوْغَلَ خَلْفَهُمْ حَتَّى أَصَابَ رَجُلًا عَلَى أَجْمَةٍ ، فَسَأَلَهُ وَاسْتَدَلَّهُ عَلَى الْبَقْرِ وَالْغَنَمِ ، فَخَلَفَ لَهُ ، وَقَالَ : لَا أَعْلَمُ ؛ وَإِذَا هُوَ رَاعِي مَا فِي تِلْكَ الْأَجْمَةِ . فَدَخَلَ وَاسْتَأْذَنَ الثَّيْرَانَ ، وَاتَى بِهَا الْعَسْكَرَ ، فَقَسَمَ ذَلِكَ سَعْدٌ عَلَى النَّاسِ فَأَخْضَبُوا أَيَّامًا . وَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ آيَةٌ تَبَشِيرٌ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى رِضَاءِ اللَّهِ وَنَصْرِهِ .

ثُمَّ إِنَّ سَعْدًا بَعَثَ عِيُونًا إِلَى أَهْلِ الْخَيْرَةِ لِيَعْلَمُوا لَهُ خَيْرَ أَهْلِ فَارَسَ ، فَرَجَعُوا إِلَيْهِ بِالْخَبَرِ ، بِأَنَّ الْمَلِكَ قَدْ وُلَّى رُسْتَمَ حَرْبَهُ ، وَأَمْرَهُ بِالْعَسْكَرَةِ ، فَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى عُمَرَ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرُ : لَا يَكْرُهُ بَنُوكَ^(٢) مَا يَأْتِيكَ عَنْهُمْ ، وَلَا مَا يَأْتُونَكَ بِهِ ، وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَابْعَثْ إِلَيْهِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَنْظَرَةِ^(٣) وَالرَّأْيِ وَالْجَلَدِ يَدْعُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ دَعَاءَهُمْ تَوْهِينًا لَهُمْ ، وَفَلَجًا^(٤) عَلَيْهِمْ ، وَارْتَبِطَ إِلَى فِي كُلِّ يَوْمٍ .

وَلَمَّا جَاءَ سَعْدًا أَمْرُ عُمَرَ جَمَعَ نَفَرًا عَلَيْهِمْ نِجَارًا^(٥) وَلَهُمْ آرَاءٌ ، وَنَفَرًا لَهُمْ مَنَظَرًا ، وَعَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ وَلَهُمْ آرَاءٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ عَلَيْهِمْ نِجَارٌ وَلَهُمْ آرَاءٌ وَاجْتِهَادٌ فَالْنَعْمَانُ بْنُ مَقْرَنٍ ، وَبُسَيْرُ بْنُ أَبِي رُحْمٍ ، وَحَمَلَةُ بْنُ جُوَيْيَةَ السَّكْنَانِيُّ ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ التَّمِيمِيُّ ، وَفُرَاتُ بْنُ حَيَّانٍ الْمَجْلِيُّ ، وَعَدِيٌّ بْنُ سُهَيْلٍ ، وَالْمُفِيرَةُ بْنُ زُرَّارَةَ .

وَأَمَّا مَنْ لَهُمْ مَنَظَرٌ لِأَجْسَامِهِمْ ، وَعَلَيْهِمْ مَهَابَةٌ وَلَهُمْ آرَاءٌ ، فَطُعَارْدُ بْنُ حَاجِبٍ ، وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ حَسَّانَ ، وَعَاصِمُ بْنُ عَمْرٍو ، وَعَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرَبُ ،

(١) ميسان : بين واسط والبصرة .

(٢) كربة الغنم : اشتد به . (٣) منظره الرجل : إذا نظرت إليه فأعجبك .

(٤) فلجاً : أى نصراً . (٥) النجار : شكل الإنسان وهيئته .

والغيرة بن شُعْبَةَ ، والمُعَنَّى بن حارثة . ثم بَعَثَهُم دَعَاً إِلَى الْمَلِكِ ، وَأَنْفَذَهُمْ إِلَيْهِ بِالْمَدَائِنِ .

فلما دخلوا عليه أمر التَّرجَان بينه وبينهم ، فقال : سَلِّمُ مَا جَاءَ بِكُمْ ؟ وما دعاكم إِلَى غَزْوِنَا وَالْوَلُوعِ بِيَلَادِنَا ؟ أَمِنْ أَجْلِ أَنَا أَجْمَعْنَا كُمْ ^(١) ، وَتَشَاغَلْنَا عَنْكُمْ اجْتَرَأْتُمْ عَلَيْنَا !

فقال النعمان بن مُقَرَّرٍ لِأَصْحَابِهِ : إِنْ شِئْتُمْ أَجَبْتُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ شَاءَ آثَرْتُهُ . فقالوا : بَلْ تَسْكَلُ ، وَقَالُوا لِلْمَلِكِ : كَلَامُ هَذَا الرَّجُلِ كَلَامُنَا . فتسكلم النعمان بن مُقَرَّرٍ فقال :

إِنَّ اللَّهَ رَحِمَنَا ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَدُلُّنَا عَلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُنَا بِهِ ، وَيُعْرِفُنَا الشَّرَّ وَيَنْهَانَا عَنْهُ ، وَوَعَدَنَا عَلَى إِجَابَتِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَلَمْ يَدْعُ إِلَى ذَلِكَ قَبِيلَةٌ إِلَّا صَارَتْ فِرْقَتَيْنِ : فِرْقَةٌ تَقَارِبُهُ ، وَفِرْقَةٌ تُبَاعِدُهُ ؛ وَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي دِينِهِ إِلَّا الْخَوَاصُّ . فَكَثَّ بِذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْثَ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُنْبَذَ ^(٢) إِلَى مَنْ خَالَفَهُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَنْ يُبْدَأَ بِهِمْ . فَدَخَلُوا مَعَهُ جَمِيعًا عَلَى وَجْهَيْنِ : مُكْرَهُ عَلَيْهِ فَاغْتَبَطَ ، وَطَائِعَ أَتَاهُ فَازْدَادَ ، فَعَرَفْنَا جَمِيعًا فَضَّلَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ ؛ مِنْ الْعَدَاوَةِ وَالضُّيْقِ ، ثُمَّ أَمَرَنَا أَنْ نُبْدَأَ بِمَنْ يَكْلِمُنَا مِنَ الْأُمَمِ ، فَتَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِنصَافِ ، فَنَحْنُ نَدْعُوهُمْ إِلَى دِينِنَا ؛ وَهُوَ دِينُ حَسَنِ الْحَسَنِ ، وَقَبَّحَ الْقَبِيحَ كُلَّهُ ، فَإِنْ أُيِّتَ فَأَمَرُ ^(٣) مِنَ الشَّرِّ ، هُوَ أَهْوَنُ مِنْ آخِرِ قَسَرٍّ مِنْهُ الْجَزَاءُ ^(٤) ؛ فَإِنْ أُيِّتَ فَاَلْمَفَاجِرَةُ ^(٥) ؛ فَإِنْ أَجَبْتُمْ إِلَى دِينِنَا خَلَفْنَا فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ ، وَأَقَمْنَا كَمَّ عَلَيْهِ ، عَلَى أَنْ تَحْكُمُوا بِأَحْكَامِهِ

(١) أَجْمَعْنَاكُمْ ، أَيْ أَرْجَعْنَاكُمْ وَانصرفتكم ، مِنْ أَجْمِ الْمَاءِ إِذَا تَرَكَهُ يَجْمَعُ .
(٢) يُنْبَذُ لِلْهَيْمِ : يَكْشِفُهُم بِالْأَمْرِ وَيَقَاتِلُهُمْ . (٣) الْجَزَاءُ بِالْكَسْرِ : جَمْعُ جَزِيَةٍ .
(٤) الْمَفَاجِرَةُ : الْقِتَالُ .

وَنَرْجِعْ عَنْكُمْ وَشَأْنَكُمْ وَبِلَادَكُمْ ، وَإِنْ اتَّقَيْتُمُونَا بِالْجِزَاءِ قَبِلْنَا وَمَنْعْنَاكُمْ ، وَإِلَّا قَاتَلْنَاكُمْ .

فَقَالَ يَزْدَجَرْدُ : إِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً كَانَتْ أَشَقَى وَلَا أَقَلَّ عِدْداً ، وَلَا أَسْوَأَ ذَاتَ بَيْنٍ مِنْكُمْ ، قَدْ كُنَّا نَوَكِّلُ بِكُمْ قُرَى الضَّوْاحِي فَيَكْفُونَا غَارَاتِكُمْ ، لَا تَغْزَوْكُمْ فَارِسَ ، وَلَا تَطْمَعُونَ أَنْ تَقُومُوا لَهُمْ ، فَإِنْ كَانَ غُرُورٌ لِحَقِّكُمْ ، فَلَا يَفْرَنْكُمْ مِنَّا ، وَإِنْ كَانَ الْجَهْدُ^(١) دَعَاكُمْ فَرَضْنَا لَكُمْ قُوَّةً إِلَى خِصْمِكُمْ ، وَأَكْرَمْنَا وَجُوهَكُمْ وَكَسَوْنَاكُمْ ، وَمَلَكْنَا عَلَيْكُمْ مَلِكًا يَرْفُقُ بِكُمْ . فَأُسْكِتَ الْقَوْمَ .

ثُمَّ قَامَ الْمَغِيرَةُ بْنُ زُرَّادَةَ فَقَالَ : أَتَيْهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ هَؤُلَاءِ رُئُوسُ الْعَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ ، وَهُمْ أَشْرَافُ يَسْتَحْيُونَ مِنَ الْأَشْرَافِ ، وَإِنَّمَا يُكْرِمُ الْأَشْرَافَ الْأَشْرَافُ ، وَيُعْظَمُ حَقُّوقُ الْأَشْرَافِ الْأَشْرَافُ ، وَيُفَخَّمُ الْأَشْرَافُ الْأَشْرَافُ ؛ وَلَيْسَ كُلُّ مَا أُرْسِلُوا بِهِ جَمْعُهُ لَكَ ، وَلَا كُلُّ مَا تَسَلَّمْتُمْ بِهِ أَجَابُوكَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَحْسَنُوا وَلَا يَحْسُنُ بِمِثْلِهِمْ إِلَّا ذَلِكَ ، فَجَاوِبْنِي لِأَكُونَ الَّذِي أَبْلُغُكَ ، وَيَشْهَدُونَ عَلَى ذَلِكَ ، إِنَّكَ قَدْ وَصَفْتَنَا صِلَةً لَمْ تَكُنْ عَالِماً بِهَا .

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، فَمَا كَانَ أَسْوَأَ حَالاً مِنَّا ، وَأَمَّا جُوعُنَا فَلَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ الْجُوعَ ، كُنَّا نَأْكُلُ الْخَنَافِسَ وَالْجَمْلَانَ^(٢) ، وَالْعَقَارِبَ وَالْحَيَّاتَ ، فَزَيَّيْنَا ذَلِكَ طَعَامَنَا ، وَأَمَّا الْمَنَازِلُ فَإِنَّمَا هِيَ ظَهَرُ الْأَرْضِ ، وَلَا نَلْبَسُ إِلَّا مَلَاغِزَ لَنَا مِنْ أَوْبَارِ الْإِبِلِ وَأَشْمَارِ الْقَنَمِ ، دِينُنَا^(٣) أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُنَا بَعْضًا ، وَيُغَيِّرَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَدْفِنُ ابْنَتَهُ وَهِيَ حَيَّةٌ ؛ كَرَاهِيَةً أَنْ تَأْكُلَ مِنْ طَعَامِنَا ، فَكَانَتْ حَالُنَا قَبْلَ الْيَوْمِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ لَكَ ، فَبَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَجُلًا مَعْرُوفًا نَعْرِفُ نَسَبَهُ ،

(١) الجهد : المشقة ، وهو يريد الحاجة والفقير والجوع .

(٢) الجمعلان : جمع جعل بفتح الجيم ، وهو دابة سوداء من دواب الأرض .

(٣) أي شأنا .

ونعرف وَجْهَهُ وَمَوْلَاهُ ، فَأَرْضُهُ خَيْرٌ أَرْضِنَا ، وَحَسْبُهُ خَيْرٌ أَحْسَابِنَا ، وَبَيْتُهُ أَعْظَمُ
بُيُوتِنَا ، وَقَبِيلَتُهُ خَيْرٌ قَبِيلَتِنَا ، وَهُوَ بِنَفْسِهِ كَانَ خَيْرَنَا فِي الْحَالِ الَّتِي كَانَ فِيهَا ، أَصَدَقْنَا
وَأَحْلَمْنَا . فَبَدَعَا إِلَى أَمْرِ ، فَلَمْ يُجِبْ أَحَدٌ غَيْرُ رَبِّ^(١) كَانَ لَهُ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ مِنْ
بَعْدِهِ ، فَقَالَ وَقَلْنَا ، وَصَدَّقْ وَكَذَّبْنَا ، وَزَادَ وَنَقَصْنَا ، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا إِلَّا كَانَ ، فَقَذَفَ
اللَّهُ فِي قُلُوبِنَا التَّصَدِيقَ لَهُ وَاتَّبَاعَهُ ، فَصَارَ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، فَمَا قَالَ لَنَا فَهُوَ
قَوْلُ اللَّهِ ، وَمَا أَمَرْنَا فَهُوَ أَمْرُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَنَا : إِنَّ رَبِّكُمْ يَقُولُ : إِنْ أَنَا اللَّهُ وَخَدِي
لَا شَرِيكَ لِي ، كُنْتُ إِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهِي ؛ وَأَنَا خَلَقْتُ
كُلَّ شَيْءٍ ؛ وَإِلَى يَصِيرُ كُلُّ شَيْءٍ ؛ وَإِنَّ رَحْمَتِي أَوْزَرَ كَتِّكُمْ ، فَبَعَثْتُ إِلَيْكُمْ هَذَا الرَّجُلَ
لَأَدُلَّكُمْ عَلَى السَّبِيلِ الَّتِي بِهَا أُنْجِيكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ عَذَابِي ، وَلَا أُحِلَّكُمْ دَارِي دَارِ
السَّلَامِ ، فَتَشْهَدَ عَلَيْهِ أَنَّهُ جَاءَ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِ الْحَقِّ ، وَقَالَ : مَنْ تَابَ بِكُمْ عَلَى هَذَا
فَلَهُ مَا لَكُمْ وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْكُمْ ، وَمَنْ أَبَى فَأَعْرِضُوا عَلَيْهِ الْجُزْيَةَ ، ثُمَّ آمَنُوا مِنْكُمْ تَمْنَعُونَ
مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَمَنْ أَبَى فَقَاتِلُوهُ ؛ فَأَنَّا الْحُكْمَ بَيْنَكُمْ ، فَمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ أَدْخَلْنَاهُ
جَنَّتِي ؛ وَمَنْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَعَقَبْتُهُ النَّصْرَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُ . فَاخْتَرْنَا إِنْ
شِئْتَ الْجُزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَأَنْتَ صَاغِرٌ^(٢) وَإِنْ شِئْتَ فَالسَّيْفَ ، أَوْ تُسَلِّمَ
فَتَنْجِي نَفْسَكَ .

فَقَالَ يَزْدَجَرْدُ : أَنْتَ تَقِيلُنِي بِمِثْلِ هَذَا ! لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَقَتَلْتَكُمْ ، لَا شَيْءَ
لَكُمْ عِنْدِي .

ثُمَّ قَالَ يَزْدَجَرْدُ : ائْتُونِي بِوَقْرِ^(٣) مِنْ تُرَابٍ ، وَاحْمِلُوهُ عَلَى أَشْرَفِ هَؤُلَاءِ ، ثُمَّ

(١) هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ .

(٢) وَأَنْتَ صَاغِرٌ ، أَيْ وَأَنْتَ ذَلِيلٌ رَاضٍ بِالْعَظِيمِ .

(٣) الْوَقْرُ : الْحُلُّ الثَّقِيلُ .

سُوقوه حتى يخرج من باب المدائن . وقال : ارجعوا إلى صاحبكم ، فأعلموه أنى مرسل إليكم رستم ، حتى يدفعه ويدفعكم^(١) في خندق القادسية ، وينكّل به وبكم من بعد ، ثم أوردته بلادكم ؛ حتى أشغلكم في أنفسكم بأشدّ مما نالكم من سابور .

ثم قال : مَنْ أَشْرَفُكُمْ ؟ فسكت القوم ، ثم قال عاصم - وافقات^(٢) ليأخذ التراب : أنا أشرفهم ، أنا سيّد هؤلاء ، فحملني . فقال : أكذلك هو ؟ قالوا : نعم فحمله على عنقه ، ففرج به من الإيوان والدّار حتى أتى راحلته ، فحمله عليها ، ثم انجذب^(٣) في السّير ، حتى دخل وصحبه على سمد ، وأخبروه الخبر ، فقال : أبشروا ، فقد أعطانا الله أقاليد ملكهم^(٤) .

وأخذ المسلمون يزدادون في كل يوم قوة ، ويزداد عدوهم في كل يوم وهناً^(٥) .

واشتدّ ما صنع المسلمون وصنع الملك على جلساء الملك ، وراح رُستّم من ساباط^(٦) يسأله عما كان من أمره وأمرهم ، وكيف رآهم . فقال الملك : ما كنت أرى أن في العرب مثل رجال رأيتم دخلوا علىّ وما أنتم بأعقل منهم ، ولا بأحسن جواباً منهم . وأخبره بكلام متكلمهم .

وقال : لقد صدقني القوم ، لقد وعد القوم أمراً ليذكر كنهه ، أو ليوتنّ عليه . على أنى قد وجدت أفضلهم أحقهم ؛ فقد ذكروا الجزية فأعطيته تراباً فحمله على

(١) يدفعه : يجهز عليه .

(٢) افتات : ادعى . (٣) الانجذاب : سرعة السير .

(٤) مفاتيح . (٥) وهنا ، أى ضعفا .

(٦) ساباط : بلد ببلاد العجم .

رَأْسِهِ ، فخرج به ، ولو شاء أَتَقَى بغيره ، وأنا لا أعلم .
فقال رُسْتَم : أَيُّهَا الْمَلِك ، إِنَّهُ لَا عَقْلَ لَهُمْ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَفْتَدِيَ الْقَوْمَ بِنَفْسِهِ . فَتَطَيَّرَ
بِذَلِكَ ، وَأَبْصَرَهَا دُونَ أَحْبَابِهِ .

وخرج رُسْتَم من عنده كَثِيبًا غَضَبَان - وَكَانَ مُنْجَمًا كَاهِنًا - فَبَعَثَ فِي أَثَرِ الْوَفْدِ ،
وَقَالَ لِثِقَتِهِ : إِنْ أَدْرَكْتَهُمُ الرِّسُولُ تَلَا فِينَا أَرْضَنَا ، وَإِنْ أَعْجَزَهُ سَبَّحْتُكُمْ اللَّهُ
أَرْضَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ .

فَرَجَعَ الرِّسُولُ مِنَ الْحَيْرَةِ بِفَوَاتِهِمْ ، فَقَالَ : ذَهَبَ الْقَوْمُ بِأَرْضَكُمْ غَيْرَ
ذِي شَكٍّ .

وفما بين ذهاب الوفد إلى يزدجرد وعودته كان العربُ يُغيرون على من دَانَاهُمْ
من أرض العدو من أرض السَّوَادِ ، وَفَزَعَ أَهْلُ السَّوَادِ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَرْسَلُوا إِلَى
يَزْدَجَرْدَ : إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ زَلُّوا الْقَادِسِيَّةَ بِأَمْرِ لَيْسَ يُشْبِهُهُ إِلَّا الْحَرْبُ ، وَإِنْ فَعَلْتُمْ لَا يَبْقَى
عَلَيْ شَيْءٍ ، وَقَدْ أَخْرَبُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَرَاتِ ، وَلَيْسَ فِيمَا هُنَاكَ أَنْيْسٌ إِلَّا فِي الْحَصُونِ ،
وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّوَابُّ وَكُلَّ شَيْءٌ لَمْ تَحْتَمِلْهُ الْحَصُونُ مِنَ الْأَطْعَمَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ
يَسْتَنْزِلُونَا ، فَإِنْ أَبْطَأَ عَنَّا الْغِيَاثُ ^(١) أَعْطَيْنَاهُمْ بِأَيْدِينَا .

فَدَمَا يَزْدَجَرْدُ رُسْتَمَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَوْجِّهَكَ فِي هَذَا الْوَجْهِ ،
وَإِنَّمَا يُعَدُّ لِلْأُمُورِ مَنْ كَانَ عَلَى قَدَرِهَا ، وَأَنْتَ رَجُلٌ أَهْلُ فَارِسَ الْيَوْمِ ، وَقَدْ تَرَى
مَاجَاءَ أَهْلِ فَارِسَ مِنْ أَمْرِ لَمْ يَأْتِيَهُمْ مِثْلُهُ مِنْذُ وَلِيَ آلَ أَرْدَشِيرَ ، وَأَرَاهُ أَنْ قَدْ قَبِلَ مِنْهُ ،
وَأَتْنَى عَلَيْهِ .

(١) الْغِيَاثُ : الْعَوْنُ وَالنَّجْدَةُ .

فقال له الملك : أُحِبُّ أَنْ أَنْظُرَ فِيمَا لَدَيْكَ لِأَعْرِفَ مَا عِنْدَكَ ، فَصِيفٌ لِي الْعَرَبُ وَفَعَلَهُمْ
مَنْذَرُوا الْقَادِسِيَّةَ ، وَصِيفٌ لِي الْعَجَمُ وَمَا يَلْقَوْنَ مِنْهُمْ .

فقال رُسْتَمُ : صِفَةُ ذِيَابٍ صَادَفَتْ غِرَّةً مِنْ رِعَاءٍ فَأُفْسِدَتْ .

قال : لَيْسَ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا سَأَلْتُكَ رَجَاءً أَنْ تُعَرِّبَ لِي عَنْ صِفَتِهِمْ ، فَأَقْوِيكَ لِتَعْمَلَ
عَلَى قَدَرِ ذَلِكَ فَلَمْ تُصِيبْ ، فَأَفْهَمَ عَنِّي . إِنَّمَا مَثَلُهُمْ وَمِثْلُ أَهْلِ فَارَسٍ كَمِثْلِ عُقَابِ
أَوْفَى^(١) عَلَى جَبَلٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الطَّيْرُ بِاللَّيْلِ ، فَتَبَيَّنْتُ فِي سَفْحِهِ فِي أَوَّكَارِهَا ، فَلَمَّا
أَصْبَحْتُ تَجَلَّتِ الطَّيْرُ فَأَبْصَرْتَهُ يَرُقُبُهَا ، فَإِنْ شَدَّ شَيْءٌ اخْتَلَفَهُ ، فَلَمَّا أَبْصَرْتَهُ الطَّيْرُ
لَمْ تَنْهَضْ مِنْ تَخَافَتِهِ ، وَجَعَلْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْهَا طَائِرٌ اخْتَلَفَهُ ، فَلَوْ نَهَضَتْ نَهَضَةً
وَاحِدَةً رَدَّتْهُ ، وَأَشَدُّ شَيْءٍ فِي ذَلِكَ أَنْ تَنْجُوَ كُلُّهَا إِلَّا وَاحِدًا ، وَإِنْ
اخْتَلَفَتْ لَمْ تَنْهَضْ فِرْقَةً إِلَّا هَلَكَتْ ، فَهَذَا مِثْلُهُمْ وَمِثْلُ الْأَعَاجِمِ ، فَأَعْمَلْتُ عَلَى
قَدَرِ ذَلِكَ .

وَفَصَّلَ رُسْتَمُ بَعْدَ تَلَبُّثٍ^(٢) وَتَرَدُّدٍ ، وَسَارَ مِنَ الْمَدَائِنِ حَتَّى بَلَغَ سَابَاطَ ، وَفِيهَا
جَمَعَ آلَةَ الْحَرْبِ وَأَدَاتَهَا ، وَبَعَثَ عَلَى مَقْدَمَتِهِ الْجَالْنُوسَ فِي أَرْبَعِينَ أَلْفًا ، وَاسْتَعْمَلَ
عَلَى مَيْمَنَتِهِ الْهُرْمَزَانَ ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ يَمْهْرَانَ بْنَ بَهْرَامَ ، وَعَلَى سَاقَتِهِ
الْبَيْرْزَانَ ؛ ثُمَّ أَمَرَ الْجَالْنُوسَ أَنْ يَصِيبَ لَهُ رَجُلًا مِنَ الْعَرَبِ ؛ فَأَصَابَ رَجُلًا
دُونَ قَنْطَرَةِ الْقَادِسِيَّةِ ، فَاخْتَلَفَهُ ؛ وَنَقَرَ الْعَرَبُ خَلْفَهُ وَلَكِنْ أَحَدًا
لَمْ يُذَرِّكِهِ .

وَأُدْخِلَ الرَّجُلَ عَلَى رُسْتَمَ فَقَالَ لَهُ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ وَمَاذَا تَطْلُبُونَ ؟ قَالَ : جِئْنَا

(١) أَوْفَى : أَشْرَفَ . (٢) تَلَبُّثٌ : تَبَاطُؤٌ .

نطلب مَوْعِدَ اللَّهِ ، قال : وما هو ؟ قال : أرضُكم وأبناؤكم ودماؤكم إن أُيِّتتم أن تُسَلِّموا .

قال رستم : فإن قُتِلْتُمْ قبل ذلك ؟ قال : في موعود الله أن من قُتِلَ مِنَّا قَبْلَ ذلك أَدْخَلَهُ الجنة ، وأُجْزَلَ لمن بَقِيَ مِنَّا ما قُلْتُ لك ، فَنَحْنُ على يَقِين . فقال رستم : قد وُضِعْنَا إذاً في أيديكم ، قال : وَيَحْكُ يَارستم ! إِنْ أَعْمَالُكُمْ قد وَضَعَتْكُمْ ، فَأَسَلَّمَكُمْ اللَّهُ بها ، فلا يَفِرُّ نَفْسٌ مَاتَرى حَوْلَكَ ؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ تُحَاوِلُ الْإِنْسَ ، وَإِنَّمَا تُحَاوِلُ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ . فاستشاط غضباً ، وأمر به فُضِرَتِ عُنُقُهُ .

ثم خرج رستم حتى نزل بِبَرْس^(١) ، فَنَصَبَ أَصْحَابُهُ النَّاسَ وَفَجَّرُوا ، وَشَرَّبُوا الْخَمْرَ ، فَضَجَّ الْعُلُوجُ^(٢) إِلَى رُستم وشكوا إليه ما يَلْقَوْنَ في أُمُورِهِمْ وَأَبْنَائِهِمْ ، فقام فيهم فقال : ياممشرَ أَهْلِ فارس ، والله لقد صدق العربي ، والله ما أَسَلَّمْنَا إِلَّا أَعْمَالُنَا ، والله لِلْعَرَبِ أَحْسَنُ سِيرَةٍ مِنْكُمْ ، إِنْ اللَّهُ كان يَنْصُرُكُمْ على العدوِّ ، وَيُمْكِّنُ لَكُمْ في البلادِ بِحُسْنِ السَّيْرِ وَكَفِّ الظَّلمِ ، والوفاء بالمعهود والإحسان ، فَأَمَّا إِذْ تَحَوَّلْتُمْ عن ذلك إلى هذه الْأَعْمَالِ ، فلا أَدْرى اللَّهُ إِلَّا مُغَيَّراً ما بَكُمْ ، وما أَنَا بِأَمِنٍ أَنْ يَنْزِعَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ مِنْكُمْ .

وَبَعَثَ الرَّجَالَ فَلَقَطُوا لَهُ بَعْضَ مَنْ يُشْكِي ، فَأَتَى بِنَفَرٍ فَضْرَبَ أَعْنَاقَهُمْ . ثم ركب ونادى في الناس بالرَّحِيلِ ، حتى انتهى إلى الحيرة ، ودعا أهلها وقال لهم : يَأْأَعْدَاءُ اللَّهِ ! فِرْحَتُمْ بِدُخُولِ الْعَرَبِ عَلَيْنَا بِلَادَنَا ، وَكُنْتُمْ عِيوناً لَهم عَلَيْنَا وَقَوِيَّتُمْوهم بِالْأُمُورِ . فاقْبُوهُ بِابْنِ بَقِيلَةَ ، وقالوا له : كُنْ أَنْتَ الَّذِي تُكَلِّمُهُ فَتَقْدِّمُ ، فقال : مَا أَنْتَ وَقَوْلُكَ : إِنَّا فِرْحْنَا بِمَجِيئِهِمْ ، فإِذَا فَعَلُوا ؟ وَبِأَيِّ ذَلِكَ مِنْ

(١) برس : موضع بأرض بابل . (٢) العلوج : كبار العجم .

أُمُورِهِمْ نَفَّرَحَ ! إِنَّهُمْ لِيَزْعُمُونَ أَنَّ عَبِيدَهُ لَهُمْ ، وَمَا هُمْ عَلَى دِينِنَا ، وَإِنَّهُمْ لِيَشْهَدُونَ عَلَيْنَا أَنَّ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا كُنَّا عِيُونًا لَهُمْ ، فَمَا الَّذِي يُخَوِّجُهُمْ إِلَى أَنْ نَكُونَ عِيُونًا لَهُمْ ، وَقَدْ هَرَبَ أَصْحَابُكُمْ مِنْهُمْ ، وَخَلَّوْا لَهُمُ الْقَرَى ! فَلَيْسَ يَمْنَعُهُمْ أَحَدٌ مِنْ وَجْهِ أَرَادُوهُ ، إِنْ شَاءُوا أَخَذُوا يَمِينًا أَوْ شِمَالًا ! وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّا قَوَّيْنَاهُمْ بِالْأَمْوَالِ ؛ فَإِنَّا صَانَعْنَاهُمْ بِالْأَمْوَالِ عَنْ أَنْفُسِنَا ، إِذْ لَمْ تَمْنَعُونَا مَخَافَةَ أَنْ نُسَبِّيَ ، وَأَنْ نُحَرِّبَ وَتَقْتَلَ مَقَاتِلَتَنَا ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيَهُمْ مِنْكُمْ ، فَكُنَّا نَحْنُ أَعْجَزُ . وَلَعَمْرِي لَأَنْتُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْهُمْ ، وَأَحْسَنُ عِنْدَنَا بِلَاءَ ، فَاذْمَعُونَا مِنْهُمْ نَسْكُنْ لَكُمْ أَعْوَانًا ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ غُلُوجِ السَّوَادِ ؛ عَبِيدٌ مِنْ غَلَبَ . فَقَالَ رَسَمٌ : صَدَقَكُمْ الرَّجُلُ .

وَمَكَثَ رُسْتَمُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ لَا يَقْدِمُ وَلَا يَقَاتِلُ رَجَاءً أَنْ يَضْجَرُوا بِمَكَانِهِمْ وَأَنْ يُجْهَدُوا فَيَنْصَرَفُوا ، وَكَرِهَ قِتَالَهُمْ مَخَافَةَ أَنْ يَلْقَى مَا لَقِيَ مَنْ قَبْلَهُ ، وَطَاوَلَهُمْ لَوْلَا أَنْ الْمَلِكُ جَعَلَ يَسْتَعِجِلُهُ . ثُمَّ نَزَلَ النَّجَفُ ^(١) .

وَعَرَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَنَّ الْقَوْمَ سَيُطَاوِلُونَهُمْ ، فَعَمِدَ إِلَى سَعْدٍ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْزِلُوا حُدُودَ أَرْضِهِمْ ، فَبَعَثَ سَعْدَ عَاصِمَ بْنِ عَمْرٍو وَجَابِرَ الْأَسَدِيَّ وَغَيْرَهُمَا مِنْ رِءُوسِ الْقَوْمِ لِلْإِغَارَةِ ، فَأَغَارُوا ، وَأَتَوْا سَعْدًا بِالْفَتْحِ وَالْغَنَائِمِ وَالسَّلَامَةِ .

ثُمَّ سَارَ رَسَمٌ حَتَّى نَزَلَ نَهْرَ الْعَتِيقِ ، وَسَايَرَهُ حَتَّى بَلَغَ خَفَّانَ ^(٢) ، ثُمَّ طَلَعَ مَوْضِعًا يُشْرِفُ مِنْهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَرَأَسَلَ زُهْرَةَ بْنَ الْحَوَرِيَّةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَتَّى وَاقَفَهُ

(١) النجف : موضع قريب من الكوفة . (٢) خفان : مأسدة قرب القادسية .

فأرادهم على أن يُصَالِحَهُمْ ، ويجعل له جُعَلًا على أن ينصرفوا عنه ، وجعل يقولُ فيما يقول : أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفةٌ منكم في سُلْطَانِنَا ، فكنا نحسِنُ جِوَارَهُمْ ، ونكفُّ الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم في أهل بلادهم ، فنزعيهم صِراعِينَا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا ، وقد كان لهم بذلك مَعَاشٌ ؛ قال له ذلك يُمرِّضُ بالصِّلَحِ ولا يُصَرِّحُ .

فقال له زُهْرَةُ : صدقت ؛ قد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ، ولا طَلَبْتُنَا طَلَبَتَهُمْ ، إِنَّا لَمْ نَأْتِكُمْ لطلب الدنيا ، إِنَّمَا طَلَبْتُنَا وَهَمَّتْنَا الآخِرَةَ ، كُنَّا كَمَا ذَكَرْتَ ، يَدِينُ لَكُمْ مَنْ وَرَدَ عَلَيْكُمْ مِنَّا ، وَيَضْرَعُ إِلَيْكُمْ يَطْلُبُ مَا فِي أَيْدِيكُمْ ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولًا ، فدعانا إلى رَبِّهِ فَأَجَبْنَاهُ ، فقال لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم : إني قد سلَّطْتُ هذه الطائفة على مَنْ لَمْ يَدِينْ بديني ، فَأَنَا مُنْتَقِمٌ بِهِمْ مِنْهُمْ ، وأَجْعَلُ لَهُمُ الْعَلَبَةَ مَا دَامُوا مُقِرِّينَ بِهِ ، وهو دينُ الحق لا يرغبُ عنه أَحَدٌ إِلَّا ذَلَّ ، ولا يَمْتَصِمُ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا عَزَّ .

فقال له رُسْتَمُ : وما هو ؟ قال : أَمَّا عَمُودُهُ الَّذِي لَا يَصْلَحُ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِهِ فَشَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى ، قال : مَا أَحْسَنَ هَذَا ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا ؟ قال : وإخراجُ العباد من عبادة العِبَادِ إلى عبادة الله تعالى ، قال : حَسَنٌ ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَيْضًا ؟ قال : والناسُ بَنُو آدَمَ وَحَوَّاءَ إِخْوَةٌ لِأَبٍ وَأُمٍّ ، قال : مَا أَحْسَنَ هَذَا !

ثم قال له رستم : أَرَأَيْتَ لو أَنِّي رَضِيتُ بهذا الأمرِ وَأَجَبْتُكُمْ إِلَيْهِ وَمَعَى قَوْمِي كَيْفَ يَكُونُ أَمْرُكُمْ ؟ أَتَرَجُمُونَ ؟ قال : إِي وَاللَّهِ ! لَا تَقْرُبُ بِلَادَكُمْ أَبَدًا

إلا في تجارة أو حاجة ، قال : صدقتني والله ؛ أما إن أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفلة ، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم : نَعَدُوا طورهم وعادوا أشرافهم .

فقال له زهرة : نحن خيرُ الناس للناس ، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون نطيع الله في السفلة ، ولا يضرنا من عصي الله فينا ، وانصرف عنه .
ودعا رستم رجال فارس ، فذاكرهم هذا فحموا من ذلك وأنفوا ، فقال : أبعدكم الله وأسحقكم ! أخزى الله آخرعنا وأجبتنا !

وبدا السعد أن يرسل إلى الغيرة بن شعبة ، وبُسر بن أبي رُهم ، وعمر فجة بن هرثة وحذيفة بن محصن ، وربيع بن عامر ، وقرقة بن زاهر التميمي ، ومذعور ابن عدي العجلي ، والمضارب بن يزيد العجلي ، وممبند بن مرة العجلي . فلما أحضروا لديه قال لهم : إني مرسلكم إلى هؤلاء القوم ، فاعندكم ؟ قالوا جميعاً : نتبع ما تأمرنا به ، وننتهي إليه ، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شيء ، نظرنا أمثل ما ينبغي وأنعمه للناس ، فكلّمناهم به .

فقال سعد : هذا فعل الخزيمة^(١) ، اذهبوا فتهيئوا . فقال ربيع بن عامر : إن الأعاجم لهم آراء وآراب ، ومتى تأتيتهم جميعاً يروا أننا احتفلنا بهم ، فلا تزدهم على رجل ؛ فالتئوه جميعاً على ذلك ؛ فقال : فسرحوني ، فأمر سعد أن يسرح .

وخرج ربيع ليدخل على رستم عسكره ، فاحتبسّه الذين على القنطرة ، وأخبر رستم بمجيئه ، فاستشار عظماء أهل فارس ، فقال : ما ترون ؟ أنبأني أم نتماون ؟

(١) الخزيمة : جم حازم .

فَاجْعَ مَلَوْنَهُمْ عَلَى التَّهَاوُنِ . فَأَظْهَرُوا الزَّبْرَجَ ^(١) ، وَبَسَطُوا الْبُسْطَ وَالنَّمَارِقَ ^(٢) ، وَلَمْ يَتْرَكُوا شَيْئًا ، وَوَضَعَ لِرِسْمِ سَرِيرِ الذَّهَبِ ، وَأُلْبَسَ زِينَتَهُ مِنَ الْأَنْمَاطِ وَالْوَسَائِدِ الْمَلْسُوجَةِ مِنَ الذَّهَبِ . وَأَقْبَلَ رِبْعِيٌّ يَسِيرُ عَلَى فَرَسٍ لَهُ قَصِيرَةٍ ، وَمَعَهُ سَيْفٌ لَهُ مَشُوفٌ ^(٣) ، وَغَمْدُهُ لِفَافَةٌ تَوْبٍ خَلَقَ ، وَرَمَحُهُ مَعْلُوبٌ ^(٤) بِقَدَرٍ . مَعَهُ حَجَفَةٌ ^(٥) مِنْ جُلُودِ الْبَقَرِ ، عَلَى وَجْهِهَا أَيْدِيمٌ أَحْمَرٌ مِثْلَ الرِّغِيفِ ، وَمَعَهُ قَوْسُهُ وَنَبْلُهُ .

فَلَمَّا غَشِيَ الْمَلِكُ وَانْتَهَى إِلَيْهِ ، وَإِلَى أَدْنَى الْبُسْطِ قِيلَ لَهُ : أَنْزِلْ ، فَخَمَلَهَا عَلَى الْبَسَاطِ ، فَلَمَّا اسْتَوَتْ عَلَيْهِ نَزَلَ عَنْهَا ، وَرَبَطَهَا بِوَسَادَتَيْنِ ، فَشَقَّهُمَا ثُمَّ أَدْخَلَ الْحَبْلَ فِيهِمَا ، فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَنْهَوْهُ ، وَإِنَّمَا أَرَوْهُ التَّهَاوُنَ ، وَعَرَفَ مَا أَرَادُوا ، فَأَرَادَ اسْتِخْرَاجَهُمْ ، وَعَلَيْهِ ذَرْعٌ لَهُ كَأَنَّهَا إِضَاضَةٌ ^(٦) وَيَلْمَقُهُ ^(٧) عِبَاءَةٌ بِمِيرَةٍ ، قَدْ جَاءَهَا ^(٨) وَتَدَرَّعَهَا ، وَشَدَّهَا عَلَى وَسْطِهِ بِسَلَبٍ ^(٩) ، وَقَدْ شَدَّ رَأْسَهُ بِمِعْجَرَةٍ ^(١٠) ، وَكَانَ أَكْثَرُ الْعَرَبِ شَمْرَةً ، وَلِرَأْسِهِ أَرْبَعُ صَفَائِرَ . قَدْ قُتِنَ قِيَامًا كَأَنَّهُنَّ قُرُونُ الْوَعِيلَةِ . فَقَالُوا : ضَعْ سِلَاحَكَ ، فَقَالَ : إِنِّي لَمْ آتِيكُمْ فَأَضَعُ سِلَاحِي بِأَمْرِكُمْ ، أَنْتُمْ دَعَوْتُمُونِي ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ آتِيَكُمْ كَمَا أُرِيدُ رَجَعْتُ .

فَأَخْبَرُوا رِسْمَهُ ، فَقَالَ : ائْتَدُّنَا لَهُ ، هَلْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ! فَأَقْبَلَ يَتَوَكَّأُ عَلَى رَمَحِهِ وَزُجْجِهِ ^(١١) نَصْلٌ ، يُقَارِبُ الْخَطْلُو ، وَيَزُجُّ ^(١٢) النَّمَارِقَ وَالْبُسْطَ ، فَاتَرَكَ لَهُمْ نُمْرُقَةً وَلَا بَسَاطًا إِلَّا أَفْسَدَهُ ، وَتَرَكَ مُنْتَهَكَ مُعْمَرًا قَا .

(١) الزبرج : الزينة من وشى أو جواهر . (٢) النمارق : جمع نمرقة ، وهى الوسادة الصغيرة .

(٣) سيف مشوف : مجلجول . (٤) يقال : غلب الرمح على البناء للمجهول ، إذا حزم مقبضه .

(٥) الحجفة : الترس من الجلد . (٦) الإضاضة : الفديرة .

(٧) اليلق : القباء . (٨) فى اللسان : جبت القميص : قورت جيبيه .

(٩) السلب : ليف القل . (١٠) المعجر : ما ينسج من الليف ، شبه الجوالق .

(١١) الزج : الحديدية أسفل الرمح . (١٢) يزج : يدفع بالزج .

فلما دنا من رُستَم تعلّق به الحرّس ، وجلس على الأرض ، ورَكَز رحمه بالبُسط فقالوا : ما حلك على هذا ؟ قال : إنا لا نستحبّ القعود على زينتكم هذه .

فكلّمه فقال : ما جاء بكم ؟ قال : الله ابتعنا ، والله جاء بنا لِخُرُجِ مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، وَمِنْ ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، فأرسلنا بدينه إلى خَلْقِهِ لندعوهم إليه ، فَمَنْ قَبِلَ ذلك منا قَبِلْنَا ذلك منه ، ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه يَلِيها دوننا ، وَمَنْ أبى فَأَتَلْنَاهُ أَبَدًا حتّى نُفْضِيَ إلى مَوْعُودِ الله . قال : وما موعودُ الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال مَنْ أَبَى ، والظفر لمن بَقِيَ .

فقال رُستَم : قد سمعتُ مقاتلتكم ؛ فهل لكم أن تُؤَخَّرُوا هذا الأمرَ حتّى ننظر فيه وتنظروا ! قال : نعم ، كم أَحَبُّ إليكم ؟ أيوماً أم يومين ؟ قال : لا ، بل حتّى نُكَاتِبَ أَهْلَ رَأِينَا ورؤساء قومنا ، فقال : إنّ مما سنّ لنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل به أُمّتنا ، أَلَّا نَمَكِّنَ الأعداء من آذاننا ، ولا نُؤَجِّلَهُم عند اللّقاء أكثر من ثلاث ، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً ، فانظر في أمرك وأمرهم ، واختَرْ واحدةً من ثلاث بعد الأجل : اختر الإسلامَ وَندَعَكَ وأَرْضَكَ ، أو الجزاء^(١) فنقبل نَكْفَ عنك ، وإن كَفَتَ عن نصرنا غنيّاً تركناك منه ، وإن كَفَتَ إليه محتاجاً منعناك ، أو المُتَابَذَةُ^(٢) في اليوم الرابع ، ولسنا نَبْدُوكَ فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تَبْدَأَنا ، أنا كَفِيلٌ لك بذلك على أصحابي ، وعلى جميع مَنْ ترى . قال : أسيّدُهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض ، يُجِيرُ أَدْنَاهُمْ على أَعْلَاهُمْ .

(١) الجزاء : جم جزية . (٢) المناذرة : المكاشفة .

نفحص رستم إلى رؤساء فارس فقال : ما ترون ؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح من كلام هذا الرجل ؟ قالوا : معاذ الله ! أتدين إلى شيء من هذا ، وتدع دينك لهذا الكلب ! أما ترى إلى ثيابه ؟ فقال : ويحكم ! لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة ، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ، ويصنون الأُخساب ، ليسوا مثلكم في اللباس ، ولا يرون فيه ما ترون .

وأقبلوا إليه يتناولون سلاحه ، ويهدونه فيه ، فقال لهم : هل لكم أن تروني فأريكم ! فأخرج سيفه من خِرْقَةٍ كأنه شُعْلَةٌ نار ، فقال القوم : اغمده ، فغمده ، ثم رمى ترساً ورموا حجفته ، فخرق ثوبهم ، وسلمت حجفته . فقال : يا أهل فارس ، إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب ، وهي عندنا صغيرة . ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل .

فلما كان من الغد بعثوا إلى سعد : أن ابعث إلينا ذلك الرجل ، فبعث إليهم حذيفة بن محصن ، فأقبل في نحوٍ من ذلك الزنى ، حتى إذا كان على أدنى البساط قيل له : انزل ، قال : لو جئتكم في حاجتي ، فقولوا لملككم : أله الحاجة أم لى ؟ فإن قال : لى ، فقد كذب ، ورجعت وتركتم .

فقال رستم : دعوه ، فجاء حتى وقف عليه ، وهو على سريره ، فقال : انزل ، قال : لا أفعل ، فلما أبى سأله : ما بالكَ جئت ولم يحى صاحبنا بالأمس ؟ قال : إن أميرنا يحب أن يعثر بيننا في الشدة والرخاء ، فهذه نوبتي . قال : ما جاء بكم ؟ قال : إن الله عز وجل من علينا بدينه وأرانا آياته حتى عرفناه وكناله منكبين ثم أمرنا بدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث ، فأبوا إلينا قبلناها : الإسلام وننصرف عنكم ، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك ، أو المنابذة فقال :

أولموا دعة إلى يوم ما . فقال نعم ، ثلاثاً من أمس . فلما لم يجد عنده إلا ذلك ردّه وأقبل على أصحابه ، فقال : وَيَحْكُمُ ! ألا تَرَوْنَ إلى ما أرى ! جاء الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا ، وحقر ما نُعْظَمُ ، وأقام فرسه على زبرجنا وربّطه به ؛ فهو في يَمْنِ الطائر ؛ ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع فَضْلٍ عَقْلِهِ ، وجاءنا هذا اليوم ؛ فوقف علينا في يَمْنِ الطائر ؛ يقوم على أرضنا دوننا . . . حتى أغضبهم وأغضبوه .

فلما كان من الغد أرسل إلى العرب : ابثوا إلينا رجلاً ؛ فبعثوا إليهم المغيّرة بن شُعبة . ولما جاء إلى المنطرة عَبَرَهَا إلى أَهْلِ فَارِسَ ؛ واستأذَنُوا رُسَمَ في إجازته ؛ ولم يُغَيِّرُوا شيئاً من شارتهم ؛ تَقْوِيَةً لَتَهَاوْنِهِمْ ؛ وأقبل المغيّرة عليهم ، والقوم في زِيَّهِمْ ؛ عليهم التَّيَّجَانُ والثَّيَّابُ المنسوجة بالذهب ، وبُسْطُهُمْ على غُلُوَّة^(١) ، لا يصل إلى صاحبهم حَتَّى يَمْشِيَ عليها .

وأقبل المغيّرة ، وله أربعُ ضَفَائِرَ يَمْشِي حَتَّى جَلَسَ على سِريره ووسادته ، فوثبوا عليه ، فَتَرْتَرَوْهُ^(٢) وأنزلوه ، وَمَفَثَوْهُ^(٣) . فقال : كانت تبلفنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفّه منكم ؛ إنا معشر العرب سواء ، لا يَسْتَعِيدُ بَعْضُنَا بَعْضاً ، إلا أن يكونَ مُحَارَباً لصاحبه ، فظننتُ أنكم تُواسون قومكم كما تتواسي ؛ وكان أحسنَ مِنَ الذي صنعتُم أن تُخَيِّرُونِي أَنَّ بَعْضَكُمْ أَرْبَابُ بَعْضٍ ، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نَصْنَعُهُ ، ولم آتكم ولكن دَعَوْتُمُونِي ؛ اليوم علمتُ أنَّ أمرَكُم مُضْمَحِلٌّ ، وأنكم مغلوبون ؛ وإن مُلُكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول .

فقال السُّقْلَةُ : صدقَ اللهُ العربي ، وقالت الدهاقين^(٤) : والله لقد رَمَى

(١) الغلوة : مقدار مرماة . (٢) ترتروه : زحزحوه .

(٣) مفثوه : ضرباً ليس بالشديد . (٤) الدهقان : زعيم فلاحى المعجم .

بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه ؛ فاتل الله أولينا ؛ ما كان أحقهم حينما كانوا
يُصغرون أمر هذه الأمة !

فأزاحه رستم ؛ ليمحو ما صنع به ، وقال : يا عربى ؛ إن الحاشية قد تصنع
ما لا يُؤايقُ الملك ، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك ؛ فالأمر
على ما تحب من الوفاء وقبول الحق ؛ ما هذه المغازل^(١) التى معك ؟ قال : ما ضرَّ
الجرّة ألا تكون طويلة ! ثم رامأهم ، فقالوا له : ما بال سيفك رثا ! قال : رث
الكسوة حديد المضربة ؛ ثم عا طاه سيفه . ثم قال له رستم : تتكلم أم أنكلم ؟
فقال المفيرة : أنت الذى بعثت إلينا ؛ فتكلم ، فأقام الترجمان بينهما .

وتكلم رستم فحمد قومه ، وعظم أمرهم ، وقال : لم نزل متمكنين فى البلاد ،
ظاهرين على الأعداء ، أشرفا فى الأمم ، فليس أحد من الملوك فى مثل عزنا وشرنا
وسلطاننا ، ننصر على الناس ، ويُنصرون علينا إلا اليوم واليومين أو الشهر
والشهرين للذنوب ، فإذا انتقم الله فرضى رد إلينا عزنا ، وجمعنا لمدونا شر يوم
هو آت عليهم . ثم إنه لم يكن فى الناس أمة أصغر عندنا أمرا منكم ؛ كنتم أهل
معيشة سيئة ؛ لا نراكم شيئا ولا نعدكم ، وكنتم إذا قحطت أرضكم ، وأصابكم
السنة^(٢) استغثتم بناحية أرضنا ، فقامر لكم بالشئ من الثمر والشعير ، ثم نردكم .
وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم ، فأنا أمر
لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم ، وأمر لكل رجل منكم بوفر^(٣)
عزير وبثوين ، وتنصرفون عنا ؛ فإنى لست أشتهى أن أفقتلكم ولا
أسركم .

(١) المغازل ، يريد السهام . (٢) السنة : الجذب . (٣) وفر : حمل .

فَتَكَلَّمَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ ؛ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَازِقُهُ ، فَمَنْ صَنَعَ شَيْئًا فَإِنَّمَا هُوَ يَصْنَعُهُ وَالَّذِي لَهُ ، وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ بِهِ نَفْسَكَ وَأَهْلَ بِلَادِكَ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى الْأَعْدَاءِ ، وَالتَّكُنُّ فِي الْبِلَادِ ، وَعُظْمُ السُّلْطَانِ فِي الدُّنْيَا ، فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُهُ ، فَاللَّهُ صَنَعَهُ بِكُمْ وَوَضَعَهُ فِيكُمْ ؛ وَهُوَ لَهُ دُونَكُمْ . وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرْتَ فِينَا مِنْ سُوءِ الْحَالِ ، وَضَيْقِ الْمَعِيشَةِ ، وَاخْتِلَافِ الْقُلُوبِ فَنَحْنُ نَعْرِفُهُ ، وَلَسْنَا نُنْكِرُهُ ، وَاللَّهُ ابْتَلَانَا بِذَلِكَ ، وَصَيَّرَنَا إِلَيْهِ ، وَالَّذِينَ نَبَا دَوْلَ ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ شِدَائِدِهَا يَتَوَقَّعُونَ الرَّخَاءَ حَتَّى يَصِيرُوا إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ رَخَائِهَا يَتَوَقَّعُونَ الشَّدَائِدَ حَتَّى تَنْزِلَ بِهِمْ ، وَيَصِيرُوا إِلَيْهَا ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِيمَا آتَاكُمْ اللَّهُ ذَوِي شُكْرِ ، كَانُ شُكْرُكُمْ يَقْصُرُ عَمَّا أُوتِيتُمْ ، وَأَسْلَمَكُمْ ضَعْفَ الشُّكْرِ إِلَى تَغْيِيرِ الْحَالِ .

وَلَوْ كُنَّا فِيمَا ابْتُلِينَا بِهِ أَهْلُ كُفْرٍ كَانُ عَظِيمٌ مَا تَتَابَعَ عَلَيْنَا مُسْتَجْلِبًا مِنَ اللَّهِ رَحْمَةً يَرْفَعُ بِهَا عَنَّا ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ غَيْرُ مَا تَذْهَبُونَ إِلَيْهِ . . أَوْ مِمَّا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَنَا بِهِ ؛ أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ فِينَا رَسُولًا أَتَمَّ ذِكْرَ مِثْلِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ : وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَكَ فَكُنْ لَنَا عَبْدًا تُؤَدِّي الْجُزْيَةَ عَنْ يَدِي وَأَنْتَ صَاغِرٌ ، وَإِلَّا فَالسِّيفُ . فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ، ثُمَّ حَلَفَ بِالشَّمْسِ لَا يَرْتَفِعُ لَكُمْ الصُّبْحُ غَدًا حَتَّى أَقْتَلَكُمْ أَجْمَعِينَ .

وَانصَرَفَ الْمَغِيرَةُ ، وَخَلَصَ رُسْتَمُ بِأَهْلِ فَارَسَ ، وَقَالَ : أَيْنَ هَؤُلَاءِ مِنْكُمْ ؟ مَا بَعْدَ هَذَا ! أَلَمْ يَأْتِكُمُ الْأَوَّلَانِ فَخَسَّرَاكُمْ وَاسْتَحْزَرَاكُمْ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ هَذَا فَلَمْ يَخْتَلَفُوا وَسَلَكُوا طَرِيقًا وَاحِدًا ؛ وَلَزِمُوا أَمْرًا وَاحِدًا ! هَؤُلَاءِ وَاللَّهُ الرَّجَالُ ، صَادِقِينَ كَانُوا أَمْ كَاذِبِينَ ، وَاللَّهُ كَثِيرٌ كَانَ بَلْغٌ مِنْ صَوْنِهِمْ لَسَرَّهِمْ أَلَا يَخْتَلَفُوا فَا قَوْمٌ أَبْلَغُ فِيمَا أَرَادُوا مِنْهُمْ ، لَنْ كَانُوا صَادِقِينَ مَا يَقُومُ لَهُؤُلَاءِ !

فلجُّوا وتجلَّدُوا ، فقال : واللهِ إني لأَعْلَمُ أنكم تُصْنَعُونَ إلى ما أقول لكم ، وإن هذا منكم رِثاء . . . فازدادوا لَجَاجَةً .

ولم يَكِدِ المَغِيرَةُ يقطعُ القنطرةَ ، ويصلُ إلى أصحابه ، حتى جاءَ خَلْفَهُ رجلٌ من أهل فارس يقولُ له : إنَّ رستمَ رجلٌ مُنَجَّمٌ ، وإنه إذ رآكَ حَسَبَ لك ، ونظر في أمرك ، فقال : إنك غداً تُفَقِّأ عَيْنُكَ ، فقال المَغِيرَةُ : بَشَّرْتَنِي بخيرٍ وأجرٍ ، ولولا أن أُجَاهِدَ بعد اليومَ أَشْبَاهَكُم من المشركين لَمَنَيْتُ أن الأخرى ذهبت أيضاً .

وأرادَ سَعْدُ بن أبي وقَّاص أن يَرِيَّ بآخرٍ ما عنده من الرأي ، فأرسل إلى رُستمَ بَقِيَّةَ ذَوِي الرأي ، وحَبَسَ الثلاثة^(١) ؛ فخرجوا حتى أَتَوْهُ ، وقالوا له : إن أميرنا يقولُ لك : إني أدعوك إلى ما هو خيرٌ لنا ولك ، المافية أن تقبلَ ما دعاكَ اللهُ إليه ، ونرجعَ إلى أرضنا ، وترجعَ إلى أرضِكَ ، وبعضنا من بعض ، ألا إنَّ دارَكُم لكم ، وأمرَكُم فيكم ، وما أصبتم من ورائكم كان زيادةً لكم دوننا ، وكنا لكم عَوْنًا على أحد إن أرادكم أو قوى عليكم ، اتَّقِ اللهَ يا رُستمَ ، ولا يكوننَّ هلاكُ قومك على يدك !

فقال : إني قد كَلَّمْتُ منكم نَفَرًا ؛ ولو أنهم فهموا عَنِّي رجوت أن تكونوا قد فهمتم ، وإن الأمثال أوضح من كثيرٍ من الكلام ، وسأضرب لكم مثلاً يُبَصِّرُكم ، إنكم كنتم أهلَ جَهْدٍ في المعيشة ، وقَشَفٍ في الهيئة ، لا تَمْتَنِعُونَ

(١) هم الذين أوفدهم إليه قبل .

وَلَا تَنْتَصِفُونَ فَلَمْ نُنَبِّئْ جَوَارِكُمْ ، وَلَمْ نَدْعُ مَوَاسَاتِكُمْ ، تُفَحِّمُونَ^(١) الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ ، فَنَمِيرُكُمْ ثُمَّ زِدَّكُمْ ، وَتَأْتُونَنَا أَجْرَاءَ وَتُجَّارًا ، وَنُحْسِنُ إِلَيْكُمْ ، فَلَمَّا تَطَاعَمْتُمْ بِطَمَامِنَا ، وَشَرِبْتُمْ شِرَابَنَا ، وَأَظْلَكُمُ ظِلُّنَا وَصَفَّتُمْ لِقَوْمِكُمْ فِدَعَوْتُمُوهُمْ ، ثُمَّ أَتَيْتُمُونَا بِهِمْ . وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ فِي ذَلِكَ وَمَثَلُنَا كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَ لَهُ كَرْمٌ ، فَرَأَى فِيهِ ثَمَلِبًا ، فَقَالَ : وَمَا ثَمَلِبٌ ! فَانْطَلَقَ الثَّمَلِبُ فَدَعَا الثَّمَالِبَ إِلَى ذَلِكَ الْكَرْمِ ، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَ عَلَيْهِ سَدَّ عَلَيْهِنَّ صَاحِبُ الْكَرْمِ الْجُحْرَ الَّذِي كُنَّ يَدْخُلْنَ مِنْهُ ، فَقَتَلَهُنَّ ، وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي حَمَلَ عَلَيْهَا هَذَا ، الْحِرْصُ وَالطَّمَعُ وَالْجَهْدُ ، فَارْجِعُوا عَنَّا عَامَكُمْ هَذَا ، وَامْتَارُوا حَاجَتَكُمْ ، وَلَكُمْ الْعَوْدُ كُلَّمَا احْتَجَجْتُمْ ، فَإِنِّي لَا أَشْتَهِي أَنْ أَقْتَلَكُمْ .

فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ وَقَالُوا : أَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ سُوءِ حَالِنَا فِيمَا مَضَى ، وَانْتِشَارِ أَمْرِنَا فَلَمْ تَبْلُغْ كُنْهَهُ ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ فِي أَسْوَأِ حَالٍ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ فِيْنَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِنَا إِلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؛ رَحْمَةً رَحِمَ بِهَا مَنْ أَرَادَ رَحْمَتَهُ ، وَنِقْمَةً يَنْتَقِمُ بِهَا مَنْ رَدَّ كِرَامَتَهُ ؛ فَبَدَأَ بَنَاءِ قَبِيلَةِ قَبِيلَةٍ ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَشَدَّ عَلَيْهِ ، وَلَا أَشَدَّ إِنْكَارًا لِمَا جَاءَ بِهِ ، وَلَا أَجْهَدَ عَلَى قَتْلِهِ وَرَدِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَكُونُهُمْ حَتَّى طَابَقْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ كُلَّنَا ، فَتَصَبَّأْنَا لَهُ جَمِيعًا ، وَهُوَ وَحْدَهُ فَرَدُّ ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَأَعْطَى الظُّفَرَ عَلَيْنَا ، فَدَخَلَ بَمَضْنَا فِي الدِّينِ سُرْعًا ، وَبَمَضْنَا كَرِهًا ، ثُمَّ عَرَفْنَا جَمِيعًا الْحَقَّ وَالصَّدْقَ لِمَا أَتَانَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْمُعْجَزَةِ .

وَكَانَ مِمَّا أَتَانَا بِهِ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا جِهَادُ الْأَدْنَى فَلَاذْنَى ، فِسرُنَا بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَنَا ، نَرَى أَنَّ الَّذِي قَالَ لَنَا وَوَعَدَنَا لَا يَنْقُضُ ، حَتَّى اجْتَمَعَتِ الْعَرَبُ عَلَى هَذَا ، وَكَانُوا مِنْ اخْتِلَافِ الرَّأْيِ فِيمَا لَا يَطْلُقُ الْخِلَافُ تَأْلِيْفَهُمْ ، ثُمَّ أَتَيْنَاكُمْ بِأَمْرِ رَبِّنَا ،

(١) تَفَحِّمُونَ : تَصَابُونَ بِالنَّحِيطِ .

نجاهدُ في سبيله ، وننفذُ لأمره ، ونستنجزُ موعودَه ، وندعوكم إلى الإسلام وحكمه ،
فإن أحببتمونا تركناكم ، ورجعنا وخلفنا فيكم كتابَ الله ، وإن أبيتم لم يحلّ لنا
إلا أن نعطيك القتال ، أو تفسدوا بالجزى ، فإن فعلتم وإلا فإن الله أودّنا
أرضكم وأموالكم وأبناءكم ، فاقبلوا نصيحتنا ؛ فوالله لا سلام لكم أحبّ إلينا
من غنائمكم ، ولقتالكم بعد أحبّ إلينا من صلحكم ، وأما ما ذكرت من رثائتنا
وقلتنا ، فإن أداتنا الطاعة ، وقتالنا الصبر ، ومثلكم مثل رجل غرس أرضاً
واختار لها الشجر والحبّ ؛ وأجرى إليها الأنهار ، وزيّنها بالقصور ، وأقام فيها
فلاحين يسكنون قصورها ويقومون على جنّاتها ، فغلا الفلاحون في القصور
على ما لا يحبّ ، وفي الجنان بمثل ذلك . فأطال نظرتهم ، فلما لم يستحيوا من تلقاء
أنفسهم استعقبهم فكابروه ، فدعا إليها غيرهم ، وأخرجهم منها ؛ فإن ذهبوا عنها
تخطّفهم الناس ، وإن أقاموا فيها صاروا خولاً لهؤلاء ، يملكونهم ولا يملكون
عليهم ، فيسومونهم الخسف أبداً . والله إن لم يكن ما نقول لك حقاً ، ولم يكن
إلا الدنيا ، لما كان لنا عمّا ضريناً به من لذيذ عيشكم ، ورأينا من زبرجكم من صبر
ولقار غنائمكم حتّى نغلبكم عليه .

٣٦ - يوم أَرَمَات*

لم تصلح المُفَاوِضَةُ ، وَتَهَيَّأَ الْفَرِيقَانِ لِلْحَرْبِ ؛ قَالَ رُسْتَمُ : أَتَعْبُرُونَ إِلَيْنَا أَمْ نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ ؟ فَقَالُوا : بَلْ اعْبُرُوا إِلَيْنَا .
وَأَمَرَ سَعْدُ النَّاسَ أَنْ يَقِفُوا مَوَاقِفَهُمْ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْفُرْسِ : شَأْنُكُمْ وَالْعُبُورُ .

فَارَادُوا الْقَنْطَرَةَ - وَكَانَتْ لِلْفُرْسِ وَأَخَذَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ - فَأَرْسَلَ سَعْدُ إِلَيْهِمْ : لَا تَزِدُّ عَلَيْكُمْ شَيْئًا قَدْ غَلَبْنَاكُمْ عَلَيْهِ ؛ تَسْكَلُّوْا مَعْبَرًا غَيْرَ الْقَنَاظِرِ ، فَبَاتُوا يَسْكُرُونَ^(١) نَهْرَ الْعَتِيقِ إِلَى الصَّبَاحِ بِالثَّرَابِ وَالْقَصَبِ وَالْبَرَاذِعِ حَتَّى جَعَلُوهُ طَرِيقًا .
وَلَبَسَ رُسْتَمُ دِرْعَيْنِ وَمِغْفَرًا^(٢) ، وَأَخَذَ سِلَاحَهُ ، وَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ ،
وَأَتَى بِهِ ، ثُمَّ قَالَ : غَدًا نَدْفُهُمْ دَقًّا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقَالَ :
وإِنْ لَمْ يَشَأْ .

وَلَمَّا عَبَرَ أَهْلُ فَارِسٍ أَخَذُوا مَصَافِقَهُمْ ، وَجَلَسَ رُسْتَمُ عَلَى سَرِيرِهِ ، وَعَبَّى
فِي الْقَلْبِ ثَمَانِيَةَ حَشْرِ فَيْلًا ، عَلَيْهَا الصَّنَادِيقُ وَالرِّجَالُ ، وَأَقَامَ الْجَالِنُوسَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ مَيْمَنَتِهِ وَالْبَيْرُزَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَيْسَرَتِهِ ، وَبَقِيَتِ الْقَنْطَرَةُ بَيْنَ خَيْلَيْنِ مِنْ خِيُولِ
الْمُسْلِمِينَ وَخِيُولِ الْمُشْرِكِينَ .

* قَالَ يَاقُوتُ : أَرَمَاتُ : مَجْعُ رُمْتُ ، وَهُوَ اسْمُ نَبْتٍ بِالْبَادِيَةِ ، كَانَ أَوَّلُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَةِ ،
يُسَمُّونَهُ يَوْمَ أَرَمَاتٍ ، وَلَا أُدْرِي أَهْوَ مَوْضِعٌ أَمْ أَرَادُوا التَّبْتَ الْمَذْكُورَ .

(١) سَكَّرَ النَّهْرُ : سَدَّاهُ .

(٢) الْمِغْفَرُ : زَرَدٌ مِنْ حَدِيدٍ يَنْسَحُ عَلَى قَدْرِ الرَّأْسِ يَلْبَسُ تَحْتَ الْقَلَنْسُوَةِ .

وكان يَزْدَجِرْدُ وُضِعَ رَجُلًا عَلَى بَابِ إِيوَانِهِ - إِذْ سَرَّحَ رَسَمَ - وَأَمْرُهُ
بَلْزُومِهِ وَإِخْبَارِهِ ، وَآخِرَ حَيْثُ يَسْمُوهُ مِنَ الدَّارِ ، وَآخِرَ خَارِجِ الدَّارِ ، وَكَذَلِكَ
وُضِعَ عَلَى كُلِّ مَسَافَةٍ رَجُلًا ، فَنَظَّمْ مَا بَيْنَ الْعَتِيقِ وَالْمَسَدَانِ رَجُلًا ، فَكَانَ يَعْلَمُ
الْأَخْبَارَ حِينَ خُدُوشِهَا ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ حَدَثَ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ .

وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ مَصَافَهُمْ ، وَنَادَى مُنَادِيهِمْ : أَتَيْهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ الْحَسَدَ لَا يَحِلُّ
إِلَّا عَلَى الْجِهَادِ ، فَتَحَاسَدُوا عَلَى الْجِهَادِ .

وَكَانَ سَمْعُهُ يَوْمَئِذٍ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْكَبَ وَلَا يَجْلِسَ إِذْ كَانَ بِهِ حُبُونٌ ^(١) ،
لَا يَسْتَطِيعُ مَعَهَا الرُّكُوبَ وَلَا الْجُلُوسَ ، فَأَشْرَفَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْقَصْرِ ، وَصَارَ يَرْمِي
بِالرَّقَاعِ ، فِيهَا أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ إِلَى خَالِدِ بْنِ عُرْفُطَةَ ، إِذْ كَانَ كَانِخَلِيفَةً لَهُ .

وَبَرِمَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ بِسَعْدٍ وَتَنَدَّرُوا بِمَرْضِهِ ، وَاخْتَلَفُوا عَلَى خَالِدٍ ، فَقَالَ سَعْدٌ :
اِحْمَلُونِي ، وَأَشْرِفُوا بِي عَلَى النَّاسِ ، فَارْتَقَوْا بِهِ ، فَأَكَبَ مُطْلِعًا عَلَيْهِمْ ، وَتَحْتَ
صَدْرِهِ وَسَادَةٍ ، وَأَخَذَ يَأْمُرُ خَالِدًا ، فَيَأْمُرُ خَالِدُ النَّاسَ ، فَلَمَّا رَأَى الْجُنْدُ مَا بِهِ
عَذَرُوهُ .

وَكَانَ مِمَّنْ شَغَبَ عَلَى خَالِدِ بَعْضُ وَجُوهِ النَّاسِ ، فَهَمَّ بِهِمْ سَعْدٌ وَشَتَمَهُمْ ، وَقَالَ :
أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ عَدُوَّكُمْ بِحَضْرَتِكُمْ لَجَعَلْتُكُمْ نَكَالًا لِّغَيْرِكُمْ .

ثُمَّ أَمَرَ بِجَمَاعِهِ - مِنْهُمْ أَبُو مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ - فَحَبَسُوا ، وَقَبَضَهُمْ فِي الْقَصْرِ ، فَأَعْلَنَ
الْقَوْمُ وَلَاءَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ .

ثُمَّ تَوَجَّهَ إِلَى الْقَوْمِ وَخَطَبَهُمْ قَائِلًا بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثَمَى عَلَيْهِ : إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ ، وَلَيْسَ لِقَوْلِهِ خُلُفٌ ، قَالَ اللَّهُ جَلِ ثَنًاؤُهُ : ﴿ وَلَقَدْ

(١) الحبون : الداء ميل ، واحدهما حين .

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ^(١) .
 إِنَّ هَذَا مِيرَاثُكُمْ وَمَوْعِدُ رَبِّكُمْ ؛ وَقَدْ أَبَاحَهَا لَكُمْ مِنْذُ ثَلَاثِ حِجَجٍ ^(٢) ، فَأَنْتُمْ
 تَطْعَمُونَ مِنْهَا ، وَتَقْتُلُونَ أَهْلِهَا ، وَتَحِبُّونَهُمْ ^(٣) وَتَسْبُونَهُمْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ ، وَقَدْ جَاءَكُمْ
 مِنْهُمْ هَذَا الْجَمْعُ ، وَأَنْتُمْ وَجُوهُ الْعَرَبِ وَأَعْيَانُهُمْ ؛ وَخِيَارُ كُلِّ قَبِيلَةٍ ، وَعِزُّ مَنْ وَرَاءَكُمْ ؛
 فَإِنْ تَزَهَّدُوا فِي الدُّنْيَا ، وَتَرَعَبُوا فِي الْآخِرَةِ يَجْمَعُ اللَّهُ لَكُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ،
 وَلَا يَقْرَبُ ذَلِكَ أَحَدًا إِلَى أَجَلِهِ ؛ وَإِنْ تَفْشَلُوا وَتَهِنُوا وَتَضَعُفُوا تَذْهَبُ
 رِيحُكُمْ ^(٤) .

ثم كتب إلى الرّايّات : إني قد استخلفتُ عليكم خالدَ بنَ عُرْفُطَةَ ، وليس يَمْنَعُنِي
 أَنْ أَكُونَ مَكَانَهُ إِلَّا وَجِئِي الَّذِي يَمُودُنِي ، وَمَا بِي مِنَ الْخَبُونِ ، فَإِنِّي مُكِبٌّ عَلَى
 وَجْهِهِ وَشَخْصِي لَكُمْ بَادٍ ^(٤) ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِأَمْرِي
 وَيَعْمَلُ بِرَأْيِي .

وَقَرِئَ الْكِتَابُ عَلَى النَّاسِ فَقَبِلُوا مِنْهُ ، وَتَحَاثُّوا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَأَجْمَعُوا
 عَلَى عُدْرِ سَعْدٍ ، وَالرِّضَا بِمَا صَنَعَ .

وَقَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ سَعْدٌ بِالْقِتَالِ أَرْسَلَ ذُوِي الرَّأْيِ وَالْفَضْلِ وَالنَّجْدَةِ إِلَى النَّاسِ
 فَكَانَ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ الْمَغِيرَةِ وَخُذِيفَةَ وَعَاصِمَ ، وَمِنْ أَهْلِ النَّجْدَةِ طَلِيحَةَ وَقَيْسَ
 الْأَسَدِيَّ وَغَالِبَ وَعَمْرُو بْنَ مَعْدِيكَرِبَ ، وَمِنْ الشُّعْرَاءِ الشَّمَاخَ ، وَالْخَطِيبَةَ ،
 وَأَوْسَ بْنَ مَفْرَاءَ وَعَبْدَةَ بْنَ الطَّيِّبِ ، وَقَالَ لَهُمْ : انْطَلِقُوا فَقُومُوا فِي النَّاسِ بِمَا يَحِقُّ
 عَلَيْكُمْ ، وَيَحِقُّ عَلَيْهِمْ عِنْدَ مَوَاطِنِ الْبَأْسِ ، فَإِنَّكُمْ مِنَ الْعَرَبِ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ ،

(١) سورة الأنبياء ١٠٥ . (٢) حجج : سنين . (٣) جي الحراج جمعه ، والقوم : جمعهم

(٤) تذهب ريحكم ، أي قوتكم . (٤) باد : ظاهر .

أنتم شعراء الناس وخطباؤهم وذوؤ رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرّضوهم على القتال .

ولما ساروا إلى الناس ، وقف قيس بن هبيرة الأسدي فقال : أيها الناس ، احمّدوا الله على ما هداكم له وأبلاكم يزدكم ، واذكروا آلاء الله وارغبوا إليه ، فإنّ الجنة أو الغنيمة أمامكم ، وإنه ليس وراء هذا القصر إلا العراء والأرض القفر ، والفلوات التي لا تقطعها الأدلة^(١) .

وقال غالب : أيها الناس ، احمّدوا الله على ما أبلاكم^(٢) ، وسلّوه يزدكم ، وادعوه يُجيبكم . يامعاشر معدّة ، ماعلّتكم اليوم وأنتم في حصونكم - يعني الخيل ومعكم من لا يعصيكم - يعني السيوف اذكروا حديث الناس في غدي .

وقال الهذيل الأسدي : يامعاشر معدّة ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليهم كأسود الأجم^(٣) ، وتربدوا^(٤) لهم تربد النمر ، وادّرعوا العجاج^(٥) ، وثقوا بالله ، وغضّوا الأبصار ، فإذا كَلَّت السيوفُ فأرسلوا عليهم الجنادل^(٦) ، فإنها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه .

وقال بسر بن أبي رهم الجهني : احمّدوا الله وصدّقوا قولكم بفعل ، فقد حمدتكم الله على ما هداكم له ، ووحدتموه ، ولا إله غيره ، وكبرتموه ، وآمنتم بنبيّه ورسله ، فلا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون ، ولا يكوننّ شيء بأهون عليكم من الدنيا

(١) الأدلة : جمع دليل . (٢) إبلاكم ، أي اختبركم . (٣) الأجم : جمع أجه : الشجر الكثير الملتف . (٤) تربد : تغير وتغيّر . (٥) العجاج : الغبار والدخان . (٦) الجنادل : ما يقله الرجل من الحجارة .

فَإِنَّهَا تَأْتِي مَنْ تَهَاوَنَ بِهَا . وَلَا تَمِيلُوا إِلَيْهَا ، فَتَهْزُبَ مِنْكُمْ لِتَمِيلَ بِكُمْ . انصروا
اللَّهُ يَنْصَرِكُمْ .

وقال عاصم بن عمرو : يامعاشر العرب ، إنكم أغنيانُ العربِ وقد صمدتم
لِأَغْنِيَانِ المعجم ، وإنما تُخَاطِرُونَ^(١) بِالْجَنَّةِ ، وَيُخَاطِرُونَ بالدنيا ، فلا يكونَنَّ
على دُنْيَاهُمْ أخطَ منكم على آخرتكم : لَا تُحْدِثُوا اليومَ أَمْرًا تَكُونُونَ بِهِ
شَيْنًا^(٢) على العربِ غَدًا .

وقال ربيع السَّعْدِيّ : يامعاشر العرب ، قاتلوا اللدِّينَ والدنيا ، ﴿ وسارعوا إلى
مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾^(٣) ، وإنَّ
عَظَمَ الشَّيْطَانُ عَلَيْكُمْ الْأَمْرَ فَادْكُرُوا الْأَخْبَارَ عَنْكُمْ بِالْمَوَاسِمِ مَا دَامَ لِلْأَخْبَارِ
أَهْلٌ .

وقال رِبْعِيّ بن عامر : إِنَّ اللَّهَ قد هداكم للإسلام وجمعكم به ، وَأَرَاكُمْ
الزِّيَادَةَ ، وفي الصبر الراحة ؛ فَمَوِّدُوا أَنْفُسَكُمْ الصَّبْرَ تَمْتَادُوهُ ، وَلَا تَمَوِّدُوا الْجَزَعَ
فَتَمْتَادُوهُ .

وقاموا كُلَّهُمْ بِنَحْوِهِ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، فَتَوَاتَّقَ النَّاسُ وَتَمَاهَدُوا .
وَفَعَلَ أَهْلُ فَارِسٍ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَتَمَاهَدُوا وَتَوَاصَوْا .
ثم أمر سعدٌ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ سُورَةَ الْجِهَادِ^(٤) ، وَكَانُوا يَتَعَلَّمُونَهَا . ثم قال
لَهُمْ : الزَّمُوا مَوَاقِفَكُمْ ، وَلَا تَحَرَّ كَوَا شَيْئًا حَتَّى تَصَلُّوا الظُّهْرَ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ الظُّهْرَ

(١) خاطر : راهن أو عرض نفسه للهلاك . (٢) شيناً : عيباً . (٣) سورة العمران ١٣٣

(٤) في بعض الروايات : لما صلى سعد الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه عمر إياه — وكان من
القراء — أَنْ يَقْرَأَ سُورَةَ الْجِهَادِ ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَتَعَلَّمُونَهَا كُلَّهُمْ ، ثُمَّ قُرِئَتْ فِي كُلِّ كَتِيبَةٍ وَهَشَتْ لَهَا
قُلُوبُ النَّاسِ ، وَعَرَفُوا السَّكِينَةَ مَعَ قِرَاءَتِهَا .

فإني مُكَبِّرُ تكبيرةً، فكَبِّرُوا واستَعِدُّوا. واعلموا أَنَّ التَّكْبِيرَ لم يُعْطَ أحدٌ قبلكم؛ واعلموا أَنَّمَا أُعْطِيتُمُوهُ تَأْيِيداً لَكُمْ، ثم إذا سمعتم الثانية فكَبِّرُوا ولتُسْتَتَمَّ عُدَّتُكُمْ، ثم إذا كَبُرَتْ الثالثة فكَبِّرُوا، ولينشط فُرسانُكم الناسَ لِيَهْرُزُوا وليطاردوا، فإذا كَبُرَتْ الرابعة فَارْحَفُوا جميعاً حتى تُخَالِطُوا عَدُوَّكُمْ، وقولوا: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله!

ولما فَرَغَ القُرَاءُ كَبَّرَ سَعْدٌ، فكَبَّرَ الذين يَلُونَهُ تكبيرةً، وكَبَّرَ بعضُ الناسِ بتكبيرِ بعضٍ، فتحَشَّشَ^(١) الناسُ، ثم ثَنَّى فاستَمَّ الناسُ، ثم ثَلَّثَ فبرزَ أهلُ النِّجْدَاتِ، فَأَنْشَبُوا القتالَ، وخرجَ من أَهْلِ فارسِ أمثالُهم، فاعتوروا^(٢) الطَّعْنَ والضَّرْبَ، وبرزَ غالبُ بنُ عبدِ اللهِ الأَسَدِيُّ؛ فخرجَ إليه هُرْمُزٌ - وكان مُتَوَجِّجاً - فأَسْرَهُ غالبٌ وجاءَ به سَعْدُاً.

وخرجَ عاصمُ بنُ عمرو، فطارِدَ رَجُلًا من أَهْلِ فارسٍ، فهربَ منه واتَّبَعَهُ حتى إذا خالطَ صَفَّهُمُ التَّقَى بفارسٍ معه بَنُغْلُهُ، فتركَ الفارسُ البُغْلَ، واعتصمَ بأَصْحَابِهِ، فحَمَوْهُ فَأَسْتَأَقَ عاصمُ البُغْلَ حتى أَفْضَى به إلى الصَّفِّ، فإذا الفارسُ خَبَّازُ المَلِكِ، وإذا الذي معه لَطَفٌ^(٣) المَلِكِ: الأَخْبِصَةُ^(٤) والعَسَلُ المَعْقُودُ، فَأَتَى به سَعْدُاً، ورجعَ إلى مَوْقِفِهِ، فلما نظرَ فيه سَعْدٌ قال: انطلقوا به إلى أَهْلِ مَوْقِفِهِ. وقُولُوا لهم: إنَّ الأَمِيرَ قد نَفَّلَكُمْ^(٥) هذا فَكُلُوهُ.

ومرَّ عَمْرُو بنُ مَعْدِيكَرِبٍ يُحَضِّضُ الناسَ بينَ الصَّفَّيْنِ؛ فبينما هو كذلك إِذْ خَرَجَ إليه رَجُلٌ من الأَعَاجِمِ، فوقفَ بينَ الصَّفَّيْنِ؛ فرمى بِنُشَابَةٍ^(٦)، فإِذَا أَخْطَأَتْ

(١) تحشش الناس، تبحركوا. (٢) اعتوروا الطعن: تداولوه وتبادلوه.

(٣) اللطف: الهدايا، واحدة لطفة. (٤) الأخبصة: الحلوى. (٥) نفلكم: أهداكم

(٦) النشابة: وحدة النشاب، وهو النبل.

سِيَّة قَوْسِهِ^(١) ، وهو مُتَنَكِّبُهَا ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ ، فَاعْتَنَقَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ بِمَنْطِقَتِهِ فَاحْتَمَلَهُ ، فَوَضَعَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ كَسَرَ عُنُقَهُ ، وَوَضَعَ سَيْفَهُ عَلَى حَلْقِهِ وَذَبَحَهُ ، ثُمَّ أَلْقَاهُ وَقَالَ : هَكَذَا فَاصْنَعُوا بِهِمْ .

ثُمَّ كَبَّرَ سَعْدٌ التَّكْبِيرَ الرَّابِعَةَ ، آيَةَ الزَّحْفِ الْعَامِ ، وَحَمَلَ أَصْحَابُ الْفِيلَةِ مِنَ الْفُرْسِ ، فَفَرَّقُوا كِتَابَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَبْدَعَرَتْ^(٢) خِيُولَهُمْ ، وَكَادَتْ بِحِيلَةٍ أَنْ تُؤْكَلَ ، وَفَرَّتْ عَنْهَا خَيْلُهَا نَهَارًا ، وَبَقِيَتْ الرَّجَالَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَوَاقِفِ .

فَلَمَّا رَأَى سَعْدٌ مَاحِلَ بِهِمْ أَغْنَاهُمْ بِنَى أُسْدٍ فَصَمَدُوا لَهَا ، ثُمَّ أَخَذَتْ الدَّائِرَةَ تَدُورُ عَلَيْهِمْ ، وَكَادَتْ خَيْلَهُمْ تُخْجِمُ وَتَحِيدُ .

فَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَى عَاصِمِ بْنِ عَمْرِو التَّمِيمِيِّ ؛ وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ بَنِي تَمِيمٍ ، أَلَسْتُمْ أَصْحَابَ الْإِبِلِ وَالْخَيْلِ ! أَمَّا عِنْدَكُمْ لِهَذِهِ الْفِيلَةِ مِنْ حِيلَةٍ ! قَالُوا : بَلَى وَاللَّهِ . ثُمَّ نَادَى فِي رِجَالِ قَوْمِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : ذُبُّوا^(٣) رُكْبَانَ الْفِيلَةِ بِالنَّبْلِ ، وَاسْتَدْبِرُوا الْفِيلَةَ ، فَقَطَّعُوا وَضُنْهَآ^(٤) . وَخَرَجَ يَحْمِيهِمْ ، وَالرَّحَى تَدُورُ عَلَى أُسْدٍ ، وَقَدْ جَالَتْ الْمَيْمَنَةُ وَالْمَيْسَرَةُ غَيْرَ بَعِيدٍ .

وَأَقْبَلَ أَصْحَابُ عَاصِمٍ عَلَى الْفِيلَةِ فَأَخَذُوا بِأَذْنَانِهَا ، فَقَطَّعُوا وَضُنْهَآ ، وَارْتَفَعَ غَوَاؤُهَا ، فَمَا بَقِيَ لَهُمْ يَوْمُئِذٍ فَيْلٌ إِلَّا أَعْرَى ، وَوَقَعَتِ الصَّنَادِيقُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا ، وَفُتِلَ أَصْحَابُهَا ، وَنَفَسَ عَنْ أُسْدٍ ، وَرَدُّوا الْفُرْسَ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ ، ثُمَّ اقْتَتَلُوا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَاسْتَمَرُّوا حَتَّى ذَهَبَتْ هَدَأَةٌ^(٥) مِنَ اللَّيْلِ ، وَرَجَعَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ ، وَأَصِيبٌ مِنْ أُسْدٍ تِلْكَ الْعَشِيَّةَ خَمْسَمِائَةَ ، وَكَانُوا رِدْءًا لِلنَّاسِ .

وَهَذَا هُوَ الْيَوْمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَيَّامِ الْقَادِسِيَّةِ ؛ وَاسْمُهُ يَوْمُ أَرْمَاتٍ .

(١) سِيَّةُ الْقَوْسِ : مَا عَطَفَ مِنْ طَرَفِهَا . (٢) أَبْدَعَرَتْ خِيُولَهُمْ : تَفَرَّقَتْ .

(٣) ادْفَعُوا وَامْنَعُوا . (٤) الرُّكْبَانُ : بَظَانٌ عَرِيشٌ مَنْسُوجٌ مِنْ سَيُورٍ ، جَمْعُهُ وَضْنٌ .

(٥) أَوَّلُ اللَّيْلِ إِلَى ثُلَاثِهِ .

٣٧ - يوم أغوات*

وَرَأَتْ سَلَمَى زَوْجَ الْمُثَنَّى بن حارثة، ثم زَوْجَ سَعْدٍ من بعده ما حَلَّ بالقوم يوم أُرْمَات، وما صنع أَهْلُ فَرَسِ بِهِمْ، فَصَاحَتْ: وَامْنَاهُ! لَا مُثَنَّى لِلخَيْلِ الْيَوْمَ! وكان سَعْدٌ لَا يُطِيقُ جَلْسَةً إِلَّا مُسْتَوْفِزاً^(١) أَوْ عَلَى بَطْنِهِ؛ وَكَانَ ضَجْجاً مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَطَمَ وَجْهَهَا. وَقَالَ: أَيْنَ الْمُثَنَّى مِنْ هَذِهِ السَّكَنِيَّةِ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا الرَّحَى؟ يَعْنِي أَسَدًا وَعَاصِمًا وَخَيْلَهُ، فَقَالَتْ: أُغِيرَةٌ وَجُبْنَا! قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَمْعِدُرُنِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِذَا أَنْتِ لَمْ تَعْمَدِيْنِي، وَأَنْتِ تَرَيْنِ مَا بِي.

ثم أصبح القومُ من الغدِ على تَعَبَةٍ، ووَكَّلَ سَعْدٌ رَجُلًا بِنَقْلِ الشُّهَدَاءِ، ووَكَّلَ آخَرِينَ بِحَمْلِ الْجَرَحَى إِلَى الْعُذَيْبِ^(٢)، لِيَقُومَ النِّسَاءُ بِتَمْرِضَتِهِمْ وَمُدَاوَاتِهِمْ. وَبَيْنَمَا الْقَوْمُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، وَلَمْ يَنْشَبِ الْقِتَالُ، إِذْ طَلَعَتْ نَوَاصِي خَيْلِ الْمُسْلِمِينَ قَادِمَةً مِنَ الشَّامِ.

* يقول الدكتور هيكال في كتابه «الفاروق عمر» ١ : ١٧٥: « يطلق المؤرخون على هذا اليوم من أيام القادسية اسم أغوات، ويحسب بعض المستشرقين أنهم اختاروا لهذا الاسم لأن القفح أغاث فيه جيش سعد بمن جاء بهم من الشام، وليس من اليسير لإقرار هذا التفسير إلا أن نجد لسائر أيام الغزاة تفسيراً من نوعه. وقد رأينا أن يوم أرمات لا يمكن أن يكون لمثل هذا التفسير. أما الليلة التي انقضت بين يوم أرمات ويوم أغوات فيطلق المؤرخون عليها اسم ليلة الهدأة. كما أنهم يطلقون اسم السواد على الليلة التي تلت يوم أغوات. وفي ياقوت: « كان يقال لليوم الأول من أيام القادسية يوم أرمات، ويقال لليوم الثاني أغوات، ولليوم الثالث يوم عماس، ولليوم الرابع يوم القادسية، وفيه كان الفتح على المسلمين، ولا أدري هذه الأسماء مواضع أم هي من الرمث والنوث والعمس؟ ». (١) استوفز في قعدته: انتصف فيها غير مطمئن، أو وضع ركبته ورفع أليته أو استقل على رجله ولما يستوفزاً.

(٢) العذيب: ماء بين القادسية والمفينة بينه وبين القادسية أربعة أميال.

وذلك أن عُمر بن الخطاب أرسل إلى أبي عُبَيْدَةَ بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرِدَ الجُنْدَ الذين جاءوا من العراق إلى الشام مع خالد بن الوليد ، ليكونوا عوناً للجنود ساعد على قتال الفُرس ؛ فكان وصولهم إلى جيش المسلمين في ذلك اليوم قبل انتشاب القتال ؛ وكانوا ستّة آلاف ، منهم خمسة آلاف من ربيعة ومُضر ، وألف من اليمن ؛ وكان الأمير^(١) على هذا الجيش هاشم بن عُثْبَةَ بن أبي وقّاص ، وعلى مقدمته القَعْقَاعُ بن عمرو ، وعلى مُجَنَّبَتَيْهِ قَيْسُ بن هُبَيْرَةَ والهَزَاهَا بن عمرو العبجلي . وتمجّل القَعْقَاعُ حتى قدم على المسلمين بالقادِسيّة صبيحة يوم أغواث .

وقد أراد القَعْقَاعُ أن يُوقِعَ الرُّعْبَ في قلوب الفُرس ، فمهد إلى أصحابه أن يتقطّعوا أعشاراً ؛ وهم ألف ، فكلّموا بلغ عشرة مَدَى البصر سرّحوا في آثارهم عشرة ؛ وكان قدومُ القَعْقَاعِ في العشرة الأولى ، فلما أتى الناس سلّم عليهم وبشّرهم بالجنود ، ثم قال : أيّها الناس ، إني قد جئتكم في قوم ، والله إن لو كانوا بمكانكم ثم أحسّوكم حسدوكم حُظوظَها ، وحاولوا أن يطيرُوا بها دونكم ، فاصنمُوا كما أصنع ، ثم تقدّم ونادى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فبرز إليه رجلٌ من الفُرس ، فقال له القَعْقَاعُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : أنا بَهْمَنُ جاذويه ؛ فنادى : يا لثاراتِ أبي عُبَيْدٍ وسليطِ وأصحابِ الجسر ! واجتَلَدَا ، فقتله القَعْقَاعُ ؛ وجعلت خيلُه تَرْدُ قطعاً ، وما زالت ترد إلى الليل ، وتشتط الناس ، وكأن لم يكن بالأمس مُصيبة ؛ ثم نادى : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فخرج إليه رجلان ، أحدهما البيرُزان ، والآخر البندوان ؛ فانضمّا إلى القَعْقَاعِ الحارث بن ظَبْيَانَ ، فبَارِزَ القَعْقَاعُ البيرزان فضربه ، فأذرى^(٢) رأسه ، وبارز ابنُ ظَبْيَانَ البندوان

(١) لما قدم على أبي عبيدة كتاب عمر بصرف أهل العراق أصحاب خالد ، ولم يذكر خالدًا ، من

بخالد فلم يرسله وأرسل الجيش .

(٢) أذرى رأسه : أطارها .

فضر به فأذرى رأسه ؛ وجعل القعقاع يقول : يا معاشر المسلمين ؛ باشرؤهم بالسيوف ، فإنما يُحصّد الناسُ بها ؛ ثم خرج الناس من كلّ ناحية ، وبدأ الحرب والطمان ، وزاد الناس نشاطاً أن لم يروا الفيلة بينهم ؛ وجعل بنو عم القعقاع يومئذ عشرة عشرة من الرّجال على إبل قد ألْبَسُوها ، فهي مجلّة مبرّقة ، تُشبه الفيلة ؛ ولقي أهل فارس من الإبل يوم أغواث أعظم مما لقي المسلمون من الفيلة يوم أرمات .

وكان سعدُ بن أبي وقاص قد حبس أبا محجن الثقفي وقيّده في قصره ؛ فلما اشتدّ القتالُ صعد إلى سعد يستعفيه ويستقيله ؛ ويسأله تسريحه للغزو مع المسلمين ؛ فزجره وردّه ؛ فنزل حتى أتى سلمى ؛ فقال : يا سلمى ؛ هل لك إلى خير ؟ قالت : وما ذاك ؟ قال : تُخلّين عني وتُبرّئيني اللقاء ؛ فله علىّ إن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى في قيدي ، فقالت : وما أنا وذاك ! فرجع يرسف في قيوده ويقول :

كفى حزناً أن تردّي^(١) الخيلُ بالقنأ وأترك مشدوداً على وثاقياً
إذا قمتُ عناني^(٢) الحديدُ وأغلقتُ مصاريعُ دوني قد تُعيمُ المُنادياً
وقد كنتُ ذا مالٍ كثيرٍ وإخوةٍ فقد تركوني واحداً لا أخلياً
ولله عهدٌ لا أخيسُ^(٣) بمهديهِ لأن فرجتُ ألا أزور الحواريّ^(٤)

فقلت سلمى : إني استخّرتُ الله ورضيتُ بهدك ؛ وأطلقتُهُ وقالت : أما الفرس فلا أعيرها ، ورجعت إلى بيتها ؛ فاقتادها وأخرجها من باب القصر وربّكها ؛ ثم دبّ عليها ؛ حتى إذا كان بحيال الميمنة كبر ، ثم حل على ميسرة القوم يلعبُ

(١) ردّى الفرس : رجعت الأرض بحوافرها ، أو هو سير بين العدو والمضى .

(٢) عناني : أتعبنى . (٣) لا أخيس : لا أغدر . (٤) الحواري : موضع بيع الخمر .

بِرُمُوحِهِ وسلاحه بين الصَّغِيرَيْنِ ؛ وكان يقصف الأعداء بِسَيْفِهِ قصفاً منكراً ، وتَعْجَبُ
الناس منه وهم لا يعرفونه ؛ وجعل سعد يقول وهو مُشْرِفٌ على الناس من فوق القصر :
والله لولا مَحْبِسُ أَبِي مَحْجَنٍ لقلت : هذا أبو مَحْجَنٍ وهذه البلقاء ! وقال بعضُ
الناس إن كان الخَضِرُ يشهد الحروب فنظنَّ صاحبَ البلقاء الخَضِرُ . وقال بعضهم : لولا
أن الملائكةَ لا تباشرُ القتالَ لَقَلَدْنَا مَلَكًا .

ثم حَاجَرَ^(١) أهلُ فارس ، وتراجع المسلمون ، وأقبل أبو مَحْجَنٍ حتى دَخَلَ من
حيث خرج ، ووضع عن نفسه وعن دَأْبَتِهِ ، وأعاد رجله في قَيْدَيْهِ ، وقال :
لقد علمتُ ثَقِيفٌ غيرَ فَخْرٍ بَأَنَا نحنُ أَكْرَمُهُمْ سِوْفًا
وأَكْثَرُهُمْ دُرُوعًا سابِغَاتٍ وَأَصْبَرُهُمْ إِذَا كَرِهُوا الْوُقُوفًا
فإن أَحْبَسَ فذلكمُ بِلَائِي وَإِنْ أَتْرَكَ أَذِيقُهُمُ الْحَتُوفًا

فقلت له سَلَمَى : يا أبا مَحْجَنٍ ؛ في أيِّ شَيْءٍ حَبَسَكَ هذا الرجل ؟ فقال : أَمَا والله
ما حبسني بحرامٍ أَكَلْتُهُ وَلَا شَرِبْتُهُ ؛ ولكنني كنتُ صاحبَ شرابٍ في الجاهلية ؛ وأنا
امرؤ شاعِرٌ يَدِبُّ الشَّعْرُ على لِسَانِي ؛ يبعثه على شَفَتِي أحيانًا ؛ فَيُسَاءُ لذلك ثَنَائِي ؛
حبسني حين قلت :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنْنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ^(٢) تَرَوْنِي عِظَامِي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقَهَا
وَلَا تَدْفِنْنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتَّ إِلَّا أَذُوقَهَا

وكانت سألني مفاضبةً لسعد عشيّةَ أَغْوَاثٍ ؛ فصالحته ؛ وأخبرته خبرها وخبر
أبي مَحْجَنٍ ، فدعا به وأَطْلَقَهُ ، وقال له : اذهب ؛ فأنا مُؤَاخِذُكَ بِشَيْءٍ تقولُه حتى
تفعله . قال : والله لا أَجِيبُ لِسَانِي إِلَى صِفَةِ قَبِيحٍ أَبَدًا .

(١) المهاجرة : المانعة .

(٢) الكرمة : شجرة العنب .

٣٨ - يوم عَمَّاس *

أصبح المسلمون من اليوم الثالث وهم على مواقيفهم ، وأصبحت الأعاجم على مواقيفهم ؛ وقد قُتِلَ من المسلمين ألفان ، ومن المشركين عَشْرَةُ آلاف . وقال سعد : من شاء غَسَلَ الشهداء ، ومن شاء فَلَمَّ فَنَفْسُهُمُ بدمائهم .

وأقبل المسلمون على قتلائهم فأحرزوهم وجعلوهم ، من وراء ظهورهم ، وأقبل الذين يجمعون القتلى يحملونهم إلى المقابر ، ويُبَلِّغُونَ الرِّثِيثَ ^(١) إلى النساء .

وبات القَعَقَاعُ ليلته كُلُّهَا يُدْرِبُ أصحابه إلى المكان الذي فارقه فيه من الأمس ، ثم قال : إذا طلعت عليكم الشمس فَأَقْبِلُوا مائة مائة ، كُلُّمَا تَوَارَى عَنْكُمْ مائة فَلْتَتَبِعْهَا مائة . وقال : إن أدرككم هاشمُ بْنُ عُثْبَةَ وجاء بمن معه يشاركُ في المعركة فَذَاكَ ، وإلا فجددوا للناس رجاء في المدد ، فإنَّ الرجاء يزيدُهم إقداماً في الحرب ، وإيماناً بالقُوَّةِ فيها . ففعلوا ولم يَشْعُرْ بذلك أحد .

ولَمَّا ذَرَّ ^(٢) قَرْنُ الشَّمْسِ طلعت نواصي الخيل فكَبَّرَ وكَبَّرَ الناس ، وقالوا : جاء المدد . وأدرك هاشمُ بْنُ عُثْبَةَ وجنوده رجالَ القَعَقَاعِ ، وعرف ما فعل ، فجعل رجاله فِرْقاً ، وأمرهم أن يتلاحقوا ، وسار على رأس الفرقة الأولى ، فبلغ القادسية حين أخذ المسلمون مصائبهم للقبال : فلما رآه الناس كَبَّرَ وكَبَّرُوا معه ، وتقدَّم الفُرْسَانُ

* قال ياقوت : «عماس - بكسر العين ، كان اليوم الثالث من أيام القادسية يقال له يوم عماس ، ولا أدري أهو موضع أم هو من العس . مقلوب العس » .

(١) الرثيث : الجريح وبه رمق . (٢) ذر : برز وظهر .

وتكثبت الكتاب ، فاختلفوا الضرب - راسع ، ومددوهم متتابع .

ولم يضع المدد الذى جاء المسلمين من عزيمة الفرس ، فقد أصلحوا تواييت فيلتهم حتى أعادوها ، وأصبحوا على مواقفهم ، وأقبلت الفيلة معها الرجالة يحملونها أن تقطع وضنها^(١) ، ومع الرجالة فرسان يحملونهم ، إذا أرادوا كتيبة دلفوا^(٢) لها بفيل وأتباعه لينفروا خيلهم . وأنست الفيلة إلى هؤلاء الحماة فلم تفتك بهم ؛ لكنها لم تفتك كذلك بعدوهم ، لأن الفيل إذا كان وحده ليس معه أحد كان أو حش ، وإذا أطافوا به كان آنس . فكان القتال كذلك حتى عدل النهار ، وكان يوم عماس من أوله إلى آخره شديداً ؛ العرب والعجم فيه على السواء .

على أن الفيلة ما كبت حين ألقت الموقف واشتدت من حولها المعركة أن عادت إلى مثل فتسكها يوم أرماث ، ورآها سعد تفرق بين الكتاب ، فأرسل إلى جماعة ممن أسلموا من فارس ، فدخلوا عليه ، فسألهم عن مقاتل الفيلة ؛ فقالوا : المشافر والعيون ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابني عمرو : اكفيانى الفيل الأبيض - وكان وكان يازائهما - وأرسل إلى حمال والربيل الأسديين : اكفيانى الفيل الأجر - وكان يازائهما - وكانت الفيلة كلها تتبعهما .

فأخذ القعقاع وعاصم رُمحين ووضعاهما في عيني الفيل الأبيض ، فقبع ونفض رأسه ، وطرح سائسه ، ودلى مشفره ، فضربه القعقاع بسيفه ، فرمى به ، ووقع لحنيه .

وحمل حمال ، وقال للربيل : اختر ، إما أن تضرب المشفر وأطعن في عينه

(١) الوضن : جمع وضين ، وهو بطان عريض من جلد منسوج .

(٢) دلفت الكتيبة في الحرب : تقدمت .

أو تطعن في عينه وأضرب مشفره ، فاختر الضرب ، فحمل عليه حمال وطعنه في عينه فألقى ثم استوى ، وضربه الرّبيل ، فأبان مشفره ، ففرّ حتى وثب في العتيق ، وتبعته الفيلة ، وخرقت صفوف الفرس ، وألقت من عليها ، وعبرت العتيق في أثر الأجرى حتى أتت المدائن بتواييتها .

ولما ذهبت الفيلة تراحت المسلمون إلى أهل فارس ، وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار ، وظل الفريقان يقتتلان حتى أقبل الليل والغبار مخيم ، فلا يعلم سعد ولا يعلم رستم من الدائرة ، وعلى من تدور !

وهذا القتال أول الليل ، وقدّر سعد أن الجيشين سيقضيان الليل يستعدان ليوم رابع ، ولكنه خشى أن يأتيه المدؤ من مخاضة أسفل العسكر ، فأرسل طلحة وعمر في جماعة من الجند وقال لهما : إن وجدتما القوم قد سبقوكما إليها فانزلا بحيا لهما ، وإن لم تجداهم علموا بها ؛ فأقيا حتى يأتكما أمرى . ولم يجدا على المخاضة أحدا ؛ فسولتا لهما نفساهما أن يحوضاهما ، وأن يأتيا الأعاجم من خلفهم ، ففعلا .

وأخذ طلحة مكانه وراء العسكر ، وكبر ثلاث تكبيرات ؛ ارتاع لها أهل فارس ؛ وظنوا أن جيش المسلمين أزمع الغدر بهم ، وتمجّب المسلمون لسماعها وظنوا أن الأعاجم فتكّوا برجالهم فهم يكبرون مستغيثين ، وأغار عمرو على جماعة من الفرس أسفل المخاضة ، فلم يبق لديهم ريب في غدر العرب بهم ؛ فقدّموا صفوفهم زاحفين ، ورأى القمقاع صنيعهم ، فزاحفهم من غير أن يستأذن سعدا .

وأطل سعد فرأى القمقاع يزاحفهم فقال : اللهم أغفرها له ، وانصره ، فقد أذنت له ، وإن لم يستأذننى .

واستقبل الناس الفرس بالسيوف وخالطوهم ، فكان للسيوف قعقة كأنها

صوت مطارق الحدّاد ، وبات سعد بليّلة لم يبت بمثلها ، ورأى العربُ والمعجمُ أمراً لم يروا مثله ، وانقطعت الأصواتُ والأخبار عن رستم وسعد ، وأقبل سعد على الدّعاء ، حتى إذا كان وَجْهُ الصّبحِ عَلِمَ أن المسلمين هم الأعْلَوْنَ ، وأن الغلبة لهم ^(١) .

وكان الناسُ لم يغمضوا ليلتهم كلها ، واشتدّ بهم التعبُ ، فساد القمعاعُ فيهم ؛ وقال : إن الدائرةَ بعد ساعة لمن بدأ القوم ؛ فاصبروا ساعة ، واحملوا فإنّ النصر مع الصبر .

فاجتمع إليه جماعةٌ من الرؤساء ، وتخاصّوا على الموت ، وحملوا على من يَليهم ؛ واقتتلوا أشدَّ قتالٍ إلى أن قام قائمُ الظّهيرة ، وحينئذ بدأ الخلل في صفوف الفرس ، وهبّت ريح عاصف ، فقلعت طيّارة رستم عن سريه ، فهوت إلى العتيق ، وزحف القمعاعُ ومن معه إلى السريّ ، فمثروا به ، وقد قام رستم عنه - حين طارت الريح بالطيّارة - إلى بنالٍ قد قدّمت عليه ببالٍ يومئذ ، فوقف بجوار أحدها يستظلّ بحمله .

ففضى رستم نحو العتيق فرمى بنفسه فيه ، ورآه هلال - أحد رجال القمعاع - فمرفه ، فاقتحم النهرَ وراءه ، ثم أخذ برجله ، وخرج به ، وضرب جبينه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به حتى رمى به بين أرجل البنال ، وصعد السريّ ثم نادى : قتلْتُ رستم وربّ الكعبة . فأطاف به الناس وكبروا ، وانهمز قلبُ الفرس ، وتتابعت الهزيمة .

فدعاهم الجالينوس إلى عبور النهر على الرّدم ، لكنّ الرّدم أنهارَ بهم في النهر ، ففرّق بانهاره ثلاثون ألف فارس لم يُفِلتْ منهم أحد .

وجُمِع في ذلك اليوم من الأسلاب والأموال ما لم يُجْمع مثله ، وأرسل سعد

(١) يسمى المؤرخون هذه الليلة ليلة الحرير .

الرُّفَيْلُ يَنْظُرُ فِي قَتْلِ الْفَرَسِ ، وَيَسْمَعُ رُءُوسَهُمْ ؛ وَتَقْدُّ الرُّفَيْلُ رُسْتَمَ فَلَمْ يَجِدْهُ
بَيْنَ الْقَتْلَى ، فَأَعْلَمَ سَعْدًا .

فَأَرْسَلَ سَعْدٌ إِلَى هَلَالِ التَّيْمِيِّ ، وَقَالَ لَهُ : أَلَمْ تَبْلُغْنِي أَنَّكَ قَتَلْتَ رُسْتَمَ ! قَالَ :
بَلَى ، قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ بِهِ ؟ قَالَ : أَلْفَيْتُهُ تَحْتَ قَوَائِمِ الْبُغَالِ ، قَالَ : فَكَيْفَ قَتَلْتَهُ ؟
فَأَخْبَرَهُ ، حَتَّى قَالَ : ضَرَبْتُ جَبِينَهُ وَأَنْفَهُ ، قَالَ : فَوَجَّئْنَا بِهِ ، فَجَاءَ بِهِ ، وَكَانَ
قَدْ تَخَفَّفَ حِينَ وَقَعَ إِلَى الْمَاءِ ، فَأَعْطَاهُ سَلْبَهُ الَّذِي عَلَيْهِ ، فَبَلَغَ سَبْعِينَ أَلْفًا .

وَخَرَجَ زُهْرَةُ فِي آثَارِ الْمُهْزَمِينَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَحَقَ الْجَالِينُوسُ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ
فَقَتَلَهُ ، وَجَاءَ بِسَلْبِهِ إِلَى سَعْدٍ ، فَعَرَفَ الْأَسْرَى الَّذِينَ عِنْدَ سَعْدٍ سَلْبَهُ ، فَقَالُوا :
هَذَا سَلْبُ الْجَالِينُوسِ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ : هَلْ أَعَانَكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، قَالَ سَعْدٌ :
مَنْ ؟ قَالَ : اللَّهُ . فَغَفَّلَهُ سَلْبَهُ ، ثُمَّ تَوَقَّفَ سَعْدٌ عَنْ عَطَائِهِ ، وَكَتَبَ إِلَى عَمْرِو
فَكَتَبَ عَمْرٌو إِلَى سَعْدٍ : تَعَمَّدِ إِلَى مِثْلِ زُهْرَةَ ، وَقَدْ صَلَّى بِمِثْلِ مَا صَلَّى بِهِ ، وَقَدْ بَقِيَ
عَلَيْكَ مِنْ حَرْبِكَ مَا بَقِيَ ؛ تُفْسِدُ قَلْبَهُ ! أَمِضْ لَهُ سَلْبَهُ ، وَفَضِّلْهُ عَلَى أَصْحَابِهِ عِنْدَ
الْمَطَاءِ بِخَمْسِائَةِ .

وَلَمَّا انْكَشَفَ أَهْلُ فَارَسَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ بَيْنَ الْخَنْدَقِ وَالْعَتِيقِ أَحَدٌ أَمَرَ سَعْدٌ
زُهْرَةَ بِاتِّبَاعِهِمْ ، فَغَادَى زُهْرَةُ فِي الْمَقْدَمَاتِ ، وَأَمَرَ الْقَعْقَاعُ بَعْنَ سَفْلُ ، وَشُرْحَبِيلُ
بَعْنَ عَلَا ، وَأَمَرَ خَالِدُ بْنُ عُرْفَةَ بِسَلْبِ الْقَتْلَى وَبَدْفَنِ الشُّهَدَاءِ .

وُجِّعَتِ الْأَسْلَابُ وَالْأَمْوَالُ ، فَجُمِعَ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يُجْمَعْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ .
وَبَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ الْمَوْقِعَةُ كَتَبَ سَعْدٌ بِالْفَتْحِ ، وَبَعْدَهُ مَنْ قُتِلُوا ، وَبَعْدَهُ مَنْ أُصِيبَ
مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ نَصَرَنَا عَلَى أَهْلِ فَارَسَ ، وَمَنْحَهُمْ سُنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ مِنْ
أَهْلِ دِينِهِمْ بَعْدَ قِتَالٍ شَدِيدٍ ، وَقَدْ لَقُوا الْمُسْلِمِينَ بَعْدَهُ لَمْ يَرِ الزَّادُونَ مِثْلَ زُهَائِهَا ،

فلم ينفهم الله بذلك ؛ وأتبعهم المسلمون على الأنهار وفي الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ورجال من المسلمين ، لا نعلمهم ؛ الله بهم عالم ، وكانوا يدوون بالقرآن إذا جنَّ عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس ، لا يشبههم إلا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقي إلا بفضل الشهادة ؛ إذ لم تكتب لهم .

وكان عمر بن الخطاب عند نزول رستم القادسية يستخبر الركبان عن جيش القادسية ، من حين يصبح إلى انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله ، فلما لقي البشير^(١) سأله : من أين ؟ فأخبره . قال : يا عبد الله ، حدثني ، قال : هزم الله العدو . وعمر يحبُّ معه ويستخبره ، والرجل يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل : فهلاً أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين ! وجمل عمر يقول : لا عليك يا أخى ! فقام عمر في الناس ، فقرأ عليهم الفتح ، وقال : إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سدتها ما اتسع بعضنا لبعض ، فإذا عجز ذلك عنا تأسيناً في عيشنا حتى نستوى في الكفاف ؛ ولوددت أنكم علمتم من نفسى مثل الذى وقع فيها ، ولست مملكم إلا بالعمل ؛ إني والله ما أنا بمملك فأسعبدكم ، وإنما أنا عبدُ الله عرض على الأمانة

هذه هي القادسية التي فتحت الطريق إلى إيوان كسرى في عاصمة مُلكه ، ومهدت للقضاء على دولته ؛ وكان لها في توجيه الحضارة أبلغ الأثر .

(١) كان هذا البشير سعد بن عميلة الفزارى رسول سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين .

٣٩ — يوم بابل*

كان عمرُ قد كتب إلى سعدٍ ألا يبرحَ منازلَه حتى يأتيه أمرُه ؛ لذلك أقام سعدٌ بالقادسية في انتظار أمرِ أمير المؤمنين عمر ؛ وأخذ المسلمون يقومون أمورهم ، ويريمون جُندهم .

وتتابع أهلُ المراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليرموك ، يدّون أهلَ القادسية ، وتوافوا بها ، وقدمت أمدادُ فيها مراد وهمدان وأفناء^(١) الناس ؛ وكتبوا إلى عمر يسألونه عما ينبغي أن يفعلوه .

وبعد شهرين ، وقد أجمَّ الناس ؛ جاء أمرُ عمر إلى سعد بالسير إلى المدائن ، وأن يخلّف النساء والعيال بالمتيق ، ويحمل معهم كثفًا^(٢) من الجُند ؛ وعهد إليه أن يُشيرَ لهم في كلِّ منم ؛ ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم .

وأذن سعدٌ بالرحيل ، وقدم زُهرة بن الحوية إلى المكان الذي كانت به الكوفة يومئذ ؛ وكان النخیرجان معسكرًا به ، فارفض^(٣) ولم يثبت ؛ حين سمع بمسير زُهرة إليه ، ولحق بأصحابه .

ثم أتبع زُهرة بعبدالله بن المثنى ، ثم شرجيل بن السمط ، ثم هاشم بن عتبة ، وجمل خالد بن عرفة على الساقة^(٤) ، ثم تبعهم فرسان المسلمين ؛ وكلّهم فارس

* الطبري ٤ : ١٦٦ . كان في سنة ١٥ هـ ، وبابل : مدينة قديمة بناها الكلدان على الجانب الأيسر من الفرات .

(١) أفناء : أخلاط . (٢) الكثف : الجماعة . (٣) ارفض : ابتعد بجنده .

(٤) ساقة الجيش : مؤخره .

مُؤدِّي^(١) ، قد نَقَلَ اللهُ إِلَيْهِمْ مَا كَانَ فِي عَسْكَرِ رَسٍّ مِنْ سِلَاحٍ وَكُرَاعٍ^(٢) وَمَالٍ ،
وَكَانَ ارْتِحَالُهُمْ لِأَيَّامٍ بَقِيْنَ مِنْ شَوَالٍ .

وَلَمَّا وَصَلَتْ مُقَدِّمَةُ الْمُسْلِمِينَ بُرْسُ^(٣) لَقِيَهُمْ جَمْعٌ مِنَ الْفَرَسِ عَلَيْهِمْ بُصْبُهُزَيٌّ ،
وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ كَبِيرُ قِتَالٍ حَتَّى انْهَزَمُوا وَصَارُوا إِلَى بَابِلَ ، وَنَجَا بُصْبُهُزَيٌّ
بَطْمَنَةً مَاتَ بَعْدَهَا ، وَمَضَى قُلٌّ^(٤) الْقَادَسِيَّةَ وَعَلَيْهِمْ مِنْ رءُوسِهِمُ النَّخِيرَجَانُ ،
وَمِهرَانُ الرَّازِيِّ وَالْهُرْمَزَانُ ، وَاسْتَعْمَلُوا عَلَيْهِمُ الْفَيْرُزَانَ .

وَلَمَّا رَأَى دِهْقَانُ^(٥) بُرْسُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَادِمُونَ عَلَى بِلَادِهِ ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ بِلَادَهُ
لَا بَدَّ وَاقِعٌ فِي قَبْضَتِهِمْ ، خَافَ مَعَرَّةَ دُخُولِهِمْ عَلَيْهِ عَنَوَةً ، وَخَشِيَ أَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ
مِنْهُمْ بِسَوْءٍ ؛ فَبَادَرَ إِلَى زُهْرَةَ ، وَاعْتَقَدَ^(٦) مِنْهُ ذِمَّةً ، وَعَقَدَ لَهُ الْجَسُورَ ، وَأَتَاهُ بِخَبَرِ
الَّذِينَ اجْتَمَعُوا بِبَابِلَ لِمَوَاقِفَةِ^(٧) الْمُسْلِمِينَ .

وَلَمَّا عَرَفَ زُهْرَةُ بِخَبَرِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا بِبَابِلَ مِنْ فُلَّالِ الْقَادَسِيَّةِ أَقَامَ وَكَتَبَ
إِلَى سَعْدٍ يُسَلِّمُهُ بِمَا أَجْعَ عَلَيْهِ الْفَرَسَ ، وَمَا أَعَدَّوَالَهُ ، وَقَدْ قَالَ الْفَرَسُ فِيمَا بَيْنَهُمْ :
نُقَاتِلْهُمْ دَسْتًا^(٨) قَبْلَ أَنْ تَتَفَرَّقَ .

فَسَارَ سَعْدٌ وَالتَقَى بِهِمْ فِي بَابِلَ ، وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلَفَتِ الرِّدَاءَ حَتَّى هَزَمَهُمْ ،
وَانْطَلَقُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا الْاِفْتِرَاقَ .

(١) الْفَارِسُ الْمُؤَدِّي : الْقَوَى التَّامَ عِدَّةَ الْحَرْبِ .

(٢) الْكُرَاعُ : الْحَبِيلُ .

(٣) بَرَسٌ : أَمْجَةٌ فِي مَوْضِعٍ قَرِيبٍ مِنْ بَابِلَ . وَبَعْضُهُمْ يَسْمِي هَذِهِ الْمَوْقِعَ يَوْمَ بَرَسٍ .

(٤) الْقُلُّ : الْمُنْهَزَمُونَ .

(٥) الدِّهْقَانُ ، بِالْفَتْحِ وَيَكْسُرُ : زَعِيمُ فَلَاحِي الْعِجَمِ .

اعْتَقَدَ مِنْهُ ذِمَّةً : أَخَذَ مِنْهُ عَهْدًا .

(٦) الْمَوَاقِفَةُ : أَنَّ الْإِنْسَانَ مَعَ غَيْرِهِ فِي حَرْبٍ أَوْ خُصُومَةٍ .

(٨) دَسْتًا : طَائِفًا .

نُفِرَجُ المِهرْمُزَانَ متوجِّهًا نحو الأهواز ، وخرج الفيرزان حتى نزل على هَاوَنْدَ وبها كنوزُ كسرى فاحتواها ، وولّى النّخیرجان ومِهران الرّازی وجهَیْهِمَا شَطْرَ المدائن ، حتى عَبَرَا بَهْرُسیرَ إلى جانب دِجْلَةِ الآخر ، ثم قطعَا الجسر .

وأقام سمد بیابل أيامًا ، وبلغه أن النّخیرجان ومِهران استخلفا على جنودهما شهریار دِهقان کُوئی^(١) ، ومبْضِيًا إلى المدائن ؛ فخرج إليه سمد بالجنود ؛ والتقتْ أوائلُ جموعِ المسلمين بجنودِ شهریار ، فلم یُلبِثْهُمُ حتى البرازُ ، وقال : أَلَا رجلًا ! أَلَا فارسٌ منكم شديدٌ عظیمٌ یُخْرِجُ إلىّ حتى أنْکَلَّ به !

فقال زُهْرَة : لقد أردتُ أن أبَارِزَکَ ، فأَمَّا إِذْ سمعتُ قولَکَ ، فَإِنِّی لَا أُخْرِجُ إِلَیکَ إِلَّا عَبْدًا ، فَإِنْ أَقَمْتَ لَهُ قَتَلَکَ — إِنْ شاء الله — بِبَغْیَکَ ، وَإِنْ فررتَ منه فَأِنَّمَا فررتَ من عبْدٍ . ثم أمر أبَا نباتة نائل بن جُعْشَمُ الأغرَجیّ — وكان من شجعان بنی تمیم — فخرجَ إليه ، ومع کلٍّ واحدٍ منهما الرّمح ، وکِلَاهُمَا وثیقُ الخَلْقِ ؛ إِلَّا أن شهریار مثلَ الجمل . فلما رأى نائلًا ألقى الرمحَ لیعتنقه ، وألقى نائلٌ رُمحه لیعتنقه ، وانتَضِيَا سَیفَیْهِمَا ، ثم اجْتَلَدَا واعتنقا ؛ فَخَرَّ عَنْ دَابَّتَیْهِمَا ، فوقع شهریار على نائل كأنه بیت ، فضمطه بضمطه ، وأخذ الخنجر ، وأراغ^(٢) حلَّ أزرارِ دِرْعِهِ ، فوَقَعَتْ إِبْهَامُهُ فی فَمِ نَائِلٍ ، فخطَمَ عَظْمَهَا ، ورأى منه فتورًا فتاوره ، فجَلَدَ به الأرض ، ثم قعد على صَدْرِهِ ، وأخذ خِنْجَرَهُ ، فكشف دِرْعَهُ ، وطَمَنَهُ فی بطنه وجَنَّبِهِ حتى مات . فأخذ فرسه وسِوَارِیَهُ وسَلْبَهُ ، وانكشف أصحابُهُ ، فذهبوا فی البلاد .

(١) کُوئی : موضع بسواد العراق قريب من بابل .

(٢) أراغ : أراد .

وأقام زُهْرَةَ بَكُوْتَى حتى قدم عليه سعد ، وعَلِمَ خَبَرَ نَائِلٍ مع الشَّهْرِيَّارِ ؛
فدعا أبا نائل ، وقال له : عَزَمْتُ عَلَيْكَ يَا نَائِلُ لَمَّا لَيْسَتْ سِوَارِيهِ وَقَبَاءُهِ وَدِرْعُهُ
وَلَتَرَكِبَنَّ بِرِذْوَنِهِ . وَغَنَمَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، فَانْطَلَقَ فَتَدْرَّعَ سَلْبَهُ ، ثُمَّ أَتَاهُ فِي سِلَاحِهِ
عَلَى دَابَّتِهِ ، فَقَالَ : اخْلَعْ سِوَارِيكَ إِلَّا أَنْ تَرَى حَرْبًا ، فَتَلْبَسَهُمَا .
فَكَانَ أَوَّلَ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُورَ بِالْعِرَاقِ .

٤٠ — يوم بَهْرَسِير *

قَدَّمَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ زُهْرَةَ بْنَ الْحَوَيْتَةِ إِلَى بَهْرَسِيرٍ ، فَمُتْلِقَاهُ شِيرَازَاذَ بِسَابَاطٍ ^(١) ؛ بِالصُّلَحِ وَتَأْدِيَةِ الْجَزَاءِ ، فَأَمَضَاهُ إِلَى سَعْدِ .

وَسَارَ زُهْرَةَ حَتَّى أَتَى الْمُظْلِمَ ^(٢) بِسَابَاطٍ ، وَكَانَ بِهِ كَتِيبَةٌ لِكُسْرَى تَسْمَى بُورَانَ ، وَكَانَ أَهْلُ هَذِهِ الْكَتِيبَةِ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ كُلَّ يَوْمٍ : لَا يَزُولُ مُلْكُ فَارِسَ مَا عِشْنَا ؛ فَلَقِيَهُمْ زُهْرَةُ بِمَجْنُونَةٍ فَقَالَهُمْ ^(٣) ، ثُمَّ جَاءَ هَاشِمُ بْنُ عُتْبَةَ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ (ابْنُ أَخِي سَعْدِ) إِلَى الْمُظْلِمِ وَوَقَفَ حَتَّى لَحِقَ بِهِ سَعْدُ ؛ فَوَافَقَ ذَلِكَ رَجُوعُ الْمُقَرَّطِ — وَهُوَ أَسَدٌ كَانَ لِكُسْرَى قَدْ أَلْفَهُ وَتَخَيَّرَهُ مِنْ أَسْوَدِ الْمُظْلِمِ — فَبَادَرَ الْمُقَرَّطُ النَّاسَ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهِمْ سَعْدُ ؛ فَزَلَّ إِلَيْهِ هَاشِمٌ فَقَتَلَهُ بِسَيْفِهِ ؛ فَقَبَّلَ سَعْدُ رَأْسَ هَاشِمٍ ، وَقَبَّلَ هَاشِمٌ قَدَمَ عَمَّةِ سَعْدِ .

ثُمَّ دَخَلَ سَعْدُ إِلَى الْمُظْلِمِ ، وَقَرَأَ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ ^(٤) .

فَلَمَّا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ هَذِهِ ^(٥) ارْتَحَلَ ، فَزَلَّ عَلَى النَّاسِ بِبَهْرَسِيرٍ ، وَجَمَعَ الْمُسْلِمُونَ كُلَّمَا قَدِمَتْ خَيْلٌ وَقَفُوا ثُمَّ كَبَّرُوا ، حَتَّى اجْتَمَعَ إِلَيْهِمْ آخِرُ مَنْ مَعَ سَعْدِ .

وَفِي أُنْثَاءٍ وَقُوفِهِ عَلَى أَبْوَابِ بَهْرَسِيرِ بَثَّ الْخَيُْولُ ، فَأَغَارَتْ عَلَى مَا بَيْنَ دَجَلَةِ وَالْفَرَاتِ ، فَأَصَابُوا مِائَةَ أَلْفِ فَلَاحٍ ، فَقَالَ شِيرَازَاذُ لِسَعْدِ : إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِمَحَارِبِينَ ،

* تاريخ الطبري ٤ : ١٦٧ ، ومعجم البلدان ٢ : ٣١٤ . كَانَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٥ هـ .
وبهريسير : مِنْ نَوَاحِي سَوَادِ بَغْدَادَ قَرِبَ الْمَدَائِنِ .

(١) سَابَاطٌ : قَرِبَ الْمَدَائِنِ ، وَتَسْمَى سَابَاطُ كُسْرَى .

(٢) الْمُظْلِمُ : مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ سَابَاطٍ . (٣) فَلَهُمْ : هَزَمَهُمْ وَشَتَّتْ جَمْعَهُمْ .

(٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ ٤٤ . (٥) هَذِهِ مِنَ اللَّيْلِ : جُزْءٌ مِنْهُ .

ولم يحرضوا عليكم؛ فاتركوهم . فتركهم سعد له ، بعد أن كتب عليه كتاباً بأسمائهم .

ثم كتب إلى عمر يقول : إنا وردنا بهزسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهزسير ، فلم يأتنا أحداً لقتال ، فبثت الخيول ، وجمعت الفلاحين من القرى والآجام فرأيتك .

فأجابه : إن من أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يمينوا عايكم فهو أمائهم ، ومن هرب فأدركتموه فشانكم به .

ولما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ، ودعاهم إلى الإسلام والرجوع ، أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة . فقبلوا الجزية والمنعة ، فلم يبق في غربي دجلة إلى أرض العرب سوادى^(١) إلا آمن واغتبط بملك الإسلام .

وأقام سعد على حصار أهل بهزسير شهرين ، وجنوده يرمونهم بالمجانيق والعرادات^(٢) ، ويدبون إليهم بالدبابات^(٣) ، ويقابلونهم بكل غداة . وكان على بهزسير خنادقها وحرسها وغدة الحرب ، واستصنع سعد شيرازاً لنصب المجانيق ؛ فنصب على أهل بهزسير عشرين منجنيقاً .

قال أنس بن الحليس : بينما نحن محاصرون بهزسير أشرف علينا رسول ؛ فقال : إن الملك يقول لكم : هل إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أما شيعتم ، لا أشبع الله بطونكم ! فرد عليه أبو مفرز الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري .

فرجع الرجل ورأياناهم يقطعون إلى السدائن ! فقلنا : يا أبا مفرز ؛ ما قلت له ؟

(١) السوادى : منسوب إلى السواد ، وهو العراق .

(٢) المنجنيق : آلة ترى بها الحجارة معربة . والبرادة : آلة أصغر من المنجنيق .

(٣) الدبابة : آلة تتخذ للحروب ، تندفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها .

فقال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ماهو ؛ وأنا أرجو أن أكون قد أنظمتُ بالَّذى هو خير .

وأخذ الناسُ يسألونه ، حتى سمع بذلك سعد ، فجاءه وقال له : يا أبا مُفَرَّر ؛ ما قلت ؟ فوالله إنهم كهوَّاب . فحدثه بمثل حديثه إيانا ؛ فنادى فى الناس ثم نهَّد^(١) بهم ؛ فما ظهر على المدينة أحد ، ولا خرج إلينا إلّا رجل نادى بالأمان ، فأمنّا ، فقال : ما بقى فيها أحدٌ فما يمنعكم ؟

فتسوّرها الرجالُ ، وافتتحناها ، فما وجدنا أحداً إلّا أسارى أسرناهم خارجاً منها ؛ فسألناهم وذلك الرجل : لأى شيء هربوا ؟ فقالوا : بعث الملكُ إليكم يمرض عليكم الصّالح ؛ فأجبتُموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل أفريذين بأترُج^(٢) كوثى . فقال الملك : وأويلّه ! ألا إنّ الملائكة تتكلّم على ألسنتهم ، ردّ علينا وتُجيبنا عن العرب . والله لئن لم يكن كذلك ماهو إلا شيء ألقى على فى هذا الرجل لنتهى . وأرّزوا^(٣) إلى المدائن بعد أن أحرقوا الجسر ، وجمعوا كل السفن التى تبحر فوق دجلة .

ودخل سعد والمسلمون بهرّ سير ، وتحول المسكر إليها ، وحاولوا عبورَ دجلة فلم يجدوا الجسر يعبرون عليه ولم يجدوا سفناً تحملهم . وفى جوفِ الليل لاح لهم الأبيض^(٤) ؛ فقال ضرار بن الخطاب : الله أكبر ! أبيض كسرى ! هذا ما وعد اللهُ ورسوله ؛ وتابموا التّكبير حتى أصبحوا .

(١) نهّد بهم : نهض بهم . (٢) الأترج : نبت .

(٣) أرّزوا : أسرعوا ، وتجمعوا .

(٤) الأبيض : إيوان كسرى ، شاده كسرى أنوشروان سنة ٥٥٠ م .

٤١ — يوم المدائن*

بعد أن دخل سعد بهر سير طلب السفن ليعبر بالناس إلى المدائن ، فلم يقدر
على شيء ، ووجدهم قد ضموا السفن ، فأقام بهر سير أياماً من صفر يمنعه الإبقاء
على المسلمين ، حتى أتاه أعلاج^(١) ، فدلوه على مخاضة تخاض إلى صلب الوادي ،
فأبى وتردد عن ذلك .

ثم رأى رؤيا أن خيول المسلمين اقتحمتها ، فعبرت ، فعزم على العبور لتأويل
رؤياه ، وجمع الناس وقام فيهم وقال لهم — بعد أن حمد الله وأثنى عليه : إنَّ عدوكم
قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ،
فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفأكموهم
أهل الأيام ، وعطلوا ثغورهم ، وأفنوا ذادتهم^(٢) . وقد رأيت من الرؤى أن
تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . ألا إني قد عزمتُ على قطع
هذا البحر إليهم .

فقالوا جميعاً : عزَّم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل .

فندب سعد الناس إلى العبور ، ثم قال : مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفِراض^(٣) لكيلا

* تاريخ الطبري ٤ : ١٧٠ ، وتاريخ ابن كثير ٨ : ٦٣ . كان سنة ١٦ هـ . والمدائن :
عاصمة الفرس ، بناها أنوشروان بن قباد ، وأقام بها هو ومن كان بها من ملوك ساسان .

(١) الملج : الرجل من كفار العجم .

(٢) الذائد : الرجل الذي يحمي ويدفع وجمعه ذادة .

(٣) الفراض : جمع فريضة ؟ وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى .

يُمنعون من العبور؟ فانتدب^(١) له عاصم بن عمرو ، وانتدب بعده ستمائة من أهل النجدات . فأمر عليهم عاصما ، فسار فيهم حتى وقف على شاطئ دجلة .

وعندئذ قال : مَنْ يَنْتَدِبُ معي لِنَمْنَعِ الْفِرَاضَ من عدوكم ولنحميكم حتى تعبوا؟ فانتدب له ستون ، فتقدمهم هو إلى حافة النهر ، وهو يقول للذين تردوا من حوله : أتخافون ! وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾^(٢) . ثم دفع فرسه فاقتحم النهر ، واقتحم زملاؤه معه .

فلما رأهم الأعاجم وما صنعوا ، أعدوا للخيل التي تقدمت مثلها ، واقتحموا عليهم دجلة ، ثم دنوا من عاصم وقد دنا من الفراض ؛ فقال عاصم لأصحابه : الرِّمَّاحَ الرِّمَّاحَ ! أَثْرِعُواها وتوخوا الميون ، فطعنوهم في أعينهم ، فمن لم يُقتل منهم صار أعور ، وتزلزلت بهم خيولهم ، حتى فرّت عن الفراض .
وملك الستون الفراض وتلاحق الستمائة .

ولما رأى سعد عاصما على الفراض قد منعها الناس أذن للناس في الاقتحام ، وقال : قولوا : نَسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ ؛ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، لا حَوْلَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

وتلاحق معظم الجند ، وركبوا اللجج ، وإن دجلة لترجي بالزبد ، وإن الناس ليتحدثون في عوْمهم ما يكثرئون ، كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض .

وكان سعد وراءهم يسايره في الماء سلمان الفارسي ، فعامت بهم الخيل ، وسعد يقول : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ! وَاللَّهِ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ وَلِيَّهُ ، وَلَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ دِينَهُ ، وَلَيُهْزِمَنَّ اللَّهُ عَدُوَّهُ ، إِنَّ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بَغْيٌ أَوْ ذُنُوبٌ تَغْلِبُ الْحَسَنَاتِ ،

(١) انتدب : خف وأسرع . (٢) سورة آل عمران ١٤٥ .

فقال له سلمان : ذُلَّتْ لهم والله البحور كما ذُلَّ لهم البرّ ؛ أما والذي نفسُ سلمان بيده ليُخْرِجُنَّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً .

وطَبَّقُوا دِجْلَةَ خَيْلاً وَرَجُلًا حَتَّى مَا يَرَى الْمَاءَ مِنَ الشَّاطِئِ أَحَدٌ ، ثُمَّ خَرَجُوا مِنَ الْمَاءِ ، وَالْخَيْلُ تَنْفُضُ أَعْرَافَهَا صَاهِلَةً . فَلَمَّا رَأَى الْفَرَسُ ذَلِكَ انْطَلَقُوا لَا يَلُؤُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَانْتَهَى الْمَسْلُومُونَ إِلَى الْقَصْرِ الْأَبْيَضِ ، وَفِيهِ قَوْمٌ قَدْ تَحَصَّنُوا . فَعَرَضُوا عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا ، يَخْتَارُونَ مِنْهَا أَيْبَاهَا شَاءُوا . قَالُوا : وَمَا هُنَّ ؟ قَالُوا لَهُمْ : الْإِسْلَامُ ، فَإِنْ أَسْلَمْتُمْ فَلَكُمْ مَا لَنَا ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْنَا ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَالْجَزْيَةُ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَنَاجَزْتَكُمْ ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ؛ فَأَجَابُوهُمْ : لَا حَاجَةَ لَنَا فِي الْأُولَى وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَلَكِنِ الْوَسْطَى .

وَدَخَلَ سَعْدُ الْمَدَائِنِ ، وَانْتَهَى إِلَى إِيوَانِ كَسْرَى ، وَأَقْبَلَ يَقْرَأُ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ (١) .

وَصَلَّى فِيهِ صَلَاةَ الصُّبْحِ ، ثَمَانِي رَكَعَاتٍ ؛ لَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُنَّ ، وَاتَّخَذَهُ مَسْجِدًا ، وَفِيهِ تَمَائِيلُ الْجُلُوسِ ، وَلَمْ يَمْتَنِعْ هُوَ وَلَا الْمَسْلُومُونَ لَذَلِكَ ، وَتَرَكَوْهَا عَلَى حَالِهَا . وَأَتَمَّ الصَّلَاةَ فِي الْمَدَائِنِ ؛ إِذْ نَوَى الْمَقَامَ بِهَا . وَكَانَتْ أَوَّلُ جُمُعَةٍ بِالْعِرَاقِ ، فِي صَفَرِ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ .

جَمَعَ سَعْدٌ مَا فِي خَزَائِنِ كَسْرَى مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْغَنَائِمِ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا ، وَأَصَابَ الْفَارِسُ مِنَ الْمَغْنَمِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا ؛ وَكَلَّمَهُمْ كَانَ فَارِسًا ، ثُمَّ قَسَمَ دُورَ الْمَدَائِنِ بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ جَمَعَ الْخُمْسَ ، وَجَمَعَ فِيهِ كُلَّ شَيْءٍ أَرَادَ أَنْ يَمُجِّبَ مِنْهُ عَمْرٌ ، مِنْ ثِيَابِ كَسْرَى وَحُلِيِّهِ وَسَيْفِهِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَمَا كَانَ يَعْجَبُ الْعَرَبُ أَنْ يَقَعَ إِلَيْهِمْ ، وَأَرْسَلَ كُلَّ ذَلِكَ إِلَى عَمْرِ .

وكان فيما أرسله إليه بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها ، صوّرت فيه طرق
الملكة ، وبُسِطت فيه الأرض مذهبة تجرى خلالها أنهار رُصّعت بالدرّ ، وجُمِلت
حافاته كالأرض المزروعة فيها نبات الربيع قام على سوق الذهب ، وجعل ورقه
من الحرير، وثمره من الجوهر ، وأشباه ذلك .

ولما ورد الخمس على عمر قَسَمَه على مستحقّيه ، ثم قال : أُشيروا علىّ في هذا
البساط ؛ فأَجَمَعَ مَلَوْثُهم على أن قالوا : قد جعلنا ذلك لك ، فَرَأَيْكَ ، إلا ما كان
مِنَ علىّ ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، لم يجعل اللهُ علمك جهلاً ، ويقينك شكّاً ،
إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأَمْضَيْت ، أو لبست فأَبْلَيْت ، أو أكلت
فَأَفْنَيْت ، وإنك إن تَبَقَّيه اليوم على هذا لم تَعُدْ في غَدٍ مَن يستحق به ما ليس له .
فقال عمر : صدقتني ونصحتني . ثم قطعاه وقسمه بين الناس .

وصدّرَ بعد ذلك أمر عمر بولاية سَعْدِ بن أبي وقّاص صلاة ما غلب عليه
وَحَرَبُه ، وولّى النعمان وسويدا ابني عمر بن مقرّن الخراج ؛ الأول على ما سَقَتْ دِجْلَة
والثاني على ما سَقَى الفرات .

٤٢ — يوم جَلُولاء *

انتفى الأعاجم بعد الحرب من المدائن إلى جَلُولاء ، ورأوا الطرق عندها تفرق إلى شتّى الأرجاء ، فقال بعضهم لبعض : إن افترقتم لَمْ تَجْتَمِعُوا أَبَدًا ، وهذا مكان يُفَرِّقُ بَيْنَنَا ، فَلَنَجْتَمِعَ للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الَّذِي نُرِيدُ ، وإن كانت الأخرى كنا قد قَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا ، وأبدينا عُذْرًا .

وأرسل إليهم يزدجردُ مِهْرَانَ الرَّازِيَّ في رجاله وأعدائه وجنوده ، وأقام هو بِحُلُوانٍ يُعِدُّهم بالرَّجَالِ والأقوات ؛ واجتمع هؤلاء وهؤلاء واحتفروا خَنْدَقًا عظيمًا أحاطُوا به الحَسَكُ .

وعلم سعد بذلك فكتب إلى عمر يستأمره ، فكتب عمر إلى سعد : أَنْ سَرَّحَ هاشم بن عُثْبَةَ إلى جَلُولاء في اثني عشر ألفًا ، واجعل على مقدمته القمعاع بن عمرو . وَعَيْنَ لَهُ مَنْ يَكُونُونَ عَلَى المِئْمَنَةِ والمِيسِرَةِ والسَّاقَةِ بِأَتْمَائِهِمْ .

وفصل هاشم بن عُثْبَةَ من المدائن في صَفَرٍ من السنة السادسة عشرة في اثني عشر ألفًا ، منهم وَجُوهُ المهاجرين والأنصار وأعلامُ العرب ، وسار من المدائن إلى جَلُولاء حتى قَدِمَ على الفُرس وأحاط بهم ، فحاصروهم .

وطاولهم أهل فارس ، وجعلوا لا يخرجون إليهم إِلَّا إِذَا أَرَادُوا ، وزاحفهم المسلمون ثمانين رَحْفًا ، وهم في كلِّ مَرَّةٍ يَنَالُونَ من الفُرس . وجعل هاشم يقوم

* الطبري ٤ : ١٧٩ . معجم البلدان ٣ : ١٢٩ . كان في صفر سنة ١٦ و جلولاء : بلدة في طريق خراسان في نحو أربعين ميلًا في شمال المدائن .

في الناس ويقول : إِنَّ هَذَا الْمَنْزِلَ مَنْزِلٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ . وجعل سعدٌ يُمِدُّهُ بالفرسان ، حتى إذا كان أخيراً احتفلوا للمسلمين ، فخرجوا عليهم ، فقام هاشم في الناس فقال : أبلوا في الله بلاءً حسناً ، يتم عليكم الأجر والمغنم ، واعملوا لله .

فالتقوا واقتتلوا ، وبمَثَّ اللهُ رِيحاً أَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْبَسْلَادَ ، فلم يستطيعوا إلى المحاذرة ، فتهافت فرسانهم في الخندق ، فلم يجدوا بداً من أن يجعلوا فرضاً مما يليهم ، تصمدُ منه خيلهم ، فأفسدوا حصنهم ، وبلغ ذلك المسلمين فنظروا إليه فقالوا : نَهْنَسُ إِلَيْهِمْ ثَانِيَةً فَنَدْخُلُهُ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتُ دُونَهُ .

فلما شهد المسلمون الثانية خرج القومُ ، فرموا حول الخندق مما يلي المسلمين بحسك الحديد ، لكيلا يقدم عليهم القوم ، وتركوا المجال وجهاً .

وخرجوا على المسلمين ، واقتتلوا قتالاً شديداً لم يقتتلوا مثله إلا ليلة الهَرِيرِ ؛ إلا أنه كان أَكْمَشَ^(١) وأعجل ، وانتهى القمعاق في الوجه الذي زاحف فيه إلى باب خيلهم ، فأخذ به ، وأمر منادياً فنادى : يامعشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل خندق القوم ، وأخذ به ؛ فأقبلوا إليه ، ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله .

وإنما أمر بذلك لِيُقَوِّىَ المسلمين ، فحمل المسلمون ، وهم لا يشكون أن هاشماً فيه ، فلم يَظْمَ لحمهم شيء ، حتى انتهوا إلى باب الخندق ، فإذا هم بالقمعاق بن عمرو قد أخذ به .

وانهزم الفرسُ يَمَنَةً ويسرة عن المجال الذي بجبال خندقهم ، فهلكوا فيما أَعَدُّوا للمسلمين ، وعُقِرَتْ دَوَاشِبُهُمْ ، وعادوا رَجَّالَةً ، وتبعهم السلون فلم يُقْلَتْ منهم إلا القليل ، وقُتِلَ يومئذ مائة ألف^(٢) .

(١) أكيش في السير : أسرع . (٢) أورد الطبري رواية أخرى لهذا اليوم جزء ٤ صفحة ١٨١

٣٢ - يوم تَكْرِيت*

علم سَعْدٌ بانصرافِ الفُلول من الفُرس إلى تَكْرِيت وَتَحَصَّنَ بِهِمْ ،
ومعهم الْأَخْلَاف من إِيَاد وتَغَلَب والنَّعِير ، فأرسل إليهم عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم ،
واستعمل على مقدمته رَبِيعَ بن الْأَفْكَل العَنَزِي ، وعلى ميمنته الحارث بن حَسَّان
الذَهَلِي ، وعلى ميسرته فُرَات بن حَيَّان العَجَلِي ، وعلى ساقته هَانِي بن قَيْس ، وعلى
الحيل عَرَفَجَةَ بن هَرَثِمَةَ . وفَصَلَ عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم في خمسة آلاف من المدائن ،
وسار إلى تَكْرِيت فوجد الفُرس قد خَنَدَقُوا بها ، فحَصَرَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ،
تَزَاحَفُوا فِيهَا أَرْبَعَةَ وَعِشْرِينَ زَحْفًا ، وَكَانُوا أَهْوَنَ شَوْكَةٍ مِنْ أَهْلِ جَلُولَاءَ .
وَوَكَّلَ عَبْدُ اللَّهِ بن المَعْتَم من يَدْعُو الْعَرَبَ لِنُصْرَتِهِ ، فَاسْتَجَابُوا لَهُ ، وَأَقْبَلَتِ
الْعُمَيْيُونَ مِنْ تَغَلَب وإِيَاد والنَّعِير إلى عَسَدِ اللَّهِ بن المَعْتَم بِالْخَبَرِ ، وَسَأَلُوهُ لِلْعَرَبِ السَّلَامَ ،
وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَجَابُوا لَهُ .

فأرسل إليهم : إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِذَلِكَ فَاسْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنْ
مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَقْرَأُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَعْلِمُونَا رَأْيَكُمْ . فَرَجَعُوا
إِلَيْهِ بِقَبُولِ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا فَاعْلَمُوا أَنَا قَدْ سَهَدْنَا إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي
تَلِينَا لِنَدْخُلَ عَلَيْهِمْ مِنْهَا ، فَخُذُوا بِالْأَبْوَابِ الَّتِي تَلَى دِجْلَةَ ، وَكَبِّرُوا وَاقْتُلُوا مَنْ
قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ .

وَسَهَدَ^(١) عَبْدُ اللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَكَبَّرُوا ، وَكَبَّرَتْ إِيَاد وَتَغَلَبُ وَالنَّمِرُ ، وَقَدْ أَخَذُوا

* الطبري ٤ : ١٨٦ ، ومعجم البلدان ٢ : ٤٠١ ، كان في سنة ١٦ . وتكريت : بلد بين
بغداد والموصل على دجلة إلى شمال المدائن . (١) نهض وخف .

بِالْأَبْوَابِ ، فَحَسِبَ الْقَوْمُ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَتَوْهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ . فَدَخَلُوا عَلَيْهِمْ
مِمَّا بِلَى دِجْلَةَ ، فَبَادَرُوا الْأَبْوَابَ الَّتِي عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فَأَخَذَتْهُمْ السِّيُوفُ ؛ سِيُوفُ
الْمُسْلِمِينَ مُسْتَقْبِلَتُهُمْ ، وَسِيُوفُ الْعَرَبِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِيَلْتَشُدَّ مِنْ خَلْفِهِمْ ، فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ
إِلَّا مَنْ أَسْلَمَ ؛ مِنْ تَغْلِبِ وَإِيَادِ وَالنَّمْرِ .

وَسَرَّحَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَمِرِ ابْنَ الْأَفْكَلِ الْعَنْزَرِيَّ إِلَى الْحَصْنَيْنِ زَيْنَوَى وَالْمَوْصِلِ ،
وَقَالَ لَهُ : اسْبِقْ إِلَيْهِمَا قَبْلَ وَصُولِ الْأَنْبَاءِ إِلَيْهِمَا ، وَسَرَّحَ مَعَهُ تَغْلِبَ وَإِيَادَ وَالنَّمِرَ ،
وَمَعَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ ، وَسَارُوا جَمِيعًا حَتَّى اقْتَحَمُوا عَلَيْهِمْ فِيهِمَا ؛ فَنَادُوا بِالْإِجَابَةِ
إِلَى الصَّلَاحِ ، فَأَقَامَ مَنْ اسْتَجَابَ ، وَهَرَبَ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ ، فَوَقَّى عَبْدُ اللَّهِ لِمَنْ أَقَامَ ،
وَصَارَتْ لَهُمْ جَمِيعًا الذِّمَّةُ وَالْمَنْعَةُ ، وَاقْتَسَمُوا فِي تَكْرِيتٍ كُلٌّ سَبْعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ،
وَبِعَثُوا بِالْأَخْمَاسِ إِلَى عُمرَ مَعَ فُرَاتِ بْنِ حَيَّانَ ، وَبِالْفَتْحِ مَعَ الْحَارِثِ بْنِ حَسَّانَ .

٤٤ — يوم ماسَبَدَان*

لما رجع هاشم بن عُتْبَةَ من جُلُولاء إلى المدائن بلغ سمدا أن آذِينَ بن العُرْمُزَانَ قد جمع جمعا ، فخرج بهم إلى السَّهْلِ ؛ فكتب بذلك إلى عمر .
فكتب إليه عمر : ابْعَثْ إِلَيْهِمْ ضِرَارَ بنَ الْخَطَّابِ في جُنْدٍ ؛ وَعَيْنَ لَهُ أَمْرَاءُ .
فخرج ضِرَارُ بمن معه ، حتى انتهى إلى سَهْلِ ماسَبَدَانَ ، فالتقى بالفُرسَ .
وأسرع المسلمون في المشركين ، وأخذ ضِرَارُ آذِينَ أسيرا . وانهمزم عنه جيشه ،
فضرب عُقْبَةُ ..
ثم خرج في الطَّيِّبِ حتى انتهى إلى السَّيْرَوَانِ ، وأخذ ماسَبَدَانَ عَنُوةً ،
فتطار أهلها في الجبال ، ثم دعاهم فاستجابوا إلى الجزية ، فأقرهم في مدينتهم .

* الطبري ٤ : ١٨٧ . كان في سنة ١٦ . واسبندان : موضع عن يمين حلوان إلى همدان .

٤٥ — يوم قرقيسياء *

لما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة بمدينة هيت على شاطئ الفرات ، وكتب بذلك سعد إلى عمر ، فكتب إليه عمر : أن ابث إليهم عمر بن مالك في جند ، وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامري ، وعلى مجذبتيه ربعمى بن عامر ، ومالك بن حبيب .

فخرج عمر بن مالك في جنده سائرا نحو هيت ، وقدم الحارث بن يزيد حتى نزل عليها ، وقد خندق أهلها عليهم .

فلما رأى عمر بن مالك امتناع القوم بخندقهم واعتصامهم به استطال ذلك ، فترك الأخيصة على حالها ، وخاف عليهم الحارث بن يزيد فحاصرهم ، وخرج في نصف الناس يمارض الطريق ، حتى جاء قرقيسياء في غرة ، فأخذها عنوة ، وأجاب أهلها إلى الجزاء . وكتب إلى الحارث بن يزيد في شأن أهل هيت : إن استجابوا نخل عنهم فليخرجوا ؛ وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك ؛ حتى أرى من رأيي . فاستجابوا ، وانضم الجند إلى عمر والأعاجم إلى بلادهم^(١) .

* تاريخ العنبرى ١٠٨٧:٤ . كان في رجب سنة ١٦ ، وقرقيسياء : بلد عند ملتق نهر الخابور والفرات على تخوم ما بين العراق والشام .

(١) بعد هذا اليوم صار السواد كله في يد المسلمين ، فهدوا طريق إدارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال ، فسكران الفلاحون للعارق والجسور والحرب والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم ، وكان في صالح المسلمين لهم : أنهم إن غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة .

٤٦ - يوم الأهواز *

كانت الأهواز تُتَخِمْ حدودَ البَصْرَةِ ، وكان الهرمزاني من بيوتات فارس ، فلما انهزم يوم القادسية أقام بتلك البلاد ، وغلب على مَنْ بها ، فكان يُمِيرُ على أَهْلِ مِيسان ودَسْتَمِيسان^(١) ؛ فلما علم بذلك عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ أمير البصرة استمدَّ سَعْدَ بْنَ أَبِي وقاص أمير السكوفة فأمدّه بنعيم بن مُقَرَّن ونعيم بن مسعود ، وأمرهما أن يأتيا أَعْلَى مِيسان ودَسْتَمِيسان ، حتى يكونا بين الأعاجم وبين نهر تيرى .

وأرسل عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ سَلَمَى بْنَ الْقَيْنِ وَحَرْمَلَةَ بْنَ مُرَيْطَةَ فِي جَنْعٍ مِنَ الْجَنْدِ ، وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مَنَازِر . فزلا هناك ودَعَوَا بَنِي الْعَمِّ ابْنَ مَالِكٍ ، وكانوا من حاضِرِي تلك الجهة ، فأجاب رؤساؤهم : إنهم سيكونون عوناً للمسلمين ، واتفقوا على إحداث ثورة بِمَنَازِرِ ونهر تيرى ؛ والهرمزاني يومئذ بين نهر تيرى وبين دُثْ .

وفي الموعد اشتدَّ القتالُ بين الفريقين وأتى الخبر الهرمزان بأَنَّ مَنَازِرَ ونهر تيرى قد أُخِذتا ، ففتَّ ذلك في عَصْدِهِ ثُمَّ هُزِمَ جَنْدُهُ ، وقتل المسلمون منهم ما شاءوا ، وأسروا منهم ما شاءوا واتبعوا حتى وقفوا على شاطئ دُجَيْلٍ ، وأخذوا ما دونه وعسكروا بِحِيَالِ سوق الأهواز ، وقد عبر الهرمزان جسر سوق الأهواز وأقام بها .

ولما رأى الهرمزاني ما لا طاقة له به طلب الصلح ، فأجابه عُتْبَةُ إِلَى ذَلِكَ .

* الطبري ٤ : ٢٠٨ . كان في سنة ١٧ . والأهواز : إقليم واسع ، يتكون من سبع كور بين البصرة وفارس .

(١) ميسان ودستميسان : موضحان قرب البصرة .

وصالحه على الأهواز كلها ، ما خلا نهر تيرى ومناذر ، وما غلبوا عليه في سوق الأهواز مما أخذهُ المسلمون عَنُوةً فإنه لا يُردُّ إليهم ، وجعل عُتْبَةُ سُلَيمِ بْنِ الْقَيْنِ على مَنَازِرَ ، وَحَرَمَلة على نهرى تيرى ، ووكل إليها مَسَالِحَ البصرة ، وأخذت طوائفَ بنى التَّمِّ تنزل البصرة .

ثم شَجَرَ خِلافَ بَيْنِ بعضِ رؤساءِ بنى التَّمِّ ، وبين الهرمزان في حدود الأَرْضَيْنِ ، كان من نَتِيجَتِهِ أَنْ نَقَضَ الهرمزان الصِّلحَ ومنع ما قَبَلَهُ ، واستعان بالأكراد ، فَكَشَفَ جُنُودَهُ ، وانتهى الأمرُ إلى عُتْبَةَ بْنِ غَزْوَانَ ، فَكُتِبَ بِذلِكَ إلى عُمَرَ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عُمَرَ بِأَمْرِهِ بِأَمْرِهِ ، وأمدَّهُمْ بِحُرْقُوصِ بْنِ زُهَيْرِ السَّعْدِيِّ ، وكانت له صحبة من رسول الله ، وأمره على القتال وعلى ما غَلَبَ عَلَيْهِ ، وانضمَّ إِلَيْهِ سُلَيمُ وَحَرَمَلة ، وعَلِمَ بِأَمْرِهِمُ الهرمزانَ فَنهَدَ إِلَيْهِمْ بِجُنُودِهِ .

ولما انتهى المسلمون إلى جَسْرِ سوقِ الأهواز أُرسلوا إلى الهرمزان : إما أَنْ تَعْبُرَ إِلَيْنَا ، وإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ ، فقال : اعبُرُوا إِلَيْنَا ، فَعَبَرُوا مِنْ فَوْقِ الجَسْرِ ، ثم اقْتَتَلُوا فَوْقَ الجَسْرِ مِمَّا يَلِي سوقَ الأهواز ، حتَّى هُزِمَ الهرمزان وجنوده ، وَفَرَّ إلى رامهرمز .

وافْتَتَحَ حُرْقُوصُ سوقَ الأهواز فَأقامَ بِهَا ، ونَزَلَ الجبلَ ، وَأَنْسَبَتْ لَهُ بِلَادُ سوقِ الأهواز إلى تُسْتَرٍ ، ووضعَ الجزيةَ ، وكتب بالفتح والأخماس إلى عُمَرَ ، وَوَقَدَّ إِلَيْهِ وَفْدًا بِذلِكَ ، فحَمِدَ اللهَ ودعا له بِالثَّباتِ وَالزِّيَادَةِ .

٤٧ — يوم طاووس*

كان المسلمون بالبصرة وأرضها - وأرضها يومئذ سوادها - ماغلبوا عليه منها
ففي أيديهم ، وما سولجوا عليه منها؛ ففي أيدي أهلها ، يؤذون الخراج ، ولهم الذمة
والمنعة ، وعميد الصلح الهرمزان .

وقد قال عمر : وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار ، لا يصلون إلينا
منه ، ولا نصل إليهم ، كما قال لأهل الكوفة : وددت أن بينهم وبين الجبل جبلاً
من نار ، لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم .

وكان العلاء بن الحضرمي على البحرين أزمان أبي بكر فمزله عمر ، وجعل
قُدّامة بن مظعون مكانه ، ثم عزل قُدّامة ، وردّ العلاء - وكان العلاء يُبَارِي سُمْدًا
لصَدْعٍ صَدَعَهُ الْقَضَاءُ بينهما ، فطار العلاء على سُمْدٍ في الرِّدَّةِ بالفصل ، فلما ظفر
سُمْدٌ بالقادسية ، وأزاح الأكاسرة ، وأخذ حدود مايلي السَّوَادِ استعلى ، وجاء بأعظم
جما كان العلاء جاء به .

أراد العلاء أن يضع شيئاً في الأعاجم ، مع أن عمر قد نهاه عن البحر حين
استعمله ، فلم يقدر الطاعة والمعصية وعواقبهما .

فندب أهل البحرين إلى فارس ، ففسرّعوا إلى ذلك ، وفرّقهم أجناداً ، على أحدها

* الطبري ٤ : ٢١٢ ، ومعجم البلدان ٦ : ١٠ . كان سنة ١٧ هـ طاووس : موضع

بنواحي فارس

الجارود بن الملقى ، وعلى الآخر السّوّار بن همام ، وعلى الآخر خُليد بن المنذر بن ساوى ،
وخُليد على جماعة الناس .

فحملهم فى البحر إلى فارس بغير إذن عمر - وكان عمر لا يأذن لأحد فى ركوبه
غازياً ، لأنه يكره التّغريب استئذاناً بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأبى بكر .

فعبثت تلك الجوند من البحّرين إلى فارس وخرجوا فى إمّطخّر ، وبإزائهم أهل
فارس ، وقد اجتمعوا على الهرب ، وحالوا بين المسلمين وبين سفنهم ، فقام خُليد فى
الناس فقال : أمّا بعد ، فإن الله إذا قضى أمراً جرت المقادير حتى تُصيّبه ؛ وإن
هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دَعَوْكم لحربهم ، وإنما جئتم لحاربتهم
والسُّفن والأرض لمن غلب ، فاستمعينوا بالصّبر والصّلاة وإنها لكبيرة إلا
على الخاشعين .

فأجابوه إلى ذلك ، وصلّوا الظهر ، ثم ناهدوهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً فى موضع يقال
له طاوس ، وقُتل من قوّاد المسلمين السّوّار والجارود ، وجعل خُليد يذمر^(١) القوم
ويحرّضهم ، واشتدّ القتال ، وقُتل أهل فارس مقتلة لم يُقتلوا مثلها قبلها .

ولم يجد المسلمون سبيلاً إلى الرجوع فى البحر ، لأنّ الفرس أغرقوا سفنهم
فخرجوا يُريدون البصرة ، فوجدوا شمرّك قد أخذ على المسلمين بالطرق ،
فمسكروا وامتنعوا .

ولما بلغ عمر الذى صنع الغلاء ، من بئسه ذلك الجيش فى البحر القى فى رُوعه نحوه
من الذى كان ، فاشتد غضبه على الغلاء ، وكتب يعزله ، وتوعّده ، وأمره

(١) يذمر : يحس ،

بأنقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه ، بتأثير سعد عليه ، وقال له : الحق بسعد ابن أبي وقاص فيمن قبلك ، فخرج بمن معه نحو سعد .

وكتب عمر إلى عتبة بن غزوان : إن العلاء بن الحضرمي حمل جنودا من المسلمين ، فأقطعهم أهل فارس ، وعصاني ، وأظنه لم يريد الله بذلك ، فخشيت عليهم ألا ينصروا وأن يغلبوا ، فاندب إليهم الناس ؛ واضممهم إليك من قبل أن يجتاحوا .

فندب عتبة الناس ، وأخبرهم بكتاب عمر . فانتدب الناس وخرجوا في اثني عشر ألفا على البغال يجنبون^(١) الخيل ، وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم . فسار أبو سبرة بالناس وساحل ، لا يلقاه أحد ، ولا يعرض له أحد ، حتى التقى بخليد ، وقد كان أهل إصطخر وشذاذ^(٢) من غيرهم هم الذين أخذوا الطريق على جيش خليد .

فلما أقام المسلمون مقامهم استصرخ الأعداء أهل فارس كلهم ؛ فضرخوا إليهم من كل وجه وكورة ، فالتقوا بعد طاوس ، وقد توافت إلى المسلمين أمدادهم ؛ وإلى المشركين أمدادهم ، وبعد قتال فتح الله على المسلمين وقتل المشركين . وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا ، وكانت هذه الغزاة هي التي شرفت نابتة أهل البصرة ، فكانوا أفضل نوابت الأمصار ، وانكفأوا بما أصابوا

(١) جنبه قاده : إلى جنبه . (٢) الشذاذ : الذين لم يكونوا في حبيهم ومنازلهم ، ومفرد : شاذ .

٤٨ — يوم تُسْتَر*

لم يزل يزدِجُرد يُثِيرُ أَهْلَ فَارِسَ أَسْفَاً عَلَى مَا خَرَجَ مِنْهُمْ — وَكَانَ مَقِيماً بِمَرْو —
فَكُتِبَ إِلَى أَهْلِ فَارِسَ يَذْكُرُهُمُ الْأَحْقَادَ وَيُؤَنِّبُهُمْ ؛ أَنْ قَدْ رَضِيعُكُمْ يَا أَهْلَ فَارِسَ ؛
أَنْ قَدْ غَلِبَتْكُمْ الْعَرَبُ عَلَى السَّوَادِ وَمَا وَالِاهُ مِنَ الْأَهْوَازِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْضَوْا بِذَلِكَ ؛
حَتَّى تَوَرَّدُواكُمْ فِي بِلَادِكُمْ وَعُقُرْ دَارَكُمْ !

فَتَحَرَّكَ أَهْلُ فَارِسَ وَأَهْلُ الْأَهْوَازِ ، وَتَمَاقَدُوا وَتَمَاهَدُوا ، وَتَوَاتَقُوا عَلَى النَّصْرَةِ ،
وَجَاءَتِ الْأَخْبَارُ حَرْقُوصَ بْنَ زَهِيرٍ ، وَسَلْمَى وَحَرْمَلَةَ .

وَلَمَّا عَلِمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِذَلِكَ كُتِبَ إِلَى سَمْدِ أَمِيرِ الْكُوفَةِ أَنْ ابْعَثْ
إِلَى الْأَهْوَازِ بَعْثًا كَثِيفًا مَعَ النِّعْمَانِ بْنِ مُقَرَّنٍ ، وَعَجَّالٍ ؛ وَابْعَثْ سُوَيْدَ بْنَ مَقْرَنَ
وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ ذِي السَّهْمَيْنِ ، وَجَرِيرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحُمَيْرِيِّ وَجَرِيرَ بْنَ عَبْسَدِ اللَّهِ
الْبَجَلِيِّ ، فَلْيَنْزِلُوا بِإِزَاءِ الْهَرْمُزَانِ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا أَمْرَهُ .

وَكُتِبَ إِلَى أَبِي مُوسَى أَمِيرِ الْبَصْرَةِ أَنْ ابْعَثْ إِلَى الْأَهْوَازِ جُنْدًا كَثِيفًا ،
وَأَمْرًا عَلَيْهِمْ سَهْلُ بْنُ عَدَى ، وَعَلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ وَأَهْلِ الْبَصْرَةِ جَمِيعًا أَبَاسَ بَرَةَ
ابْنَ أَبِي رُحْمٍ ، وَكُلَّ مَنْ أَتَاهُ مُعِدَّةً لَهُ .

وَخَرَجَ النِّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّنٍ فِي أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَأَخَذَ وَسْطَ السَّوَادِ حَتَّى قَطَعَ دِجْلَةَ
بِحَيْثَالِ مَيْسَانَ ، ثُمَّ أَخَذَ الْبَرَّ إِلَى الْأَهْوَازِ ، وَانْتَهَى إِلَى نَهْرِ تَيْرِي فَجَازَهُ ،
ثُمَّ جَازَ مَنَاذِرَ ، وَسَوَّقَ الْأَهْوَازَ ، وَخَافَ حَرْقُوصًا وَسَلْمَى وَحَرْمَلَةَ ، ثُمَّ سَارَ نَحْوَ
الْهَرْمُزَانِ — وَالْهَرْمُزَانُ يَوْمُئِذٍ بِرَأْسِ هَرْمَزَ .

* الطبري : ٤ — ٣١٤ . كان سنة ١١٧ : واستر : أعظم مدينة بخوزستان .

وَمَا سَمِعَ الْهَرَمَزَانُ بِمُسِيرِ النِّعْمَانِ إِلَيْهِ بِأَدْرَهُ ، وَرَجَا أَنْ يَنَالَ مِنْهُ ، وَطَمَعَ فِي نَصْرِ أَهْلِ فَارَسٍ وَقَدْ أَقْبَلُوا نَحْوَهُ ، وَنَزَلَتْ أَوَائِلُ أُمْدَادِهِمْ بِتُسْتَرَ .

فَالْتَقَى النِّعْمَانُ وَالْهَرَمَزَانُ بِأَرْبُئِكَ^(١) وَاقْتَتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا . ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ هَزَمَ الْهَرَمَزَانَ لِلنِّعْمَانِ ، وَأَخْلَى رَامِهرْمَزَ وَتَرَكَهَا وَلَحِقَ بِتُسْتَرَ ، وَسَارَ النِّعْمَانُ مِنْ أَرْبُئِكَ حَتَّى نَزَلَ بِرَامِهرْمَزَ فَأَقَامَ بِهَا .

وَمَا وَصَلَ أَهْلُ الْبَصْرَةِ إِلَى سَوَاقِ الْأَهْوَازِ جَاءَهُمْ خَبَرُ الْوَاقِعَةِ ، وَأَنَّ الْهَرَمَزَانَ لَحِقَ بِتُسْتَرَ ، فَالُوا نَحْوَهَا ، وَرَاغَ النِّعْمَانُ إِلَيْهَا مِنْ رَامِهرْمَزَ ، وَقَصَدَتْهَا الْمَسَالِحُ الَّتِي تَرَكَوْهَا خَلْفَهُمْ ، وَكَانَ عَلَيْهَا خَرْقُوصٌ وَجَزْءٌ ، وَلَحِقَ بِهِمْ سَلْمَى وَحَرْمَلَةٌ ، وَنَزَلَ جَمِيعُهُمْ عَلَى تُسْتَرَ ، وَبِهَا الْهَرَمَزَانُ وَجُنُودُهُ مِنْ أَهْلِ فَارَسَ ، وَكَتَبُوا بِذَلِكَ جَمِيعًا إِلَى عُمَرَ ، وَاسْتَمَدَّ أَبُو سَبْرَةَ ، فَأَمَدَّهُ بِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ، فِي جَمْعِ آخَرٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ .

فَحَاصَرُوا الْفَرَسَ أَثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا ، وَأَكْثَرُوا فِيهِمُ الْقَتْلَ ، وَقَتَلَ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ - فِيمَا بَيْنَ أَوَّلِ الْحَصَارِ إِلَى أَنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ - مِائَةَ مُبَارِزٍ سِوَى مَنْ قَتَلَ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ، وَفَعَلَ غَيْرُهُ كَثِيرُونَ مِنْ صَنَادِيدِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا فَعَلَ .

وَزَاحَهُمُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَيَّامِ تُسْتَرَ ثَمَانِينَ زَحْفًا فِي حِصَارِهِمْ ، يَكُونُ عَلَيْهِمْ مَرَّةٌ وَلَهُمْ أُخْرَى ، حَتَّى إِذَا كَانَ فِي آخِرِ زَحْفٍ مِنْهَا ، وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ قَالَ الْمُسْلِمُونَ : يَا بَرَاءُ ، أَقْسِمُ عَلَى رَبِّكَ كَيْهَزِمْنَهُمْ . فَقَالَ : أَلَيْسَ هَزِيمَتُهُمْ لَنَا وَاسْتَشْهَدَنِي .

فَهَزَمُوهُمْ ، حَتَّى أَدْخَلُوهُمْ حِوَارِقَهُمْ ، ثُمَّ اقْتَضَمُوها عَلَيْهِمْ ، وَأَرْزَوْا^(٢) إِلَى مَدِينَتِهِمْ وَأَحَاطُوا بِهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَقَدْ ضَاقَتْ بِهِمُ الْمَدِينَةُ ، وَطَالَتْ حَرْبُهُمْ خَرَجَ إِلَى النِّعْمَانِ رَجُلٌ فَاسْتَأْمَنَهُ عَلَى أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى مَدْخَلٍ يَأْتُونَ مِنْهُ الْمَدِينَةَ ، وَيَكُونُ

(١) أَرَبُك : مَدِينَةٌ بِالْأَهْوَازِ . (٢) أَرْزَوْا : أَرْزَوْا إِلَى مَدِينَتِهِمْ : لَازُوا وَرَجَعُوا إِلَيْهَا .

فيه فَتَحُهَا فَأَمْنُوهُ ، فقال لهم : أنهدوا من قَبْلِ مَخْرَجِ الْمَاءِ ، فَإِنَّكُمْ سَتَقْتَحُونَهَا .
فَنَدَبَ النِّعْمَانُ أَصْحَابَهُ فَهَدَوْا فِي بَشَرٍ كَثِيرٍ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ لَيْلًا ، وَانْتَرَبَ
سُوَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَشَرٍ ، فَاتَّبَعَهُمْ هَؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ ؛ حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا كَبَّرُوا
وَكَبَّرَ الْمُسْلِمُونَ خَلْفَهُمْ ، وَفُتِّحَتِ الْأَبْوَابُ ، فَاجْتَدَوْا فِيهَا ، وَأَصَابُوا مِنَ الْفُرْسِ
مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَأَرَزَ الْهَرْمَزَانُ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَطَافَ بِهِ الَّذِينَ دَخَلُوا مِنْ مَخْرَجِ الْمَاءِ ،
فَلَمَّا عَايَنُوهُ ، وَأَقْبَلُوا قَبْلَهُ قَالَ لَهُمْ : مَا شِئْتُمْ ! قَدْ تَرَوْنَ ضَيْقَ مَا أَنَا فِيهِ وَأَنْتُمْ ، وَمَعِيَ
فِي جَمْعِي مِائَةُ نَشَابَةٍ ، وَوَاللَّهِ مَا تَصِلُونَ إِلَيَّ مَا دَامَ مَعِيَ مِنْهَا نَشَابَةٌ ، وَمَا يَقَعُ لِي
مِنْهُمْ ؛ وَمَا خَيْرُ إِسَارِي إِذَا أَحْبَبْتُ مِنْكُمْ مِائَةَ بَيْنَ قَتِيلٍ أَوْ جَرِيحٍ ! قَالُوا : فَتَرِيدُ
مَاذَا ؟ قَالَ : أَضَعُ يَدِي فِي أَيْدِيكُمْ عَلَى حُكْمِ عَمْرِ ، يَصْنَعُ بِي مَا شَاءَ . قَالُوا : فَلَكِ
ذَلِكَ . فَرَمَى بِقَوْسِهِ ، وَأَمْسَكَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ ، فَشَدَّوهُ وَثَاقًا ، وَاقْتَسَمُوا مَا أَفَاءَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ . فَكَانَ سَهْمُ الْفَارِسِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَالرَّاجِلِ أَلْفًا .

وَجَاءَ مَنْ دَلَّاهُمْ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : مَنْ لِي بِالْأَمَانِ الَّذِي طَلَبْتَهُ لِي وَلِنِ مَالٍ
مَعِيَ ؟ قَالُوا : وَمَنْ مَالَ مَعَكَ ؟ قَالَ : مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ عَلَيْهِ مُدْخَلَكُمْ . فَأَجَازُوا ذَلِكَ
لَهُمْ ، وَقَتَلَ مِنَ الْمَسَامِينِ لَيْلَتُنْذَ أَنْاسٌ كَثِيرٌ ، مِنْهُمْ حِزَاةُ بْنُ ثَوْرٍ ، وَالْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ
قَتَلَهُمَا الْهَرْمَزَانُ .

وَأَوْفَدَ أَبُو سَدْبَرَةَ وَفَدًا إِلَى الْبَصْرَةِ فِيهِمْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ وَالْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ،
وَأَرْسَلَ الْهَرْمَزَانُ مَعَهُمْ ، ثُمَّ خَرَجُوا نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى إِذَا دَخَلُوا هَيَّئَتُوا الْهَرْمَزَانُ فِي
هَيْئَتِهِ ، فَأَلْبَسُوهُ كِسْوَتَهُ مِنَ الدِّيَّاجِ الَّذِي فِيهِ الذَّهَبُ ، وَوَضَعُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا
مُسَكَّنًا بِالْيَاقُوتِ ، وَعَلَيْهِ حُلِيَّتُهُ كَمَا يَرَاهُ عَمْرُ وَالْمُسْلِمُونَ فِي هَيْئَتِهِ . ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ
عَلَى النَّاسِ يُرِيدُونَ عُمَرَ ، فِي مَنْزِلِهِ ، فَلَمْ يَجِدُوهُ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهُ ، فَقِيلَ : جَلَسَ فِي

المسجد لوفدٍ قدموا عليه من الكوفة ، فانطلقوا يطالبونه في المسجد ، فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بفلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : أتريدون أمير المؤمنين؟ إنه نائم في المسجد متوسد بُرْئسه . وكان عمر قد جلس لوفدٍ أهل العراق في برُئس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه نزع بُرْئسه ثم توسده فنام .

فانطلقوا ومعهم النظارة حتى إذا رأوه جاسوا دونه ، وليس في المسجد نائم ولا يَمْتَظَن غيره ، والدَّرة في يده مُعَلَّقة ، فقال الهرمزان : أين عمر؟ فقالوا : هو ذا . وجعل الوفد يُشيرون إلى الناس أن اسكتوا عنه . وأصغى الهرمزان إلى الوفد ، ثم قال : أين حرسه وحجَّابه ؟ قالوا : ليس له حارس ، ولا حاجب ، ولا كاتب ، ولا ديوان : قال : فينبغي له أن يكون نبياً ، فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء .

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر بالجلبة ، واستوى جالساً ، ثم نظر إلى الهرمزان ، فقال : الهرمزان ! ثم تأمله وتأمل ما عليه ، وقال : أعوذ بالله من النار ، وأستمعُ الله . وقال : الحمد لله الذي أذلَّ بالإسلام هذا وأشياعه . يامعشرَ المسلمين ؛ تمسكوا بهذا الدين ، واهتدوا بهدي نبيكم ، ولا تُبْطِرَنَّكم الدنيا فإنها غرارة فقال الوفد : هَذَا ملكُ الأهواز فكلمه ، فقال : لا ، حتى لا يَبْقَى عليه من حليته شيء ، فرمى عنه بكل شيء عليه إلا شيئاً يستره ، وألبسوه ثوباً صفيقاً .

فقال عمر : هيه ياهرمزان ! كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمرِ الله ! فقال : يا عمر ، إنا كنّا وإياكم في الجاهلية ، كان الله قد خَلَّى بيننا وبينكم ، فقلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، فقال عمر : إنما غلبتمونا في

الجاهلية باجتماعكم وتفرقتنا ، ثم قال : ما عذرك وما حجتك في انتقامك مرة بعد مرة ؟ فقال : أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك . قال : لا تخف ذلك . واستسقى ماء ، فأتي به في قدح غليظ . فقال : لو مت عطشاً لم أستطع أن أشرب في مثل هذا . فأتي به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف ، وقال : إني أخاف أن أقتل وأنا أشرب الماء . فقال عمر : لا بأس عليك حتى تشربه ، فأكفاه . فقال عمر : أعيذوا عايه ، ولا تجمعوا عليه القتل والمطش . فقال : لا حاجة لي في الماء ؛ إنما أردت أن أستمئن به . فقال له عمر : إني قاتلك . قال : قد أمنتني ، فقال : كذبت ! فقال أنس : صدق يا أمير المؤمنين ، قد أمنتته ، قال : ويحك يا أنس ! أنا أؤمن قاتل بجزاة البراء ! والله للتأين بمخرج أو لأعاقبتك . قال : قلت له : لا بأس عليك حتى تخبرني ، وقلت له : لا بأس عليك حتى تشربه ، وقال له من حوله مثل ذلك . فأقبل على الهرمزان وقال : خدعتني ، والله لا أنخدع إلا لمسلم ، فأسلم وفرض له على ألفين ، وأنزله المدينة .

٤٩ - يوم الشّوس*

لما انتهى فلّ جُلُولاء إلى يزّ دجرد وهو بحُلُوان دعا بخاصّته والموَبّد ، فقال :
إنّ القوم لا يَلْقَوْنَ جَمْعاً إلا فُلُّوه ، فما ترون ؟ فقال الموَبّد : نرى أن تخرج فتنزل
إسطخر ، فإنها بيتُ الملكة ، وتضمّ إليك خزائنك وتوجّه إليها الجنود .

فأخذ برأيه ، وسار ومنّ معه حتى نزلوا إسطخر ؛ وأبو موسى محاصر الشّوس ؛
فوجه سيّاه إلى الشّوس والهرمزان إلى تُستَر .

وبلغ أهل الشّوس أمرُ جُلُولاء ونزول يزّ دجرد إسطخر منهزماً ، فسألوا
أبا موسى الصّليح ، فصالحهم ، وسار إلى رامهرمز .

ولما علم سيّاه بذلك دعا الرؤساء الذين كانوا خرجوا معه من أصبهان وقال لهم :
قد علمتم أنّا كنّا نتحدّث أنّ هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيفلبون على هذه
الملكة ، وتروث دوابهم في إيوانات إسطخر ومصانع الملوك ، ويشدّون خيولهم
بشجرها ، وقد غلبوا على ما رأيتم ، وليس يَلْقَوْنَ جنداً إلا فُلُّوه ، ولا ينزلون
بحصن إلا فتحوه ، فانظروا لأنفسكم . قالوا : رأينا رأيك ، قال : فإنّي أرى أن
ندخل في دينهم .

ووجه شيرويه في عشرة من الأساورة إلى أبي موسى يأخذ شروطاً على أن
يدخلوا في الإسلام .

فقدم شيرويه على أبي موسى ؛ فقال : إنّنا قد رغبنا في دينكم فنُسَلِم ، على أن
نقاتل معكم العجم ، ولا نقاتل معكم العرب ، وإن قاتلنا أحدٌ من العرب منمتموناً
منه ، وننزل حيث شئنا ، ونكون فيمن شئنا منكم ، وتُدَحِّقونا بأشرف العطاء ،

* الطبري ٤ : ٢١٨ . . كان سنة ١٧ . وبالسوس ؛ بلد بخوزستان .

وَيَعْقِدُ لَنَا الْأَمِيرُ الَّذِي فَوْقَكَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ أَبُو مُوسَى : بَلِّغْكُمْ مَا لَنَا وَعَايِسْكُمْ مَا عَلَيْنَا ! قَالُوا : لَا نَرْضَى .

وَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ عَمْرٌ إِلَى أَبِي مُوسَى :
أَعْطِهِمْ مَا سَأَلُوكَ . فَكَتَبَ لَهُمْ أَبُو مُوسَى ، فَأَسْلَمُوا وَشَهِدُوا مَعَهُ حِصَارَ تَنْتَرَ ،
فَلَمْ يَكُنْ أَبُو مُوسَى يَرَى مِنْهُمْ جِدًّا وَلَا نِيَايَةَ ، فَقَالَ لِسِيَاهُ : يَا أَعُورُ ، مَا أَنْتَ
وَأَصْحَابُكَ كَمَا كُنَّا نَرَى . قَالَ : لَسْنَا مِثْلَكُمْ فِي هَذَا الدِّينِ ، وَلَا بَصَائِرُنَا كَبَصَائِرِكُمْ ؛
وَلَمْ تُلْحِقْنَا بِأَشْرَفِ الْعِطَاءِ .

فَكَتَبَ أَبُو مُوسَى إِلَى عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ عَمْرٌ : أَنْ أَلْحَقَهُمْ عَلَى قَدَرِ
الْبَلَاءِ فِي أَفْضَلِ الْعِطَاءِ وَأَكْثَرِ شَيْءٍ أَخَذَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ .

فَفَرَضَ لِمَائَتِهِ مِنْهُمْ فِي أَلْفَيْنِ أَلْفَيْنِ ، وَلِسِتَّةٍ مِنْهُمْ فِي أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ .

وَحَاصَرُوا حِصْنَ بَفَارِسَ ، فَانْسَلَّ سِيَاهُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ فِي زِيِّ الْعَجَمِ حَتَّى رَمَى
بِنَفْسِهِ إِلَى جَنْبِ الْحِصْنِ ، وَنَضَحَ رِيَاءَهُ بِالْدمِ . وَأَصْبَحَ أَهْلُ الْحِصْنِ ، فَرَأَوْا رَجُلًا
فِي زِيِّهِمْ صَرِيحًا ، فَظَنُّوا أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أُصِيبُوا بِهِ ، فَفَتَحُوا بَابَ الْحِصْنِ لِيُدْخِلُوهُ ؛
فَنَارَ وَقَاتَلَهُمْ حَتَّى جَلَوْا عَنْ بَابِ الْحِصْنِ وَهَرَبُوا ، فَفَتَحَ الْحِصْنَ وَحْدَهُ ، وَدَخَلَهُ
الْمُسْلِمُونَ .

٥٠ - يوم نهاوند

قال عمر لو فدي أهل البصرة : لعل المسلمين يُفَضُّون إلى أهل الذمة بأذى ، وبأمور لها ينتفضون بكم ، فقالوا : ما نعلم إلا وفاء وحسن مملكة ، قال عمر : فما بالهم ينتفضون ! فلم يجز عند أحد منهم جواباً يشفيه إلا ما كان من الأحنف ابن قيس إذ قال : يا أمير المؤمنين ، أخبرك ، أنك نبيتنا عن الانسياح في البلاد ، وأمرتنا بالاعتصار على ما في أيدينا ، وإن ملك فارس حتى بين أعظمهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ، ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يُخرج أحدهما صاحبه ؛ وقدم رأيت أننا لم نأخذ شيئاً بعد إلا بانبعاشهم وتغديرهم ، وإن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنسيح في بلادهم ، ونزيل ملكهم ، ونخرجهم من مملكتهم وعز أمتهم ، فهذه لك يقطع رجاء أهل فارس .

فقال عمر : صدقتني والله ، وشرحت لي الأمر على حقه . ثم نظر في حوائجهم وسرحتهم .

وجاء الخبرُ عمر أن أهل فارس كاتبوا ملكهم يزدجرد وهو يومئذ يَمُرُّ^(١) ليكون على رأس حركتهم حتى يجتمع الناس وينضموا تحت لوائه ، فلما جاء به الكتب ، ورأى فيها اجتماع كلمة الفرس وشدة حماسهم لدفع عدوه وعدوهم تبدل

* للثمان بن مرقن على الفرس . . كان سنة ٢١ ، ونهاوند : من بلاد الفرس ، قرب همدان

الطبري ٤ : ٢٣١ ، معجم البلدان ٨ : ٣٢٩ .

(١) كان يزدجرد قد اضطررب في أرجاء فارس منذ فر من المدائن ثم استقر في مرو .

يأسه أملاً، واضطرابه طمأنينة، فكتب أهل الجبال وسائر الولايات والبلاد في مملكته يشجعهم ويدعوهم إلى قتال العرب، فتحرّكوا وتكاتّبوا^(١)، وركب بعضهم إلى بعض، وأجمعوا على تلبية نداء الملك، وبعث كل أمير جنده إلى مهاوند، حتى بلغ عددهم مائة وخمسين ألفاً، واجتمعوا بإمرة الفيرزان.

فلما اجتمعوا عنده قل لهم: إن عمر لَمَّا طال مُلكه انتهك حرمتها وأخذ بلادنا، ولم يكفه ذلك حتى أغزانا في عُقْرِ دارنا، وأخذ بيت المملكة، وهو آتيكم إن لم تأتوه، وليس بمنتهى حتى تُخْرِجُوا مَنْ في بلادكم من جنده. ونقل الأمراء حديثه إلى جنودهم، فاشتعلت حماستهم.

وكان سعد بن أبي وقاص كتب إلى عمر: يقال: إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح، وكان عمر منهم من ذلك، فلما بلغه تجمعُ الفرس شخص إليه بالخبر مشافهة، بعد أن استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبة على الكوفة.

ثم لم يلبث عبد الله أن كتب إلى عمر يقول: إن أهل فارس قد تجمعوا، فإن جاءونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلك عليهم.

ولما تواتت الأخبار والرُّسُل عند عمر أخذ يفكر في أمر الفرس، فبدأ باستشارة الهرمزان، وقال له: انصح لي، فإنك أعلم بأهل فارس، قال: نعم! إن فارس اليوم رأس وجناحان. قال له: فأين الرأس؟ قال: بهمآوند، ثم ذكر موضع الجناحين وقال: الرأسُ عندي يا أمير المؤمنين أنك إن تقطع الجناحين يهين الرأس. فقال

(١) تكاتبوا: كتب بعضهم إلى بعض

عمر : كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ ! بَلْ أَعْمِدُ إِلَى الرَّأْسِ فَأَقْطَعُهُ فَإِذَا قَطَعَهُ اللَّهُ
يَمُصُّ الْجَنَاحَانَ .

ثم أراد أن يَسِيرَ بنفسه ، فقالوا له : نُدْكُرُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَسِيرَ بِنَفْسِكَ
إِلَى حَلَبَةِ الْعِجَمِ ، فَإِنْ أُصِيبْتَ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ نِظَامٌ .

فَرَأَى أَنْ يَسْتَشِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي جَمْعِهِ عَامٌ ، وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى فِي النَّاسِ : الصَّلَاةُ
جَامِعَةٌ ! فَاجْتَمَعَ النَّاسُ ، وَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ وَأَخْبَرَ النَّاسَ الْخَبَرَ وَاسْتَشَارَهُمْ وَقَالَ : هَذَا
يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ ؛ أَلَا وَإِنِّي قَدْ هَمَمْتُ بِأَمْرٍ ، وَإِنِّي عَارِضُهُ عَلَيْكُمْ فَاسْمَعُوهُ ، ثُمَّ
أَخْبِرُونِي وَأَوْجِزُوا ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَلَا تُكْثِرُوا وَلَا
تُطِيلُوا فَيَاثِيَوِي عَلَيْكُمْ الرَّأْيُ ، أَفَمَنْ الرَّأْيُ أَنْ أُسِيرَ فِيمَنْ قِبَلِي وَمَنْ قَدَرْتُ عَلَيْهِ
حَتَّى أَنْزِلَ مِنْزَلًا وَسَطًا بَيْنَ هَذَيْنِ الْمِصْرَيْنِ ، فَاسْتَنْفَرَهُمْ ، ثُمَّ أَكُونُ لَهُمْ رِدًّا حَتَّى
يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَيَقْضَى مَا أَحَبُّ ؟

فَتَكَلَّمَ الْقَوْمُ ، وَتَشَعَّبَتْ بَيْنَهُمُ الْآرَاءُ ، ثُمَّ قَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ ، فَتَشَهَّدَ ثُمَّ
قَالَ : أَمَّا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ أَحْكَمْتَكَ الْأُمُورَ ، وَعَجَمْتَكَ الْبَلَايَا ، وَأَنْتَ وَشَأْنُكَ ،
وَأَنْتَ وَرَأْيُكَ ؛ لَا نَنْبُو فِي يَدَيْكَ ، وَلَا نَكِلُ عَلَيْكَ . إِلَيْكَ هَذَا الْأَمْرُ ، فَعُرْنَا
نُطِيعَ ، وَادْعُنَا نُحِبُّ ؛ فَإِنَّكَ وَلِيُّ هَذَا الْأَمْرِ ، وَقَدْ بَلَوْتَ وَجَرَّبْتَ وَاخْتَبَرْتَ ، فَلَمْ
يُنْكَشِفْ شَيْءٌ مِنْ عَوَاقِبِ قَضَاءِ اللَّهِ لَكَ إِلَّا عَنْ خِيَارٍ . ثُمَّ جَلَسَ .

فَعَادَ عُمَرُ فَقَالَ : إِنْ هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَيَّامِ فَتَكَلَّمُوا .

فَقَامَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ فَتَشَهَّدَ وَقَالَ : أَرَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَنْ تَكْتُبَ إِلَى أَهْلِ
الشَّامِ فَيَسِيرُوا مِنْ شَامِهِمْ ، وَتَكْتُبَ إِلَى أَهْلِ الْيَمَنِ فَيَسِيرُوا مِنْ يَمَنِهِمْ . ثُمَّ تَسِيرَ

أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصيرين، فتلقى جمع المشركين يجمع المسلمين، فإنك إذا سرت بمن معك وعندك، قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنت أعزّ عزاً وأكثر. يا أمير المؤمنين، إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية، ولا تختنع من الدنيا بعزیز، إن هذا اليوم له ما بعده من الأيام؛ فاشهده برأيك وأغوانك، ولا تنب عنه. ثم جلس.

فماد عمر فقال: إن هذا يوم له ما بعده من الأيام. فتكلموا.

فقيام على بن أبي طالب فقال: أما بعد يا أمير المؤمنين، فإنك إن أشخصت أهل الشام من شأنهم سارت الروم إلى ذراريهم، وإن أشخصت أهل اليمن من بينهم سارت الحبشة إلى ذراريهم، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ماتدع وراءك أمم مما بين يديك من العورات والعائلات.

أقرّ هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق: فاتمة فرقة لهم في حرّهم وذراريهم، ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم، ولتسير فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مددا لهم. إن الأعاجم إن ينظروا إليك قالوا: هذا أمير العرب وأصل العرب، فيكون ذلك أشد ليكابهم، فيتألبوا عليك.

وأما ما ذكرت من مسير القوم، فإن الله أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما ما ذكرت من عددهم، فإننا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة، ولكننا كنّا نقاتل بالنصر، فأقيم مكانك.

فقال عمر: أجل والله، لأن شخصت من البداة لتنتقضن على الأرض من

أطرافها وأكفافها ، ولئن نظرت إلى الأعاجم ليدنهم من لم يعدهم ، وليقولن : هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب . فأشيروا على رجل أوله ذلك الشجر غدا .

قالوا : أنت أفضل رأيا ، وأحسن مقدرة . قال : أشيروا على به ، واجعلوه عراقيًا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، أنت أعلم بأهل العراق ، وجنده قد وفدوا عليك ، ورأيتمهم وكلمتهم . فقال : أما والله لأولين أمرهم رجلاً ، ليكونن أول الأسنة إذا أقيمت غدا ، فقيل : من يا أمير المؤمنين ؟ فقال : النعمان بن مقرن . فقالوا : هو لها !

فكتب عمر إلى النعمان - وكان على الخراج بكسك^(١) :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه بلغني أن جوعاً من الأعاجم كثيرة قد جتمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبمؤن الله ، وبنصر الله بنن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعرأ فتؤذيهم ، ولا تمنهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلهم غيضة^(٢) ، فإن رجلاً من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار ، والسلام عليك .

ثم كتب لأهل الكوفة أن يؤافوا النعمان وعليهم خذيفة بن اليمان ، وكتب لأبي موسى أن يسير بأهل البصرة ، وأرسل إليه جوعاً من المدينة فيهم عبد الله ابن عمر .

(١) كسك : كورة قصبتها واسط .

(٢) الغيضة : الأجمة أو يجتمع الشجر في منبض ما .

ثم كتب للنعمان : إن حدث بك حدث فعلى الناس خديفة بن اليمان ، فإن حدث بخديفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن .

وبعث السائب بن الأقرع - وكان رجلاً كاتباً حاسباً - فقال له : ألقى بهذا الجيش فكُنْ فيهم ، فإن فتح الله عليهم فأقيم على المسلمين فيمنهم ، وخذ منهن الله ومنهن رسولاً ، وإن أصيب هذا الجيش فاذهب في سواد الأرض ، فبطن الأرض خير من ظهرها .

وكتب إلى سلمى بن القين وحرمة بن ربيعة ، وأمراء الجند الذين كانوا بين فارس والأهواز : أن اشغلوا فارس عن إخوانكم ، وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم ، وأقيموا على حدود ما بين فارس والأهواز حتى يأتىكم أمرى .
فقطعوا بذلك على أهل نهاوند أمداد فارس .

وجاء أهل الكوفة فوافوا النعمان ومعهم كتاب من عمر وفيه : إن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية ، فأدخلهم دون من هر دونهم في العلم والحرب واستعين بهم ، وسئل طليحة بن خويلد الأسدي وعمرو بن أبي سلمى العزبي وعمرو بن معديكرب الزبيدي ، ولا تولهم شيئاً .

واجتمعت جموع الفرس ، وأرسل بُندار - وكان من أغلجهم - أن أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ، فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة .

قال المغيرة في خبره : لما دخلت على بُندار علمت أنه قد استشار أصحابه ، فقال : بأى شئ تأذن لهذا العربي ؟ بشارتنا وبهجتنا ومملكتنا ، أم نتشرف له فيما قبلنا حتى يزهد ؟ قالوا : بل بأفضل ما تكون الشارة والمدة ؟ فتهيئوها .

فلما أتيتهم رأيت حُرَّاسه بحرابهم التي تلمع ، كأنهم الشياطين ، وإذا هو على سرير من ذهب ، على رأسه التاج .

قال : فضيتُ كما أنا ، ونكست ، ثم دُفِعت ومُهِنَتْ . فقلت : الرسلُ لا يُفعلُ بهم هذا ، فقالوا : إنما أنت كلب ، فقلت : معاذَ الله ! لأننا أشرفُ في قوى من هذا في قومه : فأنتهروني ، ثم قالوا : اجلس ، وأجلسوني . فقال لي - والترجمان بيننا - : إنكم معشر العرب أبعَدُ الناس من كلِّ خير ، وأطول الناس جوعاً ، وأشق الناس شقاءً ، وأقذر الناس قَدراً ، وأبعدم داراً ، وما معنى أن آمرَ هؤلاء الأساورةَ حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجسوا لجيفِكُم ، فإنكم أَرْجاس ، فإن تذهبوا نخلَ عنكم ، وإن تأبوا نُزِرْكم مصارعكم .

قال النيرة : فحَمِدَت الله وأُثْنِيَتْ عليه ، وقلتُ : والله ما أخطأت من صِفَتِنَا شيئاً ولا مِنْ لَمَتِنَا ، إنَّا كُنَّا أبعَدَ الناسِ داراً ، وأشدَّ الناسِ جوعاً ، وأشقى الناسِ شقاءً ، وأبعد الناس من كلِّ خير ، حتى بعثَ الله إلينا عزَّ وجل رسوله صلى الله عليه وسلم ، فوعدنا النصر في الدنيا ، والجنة في الآخرة ؛ فوالله ما زِلْنَا نتعرفُ من ربِّنا منذ جاءنا رسوله الفتحَ والنصر حتى أتيناكم ، وإنَّا والله لا نرجعُ إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نفلِككم على ما في أيديكم ، أو نُقتلَ بأرضكم ، ثم قت وقد أُرْعِبْتُ المِلح .

ثم أمر النعمانُ بن مُقرِّن بالتعبئة ، فسارت جيوشُ المسلمين حتى التقوا بالفرس وَجْهًا لوجه .

فلما رآهم النعمانُ كَبَّرَ وكَبَّرَ الناسُ معه ، مما أوقع الرعبَ في قلوب الأعاجم .

فأمر النعمانُ بحطَّ الأتقال وبضرب الفُسْطاطِ ، فضرِبَ وهو واقف ، وتعاونَ على بنائه أشرافُ أهل الكوفة .

وأنشَبَ النعمانُ القتالَ بعد ما حطَّ الأتقال ، فاقتتلوا يومين والحربُ بينهم في ذلك

سِجَال . ثُمَّ انْجَحَرَ الْأَعَاجِمُ فِي خَنَادِقِهِمْ ، وَحَصَرَهُمُ الْمُسْلِمُونَ ، فَأَقَامُوا فِيهَا مَا شَاءَ
اللَّهُ ؛ لَا يَخْرُجُونَ إِلَّا إِذَا أَرَادُوا الْخُرُوجَ .

فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَخَافُوا أَنْ يَطُولَ أَمْرُهُمْ ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ
فِي جُمُعَةٍ مِنَ الْجَمْعِ تَجَمَّعَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَتَكَلَّمُوا وَقَالُوا : نَرَاهُمْ
عَلَيْنَا بِالْخِيَارِ ^(١) .

وَأَتَوْا الذِّمَّانَ فِي ذَلِكَ ، فَوَافَقُوهُ وَهُوَ يَرُؤِي ^(٢) فِي الَّذِي رَوَّاهُ فِيهِ ؛ فَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكُمْ لَا تَبْرَحُوا . وَبِئْسَ إِلَى مَنْ بَقِيَ مِنْ أَهْلِ النَّجْدَاتِ وَالرَّأْيِ فِي الْحُرُوبِ ،
فَتَوَافَوْا إِلَيْهِ .

فَتَكَلَّمَ الذِّمَّانُ وَقَالَ : قَدْ تَرَوْنَ الْمُشْرِكِينَ وَاعْتَصَمَهُمُ بِالْحَصُونِ مِنَ الْخَنَادِقِ
وَالْمَدَائِنِ ، وَأَنََّّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ إِلَّا إِذَا شَاءُوا ، وَلَا يَقْدِرُ الْمُسْلِمُونَ عَلَى إِخْرَاجِهِمْ
وَانْتِعَاشِهِمْ قَبْلَ مَشِيئَتِهِمْ ، وَقَدْ تَرَوْنَ الَّذِي فِيهِ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الصَّبْرِ لَذَلِكَ ، فَا الرَّأْيُ
الَّذِي بِهِ نَسْتَخْرِجُهُمْ إِلَى الْمُنَابَذَةِ ^(٣) وَتَرَكَ التَّطْوِيلَ ؟

فَتَكَلَّمَ عَمْرُو بْنُ مُبَيٍّ — وَكَانَ أَكْبَرَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ سِنًا ، وَكَانُوا إِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ
عَلَى الْأَسْنَانِ — فَقَالَ : التَّحَصُّنُ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مِنَ الْمَطَاوِلَةِ عَلَيْكُمْ ، فَدَعْهُمْ وَلَا تُخْرِجَهُمْ ،
وَطَاوِلْهُمْ ، وَقَابِلْ مَنْ أَتَاكَ مِنْهُمْ . فَرَدُّوا عَلَيْهِ جَمِيعًا رَأْيَهُ ، وَقَالُوا : إِنَّا عَلَى يَقِينٍ
مِنْ إِنْجَازِ رَبِّنَا مَوْعِدَهُ لَنَا .

وَتَكَلَّمَ عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبٍ فَقَالَ : نَاهِدْهُمْ وَكَأْتِرْهُمْ وَلَا تَخَفْهُمْ . فَرَدُّوا عَلَيْهِ
جَمِيعًا رَأْيَهُ ، وَقَالُوا : إِنَّمَا تُنَاطِحُ بَنَى الْجُدْرَانِ ، وَالْجُدْرَانُ لَهُمْ أَعْوَانُ عَلَيْنَا .

وَتَكَلَّمَ طَلْحَةَ الْأَسَدِيِّ ؛ فَقَالَ : قَدْ قَالَا وَلَمْ يُصَيِّبَا ؛ وَأَمَّا أَنَا فَأَرَى أَنَّ

(١) كانوا معتصمين بالحصون والمدائن والخنادق ويخرجون متى شاءوا .

(٢) يروى : يفكر (٣) المنابذة : المكاشفة .

تبعث خيلاً مؤدية ، فيجديقوا بهم ويرموهم لينشِبوا القتال ويحْمِشوهم^(١) ؛
فإذا استَحْمَشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أَرْزَوْا^(٢) إلينا استظرادا ؛ فإننا
لم نستطرد لهم في طول ماقاتلناهم . وإننا إذا فَعَلْنَا ذلك ، ورأوا ذلك منا طمعوا
في هزيمتنا ، ولم يشكّوا فيها ، فخرجوا فجاءونا وجادّونا ؛ حتى يَقْضِيَ الله فينا
وفيهما ما أحبّ ، فوافقوه على رأييه .

وأمر النعمان القَعْقَاع بن عمرو - وكان على الجردّة - فأنشَب القتال بعد احتجاز
من المعجم ؛ فلما خرجوا نكص ثم نكص ثم نكص ؛ واغتنمها الأعاجم ؛ ففعلوا كما ظنّ
طليحة ؛ وخرجوا ، فلم يبق أحدٌ إلّا من يقوم لهم على الأبواب ، وانقطعوا عن حصنهم
بعض الانقطاع ؛ والنعمان بن مقرن والمسلمون على تمبيتهم في يوم جمعة في صدر
النهار ، وقد عهد النعمان إلى الناس عهده ، وأمرهم أن يتركوا الأرض ولا يقاتلوه
حتى يأذنَ لهم ، ففعلوا . وأقبل المشركون عليهم يزموهم حتى أفسّوا فيهم الجراحات ،
وشكا بعضُ الناس ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى ما نحنُ فيه ؟ ألا ترى
إلى ما لقيَ الناسُ ؟ فما تَنْتَظِرُ بهم ! انْذَن للناس في قتالهم .

فقال لهم النعمان : رُوَيْدًا رويدا . وقالوا له ذلك مرارا ، فأجابهم بمثل ذلك
مرارا ؛ رُوَيْدًا رويدا . فقال المغيرة حين رأى كثرتهم : لم أركاليوم فشلا ؛ لو أن
هذا الأمرَ إلّا علمتُ ما أصنع ، فقال النعمان - وكان رجلاً ليلاً : رويداً تَرَى
أمرك ؛ وقد كنت تلي الأمر فتُحْسِن ؛ نفلاً يَحْذِلنا الله ولا إياك ؛ ونحن نرجو في
المكث مثل الذي ترجو في الحث .

(١) يحْمِشونهم : يفضضونهم ويدفعونهم إلى القتال . (٢) أَرْزَوْا إلينا : رجعوا لاجئين وتجمعوا .

وجعل التَّمانُ ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقى فيها العدوَّ وذلك عند الزَّوال وتفتيؤ الأفياء ومهبِّ الرياح . فلما كان قريبا من تلك الساعة تَحَشَّشَ^(١) التَّمانُ . وسار في الناس على بِرْدُونٍ أَحْوَى^(٢) قريب من الأرض ؛ فجعل ينف على كلِّ رَايَةٍ ، ويحمد الله ويثني عليه ، ويقول : قد علمت ما أعزَّكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظُّهور ، وقد أنجز لكم هَوَادِيَّ ما وعدكم وسُدُورَه ؛ وإِنَّمَا بَقِيَتْ أَعْجَازُه وأَكْرِعُه ؛ والله مُنْجِزٌ وَعَدَه ، ومُتَّبِعٌ آخر ذلك أَوَّلَه ، واذكروا ما مَفَى إِذ كنتم أَذِلَّةُ ، وما استقبلكم من هذا الأمر وأنتم أعزَّة ؛ فأنتم اليوم عبادُ الله حقًّا وأوليَّاؤه ، وقد علمتم انقطاعكم عن إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعِزِّكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلِّكم ، وقد تَرَوْنَ مَنْ أَنْتُمْ بِإِزَانِه من عدوِّكم ، وما أخطرتُم وما أخطروا لكم^(٣) ؛ فَأَمَّا ما أخطروا لكم فهذه الرُّثَّة^(٤) ، وما تَرَوْنَ من هذا السواد ، وأما ما أخطرتُم لهم فدينُكم وبَيْضَتُكم ؛ ولا سواء ما أخطرتُم وما أخطروا ؛ فلا يكونَنَّ على دنيائهم أحمى منكم على دينكم ، واتَّقَى الله عبدُ صدق الله وأبْلَى فأحسن البلاء ، فإنكم بين خير منتظرين به إحدى الحسينين ، من بين شهيد حتى مرزوق أو فتح قريب وظفر يسير ، فكفى كلَّ رجل منكم ما يليه ، ولم يَكِلْ قِرْنَه إلى أخيه ، فيجتمع عليه قِرْنُه وقِرْنُ نفسه وذلك من اللأمة ، وقد يقاتل الكلبُ عن صاحبه ، فكلُّ رجل منكم مُسَاطٌ على ما يليه ، فإذا قضيتُ أمري فاستمِدُّوا ، فَإِنِّي مُكَبَّرٌ ثَلَاثًا ، فإذا كَبُرَتِ التَّكْبِيرَةُ الأولى فَلْيَتَمَهَّيْ مَنْ لَمْ يَكُنْ تَهِيًّا ، فإذا كَبُرَتِ الثانية فليشدَّ عليه سلاحه ، وليتأهب للنهوض ، فإذا كَبُرَتِ

(١) تَحَشَّشَ : تَحَرَّك . (٢) أَحْوَى : أسود ضارب إلى الخضرة ، أو أحمر ضارب إلى السواد

(٣) أخطروا المال : جعلوه خطرا بين المتراخين .

(٤) الرُّثَّة : السقط من متاع البيت .

الثالثة فإنى حاملٌ إن شاء الله ، فاحملوا مَعَا ، اللهم أعِزِّ دينك ، وانصُرْ عبادك ،
واجعل النِّعمانَ أوَّلَ شهيدٍ اليوم على إعزاز دينك ونصْرِ عبادك !

فلما فرغ النِّعمان من التقدّم إلى أهل المواقف ، وقضى إليهم أمرهم رجع إلى موقفه ،
فكَبَّرَ الأولى والثانية والثالثة ، والناس سامعون مطيعون مستمدون للمناهضة .

وحمل النِّعمان وحمل الناس ، ورأى النِّعمان تنقضُ نحوهم انقضاضُ المُقَاب ،
والنِّعمان مُعْلِمٌ ببياض القباء والقلنسوة ، فاقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً ، لم يَسْمَعْ
السامعون بوقعة يوماً قط كانت أشدَّ منها .

فقتلوا فيها من أهل فارس بين الزَّوال والإعتام ، ما طبَّق أرضُ المعركة دماً
يَزَلُّقُ الناسُ والدوابُّ فيه ، وأصيب فُرْسَانٌ من فرسان المسلمين في الزَّلَق في
الدِّماء ، فزَلِقَ فرسُ النِّعمان فصُرعَ ، وأصيب النِّعمان حين زلق به فرسه وصُرعَ ،
وتناول زاية نُعَيْم بن مُقَرَّن أخوه قبل أن تَقَعَ ، وسَجَّى النِّعمان بثوبٍ ، وأتى
حذيفة بالرَّاية فدفَعها إليه - وكان اللِّواء مع حذيفة - فجعل حذيفة نُعَيْم بن مُقَرَّن
مكانه ، وأتى المكان الذي كان فيه النِّعمان فأقام اللِّواء ، وقال المغيرة: اكْتُمُوا مُصَابَ
أَمِيرِكُمْ حتى ننظرَ ما يصنعُ الله فينا وفيهم ؛ لكيلا يَهْرَنَ الناس .

واقْتَتَلُوا ، حتى إذا ظَلَمَ الليلُ انكشف المشركون . ومات منهم مائة ألفٍ أو
يزيدون ، ولم يُفْلِتْ إلا الشريد ، ونجَّى الفيرزان وهرب نحو هَمْدَانَ . ورآه نُعَيْم
ابن مُقَرَّن ، فدفع القمَّاع في أثره ، فأدركه حين انتهى إلى ثنية هَمْدَانَ ، والثنية مشحونة
من بغال وحِمْير ، مَوْقرة عَسَلًا عاقته عن الحرب ، وحبسته ، فقتل على الثَّنية بعدما
امتنع ، وقال المسلمون : إن لله جنوداً منها العَسَل .

ومضى الفُلال^(١) حتى انتهوا إلى مدينة هَمْدَانَ ، والخيلُ في آثارهم ، فدخلوها
فنزَلَ المسلمون عليهم وَحَوْوًا ما حَوَّها .

(١) الفلال : الجماعة المنهزمون .

ودخل المسلمون بعد هزيمة الشركين نَهَاوَنَد ، واحتَوُوا ما فيها وما حولها ،
وقسَّم حذيفة بن اليمان بَيْنَ الناس غنائمهم ، فكان سهم الفارس ستة آلاف ،
والرَّاجِل ألفين ، وتَقَلَّ مَنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَاءِ ، ورفع ما بقى مِنَ الْأَخْطَاسِ
إِلَى السَّائِبِ صَاحِبِ الْأَقْبَاضِ ، لِيَبْلُغَهَا إِلَى عُمَرَ ، وَيَشْرَهَ بِالْفَتْحِ .

قال السَّائِبُ : فلما فتح اللهُ على المسلمين نَهَاوَنَد أصابوا غنائمَ عظاماً ،
فواللهُ إِنِّي لَأَقْسِمُ بِبَنِ النَّاسِ إِذْ جَاءَنِي عِلْجٌ مِنْ أَهْلِهَا ، فقال : أَتُؤْمِنُنِي عَلَى نَفْسِي
وَأَهْلِي وَأَهْلِي بَيْتِي ، عَلَى أَنْ أُدْكَ عَلَى كَنْوَزِ آلِ كَسْرَى ، تَكُونُ لَكَ وَلِصَاحِبِكَ ،
لَا يَشْرَكَكَ فِيهَا أَحَدٌ ؟ قلت : نعم ، قال : فَأَبِئْتُ مَعِيَ مِنْ أُدْلِهِ عَلَيْهَا . فَأَتَى
بِسَفَطَيْنِ^(١) ، عَظِيمَيْنِ لَيْسَ فِيهِمَا إِلَّا اللَّوْلُؤُ وَالزَّبْرَجَدُ وَالْيَاقُوتُ . فلما فَرَعْتُ
مِنْ قَسَمِي بَيْنَ النَّاسِ احْتَمَلْتُهُمَا مَعِيَ ، ثُمَّ قَدِمْتُ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ . فقال :
ما وراءك يَا سَائِبُ ؟ فقلت : خَيْرٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ بِأَعْظَمِ الْفَتْحِ ،
وَاسْتَشْهَدَ النِّعْمَانُ بْنُ مُقَرَّرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون !
ثُمَّ بَكَى فَتَشَجَّ أَشَدَّ نَشِيجٍ . ثُمَّ قَامَ لِيَدْخُلَ ، فَقُلْتُ : إِنَّ مَعِيَ مَا لَا عَظِيمَا قَدْ جِئْتُ بِهِ .
ثُمَّ أَخْبَرْتُهُ خَبَرَ السَّفَطَيْنِ . فقال : أُدْخِلْهُمَا بَيْتَ الْمَالِ حَتَّى نَنْظُرَ فِي شَأْنِهِمَا ،
وَالْحَقُّ بِجُنْدِكَ .

قال : فَأَدْخَلْتُهُمَا بَيْتَ الْمَالِ وَخَرَجْتُ سَرِيحاً إِلَى الْكَوْفَةِ .

قال السَّائِبُ : وَبَاتَ عُمَرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي خَرَجْتُ فِيهَا ؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ بَعَثَ
فِي أَثَرِي رَسُولًا ، فَوَاللهُ مَا أَدْرَكْنِي حَتَّى دَخَلْتُ الْكَوْفَةَ ، فَأَنْخَتُ بِمِيزِي وَأَنَاخَ
بِمِيزِهِ مَعِيَ . فقال : الْحَقُّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدْ بَعَثَنِي فِي طَلَبِكَ ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكَ
إِلَّا الْآنَ .

(١) السفط : كالجواني أو كالقفة .

قال السائب له : وَيَسْلُكَ ! ماذا ؟ ولماذا ؟ قال : لا أَذْرى والله . فركبْتُ معه حتى قدمت عليه . فلما رَأَى قال : ما لي ولا بن أمِّ السائل ! بل ما لابنِ أمِّ السائب وما لي !

قلت : وما ذاك يا أميرَ المؤمنين ؟

قال : وَيَحْك ! والله ما هو إلا أن نَمِتُ في اللَّيْلَةِ التي خرجتَ فيها ، فباتت ملائكتُهُ ربي تَسْحَبُنِي إلى ذينك السَّعْطَيْنِ يَشْتَمِلَانِ ناراً ، يقولون : لنكويَنَّك بهما ؛ فأقول : إني سأقسمهما بين المسلمين . فخذُهما عَنِّي لا أَبَا لَكَ ! والحق بهما ، فبمعهما في أعطية المسلمين وأرزاقهم .

قال السائب : فخرجتُ بهما حتى وَضَعْتُهُمَا في مسجد الكوفة ، وغشيتُني التجار ، فابتاعهما مني عمرو بن حُرَيْثِ الخَزَوِيُّ بألفي ألف ، ثم خرج بهما إلى أرض الأعاجم ، فباعهما بأربعة آلاف ألف ، فما زال أكثرُ أهل الكوفة ما لا بعد .

٥١ - يوم الجمل*

لما قُتِلَ عثمان^(١)، رضى الله عنه اجتمع أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار، وفيهم طلحة^(٢) والزبير^(٣)، وأتوا عليًّا، وقالوا له: إنه لا بدَّ للناس من إمامٍ، فقال: لا حاجة لي في أمركم، فمن اختَرْتُم رَضِيتُ به. فقالوا: ما نختارُ غيرك، وتردّدوا إليه مراراً، وقالوا له في آخر الأمر: إنا لانعلمُ أحداً أحقَّ به منك، ولا أقدمَ سابقةً، ولا أقربَ قرابةً من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال: لا تفعلوا، فإني أكونُ وزيراً خيراً من أن أكونُ أميراً. فقالوا: والله ما نَحْنُ بفاعلين حتى نُبأيمَكَ، قال: ففى المسجد، فإن بيعةً لا تكون خفيةً، ولا تسكونُ إلّا فى المسجد.

فخرج إلى المسجد، وعاليه إزارٌ وعمامةٌ خزّ، متوكئاً على قوس، فبايعه الناس،

* تاريخ الطبرى ٥ : ١٥٢، تاريخ ابن الأثير ٣ : ٩٤، تاريخ ابن كثير ٧ : ٢٢٥. كان فى سنة ٣٦.

(١) قتل عثمان لثمانى عشرة أيلة خات من ذى الحجة سنة ٣٥.

(٢) هو طلحة بن عبيد الله القرشى التيمى، المعروف بطلحة الفياض. أسلم على يدى أبى بكر الصديق، ثم هاجر إلى المدينة، وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبى أيوب الأنصارى، ونشهد المشاهد كلها مع رسول الله إلا بدرأ، فإنه كان بالشام لتجارة، وكانت له فى أحد اليد البيضاء، وشلت يده بها حينما وفى بها رسول الله، فلما كانت قضية عثمان اعتزل عنه، وقتل يوم الجمل وعمره ستون عاماً: ابن كثير ٧ : ٢٤٧.

(٣) هو الزبير بن العوام بن خويلد الأسدى، أسلم وعمره خمس عشرة سنة، وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وأخى رسول الله بينه وبين سلمة بن سلامة، ونشهد المشاهد كلها مع رسول الله، وصحب أباً بكر فى خلافته وأحسن صحبته، وخرج مع الناس مجاهداً وشهد اليرموك وله فى ذلك اليوم بلاء مشهور، ودافع عن عثمان فى حصاره، وفى يوم الجمل ذكره على بأمر كان بينهما عند الرسول، فاعتزل القتال، وكر راجعاً إلى المدينة فقتله عمرو بن جرموز، ولما سمع على بذلك حزن عليه، ابن كثير ٧ : ٢٤٨.

(٢١ - أيام العرب فى الإسلام)

وكان أول من بايعه طلحة بن عبيد الله ، فنظر إليه حبيب بن ذؤيب ، فقال :
إنا لله ! أول من بدأ بالبيعة يده شلاء ! لا يتم هذا الأمر . وبايعه الزبير .
فقال لها عليّ : إن أحببتم أن تبايعاني ، وإن أحببتم بايعتكما ، فقالا :
بل نبايعك .

وجيء بسعد بن أبي وقاص ليبايع ، فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ،
والله ما عليك منى بأس ، فقال عليّ : خلوا سبيله .

وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، قال له عليّ :
انتهني بحميل^(١) ، قال : لا أرى لك حميلاً ، قال الأشر : خلّ عنّي أضرب عنقه ،
قال عليّ : دعوه ؛ أنا حميله ، إنك ما علمت لسيّ الخلق صغيراً وكبيراً .
وتخلف عنه جماعة من الأنصار ، وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام .

ولما تمت البيعة ، ورجع إلى بيته ، دخل عليه طلحة والزبير في عدد من الصحابة
فقالوا : يا عليّ ، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا
في قتل هذا الرجل ، فقال لهم : إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع
بقوم يملكوننا ولا يملكونهم ! ها هم أولاء قد ثارت معهم عُبدانكم ، وثابت إليهم
أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترؤن موضعاً لقدرة على شيء
مما تريدون ؟ قالوا : لا ، قال : فلا والله ، لا أرى لكم إلا رأياً ترؤنه إن شاء الله ،
إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن هؤلاء القوم مادة ، وذلك أن الشيطان لم يشرع
شرية قطّ فيبرح الأرض من أخذ بها .

(١) الحميل : الكفيل .

إنَّ الناس من هذا الأمر - إن خُركَ - على أمور : فرقة لا ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب موافقها ، وتؤخذ الحقوق ، فاهدوا عني ، وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا .

ثم اشتد على قريش ، وحال بينهم وبين الخروج ، وبخاصة حينما علم بهرب بني أمية . وتفرق القوم ، بعضهم يقول : والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار ، كترك هذا إلى ما قال علي أمثل ، وبعضهم يقول : تقضى الذى علمنا ولا تؤخره ، والله إن عاي لمستعن برأيه ، وأمره عناد ، لا نراه إلا سيكون على قريش أسد من غيره .

ثم رأى علي أن يكون أول أعماله عزل جميع ولادِ عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأنصار ، وقد حذره عاقبة ذلك المنيرة بن شعبة أولا وابن عباس ثانيا ، فأبى ذلك إباء تاما .

قال ابن عباس : دعاني عثمان فاستمع لى على الحج ، فخرجت إلى مكة ، فأقمت للناس الحج ، وقرأت عليهم كتاب عثمان إليهم ، ثم قدمت المدينة ، وقد بويع لى ، فأتيته فى داره ، فوجدت المنيرة بن شعبة مستخليا به ، فحبسنى حتى خرج من عنده ، فقلت : ماذا قال لك هذا ؟ فقال : قال لى قبل مرته هذه : أرسل إلى عبد الله بن عامر^(١) وإلى معاوية وإلى عمال عثمان بمهودهم ، وأقرهم على أعمالهم ليأبىعوا لك الناس ، فإنهم يهدئون البلاد ، ويسكنون الناس . فأبيت ذلك عليه يومئذ ، وقلت : لا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يؤلى . فانصرف من عندى وأنا أعرف

(١) كان عبد الله بن عامر والى عثمان بن بن عفان على البصرة .

فيه أنه يرى أنى مخطئ ، ثم عاد إلى الآن . فقال : إني أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت عليك ، وخالفته في فيه ، ثم رأيت بعد ذلك رأياً ، وأنا أرى أن تصنع الذى رأيت ، فتزعمهم وتستعين بمن تثق به ، فهم أهون شوكة مما كان .

قال ابن عباس : فقلت لعل : أما المرة الأولى فقد نصحتك ، وأما المرة الآخرة فقد غشك ، فقال على : ولم نصحنى ؟ قلت : لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا فنى تُدبِّثهم لا يباليوا بمن ولّى هذا الأمر ، ومتى تعرّض لهم يقولوا : أخذ الأمر بفير شورى ، ويؤلّبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق ، مع أنى لا آمن طلحة والزبير أن يكرّرا عليك .

فقال على : أمّا ما ذكرت من إقرارهم ، فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحها ، وأمّا الذى يلزم منى من الحقّ والعرفه بمعال عثمان فوالله لا أوّل أحدا منهم أبداً ، فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أذبروا بذلت لهم السيف .

قال ابن عباس : فأطعنى وادخل دارك ، والحق بمالك بينبوع ، وأغلق بابك عليك ، فإن العرب تجول جولةً وتضطرب ولا تجد غيرك ، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا .

فأبى على ، وقال لابن عباس : سرّ إلى الشام فقد وليتسكها . فقال ابن عباس : ما هذا برأى ؛ معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عمّ عثمان وعامله على الشام ، ولست آمناً أن يضرب عنق لعثمان ، أو يحبسنى فيتحكم على . فقال له على : ولم ؟ قال : لقرابة ما بينى وبينك ، وإن كلّ ما حُمِل عليك حُمِل على ، ولسكن اكتب إلى معاوية فنّه وعده ، فأبى على ، وقال : والله لا كان هذا أبداً .

ثم فرّق العمّال على الأمصار ، فبعث عثمان بن حُنيّف على البصرة ، وعمارة
ابن شهاب على الكوفة ، وعُبَيْد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سَعْد على
مصر ، وسهل بن حُنيّف على الشام .

فأما سهل فإنه خرج حتى إذا كان بتَبُوك لقيته خيّل ، فسأله : من أنت ؟
فقال : أمير على الشام . قالوا : إن كان عثمانُ بعثك فأهلاً بك ، وإن كان غيره
بعثك فارجع . قال : أو ما سمعتم بالذي كان ؟ قالوا : بلى ، فرجع إلى عليّ .

وأما قَيْسُ بن سَعْد فإنه سار حتى أتى مصر ، فافترق عليه أهلها فرقاً ، فرقة
دخلت في الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وَفَقَتْ واعتزلت وقالوا : إن قَتَلَ قتلةَ عثمان
فنعنن معكم ، وإلا فنحن على جَدِيلَتنا^(١) ، حتى نُحرِّك أو نصيب حاجتنا ، وفرقة
قالوا : نحن مع عليّ ، وكتب قيس بذلك إلى عليّ .

وأما عثمان بن حُنيّف فإنه سار حتى أتى البصرة ، ولم يرده أحدٌ عن دخولها ، ولم
يجد لابن عامر^(٢) في ذلك رأياً ولا استقلالاً بحرب ، وافترق الناس بها ، فاتبعت
فرقة القوم ، ودخلت فرقة في الجماعة ، وقالت فرقة : ننظر ما يصنع أهل المدينة ،
فنصنع كما صنعوا .

وأما عمارة فأقبل حتى إذا كان بزُبالة^(٣) لقيه طليحة بن خويلد الأسديّ ،
وكان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطّاب بدمه ، ويقول : لَهْفِي على أمرٍ
سَبَقَنِي ولم أدركه :

يَالَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ أَكْرُ فِيهَا وَأَضَعُ

(١) الجديلة : الشاكلة والناحية . (٢) كان والي عثمان عابها ، وهو عبد الله بن عامر .

(٣) زُبالة : منزل بطريق مكة من الكوفة ، وهي قرية عامرة بها أسوان (ياقوت) .

فطلع إليه مُنَمَّارة قَادِمًا على الكوفة ، فقال له : ارجع ، فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدًّا ، وإن أبيتَ ضَرَبْتُ عنقك ، فرجع مُعَادَةً إلى عليٍّ وأخبره الخبر .

وانطلق عُبيد الله بن عباس إلى اليمن ، فجمع يَمَلَى^(١) كل شئ من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال .

ولما رجع سَهْلُ بن حُنَيْفٍ من طريق الشام ، ورجع مَنْ رجع ، دعا عليَّ طلحة والزبير ، فقال : إن الذي كنت أحذركم قد وقع ، وإن الأمر الذي قد وقع لا يُدْرَك إلا بإماتته ، وإنها فتنة كالنار ، كلما سُمِّرت ازدادت واستنارت ، فقال له : فأذن لنا أن نخرج من المدينة ، فيما أن نكابر ، وإما أن تدعنا ، فقال : سأُتِمِّك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجِدْ بُدًّا فآخِرُ الدَّواءِ السَّيِّئ .

ثم أرسل إلى معاوية سَبْرَةَ الجُهَنِيَّ يطلبُ إليه أن يُبَايِعَ ، فلما قدم عليه لم يكتب معاوية بشئ ولم يُجِبْهِ ، حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، أراد معاوية أن يملنَ خلافتَه ، فدعا برجل من بني عَبَسَ ، فدفع إليه طوماراً^(٢) مختوماً عنوانه : « من معاوية إلى عليٍّ » .

وقال له : إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطُّومَارِ ، وارفعه حتى يراه الناس .

(١) هو يَمَلَى بن أمية والى عثمان على اليمن .

(٢) الطومار : الصحيفة .

فلما قدم العباسي المدينة رفع الطومار كما أمره معاوية ، وخرج الناس ينظرون ، فتهمزوا إلى منازلهم ، وقد علموا أن معاوية معترض ، ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي ، فسلمه الطومار ففقهه ، فلم يجد فيه شيئاً ، ثم سأل الرسول : ما وراءك ؟ قال : إني تركتُ قوماً لا يَرْضَوْنَ إلَّا بالقَوْد ، قال : مِمَّن ؟ قال : مِنْ خَيْطِ نَفْسِكَ ، وتركْتُ ستين ألف شيخٍ سيكون تحت قيص عثمان ، وهو منصوب لهم ، قد ألبسوه مِنْبَر دمشق . فقال علي : مَتَى يطالبون دَمَ عثمان ! أَلَسْتُ مَوْتُوراً كَثِيراً عثمان ! اللهم إني أُبْرَأُ إليك من دم عثمان ، نَجَا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله ، فإنه إذا أراد أمراً كان .

وأحبُّ أهل المدينة أن يعلموا ما رأى علي في معاوية وانتقاضه ، ليعرفوا بذلك رايه في قتال أهل القِبْلة ؛ أيجسُرُ عليه أو ينسكُلُ عنه - وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس - فدسّوا إليه زياد بن حنظلة التميمي ، فجالس إليه ساعة ثم قال له علي : يا زياد ، تيسّر^(١) ، فقال : لأى شيء ؟ قال : تغزو الشام ، فقال زياد : الأناة والرِّفقُ أمثل .

وَمَنْ لَمْ يَصْنَعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يُضَرَّسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْمِرٍ
فتمثل علي :

مَتَى تَجْمَعُ الْقُلُوبُ الذِّكْرَ وَصَارِمًا وَأَنْفًا حَمِيًّا تَحْتَظُّكَ الْمَظَالِمُ
نُفِرَجُ زِيَادَ عَلَى النَّاسِ ، فَسَأَلُوهُ عَمَّا وَرَاءَهُ ، فَقَالَ : السِّيفُ ؛ ثُمَّ دَعَا عَلِيَّ ابْنَهُ مُحَمَّدًا فَأَعْطَاهُ لَوَاءَهُ ، وَعَبَّأَ جُنْدَهُ ، وَاسْتَخْلَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ قُتَيْبَ بْنَ الْمُبَاسِ ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّهِيؤِ وَالتَّجَهُّزِ ، وَفِيمَا هُوَ فِي ذَلِكَ فَجَأَهُ أَمْرٌ عَاشِيَةٌ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ .

(١) تيسر ، أى أعدد نفسك .

كانت عائشة قد خرجت من المدينة وعثمان محصور بها ، وقصدت إلى مكة للحج ، ولما عازمت على العودة إلى المدينة لقيها يسرف^(١) عبد بن أم كلاب ، فقالت له : مهيم ! قال : قتلوا عثمان ، ومكثوا ثمانيا ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، واجتمعوا على عليّ أبي طالب ، فقالت : ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . ردوني إلى مكة . وانصرفت وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب : ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرقه لأنت ، ولقد كنت تقولين : اقتلوا أمثلاً^(٢) ، قد كفر ! قالت : إنهم استتأبوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

مِنْكَ الْبَدَاءُ وَمِنْكَ الْغَيْرُ	وَمِنْكَ الرِّيحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ	وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْمَنَّاكَ فِي قَتْلِهِ	وَقَاتِلُهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرَ
وَلَمْ يَسْقُطِ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِنَا	وَلَمْ يَنْكَسِفِ شَمْسُنَا وَالْقَمَرُ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تُدْرٍإٍ ^(٣)	يَزِيلُ الشَّيْبَ وَيُقِيمُ الصَّعْرَ
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا	وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قَدْ غَدَرَ

ثم انصرفت إلى مكة ، وهي لا تقول شيئاً ، حتى نزلت على باب المسجد ، فقصدت للحجر ، وسُتِرت فيه ، واجتمع الناس حولها ، فقالت : أيها الناس ، إن

(١) سرف : موضع من مكة على عشرة أميال .

(٢) أمثل : رجل من أهل مصر طويل اللحية ؛ قيل إنه كان يشبه عثمان ، وكان عثمان إذا نيل منه وعيب عليه شبه بهذا الرجل لطول لحيته ، ولم يكونوا يجدون فيه عيباً غير هذا — اللسان . ١٩٣ : ٤

(٣) يقال : رجل ذو تدراً وتدرأة ، أي مدافع ذو عز ومنعة .

الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظُلماً بالأمس ، ونَقِمُوا عليه استمهال مَنْ حَدَّثَ سُنَّهُ ، وقد استعمل أمثالهم من قبله ، ومواضع من الحِجَمَى حَمَّاهَا لهم فتابعهم ونَزَعَ لهم عنها. فلما لم يجدوا حُجَّةً ولا عذراً بَادَرُوا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، والله لَا صَبِغَ من عثمان خَيْرٌ من طَبَاقٍ (١) الأرض أمثالهم ، والله لو أن الذي اعتَدُوا به عليه كان ذنباً لَخَلَصَ منه كما يخلص الذهب من خَبَثِهِ أو الثوب من دَرَنِهِ ، إِذْ مَاصُوهُ (٢) كما يُمَاصُ الثوب بالماء .

فقال عبد الله بن عامر الحضرميَّ - وكان عامل عثمان على مكة - أنا أوَّلُ طالب ، فكان أوَّلُ مجيب ؛ وتبعه بنو أمية ، ممن هرب من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان ، ثم تبعهم سَعِيدُ بن العاص والوليد بن عُقْبَةَ وسائر بني أمية ، وقدم عليهم عبد الله ابن عامر من البصرة بمالٍ كثير ، وَيَعْلَى بن أمية من اليمن ، ومعه سِتْمائة بَعِيرٍ وسِتْمائة ألف درهم ، وَأَنَاخَ بِالْأَبْطَحِ (٣) .

وقدم طلحة والزُّبَيْرُ من المدينة ، فلقيا عائشة ، فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : إِنَّا تَحَمَّلْنَا (٤) هُرَاباً من المدينة ، من غوغاء وأعراب ، وفارقنا قوماً حَيَارَى ، لا يعرفون حقاً ، ولا يُنْكَرُونَ باطلاً ، ولا يَمْنَعُونَ أنفسهم ، فقالت : انهضوا إلى هذه الغوغاء .

ثم أخذوا يتداولون ويتشاورون أين يذهبون . قال بعضهم : نَذْهَبُ إلى الشام ، فقال ابن عامر : قد كفاكم الشام معاوية ، اتقوا البَصْرَةَ ، فإن لى بها

(١) طَبَاق : ملء .

(٢) الموص : الفسل بالأصابع ، أرادت أنهم استنابوه عما تقدموا منه فلما أعصاهم ما طلبوا قتلوه

(النهاية) .

(٣) الْأَبْطَح : مكان في مكة . (٤) تَحَمَّلْنَا : رحلنا .

صَدَائِعَ ، وَلَهُمْ فِي طَلْحَةَ هَوًى ، فَقَالُوا : قَبِّحَكَ اللَّهُ ! فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ بِالْمُسَالِمِ وَلَا بِالْمُحَارِبِ ، فَهَلَّا أَقَمْتَ كَمَا أَقَامَ مُعَاوِيَةُ فَنُكِّفَى بِكَ ، ثُمَّ نَأَى الْكُوفَةَ ، فَفَسَدَتْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمَذَاهِبُ ! فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ جَوَابًا ، ثُمَّ اسْتَقَامَ الرَّأْيُ عَلَى الْبَصْرَةِ .

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَدْرِي الذَّهَابَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ مَعَهَا أَزْوَاجُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَذَا الْقَصْدِ ، فَقَالُوا لَهَا : يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ ، دَعِيَ الْمَدِينَةَ ، فَإِنَّ مَنْ مَعَنَا لَا يُقَرَّرُونَ لِتِلْكَ الْفَوَاقِ الْوَعَاءِ الَّتِي بِهَا ، وَاشْخَعِي مَعَنَا إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَإِنَّا نَأَى بِلَدًا مُضَيِّعًا ، وَسَيَحْتَجُّونَ عَلَيْنَا فِيهِ بِبَيْعَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَتُنْهَضِينَهُمْ كَمَا أَنْهَضْتَ أَهْلَ مَكَّةَ ، ثُمَّ تَقْعَدِينَ ، فَإِنَّ أَصْلَحَ اللَّهِ الْأَمْرَ كَانَ الَّذِي تُرِيدِينَ ، وَإِلَّا احْتَسَبْنَا وَدَفَعْنَا عَنْ هَذَا الْأَمْرِ بِجَهْدِنَا حَتَّى يَقْضَى اللَّهُ مَا أَرَادَ ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا ذَلِكَ وَوَجَدَتْ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَكُونُ مُسْتَقِيمًا إِلَّا بِهَا قَالَتْ : نَعَمْ .

وَلَمَّا رَأَى أَزْوَاجُ الرَّسُولِ ذَلِكَ تَرَكَنَّ عَائِشَةَ ، إِلَّا حَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ فَإِنَّهَا رَأَتْ السَّيْرَ مَعَهَا .

وَلَمَّا عَلِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بِذَلِكَ طَلَبَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ تَقْعُدَ فَتَعْدَتْ ، وَبَعَثَ إِلَى عَائِشَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ حَالُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُرُوجِ ، وَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ لِيَسِيرَ مَعَهَا ، فَأَبَى وَقَالَ : أَنَا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، أَفْعَلُ مَا يَفْعَلُونَ . فَقَالَتْ : يَغْفِرُ اللَّهُ لِعَبْدِ اللَّهِ .

وَبَعَثَتْ أُمَّ الْفَضْلِ بِنْتَ الْحَارِثِ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ يَدْعَى ظَفَرًا ، وَاسْتَأْجَرَتْهُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ عَلِيًّا بِكِتَابِهَا ، وَيُخْبِرَهُ بِأَمْرِ الْقَوْمِ .

وَلَمَّا التَّامَ جَمْعُ الْقَوْمِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْخُرُوجُ قَالُوا : كَيْفَ نَسْتَقِلُّ وَلَيْسَ مَعَنَا مَالٌ

نَجَّهَرُ به الناس ، فقال يَمَلِي بن أُمَيَّة : مِئَةُ سِتْمِائَةِ أَلْفٍ وَسِتْمِائَةِ نَاقَةٍ فَارْكَبُوهَا ، وَجَهَّزْهُمْ ابنُ عَامِرٍ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ثُمَّ نَادَى الْمُنَادَى : إِنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ شَاخِصُونَ إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَمَنْ كَانَ يَرِيدُ إِعْزَازَ الْإِسْلَامِ ، وَالطَّلَبَ بِثَأْرِ عُثْمَانَ ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَرْكَبٌ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ جِهَازٌ فَهَذَا جِهَازٌ ، وَهَذِهِ نَفَقَةٌ .

فَحَمَلُوا سِتْمِائَةَ رَجُلٍ عَلَى سِتْمِائَةِ نَاقَةٍ سِوَى مَنْ كَانَ لَهُ مَرْكَبٌ ، وَكَانُوا جَمِيعًا أَلْفًا ، ثُمَّ نَادَوْا بِالرَّحِيلِ ، وَلَحَقَهُمُ النَّاسُ فَكَانُوا فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ رَجُلٍ .

وَلَمَّا خَرَجَتْ عَائِشَةُ مِنْ مَكَّةَ أَذِنَ مَرْوَانُ حِينَ فَصَلَ مِنْهَا ، ثُمَّ جَاءَ إِلَى طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرِ فَقَالَ : عَلَى أَيِّكُمَا أَسْلَمَ بِالْإِمْرَةِ ، وَأُذِنَ بِالصَّلَاةِ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ : عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي الزَّيْبِرَ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ : عَلَى أَبِي مُحَمَّدٍ ^(١) - . يَعْنِي طَلْحَةَ . فَأَرْسَلَتْ عَائِشَةُ إِلَى مَرْوَانَ وَقَالَتْ : مَا لَكَ ؟ أَتَرِيدُ أَنْ تُفَرِّقَ أَمْرَنَا ! لِيَصِلَ ابْنُ أُخْتِي ، فَكَانَ يَصِلُ بِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْبِرِ ، حَتَّى قَدِمَ الْبَصْرَةَ .

ثُمَّ شِيعَ عَائِشَةُ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى ذَاتِ عِرْقٍ ^(٢) ، فَسَكَّوْا عَلَى الْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَرَوْا يَوْمَ كَانَ أَكْثَرُ بَاكِيًا وَبَاكِيَةً مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَكَانَ يُسَمَّى يَوْمَ النَّحِيبِ .

وَفِي ذَاتِ عِرْقٍ لَقِيَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ وَأَحْبَابَهُ بِهَا فَقَالَ : أَيْنَ تَذْهَبُونَ وَتَتْرَكُونَ ثَمَارَكُمْ عَلَى أَعْجَازِ الْإِبِلِ وَرَاءَكُمْ - يَعْنِي عَائِشَةَ وَطَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ - اقْتُلُوهُمْ ، ثُمَّ ارْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ ، فَقَالُوا : نَسِيرُ ، فَلَمَلْنَا نَقْتُلُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ جَمِيعًا .

ثُمَّ خَلَا سَعِيدُ بْنُ طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ ، فَقَالَ : إِنْ ظَفَرْتُمَا لَمَنْ تَجْعَلَانِ الْأَمْرَ ؟

(١) رَوَى عَنْ مَعَاذِ بْنِ عُبَيْدٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَوْ ظَفَرْنَا لَأَقْتُلْنَا ، مَا كَانَ الزَّيْبِرُ يَتْرِكُ طَلْحَةَ وَالْأَمْرَ ، وَلَا كَانَ طَلْحَةُ يَتْرِكُ الزَّيْبِرَ وَالْأَمْرَ ،

(٢) ذَاتُ عِرْقٍ : مَكَانٌ بِالْبَادِيَةِ مَقَامَاتُ الْمُرَاقِبِينَ .

اصدُقَانِي . قالوا : نجمله لأحدنا ، أَيْنا اختاره الناسُ . قال : بل تجملانه لولد عثمان ؛ فإنكم خرجتم تطلبون بدمه ، فقالوا : ندع شيوخَ المهاجرين ، ونجملها لأبنائهم الأيتام ! قال : فلا أراي أُسعى إلّا لإخراجها من بني هبذ مناف . ثم رجع ، ورجع معه عبدُ الله بن خالد بن أسيد ، فقال المغيرة بن شعبه : الرَّأْيُ ما رَأَى سَعِيدٌ ؛ مَنْ كان هنا من ثقيف فليرجع ، فرجع مَنْ كان معهم من ثقيف .
وأعطى يَمَلَى بن منية عائشة جلا اسمه عسكر ، كان اشتراه بثمانين ديناراً^(١) ، فركبته ، وارتحلوا جميعاً نحو البصرة ، فلما كانوا بفنائها لقيهم عُمر بن عبد الله التيمي ، وقال : يا أُمّ المؤمنين ؛ أنشدك الله أن تقدّم اليوم على قوم لن ترأسلى منهم أحداً ، فمَجَلَى ابنَ عامر ، فإنّ له بها صَنَائِعَ ، فليذهب إليهم ليلتقوا الناس إلى أن تقدّم ، ويسمعوا ما جئتم به ، فأرسلته ، فاندس إلى البصرة ، وأتى القوم ، وكتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة وإلى الأحنف بن قيس وإلى غيره من وجوه القوم ، وأقامت بالحفير^(٢) تَنْتَظِرُ الجوابَ .

(١) روى الطبري حديثاً آخر في أمر الجمل : « عن صفوان بن قبيصة الأحسي قال : حدثني العرنى صاحب الجمل قال : بينما أنا أسير على جبل إذ عرض لي راكب ، فقال : يا صاحب الجمل ؛ تبّيع جملك ؟ قلت : نعم ، قال : بكم ؟ قلت : بألف درهم ، قال : مجنون أنت ! جلّ يباع بألف درهم ! قال : قلت : نعم ، جلي هذا ! قال : ومم ذلك ؟ قلت : ما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبي وأنا عليه أحد قط إلا فته ، قال : لو تعلم أن أريده لأحسنت بيعنا ، قال : قلت : ولئن أريده ، قال : لأمك ، قلت : لقد تركت أُمّي في بيتها قاعدة ما تريد براحا ، قال : لما أريده لأم المؤمنين عائشة ، قلت : فهو لك ، فغذه بغير ثمن ، قال : لا ولكن ارجع معنا إلى الرجل فلنعطك ناقه مهرية ، ونزيدك دراهم ، قال : فرجعت ، فأعطاني ناقه لها مهرية ، وزادوني أربعمئة أو ستمئة درهم ، ثم قال لي : يا أخت عرينة ، هل لك دلالة بالطريق ؟ قلت : نعم ، أنا من أدل الناس ، قال : فسر معنا . فسرت معهم ، فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألوني عنه ؛ حتى طرقتنا ماء الحوَاب ، فنبهتنا كلابها ، قالوا : أُمّي ماء هذا ؟ قلت : ماء الحوَاب ، قال : فصرخت عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ، ثم قالت : أنا والله صاحبة كلاب الحوَاب طرّوا ردوني ، تقول ذلك بلاناً ، فأناخت وأناخوها ، وهم على ذلك ، وهمي تأني ، حتى كانت الساعة التي أناخوها فيها من القد ، جاءها ابن الزبير ، النجاء النجاء ! فقد أدرككم والله على بن أبي طالب . »

(٢) الحفير : موضع بين مكة والبصرة .

ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن حصين - وكان رجلاً عامة - وأزمه بأبي الأسود الدؤلي - وكان رجل خاصة - وقال لهما : انطلقا إلى هذه المرأة ، فاعلمَا عِلْمَهَا ، وعِلْمَ مَنْ مَعَهَا ، فخرجا حتى انتهيا إليها بالحفير ، فأذنت لهما ، فدخلوا وسلمَا ، وقالَا : إن أميرنا بمثنا إليك لنسألك عن مسيرك ، فهل أنت مُخْبِرُنا ؟ فقالت : والله ما مثلي يُنطى لبنيه الخبر ، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا رِثَةٍ ولا عُذر ، فاستحلوا الدَّم الحرام وسفكوه وانهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراس والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مُضِرِّين ، غير نافرين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا ، وقرأت : ﴿ لا خَيْرَ في كثير من نَجْوَاهم إلا مَنْ أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ ^(١) ، فهذا شأننا إلى معروف نأمرُكم به ، ومُنكَرٍ ننهاكم عنه .

ثم خرج أبو الأسود وعمران من عندها ، حتى أتيا طلحة ، فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلبُ بدم عثمان قالَا : أَلَمْ تَبَايَعْ عليا ؟ قال بلى واللَّجُّ ^(٢) في عنق ، وما أستقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان .

ثم أتيا الزبير ، فقالا : ما أقدمك ؟ قال : الطلبُ بدم عثمان ، قال : ألم تبايع عليا ؟ قال : بلى واللَّجُّ في عنق ، وما أستقبل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان .

ثم رجعنا إلى عائشة فودعناها ، وودعت عمران ، وقالت : يا أبا الأسود ، إياك أن يعودك الهوى إلى النار ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾^(١) ثم سرحتهما ، ونادى مناديهما بالرَّحِيل ، ومضى الرجلان حتى دخلا على عثمان بن حنيف ، فبدرأبو الأسود عمران فقال :

يا بن حُنَيْفٍ قَدْ أَتَيْتُ فَاثْفِيرَ

فقال عثمان : إنا لله وإنا إليه راجعون ! دارت رَحَى الإسلام وربُّ الكعبة ! أشرُّ علىَّ يا عمران ، قال : إني قاعد فاقمد ، فقال عثمان : بل امنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين على . قال عمران : بل يحكم الله بما يريد . وانصرف إلى بيته ، وقام عثمان فى أمره ، فأتاه هشام بن عامر ، فقال : يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يُسَلِّم إلى شرٍّ ما تكره ، إن هذا إلا فتق لا يُرْتَق ، وصدع لا يجبر ، فسأحهم حتى يأتى أمرٌ على ولا تحاذم ، فأبى ؛ ونادى عثمان فى الناس ، وأمرهم بالتهَيُّؤ ، ولبسوا السلاح ، واجتمعوا إلى المسجد الجامع .

وأقبل عثمان ، ودسَّ إلى الناس قيس بن المقدية ، ليعرف ما عندهم ، فقال : إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم ، إن كانوا جاءوكم خائفين ، فقد جاءوا من المكان الذى يأمن فيه الطير ، وإن كانوا جاءوا يطلبون بدم عثمان ، فما نحن بقتلِ عثمان ، أطمعنون فى هؤلاء القوم ، فردُّوهم من حيث جاءوا . فقام الأسود بن سريع السَّمْدَى ، فقال : ما زعموا أنَّا قتلة عثمان ! فإنَّما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلِ عثمان منا ومن غيرنا ، فَحَصَبَهُ^(٢) الناس ، فمرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصراً .

(١) اللاندة ٨ . (٢) حصبه : رماه بالحصى .

وأقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد^(١) ، ودخلوا من أعلاه ، أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان بن حنيف فيمن معه ، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج ويكون معها ، واجتمعوا بالمربد حتى غصّ بالناس ، وكان طلحة والزبير في ميمنة المربد ، وعثمان في ميسرته .

ثم وقف طلحة ، وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر عثمان وفضله ، والبلد وما استحل منه ، وعظم ما أتى إليه ، ودعا إلى الطلب بدية ، وحشهم عليهم ؛ وقال : إن في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسُلْطَانِه ، وأما الطلّبُ بدم الخليفة المظلوم فإنه حدثٌ من حدود الله ، وإنسكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمرُكم إليكم ، وإن ترَكتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام .

وتسكّم الزُّبَيْرُ بمثل ذلك ، فقال مَنْ في المَيْمَنَةِ : صدَقا وبرّا وقالَا الحق ، وأمرًا به .

وقال مَنْ في اليسرة : فَجَرَا وَغَدَرَا وقالَا الباطل وأمرًا به . قَدْ بَايَعَا ثُمَّ جَاءَا يَقُولَانِ مَا يَقُولَانِ ! وَتَحَايَا^(٢) النَّاسُ وَتَحَاصَبُوا^(٣) وَأَرْهَجُوا^(٤) .

فتسكّمت عائشة ، وكانت جَهْورِيَّة يَعْلُو صَوْتُهَا كَثْرَةً ، كأنه صوت امرأة جلييلة ، وسجدت الله وأُثْمِنَتْ عَلَيْهِ وقالت : كان الناسُ يتجنّون على عثمان ، ويُرْزُون على عمّالِه ، ويَأْتُونَنَا بِالْمَدِينَةِ فَيَسْتَشِيرُونَنَا فِيمَا يُخْبِرُونَنَا عَنْهُمْ ، فننظر من ذلك فنجدُه بَرِيًّا تَقِيًّا وَفِيًّا ، ونجدُهم فَجَرَةً غَدَرَةً كَذَبَةً ، يحاولون غيرَ ما يُظهرون ، فلما قَوُوا على المَكَاثِرَةِ كَاثَرُوهُ ، فافتحموا عليه دَارَهُ ، واستحلُّوا الدَّمَ الحَرَامَ والمَالَ الحَرَامَ

(١) المربد : محلة عظيمة بينها وبين البصرة ثلاثة أميال .

(٢) تحايى الناس : رى بعضهم بعضاً بالتراب . (٣) تحاصبوا : رى بعضهم بعضاً بالحصاء .

(٤) أرهجوا : أثاروا الفبار .

والبلد الحرام ، بلا ترّة ولا عذر ، ألا إن مما ينبئني ، لا ينبئني لكم غيره ، أخذ قتل عثمان ، وإقامة كتاب الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نُصِيْبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ (١) .

فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين ، فقالت فرقة : صدقت والله وبرّت ، وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتُم والله ما نعرف ما تقولون .

فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدَر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان بن حنيف حتى وقفوا بالمربد ، وبقي أصحاب عثمان يتدافعون حتى تماجزوا ، ثم مال بعضهم إلى عائشة ؛ وأخذ عثمان ومن معه الطريقَ إلى المسجد

ثم أقبل جارية بن قدامة السعديّ نحو عائشة ، وقال : يا أمّ المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهونُ من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عُرْضةً للسلّاح ، إنّه قد كان لك من الله سترٌ وحُرمةٌ ، فهتكتِ سترك ، وأبختِ حُرمتك ، إنّه من رأى قتالك فإنه يرى قتلَك ، إن كنتِ خرّجتِ طائفةً فارّجى إلى منزلِك ، وإن كنتِ أتيتنا مُستكرّهة فاستعيني بالنّاس .

وخرج شابٌّ من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال : أمّا أنت يازبير فحوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمّا أنت ياطلحة فوقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدك يوم أحد ، وأرى أمّا معك ، فهل جئتما بدسائكما ؟ قالّا : لا ، قال : فما أنا منكما في شيء . ثم قال :

سُنْتُمْ حَلَائِلُكُمْ وَقُدْتُمْ أَمَكُمْ هَذَا لَعْمَرُكَ قِلَّةُ الْإِنصَافِ
أَمَرْتُ بِجَرِّ ذِيُولَهَا فِي بَيْتِهَا فَهَوَتْ تَشْقُ الْيَبَدَ بِالْإِيحَافِ (٢)

(١) آل عمران ٢٣ . (٢) الإيحاف : ضرب من سير الخيل والإبل .

غَرَضًا يُقَاتِلُ دُونَهَا أَبْنَاؤُهَا بِالنَّهْلِ وَالْخَطِيّ وَالْأُسْيَانِ
هَتَيْكَتْ بِطُلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ سَتُورُهَا هَذَا الْخَبْرُ عَنْهُمْ وَالْكَافِ
وَأَقْبَلَ غُلَامٌ مِنْ جُهَيْنَةَ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ طُلْحَةَ - وَكَانَ مُحَمَّدٌ رَجُلًا عَابِدًا - فَقَالَ :
أَخْبِرْنِي عَنْ قَتْلَةِ عُمَانَ ، فَقَالَ : نَعَمْ . دَمُ عُمَانَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَثْلَاثٍ : ثَلَاثٌ عَلَى صَاحِبَةِ
الْهُودُجِ - يَعْنِي عَائِشَةَ - وَثَلَاثٌ عَلَى صَاحِبِ الْجَلِ الْأَحْمَرِ - يَعْنِي طُلْحَةَ أَبَاهُ ،
وَثَلَاثٌ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ فَقَالَ الْمُسْلِمُ : لَا أَرَانِي عَلَى ضَلَالٍ . وَلِحَقٍّ
بِعَلِيٍّ ، وَقَالَ :

سَأَلْتُ ابْنَ طُلْحَةَ عَنْ هَالِكٍ بِجَوْفِ الْمَدِينَةِ لَمْ يُقْبَرْ
فَقَالَ : ثَلَاثُهُ رَهْطٌ هُمْ أَمَاتُوا ابْنَ عَفَّانَ وَاسْتَمْعَبُوا
فَثَلَاثٌ عَلَى تِلْكَ فِي خِيَدِهَا وَثَلَاثٌ عَلَى رَاكِبِ الْأَحْمَرِ
وَثَلَاثٌ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَنَحْنُ بِدَوِّيَّةٍ قَرَقَرِ
فَقُلْتُ صَدَقْتَ عَلَى الْأَوَّلِينَ وَأَخْطَأْتَ فِي الثَّالِثِ الْأَزْهَرِ

وَأَقْبَلَ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ وَهُوَ عَلَى الْخَيْلِ ، فَأَنْشَبَ الْقِتَالَ مَعَ أَصْحَابِ عَائِشَةَ ، وَقَاتَلَهُمْ
أَصْحَابُ عَائِشَةَ إِلَى أَنْ حَبَزَ بَيْنَهُمَا اللَّيْلُ ؛ وَأَمَرَتْ عَائِشَةُ أَصْحَابَهَا فَتَيَّامَنُوا إِلَى مَقْبَرَةِ
بَنِي مَازِنَ ؛ وَرَجَعَ عُمَانُ إِلَى الْقَصْرِ ؛ وَرَجَعَ النَّاسُ إِلَى قِبَائِلِهِمْ .
وَجَاءَ أَبُو الْجُرَبَاءِ التَّمِيمِيُّ ، فَأَشَارَ عَلَى طُلْحَةَ وَمَنْ مَعَهُ بِمَكَانٍ أَمْثَلُ مِنْ مَكَانِهِمْ ،
فَسَارُوا إِلَى مَقْبَرَةِ بَنِي حِصْنٍ ، وَبَاتُوا يَتَأَهَّبُونَ لِلْحَرْبِ .
وَأَصْبَحَ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ فَنَادَاهُمْ وَهُوَ يَسُبُّ فِي يَدِهِ الرَّمْحَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ
عَبْدِ الْقَيْسِ : مَنْ هَذَا الَّذِي تَسُبُّهُ وَتَقُولُ لَهُ مَا أَسْمَعُ ؟ قَالَ : عَائِشَةُ . قَالَ : يَا بَنَ الْخَبِيثَةِ ؛

أَلَا تَرَى الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُونَ هَذَا؟ فَوَضَعَ حَكِيمُ السَّنَانِ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ فَقَتَلَهُ. ثُمَّ لَامَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَتَلَهَا.
ثُمَّ اجْتَمَعَ الْفَرِيقَانِ ، وَاقْتَتَلَا قِتَالًا شَدِيدًا مِنْ حِينَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ إِلَى أَنْ زَالَ
النَّهَارُ ؛ وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِي أَصْحَابِ ابْنِ حُنَيْفٍ ، وَفَشَّتِ الْجِرَاحَةُ فِي الْفَرِيقَيْنِ ، وَمَنَادَى
عَائِشَةُ يَنَاشِدُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْكَفِّ فَيَأْتُونَ ؛ حَتَّى إِذَا مَسَّهِمُ الشَّرِّ وَعَضَّهِمْ ، نَادَوْا
أَصْحَابَ عَائِشَةَ إِلَى الصَّلَاحِ ؛ فَأَجَابُوهُمْ ، وَتَهَادَنُوا وَتَوَاعَدُوا ، وَكَتَبُوا بَيْنَهُمْ كِتَابًا اشْتَرَطُوا
فِيهِ أَنْ يَبْعَثُوا رَسُولًا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَسْتَخْبِرَ أَهْلَهَا ، فَإِنْ كَانَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ قَدْ أَكْرَهَا
عَلَى بَيْعَةٍ عَلَى خُرُوجِ عُثْمَانَ وَأَخْلَى لَهَا الْبَصْرَةَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُونَا أَكْرَهَا خَرَجَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ ؛
وَهَذَا كِتَابُ الْوَادَعَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَعُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ : إِنْ عَثَرَ عُثْمَانُ يَقِيمُ
حَيْثُ أَدْرَكَهُ الصَّلَاحُ عَلَى مَا فِي يَدِهِ ، وَإِنْ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ يَقِيمَانِ حَيْثُ أَدْرَكَهُمَا الصَّلَاحُ
عَلَى مَا فِي أَيْدِيهِمَا ؛ حَتَّى يَرْجِعَ أَمِينُ الْفَرِيقَيْنِ وَرَسُولُهُمْ كَعْبُ بْنُ سَوْرٍ مِنَ الْمَدِينَةِ ،
وَلَا يُضَآرُّ وَاحِدٌ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ الْآخَرَ فِي مَسْجِدٍ وَلَا سَوْقٍ وَلَا طَرِيقٍ وَلَا فُرْصَةٍ ، حَتَّى
يَرْجِعَ كَعْبٌ بِالْخَبَرِ ؛ فَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّ الْقَوْمَ أَكْرَهُوا طَلْحَةَ وَالزَّيْبِرَ فَلْأَمْرُ أَمْرُهَا ،
وَإِنْ شَاءَ عُثْمَانُ خَرَجَ حَتَّى يَلْحَقَ بِطَيْبَتِهِ ، وَإِنْ شَاءَ دَخَلَ مَعَهُمَا . وَإِنْ رَجَعَ بِأَنَّهُمَا لَمْ
يُكْرَهَا فَلْأَمْرُ أَمْرُ عُثْمَانَ ، فَإِنْ شَاءَ طَلْحَةُ وَالزَّيْبِرُ أَقَامَا عَلَى طَاعَةِ عَلِيٍّ ، وَإِنْ شَاءَا
خَرَجَا حَتَّى يَلْحَقَا بِطَيْبَتِهِمَا .

وَخَرَجَ كَعْبٌ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ لِقُدُومِهِ ، فَقَامَ كَعْبٌ
فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَيْكُمْ ؛ أَأَكْرَهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ عَلَى بَيْعَةٍ
عَلَى ، أَمْ أَتَيَاهَا طَائِعِينَ ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ؛ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَإِنَّهُ
قَامَ فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَمْ يَبَايَعَا إِلَّا وَهَاهُنَا كَارِهَانِ ؛ فَوَائِبُهُ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَالنَّاسُ

حتى خشي عليه أصحابُ رسول الله القتلَ فقاموا لينموه ، فانفرج عنه الناس .
وأخذ صُهَيْبُ بْنُ سِنَانٍ بيده حتى أخرجه ثم أدخله منزله ، وقال : أَمَا وَسِعَكَ
مَا وَسِعْنَا مِنَ السَّكُوتِ ! قَالَ : لَا ؛ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ الْأَمْرَ يَتَرَامَى إِلَى
مَا رَأَيْتُ .

ثم رجع كَعْبٌ إِلَى الْبَصْرَةِ بِمَا وَقَفَ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ . وَبَلَغَ عَلِيًّا الْخَبْرُ الَّذِي كَانَ
بِالْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ ، فَبَادَرَ بِكِتَابٍ إِلَى عُمَانَ يَقُولُ فِيهِ : وَاللَّهِ مَا أَكْرَهَا عَلَى فِرْقَةٍ ،
وَلَقَدْ أَكْرَهَا عَلَى جَمَاعَةٍ وَفَضَّلَ ، فَإِنْ كَانَا يَرِيدَانِ الْخُلْعَ فَلَا عَذْرَ لَهَا ، وَإِنْ كَانَا
يَرِيدَانِ غَيْرَ ذَلِكَ نَظَرْنَا وَنَظَرَآ .

وَقَدَّمَ الْكِتَابُ عَلَى عُمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ وَقَدَّمَ كَعْبُ ، فَأَرَادَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ تَنْفِيذَ
الشَّرْطِ ، وَأَرْسَلَا إِلَى عُمَانَ : أَنْ أَخْرِجَ عَنَّا ، فَاحْتَجَّ عُمَانُ بِالْكِتَابِ وَقَالَ :
هَذَا أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ مَا كُنَّا فِيهِ .

وَجَمَعَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ الرَّجَالَ فِي لَيْلَةٍ مَظْلَمَةٍ بَارِدَةٍ ، ذَاتَ رِيَّاحٍ وَنَدَى ، ثُمَّ
قَصَدَا الْمَسْجِدَ ، فَوَافَقَا صَلَاةَ الْعِشَاءِ ، وَكَانُوا يُؤَخِّرُونَهَا ، فَأَبْطَأَ عُمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ ،
فَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَّابٍ لِلصَّلَاةِ ، فَشَمَّرَ أَصْحَابُ عُمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ السَّارِحَ ،
فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ، وَاقْتَتَلُوا بِالْمَسْجِدِ ؛ حَتَّى قَتَلُوهُمْ . ثُمَّ ادْخَلَا الرَّجَالَ عَلَى عُمَانَ لِيُخْرِجُوهُ
فَأَخْرَجُوهُ إِلَيْهِمَا ، وَمَا بَقِيَتْ فِي وَجْهِهِ شَعْرَةٌ بَعْدَ أَنْ ضَرَبُوهُ أَرْبَعِينَ سَوْطًا .

فَاسْتَمَظَا ذَلِكَ ، وَأَرْسَلَا إِلَى عَائِشَةَ بِالَّذِي كَانَ ، وَاسْتَظَلَّهَا رَأْيُهَا ؛ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِمَا
أَنْ خَلُّوا سَبِيلَهُ ، فَلْيَذْهَبْ حَيْثُ شَاءَ ؛ وَلَا تَحْبِسُوهُ ، فَضَى عُمَانُ حَيْثُ لَحِقَ بِعَلِيٍّ ،
وَصَلَّى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَتَّابٍ بِالنَّاسِ الْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ .

وَأَصْبَحَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَبَيْتُ الْمَالِ وَالْحَرَسُ فِي أَيْدِيهِمَا ، وَالنَّاسُ مَعَهُمَا ،
وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمَا مَغْمُورٌ . وَأَصْبَحَ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ فِي خِيَلِهِ ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ عَبْدِ قَيْسٍ

ومن نَزَعَ إليهم من أفناء ربيعة ، وقد بلغه ما فعل عثمان بن حنيف فقال :
لست بأخيه إن لم أنصره ؛ ثم توجه نحو دار الرزق ؛ وبها طعام أراد عبد الله
ابن الزبير أن يُعطيه أصحابه ، فقال له عبد الله : مالك يا حكيم ؟ قال : نريد أن
نرتق من هذا الطعام ، وأن تخلّوا عثمان فيقيم في دار الإمارة ، على ما كتبتم بينكم
حتى يقدم عليّ ، وإني لله لو أجد أعواناً عليكم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم
بمن قتلتم ، ولقد أصبحتم وإن دماءكم حلالٌ لنا بمن قتلتم ؛ أما تخافون الله ؟
يَمَ تستحلّون الدّم الحرام ؟ قال : يدّم عثمان بن عفان . قال : فالذين قتلتم هم قتلّة
عثمان ؟ أما تخافون ممّت الله ؟ فقال له عبد الله : لا نرزقكم من هذا الطعام ،
ولا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى نخلع عليّ ، فقال حكيم : اللهم إني
حكّم عدل فاشهد . وقال لأصحابه : لست في شك من قتال هؤلاء القوم ،
فن كان في شك فليَنصِرْ ، وتقدّم ليقَاتِلهم .

فقال طلحة والزبير : الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة ؛ اللهم
لا تبق منهم أحداً ، وأقِدْ منهم ، ثم اقتتلوا أشدّ قتال ، وجعل حكيم يضرب
بالسيف ويقول :

أُضْرِبُهُمُ بِالْيَاسِرِ ضَرْبَ غَلَامٍ عَاسِرٍ

فضرب رجلٌ رَجُلَهُ فَقَطَعَهَا ، ثم قُتِلَ وَهُزِمَ أصحابه ، ولم يفلت إلا حُرْقُوص
ابن زهير في نفر من أصحابه ، فلجئوا إلى قومهم . ونادى منادى طلحة والزبير :
إن كان في قبائلكم أحدٌ يَمَنُ غزا المدينة فلتأتونا بهم ، فجئ بهم أَذِلّاءُ
فَقُتِلُوا .

ثم أَمَرَ للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم ، وَفَضَّلَا بِالْفَضْلِ أَهْلَ السَّمْعِ
والطاعة .

ثم كتبوا لأهل الشام بما صَنَعُوا وصاروا إليه ، فقالوا : إنا خرجنا لوضعِ الحرب وإقامةِ كتابِ الله عزَّ وجلَّ ، بإقامةِ حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل ، حتى يكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ هو الذي يردُّنا عن ذلك ، فبايعنا خيارُ أهل البصرة ونَجَبائِهِمْ ، وخالفنا شِرَارَهُمْ ونَزَاعُهُمْ ، فردُّونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : نأخذُ أمَّ المؤمنين رهينةً أَنْ أمرَتهُمْ بالحقِّ وحشَّتهُم عليه ، فأعطاهم اللهُ سنَّةَ المسلمين مرةً بمدة مرة ، حتى إذا لم يَبْقَ حُجَّةٌ ولا عُذْرٌ استبسل قَتْلَةُ أمير المؤمنين ، فخرجوا إلى مضاجعهم ، فلم يُفْلِتْ منهم إلا حَرَقَوْص ، والله تعالى مُقَيِّدُهُ إِنْ شاء اللهُ .

وإنا نناشدكم الله في أنفسكم إِنْ أنْهَضْتُمْ بِمِثْلِ مَا نَهَضْنَا بِهِ ، فنلقَى اللهُ عز وجل وتلقَوْنَهُ ، وقد أَعْدَرْنَا وَقْصَيْنَا الذي علينا .

وبعثوا به مع سَيَّارِ العَجَلَى ، وكتبوا إلى أهل الكوفة بمثله ، وإلى أهل اليمامة والمدينة ، وكتبت عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طَوَّلَتْهُ ، وحَشَّتهُمْ على مُتَابَعَتِهَا .

ولما أتَى عَلِيٌّ الخَبْرُ دعا إليه وجوه أهل المدينة ، وخطبهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنَّ آخِرَ هذا الأمرِ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صَلَّحَ بِهِ أَوَّلُهُ ، فانصروا الله يَنْصُرْكُمْ ، وَيُصْلِحْ لَكُمْ أَمْرَكُمْ .

فتشاقلوا ، فلما رَأَى زيَادُ بْنُ حَنْظَلَةَ تَشَاقَلَ النَّاسَ انتدبَ ^(١) لِمَلَى ، وقال له : إنَّ تَشَاقُلَا عِنَّا فَإِنَّا نَخَفُ مَعَكَ فَنَقَاتِلُ دُونَكَ . وقام أبو قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيُّ فقال :

(١) انتدب إليه : خف لنصرته .

يا أمير المؤمنين ؛ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلّدني هذا السيف ، وقد أُنمّدتُهُ زماناً ، وقد حان تجريدُهُ على هؤلاء القوم الظالمين ، الذي لا يألون الأُمّة غِشّاً ، وقد أحببت أن تقدّمني فقدّمني .

وقالت أمّ سلمة : يا أمير المؤمنين ؛ لولا أن أعصى الله ، وأنّك لا تقبله لخرجتُ معك ، وهذا ابنُ عمّي ، وهو والله أعزُّ عليّ من نفسي ، يخرجُ معك ، ويشهدُ مشاهدك . ثم تتابع الناس استعداداً لنصرته ، فاستخاف على المدينة ، وسار في تبعثته التي تبعّاها لأهل الشام ، آخرَ شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين .

وخرج من أنشط معه من السكوفيين والبصريين ، فلقبه عبد الله بنُ سلام ، فأخذ بعنايته وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فوالله إن خرجت منها لا يعودُ إليها سلطانُ المسلمين أبداً ، فسبّوه ، فقال عليّ : دَعُوا الرَّجُلَ فإنّه من أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وسار إلى الرّبذة^(١) ؛ فلما علم أمرَ عائشة وطلحة والزبير أقام بها يوماً يفعلُ ، وأناه ابنه الحسنُ في الطريق ، فقال له : لقد أمرتك فمَصَيْتَنِي ، وقد تُقْتَلُ غداً ولا ناصِرَ لك ! فقال له عليّ إنك لا تزال تَخِنُ خنينَ الجارية ، وما الذي أمرتني فمَصَيْتُكَ؟ قال : أمرتك يوم أحيطَ بعمان أن تخرجَ من المدينة فيُقتلَ ولستَ بها ؛ ثمّ أمرتك يوم قُتِلَ ألا تباعَ حتى تأتِيكَ وفودُ العرب وبيعةُ أهلِ كلِّ مِصر ، فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك ، فأبنت عليّ ، وأمرتك حين خرجت هذه المرأةُ وهذان الرجلان أن تجلسَ في بيتك حتى يصطاحوا ، فإن كان الفسادُ كان على يدِ غيرك - فمَصَيْتَنِي في ذلك كلّهُ .

(١) الرّبذة هي التي جعلها عمر رضي الله عنه على لإبل الصدقة قرب المدينة (معجم ما استعجم

فقال على : أَيْ بُنَى ، أَمَا قَوْلُكَ : لو خَرَجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ حِينَ أُحِيطَ بِعُمَانَ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ أُحِيطَ بِنَا كَمَا أُحِيطَ بِهِ . وَأَمَا قَوْلُكَ : لَا تُبَايِعْ حَتَّى تَأْتِيَ بَيْعَةَ الْأَنْصَارِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ أَمْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَكَرِهْنَا أَنْ يَضِيعَ هَذَا الْأَمْرُ ، وَأَمَا قَوْلُكَ حِينَ خَرَجَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ وَهْنًا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَاللَّهُ مَا زَلْتُ مُقَهَّورًا مِنْذُ وَلِيتَ ، مَنْقُوصًا لَا أُصِلُّ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَنْبَغِي . وَأَمَا قَوْلُكَ : اجْلِسْ فِي بَيْتِكَ ، فَكَيْفَ لِي بِمَا قَدْ لَزِمَنِي ، وَإِذَا لَمْ أَنْظُرْ فِيهَا لَزِمَنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ وَيَعْنِيَنِي فَعَمَّنْ يَنْظُرُ فِيهِ ؟ فَكُفَّ عَنِّي يَا بُنَى .

ثم كتب إلى أهل الكوفة : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَمَا بَعْدَ ، فَإِنِّي اخْتَرْتُكُمْ وَالْأَزْوَاجَ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ ، لِمَا أَعْرَفَ مِنْ مَوَدَّتِكُمْ وَحُبِّكُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَمَنْ جَاءَنِي وَنَصَرَ نِي فَقَدْ أَجَابَ الْحَقَّ ، وَقَضَى الَّذِي عَلَيْهِ .

ثم أرسل إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن عوف ، ففضييا وبقى على الرِّبْذَةِ يَتَهَمِيًّا ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَحِقَهُ مَا أَرَادَ مِنْ دَابَّةٍ وَسِلَاحٍ ، ثُمَّ خُطِبَ النَّاسُ وَقَالَ :

« إِنَّ اللَّهَ أَعَزَّنَا بِالْإِسْلَامِ ، وَرَفَعَنَا بِهِ ، وَجَعَلَنَا بِهِ إِخْوَانًا بَعْدَ ذَلَّةٍ وَقِلَّةٍ وَتَبَاغُضٍ وَتَبَاغُدٍ ، فَجَرَى النَّاسُ عَلَى ذَلِكَ مَا شَاءَ : الْإِسْلَامُ دِينُهُمْ ، وَالْحَقُّ فِيهِمْ ، وَالْكِتَابُ إِمَامُهُمْ ، حَتَّى أُصِيبَ هَذَا الرَّجُلُ بِأَيْدِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَزَعَهُمُ الشَّيْطَانُ^(١) لِيَنْزِعَ بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ . أَلَا إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا بَدَّ مَفْتَرَقَةٍ كَمَا افْتَرَقَتِ الْأُمَمُ قَبْلَهُمْ ، فَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا هُوَ كَائِنٌ .

ثم عاد ثانية فقال : أَلَا إِنَّهُ لَا بَدَّ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ أَنْ يَكُونَ ، أَلَا وَإِنَّ هَذِهِ

(١) نزعه : حركه ، ونزع بينهم : أفسد وأغرى .

الأمة ستلتحق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلني ، ولا تعمل بملي ،
فقد أدركتم ورأيتم ، فالزموا دينكم ، واهتدوا بهدي نبيكم ، واتبعوا سنته ،
واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فاعرفه القرآن فالزموه ، وما أنكره
فردوه ، وارضوا بالله عز وجل رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه
وسلم حاكماً وإماماً .

ثم سار والناس من القبائل يتلاحقون حتى نزل بذي قار^(١) ، وقد وافاه
عثمان بن حنيف ، وبلغه ما صنع حاكم بن جبلة ، وما كان من شأن قتلة عثمان ،
فقال : الله أكبر ! ما ينجي من طلحة والزبير ، إذا أصابا ثأرهما ، أو
ينجيهما !

ثم قرأ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِنْ قَبْلٍ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾^(٢) . وأقام بذي قار حتى يأتيه أمر رسوليه إلى الكوفة .

أما رسوله إلى الكوفة فإنهما أتيا أبا موسى الأشعري بكتاب على ، وقاما
في الناس بأمره ، فلم يجابا إلى شيء ؛ فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجاز على
أبي موسى فقالوا : ما ترى في الخروج ؟ فقال : كان الرأي بالأمس ، إن الذي تهاؤنتم
به فيما مضى هو الذي جرّ عليكم ماترون ، وما بقي إناها أمران : القعود سبيل
الآخرة والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا ، فلم ينفروا إليه أحد ، فغضب الرجلان
وأغلظا لأبي موسى ، فقال لهما : والله إن بيعة عثمان لني عنق وعنق صاحبكما ، فإن
لم يكن بدّ من قتال ، فلا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا .

(١) ذوقار : ماء لبكر قريب من الكوفة . (٢) الحديد ٢٢ .

فانطلقا إلى عليّ بنى قَارٍ وأخبراه الخبرَ ، فقال للأشتر - وكان معه : أنت صاحبُنا في أبي موسى ، فاذهب أنت وابن عباس . فخرجا إلى الكوفة ، وكَلَمَا أبا موسى ، فجمع الناس وخطبهم فقال : أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ حَبَّوهُ فِي الْمَوَاطِنِ أَعْلَمُ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ مِنْ مَنْ لَمْ يَصْحَبْهُ ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْنَا حَقًّا ، فَأَنَا مُؤَدِّيهِ إِلَيْكُمْ ، كَانَ الرَّأْيُ إِلَّا تَسْتَخِفُّوا بِسُلْطَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَلَا تَجْتَرِثُوا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكَانَ الرَّأْيُ الثَّانِي أَنْ تَأْخُذُوا مَنْ قَدِمَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ فَتَرُدُّوهُمْ إِلَيْهَا حَتَّى يَجْتَمِعُوا وَهُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ تَصْلُحُ لَهُ الْإِمَامَةُ مِنْكُمْ ، وَلَا تَكْلَفُوا الدُّخُولَ فِي هَذَا . فَأَمَّا إِذَا كَانَ مَا كَانَ فَإِنَّهَا فِتْنَةٌ صِهَاءٌ ، النَّائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْيَقْظَانِ وَالْيَقْظَانُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَاعِدِ ، وَالْقَاعِدُ خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ ، وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الرَّاكِبِ فَأَغْمِدُوا السِّیُوفَ ، وَاقْطَعُوا الْأَوْتَارَ ، وَأَوُوا الْمَظْلُومَ وَالْمُضْطَهَّدَ ، حَتَّى يَلْتَمَ هَذَا الْأَمْرُ وَتَنْجَلِيَ الْفِتْنَةُ .

فرجع ابنُ عباس والأشتر إلى عليّ فأخبراه الخبرَ ، فأرسل ابنه الحسن وعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ إِلَى الْكُوفَةِ ، فَلَقِيَهُمَا مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ ، فَأَقْبَلَ عَلَى عَمَّارٍ وَقَالَ : يَا أَبَا الْيَقْظَانِ ، عَلَامَ قَتَلْتُمْ عُمَانَ ؟ فَقَالَ : عَلَى شَتَمِ أَعْرَاضِنَا وَضَرْبِ أَبْشَارِنَا ! فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا عَاقِبْتُمْ بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَكَانَ خَيْرًا لِلصَّابِرِينَ .

وخرج أبو موسى ، فقال له الحسن : لِمَ تَتَّبِطُّ النَّاسَ عَنَا ، فَوَاللَّهِ مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْإِصْلَاحَ ! فَقَالَ : صَدَقْتَ ، يَا بَنِي أُنْتِ وَأُمِّي ! وَلَكِنْ الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمِنٌ ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي ، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ الرَّاكِبِ » . وَقَدْ جَعَلَنَا اللَّهُ إِخْوَانًا ، وَحَرَّمَ عَلَيْنَا أَمْوَالَنَا وَدِمَاءَنَا ، وَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ

بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ^(١) ، وَقَالَ جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ ^(٢) .

ثم جاء زيد بن صوحان بكُتُبِ عائشة فقرأها على الناس ، فثاروا واقتربوا فريقين ، فقام الحسن بن علي فقال : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَجِيبُوا دَعْوَةَ أَمِيرِكُمْ ، وَسِيرُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ ، فَإِنَّهُ سَيُوجَدُ لِهَذَا الْأَمْرِ مَنْ يَذْفِرُ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ لَأَنْ يَلِيَهُ أُولُو الدِّمَى أَمْثَلُ فِي الْعَاجِلَةِ ، وَخَيْرٌ فِي الْعَاقِبَةِ ، فَأَجِيبُوا دَعْوَتَنَا ، وَأَعِينُونَا عَلَى مَا ابْتُلِينَا وَابْتَلَيْتُمْ بِهِ .

فأجاب الناس ورضوا به ، وقال لهم الحسن : إِنِّي غَدٍ فَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَخْرُجَ مَعِيَ عَلَى الظَّهْرِ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَخْرُجْ فِي الْمَاءِ . فَفَرَّ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ تَسْمَةً آلَافٍ أَخَذَ بَعْضُهُمُ الْبَرَّ ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمُ الْمَاءَ .

ولما وصلت الجنود إلى ذِي قَارٍ قال لهم علي : قَدْ دَعَوْتُكُمْ لِتَشْهَدُوا مَعَنَا إِخْوَانَنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَإِنْ يَرْجِعُوا فَذَاكَ مَا نُرِيدُ ، وَإِنْ يَلِجُوا دَاوِينَاهُمْ بِالرِّفْقِ ، وَبَايَنَاهُمْ حَتَّى يَبْدَأُوا بِظُلْمٍ ، وَلَنْ نَدَعَ أَمْرًا فِيهِ صَلَاحٌ إِلَّا آثَرْنَاهُ عَلَى مَا فِيهِ الْفَسَادُ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم دعا القعقاع بن عمرو للسِّفَارَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَقَالَ لَهُ : أَلَوْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، فَأَذَعُهُمَا إِلَى الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَعَظَّمَّ عَلَيْهِمَا الْفُرْقَةَ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : كَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ فِيمَا تَرَى مِنْهُمَا ، مِمَّا لَيْسَ عِنْدَكَ فِيهِ وَصَاةٌ مِنِّي ؟ فَقَالَ : نَلْقَاهُمُ بِالذِّي أَمَرْتُمْ ، فَإِذَا جَاءَ مِنْهُمَا أَمْرٌ لَيْسَ عِنْدِي فِيهِ رَأْيٌ مِنْكَ اجْتَهِدْنَا الرَّأْيَ ، وَكَلَّمْنَاهُمُ عَلَى قَدْرِ مَا نَسْمَعُ وَنَرَى أَنَّهُ يَنْبَغِي ، فَقَالَ : أَنْتَ لَهَا .

وقدم القمّاع البصرة ، فبدأ بمائشة ، وقال لها : أى أمة ، ما أشخصك ؟ وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أى بُنى ، إصلاح بين الناس ، قال : فأبعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال : إني سألت أم المؤمنين : ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمّتي إيمان أم مُخالفان ؟ فقالا : مُتأيدان ، قال : فأخبراني ، ما وجه هذا الإصلاح ، فوالله إن عرفناه لنُصلحن ، وإن أنكرناه لا نصلح ، فقالا : قتلة عثمان ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل كان إحياء للقرآن . فقال : قد قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم الذي أفلت^(١) ، فبغضه ستة آلاف ، وهم على رجل ، فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلوكم والذين اعتزلوكم فأديلوا^(٢) عليكم ، فالذي حذرتهم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تكبرهون ، وأنتم أحيتهم مُصرّ وريعة ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرّة لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟ فقال : لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التّسكين ، وإذا سكن اختلجوا ، فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بشار هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شرّ وذهاب هذا الثّار ، فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير ، ولا تمرّضونا للبلاء ، ولا تتعرّضوا له ؛ فيصرّعنا وإياكم !

(١) يعنى حرقوصا . (٢) أديلوا : نصروا .

فقال له القوم : أَحَسَنْتَ وَأَصَبْتَ ، فَإِنَّ جَاءَ عَلَى بَعْثَلٍ مَا قُلْتَ
صَلَحَ الْأَمْرُ .

ثم رجع القَعْقَاعُ إِلَى عَلَىٍّ وَأَعْلَمَهُ عِلْمَ الْقَوْمِ ، وَمَا كَانَ مِنْهُ وَمَنْهُمْ . فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ،
ثُمَّ أَشْرَفَ الْقَوْمُ عَلَى الصُّلْحِ .

وَأَمَرَ عَلَىٌّ بِالْحَيْلِ ، وَقَالَ : أَلَا وَإِنِّي رَاحِلٌ غَدًا فَارْتَحِلُوا ، وَلَا يَرْحَلَنَّ غَدًا أَحَدٌ
أَعَانَ عَلَى عَثْمَانَ بِشَيْءٍ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ النَّاسِ .

ثُمَّ جَاءَتْ وَفُودُ قَبَائِلِ الْبَصْرَةِ إِلَى قَبَائِلِ الْكُوفَةِ ، وَهُمْ لَا يَرِيدُونَ حَرْبًا وَلَا
يُظَلُّونَهَا ، وَأَمِنْ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بِمَعْضًا .

وَلَكِنْ نَفَرًا مِنَ النَّاسِ لَمْ يَرَفْقَهُمُ الصُّلْحُ ، وَلَمْ يَطْمَئِنُّوا إِلَى حَقِّنِ الدِّمَاءِ ، فَاجْتَمَعَ
نَفَرٌ مِنْ سَارِ إِلَى عَثْمَانَ ، وَمَعَهُمُ ابْنُ السَّوْدَاءِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : إِنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ
غَدًا وَاصْطَلَحُوا ؛ فَلَيْسَ الصُّلْحُ إِلَّا غُلَيْنًا ، وَقَالَ ابْنُ السَّوْدَاءِ : إِنَّ عِزَّكُمْ فِي خُلُطَةِ
النَّاسِ ، فَصَانِعُوهُمْ ، وَإِذَا التَّقَى النَّاسُ غَدًا فَأَنْشِبُوا الْقِتَالَ وَلَا تَفَرَّغُوهُمْ لِلنَّظَرِ .
وَاتَّقُوا عَلَىَّ ذَلِكَ وَالنَّاسُ لَا يَشْعُرُونَ .

وَلَمَّا وَصَلَ عَلَىٌّ إِلَى الْبَصْرَةِ بَعَثَ إِلَى الْقَوْمِ : إِنْ كُنْتُمْ عَلَى مَا فَارَقْتُمُ الْقَعْقَاعَ
فَكُفُّوا وَأَقْرُّوْنَا نَزْلًا ، وَنَنْظُرْ فِي الْأَمْرِ . فَتَزَلُّوا ، وَالْقَوْمُ لَا يَشْكُونَ فِي الصُّلْحِ ،
وَمَشَتْ السُّفَرَاءُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ ، وَبَاتَ الْقَوْمُ يَنْتَظِرُونَ الْعَافِيَةَ مِنْ هَذَا
الْحَادِثِ الْجَلَّالِ .

وَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ إِلَّا وَالَّذِينَ أَثَارُوا أَمَرَ عَثْمَانَ يَقُومُونَ فِي الْفَلَسِ ، وَيَضْمُونَ
السَّلَاحَ فِي عَسْكَرِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، فَسَأَلَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ : مَا هَذَا ؟ قَالُوا ؛ طَرَقَنَا أَهْلُ
الْكُوفَةِ لَيْلًا ! فَقَالَا : قَدْ عَلِمْنَا أَنَّ عَلِيًّا غَيْرُ مُنْتَهٍ حَتَّى يَسْفِكَ الدَّمَاءَ وَيَسْتَحِلَّ
الْحَرَمَةَ ، وَأَنَّهُ لَنْ يُطَاوِعَنَا .

وسأل عليّ عن الخبر - وكان السَّبَيْثِيُّونَ^(١) قد وضعوا رجلاً قريباً منه يُخْبِرُهُ بما يريدون ، فقال له : فوجئنا بقومٍ يَبْتَونَا ، فرددناهم من حيث جاءوا . فقال عليّ : قد علمت أنّ طلحة والزبير غيرُ مُنْتَهِيَيْنِ حتى يسفكا الدماء ، ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يُطَاوَعَا ، ولم يجد الفريقان نُدّاً من القتال ؛ إذ لم يكن ثمة مجالٌ لاستجلاء الواقع .

وكانت عائشة في هَوْدَجِها ، قد جلّلتها بالحديد وهي بمسكة ، وجعلت فيه موضعاً لعَيْنَيْها ، وهي في عسكر أهل البصرة ، وثار العسكران لبعضهما ، وكان القتال في ذلك اليوم من أشدّ القتال هَوْلاً ، وصَدَقَ كلّ فريق الحملة على الفريق الآخر ، وأهل البصرة وشجعانهم وذوو النجدة منهم يُلَوِّذُونَ بِجَمَلِ عائشة ، وَيُدْفِعُونَ عنها حتى لا تُصَابَ بِشَرٍّ ، فقتل حوله بِشَرٍّ كثير ، وقطعت على زمامه أيدي كثيرة ، ولا يدور بخلد أحدٍ من الناس أن ينهزم ، وراجز أهل البصرة يقول :

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَلِّ نَنْزِلُ بِالسَّوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ
نَمَى ابْنُ عَقَانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلِ الْمَوْتُ أَخْلَى عُنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ
رُدُّوا عَلَيْنَا شَيْخَنَا ثُمَّ بِجَلِّ^(٢)

ولما رأى عليّ كثرةَ القتلى حَوْلَ الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يُسَلِّمونه أبداً وفيهم عَيْنٌ تَطْرَفُ نادى : اعْقِرُوا الْجَمْلَ . فجاء إلى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فمقره ، وسقط وسقط الهودج ، وكأنه قنفذ لكثرة ما رُمِيَ به من الذبل ، فجاء محمد بن أبي بكر وعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ واحتملا الهودج ، فنصّياه عن القتلى ، وخرج محمد بمائشة حتى أدخلها البصرة .

(١) السبثيون : جماعة نسبوا إلى الله بن سبأ ، وكانوا من الغلاة .

(٢) بجل ، أى حسب .

وظهر الضعف في الناس فتركهم الزبير بن العوام ، وولى وجهه شطر المدينة ،
فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله وقتلته .
وقُتِلَ في هذا اليوم عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوو الغناء
والنَّجْدَة ، منهم طلحة وابنه محمد وعبد الرحمن بن عتَّاب ، وكثير من رجال
قريش .

ولما انتهت الواقعة مرَّ علىَّ بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم
قال : زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والنوغاء ، وهذا فلان وهذا فلان ! ثم صلى
على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً .

وبعد ذلك زارَ عائشة في البيت الذي نُزلت فيه ، فسَلَّمَ عليها ، وقعد عندها ،
ثم أمر بأن تُجهَّزَ إلى المدينة فجهَّزَت خَيْرَ جهاز ، ولما جاء يومُ رحيلها ودَّعها بنفسه
فقالت وسط مُشيعمٍها : إنا لله والله ما كان بيني وبين عليٍّ في القديم إلا ما يكون
بين المرأة وأحمائها ، وإنا عندى على مَعْتَبَتِي من الأخيار .

وقال عليٌّ : أيها الناس ، صدقتَ والله وبرَّت ! ما كان بيني وبينها إلا ذلك ،
وإنها لزوجةُ نبيِّكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة .
وخرجت من البصرة ، فشيعمها أميالاً ، وسرَّحَ بنيه معها يوماً .

٣٢ - يوم صفين *

لما عاد عليّ من البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة ، وأرسل إلى جرير ابن عبد الله البجليّ ، وكان عاملاً على هَمْدَان^(١) ، استعمله عثمان ، وأرسل إلى الأشعث بن قيس ، وكان على أَذَرَبِيْجَان^(٢) ، استعمله عثمان أيضاً ، وأمرهما بأخذ البَيْعَةِ والحُضُور ، فلما حضرا عنده أراد عليّ أن يرسل رسولا إلى معاوية ، فقال جرير : أُرْسِلْنِيْ إِلَيْهِ فَأَدْعُوهُ إِلَى الدُخُولِ فِي طَاعَتِكَ . فقال الأشعث لمليّ : لا تبعثه ، فوالله إني لأظنّ هواء معه ، فقال عليّ : دَعُهُ ، حتى ننظرَ من الذي يَرِجُّعُ بِهِ إِلَيْنَا . فبعثه إِلَيْهِ ، وَكَتَبَ مَعَهُ كِتَاباً يُعَلِّمُهُ فِيهِ اجْتِمَاعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ عَلَى بَيْعَتِهِ ، وَنَكَثَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَمَا كَانَ مِنْ حَرْبِهِ إِلَّا يَأْتِمُ ، ويدعوه إلى الدُخُولِ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ مِنْ طَاعَتِهِ .

فشَخَّصَ جَرِيرٌ حَتَّى قَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فطأطأه واستنظره ، ودعا عمرو بن العاص فاستشاره فيما كتب به عليّ إليه ، فأشار عليه أن يُرْسَلَ إِلَى وَجُوهِ الشَّامِ ، وَيُلْزِمَ عَلِيّاً دَمَ عُثْمَانَ وَيُقَاتِلَهُ بِهِمْ ، ففعل ذلك معاوية . وكان أهلُ الشَّامِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ بِقَمِيصِ عُثْمَانَ مَضْرَجاً بِدَمِهِ مَعَ شَيْءٍ مِنْ كَفِّهِ وَضَعُوا الْقَمِيصَ عَلَى الْمَنْبَرِ ، كَمَا أَمَرَهُمْ مُعَاوِيَةُ ، وَاسْتَشَارُوا الْجُنُودَ فَبَكَوْا عَلَى الْقَمِيصِ وَآلَى رِجَالُهُمْ

* الطبري ٥ : ٢٣٥ ، ٦ : ١ ، كان في صفر سنة ٣٧ . وصفين : موضع بقرب الرقة

على شاطئ الفرات .

(١) همدان : أكبر مدن الجبال ، فتحت سنة ٢٤ .

(٢) أذربيجان : إقليم بفارس ، من أشهر مدائنه تبريز والراغة .

أَلَا يَمْسُوا الْمَاءَ ، وَلَا يَنَامُوا عَلَى الْفُرُشِ حَتَّى يَقْتُلُوا قَتْلَةَ عُثْمَانَ ، وَمَنْ عَرَّضَ دُونَهُمْ
بَشْيَءً ، أَوْ تَفَنَّى أَرْوَاحُهُمْ .

فَعَادَ جَرِيرٌ إِلَى عَلِيٍّ وَأَخْبَرَهُ خَبَرَ مَعَاوِيَةَ وَاجْتِمَاعِ أَهْلِ الشَّامِ مَعَهُ عَلَى قَتَالِهِ
وَبُكَائِهِمْ عَلَى عُثْمَانَ وَأَتَاهُمُ عَلَيْهِمْ عَلِيًّا بِقَتْلِهِ وَإِيوَاءِ قَتَلَتِهِ ، فَقَالَ الْأَشْتَرُ لِعَلِيٍّ : قَدْ كُنْتُ
نَهَيْتُكَ أَنْ تُرْسِلَ جَرِيرًا ، وَلَوْ كُنْتُ أُرْسِلْتُ لَكُنْتُ خَيْرًا مِنْ هَذَا الَّذِي أَقَامَ عِنْدَهُ
حَتَّى لَمْ يَدْعُ أَبَا يَرْجُو فَتَحَّهُ إِلَّا فَتَحَهُ ، وَلَا بَابًا يَخَافُ مِنْهُ إِلَّا أَغْلَقَهُ .

فَقَالَ جَرِيرٌ : لَوْ كُنْتُ نَهَيْتُ لَقَتُلُوكَ ، فَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّكَ مِنْ قَتْلَةِ عُثْمَانَ ، فَقَالَ
الْأَشْتَرُ : وَاللَّهِ لَوْ أَتَيْتُهُمْ لَمْ يُعْجِبْنِي جَوَابُهُمْ ، وَلَحَلْتُ مَعَاوِيَةَ عَلَى خُطْبَةٍ أُعْجِلُهُ فِيهَا
عَنِ الْفِكْرِ ، وَلَوْ أَطَاعَنِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِحَبْسِكَ وَأَشْبَاهِكَ حَتَّى يَسْتَقِيمَ هَذَا الْأَمْرُ .
ثُمَّ خَرَجَ عَلَى فَمَسْكَرٍ بِالنُّخَيْلَةِ^(١) ، وَتَخَلَّفَ عَنْهُ نَفَرٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ ،
وَقَدِمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ فِيمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ ، وَبَلَغَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ
فَاسْتَشَارَ عُمَرَ ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا سَارَ عَلَى فَيْسَرٍ إِلَيْهِ بِنَفْسِكَ ، وَلَا تَغِيبَ عَنْهُ بِرَأْيِكَ
وَمَكِيدَتِكَ .

فَتَجَهَّزَ مَعَاوِيَةُ ، وَتَجَهَّزَ النَّاسُ ، وَحَضَّوْهُمُ عُمَرُو ، وَضَعَفَ عَلَيْهِمْ وَأَصْحَابُهُ ،
وَقَالَ : اللَّهُ اللَّهُ فِي حَقِّكُمْ أَنْ تُصْنِعُوهُ ، وَفِي دِمَائِكُمْ أَنْ تُطْلَوْهُ^(٢) .

وَاسْتَنْهَضَ مَعَاوِيَةُ أَهْلَ الشَّامِ ، وَعَقَدَ لَوَاءَ لَعَمْرُو ، كَمَا عَقَدَ لَابْنِيهِ عَبْدِ اللَّهِ وَمُحَمَّدُ ،
وَلَوَاءَ لِفَلَامِهِ وَرَدَّانَ . وَسَارَ مَعَاوِيَةُ مَتَأَنِّيًّا فِي سِيرِهِ .

وَأَخَذَ عَلَى بَجْنُودِهِ طَرِيقَ الْجَزِيرَةِ وَعَبَرَ الْفَرَاتَ مِنَ الرِّقَّةِ ، وَمِنْ هُنَاكَ قَدَّمَ
طَلَانَهُ أَمَامَهُ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِسُورِ الرُّومِ التَّقَوَّا بِطُلَانِ مَعَاوِيَةَ ، فَكَانَتْ بَيْنَ
الْفَرِيقَيْنِ مُنَاوَشَاتٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ تَحَاجَزُوا .

(١) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

(٢) أن تطلوه : أن تهدروه من غير نار .

وتلاحقت جنود عليٍّ ومعاوية ، وعسكرت الطائفتان في سهلِ صِفِّين ، وتواقفت
الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض .

وكان معاوية قد سبق عليًّا ، فنزل منزلاً اختاره واسماً أفيح ، وأخذ شريعةَ
الفرات ، وليس في ذلك الصَّعْ شريعةٌ غيرها ، وجعلها في حوزته ، وبمَث عليها
أبا الأعور السُّلَميَّ يَحْمِيها وَيَمْنَعُها . فطلب أصحابُ عليٍّ شريعةَ غيرها فلم يجدوا
فأتوا عليًّا ، فأخبروه بِفِعْلِهِمْ وبِمَطَسِ النَّاسِ ، فدعا صَعْمَةَ بنَ صُوحان ، وأرسله إلى
معاوية يقول له : إنا سِرْنَا مسيرنا هذا ونحن نَكْرَهُ قتالكم قبل الإِعداد إليكم ،
فقدَّمت إلينا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل أن نقَاتِلَكَ ، ونحن من رأينا الكفَّ حتى
ندعوك ونحتجّ عليك ، وهذه أخرى قد فَعَلْتُمُوهَا : منَعْتُمُ النَّاسَ عن الماء ، والناس
غير مُنْتَهين ، فابْثْ إلى أصحابِك فليُخْلُوا بين الناس وبين الماء ، وليكفُّوا لِنَظَرِ فِما
بيننا وبينكم ، وفيما قَدِمْنَا له ، فإن أردتَ أن تَتْرُكَ ما جِئْنَا له وَنَقْتِلَ على الماء حتى
يكون الغالبُ هو الشاربُ فَعَلْنَا .

فقال معاوية لأصحابه : ما ترون ؟ فقال الوليد بن عُقْبَةَ : امنعهم الماء كما منعه ابنُ
عَفَّان ، اقتلهم عطشاً قتلهم الله ! فقال عمرو بن العاص : خَلَّ بين القوم وبين الماء ،
وإنهم لن يَمُطِّشُوا وأنتَ رَيَّان ، ولكن بنير الماء فانظر فيما بينك وبينهم . فأعاد
الوليد بن عُقْبَةَ مَقَالَه ، وقال عبد الله بن أبي سَرِّح : امنعهم الماء إلى الليل ، فإنهم إن
لم يَقْدِرُوا عليه رجعوا ، ولو رجعوا كان رجوعهم هزيمة .

فقال صَعْمَةُ : إِنَّمَا يَنْعَمُ الله الفَجْرَةَ وشَارِبِي الخِرَ يومَ القيامة ، لعنك الله ولعن
هذا الفاسق - يعني الوليد - فشتموه وتهذِّدوه . فرجع صَعْمَةُ إلى عليٍّ فأخبره بما
كان ، وأن معاوية قال : سيأتيكم رأيي . فلما سمع عليٌّ ذلك قال : قَاتِلُوهم على الماء ،

فقال الأشعث بن قيس الكِنْدِيُّ : أنا أسيرُ إليهم ، فقال له عليٌّ : فسيرُ إليهم ؛ فسارَ وسار معه بعضُ أصحابِ عليٍّ ، فلما دنوا منهم ثاروا في وجوههم فرمواهم بالنبل ، فتراموا ساعة ، ثم تطاعنوا بالرماح ، ثم صاروا إلى السيوف فاقتتلوا ساعة ، ثم توات الأمداد للفريقين ، وغلب أصحابُ عليٍّ حتى صار الماء في أيديهم ، وقالوا : والله لا نسقيه أهل الشام ، فأرسل عليٌّ إلى أصحابه أن خذوا من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم ، فإن الله نصركم بينيهم وظلهم .

ثم إنَّ عليًّا دعا ثلاثة من رجاله ؛ وهم بشير بن عمرو الأنصاري ، وسعيد بن قيس الحمداني ، وشبث بن ربعي التميمي ، فقال : اتوا هذا الرجل ، فادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة ، فقال له شبث : يا أمير المؤمنين ، ألا تُطمِئنه في سلطان توليه إياه ، أو منزلة يكون له بها أثرٌ عندك إن هو بايعك ؟ فقال عليٌّ : اتوه فالقوه واحتجّوا عليه وانظروا ما رأيه .

فساروا حتى دخلوا عليه ، ثم قام بشير بن عمرو الأنصاري ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا معاوية ؛ إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عزّ وجلّ محاسبك بعملك ، ومجازيك بما قدّمتَ يداك ، وإني أنشدك الله عزّ وجلّ أن تفرّق جماعةَ هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها . فقطع عليه معاوية الكلام وقال : هلا أوصيتَ بذلك صاحبك ! فقال بشير : إن صاحبي ليس مثلك ، إن صاحبي أحقُّ البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : فيقول ماذا ؟ قال : يأمرُك بتقوى الله عزّ وجلّ ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق فإنه أسلمُ لك في دنياك وخيرٌ لك في عاقبة أمرك . قال معاوية : ونُظِّلَ دَمَ عثمان ! لا والله ، لا أفعل ذلك أبداً .

فقام سعيد بن قيس ليتكلم، فبادره شُبَّان بن ربيعة ، فتكلم وحيد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معاوية ، إني قد فهمت ما ردّدت ، إنه والله لا يخفى علينا ما تفزرو وما تطلب ؛ إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلا قولك : قُتل إمامكم مظلوماً ، فنحن نطأ دمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام^(١) ؛ وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر ، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، وربّ مُتمنى أمرٍ وطالبه يحول الله عزّ وجلّ دونه بقدرته ، وربما أوتيَ التّمتنى أمنيته وفوق أمنيته ، والله ما لك في واحدة منهما خير ؛ لأن أخطأت ما ترجو إنك لشرُّ العرب حالا في ذلك ، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحلّ من ربك صلا النار ، فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فقام معاوية ، وحيد الله وأثنى عليه ؛ ثم قال : أمّا بعد ، فإن أول ما عرفتُ فيه سفهك وخيعة حيلك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيّد قومه منطقته ، ثم عُنيت بعد فيما لا علم لك به ، فقد كذبت وكوّمت أيها الأعرابيّ الجلف الجاني في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف . فقال شُبَّان : أفعلينا تهوّل بالسيوف ! أقسم بالله ليُعْجَلَنَّ بها إليك ! ثم اتوا عليّاً فأخبروه الخبر .

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك ، فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق ، فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذى الحجة ،

(١) الطغام : أوغاد الناس .

فلما أهلَّ المحرم توادَعَ الفريقان على ترك الحرب فيه إلى انتقضائه طمعاً في الصلح ،
واختلف بينهما الرسل .

فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبيّ وشبث بن ربعيّ وزياد
ابن خَصَفَة . فلما دخلوا على معاوية حمد الله عدى بن حاتم ، ثم قال : أما بعد ، فإنّا
أتيناك ندعوك إلى أمرٍ يَجْمَعُ الله به عزّ وجلّ كلمتنا وأمّتنا ، ويَحْقِنُ به الدماء ،
وتأمن به السبل ، وتُصْلَحُ ذات البين ؛ إنّ ابن عمك سيّد المسلمين أفضّلنا سابقة ،
وأحسننا في الإسلام أثراً ، وقد استَجْمَعُ له الناس ، وقد أُرشدهم الله بالذي رأوا ، فلم
يَبْقَ أحدٌ غيرك وغير من مملك ، فانتبه يا معاوية ، لا يُصِيبَكَ الله وأصحابك بيوم
مثل يوم الجمل .

فقال معاوية : كأنك إنما جئت متهدّداً ولم تأت مصلحاً ! هيهات يا عدى ! كلاً
والله إني لا بن حرب ، ما يُقَمِّعُ^(١) لي بالشنان ؛ أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ،
وإنك لمن قتلتته ، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عزّ وجلّ به ، هيهات
يا عدى ، قد حلّبت بالساعد الأشدّ .

فقال شبث بن ربعيّ وزياد بن خَصَفَة : أتيناك فيما يصلحنا وإياك ؛ فأقْبَلْتَ
تضرب لنا الأمثال ! دَعْ ما لا يُنْتَفَعُ به من القول والفعل ، وأجبنا فيما يعمّنا
وإياك نفعه .

وقال زيد بن قيس الأرحبيّ : إنّنا لم نأتك إلّا لِنُبَلِّغَكَ ما بُعثنا به إليك ولنؤدّي
عنك ما سمعنا منك ، ونَحْنُ على ذلك لن ندّعك إلّا بعد أن ننصّح لك ؛ ونَدَّكُرُ
ما ظننّا أنّ لنا به عليك حُجَّة ، وإنّك راجع به إلى الألفّة والجماعة ، إنّ صاحبنا

(١) مايقمق لي بالشنان ، أى ما أخدع وما أروغ ، وهو مثل . والشنان : الجلد اليابس ،
والقمقمه به : تحريكه للبعير ليفزع .

مَنْ قَدْ عَرَفْتَ وَعَرَفَ الْمَسْلُومُونَ فَضْلَهُ ، وَلَا أَظُنُّهُ يَخْفَى عَلَيْكَ ؛ إِنَّ أَهْلَ الدِّينِ وَالْفَضْلَ لَنْ يَمْدُلُوا بِمَلٍّ ، وَلَنْ يُعَيَّلُوا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ ، فَاتَّقِ اللَّهَ يَا مَعَاوِيَةُ ، وَلَا تَخَالَفْ عَلِيًّا ؛ فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطَّ أَعْمَلَ بِالتَّقْوَى وَلَا أَزْهَدَ فِي الدُّنْيَا وَلَا أَجْمَعَ لِحَصَالِ الْخَيْرِ كُلِّهَا مِنْهُ .

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّكُمْ دَعَوْتُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَأَمَّا الْجَمَاعَةُ الَّتِي دَعَوْتُمْ إِلَيْهَا فَمَعَنَا ، وَأَمَّا الطَّاعَةُ لِمَصَاحِبِكُمْ فَإِنَّا لَا نَرَاهَا ؛ إِنْ صَاحِبَكُمْ قَتَلَ خَلِيفَتَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَآوَى ثَأْرَنَا وَقَتْلَتْنَا ، وَصَاحِبَكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ لَمْ يَقْتُلْهُ ، فَنَحْنُ لَا زُدُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، أَرَأَيْتُمْ قَتَلَةَ صَاحِبِنَا ؟ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ صَاحِبِكُمْ . فَلْيَدْفَعْهُمْ إِلَيْنَا فَلْنَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ نَحْنُ نُجِيبُكُمْ إِلَى الطَّاعَةِ وَالْجَمَاعَةِ .

فَقَالَ لَهُ شَبَثٌ : أَيْسَرُكَ يَا مَعَاوِيَةُ أَنْتَ مُكِنْتُ مِنْ عَمَّارٍ تَقْتُلُهُ ؟ فَقَالَ : وَمَا يَنْعَمُنِي مِنْ ذَلِكَ ؟ وَاللَّهِ لَوْ أَمْكِنْتُ مِنْ ابْنِ سُمَيَّةٍ مَا قَتَلْتُهُ بِمَعْنَانِ ، وَلَكِنْ كُنْتُ قَاتِلُهُ بِنَائِلِ مَوْلَى عُثْمَانَ .

فَقَالَ شَبَثٌ : لَا تَصِلْ إِلَى عَمَّارٍ حَتَّى تَنْدُرَ^(١) الْهَامَ عَنْ كَوَاهِلِ الْأَقْوَامِ ، وَتَضِيقَ الْأَرْضُ الْفَضَاءَ عَلَيْكَ بِرُحْبِهَا . فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَوْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ الْأَرْضُ عَلَيْكَ أَضْيَقَ .

وَرَأَى مَعَاوِيَةُ أَنْ يَرْسِلَ لِعَلِيٍّ أَيْضًا فَبَعَثَ إِلَيْهِ حَبِيبَ بْنَ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيُّ وَشُرْحَبِيلَ بْنَ السَّمْطِ ، وَمَعْنُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ الْأَخْنَسِ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَتَكَلَّمَ حَبِيبٌ ، فَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ عُثْمَانَ كَانَ خَلِيفَةً مَهْدِيًّا يَمْلِكُ بَكْتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُنِيبُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَاسْتَقْلَمَ حَيَاتَهُ ، وَاسْتَبْطَأَتْمْ وَفَاتَهُ ، فَمَدَوْتُمْ عَلَيْهِ فَقَتَلْتُمُوهُ ، فَادْفَعْ إِلَيْنَا قَتْلَةَ عُثْمَانَ - إِنْ زَعَمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَقْتُلْهُ - نَقْتُلْهُمْ بِهِ ، ثُمَّ اغْتَرِزْ أَمْرَ

(١) تندر : تقطع .

الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم ، يُؤتَى الناسُ أمرهم مَنْ أجمع عليه رأيهم .
فقال له : ماأنت لا أمَّ لك والعزل وهذا الأمر ، اسكُتْ فإنك لستَ هناك ، ولا
بأهلٍ له ! فقام وقال : والله لترينى بحيثَ تسكره ! فقال على : وماأنت وإن أجلبتَ
بخيلك ورَجلك ؟ اذهب فصوبَّ وصعدَّ مابداً لك !

وقال شُرْحبيل بن السَّمُط : ما كلامى إلّا مثل كلام صاحبي ، فهل عندك
جوابٌ غيرُ الذى أُجبتَ به من قَبْلِ ؟ فقال على : نعم . ثم حمد الله وأثنى عليه ،
وذكر بمثةَ الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ، ثم ذكر أن الله قبضه
إليه ، واستخلف الناس أبا بكر ، واستخلف أبو بكر عمر ، فأحسننا السيرة وعدلا في
الأمة ، وقد وجدنا عليهما أن تولّيا عنا ، ونحن آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ،
وولى عثمانُ فعمل أشياءَ عابها الناس عليه ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أثنى الناسُ وأنا
معتزلُ أمورهم ، فقالوا لى : بايعُ فأبيتُ عليهم ، فقالوا لى : بايعُ فإنَّ الأمةَ لاترضى
إلا بك ، وإنا نخافُ إن لم تفعلْ أن يفترق الناس ، فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شقاقُ
رجلين قد بايمانى ، وخلافُ معاوية الذى لم يجعل الله له سابقة في الدين ، ولا سلف
صدق في الإسلام ، طليق ابن طليق ، حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله
وللمسلمين عدوا هو وأبوه حتى دخلا في الإسلام كارهين ، فلا غرو إلا انقيادكم له
وتدعون آل نبيكم الذى لاينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ، ولا أن تمسكوا بهم
من الناس أحدا ، ألا إني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإمارة الباطل وإحياء
معالم الدين .

فقال له شُرْحبيل : اشهد أن عثمان قتل مظلوما ، فقال لهما : لا أقول إنه قتل
مظلوما ، ولا إنه قتل ظالما . قالا : فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منه
بُرُآء ، ثم انصرفا .

فقال على : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبَرِينَ *
وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ (١).

ولما انسَلَخَ المحرم أمر على من ينادى : أَلَا إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ لَكُمْ : إِنْ قَدْ
اسْتَدْمَعْتُمْ لِرَاجِعِ الْحَقِّ وَتَفَيَّيُوا إِلَيْهِ ، وَاحْتَجَّجْتُ عَلَيْكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، فَدَعَوْتُكُمْ
إِلَيْهِ فَلَمْ تَنْتَهُوا عَنْ طُفْيَانٍ ، وَلَمْ تُجِيبُوا إِلَى حَقٍّ ، وَإِنْ قَدْ نَبَذْتُ إِلَيْكُمْ عَلَى سِوَاءٍ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْخَائِنِينَ .

فَفَزَعَ أَهْلُ الشَّامِ إِلَى أَمْرَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ وَعَمْرُو يَكْتَتِبَانِ الْكِتَابَ
وَيَمِثِّلَانِ الْجِيُوشَ ، وَفَعَلَ عَلَى فَمَلِهِمَا ، وَقَالَ : لَا تَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ ، فَأَنْتُمْ عَلَى
حِجَّةٍ ، وَتَرَكُّهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ حِجَّةً أُخْرَى ، فَإِذَا هَزَمْتُمُوهُمْ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا وَلَا تُجْهِزُوا
عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَكْشِفُوا عَوْرَةً ، وَلَا تَمْتَلُوا بِقَتِيلٍ ، وَإِذَا وَصَلْتُمْ إِلَى رِجَالِ الْقَوْمِ
فَلَا تَهْتِكُوا سِتْرًا ، وَلَا تَدْخُلُوا دَارًا ، وَلَا تَأْخُذُوا شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، وَلَا تُهَيِّجُوا
امْرَأَةً ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَعْرَاضَكُمْ وَسَبَّيْنِ أَمْرَاءِكُمْ فَإِنَّهُنَّ ضِعَافُ الْقَوَى وَالْأَنْفُسِ . وَكَانَ
يَقُولُ هَذَا الْعَمَى لِأَصْحَابِهِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ .

وَحَرَّضَ أَصْحَابَهُ فَقَالَ : عِبَادَ اللَّهِ ، اتَّقُوا اللَّهَ ، وَغَضُّوا الْأَبْصَارَ وَاخْفَضُوا الْأَصْوَاتَ
وَأَقْلُوا الْكَلَامَ ، وَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الْمَنَازِلَةِ وَالْمَجَاوِلَةِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْمَنَاضِلَةِ وَالْمَعَانِقَةِ
وَالْمَكَادِمَةِ وَالْمُلَازِمَةِ ، فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَلَا تَنَازَعُوا
فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، اللَّهُمَّ أَلْهِمَّهُمُ الصَّبْرَ ،
وَأَنْزِلْ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ ، وَأَعْظِمْ لَهُمُ الْأَجْرَ .

وَأَصْبَحَ عَلَى فُجَيْلٍ عَلَى خَيْلِ الْكُوفَةِ الْأَشْتَرِ ، وَهَلَى جَنْدَ الْبَصْرَةِ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ

وعلى رجالة الكوفة سمار بن ياسر ، وعلى رجالة البصرة قيس بن سعد ، وهاشم بن عتبة معه الرأية ، وجعل مسعر بن فدككي على قراء أهل البصرة .

وبعث معاوية على ميمنته ابن ذى الكلاع الحميري ، وعلى ميسرته حبيب بن مسلمة الفهري ، وعلى المقدمة أبا الأعور السلمي ، وعلى خيل دمشق عمرو بن العاص .
وعلى رجالة دمشق مسلم بن عتبة المرثي ، وعلى رجالة الناس كلهم الضحالك ابن قيس .

وباع رجال من أهل الشام على الموت ، فمقلوا أنفسهم بالعمائم ، وكانوا خمسة صفوف ، وخرجوا أول يوم من صفر فاقتتلوا ، وكان على الذين خرجوا من أهل الكوفة الأشتر ، وعلى من خرج من أهل الشام حبيب بن سلامة ، فاقتتلوا يومهم قتالاً شديداً معظم النهار ، ثم تراجعوا وقد انتصف بعضهم من بعض .

ثم خرج في اليوم الثاني هاشم بن عتبة في خيل ورجال ، وخرج إليه من أهل الشام أبو الأعور السلمي ، فاقتتلوا يومهم ذلك ثم انصرفوا .

وخرج في اليوم الثالث عمار بن ياسر ، وخرج إليه عمرو بن العاص ، فاقتتلوا قتالاً شديداً .

وفي اليوم الرابع خرج محمد بن علي بن أبي طالب ، وخرج إليه عبيد الله بن عمر ابن الخطاب في جمعين عظيمين ، فاقتتلوا أشد قتال ، وأرسل عبيد الله إلى ابن الحنفية يدعوه إلى المبارزة ، فخرج إليه ، فحرك علي دابته ، ورد ابنه ، وبرز علي إلى عبيد الله ، فرجع عبيد الله ، وقال محمد لأبيه : لو تركتني لرجوت قتله . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، وكيف تبرز إلى هذا الفاسق ؟ والله إنني لأرغب بك عن أبيه فقال علي : يا بني ، لا تقل في أبيه إلا خيراً . وتراجع الناس .

وخرج عبد الله بن عباس في اليوم الخامس ، وخرج إليه الوليد بن عتبة ، فاقتلوا قتالا شديداً ؛ فسبَّ الوليد بن عبد المطلب ، فطلبه ابن عباس ليبارزه فأبى وقاتل ابن عباس قتالا شديداً .

وخرج في اليوم السادس قيس بن سمد الأنصاري ، وخرج إليه ابن ذى السكلاع الحميري ، فاقتلوا قتالا شديداً ، وانصرفوا .

ثم إن عليّاً قال : حتّى متى لانا هـٰؤُلاءِ القوم بأجمعنا ! ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : الحمد لله الذي لا يُبرّم ما تنقض ، وما أبرّم لا ينقضه الناقضون ، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الأمة في شيء ، ولا جحد المفضولُ ذا الفضل فضله ، وقد ساقَتْنَا وهؤلاء القوم الأقدار ، فنحن من ربنا بمرأى ومسمع ؛ فلو شاء عجل النّعمة ، وكان منه التّفير حتى يكذب الله الظالم ، ويُعلم الحق أين مصيره ! ولكنّه جعل الدنيا دار الأعمال ، وجعل الآخرة دار القرار ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى . ألا وإنكم لأقو القوم غداً ، فأطيلوا اللّيلة القيام ، وأكثروا تلاوة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، والقوم بالجدّ والعزم ، وكونوا صادقين .

فقام القوم يصلحون سلاحهم ، فرّ بهم كعب بن جُميل ، فقال :
أصبحت الأمة في أمرٍ عَجَبٍ والمُلك مجموعٌ غداً لَمَن غَلَبَ
فقلتُ قولاً صادقاً غير كَذِبٍ إنَّ غداً هَهِلكَ أعلامُ العربِ

وعبّى على الناسَ ليلته حتى الصباح ، وزحف بالناس ، وخرج إليه معاوية في أهل الشام ، وعرف على القبائل ، فقال للأزد : اكفونا الأزد ، وقال لخثعم : اكفونا خثعم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيها أختها من الشام ، إلّا أن تكون قبيلةٌ ليس منها بالشام أحد ، فيصيرها إلى قبيلة أخرى من الشام ليس منهم بالمرآق

أحد ، مثل بجيلة ، إذ لم يكن بالشام منهم إلا القليل ، فصرّفهم إلى الحُرم .

وتناهض الناسُ يومَ الأُرْبِعاء ، واقتتلوا قتالاً شديداً . ثم انصرفوا عند المساء وكلٌّ غير غالب . فلمّا كان يوم الخميس صلّى على بَغْلَسَ ، وخرج بالناس إلى أهل الشام ، فزحف إليهم وزحفوا معه ، ثم انتهى هذا اليوم ، وقد انكشفت ميمنة أهل العراق ، وانتهت هزيمتهم إلى عليّ ؛ فشى نحو الميسرة ، فانكشفت عنه مُضَرَّ في الميسرة ، وثبتت معه ربيعة ، ودنا منه أهل الشام ، فا زاده قُرْبُهم إلا إسراعا ، فقال له ابنُه الحسن : ما ضرّك لو سميتَ حتى تنتهي إلى هؤلاء القوم من أصحابك ! فقال : يا بني ، إن لأبيك يوماً لا يعدوه ، ولا يبطيء به عنه السمي ، ولا يعجل به إليه المشي ، إن أباك والله لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

فلما وصل إلى ربيعة نادى بصوت عال كغير المكثرت لما فيه الناس : لمن هذه الرايات ؟ قالوا : رايات ربيعة ، قال : بل رايات عصم الله أهلها ، فصبرهم وثبت أقدامهم .

وصرّ بعلّى في ذلك الوقت الأشترُ النَّخَعِيّ ، فقال له : ائت هؤلاء القوم . فقل لهم : أين فراركم من الموت ؟ فذهب إليهم الأشتر ، وهيج الناسَ لخوض الغمرات ، فتابعوه وكرّوا معه ، فأخذ لا يمدّ لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع إلا حازه وردّه ، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجرة ، وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ، ولم يزل الأشتر في هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية ، وكان معاوية يقول : أردتُ في هذا الوقت أن أنهزم ، فذكرت قول ابن الإطنابة :

أبت لي عَفَّتِي وأبي بلائي	واقداي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي	وأخذني الحمد بالثمن الريح
وقولي كلا جشأت وجاشت :	مكانك تحمدي أو تستريحي

فدمنى هذا القول من الفرار .

ولما أمسى المساء على الفريقين لم يفترقا ، واستمر القتال حتى الصباح ؛ وسُميت هذه الليلة ليلة الهَرِير ، يُشبهونها بليلة القادسية ، فتطاعنوا حتى تَقَصَّفت الرِّمَاح ، وتراموا حتى نَفَدَ النَّبْل ، وأخذوا السيوف ، وعلى سَيْرٍ فيما بين اليمين واليسرة ، وأمر كل كَتِيبة أن تُقَدِّم على التى تليها ، والأشتر يقول : مَنْ يَشْتَرِ نَفْسَهُ ، ويقاتل مع الأشتر يظهر أو يَلْحَقَ بالله ! فاجتمع إليه ناسٌ كثير ، فقال لهم : شُدُّوا شَدَّةً - فِدَى لَكُمْ خَالِي وَعَمِّي - تَرْضُون بها الرِّب ، وتمزَّون بها الدين ثم ضرب وَجْهَ دابته ، وقال لصاحب رايته : أَقْدِمُ بها ، وحمل على القوم ، وحملوا معه ، فضرب أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عَسْكَرهم ، فقاتلوه قتالاً شديداً .

ولما رأى على الظَّفَر من ناحية الأشتر أمدّه بالرجال ، فقال عمرو بن العاص لوردان مولاة : أَتَدْرِي مَا مَثَلِي وَمَثَلُكَ وَمَثَلُ الْأَشْتَرِ ؟ قال : لا ، قال : كالأشقر ، إن تقدم عَقَر ، وإن تأخر عَقِر ؛ لئن تأخَّرت لأضربن عنقك ، قال : أما والله يا أبا عبد الله ؛ لأوردنك حياض الموت ، ضَعْ يَدَكَ على غَارَتِي . ثم جعل يتقدم ويتقدم ويقول : لأوردنك حياض الموت . واشتد القتال .

فلما رأى عمرو أن أمر أهل العراق قد اشتد وخاف الهلاك قال لمعاوية : هل لك فى أمر أغْرِضه عليك ، لا يزيدنا إلا اجتماعاً ، ولا يزيدهم إلا فُرْقَةً ؟ قال : نعم ، قال : زَفَعَ المصاحف ، ثم نقول : هذا حَكَمُ فيما بيننا وبينكم ، فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم مَنْ يقول : يَلْبِغُنِي لَنَا أَنْ نَقْبَلَ ، فتكون فُرْقَةً بينهم ، وإن قَبِلُوا ما فيها رَفَعْنَا القتالَ عَنَّا إلى أَجَلٍ !

فوافق معاوية ، وأشار على أصحابه بهذا الرأى ، فرفعوا المصاحف على الرِّمَاح ،

وقالوا : هذا حُكْمُ كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم ، مَنْ لثغور الشام بَمَدٍّ أهله !
مَنْ لثغور العراق بَمَدٍّ أهله .

فقال أهل الكوفة : نجيب إلى كتاب الله ، فقال لهم عليٌّ : عبادَ الله ! امضُوا
على حَقِّكم وصدقكم وقاتلِ عَدُوَّكم ؛ فَإِنَّ معاويةَ وَعَمْرًا والضَّحَّاكَ وَمَنْ معهم
ليسوا بأصحابِ دينٍ ولا قرآنٍ ، أنا أعرفُ بهم منكم ، قد صحبتهم أطفالا ،
ثم رجالا ، فكانوا شرًّا أطفالا وشرًّا رجالا ، وَيَحْكُمُ ! والله ما رفعوها إلا خديمة
ووهنًا ومكيدة .

فقالوا له : لا يَسْمُنَا أَنْ نُدْعَى إلى كتاب الله فنأبى أَنْ نقبله . فقال لهم عليٌّ :
فإني إنما أقاتلهم لِيَدِينُوا لِحُكْمِ الكتاب ، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونسوا
عَهْدَهُ ، وَنَبَذُوا كِتَابَهُ . فقال له مسعر بن فذكى التميمي وزيد بن حصين الطائفيّ
في عصابة من القرءاء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا عليٌّ أَجِبْ إلى كتاب الله
عز وجل إذ دُعيت إليه ، وإلا دفعناك برُمَّتِكَ إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا
بإبن عَفَّان ! قال : فاحفظوا عني نَهْيِي إياكم ، واحفظوا مقاتلتكم ، فإن تطيعوني
فقاتلوا ، وإن تعصوني فاصنعوا ما بدا لكم .

قالوا : ابْعَثْ إلى الأَشْترِ فليأتِكَ . فبعث عليٌّ يَزِيدَ بن هانئ إلى الأَشْترِ
يستدعيه ، فقال الأَشْترُ : ليست هذه الساعة بالساعة التي يبنى لك أن تُزِيلَنِي
عن موقعي : إني قد رجوتُ أَنْ يَفْتَحَ الله لي .

فرجع يزيد فأخبره ، وارتفعت الأصوات ، وارتفع الرَّهَجُ^(١) من ناحية
الأشتر ، فقالوا : والله ما نراك إلا أَمْرَتَهُ أَنْ يقاتل ، فقال عليٌّ : هَلْ رأيتموني
ساررتَه ؟ أما كلنُهُ على رؤوسكم وأنتم تسمعون ! قالوا : فابعث إليه فليأتِكَ

(١) الرهج : الشغب .

وإلا والله اعترلناك ، فقال له : ويلك ! يا يزيد قل له أقبل إلى ، فإن الفتنه قد وقعت ، فأبلغه ذلك ، فقال الأشتر : أرفع المصاحف ؟ قال : نعم ، قال : والله لقد ظننت أنها سترفع اختلافا وفرقة ؛ إنها مشورة ابن العاص ، ألا ترى إلى الفتح ، ألا ترى ما يلقون ، ألا ترى ما صنع الله لنا ! لن ينبغي أن أدع هؤلاء وأنصرف عنهم . فقال له يزيد : أتعجب أن تظفر وأمير المؤمنين يسلم إلى عدوه أو يقتل ! قال : لا والله ، سبحان الله ، فأعلمه بقولهم . فأقبل إليهم الأشتر وقال : يأهل العراق ، يأهل النذل والوهن ، أحيين علوتم القوم ، وظننوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيهما ! وهم والله قد تركوا ما أمر الله به فيها ، وسنة من أنزلت عليه . فأمهلونى فواقاً^(١) ؛ فإنى قد أحسست بالفتح . قالوا : لا ، قال : أمهلونى عدو الفرس فإنى قد طمعت فى النصر . قالوا : إذن ندخل معك فى خطيئتك . قال : نخبرونى عنكم ، متى كنتم محقين ! أحيين تقاتلون وخياركم يقتلون ! فأنتم الآن إذا أمسكنم عن القتال مُبطلون . أم أنتم الآن مُحقون ، فقتلكم الذين تنكرون فضلهم وهم خيرٌ منكم فى النار .

قالوا : دعنا منك يا أشر ، قاتلناهم لله ، وندعُ قتالهم لله ؛ قال : خذيتكم وانخذتكم ، ودعيتكم إلى وضع الحرب فأجبتكم ، يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة فى الدنيا ، وشوقاً إلى لقاء الله ، فلا أرى مرادكم إلا قبحاً ، يا أشباه النيب الجلالة^(٢) ، ما أنتم برائين بمسدها عزاً أبداً ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون .

فسبّوه وسبّهم وضربوا وجهه دابته بسياطهم ، وضرب وجوه دوابهم بسوطه ،

(١) الفواق : ما بين الحلبتين من الوقت . (٢) النيب الجلالة : النياق المسنة .

فصاح به وبهم عليّ فكفّوا . وقال الناس : قد قبلنا أن نجعل القرآن بيننا وبينهم حكماً .

فجاء الأشعث بن قيس إلى عليّ فقال : أرى الناس قد رضوا بما دعّوهم إليه من حكم القرآن ، فإن شئت أتيت معاوية ، فسألته : ما يريد ؟ قال : اثته ، فأثاه فقال لمعاوية : لأى شيء رفعتكم هذه المصاحف ؟ قال : لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى كتابه ، تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً يرضى به ، نأخذ عليهما أن يعملّا بما فى كتاب الله لا يعدّوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه . قال له الأشعث : هذا الحق .

ثم عاد الأشعث إلى عليّ ، وأخبره بما قال معاوية ، وتراضى الفريقان على هذا الرأى ، وقال أهل الشام : قد رضينا عمرو بن العاص . وقال الأشعث وأولئك القوم الذين صاروا خوارج : إنا قد رضينا بأبى موسى الأشعرى ! فقال عليّ : قد عصيتموني فى أوّل الأمر ، فلا تعصوني الآن ، لأرى أن أوّل أبى موسى . فقال الأشعث وزيد بن حصين ومسر بن فذكى : لا نرضى إلا به ؛ فإنه قد حدّثنا ما وُفّقنا فيه .

قال عليّ : فإنه ليس بثقة ، قد فارقتى وخذّل الناس عنيّ ، ثم هرب منى حتى أمّنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس ، أوّليّه ذلك ، قالوا : والله ما نبأى أنت كنت أم ابن عباس ، لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء . قال عليّ : فإنى أجمل الأشر ، قالوا : وهل سمر الأرض غير الأشر ! فقال : قد أيّتم إلا أبى موسى ؟ قالوا : نعم ، قال : فاصنعوا ما أردتم .

فبعثوا إليه ، وقد اعتزل القتال ، فدخل عليه مولى له ، فقال : إن الناس قد

اصطلحوا ، فقال : الحمد لله ، قال : قد جعلوك حكماً ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون .
ثم جاء أبو موسى حتى دخل العسكر .

ولما عَلِمَ الأَشرَجُ جاءَ إلى عليّ فقال : أَرَأَيْتَ^(١) بعمرو بن الماص ، فوالله لئن ملأتُ عيني منه لأقتلنّه . وجاء الأحنف بن قيس فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك قد رُميتُ بِحَجَرِ الأرض ، وإني قد عَجَمْتُ أبا موسى وحَلَبْتُ أَشْطَرَهُ ، فوجدته كليل الشَّفَرَةِ ، قريب القَمَرِ ، وإنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يَدْنُو منهم حتى يصير في أَكْفُفِهِمْ ، ويبعدُ حتى يصيرَ بِمَنْزِلَةِ النجم منهم ، فإن أبيتَ أن تجعلني حَكماً فاجعلني ثانياً أو ثالثاً ، فإنه لن يَعمِدَ عُقْدَةٌ إِلَّا حللتها ، ولا يحلَّ عُقْدَةٌ أَعمَدُها لك إِلَّا عقدتُ أخرى أَحكمَ منها . فأبى الناس إلا أبا موسى والرضا بالكتاب ، فقال الأحنف : إن أيتَمَّ إِلَّا أبا موسى فأدْفِئُوا ظَهْرَهُ بِالرَّجَالِ .

وحضر عمرو بن الماص عند عليّ ليكتب العهد بحضوره ، فكتبوا : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين . . . » فقال عمرو للكاتب : اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم ، وأما أميرُنا فلا . فقال الأحنف : لا تمنحُ اسمَ أمير المؤمنين ، فإنني أخافُ إنْ محوَتها أَلَا ترجعُ إليك أبداً ، لا تمنحُها وإن قتلَ الناسُ بعضهم بعضاً ! فأبى ذلك عليّ مليّاً من النهار ، ثم إن الأشعث بن قيس قال للكاتب : امحُ هذا الاسم ، فحماه ، فقال عليّ : الله أكبر ! سُنَّةٌ بسُنَّةٍ ، وإني لكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّةِ ، فكتبت « محمد رسول الله » ، فقالت قريش : لستَ برسول الله ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ،

(١) لزه وألزه : ألصقه .

فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحوه ، فقلت : لا أستطيع ، فقال : أرينيه ، فأريته ، فحاه بيده ، وقال : إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب ، فقال عمرو : سبحان الله ! أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ! فقال عليّ : ومتى لم تسكن للفاسقين ولياً وللمؤمنين عدواً ! فقال عمرو : والله لا يجمع بيني وبينك مجلس بمد هذا اليوم أبداً ، فقال عليّ : أئني لأرجو أن يطهر الله مجلسي منك ومن أشباهك ، ثم كتب الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تفاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان ، قاضى عليّ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين : إننا ننزل عند حكم الله وكتابه ، وألا يجمع بيننا غيره ، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نخفي ما أحيا ، ونميت ما أمات ، فما وجد الحكمان - وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص - في كتاب الله عز وجل عملا به ، وما لم يجداه في كتاب الله عز وجل ، فالتسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من اليهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما ، والأمة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه . وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كليهما عهد الله وميثاقه أنا على ما في هذه الصحيفة ، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهديهم وغائبهم . وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ، ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا الله . وأجلا القضاء إلى رمضان ، وإن أحبنا أن يؤخرا ذلك أخرناه على تراضٍ منهما ، وإن توفى أحد الحكمين فإن

أمير الشيعة يختار مكانه - ولا يألوه من أهل المعدلة والقسط ، وإن مكان القضية الذي يقضيان فيه مكانٌ عدل بين أهل الكوفة والشام ، وإن رضيا وأحبًا ، فلا يحضرهما فيه إلا مَنْ أراد . ويأخذ الحكماء مَنْ أراد من اليهود ، ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة ، وهم أنصارٌ على مَنْ ترك هذه الصحيفة ، وأراد إلحاداً أو ظلاماً ؛ اللهم إنا نستنصرك على مَنْ ترك ما في هذه الصحيفة . »

وشهد الأشعث بن قيس وسعيد بن قيس الهمداني وورقاء بن سمى البجلي ، وغيرهم من أصحاب علي ، وأبو الأعور السلم ، وجبيب بن مسلمة وزمّل بن عمرو المذري من أصحاب معاوية . وقيل للأشعث ليكتب فيها ، فقال : لا صحبتني يمينا ولا نفقتي بعدها شمالي ، إن خطّ لي في هذه الصحيفة اسم . وكتب الكتاب يوم الأربعاء ثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين ، واتفقوا على أن يوافي أمير المؤمنين عليّ موضع الحكمين بدومة الجندل في شهر رمضان ، وكذلك معاوية ؛ مع كلٍّ منهما أربعمائة من أصحابه وأتباعه .

وخرج الأشعث بالكتاب يقرؤه على الناس حتى مرّ على طائفة من بني تميم ، فيهم عروة بن أدية ، فقرأ عليهم فقال عروة : تحكّمون في أمر الله الرجال ! لا حكم إلا لله . ثم شدّ بسيفه ، فضرب به عجز دابة الأشعث ضربة خفيفة ، واندفعت الدابة ، وصاح به أصحاب الأشعث ، فرجع وغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، فشي إليه الأحنف بن قيس وميسرة بن فدّكيّ وناس من تميم ، فاعتذروا ، فقبل وشكر .

وقيل لعليّ : إن الأشعث لا يُقرّ بما في الصحيفة ، ولا يرى إلا قتال القوم . فقال عليّ : وأنا والله مارضيت ، ولا أحببت أن ترضوا ؛ فإذا أيتّم إلا أن ترضوا

فقد رَضِيتْ ؛ وإذْ رَضِيتْ فلا يَصْلُحُ الرجوع بعد الرضا ، ولا التَّبدِيلُ بعد الإقرار ،
إِلَّا أن يُعَصَى الله ويتمدَّى كتابه ، فقاتلوا مَنْ تَرَكَ أمرَ الله . وأما الذى ذكرتم
من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ، ولستُ أخاف على ذلك ، ياليت
فيكم مثله اثنين ، ياليت فيكم مثله واحداً ، يرى فى عدوى ما أرى ؛ إذَنْ خَلَفْتُ
علىْ مَثُونَتِكُمْ ، ورجوتُ أن يستقيم لى بعض أَوْدِكُمْ ، وقد نهيتكم فعصيتموني ،
فكنت أنا وأنتم كما قال أخوهوازن :

وهلْ أنا إِلَّا منْ غَزِيَّةٍ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرَشَّدَتْ غَزِيَّةٌ أَرشُدُ (١)

والله ، لقد فعلتم فعلةً ضمضت قوةً ، وأسقطتْ مُنَّةً ، وأورثتْ وهناً وذِلَّةً ، ولما
كنتم الأعْلَيْنِ ، وخاف عدوكم الاجتياح ، واستحَرَّ بهم القتل ، ووجدوا ألم الجراح
رفعوا المصاحف ، فدعَوْكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب ، ويتربصوا
بكم المنون خديمةً ومكرًا ، فأعطيتهم ماسألوا ، وأبيتم إِلَّا أن تُدْهِنُوا (٢) ،
وايم الله ما أظنكم بعدها توفقون إلى الرشد .

ثم رجع الناس عن صِفِّين ، وقد فشا فيهم النَّزاع ودبَّ الشقاق ، وأخذوا
يقطعون الطريق بالتشائم والتضارب بالسياط ، يقول الخوارج : يأعداء الله ، أذهنتم
فى أمر الله ! ويقول الآخرون : فارقم إمامنا ، وفرقم جماعتنا !

وساروا حتى جازوا النُّخَيْلَةَ (٣) ، ورأوا بيوتَ الكوفة ، فإذا بشيخ فى ظلِّ
بيتٍ عليه أثر المرض ، فسلم عليه علىٌّ ، فردَّ ردًّا حسنًا ، فقال له علىٌّ : أرى
وجهك متغيرًا ، أَمِنْ مرض ؟ قال : نعم ، قال : لملك كرهته . قال : ما أحبُّ أنه

(١) لدريد بن الصمة ، ديوان الحماسة - بشرح التبريزى ٢ : ٣٠٦ .

(٢) الإدعان : المصانعة والنفاق .

(٣) النخيلة : موضع قرب الكوفة على سمت الشام .

بغيري ، فقال : أليس احتساباً للخير فيما أصابك ؟ قال : بلى ! قال : فأبشِّرْ بِرَحْمَةِ اللَّهِ
وغفران ذنبك ، مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ قال : صالح بن سُلَيْم ، قال : يَمُنُّ أَنْتَ ؟ قال :
أما الأصل فمن سَلَامَانَ طَبَّيٍّ ، وأما الدعوة والجوار ففي سُلَيْم بن منصور ، فقال :
سبحان الله ! ما أحسن اسمك واسم أبيك ، واسم من اعتزيت إليه ، واسم أدمعائك !
هل شهدت معنا غزائنا هذه ؟ قال : لا والله ، ولقد أردتها ، ولكن ما ترى من
أثر الحمى منعى عنها ، فقال على : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى
الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ
مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .

خبرني ، ما يقول الناسُ فيما كان بيننا وبين أهل الشام ؟ قال : فيهم السرور وهم
يفشون الناس ، وفيهم المكبوت الأسفُ بما كان بينك وبينهم ، وأولئك نُصَحَاءُ
الناس لك . قال : صدقت ، جعل الله ما كان من شكواك خطاً لسبائك ، فإنَّ
المرض لا أَجَرَ فيه ، ولكن لا يدع على العبد ذنباً إلا حطَّه ، وإنما الأجرُ في القولِ
باللسان والمعمل باليد والرَّجل ، وإن الله عزَّ وجلَّ ليدخل بِصِدْقِ النية والسريرة
الصالحة عالماً من عباده الجنة .

ثم مضى غير بعيد ، فلقية عبد الله بن وداعة الأنصاري ، فدنا منه ، وسلم عليه ،
وسايره فقال له : ما سمعتَ الناس يقولون في أمرنا ؟ قال : منهم المعجب ، ومنهم
الكاره له ، قال : فما قول ذوى الرأي ؟ قال : يقولون : إنَّ علينا كان له جَمْعٌ
عظيم ففرقه ؛ وكان له حصن حصين فهدمه ، فنتى يَبْنِي ما هدم ، ويجمع ما فرق !
ولو كان مضى بمن أطاعه إذ عصاه مَنْ عَصَاه ، فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك
الحزم قال على : أنا هدمت أم هم هدموا ؟ أنا فرقته أم هم فرقوا ؟ أما قولهم :
لو كان مضى بمن أطاعه فقاتل حتى يظفر أو يهلك ، فوالله ما خفى هذا عني ، وإن

كنت لسخياً بنفسى عن الدنيا، طيب النفس بالموت ! ولقد هممت بالإقدام على القوم، ففطرت إلى هذين قد ابتدراني - يعنى الحسن والحسين - ونظرت إلى هذين قد استقدماى - يعنى عبد الله بن جعفر ومحمد بن على - فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الأمة ، وكريهت ذلك ، وأشفقت على هذين أن يهلكا ، وإيم الله لئن لقيتهم بعد يومى هذا لألقيتهم وليسوا معى فى عسكر ولا دار .

ثم مضى ، وإذا على يمينه قبور سبعة أو ثمانية ، فقال على : ما هذه ؟ فقيل : يا أمير المؤمنين ، إن خباب بن الأرت توفى بعد نحر جك ، وأوصى بأن يُدفن فى الظَّهر - وكان الناس إنما يُدفنون فى دورهم وأفئيتهم ، وكان أول من دُفن بظاهر الكوفة ، ودفن الناس إلى جنبه ، فقال على : رحم الله خباباً ، فلقد أسلم راعباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ، وابتلى فى جسمه أحوالا ، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا ، ثم وقف على القبور فقال : السَّلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقرة ، من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، وبكم - عما قليل - لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم ، طوبى لمن ذكر الميعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل .

ثم سار فسمع بكاء ، فقال : ما هذه الأصوات ؟ فقيل : البكاء على قتلى صفين ، فقال : أما أنى أشهد لمن قتل منهم صابراً محتسباً بالشهادة .

ثم مرّ بالشَّاميين ، فسمع رجّة شديدة ، فوقف ، ففرج إليه حرب بن شرجيل الشَّامى ، فقال له على : أَيْمَلِكُمْ نساؤكم ؟ ألا تنهونهنّ من هذا الرّين ! قال : يا أمير المؤمنين ، لو كانت داراً أو دارين أو ثلاثا قدرنا على ذلك ؛ ولكن قُتل

من هذا الحى ثمانون ومائة ؛ فليس دارٌ إلَّا وفيها البكاء ، فأما نحن مشرَّ الرجال
فإنا لانبكى ؛ ولكن نفرحُ بالشهادة . قال عليٌّ : رَحِمَ اللهُ قَتْلَكُمْ وموتاكم . ثم
سار فأقبل حَرْبَ يمشى معه وعليُّ راكبٌ ، فقال له عليٌّ : ارجع ووقف ، ثم قال :
ارجع ؛ فإنَّ مَشَىَ مثلكَ معِ مثلى فتنةٌ للوالى ، ومَدَلَّةٌ للمؤمن .

ثم مضى حتى مرَّ بالناعطين - وكان جُلُهم عثمانيه - فسمع بعضهم يقول :
والله ما صنع عليٌّ شيئًا ، ذهب ثم انصرف فى غير شىء . فلما رأوه أبلَسُوا^(١) ،
فقال عليٌّ لأصحابه : وجوه قومٍ ما رأوا الشام ، ثم قال لأصحابه : مَنْ فارَقناهم آنفا
خيرٌ مِنْ هؤلاء ، ثم قال :

أخوك الذى إنْ أجزَضْتَكَ مُلِمَّةٌ من الدَّهْرِ لم يبرحْ لبثَكَ وَاجِبا
وليسَ أخوكَ بالذى إنْ تشَعَّبَتْ عليك الأمورُ ظلَّ يلحَاكَ لائِمًا
ثم مضى ، حتى دخل الكوفة .

وقَبْلَ أنْ يدخلَ الكوفةَ فارَقَهُ الخوارج ، وذهبوا إلى حَرُوراء^(٢) ، ونزل بها
منهم اثنا عشر ألفا ، ونادى مناديتهم : إنَّ أميرَ القتالِ شَيْثُ بنَ رِئِمَى التميمى ،
وأَميرُ الصلاةِ عبدُ اللهِ بنُ الكَوَّاءِ اليشْكُرى ، والأمرُ شورى بعد الفتح ، والبَيْعَةُ
لله عزَّ وجلَّ ، والأمرُ بالمعروف والنهى عن المنكر .

فلَمَّا سمعَ عليٌّ بأمرهم بعثَ إليهم عبدُ اللهِ بنُ العباس ، وقال له : لا تمَجَلْ إلى
جَوابِهِم وخُصومتِهِم حتى آتَيْكَ .

ففرجَ إليهم ، فأقبلوا يُكَلِّمونه ، فلم يصبر حتى راجعهم وقال : ما نَقَمْتُمْ مِنْ

(١) أبلَسوا : تحيروا .

(٢) حروراء : موضعٌ بظاهر الكوفة .

الحكمين؟ وقد قال تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (١)، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم! فقالوا له: أما ما جعل الله حكمه إلى الناس، وأمرَ بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمرَ به، وما حكم فأمضاه، للعباد أن ينظروا في هذا. قال ابن عباس: فإن الله عز وجل يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ (٢) فقالوا له: أو تجعل الحكم في الصيد، والحدوث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين! ثم قالوا: إن هذه الآية بيننا، أعدل عندك ابن العاص وهو بالأسس يُقاتلنا ويسفك دماءنا؟ فإن كان عدلاً فلنسناً بعدول ونحن أهل حرب به. وقد حكمتم في أمر الله الرجال، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه: أن يُقتلوا أو يرجعوا. وقد كتبتم بينكم وبينهم كتاباً، وجعلتم بينكم المودعة، وقد قطع الله المودعة بين المسلمين وأهل الحرب مذ زلت براءة، إلا من أقر بالجزية.

ثم جاء علي فوجد ابن عباس يُخاصمهم، فقال له: ألم أنهك عن كلامهم! ثم تكلم فقال: اللهم هذا مقام، من يُفليح فيه كان أوّل بالفلاح يوم القيامة، ثم قال لهم: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء، قال: فما أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتك يوم صفين، قال: أنشدكم الله، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف، وقتلتم: نجيبهم قلت لكم: إني أعلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين! ثم قال لهم: قد اشترطت على الحكمين أن يُحييا أحياناً القرآن، ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكماً بحكم القرآن، فليس لنا أن نخالف، وإن أبيتا فنحن من حكمهما برآء.

قالوا: نخبرنا، أترأه عدلاً تحكيم الرجال في الدماء؟ فقال: إنا لسنا حكمنا الرجال، إنما حكمنا القرآن، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين،

لا ينطق ، إنما يتكلم به الرجال . قالوا : نخبرنا عن الأجل ، لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟ قال : لِيَعْلَمَ الجاهل ، وَيَتَنَبَّهَ العالم ، ولعلَّ الله عزَّ وجلَّ يصلح في هذه الهدنة الأمة . ادخلوا مِصْرَكُمْ رحمكم الله !

ولما جاء وقتُ اجتماع الحكَّامين أرسل على أربعائة رجل ؛ عليهم شُرَيح بن هاني ، وأرسل معهم عبد الله بن عباس ليصلِّيَ بهم ، ويُلِيْ أمورَهم ومعه أبو موسى الأشعري ، وأرسل معاوية عمرو بن العاص في أربعائة من أهل الشام حتى توافوا دومة الجندل^(١) . وكان عمرو إذا أتاه كتاب من معاوية لا يُدرى ما جاء فيه ، ولا يسأله أهل الشام عن شيء ، وكان أهل العراق يسألون ابن عباس عن أيِّ كتاب يصله من علي ، فإنَّ كتَّمتهم ظنُّوا به الظنون وقالوا : أترأه كتب بكذا وكذا ؟ فقال لهم ابن عباس : أما تَعْقِلُون ! أما ترون رسول معاوية يحى ولا يَعْلَمُ أحد بما جاء به ، ولا يُسْمَعُ لهم صياح ، وأنتم عندي كل يوم تظنون في الظنون !

وقال المغيرة بن شعبة لرجال من قريش : أترون أحداً يستطيع أن يأتي برأى يعلمُ به : أيجتمع الحُكَّان أم لا ؟ فقالوا : لا ، فقال : إني أعلمُ منهما . فدخل على عمرو بن العاص فقال : كيف ترانا - معشر من اعتزل الحرب ؟ فإنَّا قد شككنا في الأمر الذي استبان لكم فيها ؟ فقال له عمرو : أراكم خلف الأبرار ، وأمام الفجار . فأنصرف المغيرة إلى أبي موسى فقال له مثل قوله لعمرو ، فقال له أبو موسى : أراكم أثبتَّ الناس رأيا ، فيكم بقيَّة الناس . فعاد المغيرة إلى أصحابه ، وقال لهم : لا يجمع هذان على أمرٍ واحد .

(١) دومة الجندل : حصن وقرى بين المدينة والشام .

فلما اجتمع الحكماء قال عمرو : يا أبا موسى ، ألسنت تعلم أن عثمان قُتل مظلوما ؟ قال : أشهد ، قال : ألسنت تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه ؟ قال : بلى ، قال : فما يمنعك منه وبيته في قريش كما قد علمت ؟ فإن خُفِت أن يقول الناس : ليست له سابقة ، فقل : وجدته وليّ عثمان الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه ، الحسن السياسة والتدبير ، وهو أخو حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكاتبه ، وقد صحبه . وعرض له بسلطان .

فقال أبو موسى : يا عمرو ، أتق الله ، فأما ما ذكرته من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله ، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح ، إنما هو لأهل الدين والفضل ، مع أني لو كنت معطبه أفضل قريش شرفاً أعطيته على ابن أبي طالب ، وأما قولك : إن معاوية وليّ دم عثمان ، فوله هذا الأمر ، فلم أكن لأوليّه وأدعّ المهاجرين الأولين . وأما تعريضك لي بالسلطان ، فوالله لو خرج معاوية لي من سلطانه كلمة لما وليته ، وما كنت لأرتشي في حكم الله ، ولكنك إن شئت أخيننا اسم عمر^(١) بن الخطاب رحمه الله .

قال له عمرو : فما يمنعك من ابني ، وأنت تعلم فضله وصلاحه ؟ فقال : إن ابنك رجلٌ صدق ، ولكنك قد غمستته في هذه الفتنة .

وكان عمرو قد عودّ أبا موسى أن يقدمه في الكلام ، يقول له : أنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسنّ مني ، فتكلم وأتكلّم . وتعود ذلك أبو موسى . وأراد عمرو بذلك أن يقدمه في خلع عليّ ، فلما أراد عمرو على ابنه أو على معاوية أتى ، وأراد أبو موسى ابن عمر فأبى عمرو .

(١) يريد تولية عبد الله بن عمر .

ثم قال عمرو : ما رأيك ؟ قال : أن نخلع هذين الرجلين ، ونجعل الأمر شورى ، فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا . فقال عمرو : الرأي ما رأيته .

فأقبلوا إلى الناس وهم مجتمعون ، فقال عمرو : يا أبا موسى ، أعلمهم أن رأينا قد اتفق ، فتكلم أبو موسى فقال : إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمة هذه الأمة .

فقال عمرو : صدق وبر ، تقدم يا أبا موسى فتكلم .

فتقدم أبو موسى ليتكلم ، فقال له ابن عباس : ويحك ! والله إنني لأظنه قد خدعك ، إن كننا اتفقنا على أمر فقدّمه فليتكلم به قبلك ، ثم تكلم به بعده ، فإنه رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك أرضا بينكما ، فإذا قت في الناس خالفك .

وكان أبو موسى مغفلاً ، فقال : إنا قد اتفقنا ، ثم قال : أيها الناس ، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة ، فلم نر أصلح لأمرها ، ولا أئتم لشئها من أمر قد أجمع رأي ورأي عمرو عليه ، وهو أن نخلع علياً ومعاوية ، ويؤلى الناس أمرهم من أحبوا ، وإنني قد خلعت علياً ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وولوا عليكم من رأيتموه أهلاً . ثم تنحى .

وأقبل عمرو فقام وقال : إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية ، فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه .

فقال سعد : ما أضغفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده ؟ فقال أبو موسى : فما أصنع ؟ واقفني على أمر تم نزع عنه . فقال ابن عباس : لا ذنب لك يا أبا موسى ، الذنب لمن قدّمك في هذا المقام . قال : غدر ، فما أصنع ؟ فقال ابن عمر : انظروا

إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة ، صار إلى رجل لا يبالي ما صنع ، وإلى آخر ضعيف .
وقال عبد الرحمن بن أبي بكر : لو مات الأشعريّ قبل هذا اليوم لكان خيراً له .
وقال أبو موسى الأشعريّ لعمره : لا وفّقك الله ، غدرت وفجرت ! إنما مثلك
كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، قال عمرو : إنك مثل الحمار
يحمل أسفارا .

ثم حمل شريح بن هانئ على عمرو فضربه بالسّوط ، وحمل ابن عمرو على شريح
فضربه بالسّوط أيضاً ، وحجز الناس بينهما ، فكان شريح يقول بعد ذلك :
ما ندمت على شيء ندّمتني على ضرب عمرو بالسّوط ، ولم أضربه بالسّيف .
والتس أهل الكوفة أبا موسى ، فإذا هو قد هرب إلى مكة ، ثم انصرف عمرو
وأهل الشام إلى معاوية ، فسلموا عليه بالخلافة . ورجع ابن عباس وشريح إلى عليّ ؛
وأبلغاه خبر الحكمين !

٥٣ — يوم النهران*

لما أراد عليٌّ أن يبعث أبا موسى للحكومة أتاه رجلان من الخوارج : زُرعة بن
البرج الطائي ، وخرقوص بن زهير السعدي ، فقالا له : لا حُكْمَ إِلَّا لله ! وقال
خرقوص بن زهير : تَبُّ من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، واخرج بنا إلى عدونا
فقاتلهم حتى تلقى ربنا . فقال عليٌّ : قد أردتُكم على ذلك فمصيتموني ، وقد كتبنا
بيننا وبين القوم كتاباً ، وشرطنا شروطاً ، وأعطينا عليها عهداً ، وقد قال الله تعالى :
﴿ وَأَوْفُوا بِمَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ ^(١) فقال خرقوص : ذلك ذنبٌ ينبغي أن تتوب عنه .
فقال عليٌّ : ما هو ذنب ، ولكنه عَجَزٌ عن الرأي ، وقد نهيتكم ؛ فقال زُرعة :
يا علي ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك ؛ أطلب وجه الله تعالى .

فقال عليٌّ : بؤساً لك ، ما أشقاك ! كأنني بك قتيلاً تسفِي عليك الرياح !
قال : وددت لو كان ذلك - وخرجنا من عنده يحكمَّان ^(٢) .

وخطب عليٌّ ذات يوم فحكمت المحكمة في جوانب السجد ، فقال عليٌّ :
الله أكبر ! كلمة حق أريد بها باطل ؛ إن سكتوا عمَّناهم ، وإن تكلموا
حجَّجناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم .

فوثب يزيد بن عاصم الحاربي فقال : الحمد لله غير مودع ربنا ، ولا مستغنى
عنه ، اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية في ديننا ، فإن إعطاء الدنية في الله إذهاب

* الطبري ٦ : ٤٠ ، كان في سنة ٣٧ . والنهران : كورة واسعة بين بغداد وواسط ،
من الجانب الشرقي ، وهو لعل على الخوارج .

(١) النحل ٩١ . (٢) التحكيم : قولهم « لا حكم إلا لله » .

في أمر الله ، وذلك راجع بأهله إلى سخط الله ، يا عليّ ، أباقتل تخوّفنا ! أما والله
إني لأرجو أن نضربكم بها عمّا قليل غير مُصَفَّحاتٍ^(١) ، ثم لتعلمنّ أينما أولى بها
صلياً^(٢) .

ثم خطب عليّ يوماً آخر فقام رجل فقال : لا حُكْمَ إلا الله . ثم توالى عدّة
رجال يحكّمون ، فقال عليّ : الله أكبر ! كلمة حقّ أريد بها باطل ، أما إن لكم
عندي ثلاثاً ما صحبتونا : لا تمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا تمنعكم
الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا تقاتلكم حتى تبدءونا ، وإِنما نتبع فيكم
أمر الله . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

واجتمع الخوارج بمسد ذلك في منزل عبد الله بن وهب الراسبيّ ، فخطبهم
وزهدهم في الدنيا ، وأمرهم بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ثم قال :
اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كُور الجبال^(٣) ، أو إلى بعض
هذه المدائن ؛ منكرين لهذه البدع المضلّة ، فقال له حُرْقوص بن زهير : إنّ المتاعَ
بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وَشِيك ، فلا تدعونكم زيلتها وبهجتها إلى
المقام بها ، ولا تلتفتنكم عن طلب الحقّ وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتّقوا
والذين هم محسنون .

وقال حمزة بن سنان الأسديّ : يا قوم ؛ إنّ الرأى مارأيتم ، فولّوا رجلاً منكم ،
فإنكم لا بدّ لكم من عماد وسناد ورأية تحفّون بها وترجعون إليها ، فعرّضوها
على زيد بن حصين الطائيّ فأبى ، وعرّضوها على حُرْقوص بن زهير فأبى ، وعلى

(١) يقال : أصفحه ؛ إذا ضربه بعرضه .

(٢) قال ابن الأثير : خرج هو وإخوة له ثلاثة فأصيبوا مع الخوارج بالنهر .

(٣) الجبال : اسم علم للبلاد المعروفة بالعراق في اصطلاح المعجم .

حَمَزَةُ بْنُ سَنَانٍ وَشُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى الْعَبْسِيُّ فَأَيُّهَا . وَعَرَضُوهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَهَبٍ فَقَالَ : هَاتُوهَا ، أَمَّا وَاللَّهِ ، لَا آخِذَهَا رَغْبَةً فِي الدُّنْيَا ، وَلَا أَدْعَاهَا فَرَقًا مِنَ الْمَوْتِ ، فَبَايَعُوهُ لِمَشْرِئِ خَلَوْنٍ مِنْ شُؤَالٍ .

ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ شُرَيْحِ بْنِ أَوْفَى الْعَبْسِيِّ ، فَقَالَ ابْنُ وَهَبٍ : اشْخَصُوا بِنَا إِلَى بَلَدِهِ نَجْتَمِعَ فِيهَا لِإِنْفَازِ حُكْمِ اللَّهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ الْحَقِّ . قَالَ شُرَيْحٌ : نَخْرُجُ إِلَى الْمَدَائِنِ فَتَنْزِلُهَا وَنَأْخِذُهَا بِأَبْوَابِهَا ، وَنُخْرِجُ مِنْهَا سَكَانَهَا ، وَنَبْعَثُ إِلَى إِخْوَانِنَا مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَيَقْدُمُونَ عَلَيْنَا .

فَقَالَ زَيْدُ بْنُ حَصِينٍ : إِنَّكُمْ إِنْ خَرَجْتُمْ مَجْتَمِعِينَ اتَّبِعْتُمْ ، وَلَكِنْ أَخْرِجُوا وَحِدَانَا مُسْتَخْفِينَ . قَالُوا : هَذَا هُوَ الرَّأْيُ . وَكَتَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ إِلَى مَنْ بِالْبَصْرَةِ مِنْهُمْ يُعَلِّمُهُمْ مَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، يَحْتَفِظُهُمْ عَلَى الْإِحْقَاقِ بِهِ ، وَسَيَّرَ الْكِتَابَ إِلَيْهِمْ ؛ فَأَجَابُوهُ أَنَّهُمْ عَلَى الْإِحْقَاقِ بِهِ .

وَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى الْمَسِيرِ تَعَبَّدُوا لَيْلَتَهُمْ - وَكَانَتْ لَيْلَةُ الْجُمُعَةِ - وَسَارُوا يَوْمَ السَّبْتِ . وَخَرَجَ شُرَيْحُ بْنُ أَوْفَى وَهُوَ يَتْلُو قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١) .

وَلَمَّا خَرَجْتَ الْخَوَارِجُ مِنَ الْكُوفَةِ أَتَى عَلَيْهِمْ أَصْحَابُهُ وَشِيعَتُهُ فَبَايَعُوهُ وَقَالُوا : نَحْنُ أَوْلِيَاءُ مَنْ وَالَيْتَ ، وَأَعْدَاءُ مَنْ عَادَيْتَ ، فَشَرَطَ لَهُمْ فِيهِ سَنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَبَجَّاهُ رَيْبَعَةُ بْنُ أَبِي شَدَادٍ الْخَثْعَمِيُّ - وَكَانَ شَهِيدَ مَعَهُ الْجَمَلِ وَصِيفَيْنِ وَمَعَهُ رَايَةُ خُثْعَمٍ - فَقَالَ لَهُ : بَايِعْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

فقال ربيعة : وعلى سنة أبي بكر وعمر . فقال له علي : ويلك ! لو أن أبا بكر وعمر عملا
بغير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونا على شيء من الحق ؛
فبايعه ، فنظر إليه علي وقال : أما والله لكأني بك ؛ وقد نفرت مع هذه الخوارج
فقتلت ، وكأني بك وقد وطئت الخيل بحوافرها^(١)

وأما خوارج البصرة فإنهم اجتمعوا في خمسمائة رجل ، وجعلوا عليهم مسعر
ابن فذكى التميمي ، فلم بهم ابن عباس ، فأتيهم أبا الأسود الدؤلي ، فليحهم
بالجر الأكبر ، فتوافقوا حتى حجز بينهم الليل ، وأدّج مسعر بأصحابه ، وأقبل
يمترض الناس ، وعلى مقدمة الأشرس بن عوف الشيباني ، وسار حتى لحق
بمبد الله بن وهب .

ولما ترامت إلى علي أنباء خوارج الكوفة والبصرة وهرب أبي موسى إلى مكة
قام في الكوفة فخطب القوم وقال : الحمد لله وإن أئى الدهر بالخطب الفادح والحدثان
الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؛ أما بعد فإن المعصية تورث
الحسرة وتغيب الندم ، وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة
أمرى ، ونخلتكم رأيى ، ولو يُطاع لقضير أمر ؛ ولكن أبيت إلا ما أردتم ، فكنت
أنا وأنتم كما قال أخو هوازن :

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغدى

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموها حكمين قد نبذا حكم القرآن وراء
ظهورهما ؛ وأختيا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه بغير هدى من الله ؛
فكما بغير حجة بينة ، ولا سنة ماضية ، واختلفا في حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ،

(١) قتل مع الخوارج يوم النهروان .

فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام ، وأصبحوا في معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين .

ثم كتب إلى الخوارج بالنهر : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله على أمير المؤمنين إلى زيد بن حُصين وعبد الله بن وهب ومنّ معهما من الناس ؛ أما بعد ؛ فإن هذين الرجلين اللذين ارتضىناهما حَكَمين قد خالفا كتابَ الله ، واتَّبعا هواهما بغير هُدى من الله ، فلم يَعملا بالسنة ، ولم ينفِذا للقرآن حُكْمًا ، فبرئ الله ورسوله منهما والمؤمنون ؛ فإذا بلغكم كتابي هذا فأَقبلوا إلينا فإننا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذي كنّا عليه ، والسلام . »

فكتبوا إليه : « أما بعد ؛ فإنك لم تَغضَبَ لربِّك ، وإنما غضبتَ لنفسك ، فإن شهدت على نفسك بالكفر ، واستقبلتَ التوبةَ نَظَرًا فيما بيننا وبينك ، وإلا فقد نابذناك^(١) على سواء إن الله لا يحب الخائنين . »

فلما قرأ على كتابهم أيس منهم ، فرأى أن يدعهم ويعضى بالناس إلى أهل الشام ، حتى يلتاقهم ، فيناجزهم ، فقام في أهل الكوفة ، وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فإنه من ترك الجهاد في الله ، وأذعن في أمره كان على شفا هلكة^(٢) إلا أن يتداركه الله بنعمته ، فاتقوا الله وقاتلوا من حادَّ الله ورسوله ، وحاول أن يُطغيء نورَ الله ؛ فقاتلوا الخاطئين الضالين الفاسطين المجرمين الذين ليسوا بقرءاء القرآن ، ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء في التأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام ؛ والله لو وُلِّوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل . تيسروا للمسير إلى عدوكم

(١) النابذة : أن يكون بين فريقين مختلفين عهد وهدنة بعد القتال ، ثم أرادا نقض ذلك العهد فينبذ كل فريق منهما لصاحبه العهد الذي تهادنا عليه .

(٢) الهلكة : الهلاك .

من أهل المغرب^(١) ، وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة لِيَقْدَمُوا عَلَيْكُمْ ،
فإذا اجتمعتم شَخَصْنَا إن شاء الله ؛ ولا حول ولا قُوَّةَ إلا بالله .

وكتب إلى ابن عباس : « أما بعد فإننا خرجنا إلى مُعَسْكِرنا بالثَّخَيْلَة ، وقد
أَجْمَعْنَا على السير على عدونا من أهل المغرب ، فَاشْخَصْ بالناس حتى يَأْتِيكَ رسولى ،
وأقم حتى يَأْتِيكَ رأيى ، والسلام » .

فقرأ ابن عباس الكتابَ على الناس ، وَنَدَبَهُمْ مع الأحنف بن قيس ، فَشَخَصَ
ألفٌ وخمسمائة ، وخطبهم ابنُ عباس فقال : يا أهل البصرة ؛ أنا نى كتابُ
أمير المؤمنين ، فَأَمَرْتُكُمْ بالنَّفِيرِ إليه ، فلم يَشْخَصْ منكم إليه إلا ألفٌ وخمسمائة ،
وأنتم ستون ألف مقاتل ، سوى أبنائكم وعُبدَانِكُمْ ومَوَالِيكُمْ ؛ ألا انْفِرُوا مع
جارية بن قدامة السَّفْدِيّ ، ولا يَجْمَعَنَّ رجلٌ على نفسه سبيلا ، فإنى مُوقِعٌ بكل
مَنْ وَجَدْتَهُ مُتَخَلِّفًا عن دَعْوَتِهِ ، عاصيًّا لإمامه ، ولا يلوْمَنَّ رجلٌ إلا نفسه » .

فخرج جارية فاجتمعَ إليه ألفٌ وسبعمائة ، فوافوا عليًّا وهم ثلاثة آلاف ومائتان ،
فجمعَ إليه رءوسَ أهل الكوفة ورءوسَ القبائل ووجوهَ الناس ، ثم خطبهم ، وحمد الله
وأثنى عليه ثم قال : يا أهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق ،
وأصحابى إلى جهادِ عدوِّ المُحِلِّين ، بكم أُضْرِبُ الدُّبُرَ ، وأَرْجُو تمامَ طاعةِ المُقْبِلِ ،
وقد استنفرتُ أهلَ البصرة ، فأتانى منهم ثلاثة آلاف ومائتان ؛ فليكتبْ لى
رئيسُ كلِّ قبيلة ما فى عشيرته من المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال ،
وعُبدَانِ عشيرته ومواليهم ، ويرفع ذلك إلينا .

فقام إليه سعيد بن قيس الهمدانيّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سمعاً وطاعة ؛ أنا
أولُ الناس جاء بما سألت . وقام معقل بن قيس وعدى بن حاتم ، وزباد بن خَصَفَة

(١) يريد بأهل المغرب هنا أهل الشام ..

وحُجِرَ بن عدى وأشرافُ الناس والقبايل ، فقالوا مثلَ ذلك ، وكتبوا إليه ما طلب ، وأمرُوا أبناءهم وعبيدهم أن يخرجوا ، وألا يتخلف منهم مُتَخَلِّفٌ ، فرفعُوا إليه أربعين ألف مقاتل وسبعة عشر ألفاً من الأبناء ، وثمانية آلاف من مواليتهم وعبيدهم .

وكتب إلى سعد بن مسعود بالمدائن يأمره بإرسال مَنْ عنده من المقاتلة ، وبلغَ عليّاً أن الناس يقولون : لو سارَ بنا إلى قتال هذه الحرورية ، فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى قتال أهل الشام ! فقال لهم : بئمني أنكم قلمَ كيت وكيت ، وإن غير هؤلاء الخارجين أهمُّ إلينا منهم ، فدعوا ذكرهم ، وسيروا إلى قوم يقاتلونكم ، كما يكونوا جبّارين ملوكاً ، ويتخذوا عباد الله خولاً^(١) ، فناداه الناس : أن سيرَ بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت .

وقام إليه صفي بن قيس الشيباني ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن حزبك وأنصارك ، نعادي مَنْ عاداك ، ونشايع مَنْ أناب إلى طاعتك ، فسيرَ بنا إلى عدوّك مَنْ كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تُؤثّرَ من قلة عدد ، وضعف نية أتباع .

هذا ما كان من أمر عليّ ، وأما الخوارجُ ، فقد روى أن طائفة منهم كانت في طريقها من البصرة إلى النهروان ، فرأت عصابةً منهم رجلاً يسوق بامرأة على حمار ، فانتهرُوه وأفزعوه وقالوا له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا عبد الله بن خباب ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : أفزعناك ؟ قال : نعم ، قالوا : لارَوْعَ

(١) الخول : العبيد .

عليك ! حدثنا عن أبيك حديثاً سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعنا به . فقال : حدثني أبي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل ، كما يموت به بدنه ، يمسي فيها مؤمناً ، ويصبح كافراً ، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً » . قالوا : لهذا الحديث سألتك ، فما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فأتني عليهما خيراً . قالوا : ماتقول في عثمان في أول خلافته وفي آخرها ؟ قال : إنه كان مُحِقّاً في أولها وفي آخرها . قالوا : فما تقول في عليّ قبل التَّحْكِيمِ وبمُسَدِّهِ ؟ قال : إنه أعلم بالله منكم وأشدّ توقّياً على دينه ، وأشدّ بصيرة ، فقالوا : إنك تتَّبِعُ الهوى وتُوَالِي الرِّجَالِ على أسمائِها لا على أفعالها ، والله لَنَقْتُلَنَّكَ قِتْلَةً ماقتلناها أحداً . ثم أخذوه وكتفوه ، ثم أقبلوا به وبامراته وهي حُبْلَى مُتِمٌّ^(١) ، حتى نزلوا تحت نخْل فسقطت منه رُطْبَةٌ ، فأخذها أحدهم فكدفَ بها في فَمِهِ ، فقال أحدهم : بغير حِلْمٍ وبغير ثَمَنٍ ! فلَفَظَها وألقاها من فَمِهِ ، ثم أخذ سيفه بيمينه ، فَرَّ به خِزِيرٌ لأهل الدِّمَّةِ ، فضر به بسيفه ، فقالوا : هذا فساد في الأرض ، فأتى صاحب الخنزير فأرضاه من خِزِيرِهِ .

فلما رأى ذلك منهم ابن خَبَّاب قال : لئن كنتم صادقين فيما أرى فما على منكم بأس ، إني لمُسْلِمٌ ، ما أحدثُ في الإسلام حَدَثاً ، وقد آمنتموني وقتلتم : لارَوْعَ عليك . فجاءوا به فأضجَعوه وذبحوه وسال دمه في الماء وأقبلُوا إلى المرأة ، فقالت : إنما أنا امرأة ، أَلَا تَتَّقُونَ اللَّهَ ! فَبَقَرُوا بَطْنَهَا ، وقتلوا ثلاث نِسوة من طَيِّبٍ ؛ وقتلوا أم سنان الصَّيْدَاوِيَّةَ .

فبلغ ذلك على بن أبي طالب ومن معه من المسلمين . فبعث إليهم الحارث بن

(١) التَّم : التي دنا ولادها .

مرّة المبدى ليأتيهم ، وينظر ما بلغه عنهم ، ويكتب إليه ولا يكتبه ، فلما دنا منهم يسألهم قتلوه .

وأتى عليّاً الخبر والناس معه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في عيالنا وأموالنا ؟ سرّ بنا إلى القوم ، فإذا فرغنا منهم سرّنا إلى عدوّنا من أهل الشام . وقام إليه الأشعث بن قيس فكلّمه بمثل ذلك ، وكان الناس يظنون الأشعث يرى رأى الخوارج ؛ لأنه كان يقول يوم صيفين : أنصفنا قوم يدعون إلى كتاب الله ، فلما قال هذه المقالة علم الناس أنه لم يكن معهم .

ثم أجمع رأى علىّ على الخروج إليهم ، فعبّر الجسر وسار إليهم ، ولما صار قريباً منهم أرسل إليهم : ادفعوا إلينا قتلة إخواننا أقتلهم بهم ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم ، حتى أتى أهل الشام ، فعمل الله بقلب قلوبكم ، ويردّكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم .

فقالوا : كلنا قتلهم ، وكلنا مستجير لدمائكم ودمائهم . فخرج إليهم قيس بن سعد ابن عباد فقال لهم : عباد الله ، أخرجوا إلينا طلبتنا منكم ، وادخلوا في هذا الأمر الذى خرجتم منه ، وعودوا بنا إلى قتال عدوّنا وعدوّكم ، فإنكم ركبتم عظيماً من الأمر ، تشهدون علينا بالشرك ، وتسفكون دماء المسلمين . فقال له عبد الله بن شجرة السلمى : إن الحق قد أضاع لنا فلسنا متابعيكم أو تاتونا بمثل عمر . فقال : ما نعلمه غير صاحبنا ، فهل تعلمونه فيكم ؟ قالوا : لا ، قال : نشدّكم الله في أنفسكم أن تهلكوها ، فإنى لا أرى الفتنة إلا وقد غلبت عليكم .

وخطبهم أبو أيوب الأنصارى ، فقال : عباد الله ، إننا وإياكم على الحال

الأولى التى كنا عليها ، ليست بيننا وبينكم فرقة ، فعلام تقاتلوننا ؟ فقالوا : إِنَّا لَوِ
تابعناكم اليوم حَكَمْتُمْ غداً . قال : فَإِنِ أَنشدكم الله أَن تَعْبَلُوا فتنة العام مخافة ما يأتى
فى القابل .

وَأَتَاهُمْ عَلَى فَقَالَ : أَيُّهَا الْعَصَابَةُ الَّتِى أَخْرَجَهَا عداوة المراء وَاللَّجَاجَةِ ، وَصَدَّهَا
عَنِ الْحَقِّ الْهَوَى ، وَطَمَعَ بِهَا النَّزَقُ ، وَأَصْبَحَتْ فِى الْخَطْبِ الْعَظِيمِ ، إِنِّى نَذِيرٌ لَّكُمْ أَنْ
تُضَيِّحُوا تَلْفِيَكُمْ الْأُمَّةَ صِرْعَى بِأَثْنَاءِ هَذَا الْوَادِى ، بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا بُرْهَانٍ
مَّبِينٍ ، أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّى نَهَيْتُكُمْ عَنِ الْحُكُومَةِ ، وَنَبَّأْتُكُمْ أَنَّهَا مَكِيدَةٌ ، وَأَنَّ الْقَوْمَ لَيْسُوا
بِأَحْبَابِ دِينٍ فَمَصِيتُمُونِى ! فَلَمَّا فَعَلْتُ شُرْطَتِ ، وَاسْتَوْتِثَقْتُ عَلَى الْحُكَمَاءِ أَنْ يُحْذِرُوا
مَا أَحْيَا الْقُرْآنَ ، وَيُؤْمِنُوا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنَ ، فَاخْتَلَفُوا وَخَالَفُوا حُكْمَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَنَبَذْنَا
أَمْرَهُمَا ، وَنَحْنُ عَلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ ، فَمَنْ أَيْنَ أَتَيْتُمْ ؟ فَقَالُوا : إِنَّا حَكَمْنَا ، فَلَمَّا
حَكَمْنَا أَيْتَمْنَا ، وَكُنَّا بِذَلِكَ كَافِرِينَ ، فَإِنْ تُبَيَّنَ فَنَحْنُ مَعَكُمْ ، وَإِنْ أَيْتَمَ فَأَيْنَا
مُنَابَذُوكَ عَلَى سِوَاءِ .

فَقَالَ عَلَى : أَصَابَكُمْ حَاصِبٌ ^(١) ، وَلَا بَقِىَ مِنْكُمْ وَابِرٌ ^(٢) ، أَبَعَدَ إِيمَانِى بِرَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَجَرْتَنِى مَعَهُ ، وَجِهَادِى فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِى
بِالْكُفْرِ ! لَقَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَهْتَدِينَ . ثُمَّ انْصَرَفَ ، عَنْهُمْ .

ثُمَّ إِنَّ الْخَوَارِجَ قَصَدُوا جَسَرَ النِّهَرِ ، فَعَبَّأُوا عَلَى أَحْبَابِهِ ، وَجَمَلُوا عَلَى مَائِمَتِهِ حُجْرَ
ابْنِ عَدَى ، وَعَلَى مَيْسِرَتِهِ شَيْثُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَعَلَى الْخَلِيلِ أَبَا أَيُّوبَ الْأَنْصَارِىَّ ، وَعَلَى
الرَّجَالَةِ أَبَا قَتَادَةَ الْأَنْصَارِىَّ ، وَعَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَيْسَ بْنَ سَعْدِ بْنِ عِبَادَةَ .

(١) الحاصب : الريح الشديدة تثير الحصباء . (٢) وابر : أحد .

وعبأت الخوارج ، فجعلوا على ميمنتهم زيد بن حُصين الطائي ، وعلى اليسرة شريح بن أوفى العبسي ، وعلى خيلهم حمزة بن سنان الأسدي ، وعلى رجالهم حرقوص بن زهير السعدي .

وأعطى عليُّ أبا أيوب الأنصاري رايةَ الأمان ، فناداهم أبو أيوب ، فقال : مَنْ جاء تحت هذه الراية منكم ، يَمُنْ لم يَقْتُلْ ولم يستعِرض فهو آمن ، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد أن نُصِيب قَتْلَةً إخواننا منكم في سَفَك دماءكم .

فقال قُروة بن نوفل الأشجعي : والله ما أدري على أي شيء نقاتل عليًّا ! أرى أن أنصرف حتى تتضح لي بصيرتي في قتاله أو أتابعه ، وانصرف في خمسمائة فارس . وخرجت طائفة أخرى متفرقين فزلوا الكوفة . وخرج إلى عليٍّ نحو مائة - وكان أربعة آلاف - وبقي مع عبد الله بن وهب ألف وثمانمائة ، وزحفوا إلى عليٍّ ، وكان عليٌّ قد قال لأصحابه : كُفُّوا عنهم حتى يبدءوكم . فتنادوا : الرّواح إلى الجنة ، وحملوا على الناس ، فلم تثبت خيلُ المسلمين لشدتهم ، واقتربت خيل عليٍّ فرقتين : فرقة نحو الميمنة ، وفرقة نحو اليسرة ، فاستقبلت رماة عليٍّ وجوههم بالنبل ، وعطفت عليهم الخيلُ من الميمنة واليسرة ، ومنهض إليهم الرجالُ بالرماح والسيوف . فلما رأى حمزة بن سنان صاحبُ خيلهم الهلاك نادى أصحابه : أن انزلوا ، فذهبوا لينزلوا ، فلم يلبثوا أن حمل عليهم الأسود بن قيس المرادي وجاءتهم الخيل من نحو عليٍّ ، فأهلكوا في ساعة ، فكأنما قيل لهم : موتوا فماتوا .

٥٤ - يوم كربلاء*

كان معاوية بن أبي سفيان قد عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة ، بعد أن استشار في ذلك وفود الأمصار ، فبايعه الناس ، ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة ، وهم الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر .

ولما توفّي معاوية لم يكن ليزيد همٌ إلا مبايعة هؤلاء الثلاثة ، وأرسل إلى الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة ، يقول له : أمّا بعد ، نخذ حسينا وعبد الله بن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة ، حتى يُبايعوا ، والسلام .

فلما أتى الوليد نعى معاوية فقطع^(١) وكبر عليه ، وأرسل إلى هؤلاء النفر ، فأما الحسين فجاءه ، فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم عليه ، وقال : أمّا البيعة ، فإن مثلي لا يُبايع سرّاً ، ولا يُجتزئ بها مني سرّاً ، فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ، ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً ، فقال له الوليد وكان يحب العافية : انصرف ، فانصرف .

وأما ابن الزبير فترك المدينة ، وذهب إلى مكة ، وقال : إني عائذ بالبيت ، ولم يكن يُصلّي بصلاتهم ، ولا يُفيض^(٢) في الحج بإفاضتهم ، وكان يقف هو وأصحابه ناحية . وخرج الحسين من بعده ، وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه ؛ إلا محمد ابن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ، ونصحه فلم يقبل نصحه .

* تاريخ الطبري : ٦ - ٢١٥ . كان في سنة ٦١ ، وكربلاء : موضع طرف البرية ، قرب السكوة . (١) فظح بالأمر : ضاق به ذرعاً .

(٢) يقال : أفاض الناس من عرفات ؛ إذا أسرعوا منها إلى مكان آخر .

وأما ابنُ عمر فإنه قال : إذا بايعَ الناسُ بايعت . فتركوه ، وكانوا لا يتخوفونه .

وبينا كان الحسينُ في طريقه من المدينة إلى مكة لقيه عبْدُ الله بن مطيع ، فقال له : جُمِلْتُ فداءك ! أين تريد ؟ قال : أما الآن فمكة ؛ وأما بعد ، فإني أَسْتَحْيِرُ الله . قال : خار الله لك ، وجعلنا فداءك ! فإذا أتيت مكة فإياك أن تقرب الكوفة ؛ فإنها بلد مشئومة ، بها قُتِلَ أبوك ، وخُذِلَ أخوك . الزم الحرم ، فإنك سيّد العرب ، لا يعدل بك أهلُ الحجاز أحداً ، ويتدأى إليك الناسُ من كلِّ جانب ، لا تفارق الحرم ، فإياك عمتى وخلى ! فوالله لئن هلكت لَنُسترقنَّ من بعدك .

وأقبل الحسين حتى نزل مكة ، وأهلها يختلفون إليه ؛ ويأتونه . وكان ابنُ الزبير بها ، قد لزم جانب الكعبة ، فهو قائم يصلي عندها عامة النهار ، ويَطُوف ، ويأتى الحسين فيمن يأتيه ، ولا يزال يشير عليه بارأى ، وهو أثقلُ خلق الله على ابن الزبير ؛ لأن أهل الحجاز لا يبايمونه ، ما دام الحسين باقياً بالبلد . ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة أُرْجِفُوا^(١) بيزيد ، واجتمعت الشيعة في منزل كبيرهم سليمان بن صُرد ، واتفقوا على أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه ليبايموه ، فكتبوا إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم . سلامٌ عليك ، فإننا نحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فالحمد لله الذي قصمَ عدوك الجبار العنيد ، الذي أنزى على هذه الأمة ، فابترها أمرها ،

(١) أُرْجِفُوا به : خاضوا فيه .

وَنَصَبَهَا قَيْئَهَا ، وَتَأَمَّرَ عَلَيْهَا بِغَيْرِ رِضَا مِنْهَا ، ثُمَّ قَتَلَ خِيَارَهَا ، وَاسْتَبَقَى شِرَارَهَا ،
وَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَيْنَا إِمَامٌ ، فَأَقْبِرْ لِمَلِّ اللَّهِ أَنْ يَجْمَعَنَا بِكَ عَلَى الْحَقِّ . وَالْفَظَّانُ بْنُ بَشِيرٍ
فِي قَصْرِ الْإِمَارَةِ ؛ لَسْنَا نَجْتَمِعُ مَعَهُ فِي جُمُعَةٍ وَلَا عِيدٍ ، وَلَوْ بَلَّغْنَا إِقْبَالَكَ إِلَيْنَا
أَخْرَجْنَاهُ حَتَّى نُلْحِقَهُ بِالشَّامِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ
وَبَرَكَاتُهُ .

وَسَيَّرُوا الْكِتَابَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْعِ الْهَمْدَانِيِّ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ وَائِلٍ ، ثُمَّ كَتَبُوا
إِلَيْهِ كِتَابًا آخَرَ ، وَسَيَّرُوهُ بَعْدَ لَيْلَتَيْنِ ، وَكَتَبَ النَّاسُ مَعَهُ نَحْوَ مِائَةِ وَخَمْسِينَ
صَحِيفَةً ، ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ رَسُولًا ثَالِثًا يَحْثُونَهُ عَلَى الْمَسِيرِ إِلَيْهِمْ . ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهِ شَبْثُ
ابْنِ رَبِيعٍ وَحِجَارُ بْنُ أَبِي جَرٍّ وَغَيْرُهُمَا بِنَحْوِ ذَلِكَ .

فَكَتَبَ إِلَيْهِمُ الْحُسَيْنُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْكُتُبِ عِنْدَهُ : « أَمَا بَعْدُ ؛ فَقَدْ فَهِمْتُ
كُلَّ الَّذِي اقْتَصَصْتُمْ ، وَقَدْ بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ بِأَخِي وَابْنِ عَمِّي وَثِقَتِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مُسْلِمٍ
ابْنِ عَقِيلٍ ، وَأَمَرْتُهُ أَنْ يَكْتُبَ إِلَيَّ بِحَالِكُمْ وَأَمْرِكُمْ وَرَأْيِكُمْ ، فَإِنْ كَتَبَ إِلَيَّ
أَنَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ رَأْيُ مَلَائِكِكُمْ وَذَوَى الْحُجَبَى مِنْكُمْ عَلَى مِثْلِ مَا قَدِمْتُ بِهِ رُسُلَكُمْ
أَقْدَمَ وَشَيْكَأَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ؛ فَلَعَمْرِي مَا الْإِمَامُ إِلَّا الْعَامِلُ بِالْكِتَابِ ، وَالْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ،
وَالدَّائِنُ بِدِينِ الْحَقِّ ، وَالسَّلَامُ » .

ثُمَّ دَعَا الْحُسَيْنُ مُسْلِمَ بْنَ عَقِيلٍ ، فَسَيَّرَهُ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَأَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَكَيْفَانِ
أَمْرِهِ وَالتَّلَطُّفِ ؛ فَإِنْ رَأَى النَّاسَ مَجْتَمِعِينَ عَجَّلَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ .

فَسَارَ مُسْلِمٌ نَحْوَ الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا دَخَلَهَا صَلَّى فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَوَدَّعَ أَهْلَهُ ، وَاسْتَأْجَرَ دَلِيلَيْنِ مِنْ قَيْسٍ ، فَأَقْبَلَا بِهِ ، فَضَلَّ الطَّرِيقَ ، وَعَظَشُوا ،
فَمَاتَ الدَّلِيلَانِ . فَكَتَبَ مُسْلِمٌ إِلَى الْحُسَيْنِ : إِنِّي أَقْبَلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاسْتَأْجَرْتُ دَلِيلَيْنِ ،

فضلاً الطريق ، واشتد عليهما العطش ، فاتا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى الماء ، فلم ننج إلا بحشاشة أنفسنا ، وقد تطيرت ، فإن رأيت أعفيتني وبعثت غيرى .

فكتب إليه الحسين : أما بعد ؛ فقد خشيت ألا يكون حملك على الكتاب إلا الجبن ، فامض لوجهك ، والسلام .

فسار مسلم حتى أتى الكوفة ، وأميرها يومئذ الثَّمان بن بشير ، فأقبلت إليه النسيمة تختلف إليه ، فكلما اجتمعت إليه جماعة منهم قرأ عليهم كتاب الحسين ، فيمكون ، ويعيدونه القتال والنصرة .

ولما بلغ ذلك الثَّمان بن بشير صعد المنبر وقال : أما بعد ، فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما تهلك الرجال ، وتسفك الدماء ، وتفصب الأموال - وكان الثَّمان حليماً ناسكاً يحب العافية - ثم قال : إني لا أقاتل إلا من يُقاتلني ، ولا أئبُ على من لا يئبُ على ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرشُ بكم ، ولا آخذ بالترف^(١) والظنة والتهمة ، ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيمتكم ، وخالتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله إلا هو ؛ لأضربنكم بسيفي ما ثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن لى منكم ناصر ولا معين . أما إني أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يُرديه الباطل .

فقام إليه عبد الله بن مسلم الحضرمي ، من شيعة بني أمية ، وقال له : إنه لا يصلح ماترى إلا النشم ، إن هذا الذي أنت عليه رأى المستضعفين . فقال : أكون من المستضعفين في طاعة الله أحب إلي من أن أكون من الأعززين في معصية الله .

(١) الترف : الإيقاع .

فكتب عبد الله بن مسلم إلى يزيد يُخبره بقدم مُسلم بن عَقِيل الكوفة ومُبايعة الناس له ، ويقول له : إن كان لك في الكوفة حاجة فابحث إليها رجلاً قوياً يُنفذ أَمْرَكَ ، ويعملُ مثل عملِكَ في عدوك ، فإن الثمان رجل ضَعِيف ، أو هو يتَضَمَّن . وكان هو أول مَنْ كتب إليه . ثم كتب إليه عُمارة بن الوليد ابن عُقبة وعمرو بن سعد بن أبي وقَّاص بنحو ذلك .

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد دعا سَرَجُون ، مولى معاوية ، فأقرأه الكتاب واستشاره فيمن يُؤَلِّيهِ الكوفة - وكان يزيد عاتبا على عبيد الله بن زياد - فقال له سرجون : أرايت لو نُشِر لك معاوية كنت تأخذُ برأيه ؟ قال : نعم ، فأخرج عهد عبيد الله على الكوفة ، وقال : هذا رأى معاوية ، ومات ، وقد أمر بهذا الكتاب .

فأخذ برأيه ، وجمع الكوفة والبصرة لعبيد الله ، وكتب إليه بمهده ، وأمره بطلب مُسلم بن عقيل وقتله أو نفيه .

فلما وصل كتابه إلى عبيد الله أمر بالتَّجَهُّز ليرز من الغد - وكان الحسين قد كتب إلى أهل البصرة نسخة واحدة إلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مُسْنَع البكرى ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسمود بن عمرو ، وفيس ابن الهيثم ، وعمر بن عبد الله بن معمر ، يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ؛ فكلهم كتموا كتابه إلا المنذر بن الجارود ؛ فإنه خاف أن يكون دسيساً من ابن زياد ، فأتاه بالرسول والكتاب ، فضرب عنق الرسول ، وخطب في الناس وقال : أما بعد ، فوالله ما بي تُقرن الصَّمتة ، وما يُقَمِّع لي بالشَّتان ، وإني لِنِكَلٍ لمن عاداني ، وسَمٌّ لمن حاربني ، وأنصف القارة مَنْ رامها . يا أهل البصرة ، إنَّ أمير المؤمنين قد ولَّاني

الكوفة وأنا إليها غدير الغداة ، وقد استخلفتُ عليكم أخى عثمان بن زياد ، فإياكم والخلاف والإرجاف ؛ فوالله لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف ، لأقتلنه وعريفه ووليه ، ولأخذنَّ الأذنَى بالأقصى حتى تستقيموا ، ولا يكون فيكم يخالف ولا مُشاقّ ، وإني ابن زياد ؛ أشبهته من بين من وطىء الحصى ، فلم ينترعنى شبهه خال ولا عمّ .

ثم خرج من البصرة حتى دخل الكوفة وحده ، فجعل يمرّ بالمجالس ؛ فلا يشكّون أنه الحسين ، فيقولون : مرحبا بك يا ابن رسول الله ! وهو لا يكلمهم . وخرج إليه الناس من دُورهم ؛ فسأه ما رأى منهم . وسمع النعمان ، فأغلق عليه الباب ؛ وهو لا يشك أنه الحسين . وانتهى إليه عبيد الله ، ومعه الخلق يصيحون ، فقال له النعمان : أنشدك الله ؛ إلا تنحيّت عني ؛ فوالله ما أنا بعسلم إليك أمانتي ؛ ومالي في قتالك من حاجة . فدنا منه عبيد الله ، وقال له : افتحْ لا فتحت ! فسمعها إنسان خلفه ، فرجع إلى الناس وقال لهم : إنه ابن زياد ! وفتح له النعمان ، وأغلقوا الباب ، وتفرّق الناس .

وأصبح فجلس على المنبر ، وقال : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين ولّاني مصركم وتفرّكم وفيثكم ، وأمرني بإنصاف مَظْلُومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبالإحسان إلى سامعكم ، ومطيعكم ، وبالشدة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا متّبع فيكم أمره ، ومنفّذ فيكم عهده ؛ فأنا المحسنكم كالوالد البَرّ ، ولُمّطيعكم كالأخ الشقيق ، وسيفي وسوطي على من ترك أمرى وخالف عهدي ؛ فليُبقِ امرؤ على نفسه .

ثم نزل ، وأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً ، وقال : اكتبوا إلى الغراء ومن فيكم من طلبه أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية وأهل الرّيب الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فن كتبهم لنا فبرئ ، ومن لم يكتب لنا أحداً فليضمن لنا من في

عِرافته ؛ ألا يخالفنا فيهم مخالف ، ولا ينبغي علينا منهم باغ ؛ فمن لم يفعل برئت منه
الذمة ، وحلالٌ لنا دمه وماله ، وأيما عريف وجد في عِرافته من بغية أمير المؤمنين
أحد لم يرفعه إلينا صليب على باب داره ، وألغيت تلك العِرافة من المعطاء .

وسمع مسلم بن عقيل بمقالة عبید الله ، فخرج من دار المختار ، وأتى دار هاني بن
عروة المرادي ، فلما رآه هاني كره مكانه ، فقال له مسلم : أتيتك لتجیرني ونُضيفني ،
فقال هاني : لقد كلفتنني شططا ، ولولا دخولك داري لأحببت أن تنصرف عني ؛
غير أنه يأخذني من ذلك ذمام ، ادخل .

ثم آواه ، واختلفت الشیمة إليه في دار هاني ، فدعا ابن زياد مولى له ، وأعطاه
ثلاثة آلاف درهم ، وقال له : اطلب مسلم بن عقيل وأصحابه ، وألفهم ، وأعطهم هذا
المال ، وأعلمهم أنك منهم ، واعلم أخبارهم .

ف فعل ذلك ، وأتى مسلم بن عوسجة الأسدي بالمسجد ، فسمع الناس يقولون :
هذا يُبايع للحسين - وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته قال له : يا عبد الله ، إني امرؤ
من أهل الشام ، أنعم الله عليه بحب أهل هذا البيت ، وهذه ثلاثة آلاف درهم ، أردت
بها لقاء رجل منهم ؛ بلغني أنه قدم الكوفة يُبايع لابن بنت رسول الله ، وقد سمعت
نفرًا يقولون : إنك تعلم بأهل هذا البيت ، وإني أتيتك لتقبضَ المال ، وتُدخِلني على
صاحبك أبيame ، وإن شئت أخذت بيعتي له قبل لقائي إياه ، فقال : لقد سرّني لقاءك
إياي لتنال الذي تحب ، وينصر الله بك أهل نبيه ، وقد ساءني معرفة الناس هذا
الأمر مني قبل أن يتم مخافة هذا الطاغية وسلطوته .

ثم أخذ بيعته والمواثيق المعظمة ليُناصحني وليسكتمن . ثم أدخله على مسلم بن
عقيل ، فأخذ بيعته ، وقبض ماله ، وجعل يختلف إليهم ، ويعلم أسرارهم ، وينقلها إلى
ابن زياد .

وكان هانيء قد انقطع عن عُبيد الله بمذَر المرض ، فدعا عُبيد الله محمد بن الأشعث وأسماء بن خارقة وعمر بن الحجاج ، وسألهم عن هانيء وانقطاعه ، فقالوا : إنه مريض ؛ فقال : بلغني أنه يجلس على باب داره ، وقد شفى ؛ فرؤوه ألا يدع ما عليه في ذلك من الحق . فأتوه فقالوا له : إن الأمير قد سأل عنك ، وقال : لو أعلم أنه شاكٍ لعُدته ، وقد بلغه أنك تجلس على باب دارك ، وقد استبطأك ، والجفاء لا يَحْتَمِلُه السلطان ؛ أقسمنا عليك لو ركبت معنا !

فلبس ثيابه ، وركب معهم ، فلما دنا من القصر أحسَّتْ نفسه بالشر ، فقال لحسان بن أسماء بن خارقة : يا بن أخي ؛ إني لهذا الرجل لخائف ؛ فما ترى ؟ فقال : ما أتخوف عليك شيئاً ، فلا تجعل على نفسك سييلاً ؛ ولم يعلم أسماء مما كان شيئاً ، وأما محمد بن الأشعث فإنه علم به .

ولما دخل القوم على ابن زياد وهانيء معهم قال ابن زياد : أنت بجائن رجلاه ، ثم أنشد :

أريدُ حياتَه ويريد قَتلي عذيرك من خليلك من مُراد^(١)

وكان ابن زياد مكرماً له ، فقال هانيء : وما ذاك ؟ فقال : يا هانيء ؛ ما هذه الأمور التي تُدَبِّرُ في دارك لأمر المؤمنين والمسلمين ؟ جئت بمُسلم بن عَقِيل ، فأدخلته في دارك ، وجمعت له السلاح والرجال ، وظننت أن ذلك يخفى علي . قال : ما فعلت . قال : بلى . وطال بينهما النزاع ، فدعا ابن زياد مولاه ، ولما وقف بين يديه قال : أتعرف هذا ؟ قال : نعم ! وعلم هانيء عند ذلك أنه كان عَيْناً عليهم ، فسقط في يده ساعة ، ثم راجعته نفسه ، فقال : اسمع مِنِّي وصدقني ؛ فوالله لا أكذبك ؛ والله مادعوتُه ، ولا علمت بشيء من أمره ؛ حتى رأيته جالساً على بابي يسألني النَزولَ على ، فاستحييت من ردّه ، ولزمني من ذلك ذِمام ، فأدخلته داري ، ووضفته ،

(١) البيت لمرو بن معديكرب ، اللّٰلِ ٦٤ .

وقد كان من أمرِ الذي بلغك ؛ فإن شئت أعطيتك الآن موثقاً تطمئن به ، ورهينةً تكون في يدك ؛ حتى أنطلق وأخرجه من داري ، وأعود إليك . فقال : لا والله ، لا تفارقني أبداً حتى تأتيني به ، قال : لا آتيك بضيفي تقتله أبداً .

فلما كثر الكلام قام مسلم بن عمرو الباهلي فقال : خلّني وإياه ؛ حتى أكله ؛ لما رأى من لجأجه . وأخذ هاتئنا ، وخلا به ناحية من ابن زياد بحيث يراها ، فقال له : يا هاني ، أشدك الله أن تقتل نفسك ، وتدخل البلاء على نفسك ، إن هذا الرجل ابن عم القوم ؛ وليسوا بقاتليه ولا ضائريه ؛ فادفعه إليه ، فليس عليك بذلك غزاة ولا منقصة ؛ إنما تدفعه إلى السلطان ، قال : بلى والله ؛ إن عليّ في ذلك للخزي والعار . أنا أدفع جاري وضيفي وأنا حيٌّ صحيح أسمع وأرى شديد الساعد ، كثير الأعوان ! والله لو لم أكن إلا واحداً ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه ، فأخذ ينشده ، وهو يقول : والله لا أدفعه إليه أبداً .

فسمع ابن زياد ذلك فقال : أدنوه مني ، فأدنوه منه ؛ فقال : والله لتأتيني به أو لأضربنّ عنقك ! قال : إذن والله تكثر البارقة حول دارك ؛ وهو يرى أن عشيرته ستمنعه ، فقال ابن زياد : أبا البارقة تخوفني ! ثم قال : أدنوه مني ، فأذني ، فاستمرض وجهه بالقضيب ، ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده حتى كسر أنفه ، وسيل الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خده وجبينه على لحيته ؛ حتى كسر القضيب . وضرب هاني بيده إلى قائم سيف شرطى وجبذه ، فمنع منه ، فقال له عبيد الله : أحروري سائر اليوم ، أحللت بنفسك ، قد حلّ لنا قتلك ؟ ثم أمر به فألق في بيت ، وأغلق عليه ، فقام إليه أسماء بن خارجة وقال : أرسله يا غدير ! أمرتنا أن نجيثك بالرجل ؛ فلما أتيناك به هشمت وجهه ، وسيلت دمه ! فأمر به ابن زياد فحبس . وأما ابن الأشعث فقال : رضينا بما رأى الأمير ؛ لنا كان أو علينا .

وأتى الخبرُ مسلم بن عَقِيل ؛ فنَادَى في أصحابه : يا مَبْصُور ! وكان هذا شمارَهم ، وكان قد بايعه ثمانيةَ أعْشر ألفاً ، وحوله في الدور أربعةَ آلاف ، فاجتمع إليه ناس كثير ، فمبأهم ، وأقبل إلى القصر فأحاط به ، وامتلاً المسجد والسوق من الناس ، ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلاً من الشُّرَط ، وعشرون رجلاً من الأشراف ، وأهل بيته ومواليه .

فرأى ابن زياد أن يُعْمِل الحيلة ، فدعا كثير بن شهاب الحارثي ، وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مَذْحِج ، فيسير ويخذل الناس عن ابن عَقِيل ويخونَهم ، وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كِنْدَةَ وحضر موت ، فيرفع رايةَ أمان لمن جاءه من الناس ، وقال مثل ذلك للقمقاع بن شُور ، وشُبَّث بن رَبِيع ، وترك وجوه الناس عنده استئناساً بهم لقلة عدد من معه .

وخرج أولئك النفر يخذلون الناس ، وأمر عبيد الله مَنْ عنده من الأشراف أن يشرفوا على الناس من القصر ، فيُمنُّوا أهلَ الطاعة ، ويخونُوا أهلَ العصية ، ففعلوا .

فلَمَّا سمع الناسُ مقالةَ أَشْرَافِهِمْ أخذوا يتفرَّقون ؛ حتى بقى ابنُ عَقِيل في المسجد في ثلاثين رجلاً . فلَمَّا رأى ذلك خرج متوجَّهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فلَمَّا خرج إلى الباب لم يبق معه أحد ، فضى في أزقة الكوفة لا يدرى أين يذهب . ثم انتهى إلى باب امرأة من كِنْدَةَ فسَلَّمَ عليها ، وطلب الماء فسقته ، ثم جلس ، فقالت له : يا عبد الله ، ألم تشرب ؟ قال : بلى ! قالت : فاذهب إلى أهلك ، فسكت ، فقالت له ثلاثاً فلم يبرح ، فقالت : سبحان الله ! إني لا أحِلُّ لك الجلوس على بابي ، فقال لها : ليس لي في هذا المصّر منزل ولا عشيرة ، فهل لك إلى أجر ومعرفة ؟ ولعلّي أكافئك به بعد اليوم . قالت : وما ذاك ؟ قال : أنا مُسلم بن عَقِيل ، كَذَبَنِي هؤلاء القوم

وغيرُوني . قالت : ادخل ، فأدخلته بيتاً في دارها ، وعرضت عليه العشاء فلم يتمش .
وجاء ابنها بلال ، فرآها تكثر الدخول في ذلك البيت ، فقال لها : إنَّ لك لشأناً في
ذلك البيت ! وسألها ، فلم تخبره ، فألحَّ عليها فأخبرته واستكتمته وأخذت عليه الأيمان
بذلك . فسكت .

أما ابن زياد فإنه لما سمع الأصوات قال لأصحابه : انظروا هل ترون منهم أحداً !
فنظروا فلم يروا أحداً ، فنزل إلى المسجد قبل العتمة ، وأجلس أصحابه حول المنبر ،
وأمر فنودي : برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمقاتلة صلى العتمة إلا
في المسجد .

فامتلاً المسجد ثم صلى بالناس وقام ، فحمد الله ثم قال : أما بعد ، فإن ابن عَقيـل
السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من الخلاف والشقاق ، فبرئت الذمة من رجل وجدناه
في داره ، ومن آتانا به فله دِيَّتُهُ . ثم أمرهم بالطاعة ولزومها .

ولما أصبح بلال ابن تلك المعجوز التي آوت مسلم بن عَقيـل أتى عبد الرحمن بن
محمد بن الأشعث ، وأخبره بمكان مُسلم بن عَقيـل ، فأتى عبد الرحمن أباه وهو عند
ابن زياد فأسرَّ إليه بذلك ، فأخبر به ابن زياد ، فقال له ابن زياد : قم فائتني به الساعة ،
وبعث معه عمرو بن عبـيد الله بن عباس السلمي في سبعين من قيس ، حتى أتوا
الدار التي فيها ابن عَقيـل ، فلما سمع الأصوات عرف أنه قد أتى ، فخرج إليهم بسيفه
حتى أخرجهم من الدار ، ثم عادوا إليه فأخرجهم مراراً . وضرب بُـكـير بن حمران
فم مُسلم فقطع شفـتـه العليا ، وسقطت نـيـبـتـاه ، وضربه مسلم على رأسه وثمَّي بأخرى ،
فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت ، وجعلوا يرمونه بالحجارة

ويُدْهِمُونَ النَّارَ فِي الْقَصَبِ ويلقونها عليه . فلما رأى ذلك خرج عليهم بسيفه ، فقال له محمد بن الأشعث : لك الأمان فلا تقتل نفسك ، فأقبل يقاتلهم فقال له محمد : إنك لا تُكذِّب ولا تُخدع . إن القوم بنو عمك وليسوا بقاتليك ولا ضاريك . وكان قد أُثخِنَ بالجراحة وعَجَزَ عن القتال ، فأسند ظهره إلى حائط تلك الدار فأمنه ابن الأشعث والناسُ غيرَ عمرو بن عبيد الله السلمي فإنه قال : لا ناقة لي في هذا ولا جمل . وأتى ببغلة فحُمِلَ عليها ، وانتزعوا سيفه فكأنه أيس من نفسه فدمعت عيناه ثم قال : هذا أول الغدر . قال محمد : أرجو ألا يكون عليك بأس ، قال : أين أمانكم ؟ ثم بكى ، فقال له عمرو بن عبيد الله السلمي : مَنْ يطلب مثلَ الذي تطلب إذا نزل به مثلُ الذي نزل بك لم يَبْك ، فقال : ما أبكى لنفسى ، ولكنى أبكى لأهلى المنقلبين إليكم ؛ أبكى للحسين وآل الحسين !!

ثم أدخل إلى القصر ، وتقدّم محمد بن الأشعث فأخبر عبيد الله بن زياد الخبر وبأمانه له ، فقال له عبيد الله : ما أنت والأمان ! ما أرسلناك لتؤمنه ، إنما أرسلناك لتأتينا به ، فسكت محمد .

ثم إن مُسلم بن عَقِيل رأى جَرَّةً فيها ماء بارد ، فقال : اسقوني من هذا الماء . فقال له مُسلم بن عمرو الباهلي : أتراها ؟ ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوقَ الحميم في نار جهنم . فقال له ابن عَقِيل : مَنْ أنت ؟ قال : أنا مسلم بن عمرو الباهلي ، فقال له ابن عَقِيل : لَأَمَّكَ الشُّكْل ! ما أجفاك وأفظك وأقسى قلبك وأغلظك ! أنت يا ابن باهلة أولى بالحميم والخلود في نار جهنم . ثم أدخل على ابن زياد ، فلم يسلم عليه بالإمارة ، فقال له الحرسي : ألا تسلم على الأمير ؟ فقال : إن كان يُريد قتلى فما سلامى عليه ! وإن كان لا يريد قتلى فليكثر تسليمى عليه . فقال له

ابن زياد : لعمرى لَتَمْتَنَنَّ ! فقال : كذلك ؟ قال : نعم . قال : فدعني أوص إلى بعض قومي ! قال : افعل .

فقال لعمر بن سعد : إن بيني وبينك قرابة ولي إليك حاجة - وهي سر - فلم يَمَكِّنْهُ من ذكرها . فقال ابن زياد : لا تَمْتَنِعْ من حاجة ابن عمك ، فقام معه فقال : إنَّ عليَّ بالكوفة ديناً استدنتُهُ منذ قدمت الكوفة ، قدره سبعمائة درهم ، فاقضه عني ، وانظر جُثَّتِي فاستوهبها من ابن زياد ، فوارها ، وابعث إلى الحسين مَن يَرُدُّهُ .

فقال عمرُ لابن زياد : إنَّه قال كذا كذا ، فقال ابنُ زياد : إنَّه لا يخونك الأمين ولكن قد يؤتمن الخائن ؛ أمّا مالك فهو لك ، تصنع به ماشئت ، وأمّا الحسين فإن لم يُرَدَّنَا لم رده ، وإن أرادنا لم نكف عنه ، وأمّا جُثَّتُهُ فإنّا إذا قتلناه لأنبأى ما صنَّع بها .

ثم قال ابن زياد لمسلم : يا ابن عَقِيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع ، وكلّتهم واحدة ، لَتَشَتَّتَ بينهم ، وتفرق كلمتهم ! فقال : كَلَّا ، ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم ، وسفك دماءهم ، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأثيناهم لنامر بالعدل وندعو إلى حُكْم الكتاب والسُّنَّة ، قال : وما أنت وذاك يا فاسق ! ألم يكن يعمل بذلك فيهم إذ أنت تشرب الخمر بالمدينة ؟ قال : أنا أشرب الخمر ! والله ، إن الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق ، وأنتى لست كما ذكرت ، وأن أحق الناس بشرب الخمر مَن يُلْغ في دماء المسلمين ، فيقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب والعداوة ، وهو يلهو ويلعب ؛ كأنه لم يصنع شيئاً ! فقال له ابن زياد : قتلنى الله إن لم أقتلك قتلة لم يُقْتَلْها أحدٌ في الإسلام ، قال : أما إنك أحق من أحدث في الإسلام حدثاً ؛ إنك لاتدع سوءاً لقتلة وقبح المثلة وخبث السيرة ولؤم

الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك . فشتمه ابن زياد وشم الحسين وعائلاً وعقيلاً ، ثم أمر بـابن عقيل فأصعد فوق القصر ، وضربت عنقه .

أما الحسين فإنه لما عَزَمَ على السير إلى الكوفة وتَهيَّأَ أَناهُ عُمَرُ بن عبد الرحمن ابن الحارث المخزومي فدخل عليه وقال له : أُنيتكَ يا بن عمِّ حاجةٍ ؛ أريد ذِكْرَها لك نصيحة ؛ فإن كنتَ تَرَى أَنَّكَ تَسْتَنْصِحُنِي ، وإلا كففتُ عما أريد أن أقول . فقال : قُلْ ؛ فوالله ما أظنُّكَ بِسَيِّئِ الرَّأْيِ ، فقال : بَلَّغْنِي أَنَّكَ تريدُ السيرَ إلى العِراقِ ؛ وإني مُشْفِقٌ عليك من مَسِيرِكَ ؛ إِنَّكَ تَأْتِي بِلَدٍّ فيه عَمَّالُه وأمرأؤه ، ومعهم بُيُوتُ الأموال ، وإنما الناسُ عبيدٌ لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمَنُ عليك أن يُقاتلَكَ مَنْ وعدَكَ نصرَه ، وَمَنْ أَنْتَ أَحَبُّ إِلَيْهِ يَمُنُّ بِقَاتِلِكَ معه .

فقال الحسين : جَزَاكَ اللهُ خيراً يا بن عمِّ ، فقد واللهِ علمتُ أَنَّكَ مَشَيْتَ بِنُصْحِ ، وتكَلَّمْتَ بِعَقْلِ ، ومهما يُقْضَى مِنْ أَمْرٍ يَكُنْ ، أخذتُ بِرَأْيِكَ أو تركته ، فأنت عندي أَحْمَدُ مُشِيرٍ ، وَأَنْصَحُ نَاصِحٍ .

ثم جاءه ابنُ عباس ، فقال : يا بن عمِّ ، قد أُرْجَفَ الناسُ أَنَّكَ سائرٌ إلى العِراقِ ، فبَيِّنْ لِي ما أنت صانعٌ ، قال : إني قد أَجْمَعْتُ السيرَ في أحدِ يومَي هَذَيْنِ إِنْ شاء اللهُ تعالى . فقال له ابنُ عباس : فَإِنِ أَعْيَذُكَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبَرْنِي - رَحِمَكَ اللهُ - أَنَسِيرُ إلى قومٍ قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفّوا عدوَّهم ؛ فإن كانوا قد فصلوا ذلك فسيرُ إليهم ، وإن كانوا إنما دَعَوْكَ إليهم ، وأميرهم عليهم قاهرٌ لهم ، وعَمَّالُه تجيُّ بلادهم ، فإنهم إنما دَعَوْكَ إلى الحرب والقتال ، ولا آمَنُ عليك أن يغزوك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا إليك ، فيكونوا أشدَّ الناس عليك .

فقال له الحسين : إني أستخير الله ، وأنظرُ ما يكون .

ولما خرج ابنُ عباسٍ مِنْ عنده أتاه ابنُ الزبير ، فحدثه ساعة ، ثم قال :
ما أدرى ماترَ كُنَّا هؤلاء القوم ، وكفنا عنهم ، ونحن أبناء المهاجرين وولادة هذا
الأمر دُونهم ؟ خَبَّرَنِي ماتريد أن تصنع ؟ فقال الحسين : والله لقد حدثت نفسي
بإتيان الكوفة ، ولقد كتب إلى شيمتي بها وأشراف أهلها ، وأستخير الله . فقال
له ابن الزبير : أما لو كان لي بها مثلُ شيمتك ماعدلتُ بها . ثم إنه خَشِيَ أن
يَنَّهُمه فقال له : أما إنك لو أقتَ بالحجاز ثم أردت هذا الأمر هاهنا ماخولف
عليك إن شاء الله ، ثم قام فخرج من عنده ، فقال الحسين : إن هذا ليس شيء ؟
يؤتاه من الدنيا أحبَّ إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه
ليس له من الأمر معي شيء ، وإنَّ الناسَ لم يَعدِلوه بي فودَّ أني خرجت منها
لتخلو له .

ولما كان الغد أتاه ابنُ عباسٍ ثانياً ، فقال له : يا بن عمِّ ، أتصبر ولا أضرب ،
إني أتخوَّف عليك في هذا الوجه الهلاك والاستئصال ، إنَّ أهلَ العراق قوم غدر ،
فلا تقربنَّهم ، أقيم بهذا البلد ، فإنك سيِّدُ أهل الحجاز فإنَّ كلَّ أهل العراق
يريدونك كما زعموا ، فاكتبُ إليهم ، فلينفوا عَدُوَّهم ، ثم أقدم عليهم ، فإن
أبيت إلا أن تخرج ، فسرَّ إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشعاباً . وهي أرض عريضة
طويلة ولأبيك بها شِيعَة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فكتب إلى الناس ،
وترسل وتبث دعاتك ، فإني أرجو أن يأتيتك عند ذلك الذي تحب في عافية .

فقال له الحسين : يا بن عمِّ ، إني لأعلم والله أنك ناصح مشفق ، ولكني قد

أزمت وأجمعت على السير .

فقال له ابن عباس : فإن كنت سائراً ، فلا تَسِرْ بنسائك وصِبيَّتِكَ ، فوالله
إني لخائف أن تقتل ، كما قُتِلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه . فلم يَفِدْ
كلامه شيئاً .

ثم سار بأهله وأولاده ، فقابله بالطريق الفرزدق ، فسأله الحسين عن خبر الناس
بالكوفة ، فقال له : قلوبُ الناس معك ، وسيوفُهم مع بني أمية ؛ والقضاء يَنزِلُ
من السماء ، والله يفعل ما يشاء .

وبينا هو في الطريق جاءه كتابٌ من عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : أمّا بعد ؛
فإني أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر في كتابي ؛ فإني مُشْفِقٌ عليك من الوجه الذي
تتوجه له ، أن يكون فيه هلاكُك ، واستئصالُ أهل بيتك ؛ إن هلك اليوم
أطفي نور الأرض ، فإنك علمُ المهتدين ورجاء المؤمنين ؛ فلا تعجل بالسير ، فإني في
أثر الكتاب ، والسلام .

ثم ذهب عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ، فسلمه وقال : اكتب
إلى الحسين كتاباً تجعل له فيه الأمان ، وتمنّيه فيه البرّ والصّلة ، وتوثق له في كتابك ،
وتسأله الرجوع ؛ لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو بن سعيد - وكان عامل
يزيد على مكة - : اكتب ما شئت ، واثنتي به ؛ حتى أختمه .

فكتب إليه : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن عليّ ،
أما بعد ، فإني أسأل الله أن يصرفك عما يُوبقُك ، وأن يهديك لِمَا يُرشدك ؛ بلغني
أنك توخّمت إلى العراق ، وإني أعيذك بالله من الشقاق ؛ فإني أخاف عليك فيه الهلاك ،
وقد بشت إليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل إلىّ معهما ؛ فإنّ لك عندي
الأمن والصّلة والبرّ وحسن الجوار لك ، والله علىّ بذلك شهيد وكفيل ومُرايع
ووكيل . والسلام عليك .

فكتب إليه الحسين : أمّا بعد ؛ فإنه لم يُشاقِقِ الله ورسوله مَنْ دعا إلى الله عزّ وجلّ وعمل صالحاً ، وقال : إنني من المسلمين ، وقد دعوت إلى الأمان والبرّ والصلة ؛ بخير الأمان أمان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة مَنْ لم يخفهُ في الدنيا ، فنسأل الله مخافةً في الدنيا ، توجب لنا أمانةً يوم القيامة ؛ فإن كُنت نويت بالكتاب مِمَّا نبيّ وبرّى ، فجُزيت خيراً في الدنيا والآخرة ، والسلام .

ثم تمّ على طريقه ، فقابلهُ عبد الله بن مطيع ، ولما علم بوجهه قال له : أذكرك الله يا بن رسول الله ، وحرمة الإسلام أن تُنتَهَكَ ، فوالله لئن طلبت ما في أيدي بني أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً ، والله إنها لحرمة الإسلام ، وحرمة قريش ، وحرمة العرب ؛ فلا تفعل ، ولا تأت الكوفة ، ولا تعرض نفسك لبني أمية .

ثم إن الحسين كَمّا بلغه مقتلُ مسلم بن عقيل ، وتخاذلُ الناس أعلم أصحابه بذلك وقال : مَنْ أحبّ أن ينصرف فلينصرف ؛ ففترّق الناس عنه يميناً وشمالاً . فقال له بعضُ أصحابه : نشدك الله إلا ما رجعت من مكانك ؛ فإنه ليس لك بالكوفة ناصرٌ ولا شيمة ، بل تتخوف أن يكونوا عليك . فوثب بنو عقيل ، وقالوا : والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا ، أو ندوق كما ذاق مُسلم !

وسار حتى نزل بطن العقبة ؛ وهناك لقيه رجل من العرب ، فقال : أنشدك الله إلا ما انصرفت . فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحدّ السيوف ؛ إن هؤلاء الذين همّوا إليك لو كانوا كفّوك مثنوة القتال ، ومهدوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأياً . فأما على هذه الحال التي تذكر ؛ فلا أرى أن تفعل . فأبى أن يرجع .

ولما وصل الحسين إلى مكان يقال له شَراف^(١) وصل إليه الحرّ بن يزيد التيمي صاحب شُرطة عبّيد الله بن زياد في أَلْفَى فارس ، حتى وقفوا مُقابل الحسين في حرّ الظّهيرة ، فقال لهم الحسين : ما أتيتُ إلا بكتبكم ، فإن رجعتُم رجعتُ من هنا . فقال له الحرّ : إِنَّا أُمِرْنَا أَلَّا نَفَارِقَكَ حتى نوصلك إلى الكوفة ، بين يدي عبّيد الله ابن زياد . فقال الحسين : الموت أهون علىّ من ذلك .

ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا ، فنهّم الحرّ من ذلك ، فقال الحسين : سَكَنَتْكَ أُمُك ! ما تريد ؟ فقال له : أما والله لو غيرُك من العرب يقولها ما تركتُ ذكرَ أمّته بالشكلِ كائنا مَنْ كان ، ولكنّي والله ما لي إلى ذِكْرِ أُمّك من سبيل ، إلا بأحسن ما يُقدَّر عليه .

ثم سار الحسين والحرّ يُراقبه ، حتى لا يتمكّن من الانصراف إلى المدينة ، وبينما هما في الطريق ورد كتاب من ابن زياد إلى الحرّ يأمره أن ينزل الحسين ومن معه على غير ماء ، فأنزلهم في الموضع المعروف بكرِبلاء في يوم الخميس ، ثانی المحرم من سنة إحدى وستين ، فلما كان من الغد قدم من الكوفة عمر بن سعد ابن أبي وقاص بأربعة آلاف فارس ، أرسله ابن زياد لحرب الحسين .

فقال له الحسين : اختر واحدةً من ثلاث ، إما أن تدعني فأنصرف من حيث جئتُ ، وإما أن تدعني فأذهبَ إلى يزيد ، وإما أن تدعني فألحقَ بالثغور .

فقبلَ ذلك عُمرُ بن سعد ، وأرسل بالخبر إلى عبّيد الله بن زياد ، فكتب إليه : لا ، ولا كرامة ، حتى يضعَ يده في يده ، فقال له الحسين : لا يكونُ ذلك أبداً ، ثم دار القتال ، فقتل أصحابُ الحسين كلهم ، وهم لا يزيدون على ثمانين ، وفيهم

(١) شراف : ١٥٠ بنجد .

بضعة عشر شاباً من أهل بيته . وجاءه سهم فأصاب ابناً له معه في حجره ،
فجعل يمسح الدّم عنه ويقول : اللهم احْكُم بيننا وبين قومٍ دعونا لينصرونا ،
فقتلونا ، ثم أمر بحجرة فشَقَّقَهَا ، ثم لبسها ، وخرج بسيفه وقاتل ، حتى قُتِل - صلوات
الله عليه - قَتَلَهُ رجل من مَذْحِجٍ ، وحَزَّ رأسه ، وانطلق به إلى عُبيد الله وقال :
أَوَقِرْ رَكَابِي فِصَّةً وَذَهَبًا فَقَدْ قَتَلْتُ الْمَلِكَ الْمُحَجَّبَا ^(١)
قَتَلْتُ خَيْرَ النَّاسِ أُمًّا وَأَبَا وَخَيْرَهُمْ إِذْ يُنْسَبُونَ نَسَبًا

وأوفده إلى يزيد بن معاوية ، ومعه الرأس ، فوضع رأسه بين يديه ، وعنده
أبو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ . فجعل ينكت بالقضيب على فيه ، ويقول :
يُفَلِّقُنْ هَامًا مِنْ رِجَالِ أَعْزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمًا ^(٢)
فقال له أبو بَرَزَةَ : ارفع قضيبك ، فوالله لرُبَّمَا رأيتَ فَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عليه وسلّم على فيه يَلْتَمُهُ !

(١) انظر العقد ٤ : ٣٨١ .

(٢) للحصين بن سالم المري ، وانظر العقد ٤ : ٣٨٢ .

٥٥ - يوم الحرّة*

كان عمرو بن سميد أميراً على الحجاز في عهد يزيد^(١) بن معاوية ، وعلى إثر مقتل الحسين - رضى الله عنه - أخذ عبد الله بن الزبير يدعو لنفسه بمكة . واشترأت إليه الناس ، فأظهر عمرو معه تهاوفاً ظناً منه أن الأمور قد تثول إليه . فذهب ناس من بنى أمية ومعهم الوليد بن عتبة إلى يزيد ٨ وحدثوه في أمر عمرو بن سميد ، وقالوا : لو شاء لأخذ ابن الزبير وبعره إليك .

فسرح يزيدُ عمرواً وصرفه عن الحجاز ، وولى الوليد بن عتبة أميراً ، وقدم عمرو على يزيد ، فلما دخل عليه رحّب به وأذنّى مجلسه ، ثم إنه عاتبه في تقصيره في أشياء . كان يأمره بها في ابن الزبير ، فلا ينفذ منها إلا ما أراد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وإنّ جلّ أهل مكة وأهل المدينة قد كانوا مالوا إليه ، وهووه ، وأعطوه الرضا ، ودعا بعضهم بعضاً سرّاً وعلانية ، ولم يكن معي جند أقوى بهم عليه لو ناهضته ، وقد كان يحذرنى ويتحرّز منى ، وكنت أرزق به وأداريه لأستمكن منه ، فأثب عليه ، مع أنى قد ضيّقتُ

* ليريد بن معاوية على أهل المدينة سنة ٦٣ هـ . والحرّة : أرض ذات حجارة سود نخرة ، كأنها أحرقت بالنار ، والحرار كثيرة في بلاد العرب ، أكثرها حوالى المدينة إلى الشام . والحرّة التي وقعت فيها هذه الواقعة تقع شرق المدينة ، اسمها حرّة واقم .

تاريخ الضرب ٧ : ١ ، معجم البلدان ٣ : ٢٦٢ ، الفخرى ١٠٦ : ١ ، الأغاني ١ : ٢٣ ، مروج الذهب ٣ : ٩٥ ، أبو الفدا ٢ : ١٩٢ ، العقد ٣ : ١٤١ .

(١) ولى يزيد الخلافة سنة ٦٠ بعد وفاة معاوية ، وتوفى سنة ٦٣ ، وكان موفور الرغبة في اللهو والقمص والنساء ، وكان أيضاً فصيحاً كريماً شاعراً ، ولى ثلاث سنين ، في السنة الأولى قتل الحسين ، وفي السنة الثانية نهب المدينة وأباحها ، وفي السنة الثالثة غزا الكعبة .

عليه ، ومنعته أشياء كثيرة لو تركته وإياها ما كانت له إلا مَعُونَةٌ ، وجعلت على
مكة وطُرقها وشعابها رجالا لا يدعون أحداً يدخلها حتى يكتبوا إلى باسمه واسم
أبيه ، ومن أي بلاد الله هو ، وما جاء به وما يُريد ، فإن كان من أصحابه أو
ممن أرى أنه يريدُه ردّدته صاغراً ، وإن كان ممن لا اتّهمُ خَلَيْتُ سبيلَه ، وقد
بَعَثَ الوليد وسيّاتيك من عمله وأثره ما لعلك تعرفُ به فَضَلَ مبالغتي في أمرك ،
ومناصحتي لك . إن شاء الله . والله يصنّع لك ، وبَكَيْتُ عدوك
يا أمير المؤمنين .

فقال له يزيد: أَنْتَ أَصْدَقُ مِمَّنْ رَقَى هذه الأشياء عنك، وحلني بها عليك. وأنتَ
مِمَّنْ أَثِقُ بِهِ ، وأرجو معونته ، وأدّخره لرَأْبِ الصّدْعِ ، وكفاية المهم ، وكشف
نوازل الأمور المظالم .

فقال له عمرو : وما أرى يا أمير المؤمنين أن أحداً أوّل بالقيام بتشديد سُلْطَانِكَ ،
وتوهِينِ عدوك ، والشدة على مَنْ نَابَذَكَ مِنِّي .

وأقام الوليد بن عُثْبَةَ يريدُ ابنَ الزُّبَيْرِ فلا يَجِدُهُ إلا متحذراً مُتَمَنِّعاً .

ثم إن ابن الزُّبَيْرِ عمل بالمَكْرِ في أمر الوليد بن عُثْبَةَ ، فكتب إلى يزيد بن
معاوية: إنك بعثت إلينا رجلاً أُخْرَقَ؛ لا يَتَّبِعُهُ لأمر نافع ، ولا يَرْعَوِي لِعِظَةِ حَكِيمٍ .
ولو بعثت إلينا رجلاً سَهَلَ الْخُلُقِ ، لَيِّنَ الْكَتْفِ رَجَوْتُ أَنْ يُسَهِّلَ من الأمور ما
استوعر منها ، وأن يجمع ما تفرّق . فانظر في ذلك ، فإن فيه صلاحَ خواصّنا وعوامتنا
إن شاء الله .

فبعث يزيد بن معاوية إلى الوليد فمزله ، وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان
خفدَم المدينة وهو فَتًى غِرٌّ حَدَثَ غَمَرٌ ؛ لم يُجَرِّبِ الأمور ، ولم تحمكه السنّة ؛

ولم تفسرّسه التجارب ؛ وكان لا يكاد ينظر في شيء من سُلْطَانِهِ ولا عمله .

وبعث إلى يزيد وَفْدًا من أهل المدينة ؛ فيهم عبدُ الله بن حنظلة الفسيل^(١) الأنصارى ، وعبدُ الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ؛ والمنذر بن الزبير ، وممّهم كثيرٌ من أَشرافِ أهل المدينة .

فقدموا على يزيد فأكرمهم ، وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ؛ ثم انصرفوا كلهم وقدموا إلى المدينة إلا المنذر بن الزبير ، فإنه قدّم على عبيد الله بن زياد بالبصرة .

فلما دخلوا المدينة قالوا : إِنَّا قدمنا من عند رجل ليس له دين ؛ يشربُ الخمر ، ويمزِفُ بالطَّنَّاءِ ، وتَضْرِبُ عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامرُ الخراب^(٢) والفتيان . وإنا نشهدكم أَنَّا قَدْ خَلَعْنَاهُ . فتابعهم الناس ، وأتوا عبد الله بن حنظلة الفسيل ، فبايعوه ، وولّوه عليهم .

ولما بلغ يزيد أمرهم بعث إلى النعمان بن بشير الأنصارى ، فقال له : إيتِ الناس وقومك ، فافشأهم^(٣) عَمَّا يريدون ، فإنهم إن لم ينهضوا في هذا الأمر لم يجترأ الناسُ على خلافي . وبها من عشيرتي مَنْ لا أحبُّ أَنْ يَنْهَضَ في هذه الفتنة فيهلك .

فأقبل النعمان بن بشير ؛ فأتى قومه ، ودعا الناس إليه عامة ، وأمرهم بالطاعة ، ولزوم الجماعة وخوفهم الفتنَةَ ؛ وقال لهم : إنه لا طاقة لكم بأهل الشام . فقال عبد الله بن مُطِيع المدَوِيُّ : ما يحملك يا نُعمان على تَقْرِيقِ جماعتنا ، وفسادِ ما أُنْصَحَ اللهُ من أمرنا ؟

(١) الفسيل : لقب حنظلة والد عبد الله ؛ وكان يسمى غسيل الملائكة ، استشهد يوم أحد وغسلته الملائكة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رأيت الملائكة يفسلونه . وآخرين يسترونه .
(٢) الخراب : اللصوص .
(٣) افشأهم : سكنهم واصرفهم عما يريدون .

فقال النعمان : أَمَّا وَاللَّهِ لَكَأَنِّي بَكَ لَوْ قَدْ نَزَلَتْ تِلْكَ الَّتِي تَدْعُو إِلَيْهَا^(١) ؛
وَقَامَتِ الرِّجَالُ عَلَى الرُّكْبِ تَضْرِبُ مَفَارِقَ الْقَوْمِ وَجِبَاهَهُمْ بِالسُّيُوفِ ، وَدَارَتْ رَحَى
الْمَوْتِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ - قَدْ هَرَبْتَ عَلَى بَهْلَتِكَ تَضْرِبُ جَنْبَيْهَا إِلَى مَكَّةَ ؛ وَقَدْ خَلَفَتْ
هَؤُلَاءِ الْمَسَاكِينَ - يَعْنِي الْأَنْصَارَ - يُقْتَلُونَ فِي سِكَكِهِمْ وَمَسَاجِدِهِمْ وَعَلَى أَبْوَابِ
دُورِهِمْ !

وَلَكِنِ النَّاسَ عَصَوْا النِّعْمَانَ ، وَوَثَبُوا عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ
بَنِي أُمِيَّةٍ وَمَوَالِيهِمْ ، وَمَنْ رَأَى رَأَى رَأْيَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ؛ فَكَانُوا نَحْوًا مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ ؛
وَخَرَجُوا بِجَمَاعَتِهِمْ حَتَّى نَزَلُوا دَارَ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ ؛ وَحَاصَرُوا الْأُمَوِيِّينَ فِيهَا .
وَدَعَتْ بَنُو أُمِيَّةٍ حَبِيبَ بْنَ كُرَّةَ ؛ وَكَانَ الَّذِي بَعَثَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ
وَعُمَرُو بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ؛ وَكَانَ مَرْوَانُ هُوَ الَّذِي يَدْبِرُ أُمُورَهُمْ ؛ وَأَمَّا عُمَرُو بْنُ عُثْمَانَ
فَإِنَّمَا كَانَ غُلَامًا حَدَثًا لَمْ يَكُنْ لَهُ رَأْيٌ .

قَالَ حَبِيبُ بْنُ كُرَّةَ : كُنْتُ مَعَ مَرْوَانَ فَكُتِبَ مَعِيَ هُوَ وَجَمَاعَةٌ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ
كِتَابًا إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ؛ فَأَخَذَ الْكِتَابَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ حَتَّى خَرَجَ مَعِيَ
إِلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ ؛ فَدَفَعَ إِلَى الْكِتَابِ وَقَالَ : قَدْ أَجَلْتُكَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً ذَاهِبٌ ؛
وَاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً مُقْبِلًا ؛ فَوَافِنِي لِأَرْبَعٍ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً فِي هَذَا الْمَسْكَانِ تَجِدُنِي
إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ جَالِسًا أُنْتَظَرُكَ .

وَكَانَ الْكِتَابُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ؛ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّا قَدْ حُصِرْنَا فِي دَارِ
مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَيَاغُوثَاهُ يَاغُوثَاهُ !

قَالَ : فَأَخَذْتُ الْكِتَابَ وَمَضَيْتُ بِهِ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى يَزِيدَ ؛ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى

(١) يريد الفتنة .

كرسى ؟ واضع قدميه في ماء في طست من وجع كان يجده فيهما . فقرأ ثم قال متمثلاً :

لقد بدّلوا الحلم الذي من سحّيتي فبدلت قومي غلظة . بليان
ثم قال : أما يكون بنو أمية ومواليهم ألف رجل بالمدينة ! قال حبيب :
قلت : بلى . والله وأكثر ! قال : فما استطاعوا أن يُقاتلوا ساعة من نهار !
فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أجمع الناس كلهم عليهم . فلم يكن لهم بجمع الناس
طاقة .

قال حبيب : فبعث يزيد إلى عمرو بن سعيد فأقرأه الكتاب وأخبره الخبر ؛
وأمره أن يسير إليهم في الناس . فقال له : قد كنت ضبطت لك البلاد ، وأحكمت
لك الأمور ؛ فأما الآن إذ صارت دماء قريش تُهراق ، فلا أحب أن أكون أنا
أتولي ذلك ؛ يتولّاها منهم من هو أبعد منهم مني .

قال حبيب : فبعثني بذلك الكتاب^(١) إلى مسلم^(٢) بن عقبة المرّي - وهو
شيعٌ كبير ضعيف مريض - فدفعته إليه الكتاب ؛ فقرأه وسألني عن الخبر
فأخبرته ؛ فقال لي مثل مقالة يزيد : أما يكون بنو أمية ومواليهم وأنصارهم بالمدينة
ألف رجل ! قلت : بلى يكونون ، قال : فما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار !
ليس هؤلاء بأهل أن يُنصروا حتى يُجهّدوا أنفسهم في جهادِ عدوهم وعزّ سلطانهم .
ثم جاء حتى دخل على يزيد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لا تنصر هؤلاء ؛
فإنهم الأذلاء ؛ أما استطاعوا أن يُقاتلوا يوماً واحداً أو شطره أو ساعة منه !

(١) ذكر في الفخرى أن يزيد بعد أن عرض الأمر على عمرو بن سعيد ولم يقبله ندب عبيد الله
ابن زياد لذلك فاعتذر وقال : والله لاجتمهما للفاسق ، أقتل ابن رسول الله (يريد الحسين) وأغزو
مدينته والكعبة !

(٢) كان مسلم بن عقبة المرّي من جبابرة العرب وشياطينهم ، وقيل : إن أباه قال له : إن
خالفك أهل المدينة فارهم بمسلم بن عقبة .

دَعَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يُجَاهِدُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِمْ وَعِزِّ سُلْطَانِهِمْ ؛
وَيَسْتَبِينَ لَكَ مَنْ يُقَاتِلُ مِنْهُمْ عَلَى طَاعَتِكَ ، وَيَصْبِرُ عَلَيْهَا ، أَوْ يَسْتَسْلِمُ .

قال يزيد : وَيَحَاكَ ! إِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بِهِمْ ، فَاخْرُجْ وَأَنْزِلْنِي نَبَأَكَ
وَسِرِّ بِالنَّاسِ .

فَخَرَجَ مُنَادِيهِ ، فَنَادَى : أَنْ سِيرُوا إِلَى الْحِجَازِ عَلَى اخْتِيارِ أَعْطِيَانِكُمْ كَامِلَةً ،
وَبِمِوَنَةِ مِائَةِ دِينَارٍ تَوْضَعُ فِي يَدِ الرَّجُلِ مِنْ سَاعَتِهِ . فَاتَّسَدَبَ لَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ
رَجُلٍ (١) :

قال حبيب بن كرتة : فَأَقْبَلْتُ حَتَّى أَوْفَى عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ
فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَوْ بُمَيْدِهَا شَيْئًا ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مُتَمَنِّعًا تَحْتَ شَجَرَةٍ ؛ فَأَخْبَرْتُهُ
بِالَّذِي كَانَ ؛ فَسَرَّ بِهِ ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى دَخَلْنَا دَارَ مَرْوَانَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ ،
فَمَتَّبَعْتُهُمْ بِالَّذِي قَدِمَتْ بِهِ ، فَحَمَدُوا اللَّهَ عِزَّ وَجَلَّ .

وفصل الجيش من عند يزيد ؛ وعليهم مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ ، وقال له يزيد :
إِنْ حَدَّثَ بِكَ حَدَّثٌ فَاسْتَخْلَفْ عَلَى الْجَيْشِ حُصَيْنَ بْنَ تَمِيمِ السَّكُونِيَّ ، وَادْعُ الْقَوْمَ
ثَلَاثًا فَإِنَّهُمْ أَجَابُوكَ وَإِلَّا فَنَاتِلِهِمْ ؛ فَإِذَا ظَهَرْتَ عَلَيْهِمْ ، فَأَبْحِمْهَا ثَلَاثًا ، فَمَا فِيهَا
مِنْ مَالٍ أَوْ سِلَاحٍ أَوْ طَعَامٍ . فَهُوَ لِلْجُنْدِ ؛ فَإِذَا مَضَتْ الثَّلَاثُ فَاسْكَفْ عَنِ النَّاسِ .
وَانْظُرْ عَلَى بْنِ الْحُسَيْنِ فَاسْكَفْ عَنْهُ ، وَاسْتَوْصِ بِهِ خَيْرًا ، وَأَذِنْ لِمَنْ يَدْخُلُ

(١) ذكر ابن عبد ربه في العقد أن يزيد أرسل إلى أهل المدينة كتاباً قال فيه : بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَمَّا بَعْدُ . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا
فَلَا مَرَدَ لَهُ ، وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ . وَإِنِّي قَدْ لَبِسْتُكُمْ فَأَخَذْتُكُمْ وَرَفَعْتُكُمْ عَلَى رَأْسِي ، ثُمَّ عَلَى عَيْنِي ،
ثُمَّ عَلَى فَمِي ، ثُمَّ عَلَى بَطْنِي ، وَاللَّهِ لَأَنْ وَضَعْتُكُمْ تَحْتَ قَدَمِي لِأَوْطَانِكُمْ وَطَاءَ أَقْلٍ بِهَا عَدَدَكُمْ وَأَتْرَكْتُكُمْ بِهَا
أَحَادِيثَ تَنْتَسِخُ أَخْبَارَكُمْ مَعَ أَخْبَارِ عَادَ وَثَمُودَ .

في شيء مما دخلوا فيه ، وقد أتاني كتابه . وعلى لا يعرف شيئاً مما أوصى به يزيد مسلم بن عُبَيْدَةَ (١) .

وأقبل مسلم بن عُبَيْدَةَ بِالْجَنْدِ ، حتى إذا بلغ أهل المدينة إقباله وثبوا على من معهم من بني أمية ، فحصرهم في دار مروان ، وقالوا : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه ، ألا تبغونا غائلة ، ولا تدلونا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوياً ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا . فأعطوهم عهد الله وميثاقه : لا نبغيكُم غائلة ، ولا ندلكم على عورة .

فأخرجهم من المدينة (٢) ؛ فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عُبَيْدَةَ بوادي القرى ، فدعا عَمْرُو بْنُ عَثْمَانَ أَوَّلَ النَّاسِ ، فقال له : أخبرني خبراً ما وراءك وأشير علي . قال : لا أستطيع أن أخبرك ، أخذت علينا اليهود والمواثيق ألا ندلك على عورة ، ولا نظاهروا عدوياً . فانتهره . ثم قال : والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك . وإني (٣) الله لا أقيها قريشاً بعدك .

وخرج بما لقي من عنده إلى أصحابه ، فقال مروان بن الحكم لابنه عبد الملك : ادخل قبلي ، لعلني يجتري بك عني . فدخل عليه عبد الملك ، فقال : هات ما عندك ، أخبرني خبر الناس وكيف ترى ؟ فقال له : نعم ، أرى أن تسير بمن معك فتتسكب

(١) قال أبو الفرج : لما أخرج أهل المدينة بني أمية أتى مروان عبد الله بن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إن هؤلاء القوم قد ركبونا بما نرى ، فضم عيالنا ، فقال : لست من أمرك وأمر هؤلاء في شيء . فقام مروان وهو يقول : قبح الله هذا أمراً وهذه دنياً ثم أتى علي بن الحسين فسأله أن يضم أهله ونقله ففعل ، ووجهه وامرأته أم أبان بنت عثمان إلى الصائف ومعهما ابنتاه : عبدالله وعبد . قال ابن جرير الطبري : وكان مروان شاكرًا لعلي بن الحسين مع صداقة كانت بينهما . (٢) قال في الأغاني : حينما أراد أهل المدينة إخراج أميرها عثمان بن محمد بن أبي سفيان قال لهم : أنشدكم الله في دمائكم وطاعتكم ، فإن الجنود تأتيكم وتطوكم ، وأعذر لكم ألا تخرجوا أميركم لأنكم إن ظفرتُم وأنا مقيم بين أظهركم فأيسر شأني وأقدركم على إخراجي ! وما أقول هذا إلا نظراً لكم أريد به حقن دمائكم . فشموه وشتموا يزيد .

(٣) أسله : وأمين ، وهو جمع يمين ، والخبر محذوف والتقدير : وإمين الله قسماً .

هذا الطريق إلى المدينة ، حتى إذا انتهيت إلى أدنى نَخل بها نزلت ، فاستظلّ الناس بظله ، وأكَلُوا من صَقْرِهِ^(١) ، حتى إذا كان الليل أَذْكَتَ الحِرْسَ الليل كله بين أهل العسكر ، حتى إذا أصبحت صَلَّيت بالناس الغداة ، ثم مضيت بهم وتركت المدينة ذات اليسار ، ثم أَدرتَ بالمدينة حتى تأتيهم من قبل الحرة مُشرقًا ، ثم تستقبل القوم ، فإذا استقبلتهم وقد أَشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرّها ، ويصيبهم أذاها ، ويَرَوْنَ - مادمت مُشرقين ائتلاقَ بَيْنِكُمْ وحِرَابِكُمْ وأسنّة رماحكم وسيوفكم وذُرُوعكم ، مما لا تَرَوْنَهُ أنتم لشيء من سلاحهم ماداموا مُغرّبين - ثم قابِلْهم ، واستعِنَ بالله عليهم ، فإن الله ناصرُك إذ خالفوا الإمام وخرجوا من الجماعة .

فقال له مسلم : لله أبوك ! أى امرئ وُلِدَ إذ ولدك ! لقد رأى بك خَلْفًا .

ثم إن مروان دخل عليه ، فقال له : إيه ! قال : أليس قد دخل عليك عبدُ الملك ؟ قال : بلى ! وأى رجل عبد الملك ! قلّما كَلَمْتُ من رجالِ قریش رجلًا شبيهًا به ! فقال له مروان : إذا لقيتَ عبد الملك فقد لقيتَنِي . قال : أَجَلُ !

ثم ارتحل مُسلم من مكانه ذلك ، وارتحل الناسُ معه حتى نزل المنزل الذى أمره به عبد الملك ، فصنع فيه ما أمره به ، ثم مضى في الحرة حتى نزلها ، فأَتاهم من قبل المشرق ، ثم دعاهم مُسلم بن عُبَبة ، فقال : يا أهل المدينة ، إن أميرَ المؤمنين يزيد بن معاوية يزعمُ أنكم الأصل ، وإنى أكره هراقةَ دِمَائِكُمْ ، وإنى أؤجلُكم ثلاثًا ، فمن ارتعوى ورَاجَعَ الحقَّ قَبِلْنَا منه ، وانصرف عنكم وسرت إلى هذا

(١) الصقر : عسل الرطب .

الملحد^(١) الذى بمكة، وإن أَيْبَتُمْ كُنَّا قَدْ أَعْذَرْنَا إِلَيْكُمْ .

ولما مضت الأيام الثلاثة قال : يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ، قَدْ مَضَتْ الْأَيَّامُ الثَّلَاثَةُ ؛ فَمَا تَعْنَعُونَ ؟ أَتَسْأَلُمُونَ أَمْ تَحَارِبُونَ ؟ فَقَالُوا : بَلْ نَحَارِبُ .

فَقَالَ لَهُمْ : لَا تَفْعَلُوا ، بَلْ ادْخُلُوا فِي الطَّاعَةِ ، وَنَجْعَلْ حَدَّنَا وَشَوْكُنَا عَلَى هَذَا الْمُلْحِدِ الَّذِي قَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ الْمُرَّاقُ وَالْفُسَّاقُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ .

فَقَالُوا : يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ ، وَاللَّهِ لَوْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَجُوزُوا إِلَيْهِمْ مَا تَرَكْنَاكُمْ حَتَّى تَقَاتِلَكُمْ ، أَنْحَنُ نَدْعَكُمْ لِتَأْتُوا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَتُخِيفُوا أَهْلَهُ ، وَتُلْجِدُوا فِيهِ ؛ وَتَسْتَحِلُّوا حَرَمَتَهُ ! لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ .

وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ اتَّخَذُوا خَنْدَقًا فِي جَانِبِ الْمَدِينَةِ ، وَزَلَهُ جَمْعٌ عَظِيمٌ ، وَكَانَ عَنْهُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زُهَيْرٍ بْنُ عَبْدِ بْنِ عَوْفٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُطِيعٍ وَمَعْقِلُ بْنُ سَفَانَ ، وَأَمِيرُ جَمَاعَتِهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَنْظَلَةَ الْفَسِيلِ .

وَصَدَّ مُسْلِمٌ بِجَمِيعِ مَنْ مَعَهُ ، وَأَقْبَلَ مِنْ قِبَلِ الْحَرَّةِ ، وَضَرَبَ فُسْطَاطَهُ عَلَى طَرِيقِ السَّكُوفَةِ ، ثُمَّ وَجَّهَ الْخَيْلَ نَحْوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَنْظَلَةَ الْفَسِيلِ ، وَحَمَلَ ابْنُ الْفَسِيلِ عَلَى الْخَيْلِ فِي الرِّجَالِ الَّذِينَ مَعَهُ ؛ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى مُسْلِمٍ بِنِ عُقْبَةَ ؛ فَهَضَّ فِي وَجُوهِهِم بِالرِّجَالِ ، وَصَاحَ بِهِمْ فَانْصَرَفُوا ، فَقَاتَلُوا قِتَالًا شَدِيدًا .

ثُمَّ إِنَّ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ بْنَ رَبِيعَةَ بْنَ الْحَارِثِ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلِبِ جَاءَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ حَنْظَلَةَ الْفَسِيلِ فَقَاتَلَ فِي نَحْوِ مِنْ عَشْرِينَ فَارِسًا قِتَالًا شَدِيدًا حَسَنًا ، ثُمَّ قَالَ لِمُسْلِمِ اللَّهِ : مَرُّ مَنْ مَعَكَ فَارِسًا فَلْيَأْتِنِي وَلِيَقِفْ مَعِيَ ، فَإِذَا حَمَلَتْ فَلْيَحْمِلُوا ، فَوَاللَّهِ لَا أَنْتَهَى حَتَّى أَبْلُغَ مُسْلِمًا ، فَإِذَا أَنْ أَقْتَلَهُ ، وَإِذَا أَنْ أَقْتَلَ دُونَهُ .

(١) يريد عبد الله بن الزبير ، وكان قد اعتصم بمكة .

فقال عبدُ الله بن حَنْظَلَةَ لعبدِ الله بن الضَّحَّاك : نادِ في الخيل ، فَلَتَقِفَ مع الفضل ابن العباس ، فنَادَى فيهم الضحَّاك ، فجمعهم إلى الفضل ؛ فلما اجتمعت الخيلُ إليه حمل على أهل الشام فانكشفوا ، فقال لأصحابه : احمِلُوا أُخْرَى جُعِلَتْ فِدَاكُمْ ! فوالله لئن عاينت أميرهم لأقتلنَّه أو لأقتلنَّ دونه . إنَّ صبر ساعةٍ مُعَقِّبٌ سروراً ، إنه ليس بعد صَبْرٍنا إلا النصر .

ثم حمل وحمل أصحابه معه ، فانفرجت خيلُ أهلِ الشام عن مسلم في نحو خمسمائة راجل جثاة على الركب ، مُشْرِعِي الأَسِنَّة نحو القوم .

ومضى الفضلُ كما هو نحو رَايَتِهِ حتى يضرب رأسَ صاحبِ الراية ، وإن عاينه لِمَغْفَرًا ، فقطعَ المغفرَ وقلقَ هامته ، فخرَّ ميتا . فقال : خُذْهَا مِنِّي وَأَنَا ابن عبدِ المطلب ! وظنَّ أنه قتل مسلماً ، فقال : قتلْتُ طاغيةَ القوم وربَّ الكعبة . فقال مسلم : أخطأتُ ضربتك - وإنما كان ذلك غلاماً له شجاعاً . وأخذ مسلم رايته ونادى : يَا هَلْ الشام ، أهذا القتال قتال قوم يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وإن يُمزَّوا به نَصَرَ إمامهم ، قبحَ الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجه لقلبي ، وأغيظه لنفسي ! أما والله ماجزأكم عليه إلا أن تُحرَّموا البِطَاء ، وأن تجمَّروا^(١) في أقاصي الثغور . شدَّوا مع هذه الراية ، ومشى برايته ، وشدَّت الرجالُ أمام الراية ، وصُرع الفضل بن عباس وما بينه وبين أطناب مسلم إلا عشر أذرع ، وقتل معه زيد بن عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم بن نُعَيْم المدَوِيُّ في رجال من أهل المدينة كثير .

ثم إن خيلَ مسلم ورجالَه أقبلت نحو عبدِ الله بن حَنْظَلَةَ الغسيل ورجالَه حتى

(١) جروا في أرض العدو : أي حبسوا

دَنَوْا منه ، وركب مسلم بن عُبَيْدَةَ فرساً له ، فأخذ يسير في أهل الشام ، ويحرقهم ويقول : يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها وأنسابها ، ولا أكثرها عدداً ، ولا أوسمها بلداً ، ولم يخصكم الله بالذي خصكم به من النصر على عدوكم وحسن المنزلة عند أمتكم إلا بطاعتكم واستقامتكم ، وإن هؤلاء القوم وأشباههم من العرب غيروا فغير الله بهم ، فتموا على أحسن ما كنتم عليه من الطاعة يتم الله لكم أحسن ما ينيلكم من النصر والظفر .

ثم جاء حتى انتهى إلى مكانه الذي كان فيه ، وأمر الخليل أن تقدم على ابن النسييل وأصحابه ، فأخذت الخليل إذا أقدمت على الرجال فثاروا في وجوها بالرماح والسيوف نفرت وأحجمت ، فنادى فيهم مسلم : يا أهل الشام ، ما جعلهم الله أولى بالأرض منكم . يا حصين بن نُمير ، انزل في جندك ، فنزل في أهل حمص ، فشى إليهم ، فلما رآهم ابن النسييل قام في أصحابه فقال : يا هؤلاء ، إن عدوكم قد أصابوا وجه القتال ، الذي كان ينبغي أن تقاتلوه به ، وإني قد ظننت ألا تلبثوا إلا ساعة ، حتى يفصل الله بينكم وبينهم ، إما لكم وإما عليكم ، أما إنكم أهل البصيرة ، ودار الهجرة ، والله ما أظن ربكم أصبح عن أهل بلد من بلدان المسلمين بأرضي منه عنكم ، ولا على أهل بلد من بلدان العرب بأسخط منه على هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم ، إن لكل امرئ مיתה هو ميت بها ، والله ما من مיתה بأفضل من مיתה الشهادة ، وقد ساقها الله إليكم فاغتنموها ، فوالله ما كلما أردتموها وجدتموها .

ثم مشى برأيته غير بعيد ووقف ، وجاء ابن نُمير برأيته حتى أدناها ، وأمر مسلم ابن عقيل عبد الله بن عضاء الأشعري ، فشى في خمسمائة ، حتى دنوا من ابن النسييل وأصحابه ؛ وأخذوا ينصَحونهم بالنبل ، فقال ابنُ غسيل : علام تستهفون لهم ؟

من أراد التمجّل إلى الجَنَّة فليُزِم هذه الرّاية . فقام إليه كل مستميت ، فقال : اتَّعِدُوا إلى ربِّكم ، فوالله إنى لأرجو أن تكونوا بعد ساعة قَريرى عين .
فنهض القومُ بمضمهم إلى بعض فاقتتلوا أشدَّ قتال رُئى فى ذلك الزمان ساعة من نهار . وأخذ يقدم بنيه أمامه واحداً واحداً حتى قتلوا بين يديه . وابن الغسيل يضرب بسيفه ويقول :

بُمدأ لِمَن رامَ الفسادَ وطَفَى وجانبَ الحقِّ وآياتِ الهدى
* لا يُبْعِدُ الرحمنُ إلا من عَصَى *

فقتل وقتل معه أخوه لأمه محمد بن ثابت ، وقتل معه محمد بن عمرو بن حَزَم الأنصارى ، فرَّ عليه مَرْوان بن الحكم ، فقال : رحمك الله ! فربَّ سارية قد رأيتك تُطيل القيام فى الصلاة إلى جَنبها .

وغلبت الهزيمة على أهل المدينة ، وأباحها مسلم ثلاثاً ، يقتلون الناس ، ويأخذون الأموال ، فأفزع ذلك من كان بها من الصحابة ، فخرج أبو سميد الخدرى حتى دخل فى كهف فى الجبل ، فبصر به رجلٌ من أهل الشام فجاء حتى اقتحم عليه النار .

قال أبو سميد : دخل إلى الشامى يمشى بسيفه ، فانتصبتُ سيقى ، ومشيتُ إليه لأُرعيه لعله ينصرف عني ، فأبى إلا الإقدام علىّ ، فلما رأيتُ أن قد جدَّ شئتُ سيقى ، ثم قلت له : لئن بسطتَ إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدى إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين . فقال لى : من أنت ؟ لله أبوك ! فقلت : أنا أبو سميد الخدرى . قال : صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : نعم ! فانصرف عني .

ثم دعا الناسَ مُسلم بقباً إلى البيعة وطلب الأمان لرجلين من قريش : ليزيد ابن عبد الله بن زمة ومحمد بن أبى الجهم ، ولمفل بن سنان الأشجعى ، فأتى بهم

بعد الوقعة بيوم ، فقال القرشيّان : نُبَايِمْكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، فقال : لا والله لا أُقِيلُكُمْ ، وقَدَمَهُمَا فَضْرِبْتُ أَعْنَاقَهُمَا . فقال مروان : سبحان الله ! أُنَقِّتِلُ رَجُلَيْنِ مِنْ قَرِيشٍ أَتَيْتَا لِيُؤْمِنَا فَضْرِبْتُ أَعْنَاقَهُمَا ؟ فَنَحْسُهُ بِالْقَضِيبِ فِي خَاصَرَتِهِ ثُمَّ قَالَ : وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَوْ قُلْتَ بِعَقَالَتِهِمَا فَعَلْتُ بِكَ مَا فَعَلْتَهُ مَعَهُمَا .

وجاء مَعْقِلُ بْنُ سَنَانٍ فَجَلَسَ مَعَ الْقَوْمِ ، وَدَعَا بِشَرَابٍ لِيُسْقَى . فقال له مسلم : أَيْ الشَّرَابِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْعَسَلُ . قَالَ : اسْقُوهُ ، فَشَرِبَ حَتَّى ارْتَوَى فَقَالَ لَهُ : أَقْضَيْتَ رِيَّكَ مِنْ شَرَابِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : لا والله ، لا تشرب بمسده شراباً أبداً إلا الحليم في نار جهنم ، أَتَذْكُرُ مَقَالَتَكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : سَرْتُ شَهْرًا ، وَرَجَعْتُ شَهْرًا ، وَأَصْبَحْتُ صَفْرًا ، اللَّهُمَّ غَيِّرْ ! تَعْنِي يَزِيدٌ ، فَقَدَّمَهُ فَضْرِبَ عُنُقَهُ .

وَأَتَى يَزِيدُ بْنُ وَهَبٍ بْنُ زَمْعَةَ ، فَقَالَ : بَايِعْ ، قَالَ : أَبَايَمُكَ عَلَى سَنَةِ عَمْرٍ . قَالَ : اقْتُلُوهُ . قَالَ : أَنَا أَبَايَعُ ! قَالَ : لَا ، وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ عَثْرَتَكَ ، فَكَلَّمَهُ مَرْوَانَ ابْنَ الْحَكَمِ لَصْهَرِكَانَ بَيْنَهُمَا ، فَأَمَرَ بِمَرْوَانَ فَوُجِّدَتْ عُنُقُهُ ، ثُمَّ قَالَ : بَايَعُوا عَلَى أَنْكُمْ خَوْلُ يَزِيدٍ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ .

وَلَمَّا أَتَى بِلْعَى بْنِ الْحُسَيْنِ إِلَى مُسْلِمٍ قَالَ : مَنْ هَذَا ؟ قَالُوا : هَذَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ . قَالَ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى السَّرِيرِ وَالطَّنْفِيسَةِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْصَانِي بِكَ قَبْلًا ، وَهَؤُلَاءِ الْخَبِثَاءُ شَغَلُونِي عَنْكَ وَعَنْ صَلَاتِكَ ، ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ : لَعَلَّ أَهْلَكَ فَرَعُوا ! فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ ، فَأَمَرَ بِدَابَّتِهِ فَأَسْرَجَتْ ، ثُمَّ حَمَلَهُ فَرَدَّهُ عَلَيْهَا .

وَأَتَى بِعَمْرٍو بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ، فَقَالَ مُسْلِمٌ : يَا أَهْلَ الشَّامِ ؟ تَعْرِفُونَ هَذَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : هَذَا الْخَبِيثُ ابْنُ الطَّيِّبِ ؛ هَذَا عَمْرٍو بْنُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، هِيَهْ يَاعَمْرُو ! إِذَا ظَهَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قُلْتَ : أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَإِنْ ظَهَرَ أَهْلُ الشَّامِ قُلْتَ : أَنَا ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَثْمَانَ بْنِ عَفَانَ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَفُتِنَتْ لَحْيَتُهُ .

٥٦ - يوم مَرَج رَاهُط*

مات يزيدُ بن معاوية فكانت بيعتان : إحداهما بالشام لمعاوية بن يزيد ،
والثانية بمكة والحجاز لعبد الله بن الزبير .

فأما معاوية فقد اختاره أهل الشام للخلافة ، وبعد قليل من خلافته نادى :
الصلاة جامعة . فاجتمع الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني قد
ضمنت عن أمركم ، فابتغيتُ لكم مثلَ عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم
أجدُه ؛ فابتغيت ستةً مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاخhtarوا
له من أحببتم .

ثم دخل منزله وبقي فيه حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته .
هكذا فعل ذلك الشاب حين رأى المسلمين تصدّعت وحدتهم وتشعثت أمورهم
وتفرّقت أهواؤهم ، ولم يرَ في نفسه القدرة على جبر صدعهم ، ولم شعثهم ، وإصلاح
أمرهم . وبذلك صار الشام لاختلافه فيه .

أما ابن الزبير فقد كان الحُصَيْن بن نُمَيْر^(١) محاصراً له حين مات يزيد ، وعرف
ابنُ الزبير الخبر قبل أن يعرفه الحُصَيْن ، فناده وقال له : علام تقاتلون وقد هلك
طاغيئكم ؟ فلم يصدّقوه .

ولما عرف الحصين وفاة يزيد بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته ، فجاءه ،
فكان فيما قال له : أنت أحقُّ بهذا الأمر ، هَلُمَّ فلنبايعك ، ثم أخرجُ معاً إلى

* مَرَج رَاهُط : بالشام . وكان ذلك اليوم بين الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم ، في
الحرم سنة ٦٥ : محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضري ٢ - ٢٤٣ ، الطبري : ٧ - ٣٧
(١) الحصين بن نمير : شجاع من المقدمين في المعركة الأموية . توفي سنة ٦٧ هـ .

الشام ؛ فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه ؛ فوالله لا يَخْتَلِفُ عليك اثنان ، على أن تؤمن الناس وتهدير هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك .

فقال ابن الزبير : أنا أهدر الدماء ! والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم . وأخذ الحصين يكلمه سرا ويكلمه ابن الزبير جهراً ، وهو يقول : والله لا أقمل .

فقال له الحصين : قد كنت أظن لك رأياً ! أكلّمك سرا وتكلمني جهراً ! وأدعوك إلى الخلافة وأنت لا تريد إلا القتل والهلكة ! ثم فارقه ، ورحل إلى الشام فوصلها ، وقد بُويجَ لمعاوية .

هذا في الحجاز ، أمّا في العراق فإن عُبيد الله بن زياد لما بلغه نعي يزيد نادى : العلاء جامعة ! فلما اجتمع الناس قال : يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ؛ إن مُهاجِرنا إليكم ، ودارنا فيكم ، ومولدى بينكم ، وقد وليتُ أموركم ، وما يُحصي ديوان مقاتلتكم إلا سبعمين ألفاً ، ولقد أحصى اليوم مائة ألف ، وما كان يُحصي ديوان عمّالكم إلا تسعين ألفاً ، ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً ؛ وما تركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلا وهو في سجنكم ؛ وإن يزيد قد توفّي ، وقد اختلف الناس بالشام ، وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً ، وأعرضهم فناء ، وأغناهم عن الناس ، وأوسمهم بلادا ؛ فاختاروا لأنفسكم رجلاً ترضونه لدينكم وجماعتكم ، فأنا أول راضٍ من رضيتموه ؛ فإن اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم ، وجماعتكم دخلتم فيما دخل فيه المسمون ، وإن كرهتم ذلك كنتم على أحدٍ يليكم حتى تقضوا مآربكم ؛ فابكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ، ولا يستغنى عنكم الناس .

فقالوا : قد سمعنا مقالتك ، وما نعلم أحداً أقوى على هذا الأمر منك ؛ فهلّمْ خلبنا يَمَك ! فلبّي عليهم ذلك ثلاثاً ، ثم بسط يده فبايعوه . ثم انصرفوا عنه يسبحون

أيديهم بالحيطان ويقولون : أَظَنَّا أَنَّنَا نَنْقَادُ لَهُ ! ودعا بعضهم إلى بَيْعَةِ ابن الزبير ؛ ثم ضمف أمرُ ابن زياد ، نخاف وفرّا إلى الشام ؛ فدخل أهل الكوفة والبصرة في بَيْعَةِ ابن الزُّبَيْرِ .

أما في الشام فكان أمير دِمَشْق الضَّحَّاكُ بن قيس ، وأمير حِمص ^(١) النعمان بن بشير ، وأمير قِنَسَرِين ^(٢) زفر بن الحارث ؛ وهَوَاهُم جميعاً مع ابن الزُّبَيْرِ .

أما أميرُ فلسطين فكان حَسَّانُ بن مالك الكَلْبِيُّ ، وهَوَاهُ في بَنِي أُمَيَّة ؛ وقد بايَعَهُ على الدَّعْوَةِ لهم أهل الأَرْدُنَّ .

فكتب حَسَّانُ هذا إلى الضَّحَّاكُ بن قيس كتاباً يعظُمُ فيه حَقَّ بَنِي أُمَيَّةَ ويذكر الطاعةَ والجماعةَ ، وحُسْنَ بِلَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ عنده ، وصليمتهم إليه ، ويدعوه إلى طاعتهم ، ويذكر ابنَ الزبير ويقعُ فيه ويشتمه ، ويذكر أنه منافق قد خلع خليفَتين ، وأمره أن يقرأ كتابه على الناس .

ودعا رجلاً ^(٣) فسَلَّمَهُ الكتابَ ، وأعطاه صورةً منه ، وقال له : إنْ قرَأ الضَّحَّاكُ كتابي على الناس ، وإِلَّا فقمْ فاقْرَأ هذا الكتابَ على الناس .

وقدم الرسول بالكتاب على الضَّحَّاك ، ودفعه إليه ، فلمَّا كان يوم الجمعة صعد الضحَّاك المنبر ، وخطب الناس ؛ ولما رآه الرسول قد أُغْفِلَ كتاب حسان ، ولم يقرأه على الناس قام فقال : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ ! ادْعُ بكتاب حَسَّانَ فاقْرَأْهُ على الناس ؛ فقال له الضَّحَّاكُ : اجلس . فجلس . ثم قام إليه الثانية فقال له : اجلس . ثم قام إليه

(١) مدينة بالشام على نهر العاصي .

(٢) مدينة ببلاد الشام بين حلب ومرة النعمان .

(٣) يسمى ناغضة .

الثالثة ، فقال له : اجلس . فلما رآه الرسول لن يفعل أخرج الكتاب الذى معه ، فقرأه على الناس .

فقام الوليد بن عُتْبَةَ بن أبى سفيان فصدَّقَ حَسَّانَ ، وكذَّبَ ابن الزبير وشتمه . وقام غيره فقال: مثل مَقَالَتهِ ، واضطرب الناس تبعاً لهم ؛ فأمر الضحَّاك بهؤلاء الذين صدَّقوا مقالة حسان وكذَّبوا ابن الزبير فحَسِسُوا . ولكنَّ القوم ثاروا فأخرجوهم من السجن^(١) .

ودخل الضحَّاك دار الإمارة وأصبح الناس ، فلم يخرج إلى صلاة الفجر ، وكان من الأجناد ناسٌ يَهُودٌ هَوَى بنى أمية ، وناس يَهُودٌ هَوَى ابن الزبير ، فبعث الضحَّاك إلى أنصار بنى أمية فدخلوا عليه ، فاعتذر إليهم ، وذكر حسن بلائهم ، وأنه لا يريد شيئاً يكرهونه . وأشار عليهم أن يكتبوا إلى حسان ، ووعدهم أن يكتب إليه ، وقال لهم : نوافيه جميعاً بالجابية^(٢) ، فنبايع لرجل منكم ، فرضيت بنو أمية ، وتوجهوا يريدون الجابية .

وجاء ثَوْر بن مَعْنٍ إلى الضحَّاك ، فقال : دعوتنا إلى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك ، ثم تنكث ! فقال الضحَّاك : فما رأى ؟ قال : رأى أن نُظْهِر ما كنا نُسِرّ ، وندعو إلى طاعة ابن الزبير ، ونقاتل عليها ، قال الضحَّاك بمن معه من الناس فمطّلعهم ، ثم أقبل يسير حتى نزل بمرج راهط ، وأظهر البيعة لابن الزبير .

واجتمع حسان وبنو أمية بالجابية فتشاوروا فيمن يلى أمور المسلمين ، واتفقت كلمتهم على تولية مروان بن الحكم فبايعوه .

ولما تمت البيعة لمروان سار بالناس إلى مَرَجٍ راهط ، وبه الضحَّاك بن قيس ومن على رأيه ، وكانت بين الفريقين مواقع هائلة ، كتبت فيها الفلابة لمروان ،

(١) كان ذلك اليوم يسميه أهل الشام يوم جيرون الأول . (٢) الجابية : موضع بدمشق -

وَقُتِلَ الضَّحَّاكُ ، وَفَنِيَ مِنْ قَيْسٍ عَدَدٌ لَمْ يُقْتَلْ مِثْلُهُ فِي مَوْقِعَةٍ قَطُّ .

ولما وصلت أخبار الهزيمة إلى الذمّان بن بشير أمير رَحْمَنٍ خرج هارباً ومعه أهله وأصبح أهل رَحْمَنٍ يطلبوه وقتلوه . وخرج زُفَرُ بن الحارث من قَيْسَرِينَ هارباً فلحق بقرقيسيا^(١) وتحصّن بها ، واجتمعت إليه قيس فراسوه عليهم ، وقال زُفَرُ في ذلك :

أَرَيْتَنِي سِلَاحِي لَا أَبَا لَكَ إِنِّي	أَرَى الْحَرْبَ لَا تَرْدَادُ إِلَّا تَمَكِّدِيَا
أَنَاثِي عَنْ مَرَوَانَ بِالْغَيْبِ أَنَّهُ	مُقِيدٌ دِي أَوْ قَاطِعٌ مِنْ لِسَانِيَا
فِي الْعَيْسِ مَنَاجَاةٌ وَفِي الْأَرْضِ مَهْرَبٌ	إِذَا نَحْنُ رَفَعْنَا لَهْنَ الثَّانِيَا
فَلَا تَحْسَبُونِي إِنْ تَغَيَّبْتُ غَافِلًا	وَلَا تَفْرَحُوا إِنْ جِئْتُكُمْ بِلِقَائِيَا
فَقَدْ يَبُتُّ الرِّعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى	وَتَبْقَى خَزَاوَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيََا
أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَمْ تَنْلُهَا رِمَاحُهَا ^(٢)	وَتُتْرَكُ قَتْلَى رَاهِطٍ هِيَ مَاهِيَا
تَمَرِّي لَقَدْ أَبَقْتُ وَقِيمَةُ رَاهِطٍ	لِحَسَابِ صَدْعَا بَيْنَنَا مَتْنَائِيَا
ظَلَمْتُ تَرْمِي نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ	فِرَارِي وَتُرْكِي صَاحِبِيَّ وَرَائِيَا ^(٣)
عَشِيَّةَ أَغْدُو بِالْقِرَانِ فَلَا أَرَى	مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَنْ عَلَى وَلَا لِيَا
أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَآئُهُ	بِصَالِحِ أَيْتَامِي وَحَسَنِ بِلَائِيَا !
فَلَا صُلَحَ حَتَّى تَنْحِطَ ^(٤) الْخَيْلُ بِالْقَنَآ	وَتَشَارَ مِنْ نِسْوَانِ كَلْبٍ نِسَائِيَا
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَصِيْبُنَّ غَارَتِي	تَنْوَحَا وَحَيِّي طَبِيٍّ مِنْ شِفَائِيَا !

(١) قرقيسيا : مدينة بالجزيرة على مصب نهر الحابور بالفرات .

(٢) كانت كلب مع بني أمية .

(٣) لما قرزفر كان معه شابان من بني سليم ، فجاءت خيل مروان تطلبهم ، فلما خاف السليمان أن تلحقهما خيل مروان قال لزفر : يا هذا ، انج بنفسك ، فأما نحن ففتولان ، ففزع زفر وتركهما حتى آى قرقيسيا .

(٤) النحيط : صوت الخيل من الثقل والإعياء .

٥٧ - يوم عين الوردة*

أراد سليمان بن صرد^(١) الشَّخوص إلى عبيد الله بن زياد للطلب بدم الحسين ، فبعث إلى وجوه أصحابه ، فأتوه ، وخرج فدار في الناس ، فلم تعجبه عدتهم ، فبعث حكيم بن مُنقذ الكندي ، والوليد بن غُضَيْن الكِنَاني ، وقال لها : اذهبا حتى تَدْخُلا الكوفةَ فناديا : يَا لثَارَاتِ الحُسين ! وابلغا المسجِدَ الأعظمَ فناديا بذلك .

فأقبلا حتى مرَّا ببني كثير ، فسمع صوتهما عبدُ الله بن خازم - وكان جالساَ مع امرأته سهلة ، وكانت من أجل الناس وأحبهم إليه - فدعاَ بسلاحه ، وأمر بيسراج فرسه . فقالت له امرأته : وَيَحْكَ ! أَجِنْتِ ؟ قال : لا ، والله ، ولكني سمعتُ داعيَ الله ، فأنا بحبيبه ، أنا طالِبُ دَمِ هذا الرجل حتى أموتَ أو يقضى اللهُ في أمري ما هو أحبُّ إليه . فقالت له : إلى من تدعُ بليِّك هذا ؟ قال : إلى الله وَحْدَهُ لا شريكَ له ، اللهم إني أَسْتَوْدِعُكَ أهلي وولدي . وخرج حتى لحق بهم ، فقدمت امرأته تبكيه ، واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم .

وطافت تلك الليلة الخيلُ بالكوفة حتى جاءوا المسجد بعد العَتَمَةِ وفيه ناسٌ كثيرون يصلُّون ، فنادَوْا : يَا لثَارَاتِ الحُسين ! فلم يصبح سليمان حتى أتاه نحو ممن

* بلد في وسط الجزيرة . العنبري : ٧ - ٦٦ ، مروج الذهب : ٢ - ١١٠ ، لعبيد الله بن زياد على سليمان بن صرد وأصحابه التوايين سنة ٦٥ .

(١) سليمان بن صرد صحابي من الزعماء القادة ، شهد صفين مع علي وسكن الكوفة ، ثم كان ممن كاتب الحسين وتخلَّف عنه ، ثم خرج بعد ذلك مطالبا بدمه فترأس التوايين ، وكانوا يطالبون بقتل عبيد الله بن زياد ، وعرفوا بالتوايين لقمودهم عن نصرته الحسين حين دعاهم ، وقيامهم بطلب أثره بعد مقتله .

كان في عسكره ، وأقام ثلاثاً يبعثُ ثقاته من أصحابه إلى مَنْ تخلف ، يُذكِّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فخرج إليه نحو ألف رجل .

فقام المسيب بن نجبة^(١) إلى سليمان بن صرد فقال : رحِمَك الله ! إنه لا ينفك السكاري ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته النية ، فلا تنظرنَّ أحداً ، واكْمَش^(٢) في أمرك .

قال سليمان : نِعَمَ ما رأيتَ ! وقام في الناس مُتَوَكِّثاً على قَوْسٍ له عربية ، فقال : أيُّها الناس ، من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله وثواب الآخرة فذلك منا ونحنُ منه ، فرحمَهُ الله عليه حياً وميتاً ! ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأثي قيثاً نستغيثه ، ولا غنيمةً نغنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ولا خَزٍّ ولا حرير ، وما هو إلا سيوفُنا في عَوَاتِقِنَا ورماحنا في أَكْفُنَا ، وزادَ قدرَ البلغة^(٣) إلى لقاءِ عدوِّنا ، فمن كان ينوي غير هذا فلا يَصْحَبْنَا .

فقام صُخَيْر بن حذيفة ، فقال : أتاك الله رُشْدَكَ ، ولَمَّا كَ حجتك ، والله الذي لا إله غيره ما لنا خير في صحبة مَنْ الدنيا هِمَّتُه ونَيْتُه ، أيُّها الناس ، إنما أخرجتكم التوبةُ من ذنبنا والطلب بدم ابن بنت نبيِّنا ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما نقدُنا على حدِّ السيوف وأطراف الرماح .

فتنادى الناسُ من كل جانب : إنا لا نطلبُ الدنيا وليس لها خَرَجٌنا ..

وقام عبيدُ الله بن سعد فقال - وحوله رؤوسُ أصحابه : إني قد رأيت رأياً

(١) المسيب بن نجبة : شهد القادسية وفتح العراق ، وكان مع علي في مشاهدته . وسكن وثار مع التوابع من أهلها في طلب دم الحسين وقتل مع سليمان بن صرد سنة ٦٥ هـ .
(٢) اكْمَش : أسرع . (٣) البلغة : ما يبلغ به .

إن يكن صواباً فالله وفقّ ، وإن يكن غير صواب فمن قبلي ، فإنّي لا آلوكم وتقسي نصيحاً ؟ إنما خرجنا نطلب بدم الحسين ، وقتلته الحسين كلهم بالكوفة ، فإنّي نذهب وندع الأوتار !

فقال سليمان بن صرد : فاذا ترون ؟ قالوا : والله لقد جاء برأى ! والله ما نلقى من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا ها هنا بالمصر .

فقال سليمان : لكنني لا أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، وعبي الجنود إليه ، وقال : لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضى فيه حكى ، هو عبيد الله ابن زياد ، فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله ، فإن يُظهركم الله عليه رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تفشّموا^(١) . وإن تُستشهدوا فإنما قاتلتم المحلّين ، وما عند الله خيرٌ للأبرار والصدّيقين . إني لا أحب أن تجملوا حدّكم وشوكتكم بأولّ المحلّين القاسطين ، والله لو قاتلتم غداً أهل مصركم ما عدم رجل أن يرى رجلاً قتل أخاه وأباه وحميمه ، أو رجلاً لم يكن يُريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا .

وبلغ عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد خروج ابن صرد وأصحابه ، فبعثا إليه أنهما قادمان إليه . ثم جاء^(٢) ودخلا عليه فحمد الله عبد الله بن يزيد وأثنى عليه ، ثم قال : إن المسلم أخو المسلم لا يخنونه ولا يَغُشّه ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ

(١) لا تفشّموا : لا تقاموا .

(٢) جاء عبد الله في أشرف أهل الكوفة والشرطة وكثير من المقاتلة ، وإبراهيم بن محمد و جماعة من أصحابه .

خلق الله إلينا ، فلا تَفْجَمُونَا بأنفسكم ، ولا تستبدُّوا علينا برأيكم ، ولا تنقضوا
عددنا بخروجكم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى نتيسّر ونهياً ، فإذا علمنا أن عدوكم
قد شارف بالذنا خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم . وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من
هذا الكلام .

فقام سليمان بن مُرَدّ لحمد الله وأثنى عليه ثم قال لها : إني قد علمت أنكم
تَحْضُنَّ^(١) في النصيحة واجتهدتما في المشورة ، فنحن بالله وله ، وقد خرجنا لأمر ،
ونحن نسأل الله العزيم على الرشد والتسديد لأصوبه ، ولا ترانا إلا شاخصين
إن شاء الله ذلك .

فقال عبد الله بن يزيد ، فأقيموا حتى نُمَجِّي معكم جيشاً كثيفاً فنلقوا عدوكم
بكنف^(٢) وجمع وحد . فقال له سليمان : تنصرفون وري فيما بيننا ، وسيأتىكم إن
شاء الله رأي . فانصرفا إلى الكوفة .

وأجمع القوم على الشخوص واستقبال ابن زياد ، ونظروا فإذا شيعتهم من أهل
البصرة لم يوافوهم ليعادهم ، وكذلك أهل المدائن ، وأقبل ناس يلومونهم ، فقال سليمان :
لا تلوموم فإني لا أراهم إلا سيُسرعون إليكم لو قد انتهى إليهم خبركم وحين مسيركم ،
ولا أراهم خلفهم ولا أقدمهم إلا قلة النفقة وسوء المدة ، فأقيموا ليتيسرُوا ويتجهزوا
ويلحقوا بكم ، وبهم قوة ، وما أسرع القوم في آثاركم !

ثم قام في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ! أيها الناس ،
فإن الله قد علم ما تنوون ، وما خرجتم تطلبون ، وإن للدنيا تجاراً وللآخرة تجاراً ،

(١) حضن : أخلصنا .

(٢) كنف : جماعة .

فأما تاجر الآخرة فساعِ إليها مُتَنَصِّبٌ^(١) بتطلّابها ، لا يشتري بها ثمنًا ، لا يرى إلا قائما وقاعدا ؛ وراكما وساجداً ، لا يطلب ذهباً ولا فضة ، ولا دنيا ولا لذة .

وأما تاجر الدنيا فسكرٌ عليها راتعٌ فيها ، لا يبتغي بها بدلاً ، فليكم - رحمكم الله في وجهكم هذا - بطول الصلاة في جوف الليل ، وبذكر الله كثيراً على كل حال ، وتقرّبوا إلى الله جلّ ذكره بكلّ خير قدّرتُم عليه ، حتى تلقوا هذا المدوّ ، والمحلّ القاسط ، فتجاهدوه ، فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة ، فإن الجهاد سنأتم العمل ، جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين المجاهدين الصابرين على اللأواء^(٢) ! وإنا مُدْلِجُونَ الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله ، فأدّجوا^(٣) .

وخرج سليمان وأصحابه حتى انتهوا إلى قبر الحسين ، فنادوا صيحةً واحدة : ياربّ ، إنا قد خذلنا ابنَ بنتِ نبيّنا فاغفرْ لنا ماضى منّا ، وتُبْ علينا إنك أنت التّوابُ الرّحيم ، وارحَمْ حسيناً وأصحابه الشّهداء الصّديقين ، وإنا نَشْهَدُكَ ياربّ أنا على مثل ما قتلوا عليه ، فإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننَّ من الخاسرين .

وأقاموا يوماً وليلة يصلّون عنده ويكفون ويتضرّعون ، فافتكّ الناسُ من يومهم ذلك يترحمون عليه وعلى أصحابه حتى صلّوا الفداة عند قبره ، وزادهم ذلك حنقاً .

ثم ركبوا فأمر سليمانُ الناسَ بالسير ، فجعل الرجلُ لا يمضي حتى يأتي قبر الحسين فيقوم عليه ويستغفر له ، وازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على

(١) متّصّب : أى قد نصب نفسه طالباً لها . (٢) اللأواء : الشدة .

(٣) أدّج : سار من أول الليل ، فإن سار في آخره فهو مدّج بتشديد الدال .

الحجر الأسود ، ووقف سليمان عند القبر ، فكلما دعا قوم وترحوا قال لهم :
الحقوا ياخوانكم رحمكم الله ! فزال كذلك حتى بق نحو من ثلاثين من
أصحابه فقام فيهم وقال :

الحمد لله لو شاء أكرمنا بالشهادة مع الحسين ، اللهم إذ حرمتناها معه
فلا تحرمناها فيه بدمه . وقال عبد الله بن والي : أما والله إنى لأظن حسيناً وأباه
وأخاه أفضل أمة محمد عند الله يوم القيامة ، أما عجبتم لما ابتليت به هذه الأمة منهم !
إنهم قتلوا اثنين وأشقوا بالثالث على القتل .

وسار سليمان من موضع القبر ومعه أصحابه ، وبينما هو في الطريق جاءه
كتاب من عبد الله بن يزيد فوقف وأشار إلى الناس فوقفوا ثم أقرأهم
الكتاب فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه
من المسلمين . سلام عليكم ، أما بعد فإن كتابي هذا إليكم كتاب ناصح ذي إرعاء ،
وكم من ناصح مستغش ، وكم من غاش مستنصح محب ، إنه بلغني أنكم تريدون
المسير بالعدو اليسير إلى الجمع الكثير ، وإنه من يرد أن ينقل الجبال عن مراتبها
تكل مآوله ، وينزع وهو مذموم العقل والفعل . يا قومنا ، لا تطمئعوا عدوكم في أهل
بلادكم ، فإنكم خياركم ، ومتى ما يصبكم عدوكم يملأوا أنكم أعلام مصركم
فيطمئعهم ذلك فيمن وراءكم . يا قومنا ، إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في
ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا . يا قوم ، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة ، وإن
عدونا وعدوكم واحد ، ومتى تجتمع كلتنا نظهر على عدونا ، ومتى نختلف تهن
شوكتنا على من خالفنا . يا قومنا ، لا تستغشوا نصحى ، ولا تخالفوا أمرى ، وأقبلوا

حين يَقْرَأُ عَلَيْكُمْ كِتَابِي أَقْبَلِ اللَّهُ بِكُمْ إِلَى طَاعَتِهِ ، وَأَذْبَرَكُمْ عَنْ
مَعْصِيَتِهِ . وَالسَّلَامُ .

فلما قَرِئَ الْكِتَابُ عَلَى ابْنِ حُرْدٍ وَأَصْحَابِهِ قَالَ لِلنَّاسِ : مَا تَرَوْنَ ؟ قَالُوا : مَاذَا
نَرَى ؟ قَدْ أَبَيْنَا وَنَحْنُ فِي مِصْرِنَا وَأَهْلُنَا ، فَالآنَ حِينَ خَرَجْنَا وَوُطِّئْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى الْجِهَادِ ،
وَدَنَوْنَا مِنْ أَرْضِ عَدُوِّنَا ! مَا هَذَا بِرَأْيٍ . ثُمَّ نَادَوْهُ : أَنْ أَخْبَرْنَا بِرَأْيِكَ . قَالَ : رَأَيْتُ
وَاللَّهِ أَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا قَطُّ أَقْرَبَ مِنْ إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ مِنْكُمْ يَوْمَكُمْ هَذَا ؛ الشَّهَادَةُ
أَوْ الْفَتْحُ ، وَلَا أَرَى أَنْ تَنْصَرَفُوا عَمَّا جَمَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ وَأَرَدْتُمْ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ ،
إِنَّ هَؤُلَاءِ مُخْتَلِفُونَ . إِنْ هَؤُلَاءِ لَوْ ظَهَرُوا دَعَوْنَا إِلَى الْجِهَادِ مَعَ ابْنِ الزَّيْبِرِ . وَلَا أَرَى
الْجِهَادَ مَعَ ابْنِ الزَّيْبِرِ إِلَّا ضَلَالًا ، وَإِنَّا إِنْ ظَهَرْنَا رَدَدْنَا هَذَا الْأَمْرَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَإِنْ
أَصَبْنَا فَمَعْلَى نِيَّاتِنَا تَائِبِينَ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِنْ لَنَا شُكْلًا ، وَإِنْ لَابْنِ الزَّيْبِرِ شُكْلًا ، وَإِنَّا
وِإِبَاهِمُ كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي كِفَانَةَ :

أَرَى لَكَ شُكْلًا غَيْرَ شُكْلِي فَأَقْصِرْ عَنِ اللَّوْمِ إِذْ بُدِّلَتْ وَاخْتَلَفَ الشَّكْلُ
فَانْصَرَفَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى نَزَلَ هَيْتُ ، فَكُتِبَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . لِلْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ مِنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حُرْدٍ وَمَنْ مَعَهُ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . سَلَامٌ عَلَيْكَ ، أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ قَرَأْنَا كِتَابَكَ وَفَهَمْنَا مَا نَرَيْتَ ، فَنَعْمُ وَاللَّهُ
الْوَالِي وَنَعْمُ الْأَمِيرُ ، وَنَعْمُ أَخُو الْعَشِيرَةِ أَنْتَ وَاللَّهُ مَنْ نَأْتِمُنُهُ بِالْغَيْبِ وَنُسْتَنْصِحُهُ فِي
الْمَشُورَةِ ، وَنُحَمِّدُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، إِنَّا نَسْمَعُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ إِنْ
اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ
فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ

الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ^(١) . إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ اسْتَبَشَرُوا بَيْنَهُمُ الَّتِي بَايَعُوا ، إِنَّهُمْ قَدْ تَابُوا مِنْ عَظِيمِ جُرْمِهِمْ ، وَقَدْ تَوَجَّهُوا إِلَى اللَّهِ وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَرَضُوا بِمَا قَضَى اللَّهُ ، رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ .
وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

فلما أتاه هذا الكتاب قال: استمات القوم! أول خبر يأتيكم عنهم قتلهم . وابعث الله لِيَقْتُلُنَّ كَرَامًا مُسْلِمِينَ ، وَلَا وَالَّذِي هُوَ رَبُّهُمْ لَا يَقْتُلُهُمْ عَدُوُّهُمْ حَتَّى تَشْتَدَّ شَوْكَتُهُمْ وَتَكْثُرَ الْقَتْلَى فِيمَا بَيْنَهُمْ .

وساروا حتى انْتَهَوْا إِلَى قَرْقِيسِيَا ، وَنَزَلُوا قَرِيبًا مِنْهَا ، وَبِهَا زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ الْكَلَابِيِّ وَقَدْ تَحَصَّنَ بِهَا الْقَوْمُ ، وَلَمْ يُخْرَجْ إِلَيْهِمْ ، فَبَعَثَ سَلِيمَانَ الْمُسَيَّبَ بْنَ نَجْبَةَ وَقَالَ لَهُ : أَنْتَ ابْنُ عَمِّكَ فَقُلْ لَهُ : ايْخْرِجْ إِلَيْنَا سَوْقًا فَإِنَّا لَسْنَا نُرِيدُهُ ، إِنَّمَا صَمَدُنَا لِهَؤُلَاءِ الْحَمَائِينَ . فَخَرَجَ الْمُسَيَّبُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَرْقِيسِيَا فَقَالَ : افْتَحُوا ، مِمَّنْ تَتَحَصَّنُونَ ؟ فَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْمُسَيَّبُ بْنُ نَجْبَةَ . فَأَتَى الْهَذِيلَ بْنَ زُفَرٍ أَبَاهُ فَقَالَ : هَذَا رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ ، وَسَأَلَنَاهُ مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ : الْمُسَيَّبُ بْنُ نَجْبَةَ . فَقَالَ أَبُوهُ : أَمَا تَدْرِي يَا بَنِي مَنْ هَذَا ؟ هَذَا فَارِسٌ مُضَرٌّ الْحِمَاءُ كُلُّهَا ؛ وَإِذَا عَدُوٌّ مِنْ أَشْرَافِهَا عَشْرَةَ كَانُوا أَحَدًا ، وَهُوَ بِمَدْرُجٍ نَاسِكَ لَدِينِ ، أَتَذْنُ لَهُ .

فلما دخل المسيب أجاسه زفر إلى جانبه وساءلَهُ وألطفَهُ فِي الْمَسْأَلَةِ ، فَقَالَ لَهُ الْمُسَيَّبُ : مِمَّنْ تَتَحَصَّنُ ؟ إِنَّا وَاللَّهِ مَا إِيَّاكُمْ نُرِيدُ ، وَمَا نُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَعِينَنَا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الظَّالِمَةِ الْخُلَائِي . فَأَخْرَجَ لَنَا سَوْقًا ، فَإِنَّا لَا نَقِيمُ بِسَاحَتِكُمْ إِلَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

فقال له زُفر بن الحارث : إنا لم نُغلق أبواب هذه المدينة إلا لنعم إِيَّنا اعْتَرَيْتُمْ^(١) أم غيرنا ، إنا والله ما بنا عَجْزٌ عن الناس ما لم تدهمنا حيلة ، وما نَحِبُّ أَنَّا بَلينا بقتالكم ، وقد بلغنا عنكم صلاحٌ وسيرةٌ حسنة جميلة ، ثم دعا ابنه فأمره أن يضع لهم سوقاً ، وأمر للمسيب بألف درهم وفرس ، فقال له المسيب : أما المَالُ فلا حاجة لي فيه ، والله ما له خرجنا ولا إياه طلبنا ، وأما الفرسُ فإني أقبله لعلني أحتاجُ إليه إن ظَلَع فرسي أو غمز تحتي ، فخرج به حتى أتى أصحابه .

وأخرجت لهم السوق فتسوقوا ، وبث زفر بن الحارث إلى المسيب بن نجبة - بعد إخراج الأسواق والأعلاف والطعام الكثير - بمشرين جَزُورا ، وبث إلى سليمان ابن صرد بمثل ذلك ، وأخرج للمسكر عيرا عظيمة وشعيرا كثيراً ، وقال غلاماً له لهم : هذه غير فاجتزروا منها ما أحببتُم ، وهذا شعيرٌ فاحتملوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزودوا منه ما أطقتُم .

فظلَّ القوم يومهم ذلك مُخَصِّبين ، لم يحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأسواق التي وضعت ، وقد كفوا اللحم والدقيق والشعير إلا أن يشتري الرجل ثوباً أو سوطاً .

ثم ارتحلوا من القصد ، وبث إليهم زُفر : إني خارج إليكم فَمُشِيَّكُمْ . فأتاهم وقد خرجوا على تعبئة حسنة فسايرهم ، وقال لسليمان : وإيْمُ اللَّهِ لَقَلَّمَا رأيت رجلاً هم أحسنُ هيئةً وعُدَّةً ، ولا أخلق بكل خير من رجالِ أرام مَعَكَ ، ولكنّه قد بلغني أنه قد أقبلت إليكم عدة لا تُحصى .

فقال سليمان : على الله توكلنا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون .

(١) اعتريتهم : طلبتهم .

فقال زفر : هل لكم في أمر أعرضه عليكم ، لعل الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيرا ! إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا واحداً وأيدينا واحدة ، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا ، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم ، فإذا جاء هذا العدو قاتلناهم جميعاً . فقال سليمان لزفر : أرادنا أهل مصر على مثل ما أردتنا عليه ، وذكرنا مثل الذي ذكرت ، وكتبوا إلينا به بعد ما فصلنا ، فلم يوافقنا ذلك ، فلنسنا بفاعلين .

فقال زفر : فانظروا ما أشير به عليكم فاقبلوه وخذوا به ، فإنى للقوم عدو ، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة ، وأنا لكم واد ، أحب أن يحوطكم الله بالعافية . إن القوم قد فصلوا من الرقة^(١) فبادروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة في ظهوركم ، ويكون الرستاق^(٢) والماء والمادة في أيديكم ، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم آمنون له ، والله لو أن خيولى كرجالى لأمددتكم ، اطووا المنازل الساعة إلى عين الوردة ؛ فإن القوم يسرون سير المساكر ، وأنتم على خيول والله لقلما رأيتم جماعة خيل قط أكرم منها ، تأهبوا لها من يومكم هذا ، فإنى أرجو أن تسبقوهم إليها ، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم في قضاء ترامونهم وتطاعنوهم ، فإنه ليس لكم مثل عددهم ، فإن استهدفتهم لم يلبثوا أن يعرعوكم ، ولا تصبؤا لهم حين تلقونهم ، فإنى لا أرى معكم رجالة ، ولا أراكم كلكم إلا فرسانا ، والقوم لا قوكم بالرجال والفرسان ، فاقوهم في الكتائب والمقائب^(٣) ثم بثوها ما بين يمينتهم وميسرتهم ، واجعلوا مع كل كتيبة كتبة إلى جانبها ، فإن حُمل على إحدى

(١) فصلوا : خرجوا . والرقة : من مدن العراق .

(٢) الرستاق : السواد والقرى .

(٣) المقب ، كقبر من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلاثمائة .

الكتيبتين تَرَجَّلَتِ الأُخْرَى فَنَفَسَتْ عَنْهَا الخَيْلَ وَالرِّجَالَ . ومتى ما شَاءَتْ كَتِيبَةٌ ارْتَفَعَتْ ، ومتى ما شَاءَتْ كَتِيبَةٌ انْحَطَّتْ ، ولو كنتم في صف واحد ، فزحفت إليكم الرجال فدفعتم عن الصف انتقض وكانت الهزيمة .

ثم وقف فودعهم وسأل الله أن يصحبهم ويُنْصِرَهُمْ .

فَأَتَى النَّاسَ عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُ ، وقال له سليمان : نعم المنزول به أنت ! أكرمتم النزول ، وأحسنتم الضيافة ، ونصحت في المشورة .

ثم إِنْ القوم جدُّوا في السير ، وعَبَّى سُلَيْمَانُ الْكَتَائِبَ كُلَّ امْرَأَةٍ زُفْرًا ، ثم أَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنِ الْوَرْدَةِ فَنَزَلَ فِي غَرْبِهَا ، وسَبَقَ الْقَوْمَ إِلَيْهَا فَعَسَكَرَ بِهَا خَمْسًا لَا يَبْرَحُ . واستراحوا واطمأنوا وأراحوا خَيْلَهُمْ .

وَأَقْبَلَ أَهْلُ الشَّامِ فِي عَسَاكِرِهِمْ حَتَّى كَانُوا مِنْ عَيْنِ الْوَرْدَةِ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فقام سليمانُ في جَنْدِهِ فَحَمْدَ اللَّهِ فَأَطَالَ وَأَتَى عَلَيْهِ فَأُطْنِبَ ، ثم ذكر السماء والأرض والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاءَ اللَّهِ ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا ما لم يُخَصِّصْهُ ولم يَقْدِرْ عَلَى حِفْظِهِ أَحَدٌ ، ثم قال : أما بعد فقد أَنَا كَمِ اللَّهُ بِعِدْوِكُمُ الَّذِي دَأَبْتُمْ فِي الْمَسِيرِ إِلَيْهِ أَنَاءَ^(١) اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، تريدون - فيما تظهرون - التوبة النَّصُوحَ ، ولقاءَ اللَّهِ مُنْذِرِينَ ؛ فقد جاءوكم ، بل جثتموكم أنتم في دارهم وحيزهم ، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم واصبروا إنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ، ولا يوليَنَّهُمْ امْرُؤًا دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّجًا^(٢) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا^(٣) إِلَى فِتْنَةٍ . لا تقتلوا مدبراً ولا تُجْهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً

(١) أَنَاءَ اللَّيْلِ : ساعاته .

(٢) مُتَحَرِّجًا : أى منعطفاً يريد الكر بعد الفر والتفريق بالعدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) مُتَحِيزًا : منحازاً إلى جماعة ليستنجد بهم .

من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأمروه أو يكون من قتل إخواننا بالطف^(١) رحمة الله عليهم ، فإن هذه كانت سيرة أمير المؤمنين على بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة .

ثم قال : إن أنا قتلت فأمير الناس المسيب بن نجبة ، فإن أصيب فأمير الناس عبد الله بن سعد ، فإن قُتل فأمير الناس عبد الله بن والي ، فإن قُتل فأمير الناس رفاعه بن شداد ، رحم الله امراً صدق ما عاهد الله عليه .

ثم بعث المسيب في أربعمائة فارس ، وقال له : سرّ حتى تلقى أول عسكر من عساكرهم ، فشنّ فيهم الغارة ، فإذا رأيت ما تحبه وإلا انصرفت إلى في أصحابك .

فسار المسيب بجنده حتى أشرف على أدنى عسكر من القوم وهم غارون^(٢) ، فجعل عليهم ، فما قاتل كثير قتال حتى انهزموا ، وأصاب منهم رجالاً ، جرح منهم فأكثر الجراح ، فخرجوا عن عسكرهم وخلوه له ، فأخذ منه ما خفّ ، وصاح المسيب في جنده : الرجعة ، إنكم قد نصرتم وغنمتم وسلمتم ، فانصرفوا .

وانصرفوا حتى أتوا سليمان ، وأتى الخبر عبيد الله بن زياد ، فسرّح إليهم الحصين بن نمير في اثني عشر ألفاً ، وتقابل الجيشان ، فانهزم جيش عبيد الله بن زياد وما زال الظفر لجيش سليمان حتى حَجَرَ الليل بينهم .

فلما كان من الغد أمده عبيد الله جيشه بالمدد والمؤن ، وتقاتل الجيشان قتالاً لم ير الشيب والمرْدُ مثله قط ، حتى جاء المساء ، فتحاجزوا وقد أكثروا في جيش سليمان الجراح .

(١) موضع قرب الكوفة . (٢) غارون : غير مستعدين للقاءهم .

وأصبحوا وقد كثرتهم أهل الشام ، وتعطفوا عليهم من كل جانب ، ورأى سليمان ما لقي أصحابه فنزل فنادى : عباد الله ! مَنْ أراد البُكُورَ إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بمعه فإلى ، ثم كسر جفن سيفه ، ونزل معه ناس كثير ، فكسروا جفون سيوفهم ومشوا معه ، ونزلت خيلهم حتى اختلطت مع الرجال فقاتلهم حتى نزلت الرجال تشتت^(١) مُصَانِتَةً بالسيف ، وقد كسروا الحفون ، فحمل الفرسان على الخيل فقاتلهم وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة ، وجرحوا فيهم فأكثرُوا الجراح .

فما رأى الحصين بن نُمَيْر صَبْرَ القوم وبأسهم بمث الرجال ترميهم بالنبل واكتنفهم الخيل والرجال ، فقتل سليمان بن صرد ، فأخذ الراية المسيب بن نجبة ، وقال : رحمك الله يا أخى فقد صدقت ووفيت بما عليك ، وبقي ما علينا ، ثم أخذ الراية فشد بها فقاتل ساعة ، وفعل ذلك مراراً يشد ويرجع ثم قُتل .

فأخذ الراية عبد الله بن سعد وقال : رحم الله إخوانى ! منهم من قضى فجبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً . وأقبل بمن كان معه فحفّوا برايته ، وإنهم لكذلك إذ جاءهم البشير يقول : قد جاء إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة . فقال عبد الله بن سعد : لو جاءونا ونحن أحياء !

واشتدّ القتال وطعن عبد الله بن سعد في ثغرة نحره^(٢) فقتل ، وبقيت الراية ليس عندها أحد ، فنادوا عبد الله بن والٍ فإذا هو قد استلحم في عصاية معه وهو يقول : مَنْ أراد الحياة التى ليس بعدها موت ، والراحة التى ليس بعدها نصب ، والسرور

(١) تشتت : تسرع . (٢) ثغرة نحره : أى وسطه .

الذى ليس بمده حَزَنٌ فليقترب إلى ربه بجهاد هؤلاء المُجَلِّين والرواح إلى الجنة .
وقاتل حتى قُتل .

ثم أخذ أهل الشام يتنادون : إنَّ الله قد أهلكهم فأقْدِموا عليهم لتفرغوا منهم ؛
وأخذوا يقدمون عليهم فيقدمون على شوكة شديدة ويقاتلون فرسانا شجعاناً ليس
فيهم سقط رجل ، وليسوا لهم بمضجّرين فيتمكنوا منهم ، فقاتلوهم قتالاً شديداً
فهمزّموا وفروا .

وساروا حتى مروا بقرقيسيا ، فبعث إليهم زُفر من الطعام والعلف مثل
ما كان يبعث إليهم في المرة الأولى ، وأرسل إليهم : أن أقيموا عندنا ما أحببتم ، فإن
لكم الكرامة والمواساة . فأقاموا ثلاثاً ، ثم زود كلَّ امرئٍ منهم ما أحبَّ من
الطعام والعلف .

ثم انصرف أهلُ المدائن إلى المدائن وأهل البصرة إلى البصرة ، وأقبل أهلُ
الكوفة إلى الكوفة .

ولما أتى عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال : أما بعد فإن الله قد أهلك من رهوس أهل العراق مُلقِحَ فتنة^(١) ورأس
ضلالة سليمان بن صرد ، ألا وإن السيوف تركت رأس المسيب بن نجبة خذاري^(٢) ،
ألا وقد قتل الله من رهوسهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سمد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دفع
ولا امتناع .

(١) أى مشعل الفتنة والحرب ضده .

(٢) أى قطعاً : جمع خذروف - كمصفور : شئٌ يدوره الصبي بخيط في يديه فيسمع له دوى .

٥٨ - يوم بنات تَلَّى*

كان مروان بن الحَكَم قد أرسل عُبيد الله بن زياد في جيش إلى العراق ، وجعل له ما غاب عليه ، وأمره أن ينهب السكوفة إذا هو ظفر بأهلها . فرّ بأرض الجزيرة وبها قيس عيلان^(١) ، فلم يزل مشتغلاً بهم نحواً من سنة .

ثم أقبل إلى الموصل ، فكتب عبد الرحمن بن سعيد - عامل المختار على الموصل - إلى المختار : أما بعد ، فإنني أخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل ، وقد وجه قبلي خيله ورجاله ، وإنني انحزتُ إلى تكريت حتى يأتيني رأيك وأمرُك ، والسلام عليك .

فكتب إليه المختار : أما بعد ، فقد بلغني كتابُك ، وفهمتُ كل ما ذكرت فيه ، وقد أصبتُ بأنحيازك إلى تكريت ، فلا تبرحنَّ مكانك الذي أنتَ به حتى يأتيتك أمري إن شاء الله ، والسلامُ عليك .

ثم بعث المختارُ إلى يزيد بن أنس فدعاه وقال له : يا يزيدُ ، إن العالمَ ليس كالجاهل ، وإن الحقَّ ليس كالباطل ، وإنني أخبرُك خبراً من لم يكذب ولم يكذب ، ولم يخالف ولم يرتب ، وأنا المؤمنون لميامين ، وأنتَ صاحبُ الخيل التي تعجُرُ جماها وتضفر أذنانها ، حتى تُورِدَها منابت الزيت غائرة عيونها ، لاحقة بطونها ، أخرج إلى الموصل حتى تنزل أذانيها ، فإنني مُمدِّك بالرجال بعد الرجال .

* تاريخ الطبري : ٧ - ١١٢ ، لعبد الله بن زياد على المختار الثقفي .

(١) كانت قيس عيلان على طاعة ابن الزبير ، وقد كان مروان أصاب قيساً يوم مرج راهض وهم مع الضحاك بن قيس مخالفين عليه .

فقال له يزيد : سَرِّحْ معي ثلاثة آلاف فارس أُنْتَخِبْهُمْ ، وَخَلِّنِي وَالْجَهْمَةَ الَّتِي
تُوجَّهُنَا إِلَيْهَا ، فَإِنْ احْتَجَجْتُ إِلَى الرِّجَالِ فَسَأَكْتُبُ إِلَيْكَ .
قَالَ لَهُ الْمُخْتَارُ : فَأَخْرَجَ فَاَنْتَخَبَ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مِنْ أَحَبِّتَ .
فَخَرَجَ فَاَنْتَخَبَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَارِسَ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرَاءَ .

ثُمَّ إِنَّهُ فَصَلَ مِنَ الْكُوفَةِ ، وَخَرَجَ مَعَهُ الْمُخْتَارُ وَالنَّاسُ يَشِيْعُونَ ، فَلَمَّا بَلَغَ دِيرَ
أَبِي مُوسَى وَدَّعَهُ الْمُخْتَارُ وَقَالَ لَهُ : إِذَا لَقِيتَ عَدُوكَ فَلَا تَنَاطَرْهُمْ ، وَإِذَا أَمَكَنَّكَ
الْفُرْصَةُ فَلَا تُؤَخِّرْهَا ، وَلْيَكُنْ خَبْرُكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِنْدِي ، وَإِنْ احْتَجَجْتَ إِلَى مَدِينَةٍ
فَاكْتُبْ إِلَيَّ ، مَعَ أَنِّي مُبِدِّدٌ وَلَوْ لَمْ تَسْتَمِدِدْ ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ لِعُضْدِكَ ، وَأَعَزُّ لْجُنْدِكَ ،
وَأَرْحَبُ لِعَدُوِّكَ .

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : لَا تَمْدَنِي إِلَّا بِدَعَائِكَ فَكَفَى بِهِ مَدَدًا ! وَقَالَ لَهُ النَّاسُ : صَحَبَكَ اللَّهُ
وَأَيَّدَكَ ؟ وَودَّعوه ، فَقَالَ لَهُمْ يَزِيدُ : سَلُوا اللَّهَ لِي الشَّهَادَةَ ، وَابْتَغُوا لِي لِقَائَهُمْ
فَفَاتَنِي النَّصْرُ لَنْ تَفُوتَنِي الشَّهَادَةُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَكُتِبَ الْمُخْتَارُ إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدٍ^(١) : أَمَّا بَعْدُ فَنَحْلُ بَيْنَ يَزِيدَ وَبَيْنَ الْبِلَادِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .

وَسَارَ يَزِيدُ حَتَّى قَطَعَ أَرْضَ الْمَوْصِلِ ، وَنَزَلَ بِبَنَاتِ تَلٍّ .

وَبَلَغَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ مَكَانَ يَزِيدَ وَمَنْزِلَهُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ ، فَسَأَلَ عِدَّةَ جِيُوشِهِ ،
فَأَخْبَرْتَهُ عَيُونُهُ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الْكُوفَةِ فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ فَارِسَ . فَقَالَ : سَأَبِثُ إِلَى كُلِّ
أَلْفِ أَلْفَيْنِ ، وَدَعَا رِبِيعَةَ بْنَ الْمُخَارِقِ الْغَنَوِيَّ ، وَعَبْسَدَ اللَّهِ بْنَ حَمَلَةَ الْخَثَمِيِّ ،
خَبِثَتْ كُلًّا مِنْهُمَا فِي ثَلَاثَةِ آلَافٍ . ثُمَّ كُتِبَ إِلَيْهِمَا : أَيُّهُمَا سَبَقَ فَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى صَاحِبِهِ

(١) عامل المختار على الموصل - كما تقدم .

وإن انتهيتما جميعاً فأكبرُ كما سناً أميرُ على صاحبه وعلى الجماعة .

وسبق ربيعة وعبي جيشه أحسن تعبية ، وخرج في الخيل والرجال ، وقال :
يأهل الشام ، إنكم إنما تقاتلون العبيد الأَباق^(١) ، وقوماً تركوا الإسلام وخرجوا
منه ، ليست لهم تقية ، ولا ينطقون بالعربية .

وخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يسكنونه عن يمينه وعن شماله
بفخذه وعنصديه وجنبه ، فجعل يقف بين الجنود ويقول : يا شرطه الله ، اصبروا
تُؤَجَّرُوا ، وصابروا عدوكم تظفَرُوا ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان
كان ضعيفاً ؛ إن هلكتُ فأميرُكم ورقاء بن عازب ، فإن هلك فأميرُكم ...

ونزل فوضع على سرير بين الرجال ، ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعراء ، وقدّموني
في الرجال ، ثم إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففرُّوا عنه .

واقْتَتَلَ الناسُ عند شفق الصبح ، فلم يرتفع الضحَا حتى غلبت جنود يزيد بن
أنس على جيش عبيد الله بن زياد وهزموهم هزيمةً قبيحة ، وقتلوا قتيلاً ذريعاً ،
وفروا حتى انتهوا إلى عبيد الله فحدثوه بما لقوا .

ولكنَّ عبد الله بن حملة^(٢) أخذ ينادي : الكَرَّة بعد الفَرَّة ! يأهل السمع
والطاعة . فكفروا عليهم ، واقتتل القوم فغلبت جنود عبيد الله ، ولم يأت المساء حتى
مات يزيد .

ولما رأى أصحابه ما حلَّ بهم وبأمرهم أسقط في أيديهم ، وانخلعت قلوبهم ،
فقال لهم ورقاء بن عازب : ماذا تَرَوْنَ يا قوم ؟ إنه قد بلغني أن عبيد الله بن زياد
قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام ! ثم دعا قرُسان أصحابه وقال لهم :

(١) الأَباق : جمع أبى .

(٢) هو ثاني الرجلين اللذين بعثهما عبيد الله إلى يزيد كما تقدم .

يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتكم به . إنما أنا رجل منكم ، ولست بأفضلكم رأياً ، فأشير أو على ، فإن ابن زياد قد جاءكم في جند أهل الشام الأعظم وبجلبتهم وفرسانهم وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقة على هذه الحال ، وقد هلك يزيد بن أنس أميرنا ، وتفرقت عنا طائفة منا ، فلو انصرفنا اليوم من تلقاء أنفسنا - قبل أن نلقاهم وقبل أن نبالفهم - علموا أن الذي ردنا عنهم هلاكٌ صاحبنا فلا يزالون لنا هائبين . وإنا إن لقيناهم اليوم كنا مخاطرين ، وإن هُزِمنا اليوم لم تنفمنا هزيمتنا إياهم من قبل اليوم .

قالوا : نعم ما رأيت ؟ انصرف رحمك الله !

فانصرف ، وبلغ منصرفهم ذلك المختار وأهل الكوفة ، فدعا المختار إبراهيم ابن الأشر ، وعقد له على سبعة آلاف رجل ، ثم قال : سر حتى إذا لقيت جيش ابن أنس فارددْهم معك ثم سر حتى تلقى عدوك فتناجزهم .

فخرج إبراهيم فوضع عسكره في حمام أعين ، ولكنه لم يلبث أن ثار أهل الكوفة بالمختار فأرسل رسولا إليه يقول له : لا تَصْنَعْ كتابي من يدك حتى تُقْبِلَ بجميع من معك إلى . فرجع ومن معه من أصحابه أهل القوة والجلد .

٥٩ - يوم جَبَّانَةِ السَّبِيح*

لما مات يزيد بن أنس التقى أشرافُ الناس بالكوفة فأرجفوا بالمختار وقالوا :
قُتل يزيد بن أنس ولم يصدقوا أنه مات ، وأخذوا يقولون : والله لقد تأمر علينا هذا
الرجلُ بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا حملهم على الدوابِّ وأعطاهم وأطعمهم فمئذناً
ولقد عصتنا عبيدنا ... واتَّمدُّوا عند شِيبث بن رُبمى ، فاجتمعوا وأتوا منزله ، فصلى
بهم ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث^(١) .

فقال لهم شِيبث : دعوني حتى ألقاه . وذهب فلقيه فلم يدع شيئاً مما أنكره
أصحابه إلا وقد ذاكره إياه ، فأخذ لا يذكر خصلة إلا قال له المختار : أرضيهم في
هذه الخصلة وآتى كلَّ شيء أحبوا ، وذكر المالك . فقال له : أنا أردُّ عليهم
عبيدكم . وذكر المولى ، وقال : عمدتَ إلى موالينا وهم في أفاءه الله علينا فأعْتَقْنَا
رقابهم نأملُ الأجرَ في ذلك والثوابَ والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم
شركاء في فيثنا .

فقال المختار : إن أنا تركتُ لكم مواليتكم وجعلتُ فيئكم فيكم ، اتقناتلون
مى بنى أمية وابن الزبير ، وتعطون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقه ، وما أطمئنُّ
إليه من الأيمان ؟ فقال شِيبث : ما أدري حتى أخرج إلى أصحابي فإذا كرم ذلك .

* الطبرى : ٧ - ١١٦ ، المختار على أهل الكوفة ، وكان هذا اليوم لست ليال بقين من
ذى الحجة سنة ٦٦ هـ . وجبَّانة السبيع : من مواضع الكوفة .

(١) لم يكن فيما أحدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أنه جعل لدولى من الفء نصيباً .

وخرج ولكنه لم يمدّ ، إذ أجمع أهل الكوفة على قتال المختار .

وذهب بعضُ أشرافِ الكوفة إلى عبد الرحمن بن مخنف ، فدعوه أن يجيبهم إلى قتال المختار ، فقال لهم : ياهؤلاء ، إنكم إن أبيتم إلا أن تخرجوا لم أخذكم وإن أنتم أطمعتموني لم تخرجوا . فقالوا : ولِمَ ؟ قال : لأنى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل شجمانكم وفرسانكم ، ثم معه عبيدكم ومواليكم وكلمة هؤلاء واحدة ، وعبيدكم ومواليكم أشدّ حنفاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلاتكم بشجاعة العرب وعداوة العجم . وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدم أهل الشام ، أو بجيئ أهل البصرة فتكونوا قد لقيتموه بغيركم .

قالوا : نشدك الله أن تخالفنا ، وأن تفسد علينا رأينا ، وما قد اجتمعت عليه جماعتنا . قال : فأنا رجل منكم ، فإذا شئتم فاخرجوا .

وذهبوا إلى كعب بن أبي كعب الخثعمي فتكلم شبت عنده ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم أخبره بإجتماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيبهم إلى ذلك ، وقال فيما يمتب به على المختار : إنه تأمر علينا بغير رضا منا ، وزعم أن ابن الحنفية بعثه إلينا ، وقد علمنا أن ابن الحنفية لم يفعل ، وأطعم موالينا فيثنا ، وأخذ عبيدنا ، وأظهر البراءة من أسلافنا الصالحين . فرحب بهم كعب وأجابهم إلى ما دَعَوْهُ ..

وسار بعضهم إلى بعض . وقالوا : ننتظر حتى يذهب عنه إبراهيم بن الأشتر وما أن بلغ إبراهيم بن الأشتر ساباط^(١) حتى وثبوا بالمختار ، ففرج عبد الرحمن

(١) حين خرج لقتال عبيد الله بن زياد .

ابن سميد^(١) مع أهل اليمن في جبانة السبييع ، ونزل شبت بن ربيع في مضر بالكناسة ، وخرج غيرهم . . .

وبلغ الذين نزلوا بجبانة السبييع أن المختار قد عبي لهم خيلا لتسير إليهم ، فبعثوا الرسل يتلو بعضها بعضا إلى الأزدي وبجيلة وخثعم ، يسألونهم الله والرحيم لما عجلوا إليهم فساروا إليهم واجتمعوا جميعا بجبانة السبييع .

ولما بلغ المختار اجتماعهم سره ذلك . وبعث رسولا من يومه إلى إبراهيم بن الأشتر : لا تضع كتابي من يدك حتى تقبل بجميع من معك إلى .

وبعث إليهم المختار في ذلك اليوم : أخبروني ما تريدون ، فأني صانع كل ما أحببت . قالوا : نريد أن تعزلنا ، فإنك زعمت أن ابن الحنفية بمثك ! ولم يبعثك ؟ فأرسل إليهم المختار : أن ابعثوا إليه من قبلكم وفدا ، وأبعث إليه من قبلي وفدا ثم انظروا في ذلك حتى تتبينوه . وإنما أراد بذلك أن يُريتهم حتى يقدم عليه إبراهيم ابن الأشتر .

ولما قدم إبراهيم بن الأشتر نزل المختار فعبى أصحابه ، وقال لإبراهيم : أي الفريقين^(٢) أحب إليك أن تسير ؟ قال : إلى أي الفريقين أحببت . فكره المختار أن يسير ابن الأشتر إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم ، فقال : سر إلى مضر بالكناسة^(٣) وأنا أسير إلى اليمن .

وسار المختار إلى جبانة السبييع ، وعلم أهل اليمن بمسيره فاستعدوا للملاقاة ، وتقاتل الجيشان كأشد قتال اقتتلهم قوم ، ودارت الدائرة على أصحاب المختار ، فلم يزع

(١) كان عبد الرحمن بن سعيد عاملا للمختار على الموصل . (٢) يريد أهل اليمن أو مضر .

(٣) الكناسة : موضع بالكوفة .

إلا وقد جاءه الفلُّ فقال : ما وراءكم؟ قالوا : هزمنّا . فصاح بهم أن انصرفوا ، ورجعوا
فأقتل القوم كأشد قتال .

أما ابنُ الأَشرِ فقد لقي شِيثَ بنَ رُبَيعٍ وَمَنْ مَعَهُ من مِصرَ ، فقال لهم : ويحكم !
انصرفوا ، فوالله ما أحبُّ أن يصاب أحدٌ من مِصرَ على يديّ ، فلا تُهْلِكُوا أنفُسَكم ،
فأَبَوْا وَقَاتَلُوهُ فَهَزَمَهُمْ .

وبعث المختار البشري من قبله إلى المقاتلة في جَبَانَةِ السَّبِيحِ ، فحمل الجندُ حتى
دخلوا الجبانة وهم ينادون : يا لثارات الحسين ! فأجيبوا : يا لثارات الحسين ، فسمعها
يزيد بن عير ، فقال : يا لثارات عثمان ! فقال لهم رفاعة بن شداد : ما لنا ولعثمان !
لا أقاتل مع قوم يبغيون دم عثمان . فقال له أناسٌ من قومه : جئت بنا وأطعنك
حتى إذا رأينا قومنا تأخذهم السيوف قلت : انصرفوا ودعوهم ، فعطف عليهم
وهو يقول :

أنا ابنُ شدّادٍ على دينِ عليّ لستُ لعثمانَ بنِ أرقمٍ يولي
لأُسلمينَ اليومَ فيمن يَعضطلي بحرٌ نارِ الحربِ غيرَ مؤتلي

وقاتل حتى قُتل ، ثم قتل غيره من شجّمان الكوفة وقوادم .

واستخرج من دور الوادعيّين خمسمائة أسير فأثنى بهم إلى المختار مكثّفين ، فأخذ
عبد الله بن شريك^(١) لا يخلو بعربيٍّ إلا خلى سبيله ، فرُفِعَ ذلك إلى المختار ، فقال :
اعرضوهم عليّ ، وانظروا كلّ من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يمرّ
عليه رجلٌ أحدٌ شهد مقتل الحسين إلا قيل له : هذا ممن شهد قتله ، فيقدمه فيضرب
عنقه حتى قتل منهم مائتين وثمانية وأربعين قتيلا .

(١) رجل من بني نهد من رؤساء أصحاب المختار .

وأخذ أصحابه كلما رأوا رجلا كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضربهم خلوا به فقتلوه، حتى قُتل ناس كثير منهم وما يشعربهم المختار :

ولما أخبر بذلك بعدُ دعا بمن بقي من الأسارى فأعتقهم^(١) ، وأخذ عليهم المواثيق ألا يساعدوا عليه عدوًا ، ولا ينفوه ولا أصحابه غائلة . ونادى منادى المختار : إنه من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلا شرك في دم آل محمد صلى الله عليه وسلم . وسار المختار إلى القصر ، فأخذ سراقه بن مرداس يناديه بأعلى صوته :
امْنُ عَلَى الْيَوْمِ يَا خَيْرَ مَعْدٍ وخَيْرَ مَنْ حَلَّ بِشِجْرِ وَالْجَنْدِ
* وخير من حَيًّا ولَبَّى وسجد *
فبعث به المختار إلى السجن ، فحبسه ليلة ثم أرسل إليه من الغد فأخرجه ، ودعا به فأقبل وهو يقول :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا	تزوجنا نَزْوَةً كانت علينا
خرجنا لا نرى الضمفاء شيئاً	وكان خروجنا بَطَرًا وَحِينًا
نراهم في مصافهم قليلاً	وهم مثل الدِّبَابِ حين التقينا
برزنا إذ رأيناهم فلما	رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهم ضرباً طَلْحَمًا ^(٢)	وطمناً صائباً حتى اثنيينا
نصيرت على عدوك كل يوم	بكل كتيبة تنمى حسينا
كنصير محمد في يوم بدرٍ	ويوم الشعب إذ لاقى حُفَيْنًا

(١) أعتقهم إلا سراقه بن مرداس فإنه أمر أن يساق معه إلى المسجد .

(٢) طالحاً : شديداً .

فَأَسْجِحْ إِذْ مَلَكْتَ فَلَوْ مَلَكْنَا لَجُرْنَا فِي الْحُكُومَةِ وَاعْتَدِينَا
تَقْبَلْ تَوْبَةً مِنِّي فَإِنِّي سَأَشْكُرُ إِنْ جَعَلْتَ النَّقْدَ دَيْنَا

ولما انتهى إلى المختار قال له : أصابحك الله أيها الأمير ! سراقه بن مرداس يحلف بالله الذي لا إله إلا هو ، لقد رأى الملائكة تقاتل على الخيول البلق بين السماء والأرض . فقال له المختار : فاصعد المنبر فأعلم المسلمين . فصعد فأخبرهم ، ثم نزل فخلاه به المختار . فقال له : إني قد علمت أنك لم تر الملائكة ، وإنما أردت ألا أقتلك ، فاذهب عني حيث أحببت ، ولا تفسد على أصحابي !

وخرج أشراف الكوفة فلاحقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة ، وخرج سراقه ابن مرداس من الكوفة وهو يقول :

أَلَا أبلغُ أبا إسحاق أنَّي رأيتُ البُنُقَ ذهَبا مصمَّتا
كفَرْتُ بوحيكُم وجعلتُ نَذْرًا على قتالكم حتى الماتِ
أرى عيني ما لم تُبْعِرَاهُ كلانا عالمٌ بالترَّهانِ
إذا قالوا أقول لهم كذبتم وإن حُرِّجوا لَيْسَتْ لهم أداني

٦٠ - يوم خازر*

كان مروان بن الحكم قد جهّز جيشاً يقوده عبيد الله بن زياد إلى الجزيرة وماربة زفر بن الحارث بقرقيسيا ، فإذا فرغ منها توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير .

ولما وصل عبيد الله إلى الجزيرة بلغه موت مروان ، وأتاه كتابُ عبد الملك يستعمله على ما استعمله عليه أبوه ويحثّه على السير إلى العراق .

فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنودٌ مقبلةٌ من العراق ، لم يبعثهم أمير ؛ ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم عثمان ، وسمّوا أنفسهم التّوآيين ، وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن عليّ ، ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذّنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره ، وقتلوا قتلتَهُ ، وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان ابن صرد الخزاعي .

وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد ، ومعظم من معه ولم ينج منهم إلا قليل .

ولما بلغ عبد الملك قتل سليمان قام خطيباً في أهل الشام ، فقال : إن الله قد أهلك من رؤوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ، ألا وإني السيف قد تركت رأس المسيب خذاري ، وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين

(*) تاريخ الطبري : ٧-١٤٢ ، وخازر : إلى جنب قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ ، وكان هذا اليوم لابن الأشتر على ابن زياد سنة ٦٧ هـ .

ضائنين مضامين : عبد الله بن سعد الأزدي ، وعبد الله بن والي البكري ، ولم يبق بعدهم من عنده امتناع .

وبعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة المختار بن عبيد الله الثقفي^(١) ، زاعماً أن محمد ابن الحنفية أرسله للأخذ بثأر الحسين ، وأنه لقبه بالإمام المهدي ، واتفق مع إبراهيم ابن الأشتر^(٢) على الخروج للثأر لمقتل الحسين .
ولما حان الموعد وثبوا جميعاً وغلبوا على الكوفة .

ثم بعث المختار العمال إلى أمصار الكوفة ، وتتبع قتلة الحسين فقتلهم قتلاً ذريعاً ، وتخير الجند لمقاتلة ابن زياد ، وجعل قائدهم إبراهيم بن الأشتر ، فأخذ يسير بهم حتى نزل بخازر^(٣) ، وجاء عبيد الله بن زياد حتى نزل قريباً منهم .

وأرسل عمير بن الحباب إلى ابن الأشتر : إني معك ، وأنا أريد الليلة لقاءك .

فأرسل إليه ابن الأشتر : أن القسي إذا شئت . فأتاه عمير ليلاً فبايعه ، وأخبره أنه على ميسرة صاحبه ، ووعد أنه يهزم .

فقال له ابن الأشتر : ما رأيك ؟ أخذت عليّ وأتوّم يومين أو ثلاثة ؟ قال عمير : لا تفعل ؛ هل يريد القوم إلا هذه ! إن طاولوك وماطلوك فهو خير لهم ، هم كثير أضماؤكم ، وليس يطيق القليل الكثير في المطاولة ، ولكن ناجز القوم ،

(١) كان خروجه في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، وأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبد الله بن مطيع .

(٢) أرسل إليه المختار من يمرض عليه انضمامه إليه فقبل أولاً على شرط أن يكون هو وفي الأمر ثم استطاع المختار أن يضمه إليه بخدعة تجدد تفصيلها بمعاشرات الحضري بك صفحة ٢٤٩ .

(٣) خازر ، بجوار قرية بينها وبين الموصل خمسة فراسخ كما تقدم .

فإنهم قد ملئوا منكم رُعباً فأتيتهم ، فإنهم إن قاتلوا أصحابك يوماً بعد يوم ومرة بعد مرة أنسوا بهم واجترأوا عليهم .

قال ابن الأَشر: الآن علمتُ أنك لى مناصح . صدقت ! الرأى ما رأيت ، أما إن صاحبي بهذا أوصانى ، وبهذا الرأى أمرنى .

قال عُمير : فلا تعدون رأيه ، فإنَّ الشَّيخَ قد ضرسَّته الحروب وقاسى منها ما لم نقاس ، وأصيح فناهض الرجل .

ثم انصرف عمير ، وأذكى ابنُ الأَشر حرسه تلك الليلة اللَّيْلَ كُلَّهُ ، ولم يَدْخُلْ عينيه غَمَضٌ ، حتَّى إذا كان فى السَّحَرِ الأول عَجَبَى أصحابه وكتب كتابه وأمر أمراءه .

فلما انفجر الفجر صلب بهم الغداة بفلس ، ونزل يقول للناس : ازحفوا ، فزحف الناس معه حتى أشرف على تلٍّ عظيم مُشْرِفٍ على القوم ، فجلس عليه ، وإذا أصحاب عبيد الله لم يتحرك منهم أحد .

وكان ابنُ الأَشر قد سرح عبد الله بن زُهَير السَّلولى ، وقال له : قرِّب^(١) على فرسك حتى تأتيني بخبر هؤلاء .

فانطلق فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء فقال : قد خرج القوم على دهش وفشل ، لقينى رجلٌ منهم ، فما كان له هِجَيْرَى إلا : ياشيعة أبا تراب ! ياشيعة المختار الكذاب ! فقلت له : ما بيننا وبينكم أجلٌ من الشَّتم . فقال لى : ياعدو الله ، إلأم تدعوننا ! أنتم تقتلون مع غير إمام ! قلت له : يا لثارات الحسين ! ابن رسول الله ! ادفعوا إلينا عبيد الله بن زياد فإنه قتل ابن رسول الله ، سيد شباب أهل الجفة ، حتى نقتله

(١) التقريب : ضرب من العدو .

ببعض موالينا الذين قتلهم مع الحسين ، فإننا لا نراه ندّا فنرضى أن يكون منه قوداً ، وإذا دفعتموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الذين قتلهم جمانا بيننا وبينكم كتاب الله ، أو أى شىء صالح من المسلمين شئتم حكماً . فقال : قد جرّ بناكم فى مثل هذا فعدرتم . فقلت له : ما جئت بحجة ، إنما كان صلحنا على أنهما^(١) إذا اجتمعما على رجل تيمّنا حكمهما ، ورضينا به ، وبايعناه ، فلم يجتمعما على واحد ، وتفرّقا فكلّهما لم يوفقه الله للخير ، ولم يسدّده .

فقال : من أنت ؟ فأخبرته ، وقلت له : من أنت ؟ فقال : عدس - لبغلته - يزجرها فقلت له : ما أنصفتنى ! هذا أوّل غدرك .

ودعا ابن الأشر بفرس له فركبها ، ثم مرّ بأصحاب الرّايات كلّها ؛ فكلّما مرّ على راية وقف عليها ، ثم قال : يا أنصار الدين ، وشيعة الحق ، وشرطة الله ، هذا عبيد الله بن مرّجانة قاتل الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ، حال بينه وبين بناته ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يشربوا منه ، وهم ينظرون إليه ، ومنعه أن يأتى ابن عمه فيصالحه ، ومنعه أن ينصرف إلى رّحله وأهله ، ومنعه الذهاب فى الأرض العريضة حتى قتله ، وقتل أهل بيته ، فوالله ما عمل فرعون ببني إسرائيل ما عمل ابن مرّجانة بأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرّجس وطهرهم تطهيراً . قد جاءكم الله به ، وجاءه بكم ، فوالله إنى لأرجو ألا يكون الله جمع بينكم فى هذا الوطن وبينه إلا ليشفى صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنكم خرجتم غصباً لأهل بيت نبيكم .

(١) يريد الحكيم .

وسار بين اليمنة والميسرة ، وسار في الناس كلهم فرغَّبهم في الجهاد ، وجرَّتهم على القتال ، ثم رجع حتى نزل تحت رايته ، وزحف القوم ، واحتدم القتال ، فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابنُ الأشتر ، وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا في نهر الخازر^(١) .

وتمَّ الأمرُ للمختار ، ولسكنَ ابنُ الزبير وَلَّى أخاه مصعباً على البصرة ، فجاءها ملئماً حتى أناخ على باب المسجد ، ثم دخل فصعد المنبر وقال للناس ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : ﴿ طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْشِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ - وأشار بيده نحو الشام - ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، وأشار بيده نحو الحجاز - ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾^(٢) وأشار بيده إلى الشام . وخرج أهل السكوفة الذين كان المختار قاتلهم فلحقوا بمُصعب^(٣) بن الزبير بالبصرة ؟ وكان فيمن قدم شبت بن ربعي ، قدم عليه وتحتة بقلعة قد قطع ذنبها

(١) فقال سراقه بن مرداس البازي يمدح إبراهيم بن الأشتر وأصحابه في قتل عبيد الله بن زياد :

أناكم غلام من عرائن مذحج	جرىء على الأعداء غير نكول
فيا ابن زياد بؤ بأعظم مالك	وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالعصب الحسام بحدة	إذا ما أبانا قتلا بقتيل
جزى الله خيراً شريرة الله منهم	شفوا من عبيد الله أمس غليل

(٢) سورة القصص ١ - ٦ .

(٣) وروى أن مصعباً لما قدم البصرة خضبهم فقال : يا أهل البصرة ؟ بلغني أنكم تلقبون أمراءكم وقد سميت نفسى الجزار .

وقطع طَرَفَ أذنها وشقَّ قباءه ، وهو ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! فأُتِيَ مصعب
فَقِيلَ له : إنَّ بالباب رجلاً ينادى : يا غوثاه ! يا غوثاه ! مشقوق القَبَاء ؛ من صفته
كذا وكذا . فقال لهم : هذا شَبِثُ بْنُ رَبِيعٍ ، لم يكن يفعل هذا غيره ، فأَدْخَلُوهُ .
فأَدْخَلَ عَلَيْهِ ، وجاءه أَشْرَافُ السَّكُوفَةِ ، فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ،
وبما أُصِيبُوا به ، وسألوه النَّصَرَ لهم والمسير إلى المختار معهم ^(١) .

وجنَّد مصعب جنوداً عظيماً قادمين بأنفسهم وسار نحو السَّكُوفَةِ . وبلغ ذلك المختار ،
فقام في أصحابه ، وحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا أهل السَّكُوفَةِ ، يا أهل الدِّينِ ،
وأعوان الحق ، وأنصار الضَّعِيفِ ، وشيعة الرِّسُولِ وآل الرِّسُولِ ، إنَّ فُرَّارَكُمْ
الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيْكُمْ أَتَوْا أَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْفَاسِقِينَ فَاسْتَفَوْهُمْ عَلَيْكُمْ لِيَمِصَّ ^(٢) الْحَقُّ ،
وَيَنْتَعِشَ الْبَاطِلُ ، وَيَقْتُلَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَهْلِكُونَ مَا عُبِدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ
إِلَّا بِالْفِرَاسِ عَلَى اللَّهِ وَاللَّعْنُ لِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ ، انتدبوا مع أَحْمَرَ بْنِ شُمَيْطٍ ، فإنَّكُمْ
لَوْ قَدْ لَقِيتُمُوهُمْ لَقَدْ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَتَلَ عَادٍ وَإِرمَ .

وبعث المختار مع ابن شُمَيْطٍ جيشاً كثيفاً ، وسار حتى ورد المذار ^(٣) ، وجاء
مصعب حتى عسكر قريباً منه . وتزاحف الجيشتان ، فَقَتَلَ ابن شُمَيْطٍ ، وهزم
جند المختار ، وسار جند السَّكُوفَةِ الَّذِينَ كَانَ اخْتَارَ طَرْدَهُمْ وَرَاءَهُمْ لِيَأْخُذُوا بِثَأْرِهِمْ ،

(١) كان فيمن قدم على مصعب محمد بن الأشعث ، وم يكن شهد وقعة السَّكُوفَةِ ، كان في قصر
له مما يلي القادسية ، فلما بلغه هزيمة الناس تهيأ للشخص وسأل عنه المختار فأخبر بمكانه فسرح
إليه عبد الله بن قراد ، فلما علم بمسيره خرج نحو مصعب حتى خق به واستحشبه على الخروج
وأدناه مصعب وأكرمه لشرفه ، وطلب منه أن يضم إليه المهاب بن أبي صفرة عامله على فارس
فاستأنه وانضم إليه في جُوع كبيرة .

(٢) ليمص ، أى يذهب .

(٣) هذا هو يوم المذار لمصعب على أَحْمَرَ بْنِ شُمَيْطٍ . والمذار : قصبة ميسان بينها وبين البصرة
مقدار أربعة أيام .

فكانوا عليهم أشد من أهل البصرة ، لا يدركون منهم ما إلا قتلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيمفوا عنه ، ولم ينج من ذلك الجيش إلا طائفة من أصحاب الخيل ؛ وأما رجالتهم فأبيدوا إلا قليلاً^(١) .

وسار مصعب يحمل الرجال وضعفاء الناس في السفن نحو الكوفة .

ولما بلغ المختار أنهم قد أقبلوا عليه في البحر وعلى الظهر ، وسار إليهم حتى نزل حروراء ، ليحول بينهم وبين الكوفة ، وجاء مصعب يسير إليه وهو بحروراء ، وتزاحف الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وتحطم أصحاب المختار حطمة منكزة ، وانتصفوا انتصافاً شديدة ، كأنهم أجمة فيها حريق ، وقاتل المختار حتى انصرف عنه القوم ، فقال له أصحابه : أيها الأمير ، قد ذهب القوم فانصرف إلى منزلك إلى القصر^(٢) فقال المختار : والله ما نزلت وأنا أريد أن آتي القصر ، فأما إذا انصرفوا فاركبوها بنا على اسم الله ، فجاء حتى دخل القصر .

ولما أصبح المصعب أقبل يسير بمن معه من أهل البصرة ومن خرج إليه من أهل الكوفة فأخذ بهم نحو السبخة ، فرأى بالمهلب ، فقال له المهلب : ياله فتحة ما أهناه ؛ لو لم يكن محمد بن الأشعث قتل ! قال : صدقت ، فرحم الله محمداً ! وسار غير بعيد ، ثم قال : يا مهلب ، قال : لبيك أيها الأمير ! قال : هل علمت

(١) في ذلك يقول الأعشى :

ألا هل أتاك والأنباء تنمى	بما لاقت بجيلة بالمدار
أنتج لهم بها ضرب طليح	وطعن صائب وجه النهار
كان سحابة صعقت عليهم	نعمتهم هنالك بالدمار
فبشر شيعة المختار إما	مهرت على الكوفة بالصغار
أقر العين صرعاً وفل	لهم جم يقتل بالصغار
وما إن سرنى لإهلاك قوى	وإن كانوا وجدك في خيار
ولكني سررت بما يلاقى	أبو إسحاق من خزي وعار

(٢) كان قد حصن قصره والمسجد ، وأدخل في قصره عدة الحصار .

أن عبيد الله بن عليّ بن أبي طالب قد قتل؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ومضى حتى نزل السبّخة فقطع عنهم الماء والمادة، وبمّث عبد الرحمن بن الأشعث فنزل الكُنَاسَة، وبمّث عبد الرحمن بن مخنف إلى جَبانة السبيع. وضيّقوا الحصار على المختار وأصحابه حتى إنهم كانوا يعطون الدينار والدينارين في الراوية لما أصابهم من الجَهْد، وكانت مما يشهم أفضلها من نسائهم، فكانت المرأة تخرج من منزلها، معها الطعام واللّطف والماء قد التذخفت عليه، فتخرج كأنها تريد المسجد الأعظم للصلاة، وكأنها تأتي وتزور ذات قرابة لها، فإذا دنت من القصر فُتِح لها، فدخلت على زوجها بطامه وشرابه ولطفه.

وبلغ ذلك مصعباً وأصحابه فقال له المهلب: اجعل عليهم دروبا حتى تمنع من يأتيهم من أهلهم وأبنائهم وتدفعهم في حصنهم حتى يموتوا فيه، ففعل.

وكان القوم إذا اشتدّ بهم العطش في قصرهم استقوا من ماء البئر، ثم أمر لهم المختار بمسل فصبّ فيه ليفيّر طعمه فيشربوا منه.

ثم أمر مصعب أصحابه فاقربوا من القصر، واشتدّ الحصار، فقال لهم المختار: ويحكم! إن الحصار لا يزيدكم إلا ضعفاً، انزلوا بنا فلنقاتل حتى نُقتل كراماً إن نحن قُتلنا، والله ما أنا بآيس إن صدقتموه أن ينصركم الله. فضمفوا وعجزوا. فقال لهم المختار: أما أنا فوالله لا أعطي بيدي ولا أحكمهم في نفسي.

وأزمع الخروج حين رأى من أصحابه الضعف. وأرسل إلى امرأته؛ فأرسلت إليه بطيب كثير، فاغتسل وتحنّط، ثم وضع ذلك الطيب على رأسه ولحيته وخرج.

ولما خرج من القصر قال للسائب^(١): ماذا ترى؟ قال: الرأي لك. فإذا

(١) كان السائب بن مالك الأشعري خايفته على الكوفة إذا خرج إلى المدائن.

تري؟ قال : أنا أرى أم الله يري؟ قال : بل الله يري . قال : وَيَعْبُكَ ! أحمق أنت ، إنما أنا رجل من العرب ، رأيتُ ابن الزبير انتزى على الحجاز ، وصروان على الشام ، فلم أكن دون أحده من رجال العرب ، فأخذتُ هذه البلاد فكنت كأحدهم ، إلا أني قد طلبتُ بثأرَ أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إذ نامت عنه العرب ، فقتلتُ من شرك في دماءهم ، وبالفَتْ في ذلك إلى يومى هذا ، فقاتِلْ على حسبك إن لم تكن لك نِيَّة . فقال : إِنَّا لله وإنا إليه راجعون ! وما كنتُ أصنع أن أقاتل على حسبي ؟ فقال المختار يتمثل بقول غيَّيلان بن سلمة :

ولو يرانى أبو غيَّيلانَ إذ حَسَرَتْ عني الممومُ بأمرٍ ماله طبقُ
لقال رُهباً ورُعباً يجمعان معاً غم الحياة وهول النفس والشَّقَق
إما تُسِفَّ على مجد ومكرُمةٍ أو أسوةٌ لك فيمن تهلك الورَق

وخرج في تسعة عشر رجلاً ، وضارب بسيفه حتى قُتل^(١) . وبذلك صار أمر العراق إلى ابن الزبير .

وبعث مُعْصِب عماله إلى الجبال والسواد ، وكتب إلى ابن الأشتر كتاباً فيه : أما بعدُ ، فإن الله قد قتل المختار الكذاب وشيعته الذين دانوا بالكفر ، وكادوا بالسحر ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإلى بيعة أمير المؤمنين ، فإن أُجبتَ إلى ذلك فأقبلْ إلَيَّ ، فإن لك أرض الجزيرة وأرض المغرب كلها ما بقيت وبقى سلطان آل الزبير ، لك بذلك عهد الله وميثاقه ، وأشد ما أخذ على النبيين من عهدٍ أو عَقْدٍ ، والسلام .

(١) قتل المختار ، وهو ابن سبع وستين سنة لأربعة عشر خلت من رمضان سنة ٦٧ .

وكتب إليه عبد الملك بن مروان : أما بعد ، فإن آل الزبير انتزوا على أئمة الهدى ، ونازعوا الأمر أهله ، وألحدوا في بيت الله الحرام ، والله ممكن منهم وجعل دائرة السوء عليهم ، وإنى أدعوك إلى الله وسنة نبيه ، فإن قبلت وأجبت فلك سلطان العراق ما بقيت وبقيت لك ، على بالوفاء بذلك عهد الله وميثاقه .

فدعا ابن الأشر أصحابه فأقرأهم الكتاب ، واستشارهم في الرأي ، فقال يقول : عبد الملك . وقائل يقول : ابن الزبير . فقال لهم . كيف أتبع أهل الشام ، وليست هناك قبيلة إلا وقد وترتها ، ولست بتارك عشيرتي وأهل مصرى .

وأقبل إلى مُصعب ، فلما بلغ مصعباً إقباله وجه المهلب بن أبي صفرة على الموصل والجزيرة وأذربيجان وأرمينية وأقام بالكوفة .

وأراد عبد الملك بن مروان أن يجمع كلمة الناس عليه^(١) ، فلما أجمع المسير إلى مصعب خطب الناس ، وأمرهم بالتهيؤ إلى مُصعب ، فختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريد ، ولكنهم أحبوا أن يقيم ويقدم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدهم بالجيوش خشية على الناس ألا يكون وراءه ملك ، إن أصيب . وقالوا : يا أمير المؤمنين ، لو أمت مكانك ، وبعثت على هؤلاء الجيوش رجلاً من أهل بيتك ، ثم سرّحته إلى مصعب ! فقال عبد الملك : إنه لا يقوم بهذا الأمر إلا قرشي له رأى ، ولعلى أبعث من له شجاعة ولا رأى له . وإنى أجد في نفسي أنى بصيرته بالحرب ، شجاع بالسيف ، إن ألجئت إلى ذلك . ومصعب قى بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع ، ولا علم له بالحرب ، يحب الخفض ، ومعه من يخالفه ومعى من ينصح لى .

(١) كان ذلك سنة ٧٠ أو ٧١ أو ٧٢ هـ على خلاف في ذلك .

وسار نحو العراق ، ولما أراد الخروج ودّع زوجته عاتكة ، فبكت وبكى معها جواريتها ، فقال : قاتل الله كثيراً ! والله لكانه يرانى ويراك يا عاتكة حيث يقول :

إذا ما أراد الغزو لم تثنِ همّة
حصان عليها عقد درّ يزيئها
نهته فلما لم ترّ الدهى عاقه
بكت فبكى مما شجاها قطينها

ثم نهض وسار حتى نزل مسكين^(١) . وسار مصعب إلى باجميرا . وكتب عبد الملك إلى شيمته من أهل العراق .

وأقبل إبراهيم بن الأشتر بكتاب عبد الملك إلى مصعب مختوماً ، فدفعه إليه . فقال : ما فيه ؟ قال : اقرأه . فقرأه ، فإذا عبد الملك يدعوهم إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق . فقال لمصعب : إنه والله ما كان أحد آيس منه منى . ولقد كتب إلى أصحابك كلهم بمثل الذى كتب إلى فاطمى فيهم فاضرب أعناقهم . قال : إذن لا تناصرنا عشائرم . قال : فأوفرهم حديداً ، وابعث بهم إلى أبيض كسرى فاحبسهم هناك ، ووكل بهم من إن غلبت ضرب أعناقهم ، وإن غلبت منيت بهم على عشائرم . فقال : يا أبا النعمان ، إنى لى شغل عن ذلك ، يرحم الله أبا بحر ! إنه كان ليحذرني غدر أهل العراق ، كأنه كان ينظر إلى ما نحن فيه .

وهم أهل العراق بالندري بمصعب . فقال قيس بن الهيثم : ويحكم ! لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطعموا بعيشكم ليصفين عليكم منازلكم . والله لقد رأيت سيد أهل الشام على باب الخليفة يفرح إن أرسله فى حاجة ! ولقد

(١) هذا هو يوم مسكن لعبد الملك على مصعب ، ومسكن : موضع على نهر دجيل .

رأيتنا في الصوائف وأحدنا على ألف بعير ، وإنَّ الرجل من وجوههم ليفزو على فرسه وزاده خلفه .

وتدأى العسكران والتقى القوم ، وبدأت الدائرة تدور على مصعب ، فقال لابنه عيسى : يا بني ، اركب أنتَ ومن معك إلى عمك بمكة ، فأخبره ما صنع أهل العراق ودعى فإني مقتول . فقال ابنه : والله لا أخبرُ قريشاً عنك أبداً ؛ ولكن إن أردت ذلك فالحق بالبصرة فهم على الجماعة ، أو الحق بأمير المؤمنين . قال مصعب : والله لا تتحدث قريش أنى فررت حتى دخلت الحرم منهزماً ، ولكن أقاتل ، فإن قُتِلْتُ فلممرى ما السيفُ بمار ، وما الفرار بمادة وخلق ، ولكن إن أردت أن ترجع فارجع فقاتل ، فرجع فقاتل حتى قُتل .

واشتدَّ القتال بين الفريقين حتى قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة ، وفرق أعمال العراق والكوفة والبصرة على عماله . . .

ولما قُتل مصعب ، ودخل عبد الملك الكوفة أمر بطعام كثير فصنع وأمر به إلى الخوَرَنَقِ وأذنَ إذناً عاماً ، فدخل الناس ، فأخذوا مجالسهم فدخل عمرو بن حريث المخزومي ، فقال له : إلىّ وعلى سريري ، وأجلسه معه ، ثم قال : أىّ الطعام أكلت أحبّ إليك وأشهى عندك ؟ قال : عَنَاقٌ^(١) حمراء قد أُجيد تمليحها وأحْكِم نضجها ! قال : ما صنعتَ شيئاً . فأين أنت من عُمُرُوس^(٢) راضع قد أُجيد سمنه ، وأحْكِم نضجه ؛ اختلجت إليك رجله فأتبمتها يده ، غذى بشريجين من لبن وسمن ، ثم جاءت الموائد فأكلوا ، فقال عبد الملك بن مروان : ما ألدَّ عيشنا لو أن شيئاً يدوم ؛ ولكننا كما قال الأول :

(١) العناق : الأنثى من ولد المزمز . (٢) العُمُرُوس : الخروف .

وكلُّ جديدٍ يا أُميمَ إلى ربي وكلُّ امرئٍ يوماً يصيرُ إلى كانٍ
فلما فرغ من الطعام طاف عبد الملك في القصر يقول لعمر بن حريث : لمن
هذا البيت ؟ ومن بنى هذا البيت ؟ وعمر بن حريث : فقال عبد الملك :
وكلُّ جديدٍ يا أُميمَ إلى ربي وكلُّ امرئٍ يوماً يصيرُ إلى كانٍ
ثم أتى مجلسه فاستأق ، وقال :
اعمل على مهل فإنك ميتٌ واكذِّح لنفسك أيها الإنسانُ
فكأن ما قد كان لم يكُ إذ مضى وكأن ما هو كائنٌ قد كان
ثم دُعي الناسُ إلى البيعة ، فجاءت قضاة فرأى قنّة فقال : يا معشر قضاة ،
كيف سلمتم من مُضَرٍّ مع قَلْبِكُمْ ؟ فقال عبد الله بن يعلى : نحن أعزُّ منهم وأمنعُ ،
قال : بمن ؟ قال : بمن معك منا يا أُمير المؤمنين .
ثم جاءت مذحج وهمدان ، فقال : ما أرى لأحدٍ مع هؤلاء بالكوفة شيئاً .
ثم جاءت جُمُعِي ، فلما نظر إليهم عبد الملك : قال : يا معشر جُمُعِي اشتملتم على ابن
أختكم^(١) وواربتموه ! قالوا : نعم . قال : فهاتوه . قالوا : وهو آمن ؟ قال :
وتشترطون أيضاً ! فقال رجل منهم : إنّا والله ما نشترط جهلاً بحقك ، ولكننا
نتسحبُ عليك تسحبَ الولد على والده . فقال : أمّا والله لنم الحى أنتم ! إن
كنتم لفرسانا في الجاهلية والإسلام ! هو آمن . فجاءوا به ، فلما نظر إليه
عبد الملك ، قال : أبا قبيح ! بأى وجه تنظر إلى ربك وقد خَلَمْتَنِي ! قال : بالوجه
الذى خلقه . وبأبىع ثم وثى ، فنظر عبد الملك في قفاه فقال : لله درّه أى ابن
زَومَلَةٍ^(٢) هو !

(١) يعنى يحيى بن سعيد بن العاص . (٢) كان يكنى أبا أيوب . (٣) ابن زوملة هو ابن الأمة .

وتقدمت إليه عدنان ، وقدّموا رجلا وسيا جيلا ، وتأخّر معبد بن خالد ، وكان
دَمِيًّا ، فقال عبد الملك : مَنْ ؟ فقال السكّاتب : عدوان . فقال عبد الملك :

عذير الحيّ من عدّوا نَ كانوا حيّة الأرضِ
بَفَى بعضهمُ بعضا فلم يرعوا على بعضِـ
ومنهم كانت السادا ت والموفون بالقرضِـ

ثم أقبل على الرجل الوسيم فقال : إيه ! فقال : لا أدري ، فقال معبد بن خالد
من خلفه :

ومنهم حكمٌ يقضى فلا يُنْقَضُ ما يقضى
ومنهم من يُجيزُ الحجَّ بالسنة والفرضِـ
وهم مُذْ وَلِدُوا شَبَّوْا بسِرِّ النسبِ المحضِـ

فتركه عبد الملك ، وأقبل على الجليل ، فقال : من هو ؟ قال : لا أدري ، فقال
معبد من خلفه : ذو الإصبع . فأقبل على الجليل فقال : ولم سمى ذا الإصبع ؟ فقال :
لا أدري ، فقال معبد من خلفه : لأنّ حيّة عضّت إصبعه ففقطعتها . فأقبل على الجليل
فقال : ما كان اسمه ؟ فقال : لا أدري . فقال معبد من خلفه : خرّمان بن الحارث .
فأقبل على الجليل فقال : من أيكم كان ؟ قال : لا أدري . فقال معبد : من بنى ناج ،
فقال :

أبَعَدَ بنى ناجٍ وسعِيكَ بينهمُ فلا تَتَّبِعَنَّ عَيْنَيْكَ ما كان هالكا
إذا قلتُ معروفاً لِأَصْلِحَ بينهمُ يقول وَهَيْبُ : لا أصلح ذَلِكا
فأضحى كظَهَرِ المينِ جُبَّ سنامهُ تُطِيفُ به الولدانُ أَحَدَبَ بارِكا

ثم أقبل على الجليل فقال : كمّ عطاؤك ؟ قال : سبعمائة . فقال لمعبد : فى كم

أنت ؟ قال : في ثلاثمائة ، فأقبل على الكاتبين ، فقال : حُطّا من عطاء هذا أربعمائة ، وزيدّاها في عطاء هذا .

ثم صعد منبر الكوفة ، وخطب الناس ، فقال : إن عبد الله بن الزبير لو كان خليفة كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ، ولم يفرز ذنبه في الحرم . ثم قال : إني قد استعملت حايكم بشر بن مروان ، وأمرته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدة على أهل العصية ، فاسمعوا له وأطيعوا . ثم رجع إلى الشام .

أما عبد الله بن الزبير فإنه لما انتهى إليه قتل مصعب قام في الناس ، فقال : الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء . ألا وإنه لم يذل الله من كان الحقّ معه وإن كان فرداً ، ولم يعزّ من كان وليه الشيطان وحزبه ، وإن كان معه الأنام طرّاً . ألا وإنه قد أتانا من العراق خبرٌ حَزَنّا وأفرحنا ؛ أتانا قتل مصعب رحمة الله عليه ، فأما الذي أفرحنا فعملنا أن قتلَه له شهادة ، وأما الذي أحرزنا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يعوى من بعدها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكريم العزاء ، ولئن أُصِبتُ بمصعب لقد أُصِبتُ بالزبير قبله ؛ وما أنا من عثمان بخاؤ من مصيبة ؛ وما مُصعب إلا عبد من عبید الله وعون من أعوانى . إلا أن أهل العراق أهل الندر والنفاق أسلموه وباعوه بأقل الثمن ، فإن يُقتل فإنّا والله مانعوتُ على مضاجعنا كما تموت بنو أبي العاص . والله ماقتل منهم رجل في زحف في الجاهلية ولا الإسلام . وما نموت إلا قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . ألا إنعسا الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبدى مُلكه ، فإن تُقبِل لا آخذها أخذَ الأشر البطر ، وإن تُدْبِر لا أبكٍ عليها بكاء الخرق المهين . . أقولُ قولي هذا وأستغفر الله لى ولکم .

٦١ - يوم دير الجماجم*

رأى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث^(١) من معه من الجيش بالبصرة ، وقد نازله الحجاج بها ؛ فخرج يريد الكوفة ، لأن أهلها أطوع له من أهل البصرة لبغضهم الحجاج ، ولأنه يجد بها من عشائره ومواليه أنصارا .

فسار إليها ، وسائرته الحجاج ، فنزل ابن الأشعث دير الجماجم ونزل الحجاج بإزارته بدير قرّة^(٢) ، ووقعت الحرب بينهما .

واشتد القتال ، فلما بلغ ذلك رءوس القبائل وأهل الشام قبل عبد الملك قالوا له : إن كان يرضى أهل العراق أن تنزع عنهم الحجاج فإن نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ، فانزعهم عنهم تخلف لك طاعتهم ، وتحقق به دماءنا ودماءهم .

فبعث ابنه عبد الله بن عبد الملك وأخاه محمد بن مروان ، وأمرهما أن يعرضا

(*) للحجاج على عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، كان في شعبان من سنة ٨٢ ، وفي قول بعضهم : كان في سنة ٨٣ ، ودير الجماجم : دير بظاهر الكوفة ، على طريق البر الذي يسلك إلى البصرة ، وسمى بدير الجماجم بوقعة إياد على أحاجم كسر بشاطيء الفرات الغربي حيث قتلت جيشه فلم يفلت منهم إلا الشريد وجمعوا حجاجهم لخلوها كالكوم فسمى ذلك المكان دير الجماجم . معجم ما استمعتم ٢ : ٥٧٣ ، تاريخ الطبري : ٨ - ١٤ .

(١) أمير من القادة الشجعان الدهاة ، سيره الحجاج بجيش لفزو بلاد رتييل بسجستان فدخلها ، وانفق مع قادة جيشه على إخراج الحجاج من أرض العراق ، فانتفض عليه ونشبت بينهما مارك ظفر فيها عبد الرحمن ، وتم له بذلك ملك سجستان وكرمان والبصرة وفارس لإخراسان ، وكان عليها المهلب والياً لعبد الملك بن مروان . ثم خرجت البصرة من يده فاستولى على الكوفة ، وقصده الحجاج ، فحدثت بينهما وقعة دير الجماجم .

(٢) هو بإزاء دير الجماجم .

على أهل العراق نَزَعَ الحِجَّاجَ عنهم ، وَأَنْ يُجْزَى عليهم أُعْطِيَتْهم كما تُجْزَى على أهل الشام ، فَإِنْ هُمْ قَبِلُوا ذلك عزل عنهم الحِجَّاجَ ، وَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا فالحِجَّاجُ أميرُ جماعة أهل الشام وولِيُّ الْقِتَالِ ؛ ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك في طاعته .

فلم يَأْتِ الحِجَّاجَ أمرٌ قطَّ كان أَشدَّ عايه ولا أَغْيَظَ له ، ولا أَوْجَعَ لقلبه من ذلك ، مخافة أن يقبلوا فَيُعْمَزَلَ عنهم .

فكتب إلى عبد الملك يقول : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاللَّهِ لَنْ أُعْطِيَ أَهْلَ العراق نَزْعِي لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولا يزيدكم ذلك إلا جُرْأَةً عليكم . أَلَمْ تَرَ وتسمع بوَثوبِ أَهْلِ العراق على ابن عَفَّانَ ؛ فلما سألهم ما يريدون قالوا : نَزِعَ سَعِيدُ بنِ العاصِ ! فلما نَزَعَهُ عنهم لم تَمْ تَمْ لَهُمُ السَّنَةُ حتى ساروا إليه فقتلوه . إِنْ الحَدِيدَ بِالْحَدِيدِ يُفْلَحُ . خَارَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا ارْتَأَيْتَ ! والسلام عليك .

فَأَتَى عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَّا عَرَضَ هَذِهِ الْخِصَالِ عَلَى أَهْلِ العراقِ إِرَادَةَ الْعَافِيَةِ مِنْ الْحَرْبِ .

وسار إلى الحِجَّاجِ مُحَمَّدُ بنُ مروان وعَبْدُ اللَّهِ بنُ عبد الملك ، فلما اجتمعوا عنده خرج عبد الله بن عبد الملك فقال : يَا أَهْلَ العراقِ ، أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ يُعْطِيكُمْ كَذَا وَكَذَا ...

وقال مُحَمَّدُ بنُ مَرْوَانَ : أَنَا رَسُولُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ يَعْزُضُ عَلَيْكُمْ كَذَا وَكَذَا ...

قالوا : نَزَجُ الْعَشِيَّةَ ؛ فَرَجَمُوا فَاجْتَمَعُوا عِنْدَ ابْنِ الْأَشْمَثِ فلم يَبْقَ قَائِدٌ

ولا رأس قوم ولا فارس إلا أتاه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أمّا بعدُ ، فقد أعطيتُم أمراً انتهزُكم اليومَ إياه فرصةً ، ولا آمنُ أن يكونَ على ذى الرأى غداً حسرةً ، وإنَّكم اليومَ على النصف ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أعزّاءُ أقوياء ، والقومُ لكم هائبون ، وأنتم لهم منتقِصون . فلا واللهِ لا زلتم عليهم أجرياء ولا زلتم عندهم أعزّاء ، إن أنتم قبلتم .

فوثب الناسُ من كلِّ جانب فقالوا : إن الله قد أهلكهم فأصبحوا في الأزل^(١) والضنك والمجاعة والقلة والدّلة ، ونحن ذوو العدد الكثير والسمر الرفيع والمادة القريبة ؛ والله لا نقبل .

فرجع محمدُ بن مروان وعبد الله بن عبد الملك إلى الحجاج فقالا : شأنك بمسرك وجُنْدك فاعملْ برأيك ؛ فإننا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع ، فقال : قد قلتُ لكم إنه لا يراد بهذا الأمر غيرُكم ، ثم قال : إنما أقاتلُ لكم ، وسلطاني سلطانكم . وخليّاء والحرب فتولّوها .

وأخذ الفريقان يتزاحضان ويقتتلان ، وأهلُ العراق تأتيهم موادّهم من الكوفة ومن سوادِها فهم فيما شاءوا من خضبهم وإخوانهم من أهل البصرة ؛ وأهلُ الشام في ضيقٍ شديد قد غلّت عليهم الأسمارُ وقلَّ عندهم الطعامُ وفقدوا اللحمَ ؛ وكانوا كأنهم في حصار . وهم على ذلك يُعَادُونَ أهلَ العراق ويُراوحوهم فيقتتلون أشدَّ قتال .

وحمل أهلُ الشام على خيلِ جبّلة بن زحر^(٢) مرةً بمسد مرّةً ، فناداهم

(١) الأزل : الشدة وسوء الحال .

(٢) كان على كتيبة القراء ، وكان معه خمسة عشر رجلاً من قريش فيهم عامر الشعبي ، وسعيد ابن جبير ، وأبو البختري الطائي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى .

عبد الرحمن ابن أبي ليلى الفقيه ، فقال : يا معشر القرّاء ؛ إنّ الفرار ليس بأحدٍ من الناس بأقبح منه بكم ، إني سمعت عليّاً رفع اللهُ درجته في الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهل الشام : أيّها المؤمنون ، إنّه من رأى عدوّاً نأى يُعمل به ، ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلّم وبرئ ، ومن أنكره بدّانه فقد أجر ، وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العلياً وكلمة الظالمين السفلى فذلك الذي أصاب سبيل الهدى ، ونور في قلبه باليقين ، فقاتلوا هؤلاء المحلّين المحدثين المبتدعين الذين قد جهلوا الحق فلا يعرفونه وعملوا بالعدوان فلا يُنكرونه .

وقال أبو البختريّ : أيّه الناس ، قاتلوهم على دينكم ودنياكم ، فوالله لئن ظهروا عليكم ليفسدنّ عليكم دينكم ، وليقلبنّ على دنياكم .

وقال الشعبيّ : يا أهل الإسلام ؛ قاتلوهم ، ولا يأخذكم حرج من قتالهم ، فوالله ما أعلم قوماً على بساط الأرض أعمال بظلم ولا أجور منهم في الحكم . فليكنّ بهم البدار .

وقال سعيّد بن جبّير : قاتلوهم ولا تأثموا من قتالهم ، بنيةً ويقين على آثامهم قاتلوهم ، وعلى جورهم في الحكم وتجبرهم في الدين واستبدّالهم الضمماء وإماتتهم الصلاة .

وتبيّاً أصحاب جبلة للحملة فقال جبلة : إذا حاتم فاحملوا حملة صادقة ، ولا تردّوا وجوهكم عنهم حتى توافقوا صفّهم .

وحملوا عليهم بجديّة وقوّة . وضربوهم حتى أزالوهم عن صفوفهم ، ثم انصرفوا ؛ فرأوا وهم مارّون جبلة صريماً لا يذرون كيف قُتل ! فهدهم ذلك ، وكانما فقد

كلٌّ منهم أياه أو أخاه ، بل هو في ذلك الوطن كان أشدَّ عليهم فقدأ .

فقال لهم أبو البختري الطائي : لا يستبيننَّ فيكم قتلُ جَبَلَة ؛ فإنَّما كان كرجلٍ منكم أتته منيَّته ليومها ، فلم يكن ليتقدَّم يومه ولا ليتأخَّرَ عنه ، وكلَّكم ذائق ما ذاق ، ومدَّعوٌّ فيجيب .

وسمع القراء ذلك ، فإذا الكأبة على وجوههم بيَّنة ، وإذا ألسنتهم متقطعة ، وإذا المشلُ فيهم قد ظهر ، وإذا أهلُ الشام قد سرُّوا وجَدَلوا ونادوا : يا أعداء الله قد هلكتم ؛ وقد قتل الله طاغوتكم .

ورأى بسطام بن مصقلة بن هُبيرة الشيباني يأسَ الناس بعد قتل جَبَلَة فشجَّعهم فقالوا : هذا يقوم مقام جَبَلَة^(١) .

فسمع هذا القول من بعضهم أبو البختري ، فقال : قبَّحتم ! إن قُتل منكم رجلٌ واحدٌ ظننتم أن قد أحيط بكم ، فإن قُتل الآن ابنُ مصقلة ألقيتُم بأيديكم إلى التهلكة ، وقتلتم : لم يبقَ أحدٌ يقاتل ، ما أخلقكم أن يخلف رجاؤنا فيكم !

وحجى برأس جَبَلَة إلى الحجاج ، فحمله على رُمحَيْن ثم قال : يا أهل الشام ؛ أبشروا بهذا أولُ الفتح ؛ لا والله ما كانت فتنة قط فخبَّت حتى يُقتلَ فيها عظيمٌ من عظماء أهل اليمن ، وهذا من عظمائهم .

ثم اقتتلوا ذات يوم ، فخرج رجلٌ من أهل الشام يدعو لل مبارزة ، فخرج إليه الحجاج بن جارية فحمل عليه فطعنهُ فأذراه ، وحمل أصحابه فاستمقذوه ؛ فإذا هو رجلٌ من خثعم يقال له أبو الدرداء ، فقال الحجاج بن جارية : أما إني لم أعرفه حتى

(١) كان بسطام قد قدم من الرى فالتقى هو وقتييه في الطريق فدعاه فتيبة إلى الحجاج وأهل الشام ، ولكنه قال : لأن أموت مع أهل العراق أحب إلى من أن أعيش مع أهل الشام .

وقع ، ولو عرفته ما بارزته ، ما أحب أن يُصَاب من قومي مثله .

وخرج عبد الرحمن بن عوف الرّؤاسي ، فدعا إلى المبارزة فخرج إليه ابنُ عمِّ له من أهل الشام ، فاضطربا بسيفيهما ، فقال كلُّ واحد منهما : أنا الغلامُ السكّابيّ . فقال كلُّ منهما لصاحبه : من أنت ؟ فلما تساءلا تحاجزا .

وخرج عبدُ الله بن رِزَام الحارثيّ إلى كتيبة الحجاج فقال : أخرجوا إلى رجل رجلًا ، فأخرج إليه رجل فقتله ، ثم فعل ذلك ثلاثة أيام ؛ يقتل كلَّ يوم رجلًا ، حتى إذا كان اليوم الرابع أقبل ، فقالوا : قد جاء لا جاء اللهُ به ! فدعا إلى المبارزة فقال الحجاج للجراح : اخرج إليه ، فخرج إليه فقال له عبدُ الله بن رِزَام - وكان صديقًا له - وَيَحَاكَ يَا جَرَّاح ! ما أخرجك إليّ ؟ قال : قد ابتليتُ بك . قال : فهل لك في خير ؟ قال : ما هو ؟ قال : أنهزِمُ لك فترجع إلى الحجاج وقد أحسنتَ عنده وحمدك ! وأما أنا فأحتملُ مقالةَ الناسِ في انهزامي عنك حُبًّا لسلامتك ؛ فإنّي لا أحبُّ أن أقتلَ من قومي مثلك .

قال : فافعل . فحمل عليه فأخذ يستطرد له ، فأطرد له عبدُ الله ، وحمل عليه الجراحُ حملةً بجدي لا يريد إلا قتلَه ، فعطف عليه فضربه بالعمود على رأسه فصرعه وقال : يا جَرَّاح ؛ بئس ما جزيته ! أردتُ بك العافيةَ وأردتَ أن تزيّرني النيةَ ! فقال : لم أردُ ذلك . فقال : انطلق فقد تركتُك للقرابة والعشيرة .

وخرج رجلٌ من أهل العراق يُقال له قدامة بن الحريش التميميّ ، فوقف بين الصّفين فقال : يا معشر جِرامِمةَ الشام ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فإن أبيتُم فليخرج إلى رجل .

فخرج إليه رجل من أهل الشام فقتله ، وكرّر ذلك حتى قتل أربعة ، فلم

رأى ذلك الحجاج أمر منادياً فنادى : لا يخرج إلى هذا الكلب أحدٌ . فكفّ الناس .

ورأى ذلك سعيد الحرشيّ ، فدنا من الحجاج وقال له : أصلح الله الأمير ! إنك رأيت ألا يخرج إلى هذا الكلب أحد ، وإنما هلك مَنْ هلك مِنْ هؤلاء نفر بأجلهم ؛ ولهذا الرجل أجلّ وأرجو أن يكون قد حضر فأذن لأصحابي الذين قدموا معي فليخرج إليه رجل منهم .

فقال الحجاج إن هذا الكلب لم يزلّ هذا عادة له ، وقد أرب الناس ، وقد أذنت لأصحابك ؛ فمن أحبّ أن يقوم فليقم .

فرجع سعيد الحرشيّ إلى أصحابه فأعلمهم ؛ فلما نادى ذلك الرجل بالمبارزة برز إليه رجلٌ من أصحاب الحرشيّ ، فقتله قدامة ، فشقّ ذلك على سعيد ، وثقل عليه لكلامه الحجاج .

ثم نادى قدامة : مَنْ يبارز ؟ فدنا سعيد من الحجاج ، فقال أصلح الله الأمير ! ائذن لي في الخروج إلى هذا الكلب . فقال : أو عندك ذلك ! قال سعيد : نعم ، أنا كما تحبّ . فقال الحجاج : أرني سيفك ، فأعطاه إياه فقال الحجاج : معي سيفٌ أثقلُ من هذا . وأمر بالسيف ، وأعطاه إياه .

ثم قال الحجاج - وقد نظر إلى سعيد - ما أجودَ درعك ، وأقوى فرسك ! ولا أدري كيف تكون مع هذا الكلب ؟ قال سعيد : أرجو أن يُظفرني الله به : قال الحجاج : اخرج على بركة الله . قال سعيد : نخرجتُ إليه ، فلما دنوتُ منه قال : قِفْ يا عدوّ الله ، فوقفتُ فسرّني ذلك منه . فقال : اختر ، إما أن تمكّني فأضربك ثلاثاً . وإما أن أمكّتك فتضربني ثلاثاً . ثم تمكّني . قلتُ :

أَمْكِنْتِي ، فوضع صدره على قَرَبُوسِهِ^(١) . ثم قال : اضْرِبْ ، فَجَمَعْتُ يَدِي عَلَى سَيْفِي ، ثُمَّ ضَرَبْتُ عَلَى الْمَغْفَرِ مَتَمَكِّنًا ، فَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا ، فَسَاءَنِي ذَلِكَ مِنْ سَيْفِي وَمِنْ ضَرْبَتِي ، ثُمَّ أَجْمَعَ رَأْيِي أَنْ أَضْرِبَهُ عَلَى أَصْلِ الْعَاتِقِ ، فَإِنَّمَا أَنْ أَقْطَعَ وَإِنَّمَا أَنْ أُوهِنَ يَدَهُ عَنْ ضَرْبَتِهِ . فَضَرَبْتُهُ فَلَمْ أَصْنَعْ شَيْئًا ، فَسَاءَنِي ذَلِكَ . وَكَانَتِ النَّالِثَةُ مِثْلَ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ قَالَ : أَمْكِنْتِي . فَأَمْكَنْتُهُ ، فَضَرَبَنِي ضَرْبَةً صَرَخَنِي مِنْهَا ، ثُمَّ نَزَلَ عَنِ فَرَسِهِ ، وَجَلَسَ عَلَى صَدْرِي وَانْتَزَعَ مِنْ خُفِّيهِ خِنْجَرًا أَوْ سَكِينًا فَوَضَعَهَا عَلَى خَلْقِي يُرِيدُ ذَبْحِي . فَقُلْتُ لَهُ : أَنْشُدْكَ اللَّهَ ! فَإِنَّكَ لَسْتَ مَعْصِيًّا مِنْ قَتْلِ الشَّرَفِ وَالذِّكْرِ مِثْلَ مَا أَنْتَ مَعْصِيٌّ مِنْ تَرْكِ .

قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : سَمِيدُ الْخُرَشِيِّ ، قَالَ : أَوَّلَى لَكَ بِاعْدُوِّ اللَّهِ ! فَاَنْطَلَقَ يَاعْدُوِّ اللَّهِ وَأَعْلِمَ صَاحِبِكَ مَا لَقِيتَ ، قَالَ سَمِيدُ : فَاَنْطَلَقْتُ أَسْمَى حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى الْحِجَاجِ ، فَقَالَ : كَيْفَ رَأَيْتَ ؟ قُلْتُ : الْأَمِيرُ كَانَ أَعْلَمَ بِالْأَمْرِ .

ثُمَّ خَرَجَ أَهْلُ الْعِرَاقِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ لِأَرْبَعِ عَشْرَةِ مَضَتْ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ عِنْدَ امْتِدَادِ الضُّحَى ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الشَّامِ وَاقْتَتَلُوا عَامَّةَ النَّهَارِ .

وَخَرَجَ سَفِيَّانُ بْنُ الْأَبْرَدِ الْكَلْبِيُّ فِي الْخَيْلِ مِنْ قَبْلِ مَيِّمَنَةِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَدَنَا مِنْ الْأَبْرَدِ بْنِ قُرَّةِ التَّمِيمِيِّ وَهُوَ عَلَى مَيْسَرَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَشْعثِ ؛ وَلَمْ يَقَاتِلْهُ هَذَا كَبِيرَ قِتَالٍ حَتَّى انْهَزَمَ ، فَأَنْكَرَهَا النَّاسُ مِنْهُ - وَكَانَ شَجَاعًا ، وَلَمْ يَكُنِ الْفِرَارَ لَهُ بِمَادَّةٍ .

فَلَمَّا فَعَلَهَا تَقَوَّضَتِ الصَّنُوفُ ، وَرَكِبَ النَّاسُ وُجُوهَهُمْ ، وَأَخَذُوا فِي كُلِّ وَجْهِ ،

(١) القربوس : حنو السرج .

وصعد عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث المنبر فأخذ ينادى الناس : عباد الله إلى ، أنا ابن محمد ، فأتاه عبد الله بن رزام الحارثي ، فوقف تحت منبره ، وجاء عبد الله بن ذؤاب السلمى فى خيلٍ له ، فوقف منه قريباً ، وثبت حتى دنا منه أهل الشام ، فأخذت نبلهم تحوزُهُ ، فقال : يا بنَ رِزَام ، احمِلْ على هذه الرجال والخيل ، تحمل عليهم حتى أمعنوا ، وثبت لا يبرح منبره ، ودخل أهل الشام العسكر فكبّروا فعمد إليه عبد الله بن يزيد بن المغفل الأزدي - وكانت ماميكة ابنة أخيه امرأة عبد الرحمن - فقال : انزل فإنى أخاف عليك إن لم تنزل أن تُرْسِرَ ، ولعلك إن انصرفت أن تجمع لهم جمعاً يهلكهم الله به بعد اليوم .

فنزّل وخلّى أهلُ العراقِ العسكرَ وانهبوا لا يَلُوفُونَ على شيء .

ومضى عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى انتهى إلى بيته وعاليه السلاحُ ، وهو على فرسه لم ينزل عنه ، فخرجت إليه ابنته فالتزمها ، وخرج إليه أهله يسكون ، فأوصاهم بوصيته وقال : لا تبكوا ، رأيتم أترككم ، كم عسيت أن أبقى معكم حتى أموت ؟ وإن أنا متُ فلن الذى يرزقكم الآن حتى لا يموت ، وسيرزقكم بعد . وفانى كما رزقكم فى حياتى ، ثم ودّع أهله وخرج إلى البصرة .

ولما رأى الحجاجُ انهزامَ أهل العراق قال : أتركهم فليبتدؤوا ولا تنبهموم ، ونادى المنادى : مَنْ رجع فهو آمن .

ورجع محمد بن مروان إلى الموصل وعبدُ الله بن عبد الملك إلى الشام بعد الواقعة وخليًا الحجاج والعراق .

وجاء الحجاجُ حتى دخل الكوفة وأجلس مصقلة البمدى إلى جنبه - وكان خطيباً - فقال : اشم كل امرئ بما فيه ، فإن كنا أحسنًا إليه فاشتّمه بقلة

شكره ولو لم عهد . ومن علمت منه عيباً فمبها فيه وصغر إياه نفسه . وكان لا يُبأيه أحداً إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال : نعم ، بآيمه ، وإلا قتله .

فجاء رجل من خثعم قد كان معتزلاً للناس جميعاً من وراء الفرات ، فسأله عن حاله ، فقال : ما زلت معتزلاً وراء هذا النهر ، منتظراً أمر الناس حتى ظهرت فأثبتك لأبائكم مع الناس . قال : أتشهد أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا إن كنتُ عبثتُ الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر . قال : إذن أقتلك . قال : وإن قتلتني ، فوالله ما بقي من عمري إلا ظمُّ حمار^(١) ، وإني لأبْتَظِر الموت صباح مساء . قال : اضربوا عنقه ، ففُصِرَت عنقه .

فزعوا أنه لم يَبْقَ حوله قرشي ولا شامي ولا أحدٌ إلا رحمه ورثي له من القتل .

ثم دعا بكميل بن زياد النخعي ، فقال له : أنت المقتص من عثمان أمير المؤمنين ! قد كنت أحب أن أجدَ عليك سبيلاً . فقال : والله ما أدري على أيِّنا أنت أشد غضباً ! ثم قال : أيُّها الرجل من ثقيف ، لا تصرف على أنيابك ، ولا تهذم على تهذم الكتيب ، ولا تكسر كسران الذئب ، والله ما بقي من عمري إلا ظمُّ حمار ، فإنه يشرب غدوة ويموت عشيّة ، ويشرب عشيّة ويموت غدوة . اقض ما أنت قاضٍ ، فإنَّ الموعدَ الله ، وبعد القتل الحساب .

قال الحجاج : فإنَّ الحجةَ عليك ، قال : ذلك إن كان القضاء إليك ، قال : بلى ، كنتُ فيمن قتل عثمان وخَلَمْتُ أمير المؤمنين . اقتلوه .

(١) الظم : ما بين السهتين ، أي لم يبق من عمره إلا اليسير ، لأنه ليس شيء أقصر ظمناً

من الحمار .

فَقَدَّمَ قَتِيلًا .

وَأَتَى بآخر من بعده ، فقال الحجاج : إني أرى رجلا ما أظنّه يشهدُ على نفسه بالكفر ! فقال : أخادِعي عن نفسي ؟ أنا أكفرُ أهلِ الأرضِ وأكفرُ من فرعون ذى الأوتاد .

فضحك الحجاجُ وخرَّ سبيلاً .

٦٢ - يوم الهاشمية*

كان مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ^(١) مختفياً من أبي جعفر المنصور ، لِمَا كان منه من قتاله
المسودة مع ابن هُبَيْرَةَ مرةً بعد مرة .

وكان اختفاؤه عند مرزوق أبي الخصب ، ليطلب له الأمان .

فلما خرج الرَّائِدَةُ^(٢) أتى مَعْنُ البابَ فقام عليه^(٣) ، فسأل المنصورُ أبا الخصب
- وكان يلي حِجَابَةَ المنصور يومئذ - : مَنْ بِالْبَابِ ؟ فقال : مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ . فقال
المنصور : رجل من العرب ، شديد النفس ، عالم بالحرب ، كريم الحسب ؛ أدخله .
فلما دخل ، قال : إيه يا مَعْنُ ! ما الرأي ؟ قال : الرأي أن تُنَادِيَ في الناس
وتأمرَ لهم بالأموال . قال : وأين الناس والأموال ؟ ومَنْ يُقدم على أن يمرض نفسه
لهؤلاء المُلُوج ! لم تصنع شيئاً يا مَعْنُ ! الرأي أن أخرج فأقف ، فإن الناس إذا رأوني
قاتلوا وأبَلَّوْا وثابوا إليّ ، وإن أقتُ تخاذلوا وتهاونوا .

* الهاشمية موضع بالكوفة أسسها السفاح ، وكان هذا اليوم سنة ١٣٦ أو ١٣٧ الهجرية

٩ - ١٨٣ .

(١) كان مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ من مشهورى قواد العرب ، وكان منقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة
الفزارى . فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد أبلى معه بلاء حسناً ، ولما قتل يزيد خاف مَعْنُ
على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة إلى أن كان هذا اليوم .

(٢) هم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بلدة قرب فاشان ، وكانوا على رأى أبي مسلم
صاحب دعوة بني هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ، ويظهر أنهم كانوا يريدون أن يأخذوا بثأر أبي
مسلم ويقتلوا أبا جعفر .

(٣) في رواية أخرى أن المنصور خرج وهو يريد دم مَعْنُ فاتتهى إليه ورى بنفسه وترجل
وأخذ بلباعم دابة المنصور .

فأخذ مَعْنٌ بيده وقال : يا أمير المؤمنين إذا والله تُقَتِّلُ الساعة ، فأنشدك الله في نفسك !

وأناه أبو الحصيب ، فقال مثل قَوْلِهِ مَعْنٌ ، فاجتذب ثوبه منهما ؛ ثم دعا بدابته ووثب عليها من غير ركاب ؛ ثم سوى ثيابه ، وخرج وممن أخذ بلجامه وأبو الحصيب مع ركابه ، فوقف .

وتوجّه إليه رجل ، فقال : يا مَعْنٌ ، دونك العُلج ؛ فشدّ عاياه مَعْنٌ فقتله . ثم وإلى بين أربعة .

وثاب الناس إلى المنصور ، فلم تسكن إلا ساعة حتى أفنؤهم .

وتغيّب مَعْنٌ بعد ذلك ، فقال أبو جعفر لأبي الحصيب : ويلك ! أين مَعْنٌ ! فقال : والله ما أدرى أين هو من الأرض ! فقال : أيقظن أن أمير المؤمنين لا يفترُ ذنبه بعد ما كان من بلائه ! أعطه الأمان وأدْخِلْهُ على .

فلما دخل لَقِبَهُ أسد الرجال ، فقال مَعْنٌ : والله يا أمير المؤمنين ، لقد أتيتُك وأنا وِجِلُ القلب ، فلما رأيتُ ما عندك من الاستمالة بهم ، وشدة الإقدام عليهم رأيتُ أمراً لم أره من خلق في حربٍ ، فشدّ ذلك من قلبي ، وحماني على ما رأيتُ مني . فأمر له بعشرة آلاف درهم وولاه اليمن .

فَهْرَسُ الْمَوْضُوعَاتِ

٣٠- ٧	١ - يوم بدر
٤٧- ٣١	٢ - يوم أُحُد
٥٢- ٤٨	٣ - يوم الرجيع
٥٥- ٥٣	٤ - يوم بئر معونة
٥٨- ٥٦	٥ - يوم بني النضير
٦٧- ٥٩	٦ - يوم الخندق
٧١- ٦٨	٧ - يوم بني قُرَيْظَة
٧٤- ٧٢	٨ - يوم ذى قَرْد
٧٧- ٧٥	٩ - يوم بني الْمُصْطَلِق
٨٧- ٧٨	١٠ - يوم الحديبية
٩١- ٨٨	١١ - يوم مُؤْتَة
١٠٣- ٩٢	١٢ - يوم الفتح
١٢٢-١٠٤	١٣ - يوم حُنَيْن
١٣٤-١٢٣	١٤ - يوم تَبُوك
١٤٠-١٣٥	١٥ - يوم السَّقِيفَة
١٤٣-١٤١	١٦ - يوم ذى القِصَّة
١٥٢-١٤٤	١٧ - يوم بُرَاخَة
١٥٨-١٥٣	١٨ - يوم البطاح
١٦٧-١٥٩	١٩ - يوم اليمامة
١٧٢-١٦٨	٢٠ - يوم جُؤَانَا
١٧٦-١٧٣	٢١ - يوم صنعاء

الصفحة	
١٨٠-١٧٧	٢٢ - يوم ذات السلاسل
١٨٢-١٨١	٢٣ - يوم الثنى
١٨٤-١٨٣	٢٤ - يوم الوجة
١٨٧-١٨٥	٢٥ - يوم أليس
١٩٢-١٨٨	٢٦ - يوم الحيرة
١٩٤-١٩٣	٢٧ - يوم ذات العيون
١٩٦-١٩٥	٢٨ - يوم عين التمر
١٩٨-١٩٧	٢٩ - يوم دومة الجندل
٢١٤-١٩٩	٣٠ - يوم البرموك
٢١٩-٢١٥	٣١ - يوم النمارق
٢٢١-٢٢٠	٣٢ - يوم السقاطية
٢٢٥-٢٢٢	٣٣ - يوم قس الناطف
٢٣٠-٢٢٦	٣٤ - يوم البويب
٢٦١-٢٣١	٣٥ - يوم القادسية
٢٦٨-٢٦٢	٣٦ - يوم أرمات
٢٧٢-٢٦٩	٣٧ - يوم أغواث
٢٧٨-٢٧٣	٣٨ - يوم حماس
٢٨٢-٢٧٩	٣٩ - يوم بابل
٢٨٥-٢٨٣	٤٠ - يوم بهر سیر
٢٨٩-٢٨٦	٤١ - يوم المدائن
٢٩١-٢٩٠	٤٢ - يوم جلولاء
٢٩٣-٢٩٢	٤٣ - يوم تكريت

٢٩٤	٤٤ - يوم ماسبذان
٢٩٥	٤٥ - يوم قرقيسياء
٢٩٧-٢٩٦	٤٦ - يوم الأهواز
٣٠٠-٢٩٨	٤٧ - يوم طاؤس
٣٠٥-٣٠١	٤٨ - يوم تستر
٣٠٧-٣٠٦	٤٩ - يوم السوس
٣٢٠-٣٠٨	٥٠ - يوم نهاوند
٣٥٠-٣٢١	٥١ - يوم الجبل
٣٧٨-٣٥١	٥٢ - يوم صفين
٣٨٩-٣٧٩	٥٣ - يوم النهروان
٤٠٨-٣٩٠	٥٤ - يوم كربلاء
٤٢١-٤٠٩	٥٥ - يوم الحرة
٤٢٦-٤٢٢	٥٦ - يوم مرج راهط
٤٤٠-٤٢٧	٥٧ - يوم عين الوردة
٤٤٤-٤٤١	٥٨ - يوم بنات تلي
٤٥٠-٤٤٥	٥٩ - يوم جبانة السبيع
٤٥٦-٤٥١	٦٠ - يوم خازر
٤٦١-٤٥٦	٦١ - يوم المذار
٤٦٥-٤٦١	٦٢ - يوم مسكن
٤٧٦-٤٦٦	٦٣ - يوم دير الجاجم
٤٧٨-٤٧٧	٦٤ - يوم الهاشمية

١ - فهرس الأعلام

١٨٩ ، ١٨٥	(١)
الأزاذبه (مرزبان الحيرة) ١٨٩ ، ١٨٨	آذين بن الهرمزان : ٢٩٤
أسامة بن زيد : ٣٣٨	آزار (امرأة الأسود العنسي) : ١٧٤
أسلم (غلام بني الحجاج) ١٤	آزر ميدخت (ابنة كسرى) ٢١٩ ، ٢١٦
أسماء بن خارجة : ٣٩٧ ، ٣٩٨	أبان بن سعيد : ٨٢
أبو الأسود الدؤلى : ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٨٢	إبراهيم (عليه السلام) : ٢٦
الأسود بن سريع السعدي : ٣٣٤	إبراهيم بن الأشتر : ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ،
الأسود بن عبد الأسد المخزومي : ١٩	٤٥٢ - ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠
الأسود العنسي : ١٣٥ ، ١٧٣ ، ١٧٤ - ١٧٦	إبراهيم بن محمد : ٤٢٩ ، ٤٣٠
الأسود بن قطبة أبو مفرز : ٢٨٤ ، ٢٨٥	إبراهيم بن نعيم العدوي : ٤١٨
الأسود بن قيس المرادي : ٣٨٩	الأبرد بن قررة التميمي : ٤٧٣
ابن الأسود بن مسعود : ١١٢	أبي بن خلف الجحفي : ٣٨
الأسود بن المطلب : ٢٧	أبي بن كعب : ٨٦
أسيد بن حضير ، ٤٣ ، ٧٦ ، ١٤٠	أجر بن شيط : ٤٥٦
الأشتر النخعي ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،	الأحنف بن قيس : ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٣٢ ،
٣٥٩ ، ٣٦٢ - ٣٦٧ ، ٣٦٩	٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٩٤
الأشرس بن عوف الشيباني ٣٨٢	الأخرم الأسدي : ٧٣
ابن الأشعث = عبد الرحمن بن الأشعث	ابن أخطب = حيي بن أخطب ٥٧
الأشعث بن قيس : ٢٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،	الأخنس بن شريق : ١٦ ، ٨٦
٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٨٧	أردمشير بن شيرى : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،

بجير بن زهير ١١٦	ابن الإطناية : ٣٦٢
أبو البخترى الطائى : ٤٦٩ ، ٤٧٠	أبو الأعور السلمى : ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩
أبو البخترى بن هشام : ١٥ ، ٢٢	الأعور الشنقى : ٢٣٠
بديل بن ورقاء الخزاعى : ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٤	الأقرع بن حابس : ١١٣ ، ١٩٣ ، ١٩٨
البراء بن عازب : ١٦٠	أكيدر (صاحب دومة الجندل) : ١٢٧
أبو براء = عامر بن مالك	أكيدر بن عبد الملك : ١٩٧
البراء بن مالك : ١٦٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣	أمية بن خلف : ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩
أبو برزة الأسلمى : ٤٠٨	أنس بن الحليس : ٢٨٤
بسياس بن عمرو : ١٣ ، ١٥	أنس بن هلال النمرى : ٢٢٨
بسطام بن مصقلة بن هبيرة الشيبانى : ٤٧٠	أنس بن مالك : ٣٠٣ ، ٣٠٥
بشر بن أبي رهم : ٢٤٢ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥	الأنذر زغر (من قواد الفرس يوم الوجة) :
بشر بن سفيان : ٧٨	١٨٣ ، ١٨٤
بشر بن مروان : ٤٦٥	أنوشجاف (من قواد الفرس) : ١٧٩ ، ١٨١
بشير بن الخصاصية : ٢١٦	أنوشروان : ١٨١
بشير بن سعد : ١٣٩ ، ١٤٠	أوس بن منراء : ٢٦٤
بشير بن عمرو الأنصارى : ٣٥٤	إياس بن قبيصة : ١٨٩ ، ١٩١
بصهرى (من قواد الفرس) : ٢٨٠	أبو أيوب الأنصارى : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩
أبو بصير = عتبة بن أسيد	(ب)
ابن ببيعة : ١٧٩ ، ٢٤٩	باذان (عامل الفرس على اليمن) : ١٧٣
أبو بكر الصديق : ١٣ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٣٥ - ١٣٧ ، ١٦٠ ، ١٥٨ - ١٥٢ ، ١٤٩ ، ١٤٦ - ١٣٩	باهان (البطريق) : ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
	٢٠٩ ، ٢٠٤
	بجير (أحد بنى عبيد) : ١٩٥

ثابت بن قيس : ٧٧ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣

ثمالة بن أثال الحنفى : ١٧٠ ، ١٧٢

(ج)

جaban (من قواد الفرس) : ١٨٩ ، ٢١٩

جابر الأسدى : ٢٥٠

جابر بن بجير : ١٨٥

جابر بن عبد الله : ٤٣

الجارود بن المعلى : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٩٩ .

جارية بن قدامة السعدى : ٣٣٦

الجالينوس (من قواد الفرس) : ٢٢٢ ، ٢٢٣

٢٤٨ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

جبلة بن زحر : ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠

جبير بن مطعم : ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٩

جرجة (مقدم عسكر الروم يوم اليرموك)

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٢

الجد بن قيس : ١٢٣

جدي بن أخطب : ٥٧

الجراح (من جنود الحجاج) : ٤٧١

أبو الجرباء التيمى : ٣٣٧

جرير بن عبد الله البجلي : ٢٢٦ ، ٣٠١

جرير بن عبد الله الحميرى : ٣٠١

١٦١ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٥

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩١

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ - ٢٠١ ، ٢٠٣ -

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٦

٢١٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٥٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦

٤٢٢

بلال بن رباح : ٢٣ ، ٧٤

بندار (من أعلاج الفرس) : ٣١٣

البندوان (من قواد الفرس) : ٢٧٠

بهمن جاذويه (من قواد الفرس) : ١٨٣ ،

١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٤ ، ٢٢٢ ، ٢٧٠

بوران (ابنة كسرى) : ٢٣١

البيزان (من قواد الفرس) : ٢٤٨ ، ٢٦٢ ،

٢٧٠

(ت)

تذراق (تيودوريك ، من قواد هرقل) .

٢٠٣ ، ٢٠٤

أبو تراب = على بن أبي طالب

أم تميم (ابنة النهال) : ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٢ ، ١٦٣

(ث)

ثابت بن أرقم : ٩١

ثابت بن أرقم : ١٥٠

- جرير بن عبد الله العجلي : ٣٥٢ ، ٣٥١
 جعفر بن أبي طالب : ٨٨ ، ٩٠
 أبو جعفر المنصور = المنصور
 جندل المجلي : ١٨٧
 جهجاه بن مسمود : ٧٥
 أبو جهل بن هشام : ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٣ ، ٢٤
 الجودي بن ربيعة : ١٩٧ ، ١٩٨
 جويرية بنت الحارث : ٧٧
 (ح)
 حارث بن الأسود بن المطالب : ٢٧
 الحارث بن حسان : ٢٤٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
 الحارث بن أبي شمر الغساني : ٨٨ ، ١١٣
 الحارث بن أبي ضرار : ٧٥ ، ٧٧
 الحارث بن ظبيان : ٢٧٠
 الحارث بن العبدى : ٣٨٦
 الحارث بن عمير الأزدي : ٨٨
 الحارث بن عوف : ٥٩ ، ٦٢
 الحارث بن هشام : ٣٢ ، ٢١٣
 الحارث بن يزيد العامري : ٢٩٥
 حاطب بن بلتعة : ٩٦
 الحباب بن المنذر : ١٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠
 حبال بن سلمة بن خويلد : ١٤١ ، ١٤٣
 حبال (أخو طليعة) : ١٥٠
 حبيب بن ذؤيب : ٣٢٢
 حبيب بن كزّة : ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٤
 حبيب بن مسلمة الفهري : ٣٥٧ ، ٣٦٠
 ٣٦٩
 أم حبيبة (زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٩٤
 الحجاج بن يوسف الثقفي : ٤٦٦ - ٤٦٨ ، ٤٧٠ - ٤٧٦
 حجار بن أبجر : ٣٩٢
 حجر بن عدى : ٣٨٥ ، ٣٨٨
 حذيفة بن عتبة : ٢٢ ، ٢٤
 حذيفة بن محصن الغفاني : ١٤٥ ، ١٦٠
 ٢٥٢ ، ٢٥٥
 حذيفة بن اليمان : ٦٦ ، ٦٧ ، ٢٦٤ ، ٣١٢
 ٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣١٩
 حرام بن ملحان : ٥٣
 حرب بن شرحبيل الشبامي : ٣٧٢ ، ٣٧٣
 حرثان بن الحارث = ذو الأصبع
 الحر بن يزيد التيمي : ٤٠٧
 حرقوص بن زهير السعدي : ٢٩٧ ، ٣٠١
 ٣٠٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠
 ٣٨٩

- حرملة بن مريطة : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٣
- حسان (أخو أكيدر صاحب دومة الجندل) : ١٢٧
- حسان بن أسماء بن خارجة : ٣٩٧
- حسان بن ثابت الأنصاري : ٤٦ ، ٦٤ ، ٥٥
- حسان بن مالك الكلبي : ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦
- الحسن بن علي بن أبي طالب : ٩٤ ، ٣٢٧ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢
- الحسين بن علي بن أبي طالب : ٣٧٢ ، ٣٩٠ - ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥
- ٤٠٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ - ٤٥٤
- حصين بن نير السكوني : ٤١٤ ، ٤١٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩
- الحطيم بن ضبيعة : ١٦٩ ، ١٧١ ، الحطيئة : ٢٦٤
- حفصة بنت عمر : ٣٣٠
- حكيم بن سعد (ورد في الشعر) : ٥٥
- حكيم بن جبلة : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤
- أم حكيم بنت الحارث : ٣٢
- حكيم بن حزام : ١٨ ، ٩٧
- حكيم بن منقذ الكندي : ٤٢٧
- أبو حليلة بن الأسود بن المطلب : ٢٧
- الحليس بن ملقمة : ٨٠ ، ٨١
- حماس بن قيس : ١٠١
- جمال بن مالك الأسدي : ٢٣٨ ، ٢٧٤
- حمزة بن سنان الأسدي : ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٩
- حمزة بن عبد المطلب : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣
- ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٩ - ٤٣ ، ٧٠ ، ١٠٣
- حملة بن جوية الكنانى : ٢٤٢
- حنة بنت جحش : ٤٢
- ابن الحنيفة = عمر بن الخطاب
- حنظلة بن الربيع التيمي : ٢٤٢
- ابن الحنفية = محمد بن الحنفية
- حيرى بن أكال : ١٨٩ ، ١٩١
- الحيسمان الخزاعي : ٢٦
- حي بن أخطب : ٥٧ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٧١
- (خ)
- خالد بن سعيد بن العاص : ١٤٥ ، ١٩٩
- ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣
- خالد بن عرفطة : ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩
- خالد بن هلال : ٢٣٠

- خالد بن الوليد : ٣٥ ، ٧٨ ، ٩١ ، ١٠١ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ١٥٥ - ١٥٧ ، ١٦٠ - ١٦٧ ، ١٧٠ ،
 ١٧٧ - ١٩٨ ، ٢٠٥ - ٢١٧ ، ٢٧٠ ،
 خباب بن الارت ٣٧٢
 خبيب بن عدي ٤٩ ، ٥١
 أبو الخصيب : ٤٧٨
 خليل بن المنذر بن ساوى : ٢٩٩ ، ٣٠٠
 خديجة بنت خويلد (زوج رسول الله صلى الله
 عليه وسلم) : ٢٨
 خوات بن جبير ٦١
 خويلة ابنة حكيم : ١١٢
 أبو خيثمة ٣٤
 (د)
 داؤويه : ١٧٥
 داود (عليه السلام) ١٢٢
 أبو دجانة : ٣٦ ، ٣٨
 الدراقص (من قواد هرقل) : ٢٠٣ ، ٢٠٤
 أبو الدرداء ٤٧٠
 دريد بن الصمة : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٠
 (ذ)
 أبو ذر الفارسي ١٢٦ ، ١٢٧
 ذو الإصبع المدواني ٤٦٤
 ذو الخمار : ١٠٩
 ذو الكلاع ٢٠٠ ، ٢٠٢
 ابن ذى الكلاع الحميري : ٣٦١
 (ر)
 رافع (دليل خالد بن الوليد) : ١٧٩
 رافع بن عميرة الطائي : ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨
 رباح (غلام رسول الله) : ٧٢
 ربيع بن الأفكل العنزي : ٢٩٢
 ربيع بن عامر البيمى (أبو شيث) : ٢٢٩ ،
 ٢٥٢ ، ٢٠٣ ، ٢٦٦ ، ٢٩٥
 ربيع السعدي ٢٦٦
 ربيعة بن ربيع : ١١٠
 ربيعة بن أبي شداد الخثعمي : ٣٨١ ، ٣٨٢
 ربيعة بن المخارق القنوي : ٤٤٢ ، ٤٤٣
 الربيل الأسدي : ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧
 رستم : ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 ٢٤٢ ، ٢٤٦ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ،
 ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٧٥ - ٢٧٨
 رفاعة بن شداد : ٤٣٨ ، ٤٤٨
 أبو رمم = كاثوم بن حصين
 (ز)
 الزبرقان بن بدر : ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٩٥

زيد بن الخطاب : ١٦٣ ، ١٦٠	أبو زبيد الطائي : ٢٢٥
زيد بن الدثينة : ٤٩	الزبير بن العوام : ١٤ ، ٤٢ ، ٧٠ ، ٩٦ ،
زيد بن صوحان : ٣٤٦	١٠١ ، ١١١ ، ١٤٢ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
زيد بن عبد الرحمن بن عوف : ٤١٨	٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،
زيب (بنت رسول الله صلى الله عليه	٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٤٠ ، ٣٤٢ - ٣٤٤ ،
وسلم) : ٢٨	٣٤٧ - ٣٥١
(س)	زرعة بن البرج الطائي : ٣٧٩
سابور بن شهريران : ٢١٦	زفر بن الحارث : ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ -
سالم (مولى أبي حذيفة) : ١٦٢	٤٣٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
سالم بن نصر : ١٧٩	زمل بن عمرو المذري : ٣٦٩
ابن أم السائب : ٣٢٠	زهرة بن الحوية : ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٧ ،
السائب بن الأقرع : ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٢٠	٢٧٩ - ٢٨٣
السائب بن مالك الأشعري : ٤٥٨	زهرة بن عبد الله : ٢٣٨
سباع بن عرفة : ١٢٥	ابن زياد = عبيد الله بن زياد
سبرة الجهني : ٣٢٦	أبو زياد (مولى ثقيف) : ١٩٦
أبوسبرة بن أبي رهم : ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣	زياد بن حفصة : ٣٥٦ ، ٣٨٤
سبرة بن عمرو : ١٥٣	زياد بن حنظلة التميمي : ٣٢٧ ، ٣٤١
سجاح بنت الحارث : ١٥٣ ، ١٥٤	زياد بن أبي سفيان : ٢٣٨
سراقة بن مالك : ١٢	زياد بن السكن : ٣٧
سراقة بن مرداس : ٤٤٩ ، ٤٥٠	زيد بن حارثة : ٨٨ ، ٩٠
سرجون (مولى معاوية) : ٣٩٤	زيد بن حصين الطائي : ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٨٠
سعد بن الربيع : ٤١	٣٨٩ ، ٣٨٣ ، ٣٨١
سعد بن عباد : ٦١ ، ٦٢ ، ١٠١ ، ١١٥ ،	
١٣٥ - ١٣٧ ، ١٤٠	

سعد بن عبيد : ٢١٨	سفيان بن الأبرد الكلبي : ٤٧٣
سعد بن مالك بن أبي وقاص = سعد بن أبي وقاص	أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب : ٢٧ ، ١٠٨
سعد بن مسعود : ٣٨٥	أبو سفيان بن حرب : ٩ ، ١١ ، ١٤ ، ١٦ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٩ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ٢١٠
سعد بن معاذ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٧ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٨	أم سلمة (زوج النبي صلى الله عليه وسلم) : ٢١٠ ، ٢٣٤ ، ٣٨ ، ١٤ ، ٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٩ ، ٣٢٢ ، ٣٧٧
سعد بن أبي وقاص : ٨ ، ١٤ ، ٣٨ ، ٢٣٤	سلمة بن الأكوع : ٧٢ ، سلمة بن دريد : ١١٠ ، سلمة بن سلامة : ٢٥ ، سلمى (زوج المثنى بن حارثة) : ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
سعد بن أبي وقاص = سعد بن أبي وقاص	سلمى بنت خصفة التيمية : ٢٣٨ ، سلمى بن القين : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٣
سعيد بن جبير : ٤٦٩	سلمان الفارسي : ٢٣٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، سليط بن قيس : ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، أم سليم : ١٠٩ ، سليمان بن صرد الخزاعي : ٣٩١ ، ٤٢٧ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
سعيد الحرشي : ٤١٣	
سعيد بن خالد : ٢٠٢	
أبو سعيد الخدري : ٤٢٠	
سعيد بن العاص : ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٤٦٧	
سعيد بن قيس الهمداني : ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨٤ ، ٣٦٩	
سعيد بن النعمان : ١٨٢	

شرحبيل بن حسنة : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٦١	سلمان الفارسي = سلمان الفارسي
٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠	ابن سمية = عمار بن ياسر
شرحبيل بن السمط الكندي : ٢٣٨ ، ٢٧٧	أم سنان الصيداوية : ٣٨٦
٢٧٩ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨	سنان بن وبرة الجهني : ٧٥
شرحبيل بن عمرو النسائي : ٨٨	سهل بن حنيف : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٨ ، ٣٥٩
شريح بن أوفى السعدي : ٣٨٩	سهل بن عدى : ٣٠١
شريح بن هاني : ٣٧٥ ، ٣٧٨	سهلة (زوج عبد الله بن خازم) : ٤٢٧
الشعبي : ٤٦٩	سهيل بن عمرو ، أبو جندل : ٢٨ ، ٨٣-٨٥
الشاخ : ٢٦٤	١٠١ ، ٢٠٢
شهر بن باذان : ١٧٣	سواد بن غزاية : ٢٠
شهر زار (صاحب الخيل) : ٢٢٩	سواد بن مالك : ٢٣٨
شهريار بن كسرى : ٢٣١ ، ٢٨١ ، ٢٨٢	السوار بن هام : ٢٩٩
شهريار بن أردشير : ٢١٥	ابن السوداء : ٢٤٨
شبية بن ربيعة : ١٥ ، ١٩ ، ٢٠	سويد بن بشر : ٣٠٣
شبية بن عثمان : ١٠٧	سويد بن عمر بن مقرن : ٢٨٩
شيرازاذ : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤	سويد بن مقرن : ١٤٣ ، ١٤٥ ، ٣٠١
شيرويه : ٣٠٦	سويلم اليهودي : ١٢٤
شيرى بن كسرى : ١٧٩	سيار العجلي : ٣٤١
(ص)	سيرين (أبو محمد بن سيرين) : ١٩٦
صالح بن سليم : ٣٧١	(ش)
صخير بن حذيفة : ٤٢٨	شبت بن ريمى التيمي : ٣٥٤ ، ٣٥٧
صفوان بن أمية : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠	٣٧٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٣٩٩ ، ٤٤٥
٣١ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٣	٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦

طلحة النمرى : ١٦١	صفوان بن صفوان : ١٥٣
(ظ)	صفية بنت عبد المطلب : ٦٤ ، ٤٢ ، ٤١
ابن ظبيان : ٢٧٠	صعصعة بن صوحان : ٣٦٠ ، ٣٥٤
ظفر (رجل من جهينة) : ٣٣٠	صلوبا بن نسطونا : ١٩١
(ع)	صهيب بن سنان : ٣٣٩
عاتكة بنت عبد المطلب : ٤٦١ ، ١١ ، ١٠	صيفي بن قيس الشيباني : ٣٨٥
أبو العاص بن الربيع : ٢٨	(ض)
العاص بن هشام بن الخيرة : ١١	الضحاك بن قيس : ٤٢٦-٤٢٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٠
عاصم بن عمرو : ١٧٨ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢	ضرار بن الأزور : ١٨٩ ، ١٥٦ ، ١٤٨
٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٤ ، ٢٥٠ ، ٢٤٦	٢١٣ ، ١٩٠
٢٨٧ ، ٢٧٤	ضرار بن الخطاب : ٢٩٤ ، ٢٨٩ ، ٢٨٥
أبو عامر الأشعري : ١١٠	ضرار بن مقرن : ١٨٩
عامر بن الحضرمي : ١٩	ضمضم بن عمرو الغفاري : ١١ ، ١٠ ، ٩
عامر بن الطفيل : ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣	(ط)
عامر بن مالك أبو براء (ملاعب الأسنة) :	طريقة بن حاجز : ١٤٥
٥٥ ، ٥٣	أبو طلحة : ١٠٩
عامر بن لؤي : ٧٩	طلحة بن خويلد الأسدي : ١٤٤ ، ١٤١
عائشة بنت أبي بكر الصديق : ٩٥ ، ٦٣	١٤٨ - ١٥١ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٥
٣٣٩ - ٣٣٤ ، ٣٣٢ ، ٣٢٧ ، ١٢٥	طلحة بن عبيد الله : ٣٨ ، ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٣٣
٣٥٠ ، ٣٤٩ ، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤١	١٤٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٦٥ ، ٣١٠
العباس بن عبد المطلب : ٢٢ ، ١١ ، ١٠	٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ -
٢٣٣ ، ١٠٨ ، ٩٩ - ٩٧ ، ٢٥	٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٤٠ ، ٣٤١ - ٣٤٤
	٣٥١ - ٣٤٧

- عباس بن مرداس : ١١٤
عباية بن مالك : ٩٠
عبد الأسود العجلى : ١٨٥ ، ١٨٦
عبد الرحمن بن أبي بكر : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٣٧٨
عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي : ٢٣٨
عبد الرحمن بن زهير بن عبد بن عوف : ٤١٧
عبد الرحمن بن سميد : ٤٤١ ، ٤٤٧
عبد الرحمن بن عتاب : ٣٣٩ ، ٣٥٠
عبد الرحمن بن عوف الرؤاسي : ٤٧١
عبد الرحمن بن عوف الزهرى : ٢٢ ، ٢٣
٢٣٢ ، ٢٣٤
عبد الرحمن بن أبي ليلى : ٤٦٩
عبد بن عوف الحميري : ١٧٧
ابن عبد عوف : ٨٦
عبد الرحمن بن عينية : ٧٢ ، ٧٣
عبد بن أم كلاب : ٣٢٨
عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٤٠٠ ، ٤٥٨
٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤
عبد الرحمن بن محنف : ٤٤٦ ، ٤٥٨
عبد الله بن أبي بن سلول : ٣٣ ، ٤٦ ، ٥٧
٧٥ ، ٧٦ ، ١٢٥
عبد الله بن بشر : ٣٠٣
عبد الله بن جبير : ٣٤
عبد الله بن جحش : ٧ ، ٨ ، ٤٢
عبد الله بن جدعان : ٢٣
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : ٩١ ،
٣٧٢ ، ٤٠٥
عبد الله بن حدرد : ١٠٦
عبد الله بن حذف : ١٧١
عبد الله بن حملة الخثعمي : ٤٤٢ ، ٤٤٣
عبد الله بن حفظة الفسيل الأنصاري : ٤١١
٤١٧ ، ٤١٨
عبد الله بن خازم : ٤٢٧
عبد الله بن خالد بن أسيد : ٣٣٢
عبد الله بن خباب : ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤
عبد الله بن دؤاب السلمى : ٤٧٤
عبد الله بن ذى السهمين الخثعمي : ٢٣٨ ،
٣٠٩
عبد الله بن أبي ربيعة : ٣١
عبد الله بن رزام الحارثي : ٤٧١ ، ٤٧٤
عبد الله بن رواحة : ٢٥ ، ٢٦ ، ٦١ ، ٦٢
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
عبد الله بن الزبير : ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٣٩١
٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٢ - ٤٢٥
٤٣٣ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ،
٤٦٠ ، ٤٦٥

عبد الله بن زهير السلولى : ٤٥٣
 عبد الله بن زيد : ٢٢٥
 عبد الله بن سبع الحمدانى : ٣٩٢
 عبد الله بن أبى سرح : ٣٥٣
 عبد الله بن سعد الأزدي : ٣٣٨ ، ٣٢٨ -
 ٤٤٠ ، ٤٥٢
 عبد الله بن سلام : ٣٤٢
 عبد الله بن شجرة السلمى : ٣٨٧
 عبد الله بن شريك : ٤٤٨
 عبد الله بن الضحالك : ٤١٨
 عبد الله بن طارق : ٤٩
 عبد الله بن عامر : ٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 عبد الله بن عباس : ٣٤٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٥٢ ، ٣٨٤ ، ٣٧٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦١ ، ٣٨٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤
 ٤٠٣ - ٤٠٥
 عبد الله بن عبد الله بن أبى : ٧٦
 عبد الله بن عبد الملك : ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦
 ٤٧٤
 عبد الله بن عضاء الأشعرى : ٤١٩
 عبد الله بن عمر : ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٣١٣ ، ١٦٦
 ٣٩١ ، ٣٩٠
 عبد الله بن عمرو : ٤٢ ، ٣٤
 عبد الله بن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة
 المخزومى : ٤١١
 عبد الله بن قيس = أبو موسى الأشعرى
 عبد الله بن الكواء اليشكرى : ٣٧٤ ، ٣٧٣
 عبد الله بن مرشد التنقى : ٢٢٤
 عبد الله بن مسعود : ٢٣ ، ١٤٢
 عبد الله بن مسعود الحضرمى : ٣٩٤ ، ١٩٣
 عبد الله بن مطيع : ٤١٧ ، ٤١١ ، ٤٠٦ ، ٣٩١
 عبد الله بن معاوية : ٣٥٢
 عبد الله بن المعتم : ٢٣٨ ، ٢٧٩ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٣
 عبد الله بن مقرن : ١٤٣
 عبد الله بن وائل البكرى : ٣٩٢ ، ٤٣٢
 ٤٣٨ - ٤٤٠ ، ٤٥٢
 عبد الله بن وديعة الأنصارى : ٣٧١
 عبد الله بن وهب الراسبى : ٣٨٠ ، ٣٨١
 ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٩
 عبد الله بن يزيد بن المغفل : ٤٢٩ ، ٤٣٠
 ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، ٤٧٤
 عبد الله بن يعلى : ٤٦٣
 عبد الملك بن مروان : ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥
 ٤٤٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٠ - ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧
 عبدة بن الطبيب : ٢٦٤

عبد الله بن زهير السلولى : ٤٥٣
 عبد الله بن زيد : ٢٢٥
 عبد الله بن سبع الحمدانى : ٣٩٢
 عبد الله بن أبى سرح : ٣٥٣
 عبد الله بن سعد الأزدي : ٣٣٨ ، ٣٢٨ -
 ٤٤٠ ، ٤٥٢
 عبد الله بن سلام : ٣٤٢
 عبد الله بن شجرة السلمى : ٣٨٧
 عبد الله بن شريك : ٤٤٨
 عبد الله بن الضحالك : ٤١٨
 عبد الله بن طارق : ٤٩
 عبد الله بن عامر : ٣٣١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
 عبد الله بن عباس : ٣٤٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٥٢ ، ٣٨٤ ، ٣٧٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦١ ، ٣٨٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤
 ٤٠٣ - ٤٠٥
 عبد الله بن عبد الله بن أبى : ٧٦
 عبد الله بن عبد الملك : ٤٦٨ ، ٤٦٧ ، ٤٦٦
 ٤٧٤
 عبد الله بن عضاء الأشعرى : ٤١٩
 عبد الله بن عمر : ٣٣٠ ، ٣٢٢ ، ٣١٣ ، ١٦٦
 ٣٩١ ، ٣٩٠
 عبد الله بن عمرو : ٤٢ ، ٣٤

٣٥٣ ، ٣٥١ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧ ، ٣٤٥
٣٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٥٨ — ٣٥٦ ، ٣٥٤
٤٦٧ ، ٤٦٥ ، ٤٥١ ، ٤٤٨

عثمان بن مالك : ٥١

عثمان بن محمد بن أبي سفيان : ٤١٠ ، ٤١٢
عدي بن حاتم الطائي : ١٤٣ ، ١٤٩ — ١٥١

٣٨٤ ، ٣٥٦ ، ١٧٨

عدي بن أبي الزغباء : ١٣ ، ١٥

عدي بن سهيل : ٢٤٢

عدي بن عدي : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١

عرفجة بن هرثة : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٢٩ ، ٢٥٢

٢٩٢

عروة بن أديّة : ٣٦٩

عروة بن زيد الخيل : ٢٢٥

عروة بن مسعود الثقفي : ٨١ ، ٨٢

عريض أبو يسار (علام بن الماص بن سميد) : ١٤

أبو عزة الجحفي : ٢٨ ، ٣١ ، ٣٢

عصمة بن الحارث : ٢٢٦

عطارد بن حاجب : ٢٤٢

عفيف بن المنذر : ١٧١

عقبة بن عامر : ٩١

عقة بن أبي عقة : ١٩٥ ، ١٩٦

عقيل بن الأسود بن المطلب : ٢٧ ، ٤٠٣

عبيد الله بن زياد : ٣٩٤ — ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٧

٤٣٨ ، ٤٤١ — ٤٤٤ ، ٤٥١ — ٤٥٣

٤٥٥

عبيد الله بن عباس : ٣٢٥ ، ٣٢٦

عبيد الله بن عمر بن الخطاب : ٣٦٠

عبيد الله بن مرجانة = عبيد الله بن زياد

أبو عبيد بن مسعود : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠

٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣

أبو عبيدة بن الجراح : ٣٨ ، ١٠١ ، ١٣٧

١٣٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١

٢١٤ ، ٢٧٠

عبيدة بن الحارث : ١٩ ، ٢٠

عتاب بن أسيد : ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٧

عتبة بن ربيعة : ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٤

عتبة بن غزوان : ٨ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠

عثمان حنيف : ٣٢٥ ، ٣٣٣ — ٣٤٠ ، ٣٤٤

٣٤٥

عثمان بن طلحة : ١٠٢ ، ١٠٣

عثمان بن عبد الله : ١٠٩

عثمان بن عفان : ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٤ ، ٢٣٢

٢٣٣ ، ٣١٠ ، ٣٢١ — ٣٢٩ ، ٣٣١

٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ —

٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،

٢٥٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ - ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ،

٢٩٠ ، ٢٩٣ - ٢٩٥ ، ٢٩٧ ، ٣٠٥ - ٣٠٧ ،

٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٦ ،

٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،

عمر بن سعد : ٤٠٢ ، ٤٠٧ ،

عمر بن عبدالرحمن بن الحارث المخزومي : ٤٠٣ ،

عمر بن عبد الله بن معمر : ٣٩٤ ،

عمر بن عثمان بن عفان : ٤٢١ ،

عمر بن مالك : ٢٩٥ ،

عمران بن حصين : ٣٣٣ ، ٣٣٤ ،

عمرو بن أمية الضمري : ٤٩ ، ٥٠ - ٥٢ ،

٥٤ ، ٥٦ ،

عمرو بن ثبي : ٣١٥ ،

عمرو بن جعاش : ٥٦ ،

عمرو بن جرموز : ٣٥٠ ،

عمرو بن الجوح : ٤٢ ،

عمرو بن الحجاج : ٣٩٧ ،

عمرو بن حريث المخزومي : ٣٢٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،

عمرو بن الحضرمي : ٨ ، ١١ ، ١٨ ،

عمرو بن سالم الخزاعي : ٩٣ ،

عمرو بن سعد بن أبي وقاص : ٣٩٤ ،

عكاشة بن محسن : ١٥٠ ،

عكرمة بن أبي جهل : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٦٦ ،

١٠١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ -

٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،

العلاء بن الحضرمي : ١٤٥ ، ١٧٠ - ١٧٢ ،

٢٩٨ ، ٣٠٠ ،

علي بن الحسين : ٤١٤ ، ٤٢١ ،

علي بن أبي طالب : ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٦ ،

٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٨٤ ،

٩٤ - ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ،

٢٠٣ ، ٢٣٣ ، ٣١١ ، ٣٢١ - ٣٢٨ ، ٣٣٠ ،

٣٣٣ ، ٣٣٧ - ٣٤٦ ، ٣٤٨ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ -

٣٨٨ ، ٤٠٣ ، ٤٣٨ ، ٤٦٩ ،

عمار بن ياسر : ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ،

عمارة بن شهاب : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،

أم عمارة = نسيبة بنت كعب

عمارة بن الوليد بن عقبة : ٣٩٤ ،

ابن عمر : ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

عمر بن الخطاب : ١٣ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ،

٣٨ - ٤٠ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٩٤ - ٩٨ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١١٢ ، ١٣٥ - ١٣٩ ، ١٥٨ - ١٥٦ ،

١٧٦ ، ١٩٩ ، ٢٠١ - ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ،

عيسى بن مصعب : ٤٦٢	عمرو بن سعيد بن العاص : ٤٠٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٣ ، ٤١٠
عيينة بن حصن : ١١٤ ، ٧٣ ، ٦٢ ، ٥٩	
١٥١ ، ١٤٩	عمرو بن أبى سلمى الغزى : ٣١٣
(غ)	عمر بن العاص : ١٤٥ ، ١٦١ ، ٢٠٠ - ٢٠٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٥٣ - ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ - ٣٧٨ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
غالب بن عبد الله الأسدى : ٢٦٥ ، ٢٦٤	عمرو بن عامر : ١٠٥
ابن الفسيل : ٤١٩ ، ٤٢٠	عمرو بن عبد ود : ٦٣
ابنة غيلان ١١٢	عمرو بن عبد المسيح : ١٨٩ ، ١٩١
غيلان بن سلمة : ٤٥٩	عمرو بن عبيد الله بن عباس السلى : ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٤١٥ ، ٤١٢ ، ٤١٣
(ف)	عمرو بن عكرمة : ٢١٣
الفارعة بنت عقيل : ١١٢	عمرو بن معد يكرب الزيدى : ١٧٦ ، ٢٤٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٣١٣ ، ٣١٥
فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم :	عمير بن الحباب : ٤٥٢ ، ٤٥٣
٤٥٤ ، ٩٥ ، ٩٤	عمير بن الحمام : ٢١
فاطمة بنت الوليد : ٣٢ ، ٤٥٤	عمير بن عبد الله التميمى : ٣٣٢
قرات بن حيان العجلي : ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٤٢	عمير بن وهب : ١٧ ، ٢٨ - ٣٠
الفرخزاد : ٢١٦	المنسى = الأسود
الفرزدق : ٤٠٥	عوف بن عامر : ١٠٥ ، ١٥٣
فرغون : ٤٥٤	عويم بن الكاهل الأسدى : ١٩٧
فروة بن نوفل الأشجى : ٣٨٩	عياض بن غنم : ١٧٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨
أم الفضل بنت الحارث : ٣٣٠	عيسى (عليه السلام) : ٢٦
الفضل بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن	
المطلب : ٤١٧ ، ٤١٨	
فيرزان : ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٨٠ ، ٢٨١	
٣١٨ ، ٣٠٩	

- خيروز : ١٧٥
 الفيقار بن نسطوس : ٢٠٣ ، ٢٠٤
 (ق)
 قارب بن الأسود : ١٠٩
 قارن بن قريانس : ١٨١
 قباذ : ١٧٩ ، ١٨١
 أبو قتادة الأنصاري : ٧٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
 ١٥٦ ، ٣٨٨
 قثم بن العباس : ٣٢٧
 أبو قحافة : ١٠٠
 ابن أبي قحافة = أبو بكر الصديق
 قدامة بن الحريش التميمي : ٤٧١
 قدامة بن مظعون : ٢٩٨
 قرط بن جراح : ٢٢٩
 قرفة بن زاهر التميمي : ٢٥٢
 قطبة بن قتادة (من بني عذرة) : ٩٠
 القمقاع بن شور : ٣٩٩
 القمقاع بن عمرو التميمي : ١٧٧ ، ١٧٩ ،
 ١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٧ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩١ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٤٦ - ٣٤٨
 قيس بن ساعدة : ٣٦١
 قيس بن سمد : ٣٢٥ ، ٣٦٠ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨
 قيس بن عاصم : ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٢
 قيس بن عبد يغوث : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦
 قيس بن العقدية : ٣٣٤
 قيس بن هبيرة الأسدي : ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠
 قيس بن الهيثم : ٣٩٤ ، ٤٦١
 قيصر : ٨٢ ، ٤٠٢
 (ك)
 كثير بن شهاب الحارثي : ٣٩٩
 كثير بن عبد الرحمن (صاحب عزة) : ٤٦١
 كرز بن جابر الفهري : ٧
 كسرى : ٨٢ ، ٢٣١ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ،
 ٢٨٨ ، ٣٨٣ ، ٤٠٢
 كسرى شهريران : ٢١٥
 كعب بن أسد : ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٨ ،
 ٧٠ ، ٧١
 كعب بن جميل : ٣٦١
 كعب بن زهير : ١١٦ ، ١١٧
 كعب بن زيد : ٥٤
 كعب بن سور : ٣٣٨ ، ٣٣٩
 كعب بن أبي كعب الخثعمي : ٤٤٦
 كعب بن لؤي : ٧٩
 كعب بن مالك : ٣٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣
 (٣٢ - أيام العرب في الإسلام)

٢٤٤ - ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٦٩
 بجاعة بن مرارة : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧
 مجزأة بن ثور : ٣٠٣
 أبو محجن الثقفي : ٢٢٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧١ ، ٢٧٢
 محكم بن الطفيل : ١٦٥ ، ١٦٦
 محمد صلى الله عليه وسلم : ٧ - ٩ ، ١٢ - ٧١
 ٧٤ - ٨٩ ، ٩١ - ١٠٤ ، ١٠٦ - ١١٧
 ١٢١ - ١٤١ ، ١٤٣ - ١٤٨ ، ١٥٣
 ١٥٩ - ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 ١٧٣ ، ١٧٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ -
 ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ - ٢٣٥
 ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧
 ٢٩٩ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠
 ٣٣٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ - ٣٤٥
 ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨١ - ٣٨٣
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢ ، ٤٠٦
 ٤٠٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٣٢ ، ٣٤٩
 ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٧١
 محمد بن الأشعث : ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩
 ٤٥٧ ، ٤٠١
 محمد بن أبي بكر : ٣٤٣ ، ٣٤٩
 محمد بن ثابت : ٤٢٠

كلثوم بن حصين أبو رهم : ٩٧
 كلدة بن الحنبل : ١٠٧
 كميل بن زياد النخعي : ٤٧٥

(ل)

أبو لبابة بن عبد المنذر : ٦٩
 أبو لهب : ١١ ، ٢٧

(م)

ابن مالك : ٢٩٦
 مالك بن حبيب : ٢٩٥
 مالك بن الدخشم : ١٢٨
 مالك بن سنان : ٣٨
 مالك بن عباد : ٩٢ ، ١٧٨
 مالك بن عوف النصري : ١٠٤ ، ١٠٥ ،
 ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤
 مالك بن قيس : ١٨٥ ، ١٨٦
 مالك بن مسمع البكري : ٣٩٤
 مالك بن نويرة : ١٤٤ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،
 ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨
 متمم بن نويرة : ١٥٧ ، ١٥٨
 المثني بن حارثة الشيباني : ١٧٨ ، ١٨١ ،
 ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

مسروق بن الأجدع : ٣٤٥	محمد بن أبي الجهم ٤٢٠
مسعود بن حارثة ٢١٥ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠	محمد بن الحنفية : ٣٩٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢
مسعود بن عمرو : ٣٩٤	محمد بن سمعة ٥٦ ، ٥٧
مسعود بن رخیلة : ٥٩	محمد بن طلحة : ٣٣١ ، ٣٣٧ ، ٣٥٠
مسعر بن فدكى التميمي : ٣٦٠ ، ٣٦٤	محمد بن علي بن أبي طالب : ٣٢٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢
٣٦٦ ، ٣٦٩	محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري ٤٢٠
مسلم بن عقبة المری : ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦	محمد بن عوف : ٣٤٣
٤١٧ ، ٤١٩	محمد بن مروان ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤
مسلم بن عقيل : ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦	محمية بن زعيم : ٢١١
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠	المختار بن عبيد : ٣٩٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ،
مسلم بن عمرو الباهلي : ٣٩٨ ، ٤٠١ ، ٤٠٢	٤٤٤ — ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،
مسلم بن عقبة المری ٣٦٠	٤٥٥ — ٤٥٩
مسلم بن عقيل : ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤٠٦	مخزومة بن نوفل : ١٦
٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١	مذعور بن عدی المجلی : ٢٥٢
مسلم بن عوسجة الأسدي : ٣٩٦	مربع بن قيسطی : ٣٤
المسيب بن نجبة : ٤٢٨ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٨	مُرارة بن الربيع ١٢٩ ، ١٣١
٤٣٩ ، ٤٤٠	مرثد بن أبي مرثد الغنوي ٤٨
مسيمة الكذاب : ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٥٩	ابن مرجانة = عبيد الله بن زياد
١٦٠ — ١٦٢ ، ١٦٤ — ١٦٦ — ١٧٠	مردان شاه : ٢١٩
مصعب بن الزبير : ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦	مروان بن الحكم : ٣٣١ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ،
٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١	٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٥١ ، ٤٥٩
٤٦٢ ، ٤٦٥	مروان بن محمد ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٥
مصعب بن عمير : ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٢	مسافع بن عبد مناف : ٣٢

ابن أم مكتوم : ٣٣	ابن مصقلة : ٤٧٠
مكرز بن حفص : ٢٨ ، ٨٠	مصقلة العبدي : ٤٧٤
منجباب بن راشد : ١٧٠	الضارب بن يزيد العبجلي : ٢٥٢
مناذر : ٢٩٦ ، ٣٠١	معاذ بن جبل : ١٣٠ ، ٢٢٥
المنذر بن الجارود : ٣٩٤	معاوية بن أبي سفيان : ٣٢٣-٣٢٧ ، ٣٢٩
المنذر بن ساوى : ١٦٨	٣٣٠ ، ٣٥١-٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧٤
المنذر بن عمرو : ٥٣ ، ٥٤	٣٧٦-٣٧٨ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٣
المنذر بن النعمان بنز المنذر : ١٦٩	معبد بن خالد : ٤٦٤
المنصور (الخليفة) : ٤٧٧ ، ٤٧٨	معبد الخزاعي : ٤٤
المنهال (زوج مالك) : ١٥٦	معبد بن مرة العبجلي : ٢٥٢
المهاجر بن أبي أمية : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ١٧٦	معقل بن سنان الأشجعي : ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
مهران بن بهرام : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩	معقل بن قيس : ٣٨٤
٢٤٨ ، ٣٣٠	معن بن زائدة : ٤٧٧ ، ٤٧٨
مهران الرازي : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠	المثنى بن حارثة الشيباني : ١٨١ ، ٢١٥ ، ٢٣٨
مهران الهمداني : ٢٢٦	٣٤٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦
المهلب : ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٠	معن بن عدى : ١٢٨
الموبذ : ٣٠٦	معن بن يزيد بن الأخفس : ٣٥٧
موسى (عليه السلام) : ١٣ ، ٢٦ ، ١٢٥	المغيرة بن زرار : ٢٤٢ ، ٢٤٤
أبو موسى الأشعري : ١١٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧	المغيرة بن شعبة : ٨١ ، ٨٢ ، ١١٢ ، ٢٣٧
٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ -	٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٣١٣
٣٧٩ ، ٣٨٢	٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢
(ن)	المقداد بن الأسود الكندي : ٧٣
نائل (مولى عثمان) : ٢٨٢ ، ٣٥٧	المقداد بن عمرو : ١٣

هيرة بن أبي وهب : ٤٦	نائل بن جعشم الأعرجي أبو نباته : ٢٨١
الهذيل الأسدي : ٢٦٥	النجاشي : ٨٢
الهذيل بن زفر : ٤٣٤	النخيرجان : ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢٧٩
الهذيل بن عمران : ١٩٥	نرسی : ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٩
الهربذ : ٢٩٩	نصير (أبو البطل الفاتح موسى بن نصير) : ١٩٦
هرقل : ٨٩ ، ٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٨٣	النعمان بن بشير الأنصاري : ٣٥١ ، ٣٩٢ -
هرمض : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١	٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦
٢١٥ ، ٢٦٧	النعمان بن عمر بن مقرن الخراج : ٢٨٩
هرمض جاذويه : ٢١٥	النعمان بن مقرن : ٤٣ ، ١٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٠١ -
الهرمضان : ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٦ - ٢٩٨	٣٠٣ ، ٣١٢ - ٣١٩
٣٠١ - ٣٠٦ ، ٣٠٩	النعمان بن المنذر : ١١٣
الهزهاز بن عمرو العجلي : ٢٧٠	نميم بن مسعود : ٦٤ ، ٦٦ ، ١٩٦
هشام بن عامر : ٣٣٤	نميم بن مقرن : ٦٩٦ ، ٣١٣ ، ٣١٨
هلال بن أمية : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣	نوج (عليه السلام) : ٢٦
هلال التيمي : ٢٧٦ ، ٢٧٧	نوفل بن معاوية : ٩٢
هلال الهجري : ٢٣٨	(ه)
هند بنت أثاثة بن عباد : ٤٠	هارون (عليه السلام) : ١٢٥
هند بنت عتبة : ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ١٠٣	هاشم بن عتبة بن أبي وقاص : ٢٧٠ ، ٢٧٣
(و)	٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٤
وحشي (غلام جبير بن مطعم) : ٣٦ ، ٣٩	٢٩٥ ، ٣٦٠
وديمة السكبي : ١٩٨	هاني بن عروة المرادي : ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨
ورقاء بن سمي البجلي : ٣٦٩	هاني بن قيس : ٢٩٢
ورقاء بن عازب : ٤٤٣	ابن هيرة : ٤٧٧

يزيد بن أنس : ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥	وكيع بن مالك : ١٥٤ ، ١٥٣ الوليد بن عبد المطلب : ٣٦١
يعلى بن أمية : ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ يزيد بن عاصم المحاربي : ٣٧٩ يزيد بن عبد الله بن زمعة : ٤٢٠ يزيد بن عمير : ٤٤٨ يزيد بن قيس الأرحبي : ٣٥٦ يزيد مسلم بن عقبة : ٤١٥ يزيد بن معاوية بن أبي سفيان : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ — ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ يزيد بن وهب بن زمعة : ٤٢١	الوليد بن عقبة : ١٠ ، ١٩ ، ٣٩٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٥ الوليد بن عقبة : ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٣٢٩ ، ٣٥٣ الوليد بن غصين الكناني : ٤٢٧ (ي) يحنة بن روبة : ١٢٧ يحيى بن سميد : ٤٠٥ يزدجرد : ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٦٣ ، ٢٩٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ يزيد بن أرقم ٧٥

٢ - فهرس القبائل

بكي : ٨٩	(١)
بهراء : ٢٠٨ ، ٢٠٠ ، ٨٩	آل أبرهة بن الصياح : ٣٧٦
(ت)	الأنباء : ١٥٣
تغلب : ٢٩٣ ، ٢٩٢ ، ٢٢٨ ، ١٦٨ ، ١٥٣	إرم : ٤٥٦
بنو تميم : ١١٤ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢	الأزد : ٣٦١ ، ٤٤٧
٢١٩ ، ٢٣٧ ، ٢٦٨ ، ٣٦٩	أسد : ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٢٣٧
تنوخ : ٢٠٠ ، ٤٢٦	٢٦٨ ، ٢٦٩
(ث)	بنو إسرائيل : ١٣ ، ٧١ ، ٤٥٤
ثعلبة بن سعد : ١٤١	بنو الأسود بن رزق : ٩٢
ثقيف : ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤	أشجع : ٥٩
١٩ ، ٢٢٤ ، ٢٧٢ ، ٣٣٢	بنو الأصفر = الروم
(ج)	الأكسرة : ٢٩٨
جديلة : ١٥٠	الأكراد : ٢٩٧
حذام : ٨٩ ، ٢٠٠	بنو أمية : ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٥
جمق : ٤٦٣	٤٠٩ ، ٤١٢ - ٤١٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٥
جهينة : ١١٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧	الأوس : ٥٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ١١١ ، ١٤٠
(ح)	إياد : ١٥٤ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣
بنو حارثة : ٣٤ ، ٦٣	(ب)
بنو الحجاج : ١٤	بجيلة : ٢٢٦ ، ٣٦٢ ، ٤٤٧
الحورية : ٣٨٥ ، ٣٩٥	بنو بكر بن عبد مناة : ١٢ ، ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣
آل الحسين : ٤٠١	بكر بن وائل : ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٣ ، ١٨٥

٢٠٢ - ٢٠٦ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣	بنو حصن : ٣٣٧
(ز)	حمير : ١٧٥
آل الزبير : ٤٥٩ ، ٤٦٠	بنو حنظلة : ١٥٣
بنو زهرة : ٦١	بنو حنيفة : ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ - ١٦٣
(س)	١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠
السبئيون : ٣٤٩	(خ)
بنو سمد : ١١٣ ، ٢٠٠ ، ٣٣٦	خثعم : ٣٦١ ، ٣٨١ ، ٤٤٧ ، ٤٧٠ ، ٤٧٥
سمد بن تميم : ١٧٠	خزاعة : ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧
سلامان طي : ٣٧١	الخزرج : ١١١ ، ١٤٠
بنو سلمة : ١٣٠ ، ١٣١	الخوارج : ٣٧٠ ، ٣٧٣ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١
سليح : ٢٠٠	٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ - ٣٨٩
بنو سليم : ٥٤ ، ٩٩ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٠	خولان : ١٧٥
١٣١ ، ١٤٥	(د)
سليم بن منصور : ٣٧١	بنو الدليل بن بكر : ٥١
(ش)	بنو دينار : ٤٣
الشباميون : ٣٧٢	(ذ)
بنو شيبان : ١٧٢ ، ٢٣٠	ذبيان : ١٤٣ ، ١٤٤
الشيعة : ٣٦٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦	(ر)
(ض)	الراوندية : ٤٧٧
ضبة : ٢٢٦	الرباب : ١٥٣ ، ١٧٠ ، ٢٣٧
(ط)	ريمة : ٥٥ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٩
طي : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ٣٨٦	١٧٨ ، ٣٤٠ ، ٣٦٢
	الروم : ٨٩ ، ٩٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ٢٠٠

(غ)

غسان : ١٣٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٨

غطفان : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ١٤١ ، ١٤٩ ،

١٥١ ، ٢٣٦

الغوث : ١٥٠

(ف)

الفرس : ٩٠ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٨ ، ٢١٥

٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ - ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،

٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ،

٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ -

٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ - ٢٩٢ ،

٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ،

٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣١٤

بنو فزارة : ١١٤ ، ١٥١

(ق)

القارة : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١

قريش : ٧ - ١٨ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١

- ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٩

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ - ٦٧ ،

٧٨ - ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٢ - ٩٧ ، ١٠٠ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١٢٢ ، ١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٦ ، ٣٢٣ ،

٣٥٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٥ ، ٤٠٦ ، ٤١٢ ،

٤٢٦

(ع)

عاد : ٤٥٦

بنو العاص بن سعيد : ١٤

بنو أبي العاص : ٤٦٥

بنو عامر : ٥٤ ، ٥٦ ، ١٦٢

بنو عبد الدار : ٣٥

بنو عذرة : ٩٠ ، ٢٠٠

عبد القيس : ٤٥ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧١ ،

٢٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩

بنو عبد المطلب : ١١ ، ١١٣

بنو عبد مناة : ٣٢

عبد مناف : ٩٨ ، ٣٣٢

عبس : ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٣٢٦

بنو عبيد : ١٩٥

عدنان : ٤٦٤

بنو عدى : ٨٢ ، ٩٨

عضل : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٦١ ، ١٧٥ ، ٤٠٦

عمرو بن حنظلة : ١٧٠

عك : ١٧٥

بنو العم بن مالك : ٢٩٦ ، ٢٩٧

بنو عمرو : ١٥٣

علس : ١٧٢

بنو مرة : ١٤١ ، ٥٩	٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١
مزينة : ٩٩	٤٦٠ ، ٤٦٢
المسودة : ٤٧٧	بنو قريظة : ٥٧ ، ٦٤ ، ٦٦ - ٧١
بنو المصطلق : ٧٧ ، ٧٥	قضاة : ١٤٥ ، ١٦١ ، ٢٠١ ، ٤٦٣
مضر : ٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٨ ، ٣٦٢ ، ٤٣٤	بنو قيس بن ثعلبة : ١٧١ ، ٢٣٦ ، ٤٠٠ ، ٤٤١
٤٨٨ ، ٤٦٣ ، ٤٤٧	(ك)
آل معاوية : ٣٧٦	بنو كثير : ٤٢٧
معد : ٢٦٥	آل كسرى : ٣١٩
مقاعس : ١٥٣	كعب : ١٠٥
(ن)	كلاب : ١٠٥
بنو ناج : ٤٦٤	بنو كلب : ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
الناعطيون : ٣٧٣	كنانة : ١٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤٧ ، ٦٠ ، ٦٢
بنو النضير : ٥٦	٩٥ ، ١١٢ ، ١٤١ ، ١٥٦
النمر : ٢٩٣ ، ٢٩٢	كندة : ١٢٧ ، ١٤٥ ، ٣٩٩
(هـ)	(ل)
بنو هاشم : ٢٢	لحم : ٢٠٠ ، ٣٦٢
هذيل : ٤٨	(م)
بنو هصيص : ٢٧	بنو مازن : ١٨٩ ، ٣٣٧
همدان : ٢٣٠ ، ٢٧٩ ، ٤٦٣	بنو مالك : ١٠٩
هوازن : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨	بنو مالك بن حنظلة : ١٥٤
٢٣٤ ، ١٤٥ ، ١١٤ ، ١١٣ ، ١٠٩ ، ١٠٨	بنو مالك بن كنانة : ٣٢
بنو يربوع : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥	مخزوم : ٢٧
اليهود : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٨	مذحج : ١٧٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٨ ، ٤٦٣
	مراد : ٢٧٩

٣ - فهرس الأماكن

أوطاس : ١١٠ ، ١٠٤	(١)
آليس : ١٨٨ ، ١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٨٥	الأبرق : ١٤١
(ب)	الأبطح (مسيل وادي مكة) : ١٠
بابل : ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ٢١٥	الأبلّة : ١٨٠ ، ١٧٨ ، ١٢٧
باندوريا : ٢٣١	أحد (جبل) : ٤٦ ، ٤٣ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ٦٠
باروسما : ١٩١	أذربيجان : ٤٦٠ ، ٣٥١
بانقيا : ١٩١	أذرح : ١٢٧
البحرين : ١٤٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ٢٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٠٠	أربك : ٣٠٢
بدر : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٦ ، ٢٠	الأردن : ٢٠١
٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٩٧	أرباث : ٢٧٤
١٠٣ ، ١٢٩	أرمينية : ٤٦٩
برس : ٢٨٠ ، ٢٤٩	أصبهان : ٣٠٦
برك الغداد : ١٣	إصطخر : ٣٠٦ ، ٣٠٠ ، ٢٢٩
البراخة : ١٥٤ ، ١٥٠ ، ١٤٩	الأعوص : ٢٣٦
البصرة : ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٩٦ - ٣٠٣	أمينشيا : ١٨٨
٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ -	الأنبار : ١٩٨ ، ١٩٥ ، ١٩٣
٣٣٥ ، ٣٣٨ - ٣٤١ ، ٣٤٦ - ٣٥١	الأنسر : ١٥٠
٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ،	الأنواز : ٢٨١ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ،
٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤	٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ١٣

(ج)	٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ،
جبان : ١٨٥ ، ١٨٦	٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨
الجاية : ٤٢٥	بصري : ٢١٨ ، ٨٨
جبانة السبيع : ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٨	البيقع : ٥٢
الجحفة : ١٦	البلقاء : ٩٠ ، ١٢٣
جرباء : ١٢٧	بنات تلّ : ٤٤٢
الجزيرة : ٤٥١ ، ٤٦٠	بهر مسير : ٢٨٣ - ٢٨٥ ، ٢٨٦
الجمرة : ١١١ ، ١١٣ ، ١١٤	البويّب : ٢٢٦ ، ٢٣٠
جلولاء : ٢٩٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٦	بئر معونة : ٥٣
جؤاثا : ١٦٩	(ت)
(ح)	تبوك : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٤٢٥
الحبشة : ٣٢ ، ٣١١	تستر : ٣٠٢ ، ٣٠٧
الحجاز : ٨ ، ٩ ، ١٧٧ ، ٢١٧ ، ٣٩١ ،	تسكريت : ٢٩٢ ، ٤٤١
٤٠٤ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،	التنعيم : ٤٩ ، ٥١
٤٥٥ ، ٤٥٩	تهامة : ١١٤ ، ٢٠٠
الحديبية : ٧٩ ، ٩٢ ، ٣٦٧	تهامة اليمن : ١٤٥
الحرة : ٤١٦ ، ٤١٧	تيرى (نهر) : ٢٩٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠١
حرة بني حارثة : ٣٤	تياء : ١٩٩ ، ٢٠٠
حروراء : ٣٧٣ ، ٤٥٧	(ث)
حسا : ١٤٢	الثني : ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣
حضر موت : ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٩٩	ثنية المرار : ٧٩
الحضوض : ٢٤٠	ثنية الوداع : ٤١٢

دجلة (نهر) : ٢٨٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨١ ،	الحضير : ١٧٩
٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ،	حلوان : ٣٠٦
٢٩٣ ، ٣٠١	حمام أعين : ٤٤٤
دجيل : ٢٩٦	حمراء الأسد : ٤٤ ، ٤٥
دستميسان : ٢٩٦	حصص : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٤ ،
دلت : ٢٩٦	٤٢٦
دمشق : ٢٠٢ ، ٢٧٠ ، ٣٢٧ ، ٣٦٠ ، ٤٢٤	حنين : ١١١ ، ١١٤
الدهناء : ١٧٠	وادي حنين : ١٠٧
دومة الجندل : ١٢٧ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٦٩ ،	الحيرة : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،
٣٧٥	٢٠٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ،
دير أبي موسى : ٤٤٢	٢٤٩ ، ٢٤٧
(ذ)	(خ)
ذات عرق : ٣٣١	الحازر (نهر) : ٤٥٥
الذفران (وادي) : ١٣ ، ١٤	خفان : ٢١٩ ، ٢٥٠
ذو الحليفة : ٨٦	الخليفة : ٩٦
ذو طوى : ٧٨ ، ١٠٠	الخنديق : ٥٤
ذو قار : ٢٣١ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦	الخدملة (جبل) : ١٠١
ذو القصة : ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤	الخورنق : ١٨٩ ، ٢٤٠ ، ٤٦٢
ذو المروة : ٢٠٣	خير : ٥٨ ، ١٣٤
(ر)	(د)
رامهرمز : ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦	دارين : ١٧٢
الربذة : ١٤١ ، ١٤٤ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣	دبا : ١٤٥

(ش)

الشام : ٩ ، ٥٨ ، ٨٧ — ٩٠ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ،

١٤٥ ، ١٥٢ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٥ ،

٢١٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٣١٠ ، ٣١١ ،

٣٢٢ ، ٣٢٤ — ٣٢٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،

٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٥٩ —

٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٣ ،

٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ،

٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤١٨ — ٤٢٢ ، ٤٢٤ ،

٤٢٩ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤ ،

٤٤٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٩

٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٥ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤

شراف : ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٧ ،

الشوٲط (حائط عند جبل احد) : ٣٣

(ص)

صرار : ٢٣٢ ، ٢٣٦

الصفاء : ١٠٣

الصفراء : ١٣

صنعاء : ١٧٣ ، ١٧٥

صفين : ٣٥٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨١ ،

٣٨٧

الرجيع : ٤٨

الروحاء : ٢٥ ، ٤٤

(ز)

زبالة : ٣٢٥

زرود : ٢٣٦

(س)

ساباط : ١٩٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٨٣ ، ٤٤٦

السنحة : ٣٢ ، ٦٣ ، ٤٥٧

سرف : ٣٢٨

سفوان : ٧

السقاطبة : ٢٢٠ ، ٢٢٢

سقيفة بني ساعدة : ١٣٥ ، ١٣٧

سلع : ٥٩ ، ٦٣

سمراء : ١٤١ ، ١٤٨

السنح : ١٤٩

السند : ١٧٨

السهل : ٢٩٤

السواد : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٤١ ،

٢٩٨ ، ٢٥٠

السوس : ٣٠٦

سوى : ٢٠٦ ، ٢٠٨

السيروان : ٢٩٤

عماس : ٢٧٤	(ض)
عمان : ١٤٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٠	ضجنان (جبل) : ٥١
عين التمر : ١٩٥ ، ١٩٧	(ط)
عين الوردة : ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١	طاوس : ٢٩٩ ، ٣٠٠
(غ)	الطائف : ٧ ، ١٠٩ ، ١١١ - ١١٤ ، ١١٦
الغريتان : ١٨٩	الطف : ٤٣٨
(ف)	طيبة : ١٤١
فارس : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ٣١٥	(ظ)
٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ - ٢٢٩	الظهر : ٣٧٢
٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢	(ع)
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥	العتيق : ٢٠٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤
٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧	العتيق (نهر) : ٢٥٠
٢٧٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧	المراق : ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧
٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨	٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩
٢٩٩ ، ٣٠٠ - ٣٩٢ ، ٣٠٧ - ٣٩٩	٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦١ -
٣١٣ ، ٣١٨	٣٦٥ ، ٣٧٥ ، ٤٠٣ - ٤٠٥ ، ٤٢٣ ، ٤٤٠ ،
فارع (حصن) : ٦٤	٤٥١ ، ٤٥٩ - ٤٦٢ ، ٤٦٥ - ٤٦٨ ، ٤٧١ ،
الفرات (نهر) : ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٨	٤٧٣ ، ٤٧٤
١٩٢ ، ٢٠١ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢	عسفان : ٧٨ ، ٩٤
٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٥ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣	العشيرة (بطن ينبع) : ٧
٤٢٤ ، ٤٥٤	العقبة : ١٢٩
(ق)	عقرباء : ١٦١
القصر الأبيض : ١٨٩	عكاظ : ٤٥

الكناسة : ٤٥٨ ، ٤٤٧	قصر ابن بقليلة : ١٨٩
كوثي : ٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨١	قصر المدسّيين : ١٨٩
الكوفة : ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١	قصر بني مازن : ١٨٩
٣٠٤ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤	القادسية : ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١
٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠	٢٤٦ — ٢٤٨ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠
٣٤١ ، ٣٤٣ — ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١	٢٧٨ ، ٢٧٣ — ٢٨٠ ، ٢٨٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٩
٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨	أبو قبيلس (جبل) : ١٠٠ ، ١٠١
٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٨	قراقر : ٢٠٨ ، ٢٠٦
٣٨١ — ٣٨٤ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ — ٣٩٦	قرقيسياء : ٢٩٥ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٤٠ ، ٤٥١
٣٩٩ ، ٤٠٢ — ٤٠٧ ، ٤١٧ ، ٤٢٤	قس الناطف : ١٩١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٦
٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ — ٤٤٢ ، ٤٤٥	القمطل : ٢٠٠
٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ — ٤٥٢	القطيف : ١٦٩
الكوفة : ٤٥٢ — ٤٥٥ ، ٤٥٧ ، ٤٦٠	الغليب : ١٧ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٧
٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤	قنسرين : ٤٢٤ ، ٤٢٦
(م)	(ك)
مآب : ٨٩	كاظمة : ١٧٩
ماسبدان : ٢٩٤	كربلاء : ٤٠٧
الدائن : ١٨١ ، ٢١٦ ، ٢٢٢ ، ٢٤٠	كداء (جبل) : ١٠٠
٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣	كدى (جبل) : ١٠١
٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨١ ، ٢٧٩	كراع الغميم : ٧٨
٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣١٥	كسكر : ١٨٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣١٢
٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٨٩ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠	الكمبة : ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٧٦

المدينة: ٧، ٨، ١٥، ١٨، ٢٥، ٢٩،	المشارف: ٩٠،
٣٢، ٣٣، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥،	مصر: ٣٢٥، ٣٤٢،
٤٦، ٥٠، ٥٢ - ٥٤، ٥٦، ٦٢،	المصينخ: ١٧٧،
٦٣، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧٢، ٧٤ -	ممان: ٨٩،
٧٨، ٨٥، ٨٧، ٩١، ٩٣، ٩٤،	الغاث: ١٨١،
٩٧، ١٠٢ - ١٠٤، ١١٧، ١٢٥،	الغيث: ١٨١،
١٢٨ - ١٣٠، ١٣٢، ١٤١، ١٤٢ -	مكة: ٧، ٩، ١٠، ١٢، ١٥، ٢٦، ٣١،
١٤٤، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٨،	٣٩، ٤١، ٤٨ - ٥١، ٥٩، ٧٨، ٧٩،
١٦٩، ١٧٥، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣،	٨٢، ٨٤، ٨٥، ٨٧، ٩٣، ٩٤، ٩٦،
٢١١، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٥، ٢٣٠،	٩٧، ١٠٠، ١٠١، ١٠٤، ١٠٧، ١١٦،
٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٧٨، ٢٨٥،	١١٢، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٢٣، ٣٢٦،
٣٠٣ - ٣٠٥، ٣١٢، ٣٢٢، ٣٢٣،	٣٢٩ - ٣٣٢، ٣٤٩، ٣٧٨، ٣٨٢،
٣٢٥ - ٣٣٠، ٣٣٥، ٣٣٧ - ٣٤٣،	٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٢،
٣٤٥، ٣٥٠، ٣٨٨، ٣٩٠ - ٣٩٢،	٤١٧، ٤٢٢، ٤٢٣،
٤٠٢، ٤٠٧، ٤٠٩ - ٤١٣، ٤١٥ -	مهرة: ١٣٥، ١٦٠، ١٧٦،
٤١٨، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٣٠،	الموصل: ٢٩٣، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٦٠، ٤٧٤،
المذار: ١٨١، ١٨٢، ٤٥٦،	مؤتة: ٨٨، ٩٠،
المربد: ٣٢٥،	ميسان: ٢٤٢، ٢٩٦، ٣٠١،
مرج راعط: ٤٢٢، ٤٢٥،	(ن)
مرج الصفر: ٢٠٢، ٢٠٨،	النباج: ١٧٧، ١٧٨،
مر الظهران: ٩٧،	نجد: ٥٣، ٥٥، ٦٠،
مرو: ٣٠١، ٣٠٨،	نجران: ١٧٣،
المروحة: ٢٢٥،	النجف: ١٨٩،

الواقوسة : ٢٠٢، ٢٠٤، ٢١٣	نخلة (بين مكة والطائف) : ٧، ٨، ١١٠
وردان : ٣٥٢	النخيلة : ٢٣٠، ٣٥٢، ٣٧٠، ٣٧٤
الولجة : ١٨٣، ١٨٥، ٢٤٠	نهاوند : ٢٨١، ٣٠٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٩
(ى)	النهر وان : ٣٨٥
يأجج (موضع بركة) : ٥٠	(هـ)
اليرموك : ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨	المهاشمية : ٤٧٧
٢٧٩، ٢٠٩	هجر : ١٦٩، ١٧١، ٢٣٨
اليمامة : ١٤٥، ١٥٤، ١٥٩-١٦٣، ١٦٦	همدان : ٣١٨، ٣٥١
١٧٠، ١٧٧، ١٨١، ٣٤١	الهند : ١٧٨
ينبع : ٣٢٤	هيت : ٢٩٥
الين : ١٢٧، ١٦٠، ١٦٢، ١٧٣، ٢٠٠	(و)
٢٣٦، ٣١٠، ٣١١، ٣٢٥، ٣٢٦	وادي السباع : ٣٥٠
٣٢٩، ٣٦٩، ٤٠٤، ٤٤٧، ٤٧٨	واردات : ١٤٨

٤ - فهرس الشعر

(ب)				
الصفحة	عدد الآيات	القائل	البحر	الغاية
٤٠٨	٢	...	كامل	المحجبا
(ت)				
٤٥٠	٤	سرافة	وافر	مصمات
(ح)				
٣٦٢	٣	ابن الإطنابة	وافر	المُشيج
(د)				
٨٩	٣	عبد الله بن رواحة	بسيط	الزبداء
٢٧	٦	الأسود بن المطلب	وافر	السهمود
٣٧٠	١	أخو هوازن	طويل	أرشد
٣٨٢	١	»	طويل	غدي
٢٥	٤	حسان	وافر	نجد
٣٩٧	١	عمرو بن معد يكرب	وافر	من مراد
(ر)				
٣٢٨	٦	ابن أم كلاب	مقتارب	المطر
١١٣	٢	...	بسيط	وننتظر
١٤٣	٤		طويل	لأبي بكر
٢٠٨	٥		طويل	وما ندرى
٤		متم بن نيرة	كامل	يا بن الأزور

الغاية	البحر	القائل	عدد الأبيات	الصفحة
لم يُقْبَر	وافر	...		٣٣٧
		(ض)		
الأرضي	هزج	أبو الإصبع المدواني	٦	٤٦٤
		(ع)		
فأوجما	طويل	متم بن نورية	٤	١٥٨
		(ف)		
سيوفاً	وافر	أبو محجن	٣	٢٧٢
الإنصاف	كامل	...	٤	٣٣٧، ٣٣٦
		(ق)		
طبق	بسيط	غيلان بن سلمة	٣	٤٥٩
عروقهأ	طويل	أبو محجن	٢	٢٧٢
		(ك)		
هاتكا	طويل	...	٣	٤٦٤
		(ل)		
الشكل	طويل	أخو كفانة	١	٤٣٣
مكبول	طويل	كعب بن زهير	٥٩	١٢٢-١١٧
الأيابيل	بسيط	معبد الخزاعي	٦	٤٥، ٤٤
		(م)		
واجمأ	طويل	علي بن أبي طالب	٢	٣٧٣
وأظلمأ	طويل	...	١	٣٠٨
المظالم	طويل		١	٣٢٧

الفاية	البحر	الفايل	عدد الأيات	الصفحة
		(ن)		
كان	طويل	...	٣	٤٦٣
ممدانا	بسيط	الأعور الشئى	٦	٢٣٠
المسلمينا	وافر	...	١	٥٢
أجمعينا	وافر	...	٤	١٦٩
علينا	وافر	سراقة	٩	٤٥٠، ٤٤٩
يزينها	طويل	كثير	٢	٤٦١
		(ى)		
وثاقيا	طويل	أبو محجن الثقفى	٤	٢٧١
تماديا	طويل	زفر بن الحارث	١٢	٤٢٦
مخزيبها	بسيط	حسان	٤	٤٧

٥ - فهرس الى جز

الفاية	الفائل	عدد الأبيات	الصفحة
	(ب)		
غلب	كعب بن جميل	٢	٣٦١
الحلاب	...	٣	١٩٧
واقترابها	جعفر بن أبي طالب	٥	٩٠
	(ت)		
تموتى	عبد الله بن رواحة	٤	٩١،٩٠
	(د)		
معدا	عمرو بن سالم الخزاعي	١٧	٩٣
معد	سرافقة بن مرداس	٣	٤٤٩
	(ر)		
عبد الدار	هند بنت عتبة	٣	٣٥
بدر	هند بنت عتبة	٨	٣٩
بدر	هند بنت أثانة	٩	٤٠
	(س)		
باليابس	حكيم بن جبلة	٢	٣٤٠
	(ع)		
جذع	دريد بن الصمة	٢	٣٢٥،١٠٥
	(ق)		
نفاق	هند بنت عتبة	٤	٣٥

الغافية	القاتل	عدد الآيات	الصفحة
بنات طارق	٢	٣٦
	(ل)		
جمل	سمعد بن معاذ	٢	٦٣
الجل	...	٥	٣٤٩
خليل	أبو دجانة	٤	٣٦
بولى	رفاعة بن شداد	٤	٤٤٨
	(م)		
الزام	أبو عزة الجمحي	٤	٣٢
عماما	الغابة الذبياني	٢	١٨٧
	(ن)		
لتنزيه	عبد الله بن رواحة	٦	٩٠
	(ي)		
الموالي	مكرز بن حفص	٣	٢٨
	(الألف المقصورة)		
اهتدى	٤	٢١٨
وطنى	ابن النسيل	٣	٤٢٠

٦- المراجع

- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٣٩ م
الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني : مطبعة التقدم سنة ١٣٢٣ هـ ، مطبعة دار الكتب .
تاريخ ابن الأثير ، نشرة إدارة الطباعة المنيرية سنة ١٣٤٨ هـ .
تاريخ ابن خلدون ، مطبعة بولاق سنة ١٢٤٨ هـ .
تاريخ الطبري ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٦ هـ
تاريخ أبي الفدا ، المطبعة الحسينية سنة ١٣٢٥ هـ
تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) ، مطبعة السعادة سنة ١٩٣٢ م
السيرة الحلبية (إنسان الميرون) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة دحلان (على هامش السيرة الحلبية) ، المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٢ م
سيرة ابن هشام ، مطبعة حجازي سنة ١٩٣٧ م
المقدمة لابن عبد ربه ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٧٠ هـ
الفائق للزحشرى ، مطبعة عيسى الحلبي سنة ١١٤٥ م
فتوح البلدان للبلاذري ، نشرة المكتبة التجارية .
لسان العرب لابن منظور ، مطبعة بولاق سنة ١٣٠٠ هـ
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية ، نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٢٦ م
مروج الذهب للمسمودي ، بولاق سنة ١٢٨٣
معجم البلدان لياقوت ، مطبعة السعادة سنة ١٩٠٦
معجم ما استمعج للبكري ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٤ م

